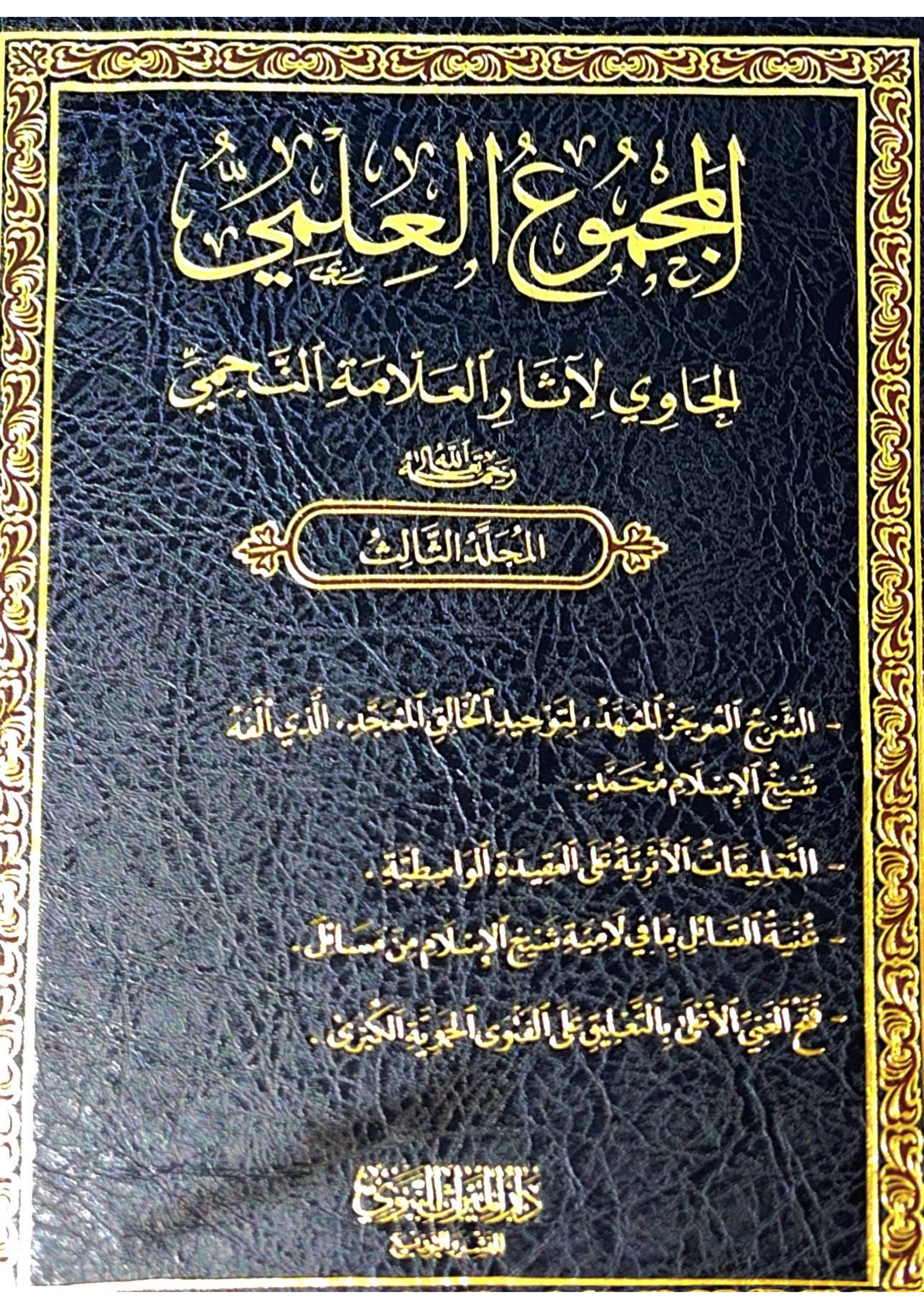
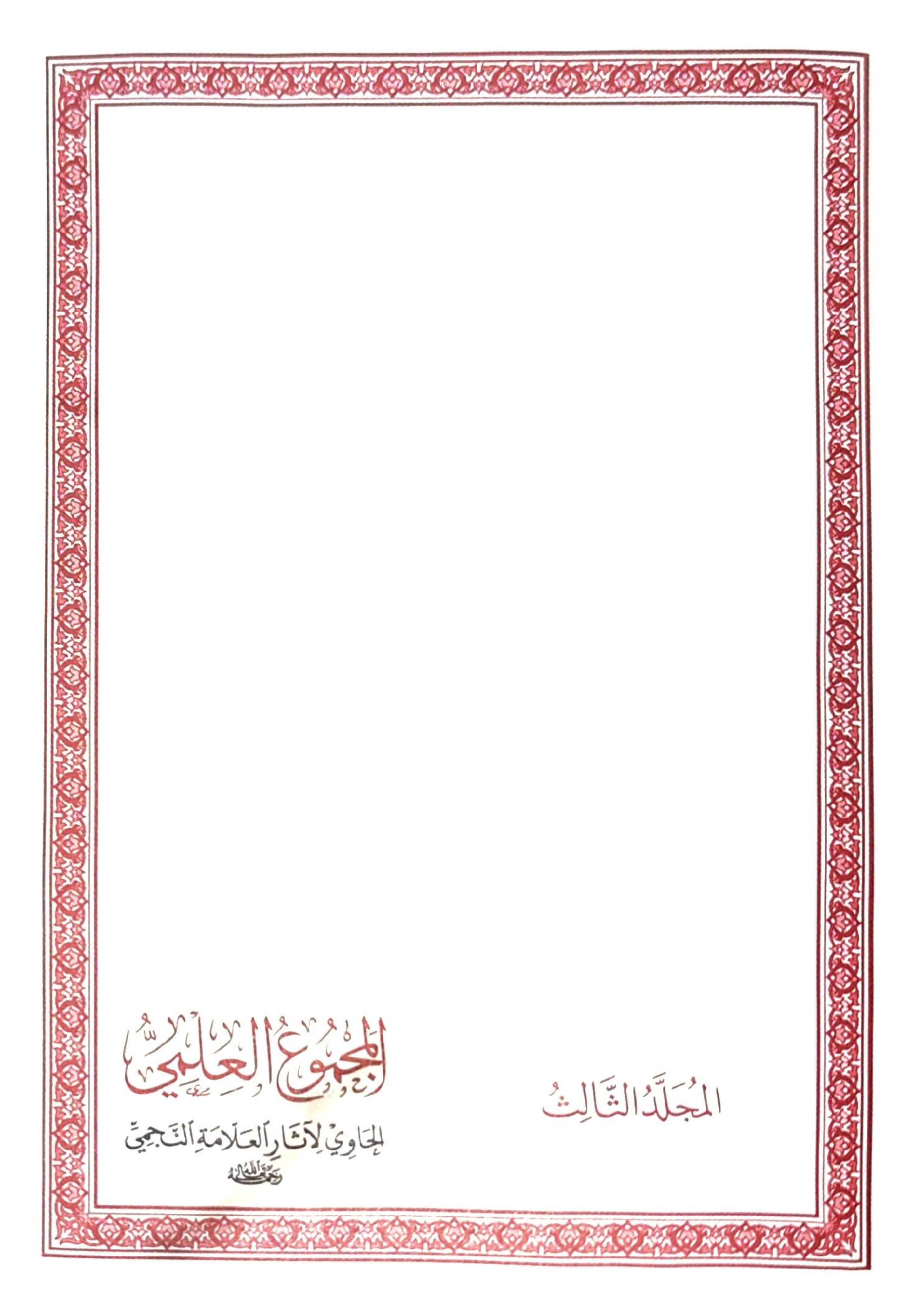

المجموع العلمي
الحاوي لآثار العلامة النجمي
رحمه الله تعالى
المجلد الثالث
- الشرح الموجز الممهد، لتوحيد الخالق الممجد، الذي ألفه شيخ الإسلام محمد.
- التعليقات الأثرية على العقيدة الواسطية.
- غنية السائل بما في لامية شيخ الإسلام من مسائل.
- فتح العلي الأعلى بالتعليق على الفتوى الحموية الكبرى.
دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع



المجموع العلمي

الحاوي لآثار العلامة النجمي

رحمه الله

المجلد الثالث

المجموع العلمي

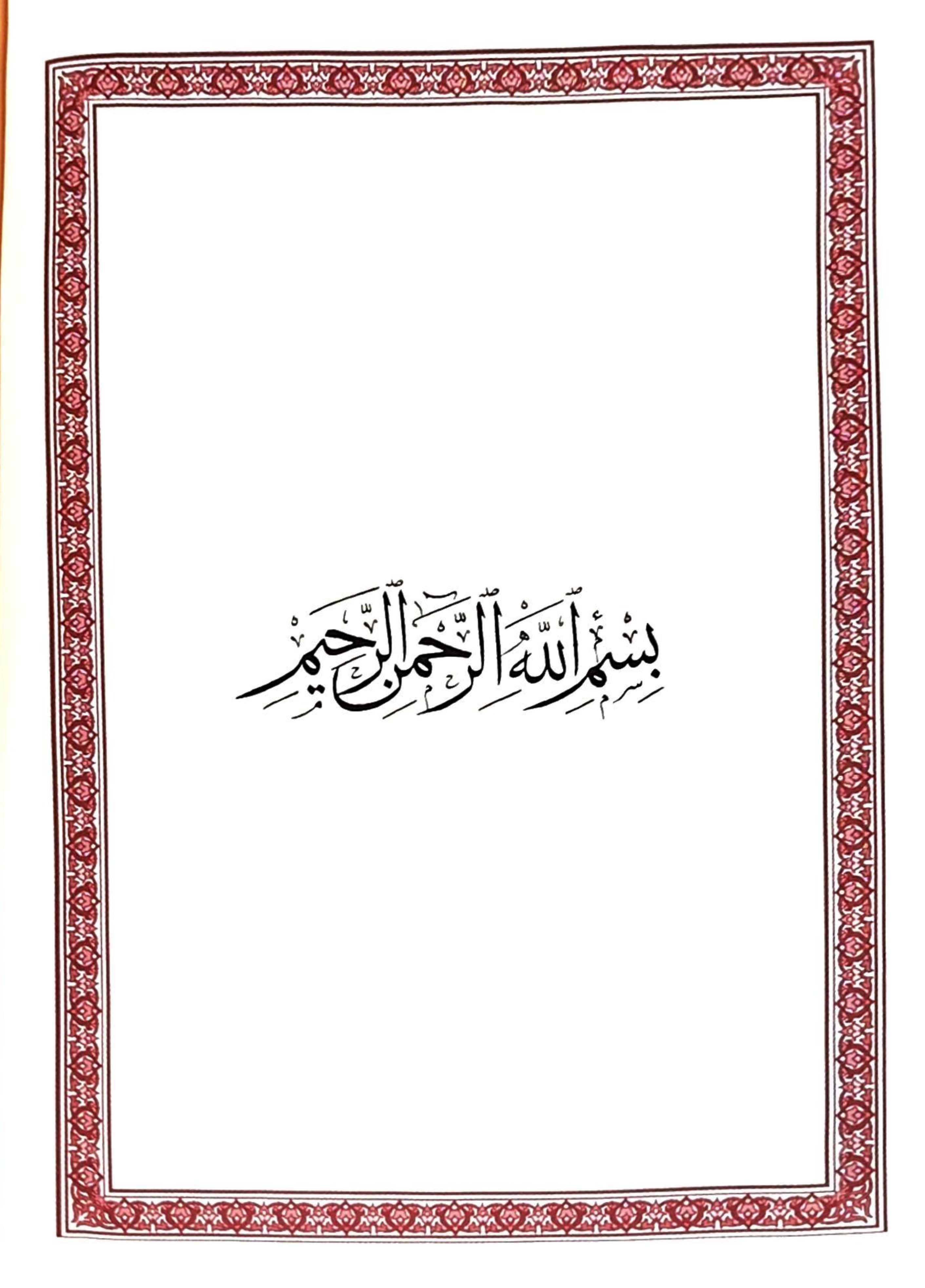
الحاوي لآثار العلامة النجمي

رحمه الله تعالى

المجلد الثالث

- الشرح الموجز الممهد، لتوحيد الخالق الممجد، الذي ألفه شيخ الإسلام محمد.
- التعليقات الأثرية على العقيدة الواسطية.
- غنية السائل بما في لامية شيخ الإسلام من مسائل.
- فتح الغني الأعلى بالتعليق على الفتوى الحموية الكبرى.

دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الشَّرح الموجز الممهَّد
لتوحيد الخالق الممجَّد
الذي ألَّفه شيخ الإسلام محمد

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

أحمد بن يحيى النجمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ التَّوحيد هو قاعدةُ الإسلام الَّتي عليها يُبنىٰ، وشرطُه الَّذي به يُقبَل، وبه تُقبل الحسنات، وبه تُغفَر السَّيِّئات، وبه يدخل العبد الجنَّة، وبه ينجو من النَّار، ومن أجلِهِ وقعت الخصومة بين الرُّسل ومُشركي العباد، ومن أجلِهِ جُرِّدت سُيُوفُ الجهادِ، ومن أجلِهِ خُلِقت الجنَّة والنَّار.

وبنقيضه وهو الشِّرك تحبط الأعمال؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

وكلُّ ذنبٍ من الذُّنوب مغفورٌ إلَّا الشِّرك؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وبالشِّرك يُحرَم العبد من الجنَّة، ويَتحتَّم عليه الخلود في النَّار.

لذلك فإنَّ العناية بالتَّوحيد أهمُّ المهمات، وأوجب الواجبات، وتركُهُ والإعراض عنه وعن تعلُّمه أعظم البليَّات، ومن أجل ذلك؛ فإنَّ الواجب علىٰ كلِّ عبدٍ أن يتعلَّمه، ويتعلَّم ما يناقضه وينافيه، أو ينقصه ويقدح فيه.

ولمَّا كان من أحسن ما أُلِّف فيه: كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام محمد ابن عبد الوَهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ الَّذي جدَّد الله به عقيدة التَّوحيد في نجدٍ في القرن الثَّاني عشر الهجري؛ وهو يحتوي علىٰ ستَّةٍ وستِّين بابًا، وَقَدْ شرح من قِبَل بعض أبنائه، وأحفاده، وتلامذته، وغيرهم.

وَقَدْ طلب منِّي بعض طُلَّاب العلم الحريصين أن أشرحه له، ولم يقنع بقراءة الشُّروح القديمة، بل أصرَّ عليَّ أن أُمْلِي عليه شرحًا من عندي، فاستعنتُ بالله تعالىٰ، وأمليتُ عليه ما حضرني فكتب، وكان يعطي بعض المشايخ الرَّاغبين في الخير، والحريصين علىٰ نشر العلم؛ ليكتبه له علىٰ (الكمبيوتر)، وحين انقطع الأوَّل لغيبةٍ طويلةٍ، واصل معي الثَّاني علىٰ الطَّريقة الأولىٰ، والحمد لله علىٰ التَّمام.

والمهمُّ أنَّه قَدْ جاء شرحًا مفيدًا مختصرًا في بابه، وافيًا بالمقصود - إن شاء الله -، وسمَّيته: «الشَّرح الموجز الممهَّد لتوحيد الخالق الممجَّد الَّذي أَلَّفه شيخ الإسلام محمَّد».

والحمد لله علىٰ ذلك، ونسأل الله أن يرزقنا الإخلاص لما نأتي ونَذَر، وصلَّىٰ الله علىٰ نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبها

أحمد بن يحيى بن محمد بن شبير النجمي

في ٢١ / ٧ / ١٤٢٥ هـ





كِتَابُ التَّوْحِيدِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآيَةَ [النحل: ٣٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآيَةَ [الإسراء: ٢٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآيَةَ [النساء: ٣٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآيَاتِ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم

بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]»[(١)].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟

فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟

قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)].

الشرح:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد:

اللَّهمَّ يا مُعلِّم إبراهيم علِّمني، ويا مُفهِّم سليمان فَهِّمني؛ اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وارزقنا العمل بما عَلَّمتنا:

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

التَّوحيد: مصدر «وحَّد يُوحِّد توحيدًا»، والمقصود به: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ أي: تخصيصُه بالعبادة وحده دون سواه، وذلك يكون نتيجة اعتقاد العبد

---

(١) أخرجه الترمذي حديث (٣٠٧٠)، وقال: «حسن غريب»، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤١٤)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٠/ ٣٠٨). وإسناده ضعيف، كما قال الألبانيُّ في «ضعيف سنن الترمذي» (ص ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

بوحدانيَّة الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته، وصفاته وأسمائه، ونُعُوت جلاله؛ المُتضمِّن لاتِّصافه بالألوهيَّة المُطلقة لهذا الكون، والتصرُّف المطلق فيه، وأنَّه هو المستحقُّ لأَنْ يُوحِّده العبادُ بأفعالهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

علمًا بأنَّ العبادة هي الحكمة الَّتي خلق الله الجنَّ والإنس من أجلها، فقال جلَّ مِن قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فالعوالم العاقلة ثلاثةٌ:

١- عالمٌ كلُّه خيرٌ لا شرَّ فيه، وهم الملائكة.

٢- وعالمٌ كلُّه شرٌّ لا خير فيه، وهم الشَّياطين.

٣- وعالمٌ جَبَله الله علىٰ الخير والشَّرِّ، والخير فيه أغلب، وعالمٌ آخر جَبَله الله علىٰ الخير والشرِّ، والشرُّ فيه أغلب.

فعالم الجنِّ والإنس هم الَّذين جَبَلهم الله علىٰ الخير والشرِّ، خلقهم لعبادته، والشَّياطين نوعٌ من الجنِّ، ولكنَّهم تمرَّدوا، وصاروا كلُّهم شرًّا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فالشَّياطين هم من جنس الجنِّ، فالله خَلَق عالَمَي الإنس والجنِّ، خلقهم للعبادة كما أخبر في هذه الآية؛ فمنهم مَنْ تحقَّقت فيه العبادة وهم المؤمنون، ومنهم مَنْ لم تتحقَّق فيه، بل كانوا مُعانِدين ومُكابِرين، وهم الكُفَّار بجميع أنواعهم، وحسبُنا أن نعلم أنَّ الله خلقنا للعبادة، وأنَّ الواجب علينا أن نُحقِّق ما خلقنا الله من أجله.

والعبادة: هي طاعةٌ مع خضوعٍ وذلَّةٍ لله الواحد القَهَّار؛ يشعر العابد بأنَّه محتاجٌ إلىٰ الإله الَّذي عَبَده، فيعبده مستشعرًا حاجته إليه، ولمَّا كانت الأمم يغلب عليها الجهل، والخمول، والنِّسيان، والاشتغال بالدُّنيا الحاضرة، والغفلة

عن الدَّار الآخرة، بعث الله الرُّسل في كلِّ أمَّةٍ ليبيِّنوا لهم ما خُلقوا له، وما أُوجدوا من أجله؛ قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه بعث الرُّسل إلىٰ العباد يأمرونهم بعبادة الله وحده، واجتناب الطَّاغوت، والطَّاغوت: هو مشتقٌّ من الطُّغيان.

وَقَدْ قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ»[1].

فمَنْ عُبِد مع الله؛ فقد عُبِدَ بغير حقٍّ، ومَنِ اتُّبع بأَنْ قَدَّم النَّاسُ متابعته علىٰ متابعة أوامر الله؛ فقد اتُّبع بغير حقٍّ، ومن أُطِيع بأن تُرِكت طاعةُ الله لطاعته؛ فقد أطيع بغير حقٍّ، وهذا هو المقصود من قول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطَّاغوت: هو ما تجاوز به العبدُ حدَّه من مَعبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ».

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. المراد بـ «قَضىٰ»: حَكَمَ، أي: حكم حكمًا شرعيًّا بألَّا يعبد النَّاس إلَّا إيَّاه. أمَّا القضاء الكونيُّ فتقع فيه المخالفة لهذا القضاء أي: للقضاء الشَّرعيِّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قضىٰ وجود الكفر والشِّرك كونًا ومنعه شرعًا، فهذا القضاء الَّذي أخبر الله عنه في هذه الآية المراد به الأمر، وهو يوافق قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ أي: بأنَّه أمر أمرًا شرعيًّا بعبادته وحده دون سواه، وهو التَّوحيد الَّذي بُعِثت به الرُّسل.

ثمَّ قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: إحسانًا إليهما؛ لأنَّهما أَحْسَنا إليك أيُّها

(١) «إعلام الموقِّعين» (١/ ٥٠ الجيل).

العبد، والكلام علىٰ برِّ الوالدين وطاعتهما يأتي بعد الأمر بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّه هو المُنْعم المُتفضِّل، وأعظمُ النَّاس عليك نعمةً بعد الله هما والداك اللَّذان ربَّياك، وأنعما عليك بالرَّاحة، والسَّكن في حضنهما، وتَعِبا من أجلك، وسَهِرا لراحتك، وفي الآية الأخرىٰ وهي آية النِّساء: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾. فهنا اقترن الأمر بالعبادة بالنَّهي عن الشِّرك حتَّىٰ ولو شيئًا يسيرًا.

فقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾. نهيٌ عن الشِّرك كلِّه؛ قليلِه وكثيرِه؛ صغيرِه وكبيرِه؛ لأَنَّه نكرةٌ في سياق النَّهي، فهي تعمُّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾، فهذه الآيات وغيرُها قَدْ تواردت علىٰ الأمر بالتَّوحيد، والنَّهي عن الشِّرك، وهذا هو ما بُعِثت به جميعُ الرُّسل من أوَّلهم نوح إلىٰ آخرهم محمَّدٍ ﷺ، فالمناهي العشرُ الَّتي وردت في آخر سورة (الأنعام) أوَّلُها الشِّرك بالله، والشِّرك عظيمٌ؛ لأَنَّه مُحرِّمٌ علىٰ صاحبه دخولُ الجنَّة، ومحتِّمٌ عليه دخولُ النَّار والخلودُ فيها.

أمَّا قولُ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ، فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

فأخبر أنَّ تلك الوصيَّة الَّتي أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يتلوها علىٰ أُمَّته، المبتدأة بالنَّهي عن الشِّرك، والمنتهية بالاستقامة علىٰ الصِّراط المستقيم، يجب أن نُعِيرها اهتمامًا عظيمًا، ونعرفها حقَّ المعرفة؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ صدَّرها بقوله: قل يا محمد: ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فذكر المناهي العشر،

وأوَّلُها وأعظمُها: الشِّرك بالله.

أمَّا حديث معاذ بن جبلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟

فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

الخلاصة: أنَّ حقَّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ يُفْرِدوه بالعبادة، ويَبْتعدوا عن الشِّرك به، ثمَّ إذا هم حقَّقوا هذا الأمر، وتركوا الشِّرك صغيرَه وكبيرَه، فإنَّ حقَّهم عليه سبحانه ألَّا يعذِّبهم، فمَنْ مات وهو لا يشرك بالله شيئًا فقد وعده الله بأنَّه لا يُعذِّبه أي: لا يُعذِّبه بنار الكُفَّار والمشركين الَّتي يخلِّد أصحابها فيها.

أمَّا إنْ مات علىٰ التَّوحيد، ولكن عنده كبائر اقتضت حكمة الله أن يُعذِّب بها، فإنَّه يُعذَّب بنارٍ غير نار المشركين؛ بل يُعذَّب بنار الموحِّدين، ثمَّ يخرج منها، ويدخل الجنَّة، والأمر في ذلك إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المالك للعباد، والمُتصرِّف فيهم، علمًا بأنَّ هذا الحقَّ الَّذي وعد الله به عباده إن هم عبدوه هو حقٌّ التزمه علىٰ نفسه، ووعد به عباده، ولم يُلزمه به أحدٌ سواه، ولذلك نقول: إنَّ هذا الحقَّ حقٌّ أوجبه الله علىٰ نفسه هو، ولم يوجبه عليه غيرُه، ووعد به عبادَه إنْ هم عبدوه ووَحَّدوه دون سواه.

وبالله التَّوفيق.

بَابُ
فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الآيَة [الأنعام: ٨٢].

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أَخْرَجَاهُ[(١)].

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[(٢)].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا.

قَالَ: يَا مُوسَىٰ، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي - وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٣٥)، ومسلمٌ (٢٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٢٥)، ومسلمٌ (٣٣) من حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النَّسائيُّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (٨٣٤) و(١١٤١)، وأبو يعلىٰ الموصلي في «المسند» =

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

الشرح:

للتَّوحيد فضلٌ عظيمٌ:

مِن فضلِه: أنَّه لا يُقبَل عملٌ إلَّا به، ولا يكون العبد مؤمنًا إلَّا به.

ومِن فضلِه: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُكفِّر الذُّنوب لمَنْ تجنَّب الشِّرك بالله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ومن فضائلِه: أنَّه هو الَّذي يحصل به الأمن للعبد يوم القيامة.

ومن فضائلِه: أنَّ الله يهدي أصحابه إلىٰ الحقِّ ومعرفةِ طريق الهدىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ثمَّ أورد الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

هذه الآية فيها الإخبار بأنَّ أهل التَّوحيد الَّذين حقَّقوه، ولم يخلطوه بشركٍ هم الَّذين يجمع الله لهم بين الأمن من مخاوف الدُّنيا والآخرة، والاهتداء للحقِّ.

وكلَّما كان العبد مُحقِّقًا لذلك - كان أوفر للأمن والاهتداء بسبب تحقيقه

=

(٢/ ٥٢٨)، وابنُ حبَّان في «الصحيح» (٦١٨٥ باوزير)، والطبرانيُّ في «الدعاء» (ص ٤٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٧)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٥١)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (٥/ ٥٤)، من طريق درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري. وصحَّح إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٠٨)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٨٨ - البغية): «رجاله وُثِّقُوا، وفيهم ضعف». وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٤٦٠) (٩٢٣).

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٢٧).

للتَّوحيد، وتَجنُّبه للشِّرك كلِّه؛ كبيره وصغيره، فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه فسَّر الظُّلم هنا بما جاء في آية لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: ١٣].

إذًا، فالظُّلم المقصود به هنا هو الشِّرك، وليس المعاصي، فالكلُّ للكلِّ، والحصَّة للحصَّة، فإذا نقص توحيد العبد بتعاطيه شيئًا من الشِّرك فإنَّه ينقص أمنه واهتداؤه.

وعن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**» أخرجاه.

عبادة بن الصَّامت الأنصاريُّ رضي الله عنه هو أحدُ النُّقباء ليلةَ العقبة، وأحدُ أصحاب رسول الله ﷺ المشهورين، وأحدُ أصحاب بدرٍ، مات بالرَّملة سنة (٣٤هـ) وله (٧٢) سنةً.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**».

يُشترط في شهادة أن «لا إله إلَّا الله» شروطٌ لابدَّ من توفُّرها فيمن ينطق بها:

١- **من شروطها:** العلمُ المُنافي للجهل، وهو مقتضىٰ العلم بها نفيًا وإثباتًا؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٢- **ومن شروطها:** اليقينُ المُنافي للشَّكِّ بألَّا يشكَّ في ذلك، أي: في وحدانيَّة الله بالألوهيَّة.

---

(١) انظر: «صحيح البخاريِّ» (٣٣٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٢٤).

٣- **ومن شروطها**: القبولُ المُنافي للرَّدِّ بأن يكون قابلًا لمعناها، وما تقتضيه.

٤- **ومن شروطها**: الانقيادُ المُنافي للتَّرك بأن يكون مُنقادًا لما تقتضيه.

٥- **ومن شروطها**: الإخلاص المُنافي للشِّرك.

٦- **ومن شروطها**: الحبُّ المُنافي للبغض.

٧- **ومن شروطها**: الصِّدق المُنافي للكذب.

إذًا، يُشترط في قائلها أن تتوفَّر فيه هذه الشُّروط بأن يكون علىٰ علمٍ بما تقتضيه، وهي تقتضي وحدانيَّة الله بالألوهيَّة، وأنَّه لا يشاركه فيها أحدٌ، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

فمَنْ نطق بهذه الشَّهادة عارفًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها، نافيًا لما نفت، مُثبتًا لما أثبتت؛ مُؤكِّدًا وحدانيَّة الله، وعدم الشَّريك له بقوله: «**وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**».

ونطق بشهادة أنَّ محمَّدًا رسولُ الله؛ مُوقنًا بأنَّ محمَّدًا عبدُ الله ورسولُه، لا يقبل الله من أحدٍ دينًا ولا عبادةً لم تكن من طريقه صلوات الله وسلامه عليه، فمَنْ نطق بهاتين الشَّهادتين علىٰ نحو ما ذكر، فذلك هو النَّاجي من عذاب الله، الحاصل علىٰ ثوابه وجنَّته.

ومن مُكمِّلات هذا الاعتقاد: «**وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**». وتلك الكلمة هي قولُه تعالىٰ لعيسىٰ: ﴿كُن﴾، كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وبهذه الشَّهادة تُنفَىٰ عقيدة النَّصارىٰ فيه الَّتي هي عقيدة البُنُوَّة، والتَّثليث

حيث اعتقدوا في عيسىٰ أنَّه الله، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثة، فغلوا فيه، ووضعوه في غير موضعه، وتُنفَىٰ بذلك أيضًا عقيدةُ اليهود الَّذين زعموا أنَّه ولد زنا - وعلىٰ الجميع من اليهود والنَّصارىٰ عليهم من الله ما يَستحقُّون من الغضب والمقت، والمسلم يبرأ إلىٰ الله من هذه العقائد، ويعترف بعقيدة التَّوحيد لله، وبأنَّه ليس له ولدٌ ولا صاحبةٌ، وأنَّ الجنَّة حقٌّ؛ وهي جزاء المُوحِّدين المُتَّقين، والنَّار حقٌّ؛ وهي جزاءٌ للمشركين الكافرين؛ مَنِ اعتقد هذه العقيدة عاش بخيرٍ، ومات بخيرٍ، وأدخله الله الجنَّة علىٰ ما كان منه من العمل، علمًا بأنَّ شهادة أن لا إله إلَّا الله لا تُقبَل إلَّا بالكفر بالطَّاغوت، والإيمان بالله.

معنىٰ قوله ﷺ: «أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»؛ أي: أنَّه سيكون مآلُه إلىٰ الجنَّة؛ سواءٌ كان قبل عذابٍ أو بعد عذابٍ، المهمُّ أنَّ نهايته - أي نهاية مَنْ يموت علىٰ التَّوحيد والإيمان - تكون إلىٰ الجنَّة، وهو تحت المشيئة، فإن مات مُصرًّا علىٰ الكبائر فأمرُهُ إلىٰ الله؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عذَّبه بقدر ما يستحقُّ من العذاب، ثُمَّ أخرجه من النَّار، وأدخله الجنَّة؛ أمَّا إذا مات ولم يكن عنده كبائر مُصرًّا عليها حتَّىٰ ولو كان قَدْ تعاطىٰ شيئًا من الكبائر، ثمَّ تاب ومات علىٰ التَّوبة، فإنَّه يُرجَىٰ له أن يدخله الله الجنَّة بدون عذابٍ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

قوله: (**ولهما في حديثِ عِتْبانَ** رضي الله عنه: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»). علىٰ أنَّ المراد بالنَّار هنا نارُ الكُفَّار الَّتي يخلَّد مَنْ دخلها فلا يخرج منها أبدًا، وإمَّا أن يحمل قوله: «**حَرُمَ عَلَىٰ النَّار**»؛ أي: حرُم علىٰ قائل ذلك الخلودُ في النَّار، وأنَّ كلَّ مُوحِّدٍ نهايتُه الجنَّة.

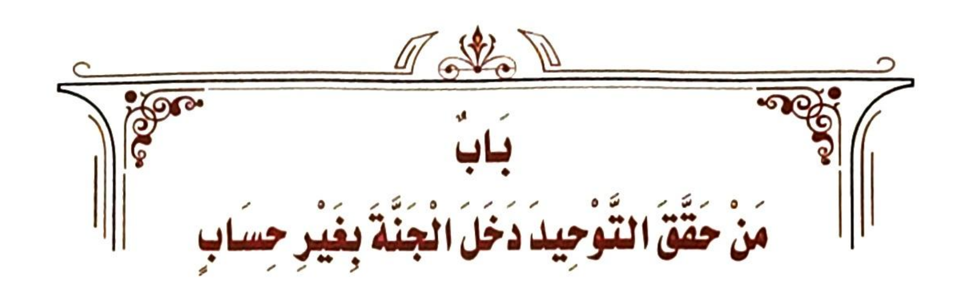
قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ... »). الحديث.

يُؤخَذ من هذا عِظَمُ كلمة التَّوحيد، وأنَّها تعدل كلَّ الأجرام العظام؛ وهي السَّموات السَّبع، والأرضين السَّبع، ومَنْ فيهنَّ، وما بينهما؛ تعدلها في الوزن، بل وتزيد عليها، وما ذلك إلَّا لعظمة مَنْ شهد له بوحدانيَّة الأُلوهيَّة جلَّ وعزَّ من إلهٍ.

قوله: (وَلِلتِّرْمِذِيِّ، وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»). قُراب الأرض؛ أي: ما يقارب مِلأَها، وهذا الحديث يتضمَّن أنَّ مَنْ لقي الله عَزَّ وَجَلَّ بالتَّوحيد؛ فإنَّه يرجو من الله عَزَّ وَجَلَّ المغفرة.

وبالله التَّوفيق.





بَابٌ
مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ.

قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**».

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ.

فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**».

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[1]؛ يعني: يدخلها قبل أن يُحاسب.

الشرح:

قوله: بَابُ مَن حَقَّقَ التَّوحيد دَخَلَ الجنَّة بِغَيرِ حِسَابٍ، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أقول: تحقيق التَّوحيد قَدْ يستدلُّ له من قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ يعني: لم يَخْلِطُوه بشركٍ، والَّذي لم يخلط إيمانَه بشركٍ؛ لا صغيرٍ ولا كبيرٍ، هذا يُرجَىٰ أنَّه حقَّق التَّوحيد، فإذا كان حقَّق التَّوحيد فإنَّ له الأمن المطلق، والهداية المطلقة، يعني أنَّ مَنْ حقَّق التَّوحيد ينال الدَّرجة العليا في الأمن والاهتداء.

فيُؤخذ من تلك الآية الَّتي سبقت في فضل التَّوحيد دليلٌ في هذا الباب، فيقال: إنَّ مَنْ حقَّقَ التَّوحيد بحيث إنَّه لم يخلط إيمانه بشركٍ؛ فإنَّه يدخل الجنَّة بغير حسابٍ، ومَنْ خلط إيمانه بشركٍ أصغر، أو نوعٍ من المعاصي الكبائر، أو من البدع غير المُكفِّرة؛ فهو تحت المشيئة.

استدلال المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٧٥٢)، ومسلمٌ (٢٢٠) واللَّفظ له.

ما معنىٰ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾؟ أي: خاضعًا لله، ﴿حَنِيفًا﴾: مائلًا عن الشِّرك إلىٰ التَّوحيد، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ باعتبار أنَّ إبراهيم قَدْ مدحه الله بأنَّه وفَّىٰ ما أمره به ربُّه حيث يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النَّجم: ٣٧]، ويقول: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. فأعطاه حقَّ الإمامة، وهذا دليلٌ علىٰ إمامة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن هنا يُؤخَذ أنَّ إبراهيم قَدْ وفَّىٰ ما أُمِر به، وخاف علىٰ نفسه، وعلىٰ بَنِيه من الشِّرك، فلذلك جعله الله إمامًا في التَّوحيد وغيره، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

ثمَّ أورد الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

هذا وصفٌ للمؤمنين الكُمَّل القائمين بحقِّ التَّوحيد خيرَ قيامٍ، فهؤلاء هم النَّماذج العليا الَّذين حقَّقوا التَّوحيد، فتبوَّؤوا أعلىٰ المقامات عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ أورد الحديث: عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ...» الحديث.

قوله: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟». انقضاضُ الكوكب: الرَّميُ به وإنارتُه.

قوله: «فَقُلْتُ: أَنَا» ولكنَّه خاف علىٰ نفسه من الرِّياء، فقال: **«أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ»** أي: ولكن الَّذي أسهرني هو أنِّي لُدغت، فأخبر بالواقع دفعًا للرِّياء. فقال له سعيد بنُ جبيرٍ: **«فَمَا صَنَعْتَ؟»** قال: **«ارْتَقَيْتُ»** يعني: ماذا فعلت بعد أن لُدغتَ؟ قال: **«ارْتَقَيْتُ»** يعني: أنِّي رَقيتُ نفسي. قال:

«مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟» فيه أنَّ السَّلف - رحمهم الله تعالىٰ - كانوا إذا فعل واحدٌ منهم شيئًا سأله صاحبُه عن الدَّليل، فقوله: «مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟» يعني: ما هو دليلك؟ ومَنْ هو أُسْوتك؟ «قَالَ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: لا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ».

«لا رُقْيَةَ»: نفيٌ للرُّقية الشَّرعيَّة إلَّا أن تكون من عينٍ.

والعينُ: هي عين العائن، وَقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ»[1].

«أَوْ حُمَةٍ»: لَدْغ ذوات السُّموم؛ كالحيَّة، والعقرب.

قال: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ»، يعني: أنَّ مَنِ انتهىٰ إلىٰ ما سمع، وعمل به فهو قَدْ أحسن.

قوله: (وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ...». وفيهم «الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»).

يُؤخَذ من هذا الحديث أنَّ من تحقيق التَّوحيد: ترك بعض الأسباب المُباحة، وهو الكيُّ، وطلب الرُّقية.

وأقول: الرُّقية قَدْ ورد الأمرُ بها، وتقريرُه ﷺ عليها، فهل كلُّ رُقيةٍ يكون فيها قدحٌ في التَّوحيد، أو أنَّ الَّذي يَقدح في التَّوحيد هو طلبُ الرُّقية من الغير؟! وهذا يُشْعِر به قولُه: «هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ»؛ أي: لا يطلبون الرُّقية من غيرهم.

أمَّا رواية: «لا يَرْقُونَ»[2]، فلعلَّها كانت وهمًا من الرَّاوي؛ إذ إنَّ مَنْ يرقي لغيره لا يكون فِعْله للرُّقية لغيره نقصًا في توحيده وتوكُّله[3].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجها مسلم (٢٢٠).

(٣) جاء في «فتح الباري» (١١ / ٤٠٨) ما ملخصه: «وقع في رواية سعيد بن منصور عند مسلم: «وَلا يَرْقُونَ»

أمَّا كونهم يَرْقون أنفسهم، أو يُرقَىٰ عليهم بغير طلبٍ، فهذا لا مانع منه، وليس فيه قدحٌ في كمال التَّوحيد، ولكن يَتمحَّض القدح في كمال التَّوحيد فيما إذا طلب الرُّقية من غيره.

قوله: «**وَلَا يَكْتَوُونَ**»، قَدْ ورد فِعْل الكَيِّ من النَّبيِّ ﷺ فقد كوىٰ أسعدَ بنَ زرارة رضي الله عنه[(١)].

وقال: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ؛ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءِ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»[(٢)]؛ إذًا، ففِعْل الكيِّ جائزٌ، وتَرْكه من كمال التَّوحيد.

قوله: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**»؛ أي: لا يجدون الطِّيَرة في نفوسهم، وذلك من كمال توحيدهم.

قوله: «**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»؛ أي: أنَّهم يتركون بعض الأسباب المُباحة توكُّلًا علىٰ الله، وهذا من كمال التَّوحيد. (فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»).

وَقَدْ تبيَّن من هذا الحديث أنَّ السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، إنَّما نالوا هذه الدَّرجة بكمال توحيدهم.

وبالله التَّوفيق.

=

بدل: «ولا يكتوون»، وقد أنكر الشيخ ابن تيمية هذه الرواية، وزعم أنَّها غلطٌ من راويها، واعتلَّ بأن الراقي يُحسن إلىٰ الذي يرقيه، فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟ !..... ». اهـ بتصرُّف.

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٥٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وصحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح وضعيف سنن الترمذيِّ».

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.



بَابُ
الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»(١).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(٣).

الشرح:

مناسبته للتَّرجمة: أنَّ الشِّرك لا يُغفَر - نعوذ بالله من الشِّرك -، وحقيقةُ الشِّرك أن تدعوَ لله ندًّا تعتقد فيه جلبَ النَّفع أو دفعَ الضُّرِّ، وهذا هو الشِّرك

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) (٢٣٦٨٠) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصَّحيحة» (٩٥١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٤٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٩٣).

الأكبر الَّذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ، لذلك فإنَّه يُخَاف منه ويُحذَر؛ لما له من العواقب الوخيمة السَّيِّئة.

الشِّرك الأكبر ليس فيه خلافٌ أنَّه لا يُغفَر، وأنَّ صاحبه لا يخرج من النَّار، ولكن الخلاف في الشِّرك الأصغر، فالحلف بغير الله والرِّياء العارض في العمل هل هو داخلٌ تحت الآية؟ وإنْ كان يدخل تحت هذه الآية فإنَّه يكون حكمُهُ حكم الكبائر بأنَّ صاحبه يُعاقَب، ثمَّ يخرج من النَّار، ويدخل الجنَّة، ولكنَّه يخالف الكبائر في أنَّه لا يُغفَر؛ بل لابدَّ أن يُعاقَب صاحبُه في النَّار، هذا رأيُ جماعةٍ من أهل العلم. وقال قومٌ آخرون: إنَّ الشِّرك الأصغر حكمُه حكمُ الكبائر مطلقًا، ولعلَّ حديث جابرٍ يُرجِّح الرَّأي الأوَّل، وهو أنَّ الشِّرك الأصغر لا يُغفَر، بل إنَّ الله يعاقب صاحبه، ثمَّ يخرج من النَّار ويدخل الجنَّة؛ لإطلاق قوله: «**وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**».

قولُه: (**وَقَالَ الْخَلِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾).

إذا كان إبراهيم الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذي كسَّر أصنام قومه، ورُمِيَ في النَّار بأسباب ذلك، يخاف علىٰ نفسه، وعلىٰ أبنائه من عبادة الأصنام، ويدعو الله أن يُجنِّبه ذلك، فغيرُهُ من باب أَوْلَىٰ.

وفي الحديث: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: الرِّيَاءُ**».

وأقول: إنَّ الرياء خطيرٌ، قلَّ أن يَسْلم منه العبد، وبالأخصِّ العارض في العمل.

علمًا بأنَّ الرِّياء ينقسم إلىٰ قسمين:

الأوَّل: وهو يُعَدُّ من الشِّرك الأكبر، وهو الباعث علىٰ العمل، وهو رياءُ المُنافقين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فإذا كان الرِّياء هو الباعثُ علىٰ العمل بأنَّ المُرائِي لا يعمل العمل إلَّا من أجل الرِّياء، فهذا من الشِّرك الأكبر الموجب للخلود في النَّار؛ كأن يكون شخصٌ يصلِّي إذا كان مع النَّاس، ويترك الصَّلاة إذا خلا، أو في المحلِّ الَّذي لا يراه فيه أحدٌ، فهذا هو الباعث علىٰ العمل، وهذا من الشِّرك الأكبر كما قلت.

الثَّاني: لكن إذا كان الباعث علىٰ العمل هو الإيمان، وفي أثناء العمل عرَض للإنسان حُبُّ الذِّكر أي: حُبُّ الثَّناء، كأن يقوم يصلِّي لله، فإذا كان هناك شخصٌ ينظر إليه، حَسَّن صلاته أكثر، فهذا التَّحسين في الصَّلاة يكون من الرِّياء العارض في العمل، وهذا بحسَب الحالات؛ تارةً يستمرُّ فيه صاحبُه فيحبط العمل، وتارةً يستعيذ العبدُ فيه بالله من الشَّيطان ويُخْلص نِيَّته لله، فيكون الخلل في العمل بمقدار ما فيه من قصد الرِّياء، والعياذ بالله.

ومن الشِّرك الأصغر: شركُ الإسناد الَّذي يجري علىٰ اللِّسان من غير اعتقادٍ؛ كقولهم: لولا الكلب لأتانا اللُّصوص، لولا كذا لكان كذا. وقولهم: مُطرنا بنَوْء كذا، وأنَّ هذا النَّجم جاد - من الجُود، وهو الكرم - لما أنَّه حصل فيه مطرٌ كثيرٌ، ونحو ذلك، فهذا الشِّرك الأصغر لا يُخرِج من الإسلام، ولا ينقل صاحبَه إلىٰ الكفر، لكن هل كونه مُعرَّضًا للغفران أم لا؟ هذا محلُّ نظرٍ كما سبق، ولأهل العلم فيه مذهبان كما سبق أَنْ بَيَّنتُ ذلك.

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»؛ أي: يدعو مخلوقًا جعله ندًّا لله يغفر الذُّنوب، ويُفرِّج الكُرُوب، ويُحصِّل المطلوب، فلكونه جعله مساويًا لله، لذلك استحقَّ صاحبُه أن يخلَّد في النَّار، والمشركُ حابطُ العمل، أي: أنَّ أعماله الخيِّرة كلَّها حابطةٌ، فلا

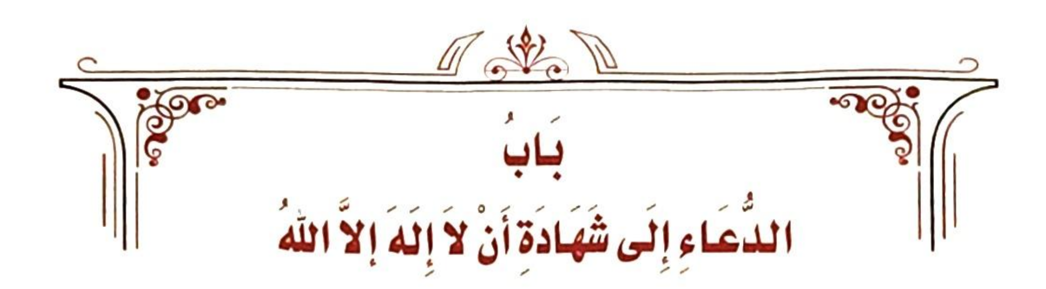
يُقبَل منه عملٌ خيريٌّ؛ لا تُقبَل منه حسنةٌ، ولا تُغفَر له سَيِّئةٌ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، وقال عن الأنبياء الَّذين ذكَرهم في سورة (الأنعام): ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام].

وَقَدْ أفاد حديثُ جابر عند مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» - أنَّ هاتين الخَصْلتين مُوجبتان؛ فمن مات لا يشرك بالله شيئًا، وجب له دخول الجنَّة؛ سواءٌ كان ذلك بدون سابقِ عذابٍ أو مع سابقِ عذابٍ. ومَنْ لقيه يشرك به شيئًا وجبت له النَّار، وكتب عليه الخلود فيها، وحَرُمَتْ عليه الجنَّة إذا كان الشِّرك أكبر؛ أمَّا الأصغر فقد سبق الكلام عليه.

ودليل الشِّرك الأكبر قولُ الله عَزَّوَجَلَّ عن عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [يوسف: ١٠٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ الْيَمَنِ، قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ[(١)]: «إِلَىٰ أَن يُوَحِّدُوا اللهَ»، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أخرجاه[(٢)].

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ».

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟».

فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ

---

(١) للبخاريِّ (٧٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ؛ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[1].

يَدُوكُونَ: يَخُوضُونَ.

الشرح:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ **لنبيِّه** ﷺ: قُل لهم يا مُحمَّد: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: هذه طريقتي، وهذا دأبي ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلىٰ توحيده جَلَّوَعَلَا بالعبادة، ونَبْذ كلِّ ما يُدعَىٰ من دونه؛ سواءً كانوا أنبياء أو صالحين، أحجارًا أو أصنامًا، أو غير ذلك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي خلقنا، وهو الَّذي يرزقنا، ويُدبِّر أمورنا، وهو الَّذي نُفوسُنا في يده، وقُلوبُنا بين أصابعه، فلا يجوز أن تُصرف العبادة لأحدٍ سواه، ولا يجوز أن يُدعَىٰ أحدٌ غيره، أو يُدعَىٰ إلىٰ عبادة غيرِه؛ كلُّ ذلك مُحرَّمٌ لا يجوز فِعْلُه.

إذًا؛ فاعلموا أيُّها النَّاس أنَّ هذا دأبي، وهذه طريقتي، أدعو إلىٰ الله ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من كتاب ربِّي، أو ما أوحاه إليَّ من السُّنَّة ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾؛ أي: اقتدىٰ بي في هذا الطَّريق.

قوله: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». وفي روايةٍ: «**إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**»). وهذه الشَّهادة هي مقتضىٰ التَّوحيد، إذ إنَّها تحتوي علىٰ نفيٍ وإثباتٍ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٢١٠)، ومسلمٌ (٢٤٠٦).

فـ «لا إله إلَّا الله» لا معبود بحقٍّ غير الله عَزَّوَجَلَّ، «إلَّا الله» تثبت العبادة لله، وأنَّه المنفرد بالأُلُوهيَّة دون سواه. وفي روايةٍ: «إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ»؛ أي: يفردوه بالعبادة «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ».

وفي روايةٍ[(١)]: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ»؛ أي: وافقوك عليه، وقَبِلوه منك، وعملوا به «فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ». وأقول: إنَّ شهادة أن «لا إله إلَّا الله» لا تُقبَل إلَّا مع قرينتها شهادة أنَّ «محمَّدًا رسول الله»، فمَنْ لم يأتِ بهما فإنَّه لا يُعدُّ مسلمًا، إلَّا إذا جمع إلىٰ وحدانيَّة الله وتفرُّده بها شهادةَ أنَّ محمَّدًا رسول الله، فإنْ هو فعل الشَّهادتين بأن اعتقدهما في قلبه ونطقهما بلسانه، فهو المُوحِّد المنقاد، ويتبع ذلك العمل بالجوارح للأعمال المقتضية لهاتين الشَّهادتين، والَّتي لا تتمُّ الشَّهادتان إلَّا بهما، ومن ذلك أداء الصَّلاة؛ لهذا قال: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ».

وأقول: الخمس الصَّلوات هي: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، وَقَدْ أمر الله بالمحافظة عليها، فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والإشارة بالوسطىٰ إلىٰ أنَّها خمسٌ، والوسطىٰ هي العصر؛ لأنَّها توسَّطت بين صلاتي الفجر والظُّهر في النَّهار، والمغرب والعشاء في اللَّيل، والأمر بهذه الخمس الصَّلوات أمرٌ بكلِّ ما يلزم لها من شرائطَ وفرائضَ وواجباتٍ.

ثمَّ قال: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ». أو: «أَطَاعُوكَ بِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ

---

(١) للبخاريِّ (١٤٩٦).

افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ»، هذه حقُّ الله في المال، كما أنَّ الصَّلاة حقُّ الله في البدن، وَقَدْ أخبرهم أنَّ هذه تُؤخَذ من أغنيائهم، وتردُّ علىٰ فقرائهم، فنَفْعُها يعود إليهم أي: إخوانهم الَّذين يعايشونهم، وذلك حقٌّ جعله الله في أموال الأغنياء ليواسىٰ به الفقراء، وفي ذلك من النَّفْع ما فيه؛ لأنَّه سببٌ في رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وثانيًا دفعٌ لشرِّ هؤلاء الفقراء حتَّىٰ لا يَتَّهموا الأغنياء بالاستئثار، وسببٌ في بركة الله عَزَّوَجَلَّ لهم في تلك الأموال الَّتي أَبْقَوها كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ثمَّ قال: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»؛ أي: لا تأخذها في الزَّكاة فتظلمهم بأَخْذِ الكرائم الَّتي هي أعلىٰ من الواجب عليهم، فلا يجوز للمُصَدِّق - أي الَّذي يأخذ الزَّكاة - أن يأخذ الكريمة، ولا يجوز للمُعطِي أن يبذل الخبيثة[1]؛ بل يجب عليهما أن يكون الأَخْذ من الوسط ما بين الكريمة والخبيثة إلَّا في حالة أن يبذل المعطي الكريمة طَوْعًا من نفسه، ومن هذا يُؤخَذ أنَّه لمَّا أمرهم بالزَّكاة أوضح لهم ما يجب أَخْذُه حتَّىٰ لا يَتعرَّضوا لدعوة المظلوم؛ لقوله ﷺ: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**».

ويُؤخَذ من هذا الحديث: البدء بالعقيدة في الدَّعوة.

ويُؤخَذ منه أيضًا: التَّدرُّج في الدَّعوة بحيث يبدأ الدَّاعي بالأهمِّ، ثمَّ ينتقل إلىٰ المهمِّ.

ويُؤخَذ منه: أنَّ الدِّين شاملٌ للحقوق البدنيَّة والماليَّة.

---

(١) يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ويُؤخَذ منه: نهي المصَدِّق عن أَخْذ الكرائم.

ويُؤخَذ منه: أنَّ زكاة كلِّ قومٍ تُوزَّع علىٰ فقرائهم.

ويُؤخَذ منه: أنَّ أموال النَّاس محترمةٌ، لا يجوز أَخْذها بغير حقٍّ.

ويُؤخَذ منه: أنَّ أَخْذ الكرائم ظلمٌ.

ويُؤخَذ منه: أنَّ دعوة المظلوم مستجابةٌ.

ويُؤخَذ منه دليلٌ علىٰ تحريم الاشتراكيَّة؛ نظرًا لأنَّ أموال النَّاس حرامٌ علىٰ بعضهم البعض؛ لقوله ﷺ في خطبة حَجَّة الوداع: «**أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟ !**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ بِيَوْمِ النَّحْرِ؟**».

قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟**».

قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ وَأَبْشَارَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتَ؟ !**».

قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلِّغٍ يُبلِّغُهُ لِمَنْ هُوَ أَوْعَىٰ مِنْهُ**». رواه البخاريُّ ومسلمٌ[1].

يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ...**» الحديث.

أوَّلًا: ترجمة الرَّاوي: سهل بنُ سعد بن مالكٍ الخزرجي الأنصاري صحابيٌّ شهيرٌ، وأبوه صحابيٌّ أيضًا، ذكر سهل أنَّه مات النَّبيُّ ﷺ وهو ابن خمس عشرة

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٠٧٨)، ومسلمٌ (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

سنةً، وهو آخر مَنْ مات بالمدينة من الصَّحابة، مات سنة (٨٨)، وقيل (٩١ هـ)، وَقَدْ جاوز المئة.

ثانيًا: يُؤخَذ من قوله: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»: ما كان من الصَّحابة - رضوان الله تعالىٰ عليهم - من المبادرة إلىٰ محبَّة الله ورسوله، والأخذ بالأسباب الَّتي تُوجِب حبَّ الله ورسوله للعبد.

ثالثًا: إنَّ الحرص علىٰ ما يوجب حبَّ الله ورسوله للعبد دليلٌ علىٰ قُوَّة الإيمان وزيادته عند مَنْ حرص علىٰ ذلك.

رابعًا: في هذا مَنْقبةٌ للصَّحابة بحرصهم علىٰ محبَّة الله ورسوله، ومَنْقبةٌ لعليِّ ابن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأنَّه كان هو المقصود.

خامسًا: يُؤخَذ من قوله: «**يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**» مَنْقبةٌ أيضًا لعليِّ بن أبي طالبٍ، وفضيلةٌ له حيث فتح الله خيبر علىٰ يديه، وكان قبل ذلك قَدْ حصل في فتحه شيءٌ من الصُّعوبة.

سادسًا: يُؤخَذ من قوله: «**فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ**»، معنىٰ «يَدُوكُونَ»: يخوضون ويتكلَّمون فيمن يتوقَّع أنَّه سيُعْطَاها.

سابعًا: يُؤخَذ منه تَسابُقُ الصَّحابة إلىٰ الخير، وحبُّهم له، وحرصهم عليه في قوله: «كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا» حتَّىٰ أُثِرَ عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ»[1].

ثامنًا: يُؤخَذ من قوله: «**فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ**» - يُؤخَذ منه معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ حيث

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥).

برأ عليٌ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الرَّمد في الحال، رغم ما يكون في الرَّمد من الصَّديد والرُّطوبة، وكلُّ شيءٍ في قدرة الله سهلٌ.

تاسعًا: في قوله: «**فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ**» يُؤخَذ من هذه مَنْقبةٌ لعليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عاشرًا: يُؤخَذ من قوله: «**انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ**» - يُؤخَذ منه الدَّعوة إلىٰ الإسلام، وأنَّ قتال النَّبيِّ ﷺ وجهاده إنَّما كان لنشر الإسلام في رُبُوع الأرض.

الحادي عشر: يُؤخَذ منه ردٌّ علىٰ مَنْ زعموا أنَّ الجهاد شُرِعَ للدَّفع، ولم يُشرَع لنشر الدَّعوة، وهذه دعوىٰ باطلةٌ مبطلةٌ؛ بل إنَّ الجهاد شُرِعَ لنشرِ الإسلام في رُبُوع الأرض، وإنقاذِ البشريَّة من عبادة العباد إلىٰ عبادة ربِّ العباد.

الثَّاني عشر: يُؤخَذ من قوله: «**فَوَاللهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**».

والنَّعَم: هي الإبل، والحُمْر منها أفضل من غيرها، وكانت أَنْفَس الأموال عند العرب.

الثَّالث عشر: يُؤخَذ من هذه الجملة: أنَّ ثواب الدَّعوة إلىٰ الله بإدخالِ رجلٍ واحدٍ في الإسلام خيرٌ من أَنْفَس الأموال وأحسنها.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ الآيَة [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾ الآيَة [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ الآيَة [التوبة: ٣١].

وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ الآيَة [البقرة: ١٦٥].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

الشرح:

يقول هنا عبد الرَّحمن بن محمد بن قاسم: «عطْف الشَّهادة علىٰ التَّوحيد من عطف الدَّالِّ علىٰ المدلول، فإنَّ التَّوحيد هو معنىٰ لا إله إلَّا الله، ومدلولها

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

مطابقة، يعني: باب إيضاح التَّوحيد (توحيد الأُلوهيَّة والعبادة)؛ لأنَّه هو المقصود بالذَّات من تصنيف الكتاب، وبيان مدلول شهادة أن «لا إله إلَّا الله» من النَّفي والإثبات، وما تَضمَّنته من إخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه، فالتَّفسير تارةً يكون بِذِكْر ما تحت اللَّفظ من معنىٰ، وتارةً بذِكْر الضِّدِّ والمنافي»[1]. انتهىٰ.

وأقول: إنَّ تفسير شهادة أن «لا إله إلَّا الله» الَّذي هو النَّفي والإثبات، وهو نفي الأُلوهيَّة عمَّا سوىٰ الله، وإثبات الأُلوهيَّة له وحده، فهذا هو ما تَضمَّنته هذه الكلمة: نفي الأُلوهيَّة عمَّا سوىٰ الله، وإثبات الأُلوهيَّة له وحده دون سواه، وهذا هو حقيقة التَّوحيد، وهو تفسيره.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾؛ أي: إنَّ أولئك المدعُوِّين الَّذين تدعونهم - أنتم أيُّها المشركون - هم كانوا يَدْعون ربَّهم، ويتسابقون إلىٰ مرضاته، كلٌّ منهم يريد أن يتقرَّب إليه بالوسيلة الَّتي شَرَعها علىٰ أَلْسِنة رسله، راجيًا من الله أن يجعله من المُقرَّبين لديه، فكيف أنتم تدعونهم الآن، وتطلبون منهم جَلْب النَّفع، ودَفْع الضُّرِّ؟ ! وكان ينبغي لكم أن تدعوا الله عَزَّوَجَلَّ الَّذي كانوا يدعونه، وتَتقرَّبوا إليه بدعوته وحده كما كانوا يَتقرَّبون إليه.

وكذلك هؤلاء المدعوُّون عاجزون عن أن يجلبوا لكم نفعًا أو يدفعوا عنكم ضرًّا، كما أنَّهم كانوا عاجزين عن جَلْب النَّفع لأنفسهم أو دفع الضُّرِّ عنها، وإنَّما كانوا يطلبون ذلك من الله جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ قال جلَّ من قائل: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]؛ أي: لا يملكون دفع

---

(١) «حاشية كتاب التَّوحيد» (ص٦٦).

الضُّرِّ عنكم، ولا تحويله إلىٰ غيركم، فالَّذي يقدر عليه هو الله وحده.

ثمَّ ذكر المؤلِّف الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ففي هذه الآية أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلن لأبيه وقومه براءته من عباداتهم، ولمَّا كانت عبادتهم مخلوطةً، فهم تارةً يعبدون الله، وتارةً يعبدون غيره؛ تَبرَّأ إبراهيم من عبادتهم لغير الله، واستثنىٰ من ذلك عبادة الله الَّذي فطرهم، وفطر غيرهم، أي: خلق جميع المخلوقين، فأثبتها ونفىٰ سواها، حيث قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فإنَّ عبادته وحده هي دأبي وعقيدتي وقرَّة عيني الَّذي تقرُّ عيني به، وأطمئنُّ إليه، وإلىٰ عبادته، وتسكن نفسي إلىٰ عبادته وحده ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: ابتدأ خلقي، وكلمة «فطر» معناها ذلك.

وَقَدْ قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**مَا كُنْتُ أَدْرِي مَا** ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **حتَّىٰ احْتَكَمَ إِلَيَّ أَعْرَابِيَّانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا**»(١)؛ أي: أنا الَّذي ابتدأتُ إنشاءها.

فمعنىٰ ﴿فَطَرَنِى﴾: ابتدأ إنشاء خلقي؛ لذلك فهو المستحقُّ أن تُصرَف إليه عبادتي.

ثمَّ قال: وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: هم العلماء، والرُّهبان: هم العُبَّاد، ومن عادة النَّاس أن يرجعوا إلىٰ هذين الصِّنفين، وأن يأخذوا بكلامهم، فقد عاب الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الكُفَّار اتِّخاذ الأحبار والرُّهبان أربابًا من دون الله؛ حيث جعلوهم مُشرِّعين يُحلُّون لهم ما حرَّم الله فيُحلُّونه، ويُحرِّمون عليهم ما أحلَّ الله فيُحرِّمونه، وليس هذا بإطلاقه

---

(١) أخرجه أبو عُبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٤٥)، وفي «غريب الحديث» (٤/ ٣٧٣ المعارف العثمانية)، وابنُ جرير في «تفسيره» (٩/ ١٧٥ هجر)، وابنُ الأنباري في «إيضاح الوقف والابتداء» (ص ٧١ - ٧٢)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٣/ ٢١٢ الرشد)، والدُّولابي في «الكنىٰ والأسماء» (١/ ٢٥٢ ابن حزم)، **وانظر**: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٤٥٧): مادة «فطر».



يُوجب الخروج من الإسلام.

ولكن في ذلك تفصيلٌ:

فتارةً يبلغ بفاعله الخروج من الإسلام، وذلك فيما إنِ اتَّخذوهم مُشرِّعين، وأخذوا تشريعاتهم وقَدَّموها علىٰ ما شرع الله في كتابه، وما شرع رسوله ﷺ معتقدين أنَّ تلك التَّشريعات مساويةٌ لشرع الله أو أفضل منه.

أمَّا إن اسْتَفْتَوهم، فأَفْتَوهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، فأطاعوهم بذلك معتقدين صِدْقهم فيما أَفْتَوا به لكونهم أهل علمٍ، وظنُّوا أنَّ الصَّواب معهم، فهذا لا يبلغ بمَنْ فَعَله الكفرَ المخرجَ من الملَّة، ولكنَّه معصيةٌ كبيرةٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الأنداد هم النُّظراء، فمَنِ اتَّخذ معبودًا سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يعبده، ويطلب منه جَلْب النَّفع، ودَفْع الضُّرِّ؛ معتقدًا فيه القدرة علىٰ ذلك، فهو قَدْ اتَّخذه ندًّا لله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: مساويًا له، ونظيرًا، وهذا هو الشِّرك الأكبر المخرج من الملَّة؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ غير الله عَزَّوَجَلَّ كحبِّ الله، فإنَّه قَدْ وقع في الشِّرك الأكبر المخرج من الملَّة؛ حتَّىٰ ولو تَسمَّىٰ بالإسلام، وزعم أنَّه مسلمٌ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ويقول بعد ذِكْر الرُّسل الَّذين ذكَرهم في سورة (الأنعام) (آية ٨٨): ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفي الحديث القدسيّ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي - تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: **وفي الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».**

في هذا الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ القول - **يعني قول: «لا إله إلَّا الله»** - لا بدَّ له من عملٍ يُؤيِّده، وهو الكفر بما يُعبَد من دون الله.

وفي هذا تصديقٌ لقول: «لا إله إلَّا الله» الَّذي هو النَّفي والإثبات، فنفي الآلهة سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حاصلٌ بـ «لا إله» وإثبات العبوديَّة لله حاصلٌ بقوله: «**إلَّا الله**». فمَنْ نفىٰ الآلهة مع الله يلزمه أن يكفر بكلِّ ما يُعبَد من دون الله، وأنَّ يعتقد أنَّ العبادة لا تصحُّ، ولا تُقبَل إلَّا بهذين الشَّرطين، يُوقن بهما بقلبه عقدًا؛ بأن يعتقد أنَّ الأُلوهيَّة أمرٌ يختصُّ به الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ كلَّ مألوهٍ سواه فهو قَدْ أُلِّه بغير حقٍّ، فلذلك هو يكفر بكلِّ معبودٍ سوىٰ الله، وهذا هو معنىٰ الكفر بالطَّاغوت؛ لقوله ﷺ: «**وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**».

فمن اعتقد الأُلوهيَّة لله، وكفر بما يُعبَد من دونه، فإنَّه يكون قَدْ استكمل الإيمان، وبذلك يحرم ماله ودمه، فيعصم دمه، فلا يُرَاق إلَّا بحقٍّ، ويُعصَم ماله فلا يُؤخَذ إلَّا بحقٍّ.

وما أكثر المخالفين في الأزمنة الأخيرة لهذا الشَّرط! فتجد الواحد منهم يقول: «لا إله إلَّا الله» وهو يعبد غير الله، معتقدًا فيه جَلْب النَّفع ودَفْع الضُّرِّ، ومع ذلك يصلِّي، ويزعم أنَّه مسلمٌ.

بل مَنْ تكلَّم في التَّوحيد، ونهىٰ عن عبادة القبور، والأضرحة، والسَّادة، والأولياء؛ قالوا: هذا يبغض الأولياء؛ بل تجد بعضهم داعيةً للشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو مع ذلك يُصلِّي ويصوم ويزعم أنَّه مسلمٌ، ولكنَّه يقبض النُّذُور الَّتي نذر بها

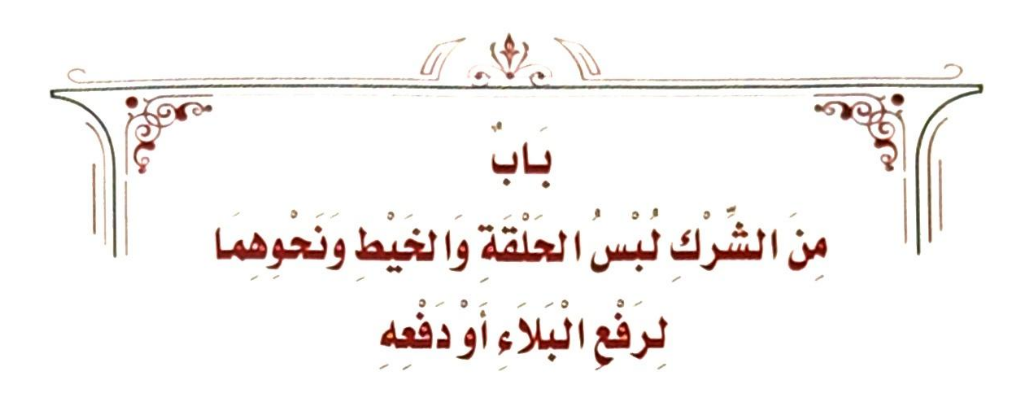
للوليِّ الفلانيِّ، ويُجِير مَنِ اسْتَجَاره فيما لا يقدر عليه إلَّا الله؛ بل يأتي الواحد من العامَّة الَّذين استعبدوا لهؤلاء السَّدَنة، فيدخل تحت سريره، ويسجد لذلك السَّادن، ويطلب منه شفاء مريضه، أو ردَّ ضالَّته، أو هداية زوجته، أو النَّصر علىٰ عَدوِّه، فَيتعهَّد له ذلك السَّادن بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سيفعل له ذلك الشَّيء المطلوب وكأنَّما يَتعهَّد علىٰ ابنه أو قريبه الَّذي يمون عليه.

ألا فَليتَّقِ الله هؤلاء الَّذين مسختهم الصُّوفيَّة، فجعلوا مع الله آلهةً أخرىٰ، ليتَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ، ويتركوا ما هم عليه من الشِّرك بالله، وعبادة الطَّواغيت، وإلَّا فإنَّهم قَدْ أُنْذِروا بالنَّار الحامية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

فمَنْ آمن بالله، وكفر بما يُعبَد من دونه، عصم دمه وماله، ويكون حسابُه علىٰ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا أنَّه موعودٌ بخيرٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢].

وبالله التَّوفيق.





بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ والخَيْطِ ونَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلاءِ أوْ دَفْعِه

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ الآيَة [الزمر: ٣٨].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ[١]، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا، فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»، رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ[٢].

وَلَهُ[٣] عَنْ عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ[٤]: «مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

---

(١) قال الرَّازي في «مختار الصحاح» (ص١٧٧): «الصُّفْرُ -بالضم-: نحاسٌ يُعمل منه الأواني، وأبو عُبيدة يقوله بالكسر». اهـ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥) (٢٠٠١٤)، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٠١٥). ولكن أشار في «الصَّحيحة» (٥/ ٢٢٩) إلىٰ صلاحيَّته في الجملة، والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤) (١٧٤٤٠)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٧٥) (٨٣٩٨)، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبرانيُّ، ورجالهم ثقات»، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٠١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦) (١٧٤٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٤٩٢).

وَلابنِ أَبِي حَاتِمٍ[(١)] **عَنْ حُذَيفَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمَّىٰ فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]».

الشرح:

الرَّفع يكون بعد وجود البلاء، والدَّفع يكون قبل وجوده؛ كما يعتقد بعض النَّاس أنَّ هناك أشياء تدفع العينَ أو تدفع الجنَّ، وما أشبه ذلك، وهذا أمرٌ خطيرٌ.

فمَنْ بنىٰ بيتًا وقيل له: إذا كنت تريد أنْ لا تؤذيَك الجنُّ في بيتك هذا فأهرق فيه دمًا، أي: أَرِقْ دمًا للجنِّ حتَّىٰ ما تؤذيك، فإنْ صدَّق هذا الكلام، وأراق دمًا للجنِّ، ولو كان دمَ عصفورٍ أو ديكٍ، أراقه لاسترضاء الجنِّ أو النَّاس، صار مشركًا من أهل النار.

كما حصل أنَّ قومًا ممَّن قبلنا كان لهم صنمٌ، وكانوا علىٰ طريق النَّاس، فَقرَّروا أنَّهم لا يمرُّ بهم شخصٌ إلَّا ويُقرِّب لصنمهم هذا شيئًا، ويمنعون المارَّة من المرور إلَّا بعد أن يُقرِّبوا لصنمهم هذا، فمَنْ قرَّب له ولو ذبابًا خَلَّوْا سبيله، ومَنْ لم يُقرِّب له شيئًا قتلوه، فمرَّ بهم رجلان، فأحدهما قرَّب ونجا من القتل؛

(١) أخرجه في «التفسير» (٧/ ٢٢٠٨). والأثر ضعيف الإسناد؛ لانقطاعه بين حذيفة بن اليمان والراوي عنه، وهو عزرة بن عبد الرحمن؛ لأنهم ذكروا أن عزرة هذا لم يدرك عائشة، فمن باب أولىٰ أنه لم يدرك حذيفة. والله أعلم. انظر: «جامع التحصيل» للعلائي (ص٢٣٧ عالم الكتب)، و«تهذيب الكمال» للمزِّي (٢٠/ ٥١ الرسالة).

تنبيه: تحرَّف اسمُ الرَّاوي عن حذيفة في بعض طبعات «التَّيسير» من عزرة إلىٰ عروة، فاعتمد صاحب كتاب: «النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد» (ص ٥٧) (١٠٤) علىٰ ذلك في تضعيف الحديث؛ لأن عروة لم يلقَ حذيفة. قلت: الموجود في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم: هو: عزرة وليس عروة، وهو الصواب؛ لأن عاصمًا الأحول لا يروي عن عروة بن الزبير، وإنما يروي عن عزرة بن عبد الرحمن. وعلىٰ كلٍّ؛ فالإسناد منقطع كما سبق. والله أعلم.

لكنَّه استوجب النَّار جزاءً له على ما فعل، والآخر قال: لم أكن لأُقرِّب لأحدٍ دون الله شيئًا، فضربوا عنقه فدخل الجنَّة(١).

فيا عبد الله، كُنْ مُوحِّدًا، ومت على التَّوحيد لتنجو من عذاب ربِّك.

قولُه: (وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾).

معنىٰ هذه الآية: قل لهم يا محمَّد: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ يا مشركون ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الَّذين تدعون من دون الله من معبوداتٍ، كاللَّات والعُزَّىٰ ومناة وغيرها ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: بضرٍّ يصيبني، هل هذه الآلهة تَقْدر علىٰ كشفه؟

الجواب: أنَّها لا تقدر علىٰ كشف الضُّرِّ الَّذي يريده الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تقدر علىٰ مَنْع الرَّحمة الَّتي يريدني بها ربِّي ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

وهذا يُستفَاد منه عدم قدرتها لا في النَّفي، ولا في الإثبات، فهي لا تقدر علىٰ كشف الضُّرِّ الَّذي يريده الله بي، ولا تقدر علىٰ منع الرَّحمة الَّتي يريدها الله بي، وهذا إخبارٌ عن عجز الآلهة كلِّها؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ثمَّ أورد حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ؟ !**». قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**».

مضمون هذا الحديث: أنَّ مَنْ تعلَّق شيئًا أنَّه يُوكل إلىٰ الشَّيء الَّذي تَعلَّقه؛

(١) ورد هذا في أثر موقوفٍ عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سيأتي لفظُه وتخريجُه.

سواءً كان من صُفْرٍ، أو من حديدٍ، أو من خيوطٍ، أو من سُيُورٍ، أو غير ذلك، كلُّ هذه الأشياء لا تُفيد مَنْ تعلَّقها شيئًا، والمؤمن مُتوكِّلٌ علىٰ الله، فيبقىٰ المؤمن مرتبطًا بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير مُلتفتٍ لأحدٍ سواه، وهذا هو التَّوحيد الَّذي لا يقبلُ اللهُ من الخلق عبادةً بدونه؛ سواء كانت صلاةً أو صومًا أو صدقةً أو غير ذلك، لا تُقبَل إلَّا بالتَّوحيد؛ لأنَّه أساسها وقاعدتها.

قوله: (**وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»).

عقبة بن عامر بن عمرٍو الجهنيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صحابيٌّ مشهورٌ فاضلٌ، روىٰ عنه جماعةٌ من الصَّحابة والتَّابعين، أحدُ مَنْ جمع القرآن.

قوله: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً**»؛ أي: علَّقها عليه أو علىٰ غيره من طفلٍ ودابَّةٍ، مُتعلِّقًا بها قلبُه في طلب خيرٍ أو دَفْع شرٍّ.

«**فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»؛ أي: لا أتمَّ الله له ما قصده، دعاءٌ عليه بنقيضِ قصدِهِ، وأنَّ الله لا يتمُّ له أمره، ودعاؤه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ مُتعلِّقها يفيد أنَّ تعلُّقها مُحرَّمٌ، وتحريمه يفيد أنَّه من المُحرَّمات الشِّركيَّة، وإنَّما كان شركًا لما يقوم بقلب المُتعلِّق من الاعتماد علىٰ غير الله في جَلْب النَّفع، أو دَفْع الضُّرِّ، وكمال التَّوحيد لا يحصل إلَّا بترك ذلك.

وأقول: لقد عرفنا فيما سبق أنَّ بعض النَّاس يُعلِّق علىٰ نفسه أو علىٰ ولده تميمةً، فيتعلَّق قلبُه بتلك التَّميمة بأنَّها تدفع عنه الشَّرَّ والأذىٰ، وكم رأينا من أناسٍ يكون مُتعلِّقًا لتميمةٍ، فإذا حاولت إزالتها عنه ظنَّ بأنَّك ألقيته إلىٰ الموت، وَقَدْ يكون أنَّ بعض النَّاس يُعلِّق علىٰ دابَّته شيئًا يزعم أنَّه يصرف عنها العين أو

يصرف عنها الجنَّ.

فقد كنَّا في الأزمنة السَّابقة يُعطىٰ الخَتين[١] شفرةً - أي سكينًا - يحملها، يزعمون أنَّ هذه الحديدة الَّتي يحملها تدفع عنه الشَّياطين، وكذلك أيضًا النُّفساء تحمل شرمة[٢] تزعم بأنَّها تمنع ولدها من الشَّياطين، وكان بعض النَّاس يتعلَّق عَظْم نسرٍ، وبعضهم يتعلَّق شيئًا من الضَّبُع، وبعضهم يتعلَّق عين الذِّئب، وكذلك أيضًا كانوا يُعلِّقون علىٰ الجمال (الجمل الكبير يُعلِّقون عليه سبعةً من أعواد السداد[٣])، وهكذا وهكذا.. أشياءُ كثيرةٌ جعلها الشَّيطان للنَّاس، فيكون قلبُ المُتعلِّق مُتعلِّقًا بها يظنُّ أنَّها تحميه، ومن ذلك أيضًا تَعلُّق الوَدَع وتعلُّق الخيوط؛ كلُّ هذا لا يجوز للمسلم أن يفعله؛ لأنَّه تَعلُّقٌ بغير الله.

وبالجملة: فمَنْ تعلَّق شيئًا يزعم بأنَّه يجلب له نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا؛ فإنَّه في هذه الحالة يُعتبَر قَدْ أشرك بالله شركًا أكبر، أو شركًا أصغر علىٰ الأقلِّ، ولهذا فإنَّه لا يخلو من إحدىٰ العقيدتين، فإن اعتقد أنَّ صحَّته وسلامته مُتوقِّفةٌ علىٰ هذا الشَّيء المتعلَّق، فإن قُطِع منه أو أُزِيل عنه اعتقد بأنَّه قَدْ تعرَّض للهلاك، فإنَّ هذا يعدُّ من الشِّرك الأكبر، وإن اعتقده سببًا مع علمه بأنَّ الله هو الشَّافي والواقي، فإنَّه يكون في حقِّه شركًا أصغر، والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) **الختين**: الشاب المختون.

(٢) باللَّهجة الدارجة في منطقة جازان يسمَّىٰ: المحش المقطوع؛ أي: سكين من نوع خاص يقطع به النبات؛ قال شيخنا النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشرمة: المحش إذا انكسر وبقي أصله يقال له: شرمة، فالمرأة تجعل لها شرمة، ويجعلون حديدة تحت سرير المولود، ويقولون: يدفع عنه الجن. والخَتين لا يخرج إلا والشفرة في يده».

(٣) قال شيخنا النَّجميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو شجر لا ورق فيه تبنىٰ عليه أشجار أخرىٰ، وتعرج عليه».

الوَدَع: هو صَدفٌ يُخرَج من البحر يَتَّخذه بعضُ النَّاس الفقراء للزِّينة، ويلعب به الأطفال، ويكون شركًا إذا كان يُعلِّقه معتقدًا فيه أنَّه يدفع العين أو الشَّياطين.

أمَّا مَنْ تعلَّق الودع كزينةٍ كما يفعله النِّساء من سُكَّان الجبال، فهذا لا يُعتبَر من الشِّرك، ولا يدخل في الشِّرك.

قوله: «فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»؛ أي: فلا تَركه؛ بل يعاجله بالعقوبة هكذا فيما يظهر.

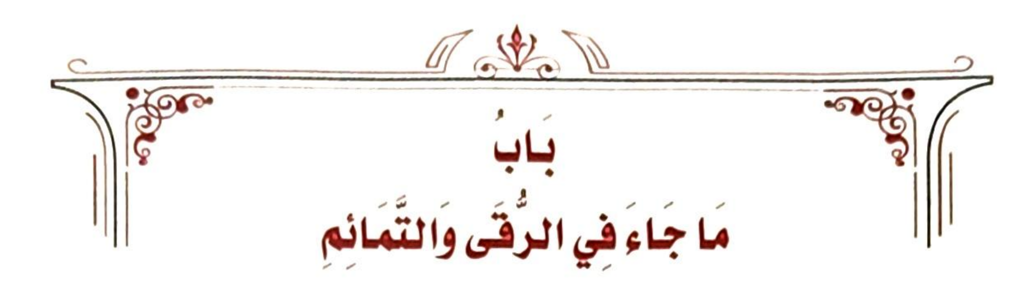
قوله: (وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]).

قَوْلُهُ: «فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ»، كان النَّاس في الأزمنة القديمة يتَّخذ أحدُهم خيطًا يرقىٰ فيه ويعقد، يقرؤون شيئًا من القرآن، وأحيانًا من غيره، ويربط بسبع ربطاتٍ، ثمَّ يقولون: هذا يدفع عنه المرض أو الحمىٰ أو ما أشبه ذلك.

وَقَدْ كان النَّاس في الزَّمن السَّابق يفعلون ذلك، علمًا بأنَّ قطع العزيمة أو الخيط أو الشَّيء المتعلَّق من دون نصيحة صاحبه وإقناعه بأنَّه لا يُغني عنه شيئًا ولا يدفع عنه ضرًّا، ولا يجلب له نفعًا؛ هذا إنَّما يكون ممَّن له سلطةٌ، فالنَّبيُّ ﷺ حين قطع تلك الحلقة عن الرَّجل من دون رضاه؛ لأنَّه وليُّ الأمر، وحذيفةُ كان هو أمير المدائن في ذلك الوقت.

فالمهمُّ: أنَّ ما حصل من حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّه كان من ولاة الأمر، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو وليُّ الأمر والمشرِّع؛ فلا يجوز أن نأخذ بهاتين القِصَّتين، ونقطع كلَّ مَنْ رأينا عليه شيئًا من ذلك؛ رضيَ أو لم يرضَ، فهذا خطأٌ؛ بل يجب أن يكون الإنكار باليد لوُلَاة الأمر، وللرَّجل في أهل بيته؛ أمَّا ما عدا ذلك فينبغي أن يكون إنكارُهُ بالتَّوجيه والإقناع، فإن اقتنع قطعته عنه بعد قناعته، وإلَّا فلا. وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ[(١)].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاودَ[(٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ[(٣)].

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ مِنَ الْعَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٥)، ومسلمٌ (٢١١٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٨١) (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابنُ ماجه (٣٥٣٠). وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٣١) و(٢٩٧٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣١٠) (١٨٨٠٣)، والتِّرمذيُّ (٢٠٧٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «غاية المرام» (ص ١٤٦ - ١٤٧) (٢٩٧).

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[(١)] عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ[(٢)].

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»[(٣)].

الشرح:

الرُّقىٰ: جمع رُقيةٍ، والرُّقية هي العَوذة يُعوَّذ بها المريض؛ وهو أن يقرأ شيئًا من القرآن وينفث علىٰ المريض، وكذلك ما ورد من التَّعوُّذات في السُّنَّة، فقد ورد أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُعوِّذ الحسن والحسين، فيقول: «**أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»، يفعل ذلك ثلاث مرَّاتٍ،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٨) (١٧٠٣٦)، وأبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٦٧). وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٧).

(٢) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ٣٧٥) (٢٣٩٣٩).

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٨٢ ابن كثير)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ٣٧٤) (٢٣٩٣٣). وفيه عنعنة مغيرة بن مقسم الراوي عن إبراهيم النخعي؛ فإنه كان يدلِّس ولا سيما عن إبراهيم. «تقريب التهذيب» (ص ٥٤٣).

لكن جاء ما يدلُّ علىٰ ثبوت هذا الأثر عن إبراهيم؛ فقد روىٰ أبو عبيد (ص٣٨٢)، وابنُ أبي شيبة (٧/ ٣٧٤) (٢٣٩٣٥)، وحربٌ الكرمانيُّ في «المسائل» (٢/ ٨١٩)، عن مغيرة قال: سَأَلْتُ إِبْرَاهِيمَ فَقُلْتُ: أُعَلِّقُ فِي عَضُدِي هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء] مِنْ حُمَّىٰ كَانَتْ بِي، فَكَرِهَ ذَلِكَ. وإسناده صحيح.

وروىٰ ابنُ أبي شيبة (٧/ ٣٧٥) (٢٣٩٣٧)، عن منصور، عن إبراهيم، قال: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ وَالرُّقَىٰ وَالنُّشَرَ». وإسناده صحيح أيضًا.

ويمسح على رأس الصَّبيِّ، وقال: «**لَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**»[١].

وورد في الرُّقية حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَىٰ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَلَمْ يُقْرُوهُمْ[٢]، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟

فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تُقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفُلُ فَبَرِئَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ[٣]، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّىٰ نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ، وَقَالَ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»[٤].

فهذه الأحاديث دالَّةٌ على جواز الرُّقية؛ لكن بثلاثة شروطٍ:

الشَّرط الأوَّل: أن تكون من الكتاب أو السُّنَّة.

الشَّرط الثَّاني: أن تكون باللَّفظ العربيِّ.

الشَّرط الثَّالث: ألَّا يعتقد فيها أنَّها الَّتي تشفي، بل يعتقد أنَّها سببٌ.

أمَّا التَّمائم: فهي جمع تميمةٍ، والمراد به الشَّيء المتعلَّق الَّذي يتعلَّقه الإنسان ليجلب به نفعًا أو يدفع به ضرًّا، وَقَدِ اختلف السَّلف في المتُعلَّق إذا كان من القرآن، هل يجوز ذلك أو لا يجوز؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٣٧١) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) يُقرُوهم: أي: يُضيفوهم.

(٣) أي: الغنم.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

والصَّحيح أنَّه لا يجوز ذلك:

١- لأنَّ تعلُّق الآيات القرآنيَّة يعرضها للامتهان، فيحملها الرَّجل عند قضاء حاجته، والمرأة عند حاجتها، وأثناء حيضها، والرَّجل والمرأة معًا عند جماعهما، وهذا أمرٌ لا يجوز.

٢- أنَّه لم يَرِدْ عن النَّبيِّ ﷺ هذا، وإنَّما ورد عنه الرُّقية، وما عدا الرُّقية من كتابة الآيات ومَحْوها أو غير ذلك فإنَّه غير مشروعٍ، ولا ينبغي مزاولته؛ والمحو هو أن تكتب الآيات في إناءٍ، ثمَّ تُمحَىٰ الكتابة بالماء، ويشربه المريض؛ وهذا غير مأثورٍ عن النَّبيِّ ﷺ ولا عن أصحابه.

وما ورد عن ابنِ مسعودٍ في قوله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَىٰ، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، فهو محمولٌ علىٰ الرُّقية الممنوعة الَّتي يكون فيها تعاويذُ بأسماءٍ غير معلومةٍ، أمَّا التَّمائم، فالمعروف أنَّ النَّاس عندما يَتعلَّقون التَّمائم تتعلَّق قلوبهم بها، فيكون الواحد منهم معتقدًا بأنَّ تلك التَّميمة هي الَّتي تدفع عنه الأخطار وتُؤَمِّنه من المخاوف، وهذا هو الشِّرك بعينه.

أمَّا التِّولة: فهي ما يُصنع لتحبيب الرَّجل إلىٰ امرأته أو المرأة إلىٰ زوجها، وهذا كلُّه لا يجوز، بل إنَّ مَنْ يفعلون ذلك إنَّما يفعلونه بنوعٍ من السِّحر، والسِّحر حرامٌ، ولا يقدر علىٰ فعلِهِ إلَّا كافرٌ.

أمَّا حديث أبي بشيرٍ الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

الوَتَر: هو السَّيْر الَّذي يشدُّ به القوس، فإذا بَلِيَ وأرادوا إبداله أخذوه وقَلَّدوه الدَّابَّة زعمًا منهم أنَّه يدفع عنها العين، أو يدفع عنها الشَّياطين، وهذا هو الشِّرك بعينه.

أمَّا قوله: «**أَوْ قِلَادَةٌ**»؛ يعني: أيَّ قلادةٍ تكون، فإنَّه لا يجوز تَعلُّقها من أجل الاعتقاد، وغالبًا أنَّ الَّذين يُقلِّدون الدَّابَّة أنَّهم إنَّما يُقلِّدونها لاعتقادهم في ذلك.

قوله هنا: («**وَالرُّقَىٰ**»: هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ[١]).

وأقولُ: فرقٌ بين الرُّقية والعزيمة:

فالعزيمة: هي ما يُكتب لحمله.

والرُّقية: هي أن يقرأ الرَّاقي، وينفث بدون كتابةٍ.

والرُّقية جائزةٌ - أمَّا العزائم والتَّمائم فهي ممنوعةٌ كما تقدَّم -، وتجوز بشروطها، وفي «صحيح مسلم» عن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ قال: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَىٰ فِي ذَلِكَ؟

فَقَالَ: «**اِعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ؛ لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا شِرْكٌ**»[٢].

قال في «فتح المجيد»: «**قال الخطَّابيُّ**: وكان عليه السلام قَدْ رقىٰ ورُقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله، فهي مباحةٌ أو مأمورٌ بها، وإنَّما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنَّه ربَّما كان كفرًا أو قولًا يدخله الشِّرك.

وقال شيخ الإسلام: كلُّ اسمٍ مجهولٍ فليس لأحدٍ أن يرقي به، فضلًا عن أن يدعوَ به ولو عرف معناه.

وقال السُّيوطي: أجمع العلماء علىٰ جواز الرُّقىٰ عند اجتماع ثلاثة شروطٍ:

---

(١) أخرج مسلم (٢١٩٦) عن أنس رضي الله عنه قال: «رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ، وَالْحُمَةِ، وَالنَّمْلَةِ». والنَّملة: قروح تخرج في الجنب، وقد تخرج في غير الجنب، فتُرقىٰ، فتذهب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

أن تكون من كلام الله، وبأسمائه وصفاته وباللِّسان العربيِّ، وأن يعتقد أنَّ الرُّقية لا تُؤثِّر بذاتها؛ بل بتقدير الله تعالىٰ». اهـ(١).

قوله: (**وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْم مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ**).

ترجمة الرَّاوي عبد الله بن عكيم: «- بالتَّصغير - الجُهنيُّ، أبو معبد الكوفي، مخضرم من الثَّانية، وَقَدْ سمع كتاب النَّبيِّ ﷺ إلىٰ جهينة، مات في إمرة الحَجَّاج.». اهـ «التَّقريب» (٣٥٠٦). والمخضرَم يعتبر درجةً ثانيةً بعد الصَّحابة، وهو فوق التَّابعين، والمخضَرم هو مَنْ كان في عهد النَّبيِّ ﷺ رجلًا وأسلم، ولم يلقَه مثل عبد الله بن عُسيلة، وأبي عثمان النَّهدي، وأبي مسلم الخولاني، وكُميل بن زيادٍ، وأبي رجاء العُطاردي، وغيرهم كثيرٌ يبلغون حوالي أربعين رجلًا(٢).

يُؤخَذ من هذا: أنَّ مَنْ تعلَّق شيئًا معتقدًا فيه أنَّه يجلب نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا، فإنَّه بهذا يكون قَدْ جعل عقيدته في الشَّيء الَّذي تعلَّقه، ومن أجل ذلك وَكَله اللهُ إليه، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ لمَنْ أشرك بالله شيئًا من المُتعلَّقات معتقدًا في ذلك.

قال سماحة الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فينبغي للإنسان أن يعتمد ويَتوكَّل علىٰ الله وحده، فهذا هو الَّذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب، كما في حديث: «**اِحْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(٣).

فالأخذ بالأسباب أمرٌ لازمٌ من الأدوية، والاستقامة علىٰ شرعه، وتعاطي

---

(١) «فتح المجيد»، للإمام عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١/ ٣١٨ - ٣١٩)، ط/ دار أضواء السلف، الأولىٰ.

(٢) انظر: «التَّقييد والإيضاح علىٰ مقدّمة ابن الصَّلاح» للحافظ العراقي (ص٣٢٤ المكتبة السَّلفيَّة).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أسبابَ العافية وطلب الرِّزق، فالأسباب ما بين الواجب والجائز، فعليه أن يتعاطىٰ الأسباب الجائزة والواجبة، والأَخْذ بذلك لا يقدح في التَّوحيد؛ بل تَرْكها يقدح في العقل والتَّوحيد جميعًا»[(١)]. اهـ.

ثمَّ ذكر ما رواه أحمد: **عَنْ رُوَيْفِع قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»**.

ترجمة رويفع: «رُويفع بالفاء: ابنُ ثابت بن السَّكن بن عديٍّ بن حارثة الأنصاريِّ المدنيِّ، صحابيٌّ سكن مصر، وَلِيَ إمارة برقَة، ومات بها سنة ٥٦»[(٢)]. اهـ.

وأقول: عَقْد اللِّحية أو تعقيدها هو ضفرها أو تصفيفها للتَّكبُّر والتَّعاظم، أمَّا العناية بها تسريحًا وتكريمًا، فهذا ليس بمنهيٍّ عنه، أفاد ذلك الشَّيخ عبد العزيز في تعليقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذا الموضع.

المسألة الثَّانية: تَقلُّد الوَتر، والوَتَر هي السُّيور الَّتي تجمع بين طرفي القوس، ويُوضَع فيها السَّهم، وكانوا إذا رمَّ الوتر القديم أخذوا بدلًا عنه، وعلَّقوه في عنق البعير أو غيره، يزعمون أنَّه يدفع العين، ويدفع الشَّياطين، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي يدفع الضُّرَّ، ويجلب النَّفع، وكذلك النَّهي عن الاستنجاء برجيع الدَّابَّة وهو روثها، وكذلك الاستنجاء بالعظام، كلُّ ذلك تَبرَّأ النَّبيُّ ﷺ من فاعلِهِ.

الحديث فيه لينٌ، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة، وهو قوله لرُويفع: «**لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بكَ**». وفعلًا فقد طال عُمُره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

---

(١) «شرح كتاب التوحيد» (ص٥٩ الضِّياء).

(٢) «التقريب» (ص ٢١١).

قوله: (**وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: «**مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ**». **رَوَاهُ وَكِيعٌ - ابنُ الجرَّاح -**).

معنىٰ: «**كَعِدْلِ رَقَبَةٍ**»؛ بمعنىٰ: أنَّه يساوي العتق في الأجر.

قال الشَّيخ عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ هذه الفقرة؛ قال: «لأنَّه سيخلِّص هذه الرَّقبة من النَّار ومن الشِّرك، فيكون أفضل من عتق الرَّقبة»[1]. اهـ.

قلتُ: ولا شكَّ أنَّ إنقاذ الإنسان المسلم من الشِّرك، وإفهامه بالتَّوحيد، فيه أجرٌ عظيمٌ يفوق أجر العتق فيما نرجو.

ثمَّ أورد الأثر عن إبراهيم، قال: «**كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَغَيْرِ الْقُرْآنِ**».

وإبراهيم هذا هو: إبراهيم بنُ يزيد النَّخعي من التَّابعين[2].

وقوله: «**كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ**» أي أصحاب ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يكره ذلك لسببَين:

١ - **السَّبب الأوَّل**: لعموم الأحاديث النَّاهية.

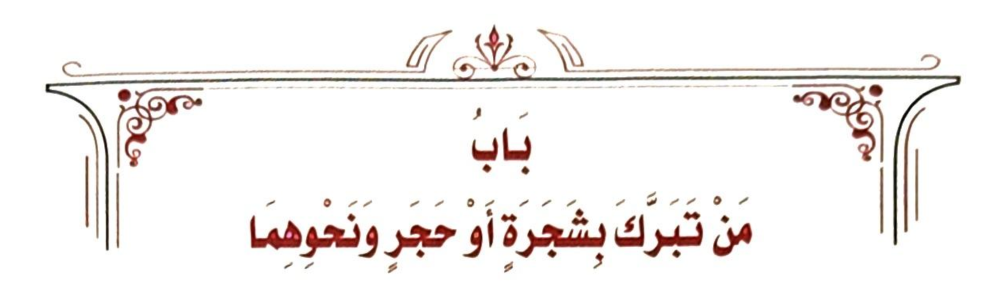
٢ - **السَّبب الثَّاني**: سدًّا للذَّرائع المُوصلة للشِّرك، فلا يُعلَّق مصحفٌ، ولا آياتٌ منه، ولا أحاديث، ولا طلاسم، ولا عظامٌ، فكلُّه شركٌ.

وبالله التَّوفيق.

---

(١) «شرح كتاب التوحيد» (ص٦٤ الضِّياء).

(٢) **انظر**: «تقريب التَّهذيب» (ص٩٥).



بَابُ
مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ **الآيَاتُ** [النجم: ١٩].

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ**[١].

الشرح:

التَّبَرُّك: هو الْتِمَاس البركة من الشَّيء، فمَنْ تبرَّك بشيءٍ كان علىٰ حدِّ زعمه أنَّ ذلك الشَّيء فيه بركةٌ، والبركة هي مكاثرة الشَّيء، وجعله كثيرًا أكثر من العادة، وكون الإنسان يعلم أنَّ هذا الشَّيء فيه بركةٌ، أمرٌ مرفوض وغير مقبول إلَّا أن يكون هذا العلم واردًا من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«كُلُوا فِي الْقَصْعَةِ مِنْ جَوَانِبِهَا، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهَا، فَإِنَّ الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ فِي وَسَطِهَا»**[٢].

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٥٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٠) (٢٤٣٩)، وأبو داود (٣٧٧٢)، والترمذيُّ (١٨٠٥)، وابنُ ماجه (٣٢٧٧)، من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وقال التِّرمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ». وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف الجامع» (٨٦٣١).

ومعنىٰ ذلك: أنَّ البركة تنزل فيها، فيكثر الطَّعام أو الماء، وذلك إذا سُمِّي عليه.

وَقَدْ كان تكثيرُ الطَّعام في زمن النَّبيِّ ﷺ أمرًا محسوسًا؛ كعَنَاق جابرٍ(١) وصاعه من الشَّعير، ولقد أُتِيَ بأهل الخندق أرسالًا، وكانوا ما بين ألفٍ وأربع مئةٍ وألفٍ وخمس مئةٍ، فأكلوا جميعًا من تلك العَنَاق وذلك الصَّاع من الشَّعير(٢).

والمهمُّ أنَّ التَّبرُّك لا يجوز، ولا يُتصوَّر إلَّا بخبرٍ من الله بواسطة رسوله ﷺ.

قولُه: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ**: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾)؛ أي: أرأيتم هذه الآلهة الَّتي تتألَّهون لها، وتنسبونها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فأعطيتموه الإناث، وأخذتم لأنفسكم الذُّكور، ومعلومٌ فضل الذَّكر علىٰ الأنثىٰ، فكيف تجعلون لربِّكم القسم الدَّنيء الَّذي تأنفون منه، وَقَدْ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النَّحل: ٥٨ - ٥٩].

---

(١) **العَنَاق**: الأنثىٰ من ولد المعز.

(٢) أخرج البخاريُّ (٤١٠٢) ومسلمٌ (٢٠٣٩) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنَّبيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَىٰ امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِير، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ، فَفَرَغْتُ إِلَىٰ فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلا تَخْبُزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّىٰ أَجِيءَ**». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّىٰ جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلا تُنْزِلُوهَا**»، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ باللهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّىٰ تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ».

فكيف أنتم تأنفون منه، وتجعلونه لربِّكم، وتزعمون أنَّ الملائكة بنات الله، فإنَّ هذه القسمة لو وقعت بين شخصين لكانت قسمةً جائرةً موصوفةً بأنَّها ضِيزَىٰ، فكيف إذا نسبتم ذلك إلىٰ الله، فإنَّ نسبة ذلك إليه أمرٌ عظيمٌ وفظيعٌ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٤].

والخلاصة: أنَّ الله يقول لهم: كيف تنسبون إلىٰ الله الإناث، وتجعلون لأنفسكم الذُّكُور، وأنتم تأنفون من نسبة الإناث إليكم، ما هذه إلَّا قسمةٌ جائرةٌ.

أمَّا مناسبة الآية للباب: فإنَّ العُزَّىٰ كانت علىٰ ثلاث سمراتٍ، واللَّات كانت علىٰ حَجرةٍ بيضاء، وهم يتبرَّكون بتلك الأشجار والأحجار، واللهُ قَدْ عابهم بذلك، وذمَّهم كيف يتركون الإله الحقَّ الَّذي هم يعترفون بأنَّه هو الَّذي خلقهم، ويتألَّهون لغيره.

قوله: «**يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ**»، النَّوْط: هو التَّعليق بمعنىٰ: أنَّهم يُعلِّقون سيوفهم في تلك الشَّجرة ويزعمون أنَّها تُباركها، فينتصرون علىٰ الأعداء بسبب البركة الَّتي حازوها في السِّلاح الَّذي علَّقوه، وهذا كلُّه أمرٌ وهميٌّ، وادِّعاءٌ باطلٌ، وَقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ؛ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**».

يُؤخَذ من هذا الحديث:

١- نفيُ ما زعمه المشركون من أنَّ تلك الشَّجرة تُبارك في أسلحتهم، فيكون

بها النَّصر علىٰ الأعداء.

٢- أنَّ التَّعليق هو تعليقٌ للقلوب بالشَّجرة قبل أن يُعلِّقوا السُّيوف بها، وهذا لا شكَّ قدحٌ في التَّوحيد؛ لذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**قُلْتُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**».

٣- يُؤخَذ منه تحريمُ مشابهة الكُفَّار والمشركين، والبعدُ عن عقائدهم الفاسدة.

٤- تعليمُ النَّبيِّ ﷺ لهم أنَّ ذلك نوعٌ من التَّألُّه للأشجار والأحجار الَّتي لا تنفع ولا تضرُّ.

٥- أنَّ الصَّحابة إذ طلبوا هذا الأمر، وكادوا أن يقعوا فيه، فغيرُهم من بابِ أَوْلىٰ.

٦- أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يعذرهم بالجهل، بل أخبر أنَّهم قَدْ وقع منهم ما وقع لبني إسرائيل حين طلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم آلهةً كآلهة المشركين.

٧- أخبر النَّبيُّ ﷺ بأنَّ هذه الأُمَّة ستَّتبع مَنْ كان قبلها، أي: ستَّتبع طرائقهم في بُعْدهم عن توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

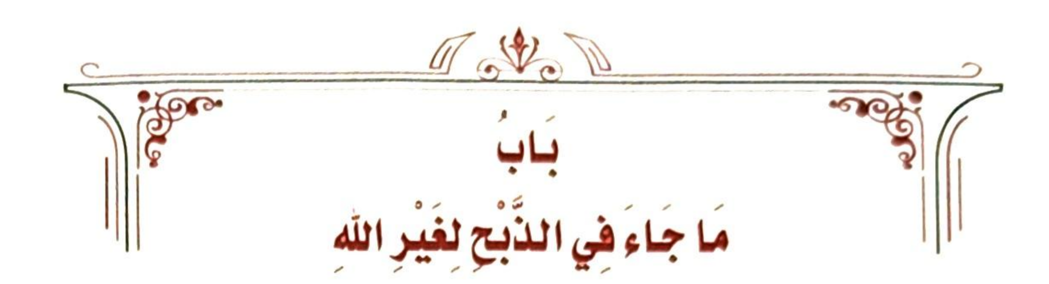
٨- يُؤخَذ منه الحلف علىٰ الفتوىٰ.

٩- يُؤخَذ منه أنَّ العبادات مَبْناها علىٰ الوحي، وأنَّ العقول لا دخل لها في عبادة الله.

١٠- سدُّ الذَّرائع المُوصلة إلىٰ الشِّرك.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ».

قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا. فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢).

---

(١) برقم (١٩٧٨).

(٢) لم أجده كما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك ذكره الإمام ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الدَّاء والدَّواء» (ص٧٦ عالم الفوائد).

وقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٧ الكتب العلمية)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٦/ ٤٧٣)، وابنُ =

الشرح:

قوله: «بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ»؛ أي: من النَّهي والتَّحريم، والأدلَّة علىٰ ذلك من الكتاب والسُّنَّة.

الأعرابي في «المعجم» (٢/ ٨٦٢ ابن الجوزي)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٤٥٧)، والخطيب البغدادي في «الكفاية» (١/ ٤١٥)، جميعهم من طريق طارق بن شهاب عن سلْمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «دَخَلَ رَجُلٌ الجَنَّةَ فِي ذُبَاب، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي ذُبَاب، قَالُوا: وَمَا الذُّبَابُ؟ فَرَأَىٰ ذُبَابًا عَلَىٰ ثَوْبِ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: هَذَا الذُّبَابُ! قَالُوا: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ مُسْلِمَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ صَنَمٍ لَهُمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: قَرِّبَا لِصَنَمِنَا قُرْبَانًا! قَالَا: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، قَالُوا: قَرِّبَا مَا شِئْتُمَا وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا تَرَىٰ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، فَقُتِلَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ الآخَرُ بِيَدِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَأَخَذَ ذُبَابًا فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ الصَّنَمِ - فَدَخَلَ النَّارَ».

قال أبو نعيم: «رواهُ شعبةُ، عن قيسِ بنِ مُسلمٍ، عن طارقٍ مثلَه. ورواه جريرٌ، عن منصورٍ، عنِ المنهالِ بنِ عمرٍو، عن حيَّانَ بنِ مَرثدٍ، عن سلْمان نحوَه». وصحَّحه الألبانيُّ موقوفًا، إلَّا أنَّه رجَّح أنَّه من الأخبار الإسرائيلية؛ انظر: «الضَّعيفة» (١٢/ ٧٢١ - ٧٢٢) تحت رقم (٥٨٢٩).

وأقول:

أوَّلًا: إن هذا الحديث في صحَّة رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ نظرٌ، والأقرب أنه يصحُّ موقوفًا.

ثانيًا: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا بأن المُكره لا يُؤاخَذ حتَّىٰ ولو أظهر كلمة الكفر.

ثالثًا: في هذا الحديث أنَّ ذلك الرَّجل الذي قدَّم الذباب، ودخل النار بسببه، مع أنه في الصورة كان مُكرَهًا، فكيف يُجمع بينهما؟

والجواب: أن المؤاخذة تكون بما في القلوب، فمن قال كلمة الكفر بلسانه، وهو غير مؤمنٍ بها في قلبه بل قالها مُكرَهًا، فإنَّه لا يُؤاخذ بذلك.

لكن هذا الذي قدَّم الذباب، قدَّمه معتقدًا ذلك بقلبه، أي: مُعتقدًا جواز تقديمه لذلك الصنم غير مُنكِرٍ له، فلذلك آخذه؛ لكونه دخل في الشرك مُقرًّا له، مؤمنًا به، فهذا هو السبب الَّذي جعله يُؤاخذه به.

رابعًا: من رأىٰ جواز الشرك، واعتقد بأنه يجوز تقديمُ مثل هذا لغير الله، فهو مشرك، ويُعاقب علىٰ شركه، ولم يكن تقديمه من باب الإكراه.

وأورد قول الله تعالىٰ في آخر سورة (الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾؛ أي: قل يا مُحمَّد للمشركين: إنَّ صلاتي لله عَزَّوَجَلَّ، فلا أصلِّي لغيره؛ والصَّلاة: هي أقوالٌ وأفعالٌ مُفتتحةٌ بالتَّكبير ومختتمةٌ بالتَّسليم.

وهذه الأقوال والأفعال تشتمل علىٰ أذكارٍ من قراءةِ قرآنٍ، وتسبيحٍ، وتمجيدٍ لله عَزَّوَجَلَّ، وركوعٍ، وسجودٍ، وقيامٍ، وقعودٍ، وتكبيرٍ يدخل في الصَّلاة، وبتسليمٍ يخرج منها، وفيما بين ذلك أدعيةٌ، وهذه كلُّها لا يجوز صرفُ شيءٍ منها لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا قولُه: ﴿وَنُسُكِي﴾؛ معنىٰ ذلك ذبحي الَّذي أنسكُه للهِ ربِّ العالمين.

والنُّسُك هو ذبح الدَّابَّة، وينقسم إلىٰ أقسامٍ:

منها: ما هو واجبٌ كذبح الهَدْي، ودم الجزاء.

ومنها: ما هو مسنونٌ سنَّةً مُؤكَّدةً كالأضحية في حقِّ القادر عليها.

ومنها: ما هو مسنونٌ سنَّةً مُستحبَّةً كالذَّبح للضَّيف.

ومنها: ما هو مباحٌ كذبح الإنسان لنفسه وأهل بيته.

ومنها: ما هو مُحرَّمٌ كالذَّبح في المآتم، ولكنَّه لا يكون شركًا، بل يكون بدعةً.

ومنها: ما هو شركٌ بالله شركًا أكبر كالذَّبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ بأَنْ يُريق دم الدَّابَّة الَّتي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ يُريقه لغير الله، فهذا شركٌ أكبر؛ سواءٌ كان لقبرٍ أو وليٍّ أو جنِّيٍّ أو غير ذلك من المعبودات بغير حقٍّ.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: حياتي لله، فهي من الله موهوبةً للعبد ليعبد الله فيها، ويجب أن تكون لله، وكذلك الموت الَّذي هو سَلْب الحياة، وانتقالٌ للبرزخ، كلُّ ذلك لله.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ أي: ليس له شريكٌ في إحياء العبد بعد موته، أي: بعد أن يكون ميتًا، ولا إماتته بعد الحياة، ولا رزقه في حال الحياة، ولا التَّصرُّف فيه في هذه الأوقات كلِّها.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أمرٌ من ربِّي عليَّ بأَنْ أكون مُوحِّدًا، وأدعو إلىٰ التَّوحيد وأنبذ الشِّرك، ويُؤكِّد هذا المعنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: اجعل صلاتك لربِّك، أي: ركوعك، وسجودك، وقيامك، وقعودك، وذِكْرك، وأفعالك؛ اجعلها لربِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون غيره، وفي ضمن هذا نهيٌ عن الشِّرك الأكبر والشِّرك الأصغر الَّذي هو الرِّياء.

قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: اجعل نَحْرك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنىٰ أن يكون نَحْرك في طاعته بألَّا تنحرَ إلَّا له، وفيما أباح لك أو أوجب عليك أو سَنَّه لك كما تقدَّم في شرح النُّسُك، ومن أهل العلم مَنْ جعل هذه الآية نازلةً في صلاة العيد، ونحر الأضاحي، والقول بأنَّها عامَّةٌ هو الأَوْلَىٰ.

ثمَّ أورد حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ؛ لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا؛ لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**».

وَقَدْ حوىٰ هذا الحديث أربعة أمورٍ مُحرَّمةٍ:

١ - أوَّلها وأعظمها جرمًا، وأكبرها آثارًا علىٰ العبد إنْ فَعَله، الذَّبح لغير الله؛

فقد لعن اللهُ من ذبح لغيره، ومن الأمور البدهيَّة أنَّ الله هو الَّذي خلق الدَّابَّة، وغذَّاها بما تتغذَّىٰ به، وأوجد فيها هذا الدَّم، فإذا أرقتَه لغيره، فإنَّك تكون قد اعتديتَ اعتداءً عظيمًا، وظلمتَ ظلمًا كثيرًا بإزهاقك رُوح الدَّابَّة لغير خالقها، وإراقتك لدمها لغير مَنْ خلقه فيها، فلذلك استحقَّ اللَّعنة مَنْ فعل ذلك، ووجب عليه الخلود في النَّار؛ لقوله جلَّ من قائل علىٰ لسان عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم حين قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

٢- ثمَّ بعد الشِّرك في القبح، والحرمة، والبشاعة، والفظاعة أن يلعن العبد والديه، واللَّعنة دعوةٌ علىٰ الملعون بالبعد من رحمة الله، وحلول الغضب عليه، ونزوله به؛ لأنَّه تناسىٰ ما قدَّمه والداه له من رأفةٍ، ورحمةٍ، وحنانٍ، وعطفٍ، وتربيةٍ، وحرصٍ علىٰ ما ينفع ابنهما، فمَنْ لعن والديه فإنَّه قَدْ تعرَّض لغضب والديه؛ لتنكُّره للمعروف، ومعاملته لوالديه بما لا يجوز أن يُعامَلا به.

وَقَدْ يُستغرب أن يَلعن الرَّجل والديه، ولقد استغرب الصَّحابة ذلك، فسألوا رسولَ الله ﷺ: كيف يلعن الرَّجل والديه؟ !

قال: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»(١).

فَبِتَسبُّبه في لعن والديه كان كمن لعنهما، وهذا موجبٌ لغضب الله.

٣- الخصلة الثَّالثة قوله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا»؛

المُحدِث هو الَّذي عمل عملًا منكرًا في الشَّرع؛ كالزِّنا إذا تظاهر به، وعمل الفواحش إذا أظهرها، وما أشبه ذلك من الأمور، فمَنْ أعانه علىٰ هذا المنكر أو

(١) أخرجه بنحوه البخاريُّ (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

آواه، وساعده، ونصره، وأراد أن يدفع عنه ما يحكم عليه به من حدٍّ أو تعزيرٍ، والْتِمَاس الحِيَل لإسقاط ذلك، فإنَّه يُعتبَر مُؤْوِيًا للمُحدِثين، ومستحقًّا للَّعنة؛ لأنَّ الإيواء معناه النُّصرة.

ويدخل في الإحداث: ابتداعُ البدع، وجَعْلها شرعًا في دين الله، وَقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

فالبدع إحداثٌ وأيُّ إحداثٍ، والعمل بالبدع، ونشرها وإيواء أهلها، وإعانتهم، ونصرتهم كلُّ ذلك إحداثٌ في دين الله عَزَّوَجَلَّ، وموجبٌ لسخط الله علىٰ مَنْ فعله، ومن ذلك بدعة الخوارج الإِرْهابيِّين الَّذين يسفكون الدِّماء، ويُزْهِقون الأرواح، ويتلفون الأموال، ويُخِيفون الآمنين، ويعصون الدَّولة، فمَنْ أعان هؤلاء أو تَستَّر عليهم أو الْتَمس لهم العذر؛ فإنَّه قَدْ آوىٰ المُحدِثين، واستحقَّ هذا الوعيد.

٤- **الخصلة الرَّابعة**: تغيير منار الأرض، أي: نقله من مكانٍ إلىٰ مكانٍ زاعمًا أنَّ هذا هو حدُّ الجار مضيفًا إلىٰ ملكه ما أخذه من حقِّ جارِهِ، مؤثرًا للدُّنيا علىٰ الآخرة.

نسأل الله أن يصلح الأحوال، وأن يرزقنا مَخَافته، والعمل بطاعته، واجتناب ما يغضبه؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ؛ برٌّ رؤوفٌ رحيمٌ.

وبالله التَّوفيق.



---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٦٠٨). وأخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإرواء» (٢٤٥٥).



بَابٌ
لا يُذْبَحُ للَّه بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الآيَةُ [التوبة: ١٠٨].

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟».

قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟».

قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا[(١)].

الشرح:

قول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ [التّوبة: ١٠٨][(٢)] - الكلام علىٰ هذه الآية:

فيها نهيٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ أن يقوم في مسجد الضِّرار الَّذي بناه أهلُه إرصادًا لمحاربة الله ورسوله، وإحياءً لِذِكْر وفِكْر ذلكم الخبيث الَّذي حارب الله ورسوله، وفرَّ من الإسلام حين انتشر في المدينة، وهو أبو عامر الفاسق الَّذي يقال له: الرَّاهب، فالمنافقون قصدوا به محاربة الله ورسوله، وأن يَتجمَّعوا في هذا المسجد الَّذي زعموا أنَّه مسجدٌ للعبادة؛ لينشروا فيه أفكارهم، ويُبيِّتوا فيه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٢٨٧٢).

(٢) المراد بالقيام في مسجد الضِّرار أي: الصَّلاة فيه، كما قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية (٢/ ٤٠٣): «﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ نهيٌ له ﷺ والأمة تبعٌ له في ذلك عن أن يقوم فيه، أي: يصلِّي فيه أبدًا...». اهـ.

المكائد للإسلام، ونبيِّ الإسلام، وللمسلمين، فجاؤوا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يطلبون منه أن يصلِّيَ فيه كعادة المسلمين، فقال لهم: «**نَحْنُ الْآنَ عَلَىٰ سَفَرٍ**».

وكان في ذلك الوقت مُتأهِّبًا للسَّفر إلىٰ تبوك، فوعدهم عند رجوعه، فلمَّا رجع وقارب المدينة، أنزل الله عليه هذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨][(١)].

والَّتي بُيِّن فيها خبث أولئك القوم، ومكيدتهم للإسلام والمسلمين، فلمَّا قدم النَّبيُّ ﷺ أرسل مَنْ أحرق ذلك المسجد بعد نزول الآيات فيه.

ومن هذا يُؤخَذ أنَّ أماكن العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ لا ينبغي أن تجعل فيها عبادة إسلاميَّة؛ لأنَّها بذلك تكون إحياءً للأماكن الشِّركيَّة أو البدعيَّة أو الأماكن المُحرَّمة الَّتي حورب فيها الله ورسوله، وهذه مناسبة الآية للتَّرجمة.

قولُه: (وَعَنْ ثَابتِ بْن الضَّحَّاكِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إبلًا ببُوَانَة[(٢)]، فَسَأَلَ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟». قَالُوا: لَا.

قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟». قَالُوا: لَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بنَذْرك، فَإنَّهُ لَا وَفَاءَ لنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإسْنَادُهُ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا).

---

(١) أخرجه ابنُ جرير في «تفسيره» (١٤/ ٤٦٨)، وذكره ابنُ إسحاق في «السيرة النبويَّة» (٢/ ٥٢٩ - ٥٣٠ الحلبي).

(٢) اسم موضع في أسفل مكَّة دون يَلَمْلَم.

لمَّا جاء الرَّجلُ النَّبيَّ ﷺ وأخبره أنَّه نذر أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأله النَّبيُّ ﷺ: هل في ذلك المكان وثنٌ من أوثان الجاهليَّة يُعبَد أو عيدٌ من أعياد أهلها؟ فحدَّث أنَّه لم يكن فيه شيءٌ من ذلك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ**». ذلك أنَّه لو كان فيها إحياءُ وثنٍ من أوثان الجاهليَّة، أو عيدٌ من أعياد الجاهليَّة الَّتي كان يُعبد فيها غيرُ الله عَزَّوَجَلَّ لَمَا أمره النَّبيُّ ﷺ، بل لَنَهاه عن الوفاء في ذلك المكان.

ثمَّ هناك مسألةٌ: وهو أنَّه إذا التزم العبدُ بنذرٍ قصد به العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ولكن أراد أن يكون في مكانٍ كان فيه عيدٌ من أعياد الجاهليَّة، أو وثنٌ من أوثانها، فهل يسقط عنه النَّذْر كلّيًّا، أو يسقطُ الوفاء في ذلك المكان، ويجب على النَّاذر أن يُوفِّي به في مكانٍ آخر سليمٍ من هذه الأمور؟ هذا محلُّ نظرٍ، فالوفاء بالنَّذر واجبٌ، وإذا مُنع من أجل كيفيَّةٍ من كَيفيَّاته، فلا يُمنع بالكُليَّة فيما يظهر لي، بل ينقل إلىٰ مكانٍ سليمٍ من عبادة غير الله.

وبالله التَّوفيق.







بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»(١).

الشرح:

النَّذر لغير الله عَزَّوَجَلَّ يُعتبَر من الشِّرك الأكبر.

وتعريف النَّذر هو: التزامُ العبد بعبادةٍ ليست واجبةً عليه بحكم الشَّرع.

كأَنْ ينذر أن يصلِّي كلَّ ليلةٍ بين العشاء والفجر كذا ركعة، أو ينذر أن يصوم من كلِّ شهرٍ كذا من الأيَّام، فهذا التزامٌ علىٰ نفسه لله عَزَّوَجَلَّ بعبادةٍ ليست بواجبةٍ عليه بمحض الشَّرع، ولكنَّه هو الَّذي أوجبها علىٰ نفسه.

فيجب عليه أن يُوفِّي هذا النَّذر الَّذي التزمه لله تعالىٰ، فقد مدح الله المؤمنين بالوفاء بالنَّذر، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]. والمراد به يوم القيامة، فالوفاء بالنَّذر واجبٌ إلَّا أنَّ الإنسان إذا التزم بشيءٍ لا يستطيع أداءه، ففي هذه الحالة يفتدي منه بكفَّارةِ يمينٍ؛ لقوله ﷺ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٦٩٦).

يَمِينٍ»[(١)].

قولُه: (وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»).

يُؤخَذ من هذا الحديث بأنَّ النَّذر ينقسم إلىٰ قسمين:

١- نذر الطَّاعة.

٢- نذر المعصية.

فنذرُ الطَّاعة يجب علىٰ العبد إذا التزمه أن ينفذه، وبالاستقراء نعلم أنَّ المنذور به: إمَّا أن يكون مستطاعًا للنَّاذر، وإمَّا أن يكون غير مستطاعٍ، فلو نذر الإنسان أن يطير في الهواء بنفسه، فهذا نذرٌ غير مستطاعٍ، وهذا عليه أن يفتدي منه بِكفَّارة يمينٍ، أمَّا إذا كان مستطيعًا علىٰ فعلِهِ، فإنَّه يجب عليه أن ينفذه.

ثمَّ إمَّا أن يكون هذا النَّذر في طاعةٍ أو في معصيةٍ، فإنْ نذر صلاةً أو صدقةً، وجب عليه أن ينفذ، لكن إذا نذر أن يتلطَّخ بنجاسةٍ مثلًا أو يأكل سُمًّا، فهذا النَّذر لا يجوز؛ لأنَّ التَّلطُّخ بالنَّجاسة لا يجوز، وأكل السُّمِّ لا يجوز، فهذا النَّذر لا يجوز الوفاء به؛ لأنَّه معصيةٌ، وكذلك لو نذر أن ينحر ناقةَ فلانٍ، فهذا نذرٌ فيما لا يملك، أو نذر أن يجعل أرضيَّةَ فلانٍ مسجدًا، فهذا نذرٌ فيما لا يملك، فلا يجوز الوفاء به؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «... **وَلَيْسَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ**»[(٢)].

وهل علىٰ النَّاذر كَفَّارةٌ في ذلك أم لا؟ هذا محلُّ نظرٍ وخلافٍ بين أهل العلم، والأظهرُ عدمُ وجوب الكفَّارة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يذكر ذلك عند ذكره

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٦٤٥) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضَّحَّاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لعدم الوفاء في نذر المعصية، والنَّذر فيما لا يملك.

سبب الحديث:

ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» عن عمران بن حصينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَتْ ثَقِيفٌ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ، فَأَسَرَتْ ثَقِيفٌ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ[(١)]، فَأَتَىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ. قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**».

فَقَالَ: بِمَ أَخَذْتَنِي، وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ[(٢)]؟ فَقَالَ: « -**إِعْظَامًا لِذَلِكَ** -، «**أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفٍ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**».

قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ. قَالَ: «**لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ**»[(٣)].

ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**».

قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ، فَأَطْعِمْنِي، وَظَمْآنُ فَاسْقِنِي.

قَالَ: «**هَذِهِ حَاجَتُكَ**»، فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ.

قَالَ: وَأُسِرَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأُصِيبَتْ الْعَضْبَاءُ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ، وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ[(٤)]، فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ

---

(١) أي: أخذوها، وهي ناقة كانت لهذا الرجل من بني عقيل، ثم انتقلت إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) «سابقة الحاجّ»: المراد بها: العضباء؛ فإنها كانت معروفة أنها لا تُسبق أو لا تكاد تُسبق.

(٣) معناه: لو قلتَ كلمةَ الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك، أفلحت كلَّ الفلاح؛ لأنَّه لا يجوز أسرُك لو أسلمت قبل الأسر، فكنت قد فُزتَ بالإسلام، وبالسَّلامة من الأسر، ومن اغتنام مالك، وأمَّا إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك، ويبقىٰ الخيارُ بين الاسترقاق والمَنِّ والفِدَاء.

(٤) أي: يردُّونها إلىٰ موضع مَبيتهم.

الْوَثَاقِ، فَأَتَتِ الْإِبِلَ، فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا[١]، فَتَتْرُكُهُ حَتَّىٰ انْتَهَتْ إِلَىٰ الْعَضْبَاءِ، فَلَمْ تَرْغُ.

قَالَ: وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ[٢]، فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا، ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ، وَنَذِرُوا بِهَا[٣]، فَطَلَبُوهَا، فَأَعْجَزَتْهُمْ.

قَالَ: وَنَذَرَتْ للهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ، فَقَالُوا: الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! بِئْسَمَا جَزَتْهَا، نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا؛ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ الْعَبْدُ**»، وفي رواية ابن حُجْرٍ: «**لا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»[٤].

وبالله التَّوفيق.



---

(١) **الرُّغاء**: صوت الإبل.

(٢) أي: مذلَّلة.

(٣) أي: علموا وأحسُّوا بهربها.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٤١).



بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الشرح:

قوله: «بابٌ من الشِّرك»؛ أي: من الشِّرك الأكبر المخرج من الملَّة: **«الاستعاذة بغير الله»**.

معنىٰ الاستعاذة: الالتجاءُ إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ يرجو منه دَفْع ما يضرُّه، يقال: عُذْتُ بكذا من كذا، ولا يجوز أن يستعيذ العبد بغير الله جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ أخبر الله في سورة (الجنِّ) بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: يَستجيرون بهم، طالبين منهم دَفْع شرِّ بني جنسهم.

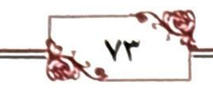
وَقَدْ جاء في الأثر أنَّ بعض العرب كان إذا سافر أحدُهم فنزل مكانًا في اللَّيل يقول: «أعوذ بِسيِّد هذا الوادي من شرِّ سفهائه»[(٢)].

المقصود به: من الجنِّ؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ

---

(١) برقم (٢٧٠٨).

(٢) ورد هذا عن جماعة من السَّلف: الحسن ومجاهد وإبراهيم والرَّبيع بن أنس وعكرمة وغيرهم، كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩ - ٢٤٠)، و«الدُّرِّ المنثور» (٨/ ٣٠١).



ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: فزادوهم خوفًا، وذعرًا، وتكبَّروا عليهم، وطَغَوْا.

ثمَّ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوحىٰ ذلك إلىٰ رسوله ﷺ وأخبر بذلك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهُ ذَلِكَ**».

خولة بنت حكيم بن أُميَّة السُّلميَّة: «يقال لها: أمُّ شريك، ويقال لها: خُويلة، صحابيَّةٌ مشهورةٌ، يقال: إنَّها وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ، وكانت قبلُ تحت عثمان بن مظعون»[١].

قوله: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا**»؛ أي: نزل في مكانٍ، فهذا الذِّكر ضمانٌ له من اعتداء الشَّياطين، وهو أن يقول: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**».

والمقصود بكلمات الله: جمع كلمةٍ. قوله: «**التَّامَّاتِ**» وصفٌ يناسب كلمات الله عَزَّوَجَلَّ.

والمقصود بها: الكلمات القرآنيَّة، أو أعمُّ من ذلك، وهي كلماتُ الله عَزَّوَجَلَّ، فيشمل القرآن وغيره، ومثل ذلك ما ثبت في «صحيح البخاريِّ» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ[٢]، فَأَخَذْتُهُ. وَقُلْتُ: وَاللهِ، لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ!

قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ.

قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**».

---

(١) **انظر**: «تقريب التَّهذيب» لابن حجر (٢/ ٦٣٧) برقم (٨٥٧٥).

(٢) أي: يأخذ بكفِّيه.

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: دَعْنِي، فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ؛ إِنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. حَتَّىٰ تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قَالَ: «**مَا هِيَ؟**».

قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّىٰ تَخْتِمَ الْآيَةَ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَىٰ الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**».

قَالَ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»[١].

فقد أبدل اللهُ المسلمين عمَّا كان يعمله أهلُ الجاهليَّة أبدلهم بقوله هذا: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ».

وفي قوله: «التَّامَّات»؛ في وقوعها، وتامَّاتٌ في صدقيتها، وتامَّاتٌ من حيث إنَّ الواجب امتثالُها (امتثالُ أمرها إِنْ أَمَرت، وامتثالُ نهيها إِنْ زَجَرت)، وإنَّ مَنْ لم يؤمن بها، فإنَّه لا أمان له، وسيلقىٰ جزاءه بعد الموت، وفي البرزخ، ويوم القيامة، وَقَدْ جاء في الآية الأخرىٰ قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

كلمة الله موصوفةٌ بالتَّمام؛ تمام الصِّدق والمصداقيَّة؛ لقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾؛ أي: أنَّها صدقٌ لا كذبَ فيه، وعدلٌ لا جورَ فيه، وذلك أنَّ كلمة أهل الصِّدق من أتباع الرُّسل وهم المؤمنون يدخلها قلَّةُ الصِّدق من حيث قلَّةُ المعلوميَّة.

فالمؤمن قَدْ يقول قولًا فيظنُّ أنَّه صادقٌ، ولكن يدخل في قوله ما يكون خلاف الواقع، فيتخلَّف الصِّدق فيه من حيث لا يشعر قائله مع أنَّ قائله ممَّن يَتوخُّون الصِّدق، ويحتاطون له.

وكذلك أيضًا يدخل في كلام المؤمنين الَّذين هم أهل الصِّدق، والمُتحلِّين به ما يظنُّ القائل أنَّه عدلٌ كلُّه، ويدخله شيءٌ من الجَوْر الَّذي لا يعلمه القائل بحيث تضعف معلوميَّته عنه، أمَّا كلام الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يستلزم تمام الصِّدق،

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم (٢٣١١)، ووصله النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٢٩)، وانظر: «تغليق التعليق» (٣/ ٢٩٥)، و«الفتح» (٤/ ٤٨٨).

وتمام العدل لكمال علمه جَلَّ وَعَلَا، وكمال عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا معنىٰ قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**».

وَقَدْ ذكر الأصبهانيُّ في كتاب «الحجَّة»: «أنَّ الشَّياطين تآمرت علىٰ النَّبيِّ ﷺ وأرادوا أن يمنعوه من صلاته أو يقطعوها عليه، فنزلت شياطين كثيرةٌ يَتقدَّمهم شيطانٌ ماردٌ معه شعلةٌ من نارٍ، أو قال: شهابٌ من نارٍ، فجاء جبريل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فعلَّمه هذه الكلمات الآتية: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ اللَّاتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ**».

فقالها، فانطفأت مشاعلُ تلك الشَّياطين، وشُهُبهم، ورجعوا خائبين مَدْحورين»(١).

فالحمد لله علىٰ ما عَوَّض به عباده المؤمنين، وبَيَّنه لهم من الالتجاء إليه، والاستعاذة بكلماته التَّامَّة.

يُؤخَذ من هذا الحديث:

١ - دليلٌ علىٰ أنَّ القرآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ، وَقَدْ قال بعضُ السَّلف: «إنَّ مَنْ قال: إنَّ القرآن مخلوقٌ فقد كَفَر»(٢).

---

(١) ذكره الأصفهانيُّ في «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١/ ١٧١، ١٧٢ ط: الثانية)، معلَّقًا من حديث عبد الرحمن بن خنبش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤١٩) (١٥٤٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (٨٤٠) و(٢٩٩٥).

(٢) قال الإمام أبو جعفر الطَّحاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الجليل «العقيدة الطَّحاوية» (ص ١٦٨): «وإنَّ القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا، وصدَّقه المؤمنون علىٰ ذلك حقًّا، وأيقنوا أنَّه كلام الله تعالىٰ بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية؛ فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر». وقال =

٢- **يُؤخذ منه:** أنَّ الاستعاذة بالجنِّ أو غيرهم مُحرَّمٌ، وأنَّه شركٌ أكبر يخرج من الملَّة، وذلك أنَّه إذا زعم أنَّ الشَّياطين تدفع عنه ما لا يدفعه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ أو زعم أنَّ لها قدرةً تساوي قدرة الله، أو تزيد عليها، فقد كَفَر كفرًا يخرجه من الملَّة.

٣- أنَّ مَنِ استعاذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلق أعاذه الله، فلم يضرَّه شيءٌ في منزله الَّذي قال فيه هذا الكلام عند نزوله حتَّىٰ يرتحل من منزله ذلك.

٤- أنَّ مَنْ قالها في الصَّباح حفظه الله إلىٰ المساء، ومَنْ قالها في المساء حفظه الله إلىٰ الصَّباح، ومَنْ قالها عند النَّوم حفظه الله إلىٰ أن يستيقظ(١).

٥- **يُؤخَذ منه:** أنَّ الله عوَّض المسلمين من التَّعوُّذات الَّتي كان يَتعوَّذها أهل الجاهليَّة بهذه التَّعوُّذات الخَيِّرة النَّافعة الَّتي تدفع الشَّيطان عن العبد المسلم،

=

الشيخ أبو محمد، الحسن بن علي بن خلف البربهاري في كتابه «شرح السُّنَّة» (ص ٢٥): «والقرآن كلام الله وتنزيله ونوره، وليس مخلوقًا؛ لأن القرآن من الله، وما كان من الله فليس بمخلوق، وهكذا قال مالك بن أنس، وأحمد ابن حنبل، والفقهاء قبلهما وبعدهما، والمِرَاءُ فيه كُفرٌ». اهـ.

(١) أخرج مسلم (٢٧٠٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ! قَالَ: «**أَمَا لَوْ قُلْتَ، حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ**»، وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (١٢/ ٤٤) (٦٦٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَدَ رَجُلًا من أصحابه، ثم إِنَّه لَقِيَهُ فقال: «**مَا لِيَ لَمْ أَرَكَ؟**». قَالَ: مَا بِتُّ الْبَارِحَةَ، لَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ - لَمْ تَضُرَّكَ**»، قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ فِي الْحَدِيثِ يَرْفَعُهُ: «**فَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ لَمْ تَضُرَّهُ**»، وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٩٠) (٤٣٨٥) عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن خالد بن الوليد جاء إلىٰ النبيِّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ وَحْشَةً يَجِدُهَا، فَقَالَ لَهُ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ مَا عَلَّمَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: «**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ يَكِيدُكَ، فَإِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلَّا بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ**»، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٢٧٣٨).

وتمنعه من شرِّه، وتُحقِّق توحيده لله عَزَّوَجَلَّ.

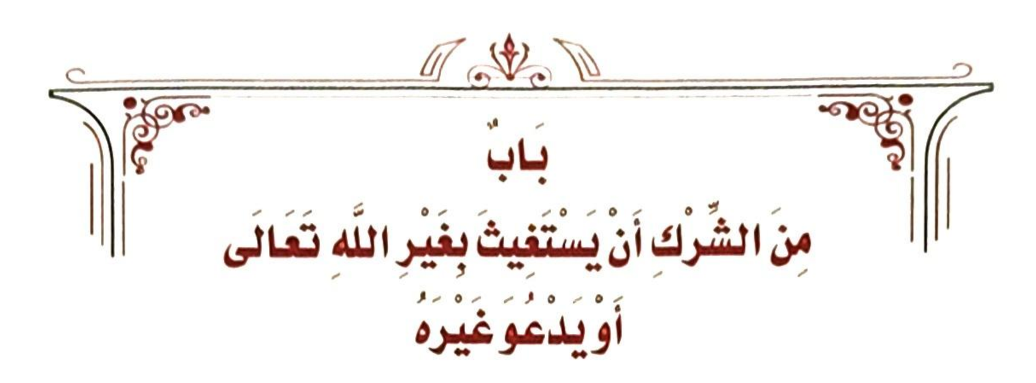
٦- **يُؤخَذ منه**: فضيلةُ هذا الدُّعاء مع اختصاره.

ملحوظة:

الاستعاذة بالمخلوق والاستجارة به جائزةٌ فيما يَقدر عليه، لكن قبل ذلك ينبغي للإنسان أن يقول: استجرتُ بالله ثمَّ بك، أو استعذتُ بالله ثمَّ بك، أو لجأتُ إلىٰ الله ثمَّ إليك أن تقضي لي حاجتي، أو تدفع عنِّي كذا؛ فإنْ فعل ذلك مع اللُّجوء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه لا يكون مُشركًا بشرط أن يكون فيما يَقدر عليه العبد.

وبالله التَّوفيق.





بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الآيَةُ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الآيَةُ [العنكبوت: ١٧]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ الآيَتَانِ [الأحقاف: ٥، ٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ»(١).

---

(١) هذا الحديث أورده ابنُ كثير في «جامع المسانيد والسنن» (٤/ ٥٦٨ رقم ٥٧٨٠) عن الطبراني من طريق سعيد ابن عُفَير، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عليّ بن رباح، عن عُبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه، باللَّفظ المذكور. وعزاه إليه الهيثميُّ في «مجمع الزَّوائد» (١٠/ ١٥٩)، وقال: «رواه الطَّبرانيُّ، ورجالُه رجالُ الصَّحيح غيرَ ابنِ لهيعة، وهو حسنُ الحديثِ».
=

الشرح:

الاستغاثة: هي دعاء المكروب الَّذي يكون في شدَّةٍ.

=

ورواه المعافىٰ بنُ عمران في «الزُّهد» (ص ٢٣٥)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٨)، وابنُ سعد في «الطَّبقات» (١/ ٣٨٧)، مِن طريقَين عن ابن لهيعةَ، عن الحارثِ بن يزيدَ، عن عليِّ بن رباحٍ، أنَّ رجلًا، سمعَ عُبادةَ بنَ الصَّامتِ يقولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ للهِ**». قال الهيثميُّ (٨/ ٤٠): «فيه راوٍ لم يُسمَّ، وابنُ لهيعةَ».

قلتُ: قد تبيَّن أنَّ في إسناد هذا الحديث اختلافًا؛ فرواية الطَّبراني ليس فيها ذكر الواسطة بين عبادة وعلي بن رباح، أمَّا رواية أحمد ومن وافقه ففيها ذكر الواسطة، وهو الرَّجل المبهم، وهي أرجحُ - إن شاء الله - من رواية الطبرانيِّ؛ لأمرين:

أوَّلًا: لم يذكر أهل العلم سماعًا لعليِّ بن رباح من عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ممَّا يقوِّي أنَّه رواه عنه بواسطة.

ثانيًا: الَّذين زادوا في الإسناد الرَّجل المبهم ثقتان، فروايتهم أقربُ للصَّواب مِن رواية الواحد الثِّقة سعيد بن عفير عند الطَّبراني، وقد أُنكر عليه أحاديث؛ منها حديثان من روايته عن ابن لهيعة كما في «تاريخ ابن يونس» (١/ ٢١١)، و«تاريخ الإسلام» (١٦/ ١٨٢ - ١٨٣). ويقوِّي رواية الجماعة أيضًا روايةُ ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٤٤٥)، وروايةُ ابن عبد الحكم في «فتوح مصر والمغرب» (ص٣٠١)؛ ففيهما ذكرُ الواسطة.

وقد وقع هذا الحديث أيضًا عند ابن وهب في «التفسير» من «الجامع» (٣/ ٦ رقم ٣) من طريق ابن لهيعة بإسناد أحمد ومن وافقه، إلَّا أن في أوَّل الإسناد طمسًا، فإن يكن ابنُ وهب سمعه من ابن لهيعة كما هي الجادَّة؛ فهو مرجِّح قويٌّ لرواية الجماعة، ومن جهة أخرىٰ روايةُ ابن وهب عن ابن لهيعة جيِّدة، كما في «التهذيب» (٥/ ٣٧٨)، فيبقىٰ النظر في الرَّجل الذي لم يُسَمَّ. وعلىٰ كلٍّ فالحديث ضعيف الإسناد، وأهل العلم يذكرونه للاعتضاد لا للاعتماد؛ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في تلخيص «الاستغاثة» لابن كثير (ص٣٠٧-٣٠٨ الغرباء): «هذا الخبر لم يُذكر للاعتماد عليه، بل ذُكر في ضمن غيره ليتبيَّن أنَّ معناه موافقٌ للمعاني المعلومة بالكتاب والسُّنَّة، كما أنَّه إذا ذُكر حكمٌ بدليل معلوم ذُكِرَ ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك لما في ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأنَّ الواحد من ذلك يُعتمدُ عليه في حُكمٍ شرعيٍّ. ولهذا كان العلماء متَّفقين علىٰ جواز الاعتضاد والتَّرجيح بما لا يصلح أنْ يكون هو العُمدة؛ مِن الأخبار التي تُكلِّم في بعض رواتها لسُوءِ حفظٍ أو نحو ذلك، وبآثار الصَّحابة والتَّابعين، بل بأقوال المشايخ والإسرائيليَّات والمنامات ممَّا يصلُح للاعتضاد، فما يصلحُ للاعتضاد نوعٌ، وما يصلح للاعتماد نوعٌ، وهذا الخبر من النَّوع الأوَّل».

وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

١ - استغاثةٌ بالمخلوق الحيِّ فيما يقدر عليه، وهذه استغاثةٌ جائزةٌ.

٢ - استغاثةٌ بالميِّت أو بالحيِّ فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، فهذه استغاثةٌ مُحرَّمةٌ، وهي شركٌ أكبر مخرجٌ من الملَّة.

ومن الجائزة: قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فقد حكىٰ الله عَزَّوَجَلَّ هذه الاستغاثة حكايةَ إقرارٍ لها؛ لأنَّ ذلك الإسرائيليَّ استغاث بموسىٰ فيما يقدر عليه، فضرب القبطيَّ - فمات.

ومن هذه القصَّة الَّتي حكاها الله عَزَّوَجَلَّ عن موسىٰ، ومن استغاثه، والمستغاث عليه نأخذ:

أنَّ الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه أو يظنُّ أنَّه يقدر عليه أنَّ هذه الاستغاثة جائزةٌ.

أمَّا الاستغاثة المُحرَّمة فهي استغاثةٌ بالميِّت، ومَنْ في حُكم الميِّت من الأحجار والأخشاب والأصنام، وكذلك الاستغاثة بالحيِّ فيما لا يقدر عليه إلَّا الله كإنزال المطر، وردِّ الضَّالَّة، وشفاء المرضىٰ، وغير ذلك من الأشياء الَّتي لا يقدر عليها إلَّا الله، فالاستغاثة بالمخلوق في هذه الأمور شركٌ أكبر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي يستجيب لعباده، ويكشف عنهم الكرب، ويُسهِّل لهم الصُّعوبات، وعلىٰ ذلك دلَّت الآيات القرآنيَّة في استنكارها للاستغاثة بغير الله؛ كقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والآية الَّتي بعدها، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

كلُّ هذه الآيات تنهىٰ المشركين عن دعوتهم لغير الله، واستغاثتهم بمَنْ لا يقدر علىٰ أن يغيثهم بشيءٍ ممَّا طلبوه.

لكن الاستغاثة بالله هي الأمر المطلوب، وهو وحده الَّذي يقدر علىٰ إجابة دعوتك، وتفريج كربتك، وإعطائك ما تطلب، وإنجائك ممَّا ترهب؛ قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٩].

وَقَدْ أنكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ المَدْعوِّين من دون الله يستجيبون لمَنْ دعاهم، ويَجْلبون لهم ما يريدون، ويكشفون عنهم الكربة، فقال مُستنكرًا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

فكلُّ هذه الآيات تفيد تحريم دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه شركٌ أكبر.

أمَّا ما رواه الطَّبرانيُّ بإسناده أنَّه كان في زمن النَّبيِّ ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**».

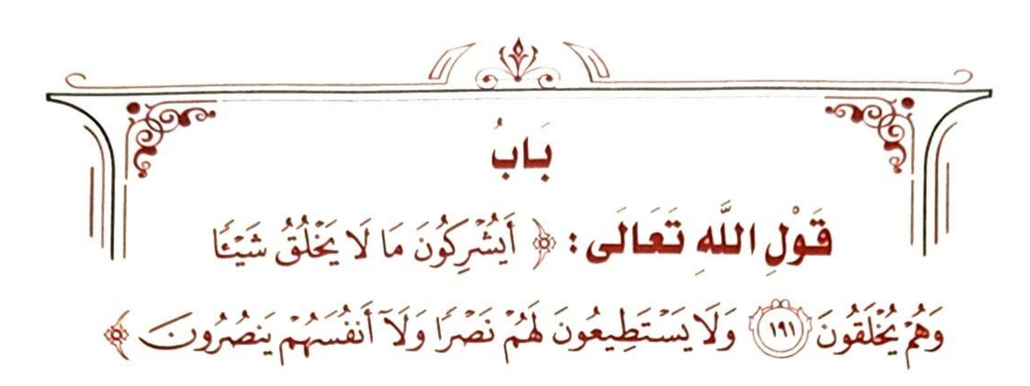
فأوَّلًا: أنَّ الحديث في سنده ابنُ لهيعة، وَقَدِ احترقت كتبُهُ، فاختلط؛ لذا فإنَّا نشكُّ في صحَّة هذا الحديث.

ثانيًا: علىٰ فرض صحَّته، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كره هذا التَّعبير، وهو قولُه: «**قُومُوا بنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ**»، فلو قال: نستعين برسول الله ﷺ في دفع إيذاء هذا المنافق لكان خيرًا لهم من التَّعبير بـ «نستغيث»؛ علمًا بأنَّه قَدْ تقدَّم بأنَّ الاستغاثة بالمخلوق فيما يَقدر عليه جائزةٌ، وإنَّما الاستغاثة المُحرَّمة هي الاستغاثة

بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلَّا الخالق، ولكن صيغة الاستغاثة بالمخلوق هذا هو المستنكر، والله تعالىٰ أعلم؛ لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ عَلَّمهم الله، وعلَّمهم رسولُه - صلوات الله وسلامه عليه - بما ينبغي أن يُقَال من الألفاظ.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

وَقَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ...؟ » فَنزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»(١).

وَفِيهِ: عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآيَة [آل عمران: ١٢٨](٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ - فَنزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»(٣).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥/ ٩٩) معلَّقًا بصيغة الجزم، مختصرًا.

ومسلم (١٧٩١) تامًّا، ولفظه: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ؟ !». فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٩) و(٤٥٥٩).

(٣) أخرجها البخاري (٤٠٧٠)، وتتمَّتها: «إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

وَفِيهِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا أُغْنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لا أُغْنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

الشرح:

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. الهمزة في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، ومضمونُهُ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ينعىٰ علىٰ المشركين كونهم يشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلَقون، وَقَدْ تضمَّن هذا ذمًّا للمشركين في كونهم يجعلون تلك الآلهة المصطنعة شريكةً مع الله، وهي لا تخلق شيئًا، فلم تخلق نفسها بنفسها، ولم تخلق غيرها، وكان مُشركو ذلك الزَّمن لا يعتقدون أنَّ الآلهة تَخْلق، ولا تَقدر علىٰ خَلْق غيرها، ولم تخلق نفسها، فالمشركون في ذلك الزَّمن مُقرُّون بهذا، معترفون به؛ عالمون بأنَّ تلك الآلهة عاجزةٌ أن تفعل شيئًا من قِبَل نفسها، ولكن تدخل عليهم الشُّبهة بكونهم يعتقدون أنَّ تلك المعبودات صورٌ لأناسٍ صالحين يستجيب الله دعاءهم، ويقبل شفاعتهم فيما شفعوا فيه، فإنْ طُلِب منهم نصرٌ فإنَّهم يطلبونه من الله، والله لا يردُّ لهم طلبًا، وهذه خدعةٌ شيطانيَّةٌ، وحيلةٌ إبليسيَّةٌ؛ كم خدع الشَّيطانُ العبادَ بمثلها! ونَسُوا أنَّ تلك المعبودات لا تسمع دعاءهم، ولا تقدر علىٰ إجابتهم، وإسعافهم بما يطلبونه، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي يسمع دعاءهم، وهو الَّذي يَقدر علىٰ إجابتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وكان الواجب عليهم أن يتركوا تلك المعبودات الَّتي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، وأن يَتوجَّهوا بعبادتهم إلىٰ الله الَّذي يقدر علىٰ ذلك، فهو الَّذي يخلق، وهو الَّذي يرزق، وهو الَّذي يُحيي، وهو الَّذي يميت، وهو الَّذي يُمرض، وهو الَّذي يُشفي من المرض، وهو الَّذي يُغني، وهو الَّذي يسلب الغنىٰ ويجعل مَنْ يشاء فقيرًا، وهو الَّذي أوجد الحياة، وهو الَّذي يسلبها، وهو الَّذي يُسعد بالهداية إلىٰ أسباب السَّعادة، وهو الَّذي يُشقي بخذلان العبد، وتسليط الشَّيطان عليه حتَّىٰ يكون شقيًّا.

إذًا، فالواجب علىٰ كلِّ عبدٍ أن يَتوجَّه بالطَّلب إلىٰ الله وحده دون سواه، وَقَدْ أشار إلىٰ عجز تلك الآلهة، وعدم قدرتها بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

ثمَّ أورد المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا آخر علىٰ عجز الآلهة، وهو قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ بعد أن أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشيءٍ من أنواع قدرته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلىٰ أن قال بعد ذِكْر أنواعٍ من قدرته وملكه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

والمراد بالقطمير: هي القشرة الَّتي تكون علىٰ النَّواة، ثمَّ قال مخبراً بعيوبهم، وعجزهم، وضعفهم؛ أي عيوب تلك الآلهة الَّتي اصْطَفَوْها، وأعطوها حقَّ الأُلوهيَّة، فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: حتَّىٰ ولو سمعوا دعاءكم بأَنْ كانوا أحياءً، فإنَّهم لا يملكون الإجابة: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١١ - ١٤]؛ أي: بدعائكم إيَّاهم دون الله عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: وفي الصَّحيح عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شُجَّ النَّبيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ فَقَالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟**»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

يُستفاد من هذا الحديث عدَّةُ مسائل:

١- أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يبتلي أولياءه والمحبوبين إليه بأنواعٍ من البلوىٰ، وإذا كان النَّبيُّ ﷺ الَّذي هو أحبُّ الخَلْق إلىٰ الله، وأكرمهم عليه، وأوجههم عنده جاهًا ابتلاه حتَّىٰ شجَّه قومه، وكسروا رَباعيَته، فغيره من باب أَوْلَىٰ.

٢- أنَّ في ضمن هذا الابتلاء رفعةً للنَّبيِّ ﷺ وعلوَّ شأنٍ له حتَّىٰ يجمع بين الصَّبر في حالة البلاء، والشُّكر في حالة النِّعمة.

٣- يُؤخَذ منه ردٌّ علىٰ الصُّوفيَّة فيما يزعمونه من الكرامات لشيوخهم حيث يقول بعض أصحاب الطَّريقة الرِّفاعيَّة: «إنَّه من كرامة الله لأصحاب الطَّريقة الرِّفاعيَّة أنَّ الواحد منهم يضرب بالشيش[1] أو السَّيف من ظهره حتَّىٰ ينفذ من صدره، ثمَّ يُسحب منه ولا جرح ولا ضرر»[2]. وهذا من الكذب والدَّجَل والتَّضليل.

٤- أنَّ النَّبيَّ ﷺ ما نال ما نال من الكرامة والنَّصر إلَّا بعد إيذاءٍ وابتلاءٍ كبيرٍ.

٥- يدلُّ ذلك أنَّه ليس لأحدٍ من الخَلْق تَصرُّفٌ في ملك الله، وأنَّ الله هو الَّذي يتصرَّف في ملكه دون غيره.

٦- **يُؤخَذ من قوله تعالىٰ**: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ - ردٌّ علىٰ الصُّوفيَّة الَّذين يزعمون أنَّ بعض آلهتهم جعل الله لهم التَّصرُّف في الكون، وهذه عقيدة الصُّوفيَّة

---

(١) نوعٌ من السِّلاح.

(٢) انظر «تربيتنا الرُّوحيَّة» لسعيد حوَّىٰ (ص ٢١٨).

الغالية في هذا الزَّمن، ويُسمُّون أولئك بالمُدَرِّكين - أي: المُتعهِّدين بالكون - أو المُتصرِّفين، ما أكذبهم، وما أجرأهم على الكذب، وما أضلَّهم! فإنَّ الأنعام تعرف ربَّها خيرًا من أولئك، عليهم من الله ما يَستحقُّون!

قوله: (وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**». بَعْدَمَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾»).

أي: يدعو علىٰ صفوان بن أُميَّة، وسهيل بن عمرٍو، والحارث بن هشامٍ، وَقَدْ علم الله أنَّ أولئك سيكونون من أنصار دينه، وفعلًا فقد وَفَّقهم الله للإسلام فأسلموا، منهم: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أُميَّة، والحارث بن هشامٍ، وعكرمة بن أبي جهلٍ، فأنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس له من الأمر شيءٌ فضلًا عن غيره، وأنَّ الأمر كلَّه لله، وأنَّ الملك كلَّه لله، وأنَّ التَّصرُّف كلَّه لله، يفعل ما يشاء، فيُعزُّ ويُذلُّ، ويُملِّك ويسلب، ويُغني ويُفقر، ويُحيي ويُميت، وكلُّ شيءٍ بيده، يكتب لمَنْ شاء السَّعادة فضلًا، ويكتب علىٰ مَنْ شاء الشَّقاوة عدلًا، لا يُسأل عمَّا يفعل، وهم يُسألون، وإذا كان النَّبيُّ ﷺ لا يقدر علىٰ فعلِ شيءٍ، فإنَّ غيره من باب أَوْلَىٰ.

قوله: (وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا -، **اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي**

عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا؛ يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»).

واشتراءُ أنفسهم يكون بالإيمان بالله، ومتابعة رسوله ﷺ، وبدون ذلك ليس هناك شيءٌ يُغني عن العبد، فلا تُغني قرابتُه من الأولياء والأصفياء، ولو كانوا من أُولي العزم؛ فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ نوحًا ﷺ لم يُغنِ عن ابنه شيئًا، وأنَّ إبراهيم ﷺ لم ينفع أباه، أي: لم يستطع نفعَه، فلم يملك هدايتَه في الدُّنيا، ولم يملك إنجاءه يوم القيامة من النَّار، ورسولُ الله ﷺ لم يملك نفع والديه، ولا رفع العذاب عنهما، بل إنَّه - صلوات الله وسلامه عليه - قَدْ أخبر أنَّهم من أهل الشَّقاوة، فقال: **«اِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي؛ فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»**[(١)].

وقال جوابًا لمَنْ قال له: أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ».

قَالَ: فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: وَأَبُوكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَرَأَيْتُ الْأُخْرَىٰ أَجْمَلَ، فَقُلْتُ: وَأَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ، بِرَبِّكَ إِذَا مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُبَشِّرُكَ بِالنَّارِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: **«اِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي... »** الحديث.

(٢) أخرجه ابنُ أبي عاصم في «السُّنَّة» (٦٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦٠٥) (٨٦٨٣) في حديث طويل بنحوه. وصحَّح إسناده الحاكم. وقد أشار ابن أبي عاصم إلىٰ تضعيفه، وكذا الذهبيُّ. وضعَّفه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (١/ ٢٨٩). لكن ثبت عند مسلم (٢٠٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: **«فِي النَّارِ»**. فَلَمَّا قَفَّىٰ دَعَاهُ، فَقَالَ: **«إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»**.

معناه: أنَّ أهل الفترة في النَّار، وأنَّهم لا يُعذَرون بجهلهم؛ لأنَّ الجهل بالعقيدة لا يُعذَر فيه، وأنَّ الأحاديث الواردة في الامتحان يوم القيامة أنَّها لا تعمُّ أهل الفترة، يمكن أنَّها تكون في المجنون الَّذي خُلِقَ مجنونًا، وما أشبه ذلك[١].

وَقَدْ زعم قومٌ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أحيا أبوي النَّبيِّ ﷺ فآمَنَا به، واعتمد مَنْ قال ذلك علىٰ حديثٍ موضوعٍ، وهذا الحديث باطلٌ وموضوعٌ[٢].

---

(١) أخرج أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٤) (١٦٣٤٤)، وابنُ حبَّان في «صحيحه» (١٦/ ٣٥٦، ٣٥٧) (٧٣٥٧) عن الأسود بن سريع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن نبيَّ الله ﷺ قال: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ؛ فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا سُحِبَ إِلَيْهَا»، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٤٣٤).

(٢) قال الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السِّلسلة الصَّحيحة» أثناء تحقيقه لحديث: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» (٢٥٩٢): «واعلم أيُّها الأخ المسلم أن بعض الناس اليوم وقبل اليوم لا استعداد عندهم لقبول هذه الأحاديث الصحيحة، وتبنِّي ما فيها من الحكم بالكفر علىٰ والديِّ الرسول ﷺ، بل إن فيهم من يظن أنَّه من الدعاة إلىٰ الإسلام لَيستنكر أشدَّ الاستنكار التعرُّض لذكر هذه الأحاديث ودلالتها الصريحة!

وفي اعتقادي أن هذا الاستنكار إنَّما ينصبُّ منهم علىٰ النَّبيِّ ﷺ الَّذي قالها إن صدقوا بها. وهذا - كما هو ظاهر - كفرٌ بواح، أو علىٰ الأقلِّ: علىٰ الأئمَّة الَّذين رووها وصحَّحوها، وهذا فسقٌ أو كفرٌ صراح؛ لأنه يلزم منه تشكيكُ المسلمين بدينهم؛ لأنه لا طريق لهم إلىٰ معرفته والإيمان به إلا من طريق نبيِّهم ﷺ كما لا يخفىٰ علىٰ كلِّ مسلم بصير بدينه، فإذا لم يصدِّقوا بها لعدم موافقتها لعواطفهم وأذواقهم وأهوائهم - والنَّاس في ذلك مختلفون أشدَّ الاختلاف - كان في ذلك فتحُ باب عظيم جدًّا لردِّ الأحاديث الصحيحة، وهذا أمر مُشاهد اليوم من كثير من الكُتَّاب الذين ابتلِيَ المسلمون بكتاباتهم؛ كالغزالي والهويدي وبليق وابن عبد المنَّان وأمثالهم، ممَّن لا ميزان عندهم لتصحيح الأحاديث وتضعيفها إلَّا أهواؤهم!

واعلم أيُّها المسلم - المُشفق علىٰ دينه أن يُهدم بأقلام بعض المتسببين إليه - أن هذه الأحاديث =

=

ونحوها ممَّا فيه الإخبار بكفر أشخاص أو إيمانهم، إنما هو من الأمور الغيبية الَّتي يجب الإيمانُ بها وتلقِّيها بالقبول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ١ - ٣]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]،، فالإعراض عنها وعدم الإيمان بها يلزم منه أحدُ أمرين لا ثالث لهما - وأحلاهما مُرٌّ -: إمَّا تكذيب النبيِّ ﷺ، وإمَّا تكذيب رُواتها الثِّقات كما تقدَّم. وأنا حين أكتب هذا أعلم أن بعض الَّذين يُنكرون هذه الأحاديث أو يتأوَّلونها تأويلًا باطلًا كما فعل السيوطيُّ - عفا الله عنَّا وعنه - في بعض رسائله - إنَّما يحملهم علىٰ ذلك غُلوُّهم في تعظيم النبيِّ ﷺ، وحبُّهم إيَّاه، فينكرون أن يكون أبواه ﷺ كما أخبر هو نفسه عنهما، فكأنَّهم أشفق عليهما منه ﷺ!

وقد لا يتورَّع بعضُهم أن يركن في ذلك إلىٰ الحديث المشهور علىٰ ألسنة بعض النَّاس الَّذي فيه أن النبيَّ ﷺ أحيا الله له أمَّه، و في رواية: أبويه. وهو حديث موضوع باطل عند أهل العلم كالدارقطنيِّ والجوزقانيِّ، وابنُ عساكر، والذهبيِّ، والعسقلانيِّ، وغيرهم كما هو مبيَّن في موضعه، وراجع له إن شئت كتاب: «الأباطيل والمناكير» للجوزقانيِّ بتعليق الدكتور عبد الرحمن الفريوائي (١/ ٢٢٢ - ٢٢٩)، وقال ابنُ الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٨٤): «هذا حديث موضوعٌ بلا شكٍّ، والَّذي وضعه قليل الفهم، عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أنَّ مَنْ مات كافرًا لا ينفعه أن يُؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المُعاينة، ويكفي في ردِّ هذا الحديث قوله تعالىٰ: ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾، وقوله ﷺ في «الصَّحيح»: «**اِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي**».

ولقد أحسن القول في هؤلاء بعبارة ناصعة وجيزة الشيخُ عبدُ الرحمن اليمانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للإمام الشوكانيِّ، فقال (ص ٣٢٢): «كثيرًا ما تجمح المحبَّة ببعض الناس، فيتخطَّىٰ الحجَّة ويحاربها، ومن وُفِّق علم أن ذلك مُنافٍ للمحبَّة الشرعيَّة. والله المستعان».

قلت: وممَّن جمحت به المحبَّة السيوطي - عفا الله عنه -، فإنَّه مالَ إلىٰ تصحيح حديث الإحياء الباطل عند كبار العلماء كما تقدَّم، وحاول في كتابه «اللآلئ» (١/ ٢٦٥ - ٢٦٨) التوفيق بينه وبين حديث الاستئذان وما في معناه بأنه منسوخ، وهو يعلم من علم الأصول أن النسخ لا يقع في الأخبار، وإنَّما في الأحكام! وذلك أنَّه لا يُعقل أن يُخبر الصادق المصدوق عن شخص أنَّه في النار، ثمَّ ينسخ ذلك بقوله: إنَّه في الجنَّة! كما هو ظاهرٌ معروفٌ لدىٰ العلماء.

ومن جموحه في ذلك أنَّه أعرض عن ذكر حديث مسلم عن أنس المطابق لحديث الترجمة إعراضًا مطلقًا، ولم يُشِر إليه أدنىٰ إشارة، بل إنَّه قد اشتطَّ به القلم وغلا، فحكم عليه بالضعف مُتعلِّقًا بكلام بعضهم
=

والحديثان الأوَّلان في «صحيح مسلم» علمًا بأنَّ الإيمان لا يكون إلَّا في حال الحياة الدُّنيويَّة، فلو مات الإنسان على اعتقاد شيءٍ من الشِّرك، فإنَّه يكون خالدًا مُخلَّدًا في النَّار، ولا تُغني عنه قرابةُ قريبٍ، وإن كان القريب من أفضل الخَلْق عند الله وأحبِّهم إليه، فالإيمان بعد تجاوز الحياة الدُّنيا لا يكون إيمانًا نافعًا حتَّى إنَّ التَّوبة لا تُقبَل بعد الغَرْغرة[(١)]؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

وبالله التَّوفيق.

=

في رواية حماد بن سلمة! وهو يعلم أنه من أئمَّة المسلمين وثقاتهم، وأن روايته عن ثابتٍ صحيحةٌ، بل قال ابنُ المديني وأحمد وغيرُهما: «أثبت أصحاب ثابت حمادٌ، ثمَّ سليمان، ثم حمَّاد بنُ زيد، وهي صحاح».
وتضعيفه المذكور كنت قرأته قديمًا جدًّا في رسالة له في حديث الإحياء - طبع الهند - ولا تطولها يدي الآن لأنقل كلامه، وأتتبَّع عواره؛ فليراجعها من شاء التثبُّت. ولقد كان من آثار تضعيفه إيَّاه أنَّني لاحظت أنَّه أعرض عن ذكره أيضًا في شيء من كتبه الجامعة لكلِّ ما هبَّ ودبَّ، مثل «الجامع الصغير» و«زيادته» و«الجامع الكبير»! ولذلك خلا منه «كنز العمال» والله المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.
وتأمَّل الفرق بينه وبين الحافظ البيهقيِّ الَّذي قدَّم الإيمان والتصديق على العاطفة والهوى؛ فإنه لمَّا ذكر حديث: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ»، قال عقبه: «وأبواه كانا مشركَيْن»، بدليل ما أخبرنا... »، ثم ساق حديث أنس هذا، وحديثَ أبي هريرة المتقدِّم في زيارة قبر أمِّه ﷺ».

(١) أخرج الترمذيُّ (٣٥٣٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»، وحسَّنه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح وضعيف سنن التِّرمذي».



بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا عَلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»(١).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٠١).

فَيَقُولُ جِبرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ. فَيَنتَهِي جِبرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ »[1].

الشرح:

معنىٰ ﴿فُزِّعَ﴾؛ أي: زال عنها الفزع، والمراد بهم: الملائكة كما في الأحاديث، فإذا رُدَّت إليهم عقولهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾. قال بعضُهم لبعضٍ هو ﴿ٱلْحَقَّۖ﴾؛

(١) أخرجه ابنُ أبي عاصم في «السُّنَّة» (٥١٥)، ومحمَّد بنُ نصر المروزيُّ في «تعظيم قدر الصلاة» (٢١٦)، والطبريُّ في «التفسير» (١٩/ ٢٧٨ هجر)، وابنُ أبي حاتم في تفسيره (٥/ ٤١٦ - تفسير ابن كثير)، وابنُ خزيمة في «التَّوحيد» (١/ ٣٤٨ الرُّشد)، والطَّبرانيُّ في «مسند الشاميين» (٥٩١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٥٢)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٤٣٥)، من طرق عن نُعيم بن حمَّاد قال: ثنا الوليدُ بنُ مسلمٍ، عن عبد الرَّحمنِ بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عنِ ابنِ أبي زكريَّا، عن رجاءِ بنِ حيْوةَ، عنِ النَّوَّاسِ بنِ سمعانَ به.

وهذا الإسناد فيه علَّتان: **الأولىٰ**: نُعيم بن حمَّاد هو المروزي، وثَّقه طائفةٌ من أهل العلم، وليَّنه آخرون؛ قال أبو علي النيسابوريُّ: «سمعتُ النسائيَّ يذكر فضلَ نُعيم بن حمَّاد وتقدُّمه في العلم والمعرفة والسنن، ثم قيل له في قبول حديثه؟ فقال: «قد كثُر تفرُّده عن الأئمَّة المعروفين بأحاديث كثيرة، فصار في حدِّ من لا يُحتجُّ به». انظر ترجمته من «الميزان» للذهبي (٤/ ٢٦٧ - ٢٧٠)، و«التَّهذيب» لابن حجر (١٠/ ٤٦٠ - ٤٦٣).

وتابع نُعيمًا عمرو بنُ مالك الرَّاسبيُّ عن الوليد به. أخرجه أبو الشَّيخ في «العظمة» (٢/ ٥٠٠). لكن عمرو بنُ مالك هذا ضعيف متَّهمٌ بسرقة الحديث، تركه أبو زرعة؛ كما في «الميزان» (٣/ ٢٨٥).

والثَّانية: الوليد بنُ مسلم، وقد كان يُدلِّس تدليس التَّسوية كما في «المدلِّسين» لأبي زُرعة العراقي (ص٩٩ الوفاء)، و«التبيين لأسماء المدلِّسين» للسبط ابن العجمي (ص٦٠ الكتب الإسلامية).

وقد عنعن هنا، وقد ورد في طريقين عند الطبراني ذكرُ التحديث، إلَّا أن الطريقين إليه فيهما ضعفٌ. وخالفهما خمسةٌ من الثقات، ليس في رواياتهم ذكرُ التحديث.

وسُئل دُحيم عن هذا الحديث، فقال: «لا أصل له» كما في «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (ص٦٢١) و«الميزان» للذَّهبي (٤/ ٢٦٩).

وقال أبو حاتم الرازي: «ليس هذا الحدِيثُ بِالشَّامِ عنِ الوليدِ بنِ مُسلِمٍ، رحمهُ اللهُ». «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٦/ ٥١٦)، وضعَّفه أيضًا الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١/ ٢٢٧).

أي: قال ربُّنا كذا.

قوله: «**خُضْعَانًا**» المراد به: خضوعًا لربِّهم، وخوفًا من جلاله.

قوله: «**كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ**»: الصَّفوان: هو الحجر الأملس، وإذا جُرَّت عليه السِّلسلة سُمِع لها صوتٌ.

قوله: «**يَنْفُذُهُمْ**»؛ أي: يسمعونه جميعًا.

قوله: «**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ**». والمراد به: مُسترق السَّمع من الجنِّ.

وتضمَّن الحديث وصف كونهم يسترقون السَّمع، وذلك بأنَّ الجنَّ روحانيُّون - يعني: أرواحًا الله أعلم كيف خلقها - فيهم خِفَّةٌ، فيركب بعضهم بعضًا حتَّىٰ يصلوا فوق العنان، أي: فوق السَّحاب، فيسمع مسترقُ السَّمع الكلمة، فيُلقيها علىٰ مَنْ تحته، ثمَّ يُلقيها الآخر علىٰ مَنْ تحته حتَّىٰ يُلقيَها علىٰ لسان السَّاحر أو الكاهن، فربَّما أدركه الشِّهاب قبل أن يُلْقيَها، وربَّما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها - أي الكاهن - مئة كذبةٍ.

يُؤخَذ منه عدَّة مسائل:

١ - أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُمكِّن الشَّياطين أن يسترقوا شيئًا من السَّمع، أي من أخبار الملائكة ابتلاءً لعباده، فيُصدِّقُون الرُّسل، ويُكذِّبون الشَّياطين أو يُصدِّقون الشَّياطين ويُكذِّبون الرُّسل؛ لكن حين بدأ القرآن ينزل طردوا من السَّماء، فلم يكد أحدٌ منهم يدرك سماعَ كلمةٍ لكثرة الرَّمي بالشُّهب؛ خوفًا من أن يسمعوا شيئًا من القرآن، فيُلْقوه علىٰ لسان السَّحرة والكَهَنة فيختلُّ الأمر علىٰ النَّاس، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

طُرِدوا في حال نزول الوحي، وكان ذلك من حفظ الله للقرآن حين نزوله؛ أمَّا حفظه بعد نزوله فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَدْ حفظه من أن يدخل فيه شيءٌ من غيره، فقد مضىٰ من حين نزوله ألفٌ وأربع مئة عامٍ لم يستطع أحدٌ أن يُدْخِل فيه حرفًا واحدًا.

وفي ذلك ردٌّ علىٰ الرَّافضة الكذَّابين في زعمهم أنَّ القرآن ضاع منه شيءٌ أو ترك منه شيءٌ، وهذا تكذيبٌ لله في خبره حين يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

أمَّا بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ فلابدَّ أنَّ الشَّياطين قَدْ عادت للاستراق ليبتلي الله عباده.

وَقَدْ ورد وصفُ كيفيَّة الوحي في حديث النَّوَّاس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ**... ».

قوله: «**صُعِقُوا**»؛ أي: غُشِي عليهم، فيعمُّ الغشيُ أهلَ السَّموات كلَّهم.

ويُؤخَذ منه ومن الَّذي قبله: أنَّ الكاهن يُصدَّق بالكلمة الَّتي سُمعت من السَّماء؛ لأنَّ الكاهنَ يقول تلك الكلمة، ويزيد عليها أشياء كثيرةً، والأمرُ واضحٌ في هذا.

ويُؤخَذ منه: صفةُ الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الله يتكلَّم بكلامٍ يسمعه جبريل، ويسمعه مَنْ شاء الله مِنَ الملائكة، وَقَدْ سمعه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَقَدْ أثبت الله ذلك في قوله: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ويُؤخَذ منه: أنَّ نفوس بني آدم مُهيَّئةٌ لقبول الباطل والحقِّ، والخير والشَّرِّ، ولذلك فإنَّ العبد ينبغي له أن يتحامىٰ سماع الشَّرِّ حتَّىٰ لا يُؤثِّر علىٰ قلبه.

وفيه ردٌّ علىٰ مَنْ عَطَّل الله عن صفاته، فأنكر صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ كالجهميَّة والمعتزلة، أو تأوَّله كالأشعريَّة.

ويُؤخَذ منه: أنَّ الملائكة يخافون من ربِّهم، فكيف يُعبَدون من دونه، وَقَدْ وصفهم الله بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾ [النحل: ٥٠].

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتان [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ(١): «نَفَىٰ اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ، وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(٢).

---

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية طيَّب الله ثراه.

(٢) جزء من حديث الشفاعة الطويل؛ أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[1]»[2].

الشرح:

الشَّفاعة هي: أن يكون الشَّافع يشفع لطالب الحاجة في طلبها حيث يكون طالبُ الحاجة منفردًا بطلبها، فينضمُّ إليه الشَّافع فيكون طالبًا للحاجة نفسها منضمًّا إلىٰ صاحبها، ومُعزِّزًا له.

وهي مأخوذةٌ من الشَّفع الَّذي هو ضدُّ الوَتْر، والوَتْر: هو الواحد، والثَّلاثة، والخمسة، والسَّبعة، والتِّسعة.

والشَّفع هو: ما انقسم علىٰ اثنين من دون كسرٍ، ويبدأ بالعدد اثنين، ثمَّ الأربعة، ثمَّ السِّتَّة، ثمَّ الثَّمانية، وهكذا دواليك.

ولمَّا كان المشركون يعبدون غير الله مع أنَّهم يعتقدون أنَّ الله هو الخالق، وهو الرَّازق، وهو المُحيي، وهو المُميت، لكنَّهم يعبدون تلك المعبودات، ويزعمون أنَّهم شفعاء لهم عند الله، فنفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ زعمهم هذا.

وأخبر أنَّ الشَّفاعة لله، وأنَّه لا يَملكها أحدٌ غيره، لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وأنَّ الواجب أن تُطلَب الشَّفاعة من الله؛ لأنَّها لا تكون إلَّا بإذنه، ولا يستطيع أحدٌ أن يشفع إلَّا بعد رضاه، وهي في الحقيقة إكرامٌ للشَّافع، ورحمةٌ للمشفوع له بعد الرِّضا عن المشفوع له، وَقَدْ أخبر الله في هذه الآيات بذلك، فقال:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: أنَّه هو الَّذي يملكها وحده دون سواه.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٧٧، ٧٨).

وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فـ «مَنْ» هنا استفهامٌ إنكاريٌّ؛ أي: لا يستطيع أحدٌ أن يشفع عنده إلَّا بإذنه.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، فأخبر جَلَّ وَعَلَا أنَّ الملائكة المُقرَّبين لا يستطيعون أن يشفعوا إلَّا من بعد إذن الله عَزَّوَجَلَّ ورضاه عن المشفوع له؛ ومَنِ اعتقد جواز الوساطة علىٰ الله وطلب الشَّفاعة منهم، وقاسها علىٰ حال ملوك الدُّنيا الَّذين تُطلَب منهم الحاجات، فقياسُهُ هذا باطلٌ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقاس بخلقِهِ، ولا يحتَاج إلىٰ أحدٍ من خلقِهِ، فالمُلوك يحتاجون إلىٰ مَنْ حولهم باعتبار أنَّ المخلوقين يُكمِّل بعضهم بعضًا، ويُعِين بعضهم بعضًا؛ أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فالنَّاس كلُّهم محتاجون إليه، وهو غنيٌّ عنهم: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. والشَّفاعة لا تحصل من الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا بعد رضاه عن المشفوع له، وإكرامه للشَّافع.

وَقَدْ جاء في الحديث: عن أبي هريرة أنَّه قال له: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**».

فمن شروط الشَّفاعة أنَّها للمُوحِّدين، ولا تكون إلَّا بعد رضا ربِّ العالمين، وعلىٰ ذلك تضافرت الأدلَّة؛ فمَنْ طلبها من غير الله حُرِمَها، ومَنْ مات على الشِّرك فإنَّها لا تنفعه شفاعةٌ، ولا تقع فيه شفاعةٌ.

ولهذا قال جلَّ من قائل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

لمَّا كان ملوك الدُّنيا يكون مَنْ يُعِينهم شريكًا لهم في ملكهم، فنفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه وعن ملكه الشَّراكة حتَّىٰ لو كان في مثقال ذَرَّةٍ، ونفىٰ أن يكون له ظهيرٌ من خلقِهِ، لا مَلكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، فما له ظهيرٌ ولا شريكٌ، ولا معينٌ ولا وزيرٌ، ومع ذلك قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، فالنَّبيُّ ﷺ لم يشفع في أحدٍ من قرابته الَّذين ماتوا علىٰ الشِّرك إلَّا في أبي طالبٍ، فإنَّه يشفع في تخفيف العذاب عنه وليس في إخراجه من العذاب.

وكذلك قَدْ ورد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ! فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ[(١)]، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ» رواه البخاريُّ[(٢)].

والذِّيخُ: هو ولد الضَّبُع الصَّغير.

ومعنىٰ تلطُّخه بالعذرة: تلطُّخه بالشِّرك والكفر.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ عدم قبول الشَّفاعة فيه، وإن كان ولده خليلَ الرَّحمن.

فالشَّفاعة المنفيَّة: هي الَّتي تُطلَب من غير الله، أو تُطلَب للمشرك.

والشَّفاعة المُثبتَة: هي الَّتي تُطلَب من الله.

فإن قيل: كيف طُلبت الشَّفاعةُ من الأنبياء في الآخرة في فصل القضاء؟

---

(١) أي: متلوث بالدم والقاذورات.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٠).

فالجواب: لأنَّه حينئذٍ كان الأنبياء جميعًا وغيرهم قَدْ أحياهم الله الحياة الأخيرة، وحينئذٍ جاز الطَّلب منهم مباشرةً، فإنَّ منع طلب الشَّفاعة من غير الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما هو طلبُها من المَيِّت أو الغائب، والرُّسل في ذلك اليوم موجودون أحياءً، فجاز طلبُ الشَّفاعة منهم، فلا تَعلُّق بهذه الشُّبهة لأحدٍ من المشركين الَّذين يريدون شيئًا يَتعلَّقون به لِيُجوِّزوا ما لم يكن جائزًا، ويبيحوا ما كان ممنوعًا.

أمَّا أقسام الشَّفاعة وأنواعها فهي سبعُ شفاعاتٍ؛ ثلاثٌ منها خاصَّةٌ بالنَّبيِّ ﷺ لا يشاركه فيها أحدٌ، وهي:

١- الشَّفاعة في فصل القضاء الَّتي يُقال لها: المقام المحمود[(١)].

٢- الشَّفاعة في استفتاح باب الجنَّة[(٢)].

٣- الشَّفاعة في تخفيف العذاب عن عمِّه أبي طالبٍ[(٣)].

أمَّا الشَّفاعات في أقوامٍ استحقُّوا دخول النَّار ألَّا يدخلوها، أو في أقوامٍ دخلوا النَّار أن يخرجوا منها، والشَّفاعة في أهل الأعراف الَّذين استوت حسناتُهم وسَيِّئاتُهم أن يدخلوا الجنَّة، والشَّفاعة في رفعة درجات أقوامٍ في الجنَّة، فهذه الأربع عامَّةٌ يشارك فيها النَّبيُّ ﷺ وغيره من الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء

(١) أخرج البخاري (٤٧١٨) عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: **«إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ»**.

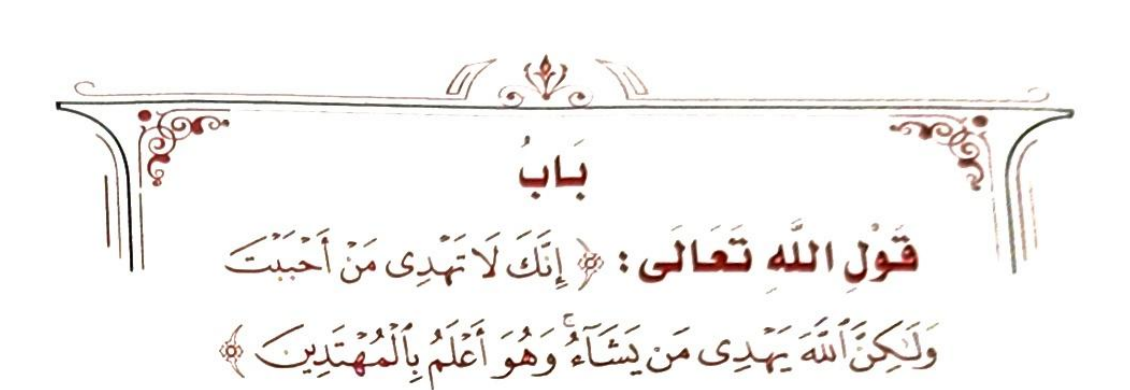
(٢) أخرج مسلم (١٩٦)، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ»**.

(٣) أخرج البخاريُّ (٦٥٦٤) ومسلم (٢١٠) عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع رسول الله ﷺ، وذُكر عنده عمُّه أبو طالب، فقال: **«لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ»**.

وسائر المؤمنين، فهذه أربعٌ، وتلك ثلاثٌ، أي: الخاصَّة بالنَّبيِّ ﷺ، إذًا فالجملة سبع شفاعاتٍ؛ اللَّهمَّ اجعلنا ممَّن تُشفِّع فيهم نبيَّك ﷺ.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**».

فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

وَأَنْزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]»[1].

الشرح:

الهداية تنقسم إلىٰ قسمين:

١ - هداية دلالةٍ وبيانٍ وإرشادٍ، وهذه الهداية مثبتةٌ في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

٢- هدايةٌ مَنفيَّةٌ، وهي هداية التَّوفيق، وإصلاح القلوب لقبول الحقِّ ومتابعته؛ فهذه الهداية ينفرد بها الله وحده دون سواه، فلا يشاركه فيها أحدٌ، لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وهي المذكورة في هذه الآية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

ثمَّ أورد هذا الأثر عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ... » إلخ.

يُؤخَذ من هذا الحديث:

١- حرصُ النَّبيِّ ﷺ علىٰ عمِّه أن يقول: لا إله إلَّا الله.

٢- أنَّ صاحب الخير لا يخلو من مُعارضٍ، فقد عارض النَّبيَّ ﷺ في دعوته لعمِّه: أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، فكان إذا كرَّر عليه أن يقول: لا إله إلَّا الله، ودعاه إلىٰ قولها، كرَّر عليه أولئك مقالتهم: أترغب عن مِلَّة عبد المُطَّلب أو عن دين عبد المُطَّلب.

٣- إذا كان النَّبيُّ ﷺ مع ما له عند الله من مقامٍ، وما له عنده من جاهٍ، فهو أفضل الخَلْق علىٰ الإطلاق، وأعظمهم عند الله جاهًا، وأقربهم إليه وسيلةً، لا يقدر علىٰ هداية مَنْ أحبَّ هدايةَ توفيقٍ؛ لأنَّ هداية التَّوفيق كلَّها بيد الله، فهو الَّذي يهدي القلوب، ويردُّها إلىٰ الحقِّ إذا شاء، وهو الَّذي يمنع ذلك، ويترك أصحاب الضَّلالة في ضلالاتهم يعمهون حتَّىٰ يواجهوا الحقيقة المُرَّة، فكان أبو طالبٍ آخر ما قال: أنَّه علىٰ مِلَّة عبد المطَّلب.

٤- **يُؤخَذ منه:** أنَّ ملَّة عبد المُطَّلب هي مِلَّة المشركين في زمنه، فكانوا يؤمنون بما آمن به أهلُ ذلك العصر، وفي محيط العرب، وينفون ما نفوه، وهو

البعث بعد الموت، ولهذا فإنَّ أبا طالبٍ استحقَّ دخول النَّار بذلك، فقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّه يأتي إليه يوم القيامة وهو في غمرةٍ من جهنَّم، فيخرجه إلىٰ ضَحْضَاحٍ منها، فله في قدَمَيه جَمْرتان يغلي منهما دِماغُهُ، كما ورد في الحديث[١].

٥- يُؤخَذ منه عظمةُ شأن التَّوحيد، وأنَّ له الأثر العظيم في مستقبل العبد، وأنَّ مَنْ مات علىٰ غيره لا بدَّ أن يواجه الحقيقة المُرَّة من دخول النَّار، والخلود فيها أبد الآباد، ودهر الدُّهور.

٦- ويُؤخَذ منه: أنَّ محبَّة العاطفة لا يُؤخَذ بها، فقد حرص النَّبيُّ ﷺ علىٰ أبي طالبٍ أن يُنجِّيه الله من النَّار مَحبَّةً له، وَقَدْ أثبت الله هذه المحبَّة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

٧- يُؤخَذ منه: مَضرَّة جلساء السُّوء علىٰ الإنسان.

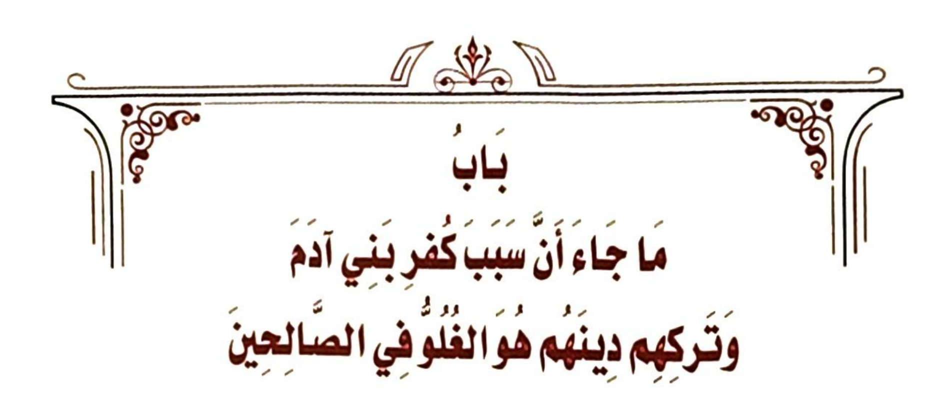
٨- يُؤخَذ منه: مَضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر إذا كان بغير حقٍّ.

٩- يُؤخَذ منه: أنَّ الأعمال بالخواتيم.

وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرج البخاريُّ (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٢) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ». وأخرج أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤/ ٤١) (٢٠٤٧) والطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٢٠) (٨١٥٢)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سُئِل النَّبيُّ ﷺ عن أبي طالب: هَلْ تَنْفَعُهُ نُبُوَّتُكَ؟ قال: «نَعَمْ، أَخْرَجْتُهُ مِنْ غَمْرَةِ جَهَنَّمَ إِلَىٰ ضَحْضَاحٍ مِنْهَا...». وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح السِّيرة النَّبويَّة» (ص٩٤): «إسناده حسن، ولبعضه شواهد في الصَّحيح».



بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِم دِينَهُم هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وقولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣] - قَالَ: «هَذِهِ أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم أَنِ انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ فِيهَا أَنصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا، وَلَم تُعبَد، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلمُ عُبِدَتْ»[١].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ: «قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»[٢].

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ[٣].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠)، وفيه: «وَتَنَسَّخَ العِلْمُ» أي: زالت معرفةُ النَّاس بأصل نصبها.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٤٤٥)، ولم أجده عند مسلم.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٥١) و(٣٢٤٨)، والنسائي (٣٠٥٧) و(٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، من حديث =

وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» قَالَهَا ثَلَاثًا[1].

الشرح:

الغلوُّ: هو الزِّيادة في الشَّيء عن قدرِهِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهىٰ أهل الكتاب عن الغلوِّ، ذلك بأنَّهم بالغلوِّ دخلوا فيما لم يَجُزْ لهم الدُّخول فيه، فالنَّصارىٰ غَلَتْ في عيسىٰ ابن مريم حيث أَلَّهوه أو جعلوه ابنًا لله، واليهود غَلَوْا في عُزَيرٍ حتَّىٰ جعلوه ابنًا لله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهاهم عن الغلوِّ بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، والحقُّ ألَّا يُعتَدىٰ علىٰ مقام الألوهيَّة، فلا يجوز أن يقال في أحدٍ: إنَّه ابنٌ لله.

ثمَّ أورد حديثَ ابْنِ عَبَّاسٍ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة (نوح): ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ قال: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ.... » إلخ.

يُؤخَذ من هذا الأثر:

١- أنَّ فتنة بني آدم، ودخولهم في الشِّرك كان من طريق الغلوِّ.

٢- **يُؤخَذ منه:** أنَّ الشَّيطان يدخل بالحِيلَة حتَّىٰ يدخلهم في الذَّرائع الَّتي تُوصِلهم إلىٰ الشِّرك، فهو أمرهم أن يُصوِّروا صور أولئك الصَّالحين، ولم يأمرهم بعبادتهم أوَّلًا.

٣- **يُؤخَذ منه:** أنَّ الشَّيطان لا يَهمُّه أن يطول الأمر، أي: يمتدُّ الزَّمان قبل أن تُعبَد، فهو أمرهم بنَصْبِ صورهم في أماكنهم، ثمَّ جاء لهم بحيلةٍ أخرىٰ، فالحيلة

=

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٢٨٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

الأُولَىٰ قال لهم: إذا نصبتم صورهم فإنَّكم تتذكَّرون ما كانوا يقولون لكم، فيدفعكم ذلك إلىٰ العبادة، وثانيًا قال لهم: إنَّ آباءكم كانوا يَسْتَسقون بهؤلاء الرِّجال، فيُسْقَون، ففعلوا ذلك حتَّىٰ إذا انقرض الجيل الأوَّل وجاء جيلٌ جديدٌ، قال لهم: إنَّ آباءكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم.

وهكذا الشَّيطان ينزل مع النَّاس درجةً درجةً حتَّىٰ يوقعهم في الشِّرك بالله.

٤- أنَّ الشَّيطان قَدْ أحيا فِكْر هؤلاء الرِّجال بعد الغرق، وهلاك قوم نوحٍ كلِّهم، فأحيا لهم ذِكْر هؤلاء الرِّجال، ولمَّا بُعِث النَّبيُّ ﷺ كان هؤلاء معبودين كما هو مُبيَّنٌ في بعض الآثار.

يُؤخَذ من حديث عمر: «**لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ...**». إلخ.

الإطراء: هو المبالغة في المدح، والخروج بالممدوح إلىٰ حدِّ المغالاة فيه، فالنَّبيُّ ﷺ نهىٰ أُمَّته عن الإطراء الَّذي يخرج بهم إلىٰ حدِّ التَّأليه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ قال له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

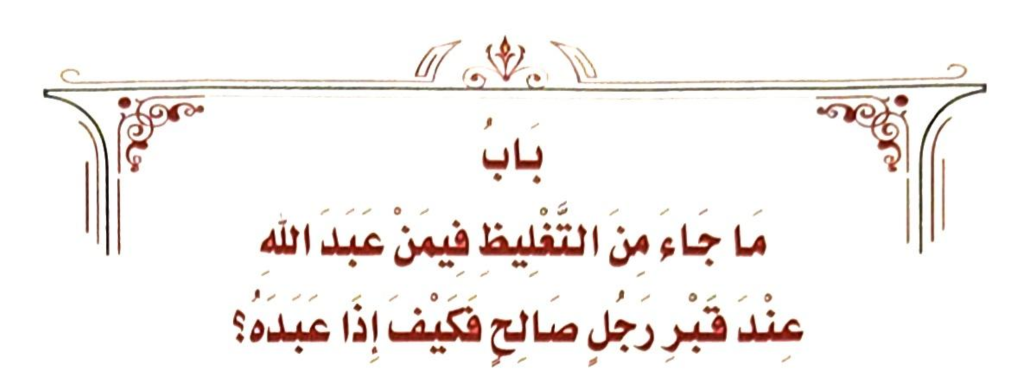
العمل الصَّالح هو الَّذي يكون خالصًا لله، وموافقًا لما جاء عن رسول الله ﷺ من غير مغالاةٍ، ولا تقصيرٍ، فالمغالاة لا تجوز، والتَّقصير كذلك، وَقَدْ يكون مَضرَّةُ التَّقصير أخفَّ من مَضرَّة المغالاة؛ لأنَّ المغالاة في المخلوق تخرج به عن حدِّه، وتجاوزُ الحدِّ يُصيِّر العبد طاغوتًا.

وقوله: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ**»: هذا دلَّ علىٰ خطورة الغلوِّ، وأنَّ الواجب علىٰ العباد أن يَتَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يعملوا ما أمروا به من دون مغالاةٍ، ولا تقصيرٍ.

ثمَّ الحديث الأخير عن ابْنِ مَسْعودٍ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» قالها ثلاثًا، والتَّنطُّع هو التَّشدُّد والتَّكلُّف بما لا ينبغي، فيجب الاقتصاد في الشَّيء وعدم الزِّيادة فيه، كما أنَّه لا ينبغي أن ينقص الشَّيء عن قدرِهِ، فكذلك لا يزاد عمَّا يستحقُّه.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوِ: العَبْدُ الصَّالِحُ - بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[1]. فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ القُبُورِ وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2]، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا». أَخْرَجَاهُ[3].

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٣)، ومسلم (٥٣١).

(٣) هذا جزءٌ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخرجه البخاريُّ (١٣٩٠)، ومسلمٌ (٥٢٩). ولفظُه: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، قَالَتْ: «فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا».

كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[(١)].

فَقَدْ نَهَىٰ عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ.

وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهَا: خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[(٢)].

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»[(٣)].

الشرح:

هذه الأحاديث كلُّها تدلُّ:

١ - علىٰ تحريم اتِّخاذ القبور مساجد؛ سواءٌ جُعِلت القبور في المسجد بعد

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥ و٤٣٥) (٣٨٤٤) و(٤١٤٣)، وابنُ أبي شيبة في «المسند» (١/ ١٨٦)، وفي «المصنَّف» (٣/ ٣٠)، والبزَّار في «المسند» (٥/ ١٣٦)، وابنُ خزيمة في «الصحيح» (٧٨٩)، وابنُ حبَّان في «الصحيح» (٦٨٠٨)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٠/ ١٨٨). وإسناده حسنٌ. والشطر الأول من الحديث رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٩/ ٤٨). وانظر: «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» للألبانيِّ (ص ٢٦ - ٢٧ المعارف).

بنائه، أو بُنِي المسجد في وسط المقابر، كلُّ ذلك لا يجوز.

ولا يجوز أن يُصلَّىٰ في مسجدٍ حوله مقابر، وبالأخصِّ إذا كانت المقابر في قِبْلته، فإنْ كان المسجد بُنِي علىٰ القبر، أو علىٰ المقابر تعظيمًا لها؛ فإنَّه يجب هدمُه، ومنعُ الصَّلاة فيه.

وإذا كان المسجد مبنيًّا ووُضِعَت المقابر فيه؛ فإنَّ الأَوْلىٰ أن تخرج منه الرِّمم والعظام الَّتي في المقابر، وتنقل إلىٰ مقابر المسلمين، وحينئذٍ يكون المسجد صالحًا للصَّلاة فيه؛ بدون هذا لا تجوز الصَّلاة فيه، وكذلك إذا كانت المقابر محيطةً به من جوانبه.

٢- يُؤخَذ من هذه النُّصوص أنَّ العبادة إن كانت لله عَزَّوَجَلَّ، لكن فَعَلها صاحبها عند هذا القبر تَبرُّكًا به، وظنًّا أنَّ العبادة عنده تكون مقبولةً عند الله عَزَّوَجَلَّ، وفاضلةً لديه، فإنَّ تلك العبادة تكون باطلةً ومردودةً علىٰ صاحبها، ولا يجوز له أن يفعلها عند القبر.

٣- أنَّ المعروف من حال النَّاس أنَّهم يذبحون عند القبور، ويزعمون أنَّ هذه الذَّبيحة إنَّما ذُبحت لله، وهذا غير صحيحٍ، ولو كان قصد الذَّبح لله، لذبحها في بيته ولم يأتِ بها إلىٰ القبر، وعلىٰ أقلِّ الأحوال فإنَّ هذه العبادة مشتركةٌ بين الله وبين خَلْقِهِ، وفي الحديث أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: «**أَنا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

٤- أنَّ النَّبيَّ ﷺ لعن الَّذين يَتَّخذون القبورَ مساجد، وخَصَّ باللَّعنة اليهود والنَّصارىٰ؛ لأنَّهم كانوا قَدِ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- أنَّ مَنْ دعا العبد الصَّالح؛ سواء كان معروفًا بالصَّلاح كنبيِّ الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعُزَيْرٍ وغيرهم من الصَّالحين، مَنْ دعا أحدًا من هؤلاء، أو عَبَده من دون الله، فإنَّه يكون مشركًا كافرًا، ومَنْ صلَّىٰ عند القبر معتقدًا فضيلة الصَّلاة عند ذلك القبر، فإنَّ هذه ذريعةٌ إلىٰ الشِّرك من أشدِّ الذَّرائع الموصلة إليه.

وكَمْ أكَّد النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد، ولعن مَنْ فعل ذلك.

٦- يُؤخَذ منه تحريم التَّصوير، وتكون الحُرْمة أشدَّ إذا قصد بالتَّصوير العبادة للشَّخص المُصوَّر كودٍّ، وسُواعٍ، ويغوث، ويعوق، ونسرٍ.

٧- أنَّ قبر النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خارجًا عن المسجد؛ لأنَّ بيته كان إلىٰ جنب المسجد، وَقَدْ دُفِنَ في بيته، وفي عهد الوليد بن عبد الملك أَمَرَ بعمارة المسجد، وأُدخلت الحجرة في المسجد، ولم يكن ذلك عن رضا من أهل العلم، بل إنَّ بعض أهل العلم الَّذين كانوا موجودين في تلك الأزمنة كرهوا ذلك، ومنهم سعيد بن المسيب.

٨- أمَّا القُبَّة الخضراء الَّتي بُنِيَتْ علىٰ قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد بُنِيَتْ في آخر القرن السَّادس، بناها ملكٌ من ملوك مصر.

فمَنِ احتجَّ بوجود قبر النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجده، فلا حُجَّةَ له في ذلك، وكذلك مَنِ احْتجَّ علىٰ البناء علىٰ القبور بوجود تلك القُبَّة فلا حُجَّة له في ذلك؛ لأنَّ تلك الأمور فُعِلَتْ من أُناسٍ يكون عندهم جهلٌ، ولهم سلطةٌ لا يستطيع النَّاس الرَّدَّ عليهم، فعملوا ذلك بزعمهم أنَّه محبَّةٌ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمٌ له.

٩- **يُؤخَذ من الحديث الأخير**: أنَّ الَّذين يَتَّخذون القبور مساجد من شرار الخَلْق عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

١٠- أنَّ النَّبيَّ ﷺ كرَّر النَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد بالأخصِّ في آخر حياته، وقُرْب موته ﷺ حتَّىٰ لا يَتوهَّم مُتوهِّمٌ أو يظنَّ ظانٌّ نَسْخه أو إبَاحَته.

١١- أنَّ الله أكرمه بأن اتَّخذه خليلًا كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا، والخُلَّة هي أعلىٰ من المحبَّة.

١٢- فيه فضيلةٌ لأبي بكرٍ الصِّدِّيق، وإشارةٌ إلىٰ خلافته رضي الله عنه؛ لقوله ﷺ: «**وَلَوِ اتَّخَذْتُ مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»، وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

رَوَىٰ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأِ»: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبيَائِهِم مَسَاجِدَ»(١).

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ»(٢).

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»(٣).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ(٤).

الشرح:

يُؤخَذ من هذا الحديث -الأوَّل-، ومن هذه التَّرجمة:

---

(١) أخرجه مالكٌ في «موطَّئه» (٨٥) عن عطاء بن يسار مرسلًا، ورواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦) (٧٣٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وذكره البوصيري في «إتحاف الخيرَة المهرَة» (٣/ ٢٦٠) من رواية أبي يعلى، وقال: «رواته ثقات». والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «أحكام الجنائز» (ص٢١٧) وفي «تحذير الساجد» (ص٢٥ - ٢٦).

(٢) أخرجه ابنُ جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٩)، والطَّبريُّ في «التفسير» (٢٢/ ٥٢٣ هجر).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩ و٢٨٧ و٣٢٤ و٣٣٧)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والنَّسائيّ (٢٠٤٣)، والترمذي (٣٢٠) وحسَّنه. والحديث ضعَّفه غيرُ واحد من أهل العلم؛ انظر: «البدر المنير» لابن الملقِّن (٢/ ٤٨٣ - ٤٨٦ الهجرة)، و«إرواء الغليل» (٧٦١)، و«السِّلسلة الضَّعيفة» (٢٢٥).

١- أنَّ الغلوَّ سببٌ في جَعْل قبور الصَّالحين أوثانًا تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- **يُؤخَذ منه أنَّ «الوثن»**: كلُّ شيءٍ عُبِدَ من دون الله؛ سواءٌ كان قبرًا أو غير ذلك، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: **«اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»**.

وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ خاف أن يُتَّخذ قبرُه وثنًا يُعبَد من دون الله مع أنَّه هو الَّذي حَذَّر من الشِّرك، وجاهد أهله، وغضب علىٰ مَنْ فعلوه، وأحلَّ الله له ولأُمَّته قَتْل المشركين، وسَبْي نسائهم وذراريهم، وغنيمة أموالهم؛ كلُّ ذلك سببُه عبادتُهم الأوثان من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: **«اِشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**.

ولا يشتدُّ غضب الله إلَّا علىٰ مَنْ أتىٰ أكبر الذُّنوب؛ وأكبرها وأشدُّها وأفظعها: اتِّخاذُ القبور معابد، وأوثانًا تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ. وكم من الآيات الَّتي نصَّ الله فيها علىٰ المشركين، وبيَّن فيها ضعف عقولهم، وبُعْد ما ذهبوا إليه، فكيف يُتَّخذ إلهًا مَنْ صيَّره الله بالموت رِمَّةً، وصار في قبره جِيفَةً؛ لولا أنَّ الله ستر جيفته في الأرض لَمَا استطاع أحدٌ أن يدنو من جِيفَتِه، مع العلم بعجز المخلوقين عن إسعاف مَنْ يطلبهم أو إنجائه ممَّا يخاف.

ولَكَمْ بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ قدرته بما عرض من آياتٍ في الكون، وبيَّن عجز النَّاس وضعفهم عن أَتْفَهِ الأشياء، وأقلِّها وأحقرها؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

فالغلوُّ في قبور الصَّالحين، وكذلك الغلوُّ في الأشخاص يجعل المغلوَّ فيهم معبودين من دون الله تعالىٰ، وَقَدْ حذَّر الله تعالىٰ في كتابه من الغلوِّ، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله: (ولابن جَرِيرٍ بِسنَدِه عنْ سُفيانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: «**كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ**»، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «**كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ**»).

وأقول: إنَّ من عادة النَّاس الغُلوَّ فيمن رأوا منه الصَّلاح، وهذا الغلوُّ هو الَّذي يُصيِّر المغلوَّ فيه معبودًا من دون الله، فهذا الرَّجل الَّذي كان يلتُّ السَّويق، ويطعمه الحاج، غلا فيه النَّاس حتَّىٰ صَيَّروه معبودًا، وعكفوا علىٰ قبره.

وبهذه المناسبة نَتذكَّر أيضًا ما حصل لقومِ نوحٍ بعد آدم حيث كان رجالٌ يدعونهم إلىٰ الله ويَحثُّونهم علىٰ الأعمال الخيريَّة، فلمَّا ماتوا جاء الشَّيطان إلىٰ أقوامهم، وأمرهم أن ينصبوا في أماكنهم صورًا لهم حتَّىٰ يَتذكَّروا ما كانوا يقولون لهم، فيدفعهم ذلك إلىٰ العبادة، ففعلوا، وبعد زمنٍ من حين انقرض ذلك الجيل عبدوا من دون الله.

ومن هنا نعلم أنَّ الشَّيطان قَدْ يدعو إلىٰ العبادة لأغراضٍ له فيها حتَّىٰ يخرج النَّاس من عبادة الله إلىٰ عبادة غيره.

وأمَّا العُزَّىٰ فهي شجراتٌ ثلاثٌ نصبوا عندها صنمًا، وسَمَّوه بالعُزَّىٰ ليعبدوه من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ويقال: إنَّهم اشتقُّوا العُزَّىٰ من العزيز، وكانت العُزَّىٰ في وادي السَّيْل علىٰ طريق الطَّائف فكانت لقريشٍ، ومَنْ جاورها من أهل تهامة، وكان اللَّات لأهل الطَّائف ومَنْ حولهم، فلمَّا جاء الإسلام هدم هذه المعبودات كلَّها، وجعل العبادة لله وحده دون سواه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩ - ٤٠].

قوله: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ).

وأقول: هذا الحديث صحيحٌ بمجموع طُرُقه، ولذلك صحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» برقم (٥١٠٩)[١]، وهو مرويٌّ من طريق ابْنِ عَبَّاسٍ وأبي هريرة وحسَّان بن ثابتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[٢].

وعلىٰ هذا؛ فإنَّ اللَّعن لزَوَّارات القبور من أجل أنَّهنَّ يُكثرن الزِّيارة الشِّركيَّة، ولهذا جاء بصيغة المبالغة، وإلىٰ ذلك ذهب كثيرٌ من أهل العلم، وجعلوا ذلك خاصًّا بالنِّساء اللَّاتي يُكثرن زيارة القبور زيارةً شركيَّةً وبِدْعيَّةً.

وفي تخصيص النِّساء بذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ النِّساء أكثر مَنْ يقعن ضحيَّةً للخرافات والعقائد المُنحرفة المبنيَّة علىٰ الأوهام والتَّخريف، ومَنْ تأمَّل واقع النَّاس يعلم ذلك.

وزعم بعضُهم أنَّ هذا النَّهي كان قبل الإذن بزيارة القبور، وأنَّ الإذن في زيارة

(١) لكن بدون الجملة الأخيرة: «وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». انظر: «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (١/ ٣٩٣ - ٣٩٦) (٢٢٥).

(٢) انظر تخريجها في: «أحكام الجنائز وبدعها» للألباني (ص ١٨٥ - ١٨٦).

القبور الَّذي جاء في الحديث الصَّحيح الَّذي رواه مسلمٌ: «**نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**»(١).

وبعد ذلك جاء الإذن عامًّا للرِّجال والنِّساء.

واستدلَّ مَنْ قال ذلك على الأصحِّ بمرور النَّبيِّ ﷺ بالمرأة الَّتي كانت تبكي على القبر، والحديث في «الصَّحيحين»(٢).

واستدلُّوا أيضًا بزيارة عائشة لقبر أخيها(٣).

وأقول: إنَّ النَّهي الوارد في الحديث لم يكن عن الزِّيارة السُّنيَّة، وإنَّما هو عن الزِّيارة البدعيَّة والشِّركيَّة؛ لأنَّ الزِّيارة السُّنيَّة لا يُلعن صاحبُها، وإنَّما يُلعَن مَنْ أتى مُحرَّمًا، وهؤلاء النِّساء أتين مُحرَّمًا، فلذلك لعنهنَّ النَّبيُّ ﷺ.

والدَّليلُ على ذلك قولُه في وصفهنَّ: «**وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»، إذ إنَّه لا يَتَّخذ على القبور المساجد والسُّرج إلَّا أهل الخرافات.

والفرق بين الزِّيارة البدعيَّة والشِّركيَّة:

أنَّ الزِّيارة البدعيَّة: هي الَّتي يقصد فيها العبادة والدُّعاء عند القبر ظنًّا بأنَّ ذلك يكون سببًا في مضاعفة الأجر وقبول العبادة.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي!**». قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي. وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ! فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى**».

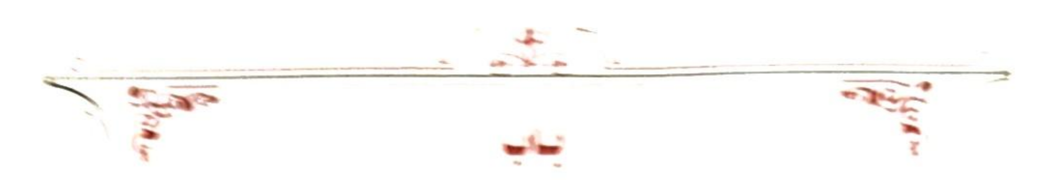
(٣) أخرج قصَّتها التِّرمذيُّ (١٠٥٥)، وعبدُ الرزَّاق في «المصنَّف» (٣/ ٥٧٠) (٦٧١١)، وابنُ أبي شيبة (٧/ ١٣٨ كنوز إشبيليا)، وأبو يعلى (٤٨٧١)، والحاكم (١/ ٥٣٢) و(٣/ ٥٤١)، والبيهقيُّ (٤/ ١٣١)، وصحَّحها الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإرواء» (٧٧٥).

أَمَّا الزِّيارة الشِّركيَّة: فهي الَّتي يُدعَىٰ فيها المقبور، ويُطلَب منه الحاجات، وهذا كثيرٌ في النِّساء.

أَمَّا الزيارة السُّنِّيَّة: وهي المقصودة للدُّعاء للميِّت، فهذه الظَّاهرُ جوازُها للرِّجال والنِّساء عمومًا، وَقَدْ قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا للنَّبيِّ ﷺ: «كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولِي: السَّلَامُ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ»، رواه مسلمٌ[1]، وهذا هو القول الحقُّ في المسألة إن شاء الله، وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).



باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ(١).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ».

رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧) (٨٧٩٠)، وأبو داود ([illegible])، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٧٨٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ([illegible])، والقاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (ص ٣٠)، وأبو يعلى ([illegible])، والضياء في «الأحاديث المختارة» ([illegible]) وفي سنده ضعف. إلا أنه يتقوى بما له من الطرق والشواهد. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ([illegible])، و«الإخنائية» (ص ٤٤٥)، و«تحذير الساجد» (ص [illegible]).

الشرح:

النَّبيُّ ﷺ سدَّ الأبواب والذَّرائع الموصلة إلىٰ الشِّرك، ومن ذلك قولُه ﷺ: «**وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**».

ومن ذلك: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قيل له: «يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ؛ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ**»[(١)].

ومن ذلك: أنَّه لمَّا جاءه رجلٌ وقال: يا رسولَ الله، جَهِدت الأنفس، وضاعت العِيال، ونهكت الأموال[(٢)]، وهلكت الأنعام، فَاسْتَسْق الله لنا، فإنَّا نستشفع بك علىٰ الله، ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ !**».

وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ ! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ هَكَذَا - وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ -، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**»[(٣)].

كلُّ هذا يدلُّ علىٰ حماية النَّبيِّ ﷺ جناب التَّوحيد، فقد دعا - صلوات الله وسلامه عليه - ربَّه ألَّا يجعل قبره وثنًا يُعبَد، وَقَدِ استجاب ربُّه دعاءه، فحَمَاه من ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣) (١٢٥٧٣)، والنَّسائيُّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (٢٤٨) و(٢٤٩). وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (١٠٩٧) و(١٥٧٢).

(٢) أي: نقصت، أو فنيت.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الضعيفة» (٢٦٣٩).

وفي هذا يقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيَّته»:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ[1]

فقد بُنِي علىٰ قبره جدارٌ مثلَّثٌ بحيث لا يتمكَّن أحدٌ أن يقف علىٰ قبره، ويستقبل القِبْلة، ويكون القبر بينه وبين القِبْلة، وأُحِيط بالشبك الَّذي يمنع الدُّخول علىٰ الحُجَر، ومنها حجرةُ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الَّتي دُفِنَ فيها هو وأبو بكرٍ وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أورد المُؤلِّف قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ بحيث إنَّه لا يرضاه أبدًا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: ما يشقُّ عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: حريصٌ علىٰ ما ينفعكم.

وَقَدْ جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا**»؛ يعني: في ظلمة اللَّيل «**فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**» رواه مسلم[2].

وَقَدْ جاء في الحديث: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَىٰ الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**»؛ قال أبو حازم: فَسَمِعَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا يَقُولُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فَيَقُولُ: «**إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ:**

---

(١) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (٣/ ٨١٤ عالم الفوائد).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٥)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. و«**الجنادب**»: جمع جندب، وهي حشرات تشبه الجراد.

سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» رواه مسلم[(١)].

والمهمُّ: أنَّ رسول الله ﷺ كما وصفه الله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: أعرضوا ولم يقبلوا ما جئتَ به، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وفي هذا الحديث (حديث أبي هريرة رضي الله عنه) أَمَر النَّبيُّ ﷺ أُمَّته ألَّا يجعلوا بُيُوتهم قبورًا؛ لأنَّ القبور لا يُصلَّىٰ فيها، ولا يُقرَأ القرآن فيها، فينبغي لهم أن يصلُّوا في بُيُوتهم، ويقرؤوا فيها القرآن.

ثمَّ قال: **«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»**، نهىٰ النَّبيُّ ﷺ أن يُجعَل قبرُه عيدًا، فيذهبون إليه كلَّما ذهبوا وجاؤوا، فهو يطلب منهم ألَّا يجعلوا قبره عيدًا.

والعيدُ: ما اعتاد عليه الإنسان من الأعياد الزَّمانيَّة؛ كعيد الأضحىٰ، وعيد الفطر، وما اعتاد عليه الإنسان كالأعياد المكانيَّة، فنهىٰ النَّبيُّ ﷺ أن يُكثروا من المجيء إلىٰ قبره متَّخذينَه عيدًا، وأَمَر بالصَّلاة عليه، فقال: **«وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»**.

ثمَّ أورد الأثر: **وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ** رضي الله عنه: **أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ (أبوه الحسين بنُ عليٍّ، وجدُّه عليُّ بنُ أبي طالبٍ عن رسول الله ﷺ) قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ»**.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بنُ سعديٍّ رحمه الله: «مَنْ تأمَّل نصوص الكتاب

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠).

والسُّنَّة في هذا الباب رأىٰ نصوصًا كثيرةً تحثُّ علىٰ القيام بكلِّ ما يقوِّي التَّوحيد، ويُنمِّيه ويُغذِّيه من الحثِّ علىٰ الإنابة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وانحصاره في تعلُّق القلب بالله رغبةً ورهبةً، وقوَّة الطَّمع بفضله وإحسانه، والسَّعي في تحصيل ذلك، وإلىٰ التَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين، وعدم التَّعلُّق بهم بوجهٍ من الوجوه، أو الغلوِّ في أحدٍ منهم، والقيام التَّامّ بالأعمال الظَّاهرة والباطنة، وتكميلها، وخصوصًا حثُّ النُّصوص علىٰ روح العبوديَّة؛ وهو الإخلاص التَّامُّ لله وحده، ثمَّ في مقابلة ذلك نهىٰ عن أقوالٍ وأفعالٍ فيها الغلوُّ بالمخلوقين، ونهىٰ عن التَّشبُّه بالمشركين؛ لأنَّه يدعو إلىٰ الميل إليهم، ونهىٰ عن أقوالٍ وأفعالٍ يُخشَىٰ أن يُتوصَّل بها إلىٰ الشِّرك؛ كلُّ ذلك حماية للتَّوحيد، ونهي عن كلِّ سببٍ يُوصِل إلىٰ الشِّرك؛ وذلك رحمةً بالمؤمنين؛ ليَتحقَّقوا بالقيام بما خُلِقوا له من عبوديَّة الله الظَّاهرة والباطنة، وتكميلها؛ لتكمل لهم السَّعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرةٌ معروفةٌ». اهـ[1].

وأقول: يا لها من جملٍ جَيِّدةٍ عظيمةٍ من عَالِمٍ نِحْريرٍ، فالحمد لله علىٰ ذلك. وبالله التَّوفيق.



(١) انظر: «القول السَّديد في مقاصد التَّوحيد» (ص ٩٩ وزارة الشُّؤون الإسلاميَّة).





بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟» أَخْرَجَاهُ[1].

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) و(٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، نحوه. وليس في الحديث قوله: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ». ولفظُه عند مسلم: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟».

بِأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[١].

وَرَوَاهُ البَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[٢] وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[٣].

الشرح:

قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ فقد نزلت في اليهود، وَقَدْ ذهب إلىٰ اليهود قومٌ من المشركين كما روىٰ ابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمة، قال: «جاء حُيَيُّ بنُ أخطبَ وكعبُ بنُ الأشرف إلىٰ أهل مكَّة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنَّا وعن مُحمَّدٍ، فقالوا: ما أنتم وما مُحمَّدٌ؟ فقالوا: نحن نصلُ الأرحام، وننحر الكَوْمَاء - المرتفعة السَّنام - ونسقي الماء علىٰ اللَّبن، ونفكُّ العُنَاةَ[٤]، ونسقي الحجيج، ومحمدٌ صنبور - الأبتر الَّذي لا عقب له - قطع أرحامنا، واتَّبعه سُرَّاق الحجيج من غِفار، فنحن خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خيرٌ وأهدىٰ سبيلًا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) انظر: «الجمع بين الصَّحيحين» للحميدي (٣/ ٥٣٥).

(٣) أخرجه بالزِّيادةِ المذكورةِ أحمد (٥/ ٢٨٧) (٢٢٤٤٨)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابنُ ماجه (٣٩٥٢). وهي صحيحة، كما في «الصَّحيحة» للألبانيِّ (٤/ ٢٥٢) تحت رقم (١٦٨٣).

(٤) العُناة: جمع العاني: وهو الأسير، وكلُّ من وقع في ذلٍّ واستكانة وخضوع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾»[(١)].

وإذا تأمَّلنا في حال الحِزْبيِّين؛ فنحن نجدهم شابهوا اليهود حين عقدوا مع الرَّوافض اتِّفاقًا، وقالوا: نحن مسلمون، وهم مسلمون، وهم مع ذلك يبغضون المُوحِّدين، ولا يطيقونهم أبدًا، فقد تعاطفوا وتصالحوا مع جميع فئات الضَّلال، وقَبِلُوهم أعضاءً في حزبهم، أمَّا المُوحِّدون فإنَّهم لا يطيقونهم أبدًا، أليس في هذا دليلٌ علىٰ أنَّهم فئةُ ضلالٍ، بلىٰ والله إنَّهم لكذلك.

وَقَدْ أخبر الله عن كلِّ رسولٍ بُعِث أنَّه يدعو إلىٰ التَّوحيد، أمَّا الإخوان المسلمون فإنَّهم يدعون إلىٰ خلافةٍ، والنَّبيُّ ﷺ بدأ بالتَّوحيد، وهُمْ بدؤوا بالدَّعوة إلىٰ خلافةٍ.

والنَّبيُّ ﷺ بدأ بالعقيدة، وهم يعتنون بفضائل الأعمال؛ ليغرُّوا بها النَّاس، ويتساهلون في العقائد الَّتي هي الأصل في الدِّين[(٢)].

---

(١) أخرجه سعيد بنُ منصور في «التَّفسير» (٤/ ١٢٨٠)، وابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤)، وابنُ المنذر في «تفسيره» (٢/ ٧٤٩).

(٢) لمزيدٍ من الإيضاح والتبيان عن حال هذه الجماعات الحزبية المعاصرة وما فيها من البدع والضلالات، وعلىٰ رأسها جماعة الإخوان المسلمين - راجع إن شئت الكتب التالية: «المورد العذْب الزُّلال فيما انتُقدَ علىٰ بعض المناهج الدَّعويَّة مِن العقائد والأعمال» لفضيلة الشَّيخ العلَّامة أحمد بن يحيىٰ النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتابه الآخر «الرَّدّ الشَّرعيّ المعقول علىٰ المُتَّصل المجهول»، و«الأجوبة السَّديدة علىٰ الأسئلة الرَّشيدة» لفضيلة الشَّيخ العلَّامة زيد بن محمَّد المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتابه الآخر «الإرهاب وأثره علىٰ الأفراد والأمم»، وكتاب «جماعةٌ واحدةٌ لا جماعاتٌ، وصراطٌ واحدٌ لا عشراتٌ» لفضيلة الشَّيخ العلَّامة الدُّكتور ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله، وكتابه «منهج الأنبياء في الدَّعوة إلىٰ الله فيه الحكمة والعقل»، وغيرها من كتب السلفيِّين، وهي كثيرةٌ ولله الحمد، واحذر من كتب أهل الغيِّ والضلال، حفظنا =

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾، وهذه الآية ردٌّ علىٰ اليهود الَّذين فضَّلوا المشركين علىٰ أصحاب النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ وسياق هذه الآية في ضمن الآيات الَّتي ردَّ الله بها علىٰ اليهود في زَعْمِهم أنَّ المشركين أهدىٰ من المؤمنين المُوحِّدين، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لهم رادًّا عليهم، ومُبيِّنًا ما هم عليه من الكفر، وما لهم عند الله من العقوبة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾.

وهم أنتم الَّذين لعنكم الله، وجعل منكم القردة والخنازير، وكان منكم مَنْ عَبَد الطَّاغوت، فهذه حقيقتُكم يا أيُّها اليهود الضَّالُّون البعيدون عن مواطن رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

والتَّعبير بالمثوبة هنا المقصود بها: الجزاء، والجزاء من جنس العمل، ولمَّا كانت أعمالهم أعمالَ كفرٍ وفسقٍ، وموجباتٍ لغضب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لذلك فإنَّ الله قَدْ عاقبهم في الدُّنيا باللَّعن والغضب، ومسخ بعضهم قردةً وخنازير بسبب ما هم عليه من الكفر والخبث والبغض لعباد الله المُوحِّدين.

أمَّا في الآخرة فعاقبتهم عاقبةُ كلِّ كافرٍ عَبَد الطَّاغوت في الدُّنيا بدلًا من عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف تذمُّون المؤمنين، وأنتم شرُّ خليقة الله، فلكم الجزاء السَّيِّئ عند الله تعالىٰ بسبب ما قدَّمتم من الأعمال القبيحة، والله أعلم.

=

الله وإيَّاك وسائر المسلمين من البدع والمحدثات، وأماتنا جميعًا علىٰ النهج القويم والصراط المستقيم.. آمين يا رب العالمين.

وقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾. المقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ﴾: هم أصحاب الكلمة والنُّفوذ.

وهل هم المؤمنون أم الكافرون؟

الظَّاهر: أنَّهم الكافرون؛ لأنَّ اتِّخاذ المساجد علىٰ القبور من طبيعة الكافرين، وطريقتهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فالَّذين صمَّموا علىٰ اتِّخاذ المسجد عليهم الأقرب أنَّهم الكافرون؛ لأنَّ الإسلام ذمَّ الَّذين يتَّخذون القبور مساجد، والله تعالىٰ أعلم.

ثمَّ أورد حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لتتبعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ!**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**».

يُؤخذ من هذا الحديث:

١- **السُّنن**: جمع سُنَّة، والسُّنَّة: هي الطَّريقة.

٢- أنَّ هذه الأُمَّة ستأخذ ما أخذته القرون قبلها، وسيتَّبعون سنن أهل الكتاب وطرائقهم، وَقَدْ جاء في الحديث: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْل بالنَّعْل؛ حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**».

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[1].

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٤١)، وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سُنن التِّرمذيِّ». **وانظر**: «الصَّحيحة» (١٣٤٨).

٣- قوله: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ»[(١)]. القُذَّة: هي الخِطَّة الَّتي تفصل بين السِّنَّيْن كما في أسنان المنجل، وهو الَّذي تُقطَع به الأعشاب، فكلُّ سِنَّين بينهما فاصلٌ تلك هي القُذَّة.

٤- قوله: «حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»؛ يعني: أنَّ جحر الضَّبِّ مُتعرِّجٌ، فلو أنَّهم دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه.

قوله: وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا... » الحديث.

من فوائد هذا الحديث:

١- أنَّ الله زوىٰ لنبيِّه الأرضَ، وأتىٰ بها إليه، فرأىٰ مشارقها ومغاربها.

٢- أنَّ أُمَّته بلغ ملكها ما زُوي له منها.

٣- أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطي الكنزين؛ الأحمر والأبيض، وهذان الكنزان هما كنوز كسرىٰ وقيصر، واللَّتان هما الدَّولتان العظيمتان في ذلك الزَّمن، إحداهما مُعْظَم كنوزها الذَّهب، والدَّولة الأخرىٰ مُعْظَم كنوزها الفضَّة.

٤- أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل ربَّه لأُمَّته: «أَلَّا يُهْلِكَهَا بسَنَةٍ بعَامَّةٍ»؛ يعني: ألَّا يجعل القحط عامًّا عليهم حتَّىٰ يهلكهم؛ دعا النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ ألَّا يهلكهم بذلك، فأعطاه إيَّاه، ومعنىٰ ذلك أنَّه إذا وقع الجدب في مواضع، وقع الخصب في مواضع أخرىٰ، وإذا وقعت الشِّدَّة في مواضع، وقع الرَّخاء في مواضع أخرىٰ.

٥- يُؤخَذ من قوله: «أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ»

---

(١) هذه العبارة وردت في حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عند أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٥) (١٧١٧٥)، ولفظه تامًّا: «لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ». قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦١): «رِجالُهُ مُخْتَلَفٌ فِيهِمْ». وحسَّنه الألبانيُّ لشواهده في «الصَّحيحة» (٣٣١٢).

دليلٌ ثابتٌ، وهو ضمانٌ من اللهِ لأُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ ألَّا يُهلكهم بعدوٍّ يستبيح بيضتهم.

والبيضة: هي الأصل.

وكأنَّ الأصل في موطن هذه الأُمَّة هي أرض الحرمين، ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**»[1].

٦- **يُؤخذ من قوله** ﷺ: «**وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ**... » إلىٰ قوله: «**يُهْلِكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»: في هذا ضمانٌ من الله بعدم تسليط القحط عليهم، أو تسليط العدوِّ عليهم ينتهي بكونه يَسبي بعضُهم بعضًا، ويُهلك بعضُهم بعضًا، أو أنَّ المراد أنَّ التَّسليط سيكون من بعضهم علىٰ بعضٍ، وأنَّ الربَّ - جلَّ في علاه - قَدْ ضمن لنبيِّه ألَّا يُسلِّط عليهم قحطًا عامًّا يُهلكهم: «**وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ**»، أي: هم اليهود والنَّصارىٰ وغيرهم من أصحاب المِلَل الكفريَّة.

وفي رواية البرقانيِّ في «صحيحه»، وزاد: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**» الحديث.

وأقول: إنَّ الأئمَّة المُضلِّين مَنْ نصَّبوا أنفسهم للدَّعوة، وهم قَدْ تركوا التَّوحيد، وشرَّعوا لأتباعهم التَّعبُّد بالبدع، ومن الأئمَّة المُضلِّين مَنْ شرَّعوا لطُلَّاب العلم تكفير أمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ووُلَاة الأمر والعلماء، وهذا كلُّه حاصلٌ.

وإنَّ هؤلاء لمِنَ الأئمَّة المُضلِّين الَّذين يخالفون نهج الشَّارع، بل نَهج الرُّسل جميعًا، وهو البدء بالتَّوحيد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦). و«يأرز»: أي: ينضمُّ ويجتمع.

والحقيقة: أنَّ منهج الإخوان المسلمين والسُّروريَّة والقطبيَّة هو أصلُه متغلغلٌ من منهج جمال الدِّين الأفغاني، هذا الرَّجل تَحُومُ حوله شكوكٌ، فهو يظهر أنَّه شيعيٌّ، ويظهر - والعياذ بالله - أنَّه كان يَدَّعي أشياء ليست له، ولا هي حقيقة فيه، بل هو اتَّصل بالماسونيَّة، وانتظم فيها، وتلميذه محمد عبده، فهو الَّذي جاء بهذه المذاهب المنحرفة، فالاعتزال مذهبه الخروج، فهم والخوارج سواء، لكن أهل الاعتزال لم يُصرِّحوا بالكفر، ولكنَّهم قالوا: إنَّه في منزلةٍ بين المنزلتين[1]، وفي الآخرة يكونون مُخلَّدين في النَّار، أي: أصحاب الكبائر.

النَّاحية الثَّانية: يظهر أنَّه شيعيٌّ؛ لذلك تجد أنَّ الإخوان المسلمين، بل رئيسهم والدَّاعية، والمُقرِّر لهذا المنهج، والمُؤسِّس له كان يدعو إلىٰ التَّقارب بين أهل السُّنَّة والشِّيعة، مع ما عند الشِّيعة من أمورٍ فظيعةٍ - والعياذ بالله، ونسأل الله العفو والعافية -؛ من ذلك: زَعْمهم أنَّ جبريل كانت الرِّسالة إلىٰ عليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأخطأ فيها، ووضعها علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ، ومن ذلك زَعْمهم في أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّهما مُغتصبان[2]، وتكفيرهم للصَّحابة، وما أشبه ذلك[3].

فالمهمُّ: أنَّ هذه العقيدة متغلغلةٌ من هناك، ونسأل الله العفو والعافية.

٧- **يُؤخَذ من قوله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقُ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»**، ما أكثر مَنْ لحق بالمشركين والملحدين في هذا الزَّمن! وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

---

(١) أي: بكفر مرتكب الكبيرة، ولكنه عند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين، أي: في الدُّنيا لا مسلمٌ ولا كافرٌ.

(٢) يعني للخلافة.

(٣) أي: منهج الإخوان والسُّروريَّة والقُطبيَّة مُتغلغلٌ مِن عقيدةِ جمال الدِّين الَّذي تأثَّر بعقيدةِ الماسونيَّة والتَّشيُّع، أو بمعنًىٰ أصحَّ عقيدة الرَّوافض، أعاذنا الله وإيَّاكم مِن فتن الشَّهوات والشُّبهات، وثبَّتنا وإيَّاكم علىٰ السُّنَّة ومنهج سلف الأمَّة.

٨- **يُؤخَذ من قوله: «حَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»**: أنَّ عبادة الأوثان في بلدان المسلمين كثيرةٌ، فكم من أوثانٍ في بلدان المسلمين، ففي مصر قبر البدويِّ والحسين والسَّيِّدة زينب وغيرهم، وفي اليمن ابن علوان وغيره، وفي بلدان أخر، كلُّ بلدٍ فيها مشهدٌ يُعبَد من دون الله ما عدا السَّعوديَّة، والحمد لله، فهذه المشاهد هي تُعتَبر أوثانًا؛ لأنَّها عُبِدت من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهي معتبرةٌ طواغيت كذلك.

٩- **يُؤخَذ من قوله: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»**: قَدْ وقع في زمن النَّبيِّ ﷺ؛ اثنان من الرِّجال ادَّعيا النُّبوَّة، وهما: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذَّاب، وكلاهما قَدْ قُتِلَ، والحمد لله، وامرأةٌ يقال لها: سجاح ادَّعت النُّبوَّة أيضًا، ثمَّ إنَّها تابت، ومَنْ تَتبَّع التَّاريخ، فسيجد الشَّيء الكثير من هذا.

١٠- **قوله: «وَلا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»**.

هذه الطَّائفة قَدْ قال أهل العلم: إنَّهم أهل الحديث؛ أصحاب المنهج السَّلفيِّ.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَقَولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ. وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ»[١].

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦ / ٤٥) مُعلَّقًا بصيغة الجزْم. ووصله سعيد بنُ منصور في «السُّنن» (٢/٢٤٧ السَّلفيَّة) وفي «التَّفسير» (٤/ ١٢٨٣ الصميعي)، والطَّبريُّ في «التَّفسير» (٧/ ١٣٥ هجر)، وابنُ أبي حاتم في «التَّفسير» (٣/ ٩٧٤)، وابن المُنذر في «التَّفسير» (٢/ ٧٤٥، ٧٤٧). وقال ابنُ حجر في «فتح الباري» (٨/ ٢٥٢): «وصله عبدُ بن حُميد في «تفسيره»، ومسدَّد في «مسنده»، وعبد الرَّحمن بن رُسته في كتاب «الإيمان»... وإسناده قويٌّ». اهـ. وانظر: «تغليق التَّعليق» (٤/ ١٩٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦/ ٤٥) مُعلَّقًا. ولفظه: قَالَ جابِرٌ: «كَانَتِ الطَّوَاغِيتُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا، فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ».

ووصله ابنُ أبي حاتم كما في «الفتح» (٨/ ٢٥٢) وفي «تغليق التعليق» (٤/ ١٩٥ - ١٩٦)، من طريق عقيل بن معقل بن منبِّه عن وهب بن منبِّه عن جابر بنحوه. وذكره أيضًا السُّيوطيُّ في «الدُّر المنثور» (٢/ ٥٨٣) عن ابن أبي حاتم، ولفظه: عن وهبٍ قال: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ عَنِ الطَّواغيت الَّتِي كَانُوا يَتَحاكَمُونَ إليها، قَالَ: إِنَّ فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدًا، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدًا، وَفِي هِلَال وَاحِدًا، وَفِي كلِّ حَيٍّ وَاحِدًا، وهم كُهَّانٌ تنزل عَلَيْهِم الشَّيَاطِين.

ورواه الطبريُّ في «التفسير» (٤/ ٥٥٨ هجر) من طريق أبي الزُّبير عن جابر نحوه، وهو عند ابن أبي حاتم في «التَّفسير» (٣/ ٩٧٦) مختصر.

يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟

قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»(١).

وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٢)، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(٣) عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ»(٤).

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ(٥).

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ(٦).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٦٦)، ومسلمٌ (٨٩).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٤٦٠)، وضعَّفه الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (١٤٤٦)، وصحَّح هناك قصَّة قتل جندب للسَّاحر.

(٣) أصل هذا الحديث عند البخاريِّ (٣١٥٦ و٣١٥٧)، وليس فيه الكلام المتعلِّق بقتل الساحر. ولكن قال الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري» (٦/ ٢٦١): (زَادَ مُسَدَّدٌ وَأَبُو يَعْلَى فِي رِوَايَتِهِمَا: اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا فِي يَوْمٍ ثَلَاثَ سَوَاحِرَ).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٩٠) (١٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣). وقال الإمام الشافعيُّ: «حديث متَّصل ثابت» كما في «السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ٤٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (١٢٤٩).

(٥) أخرجه مالك في «الموطَّأ» (١٤) عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة بلاغًا، وأخرجه عبد الرزَّاق (١٠/ ١٨٠)، وابنُ أبي شيبة (٥/ ٥٤٣)، وأحمد في «مسائل عبد الله» (ص٤٢٧ - المكتب الإسلامي)، والبيهقيُّ (٨/ ٢٣٤)، والطبرانيُّ (٢٣/ ١٨٧) من وجه آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما. وصحَّحه الإمام أحمد وابنُ القيِّم وابنُ كثير - رحمهم الله - كما في «زاد المعاد» (٥/ ٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٥).

(٦) أخرجه عنه الدَّارقطنيُّ في «السُّنن» (٤/ ١٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٠١)، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (٨/ ٢٣٤)، والطَّبرانيّ في «المعجم الكبير» (٢/ ١٧٧)، والبخاري في «التَّاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٢)، والخلَّال في «أحكام أهل الملل والرِّدَّة» (ص ٤٦٨ كسروي)، وصحَّحه الألبانيُّ كما في =

قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ»[١].

الشرح:

السِّحر حقٌّ، بمعنىٰ: وقوعُهُ حقٌّ، قال شيخنا حافظُ بنُ أحمد الحكميُّ:

وَالسِّحْرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرُ ... لَكِنْ بِمَا قَدَّرَهُ الْقَدِيرُ

أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ مَا قَدْ قَدَّرَهْ ... فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشِّرْعَةِ الْمُطَهَّرَهْ[٢]

فالسِّحر ممَّا قدَّره الله كونًا، ومَنَعه شرعًا، كما أنَّ الله قَدْ قدَّر الكفر كونًا، ومنعه شرعًا، وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

١- قسمٌ يُقَال له: سِحْر التَّخييل.

٢- وقسمٌ يُقَال له: سِحْر التَّأثير.

فمِنْ سِحْر التَّخييل: ما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به عن سَحَرة فرعون حين قال: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦].

وأمَّا سِحْر التَّأثير فهو كثيرٌ أيضًا، وأنواعُهُ مُتعدِّدةٌ:

فمنه: حبسُ الرَّجل عن امرأته، وتأخيرُهُ عنها حتَّىٰ لا يشتهيها أَوْ لا يتحرَّك إليها؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومنه أيضًا، أي: من سِحْر التَّأثير ما يحصل لكثيرٍ من النَّاس، ومن ذلك ما

=

«الضَّعيفة» (٣/ ٦٤١ - ٦٤٢) تحت رقم (١٤٤٦).

(١) انظر: «أحكام أهل الملَل» للخلَّال (ص٤٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٥).

(٢) «منظومة سلَّم الوصول إلىٰ علم الأصول بشرحها معارج القبول» (١/ ٣٧).

حصل للنَّبيِّ ﷺ حين سَحَره لبيد بنُ الأعصم اليهوديُّ - عليه لعنة الله - فَرَقاه جبريلُ بالمعوِّذتين، وأخبره بمكان السِّحر، فأرسل إليه، وأتىٰ به[1].

والمهمُّ: أنَّ السِّحْر كفرٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الشَّياطين كفروا بتعليمهم السِّحر للنَّاس، وافترائهم علىٰ سليمان بأنَّه هو الَّذي كَفَر.

ثانيًا: بإخبار الله عن المَلَكين أنَّهما ما يُعلِّمان من أحدٍ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

ثالثًا: يُؤخَذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: من استبدله عن الإيمان فإنَّه لا خَلَاق له في الآخرة، أي: لا نصيب له من السَّعادة، ولا من الجنَّة.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، قال عُمر: «**الْجِبْتُ: السِّحْرُ**.

---

(١) أخرج البخاريُّ (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) عن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سُحِرَ النَّبيُّ ﷺ حتَّىٰ إنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُوَ عِنْدِي - دَعَا اللهَ دُعَاءً، ثُمَّ قَالَ: «**أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟**». قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ، مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ. قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلٍ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ**». قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ الْبِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ عَائِشَةَ، فَقَالَ: «**وَاللهِ، لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: «**لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَىٰ النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا**».

وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ». وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

وأقول: إنَّ مَنِ استقرأ أحوال الجاهليَّة، وما كانوا عليه في جاهليَّتهم يعرف ذلك جيِّدًا، فالطَّواغيت كهَّانٌ تنزل عليهم الشَّياطين، في كلِّ حيٍّ واحدٌ يفزعون إليه، فيأتيهم بأسجاعٍ ربَّما يكون فيها الكلمة الَّتي تُسمع من الملائكة، ولهذا فإنَّهم مُنِعُوا حين بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ عن الاستماع، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

ومن هذه الآيات يَتبيَّن لنا أمورٌ:

١- أنَّهم كانوا يقعدون في مقاعد للسَّمع في السَّماء من أجل أن يسمعوا كلامًا يغْوُون به النَّاس.

٢- أنَّهم مُنِعُوا بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ، فلم يقدروا علىٰ شيءٍ من الاستماع، وأنَّ السَّماء حُرِسَتْ بالشُّهُب الَّتي ترمي الشَّياطين فتحرقهم.

٣- **يُؤخَذ منها**: أنَّ الجنَّ لا يعلمون شيئًا من الغيب، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

٤- أنَّ الشَّياطين تؤمن بربِّها، ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام، وهكذا الكُفَّار من الإنس يؤمنون بِرَبِّهم، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام.

والطَّاغوتُ: مشتقٌّ من الطُّغيان، والظَّاهر: أنَّ التَّاء للتَّكثير، أي: لوقوعهم في الطُّغيان كثيرًا، والطُّغيان: هو الزِّيادة في الشَّيء الَّتي تخرج به عن حَدِّه.

ثمَّ أورد حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اِجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ**... » الحديث، والسِّحر قَدْ تقدَّم الكلام عليه.

ثمَّ أورد حديث جندبٍ مرفوعًا: «**حَدُّ السَّاحِرُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**»، أَوْ قَالَ: «**ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ**».

وجندبٌ هذا هو جندبُ الخير[1] الَّذي وقف علىٰ ساحرٍ وهو يزعم بأنَّه يقطع رأس الغلام ويردُّه، فذهب جندب فاشتمل علىٰ سيفه، ثمَّ أتىٰ، فلمَّا ذهب يلعب ضرب رأسه بالسَّيف فسقط، فقال: «إِنْ كان صادقًا فليردَّ رأسه»[2]، وقال: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ**».

وقال: «**وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْن عَبدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ. وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **: أَنَّهَا أَمَرَتْ بقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ**».

وأقول: في هذه الآثار ما يدلُّ علىٰ كُفْرِ السَّاحر، وأنَّ حدَّه ضربةٌ بالسَّيف؛ سواءٌ كان رجلًا أو امرأةً.

ويُؤخَذ من هذه الآثار: أنَّه يُستَتاب ويُقتَل.

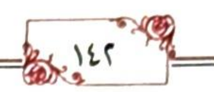
ويُؤخَذ منه: وُجود السِّحر في المسلمين في زمن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكيف بزمننا هذا، علمًا بأنَّ وجوده في زمن عمر كان من بقايا الجاهليَّة فيما نظنُّ.

وبالله التَّوفيق.

---

(١) انظر ترجمتَه في: «تهذيب الكمال» للمزِّي (٥/ ١٤١)، و«سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (٣/ ١٧٥)، و«الإصابة» لابن حجر (١/ ٦١٥).

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «السُّنن» (٨/ ٢٣٤)، وفيه: «إِنْ كَانَ صَادِقًا فَلْيُحْيِ نَفْسَهُ».



بَابُ
بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جعْفَرٍ، حَدَّثنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ**».

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ. وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ.

وَالْجِبْتُ: قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ[1]. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ[2].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ[3].

---

(١) «المسند» (٥/ ٦٠) (٢٠٦٢٣). لكن وقع تفسير الجبت في «مسند أحمد» و«سنن البيهقي» (٨/ ٢٣٩) هكذا: «والجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ».

وأخرجه أحمد أيضًا (٣/ ٤٧٧) (١٥٩٥٦)، وأبو داود (٣٩٠٧)، ووقع عند أحمد عقب الحديث: قال: «الْعِيَافَةُ مِنَ الزَّجْرِ، وَالطَّرْقُ مِنَ الْخَطِّ»، ووقع عند أبي داود: «الطَّرْقُ: الزَّجْرُ، وَالْعِيَافَةُ: الْخَطُّ». والقائل هو عوفٌ الأعرابيُّ أحدُ الرواة كما جاء مصرَّحًا به عند أبي داود (٣٩٠٨) عقب هذا الحديث.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٦٠) (٢٠٦٢٣)، والنَّسائيُّ في «الكبرىٰ» (١١٠٤٣)، وابنُ حبَّان (٦٠٩٨). وحسَّن إسناده النوويُّ في «رياض الصالحين» (١٦٧٠)، وجوَّده ابنُ مُفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٧). وضعَّفه الألبانيُّ في «غاية المرام» (ص ١٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧) (٢٠٠٠) و(١/ ٣١١) (٢٨٤٠)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابنُ ماجه (٣٧٢٦)، وصحَّح إسناده الحافظُ العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٥/ ٢١٥٩ العاصمة)، وأورده الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٩٣). =

وَلِلنَّسَائِيِّ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ: «مَنْ عَقَدَ عُقدَةً ثمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَد سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ»[١].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا»[٣].

الشرح:

العيافة: هي زَجْر الطَّير، وذلك أنَّ أهل الجاهليَّة كان فيهم قومٌ يستعملون العيافة بمعنىٰ يقولون: إنْ جاءك الطَّير من جهة اليمين لليسار فهو كذا، أو من جهة اليسار لليمين فهو كذا، أو جاءك مواجهًا لك فهو النَّاطح، ويترتَّب عليه كذا، أو جاءك من الخلف فهو يترتَّب عليه كذا، ويدَّعون في هذه العيافة أشياء من علم الغيب، ويزعمون أنَّها تَتحقَّق، فلذلك هو يُعتَبر من الجِبْتِ أي: من أنواع السِّحر.

وكذلك الطَّرْق بالحصىٰ أو البُنِّ بحيث يدَّعي هذا الطَّارق أنَّ فلانًا الغائب حاله كذا، وأنَّه سيأتي في يوم كذا، أو ما أشبه ذلك من الإخبار عن المغيبات.

والخطُّ في الأرض هو ما يُسمَّىٰ بخطِّ الرَّمل، وَقَدْ جاء في الحديث: «كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ»[٤] أي: خطّ ذلك النَّبيِّ فإنَّه يعني جائزٌ، أي:

=

تنبيه: لفظ الحديث عند مخرِّجيه: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»، وفي لفظ: «مَا اقْتَبَسَ رَجُلٌ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ إِلَّا اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ».

(١) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن النسائي».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمَّار رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٢١) من حديث معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه.

ليس بمُحرَّم.

وأقول: أمَّا تفسير الطَّرق بالخطِّ في الأرض كما في الأثر، فهذا فيه نظرٌ، والصَّحيح: أنَّ الخطَّ هو ما قلنا.

والجِبْت قال الحسن: رنَّة الشَّيطان.

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**» رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ.

يعني: أنَّه يزداد في السِّحر كلَّما ازداد من علم النُّجوم.

ولِلنَّسائيِّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**» لماذا يكون السَّاحر مشركًا؟ لأنَّه يعتمد في سِحْره علىٰ الأرواح الشَّيطانيَّة الخبيثة، ويستعين بها، فلذلك يكون مشركًا؛ لأنَّه لا يتمُّ له ذلك إلَّا بما ذُكِرَ.

قوله: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ: الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**» رواه مسلمٌ.

سُمِّيت النَّميمة عضهًا من العَضه، وهو البهتان والكذب، ولكونها يَترتَّب عليها إفساد القلوب إفسادًا عظيمًا، وهي تفسد القلوب كإفساد السِّحر أو أشدَّ، والنَّميمة هي نقلُ الكلام علىٰ جهة الإفساد، فمَنْ نقل كلامًا من رجلٍ إلىٰ آخر بقصد الإفساد، فهو داخلٌ في هذا الحديث، ويترتَّب عليه ما يَترتَّب علىٰ السِّحر من الأذىٰ وانقطاع المودَّة، وملءُ القلوب بالضَّغينة والإحَنِ؛ حتَّىٰ يكاد الرَّجل يَتفجَّر من الغيظ علىٰ أخيه، وهذا إفسادٌ عظيمٌ يترتَّب عليه من المفسدة ما يترتَّب علىٰ السِّحر أو أشدُّ.

قوله: (**وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ**: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»).

البيان: هو السِّحر الحلال، وذلك أنَّ الشَّخص إذا كان عنده لَسَنٌ وفصاحةٌ وقُوَّةٌ في تنميق الكلام وتزيينه؛ فإنَّه يُؤثِّر في القلوب بالإقناع.

وكان سبب هذا الحديث أنَّ رجلًا ذمَّ رجلًا من تميم، ثمَّ مَدَحه، فقال له النَّبيُّ ﷺ في ذلك، فقال: غضبتُ فقلتُ أقبح ما علمتُ، ورضيتُ فقلتُ أحسن ما وجدتُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[(١)].

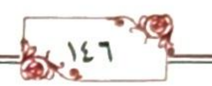
فالبيانُ سُمِّي سحرًا؛ لأنَّ فيه قُوَّةً علىٰ تحويل القلوب، وإدخال الإقناع فيها؛ وهو سحرٌ مباحٌ إن شاء الله، ولكن أحيانًا يكون فيه ظلمٌ؛ حينما يكون المبطل أكثر فصاحةً من المُحقِّ، فيُزوِّق باطله بفصاحته ولَسَنِه حتَّىٰ يكون هو النَّاجح عند الحاكم وأمثاله، وقَدْ أشار النَّبيُّ ﷺ إلىٰ ذلك بقوله: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٧١٠) (٦٥٦٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٦٨٠)، ومسلمٌ (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



بَابُ
مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَىٰ مُسلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»(١).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ(٢).

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرطِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ»(٣).

وَلِأَبِي يَعْلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ؛ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠). ولفظه عنده: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». وأخرجه أحمد (٤/ ٦٨) (١٦٦٨٩) واللَّفظ له بزيادةِ: «بِمَا يَقُولُ» بعد قوله: «فَصَدَّقَهُ».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٦) (١٠١٧٠)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابنُ ماجه (٦٣٩). والحديث صحيح. انظر: «إرواء الغليل» (٧/ ٦٩) (٢٠٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩) (٩٥٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩) (١٥)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٨/ ٢٣٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (٧/ ٦٩) (٢٠٠٦).

(٤) أخرجه الطيالسي (٣٨١ هجر)، وابنُ أبي شيبة (٥/ ٤٢)، وأبو يعلىٰ في «المسند» (٩/ ٢٨٠) (٥٤٠٨)، والبزَّار في «المسند» (١٨٧٣) و(١٩٣١)، والبغوي في «الجعديات» (ص ٢٨٧ - ٢٨٨ و٢٨٩ - ٢٩٠)، والخلَّال في «السُّنَّة» (٤/ ١١٦-١١٧و١٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٦)، وفي «الأوسط» (١٤٥٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٦/ ١١٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٨/ ٢٣٣)، من طرق عن ابن مسعود بمثله وبنحوه، وفي بعض الطرق زيادة الساحر، وفي بعضها ذكر =

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ[1].

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الأَوسَطِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَولِهِ: «وَمَنْ أَتَىٰ... » إِلَىٰ آخره[2].

قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الَّذي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذي يُخبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ»[3].

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيمِيَّةَ: «العَرَّافُ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ»[4].

=

الكاهن فقط. قال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٥/ ١١٨): «رواه أبو يعلىٰ، ورجالُه رجالُ الصَّحيحِ، خلا هُبيْرَة بنَ يَرِيمَ وهو ثقةٌ». وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢١٧) عن أبي يعلىٰ، مجوِّدًا إسناده، وقال: «لم يُصرِّح برفْعه، ومثلُه لا يقالُ بالرَّأيِ».

(١) أخرجه البزَّار (٣٥٧٨)، والدُّولابيُّ في «الكنىٰ والأسماء» (٣/ ١١٨٨)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ١٦٢). وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠١)، عن البزَّار، وقال: «رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة»، وصحَّحه الألبانيُّ بشاهدين؛ انظر: «الصحيحة» (٢١٩٥).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ كما في «المطالب العالية» (١١/ ١٨٩)، والبزَّار (٣/ ٣٩٩ الكشف)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٤٢٦٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١١/ ٤٠٣ - ٤٠٤). قال الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ١١٧): «فيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف». وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٢٦٥٠).

(٣) «شرح السُّنة» (١٢/ ١٨٢).

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٧٣).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ «أَبَا جَاد» وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ: **«مَا أَرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ الله مِن خَلَاقٍ»**(١).

الشرح:

أقولُ: لقد تواترت الأحاديثُ الصَّحيحة علىٰ أنَّ مَنْ أتىٰ إلىٰ عَرَّافٍ أو كاهنٍ أو مُنجِّمٍ يسأله عن شيءٍ مِن علم الغيب، فصدَّقه بما يقولُ، فإنَّه يُعتَبرُ قَدْ كَفَر بما أُنزل علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ، ذلك لأنَّ كتابَ الله يدلُّ علىٰ انفراد الله بالمُغيَّبات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال النَّبيُّ ﷺ في حديث ابن المنتفق الَّذي رواه ابنُ خزيمة في كتاب «التَّوحيد»(٢)، ونقله عنه ابن القيِّم في «الهدي النَّبويِّ»(٣): **«ضَنَّ رَبُّكَ بِمَفَاتِيحِ خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ»**، وَأَشَارَ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«عِلْمُ الْمَنِيَّةِ، قَدْ عَلِمَ مَتَىٰ مَنِيَّةُ أَحَدِكُمْ وَلا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ الْمَنِيِّ حِينَ يَكُونُ فِي الرَّحِمِ قَدْ عَلِمَهُ وَمَا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ مَا فِي غَدٍ قَدْ عَلِمَ مَا أَنْتَ طَاعِمٌ وَلَا تَعْلَمُهُ، وَعِلْمُ يَوْمِ الْغَيْثِ يُشْرِفُ عَلَيْكُمْ أَزِلِينَ مُشْفِقِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ**

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في «الجامع - الملحق بمصنف عبد الرزاق -» (١١/ ٢٦)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (ص ٣٥٠)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرىٰ» (٨/ ٢٣٩)، وفي «شعب الإيمان» (٧/ ١٦٨). وإسناده صحيح.

وأخرجه ابنُ وهب في «جامعه» (٦٩٠ ابن الجوزي)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٥/ ٢٤٠)، عن ابن عبَّاس بنحوه. وإسنادُه صحيحٌ أيضًا.

(٢) (٢/ ٤٦٠ - ٤٧٦ الرشد).

(٣) (٣/ ٥٨٨ - ٥٩١ الرسالة).

غَوْثِكُمْ إِلَىٰ قَرِيبٍ» قَالَ لقيطٌ: فَقُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «وَعِلْمُ يَوْمِ السَّاعَةِ»[1]، فَمَنْ أتىٰ إلىٰ كاهنٍ أو عَرَّافٍ أو مُنجِّمٍ فسأله عن شيءٍ من علم الغيب، وصدَّقه بكذبه وادِّعائه بعلم المُغيَّبات؛ فإنَّه قَدْ كفر بهذه الآيات، ولم يؤمن بها؛ إذ إنَّ مقتضىٰ الإيمان بذلك يمنع من إتيان الكُهَّان، وسؤالهم فضلًا عن تصديقهم.

وَقَدْ ذكر بعض أهل العلم - جمعًا بين هذه الأحاديث - أنَّ مَنْ أتاه يعني الكاهن، فلم يُصدِّقه، لم تُقبَل له صلاةٌ أربعين يومًا؛ لأنَّ هذا عقوبةٌ له علىٰ إتيان الكُهَّان.

أمَّا مَنْ أتاه فصدَّقه فإنَّه يُعتَبر قَدْ كفر بما أنزل علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ.

وهذا فيه تحذيرٌ من إتيان الكُهَّان والاستماع إلىٰ أقوالهم، والتَّصديق لأكاذيبهم؛ علمًا بأنَّ ذلك لا يحصل إلَّا ممَّن ضَعُفَ إيمانُهُ ويقينه.

وَقَدْ جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صفة ركوب الشَّياطين بعضهم لبعضٍ، واستراقهم للسَّمع بحيث يسمعون كلام الملائكة بينهم مع بعضهم بعضًا، فإذا ظفر الشَّيطان بكلمةٍ واحدةٍ ألقاها إلىٰ مَنْ تحته، والَّذي تحته يُلْقِيها إلىٰ مَنْ تحته حتَّىٰ يُلْقيها الآخر علىٰ لسان السَّاحر أو الكاهن فيكذب معها مئةَ كِذْبةٍ، فإذا وقع تصديق الكلمة الَّتي سُمِعت من الملائكة قالوا: ألم يقل لكم يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فَصدَّقوه بتلك الكلمة[2].

---

(١) قطعةٌ مِن حديثٍ أخرجه عبدُ الله بن أحمد في زوائدِه علىٰ «المُسند» (٤/ ١٣) (١٦٢٥١)، وفي «السُّنَّة» (٢/ ٤٨٥ - ٤٨٩)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٦٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٢١١ - ٢١٤) (١٦١٤٧)، والحاكم (٤/ ٦٠٥ - ٦٠٧)، في حديث طويل عن أبي رزين العقيليِّ رضي الله عنه، وصحَّح إسناده الحاكم، وأشار الذهبيُّ إلىٰ ضعفه، وهذه القطعة منه لها شاهد عند البخاري (١٠٣٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرج البخاريُّ (٤٧٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ،

فحذار حذار من تصديق هؤلاء؛ سواءٌ كانوا مُنجِّمين أو سَحَرةً أو كَهنةً، وَقَدْ جاء في الحديث: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُوم، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحرِ، زَادَ مَا زَادَ»[١].

وَقَدْ قال ابْنُ عَبَّاسٍ في الأثر الأخير في قومٍ يكتبون «أبا جاد»، وينظرون في النُّجوم: «مَا أَرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

وهذا القول جاء علىٰ ما ورد في الآية الَّتي أخبر الله فيها عن السِّحْر والسَّحَرة، وقال في خاتمتها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: ليس له حظٌّ ولا نصيبٌ، وذلك أنَّ المُنجِّمين يقولون: إذا اقترن النَّجم الفلانيُّ بالقمر حصل كذا، وإذا اقترن النَّجم الفلانيُّ بالقمر حصل كذا، وهذا ادِّعاءٌ لعلم الغيب، وإضلالٌ لخَلْق الله، وإيهامٌ لهم بصِحَّةِ ما ادَّعَوْه؛ نعوذ بالله من ذلك، وممَّن يمتهن ذلك.

ملحوظةٌ: قوله: «يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ» «أبا جاد»: كلماتٌ حَوَتْ حروفًا، وهي الحروف الثَّمانية والعشرون، فجعلوا لكلِّ حرفٍ رقمًا، فالألف مثلًا واحدٌ، والباء اثنان، والجيم ثلاثةٌ، فإذا وصلوا إلىٰ عشرةٍ عَدُّوا بالعشرات، فجعلوا

=

ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا، وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَىٰ، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ - فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فَيُحْرِقُهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ الَّذِي يَلِيهِ، إِلَىٰ الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّىٰ يُلْقُوهَا إِلَىٰ الأَرْضِ - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ الأَرْضِ - فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

(١) سبق تخريجه قريبًا.

الَّذي بعد العشرة عشرين إلىٰ أن يصلوا إلىٰ المئة، فإذا وصلوا إلىٰ المئة عَدُّوا بالمئة إلىٰ الألف، هذا معنىٰ قوله: «يكتبون أبا جاد»، واستعمال هذه الحروف بهذه الصِّفة هو استعمال المُنجِّمين، وينبغي للمسلم أن يكون بعيدًا عن مثل هذه الأمور، بل يجب أن يَمْقتَها، ويمقتَ أصحابها.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ(١)، وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا، فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ(٢).

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّر؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ. انْتَهَىٰ(٣).

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»(٤).

قَالَ ابنُ القَيِّم: «النُّشرَةُ حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نوعَانِ: حَلُّ السِّحرِ

---

(١) أخرجه أحمد في «مُسنده» (٣/ ٢٩٤) (١٤١٦٧)، وأبو داود (٣٨٦٨)، والحديث في «الصحيحة» للألباني (٢٧٦٠).

(٢) انظر: «الآداب الشَّرعية» (٣/ ٦٣) فصل في النشرة.

(٣) علَّقه البخاريُّ عنه في كتاب: الطِّبِّ، باب: هل يُستخرج السحر. ونقله موصولًا الحافظ في «تغليق التعليق» (٥/ ٤٩) من «التمهيد» لابن عبد البر عن «سنن الأثرم»، ومن «تهذيب الآثار» للطبريِّ، وصحَّح إسناديهما. ولفظه عند الطبريِّ: «عَن قَتَادَة عن سعيد بن الْمُسيَّب أنه كَانَ لَا يرىٰ بَأْسًا إِذا كَانَ الرجل بِهِ سحر أَن يمشي إِلَىٰ من يُطلق ذَلِك عَنهُ، قَالَ: هُوَ صَلَاح. قَالَ: وَكَانَ الْحسن يكره ذَلِك، وَيَقُول: لَا يعلم ذَلِك إِلَّا سَاحر، قَالَ: فَقَالَ سعيد بن الْمسيّب: لَا بَأْس بالنشرة، إِنَّمَا نُهي عَمَّا يَضرُّ، وَلم يُنْه عَمَّا ينفع».

(٤) أخرجه الطبريُّ في «تهذيب الآثار» بإسناد صحيح، قاله الحافظ في «التغليق» (٥/ ٤٩)، ولفظه: «لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا سَاحِرٌ».

بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذي مِن عَملِ الشَّيطَانِ، وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ، فَيَتَقرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَيُبطِلُ عَملَهُ عَنِ المَسحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعوُّذَاتِ وَالأَدوِيَةِ وَالدَّعوَاتِ المُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ»[1].

الشرح:

تعريف النُّشْرة: هي حلُّ السِّحْر عن المسحور، وَقَدِ اختلفت أقوالُ السَّلف فيها، فعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن النُّشْرة؟ فقال: «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» رواه أحمدُ بسندٍ جَيِّدٍ، وأبو داود... إلخ.

فكلامُ السَّلف مختلفٌ كما ترىٰ، منهم مَنْ أباح النُّشْرة، ومنهم مَنْ منعها، فيُحمَل قولُ مَنْ أباحها علىٰ جواز التَّنْشِير عنه بالأدوية والرُّقىٰ والدَّعوات، ويُحمَل قولُ مَنْ مَنَع علىٰ التَّنْشير بالسِّحر، ولهذا قال الحسن البصريُّ: «لا يحلُّ السِّحْرَ إلَّا ساحرٌ» فهذه هي الخلاصة كما قال ابنُ القيِّم؛ إنْ كانت بالسِّحر فهي غير جائزةٍ، وإِنْ كانت بالدَّعوات والرُّقىٰ والأدوية فهي جائزةٌ.

وبالله التَّوفيق.



---

(١) «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (٤/ ٣٠١ الكتب العلمية).



بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ الآيَةُ [يس: ١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا عَدْوَىٰ وَلا طِيَرَةَ وَلا هَامَةَ، وَلا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ[١]، زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلا نَوْءَ، وَلا غُولَ»[٢].

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا عَدْوَىٰ وَلا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ!» قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[٣].

وَلأَبِي دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ عُروة بنِ عَامرٍ، قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِندَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «أَحسَنُهَا الفَأْلُ، وَلا تَرُدُّ مُسلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحدُكُم مَا يَكرَهُ فَليَقُلْ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالحَسنَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلا يَدفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) زيادة: «ولا نوء» أخرجها مسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة، وأخرج زيادة: «ولا غول» (٢٢٢٢) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة بن عامر، بدلًا من عقبة بن عامر. والحديث صحَّحه النوويُّ في «شرح مسلم» (١٤/ ٢٢٤). وأُعلَّ بالإرسال، وبالانقطاع بين حبيب بن أبي ثابت وعروة. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٦١٩).

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَه مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ[(١)].

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ»[(٢)].

وَلَهُ مِن حَدِيثِ الفَضلِ بنِ العَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ»[(٣)].

الشرح:

أوَّلًا: تعريف الطِّيَرة: الطِّيَرة: هي التَّشاؤم بالطُّيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأزمنة.

ثانيًا: حكمها: حكم الطِّيَرة حرامٌ؛ لأنَّ الشَّرع نهىٰ عن التَّطيُّر، وذمَّ المُتطيِّرين.

ثالثًا: هل يُستثنىٰ من الطِّيَرة شيءٌ؟

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩) (٣٦٨٧) و(١/ ٤٤٠) (٤١٩٤)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابنُ ماجه (٣٥٣٨). قال الترمذيُّ: «حديث حسن صحيح»، وقال: «سمعتُ مُحمَّد بنَ إسماعيلَ يقولُ: كَانَ سُلَيمانُ بنُ حَرْبٍ يَقولُ في هذا الحديثِ «وَمَا مِنَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». قال سُليمانُ: هذا عندي قولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ «وَمَا مِنَّا»اهـ. وقال البيهقيُّ في «الشعب» (٢/ ٣٩٧): «وَمَا مِنَّا إِلَّا» «يُقالُ: هذا مِن قولِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، وليس مِن قولِ النَّبيِّ ﷺ». واستصوبه ابنُ القيِّم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٣٤). والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) (٧٠٤٥)، وابنُ وهب في «الجامع» (ص ٧٤٥)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٣/ ٢٢)، وابنُ السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٢)، وأورده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢١٣) (١٨٢٤). وقال الشيخ سليمان بنُ عبد الله آل الشيخ في «تيسير العزيز الحميد» (٢/ ٨٩٢): «في إسناده نظر، وقرأت بخطِّ المصنِّف: «فيه رجلٌ مختلف فيه، وفيه انقطاع» أي: بين مسلمة وبين الفضل»اهـ. والحديث ضعَّفه العلَّامة أحمد شاكر في شرح المسند (٢/ ٤١١ دار الحديث).

الجواب: لا يُستثنىٰ من الطِّيَرة -الَّتي هي التَّشاؤم- شيءٌ؛ بل كلُّها حرامٌ، ومذمومةٌ.

أمَّا قوله: «**يُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»، فالفأل: هو التَّفاؤل بالخير، ويكون بالكلمة الحسنة أو بالاسم الحسن، وَقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ لمَّا جاء إليه سهيل بن عمرٍو يوم الحديبية للمفاوضة والصُّلح، قال: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»[1]، وهكذا كان النَّبيُّ ﷺ تُعجبه الكلمةُ الحسنة، ويُعجبه الاسمُ الحسن.

رابعًا: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الطَّائر: هو ما طار لك، أي: ما خرج لك، وكتب أنَّه يقع لك أو عليك؛ لأنَّ الله قَدْ كتب أعمال العباد، وأفعالهم، وأقوالهم، وما هو صائرٌ لهم أو عليهم في اللَّوح المحفوظ.

والمعنىٰ هنا - والله أعلم - أنَّ المقصود بذلك ما كتب لهم أو عليهم هو عند الله عَزَّوَجَلَّ في الذِّكْر الحكيم، واللَّوح المحفوظ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ أي: ما كتب لكم أو عليكم، وما أصابكم من ذلك فهو بسبب كَسْبِكم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ يعني: لمَّا ذُكِّرتم ووعظتم، تَطيَّرتم بالمذكِّرِ والواعظِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أنَّ رسول الله ﷺ قال**: «**لا عَدْوَىٰ، وَلا طِيَرَةَ، وَلا هَامَةَ، وَلا صَفَرَ**» أخرجاه، وزاد مسلمٌ: «**وَلا نَوْءَ، وَلا غُولَ**».

قوله: «**لا عَدْوَىٰ**»؛ أي: لا عدوىٰ تُعدي بنفسها.

قوله: «**وَلا طِيَرَةَ**»؛ هذا نفيٌ للطِّيَرة المُحرَّمة؛ أي: أنَّ التَّشاؤم بالطَّير لا أثر له، أي: لا تأثير له؛ سواءٌ أتاك سارحًا أو بارحًا، أو من اليمين إلىٰ اليسار، أو من اليسار إلىٰ اليمين، فذلك ليس له تأثيرٌ في القَدَر، ووقوع المصائب، والأحزان،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

وإنَّما القَدَرُ بيد الله، هو الَّذي يُجْري الأقدارَ كما يشاء بخيرٍ أو شرٍّ، كلُّها بقَدَر الله، فمَنْ اعتقد تأثير الطَّير المُتطيَّر به، فقد أشرك، والواجب عليه أن يتوب إلىٰ الله، فهذا نفيٌ للطِّيَرة الَّتي كان أهلُ الجاهليَّة يعتقدونها.

قوله: «**وَلا هَامَةَ**» الهامَة: هي ما كان يعتقده أهلُ الجاهليَّة أنَّ مَنْ قُتِل ظلمًا تتحوَّل نفسه هامَةً أو شيئًا يُطالِب بالثَّأر، فالنَّصُّ هنا للهامَة بمعنىٰ أنَّها شيءٌ كان يَتصوَّره أهلُ الجاهليَّة؛ وهو شيءٌ لا حقيقة له، وقيل: إنَّها البُومة.

وكذلك **قوله**: «**وَلا صَفَرَ**»؛ فإنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يتشاءمون بشهر صفر، فأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الشَّهر لا شؤم فيه، بل هو كسائر الشُّهور، وَقَدْ كان أناسٌ أيضًا يتشاءمون ببعض الأيَّام كيوم الأربعاء من آخر كلِّ شهرٍ، ويُسمُّونه ربوعًا لم يدور، ويعتقدون فيه أنَّه يوم نحسٍ مستمرٍّ، ويقولون بأنَّ يوم الأربعاء من آخر كلِّ شهرٍ هو اليوم الَّذي سلَّط الله فيه الرِّيح علىٰ عاد، فيتشاءمون فيه لذلك.

قوله: زاد مسلم: «**وَلا نَوْءَ، وَلا غُولَ**»؛ يعني: أنَّ النَّوء ليس هو الَّذي يَتخلَّف عن الإتيان بالمطر أو يأتي به، ولكنَّ الله هو الَّذي يأتي به.

الغول: هو ما يتراءىٰ للإنسان في ظلمة اللَّيل ويُضلِّل المسافرين، وتارةً يكون مصحوبًا بالسعالي.

والغول: نوعٌ من الشَّياطين تقع للمسافر تُضلُّه في اللَّيل؛ لكن ورد في الحديث: «**فَإِذَا تَغَوَّلَتْ بِكُمُ الْغِيلَانُ، فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ**»[(١)].

قوله: (وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا عَدْوَىٰ وَلا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي**

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥) (١٤٣١٦) و(٣/ ٣٨١) (١٥١٣٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٩٣) (٢٩٧٤١)، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الضعيفة» (١١٤٠).

الْفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»؛ ومعنىٰ ذلك: لا عدوىٰ تُعدي بنفسها، وليست للطِّيَرة تأثيرٌ في واقع العبد إلَّا فيما يجد بنفسه، وَقَدْ وردت العدوىٰ في أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الإبل تكون في الرَّمل كأنَّها الظِّباء، فيخالطها البعير الأجرب فيُجْربها، فقال رسول الله ﷺ: **«فَمَنْ أَعْدَىٰ الْأَوَّلَ؟»** مُتَّفقٌ عليه[١].

المهمُّ: أنَّ هذه الأحاديث الَّتي ورد فيها النَّهي عن العدوىٰ والطِّيرة والهامة والصفر هي علاجٌ من الشَّارع الحكيم ﷺ لِمَا قَدْ تأصَّل في نفوس المشركين من العقائد السَّيِّئة، فإذا أسلموا بقي شيءٌ من تلك العقائد، فعالجها الشَّارع الحكيم ببيان أنَّها اعتقاداتٌ وهميَّةٌ، وأنَّها لا تأثير لها بنفسها، وإنَّما المُؤثِّر هو الله، فنفىٰ وقوعها استقلالًا، وأرشد إلىٰ علاجها بقوله: **«فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»**[٢].

وفي حديث ابن مسعودٍ: **«الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتَّوَكُّلِ»**، فهذا علاجٌ لما يقع في النُّفوس من التَّشاؤم، والخوف من المستقبل، فإذا وجد الإنسان في نفسه فليقل: **«اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ»**. أو يقول: **«اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ»**[٣].

وَقَدْ بَيَّن في حديث ابن عمر أنَّ مَنْ ردَّته الطِّيَرة عن حاجته فقد أشرك، أي وقع في الشِّرك، فإذا خرج العبدُ في سفرٍ فقابله غرابٌ يصيح، أو ثعلبٌ أو بومةٌ أو ما أشبه ذلك فرجع عن حاجته فتطيَّر بهذا الطَّير، فإنَّه يُعتبر قَدْ أشرك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

ويُؤخَذ من هذا: أنَّ ما يقع في القلب لأوَّل مَرَّةٍ أنَّه لا يُؤثِّر إذا قابله الإنسان بالتَّوكُّل علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والاعتماد عليه، واعتقاد أنَّ هذه المخلوقات الضَّعيفة لا تأثير لها في القَدَر، ولا علم لها بما يضرُّ أو ينفع:

بربِّكَ مَا تَـدْرِي الطَّـوَارِقُ بِالْحَصَـىٰ ... وَلَا زَاجِـرَاتُ الطَّيْـرِ مَـا اللهُ صَـانِعُ[1]

فالمؤمن يعتمد علىٰ الله، ويَتوكَّل عليه، ويعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، اللَّهمَّ وَفِّقنا لما تحبُّ وترضىٰ، وجَنِّبنا مُضلَّات الفتن يا ربَّ العالمين.

وبالله التَّوفيق.



---

(١) البيت للَبيد بن ربيعة العامري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في (ديوانه) (ص٥٧ المعرفة):

«لَعَمْرُكَ ما تَدْري الضَّوَارِبُ بالْحَصَىٰ ... وَلا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ»





بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: «قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ»[(١)]. انْتَهَىٰ.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا[(٢)].

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ: أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ[(٣)].

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدمِنُ الخَمرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٠٧) مُعلَّقًا بصيغة الجزم. ووصله: الطبريُّ في «التفسير» (١٤/ ١٩٣) و(٢٣/ ١٢٣ هجر)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٢٦)، والخطيبُ البغدادي في «القول في علم النجوم» كما في «مُختصره» (ص١٨٥دار أطلس)، وعبدُ بنُ حميد؛ وعن هذين الأخيرين الحافظ ابنُ حجر في «تغليق التعليق» (٣/ ٤٨٩). والأثر صحيح.

(٢) أثر قتادة رواه حربٌ الكرماني في «المسائل - الطهارة والصلاة -» (ص٥٩٥ الرَّيَّان)، وإسناده صحيح. وأثرُ ابن عيينة رواه حربٌ في «المسائل - الطَّهارة والصَّلاة -» (ص٥٩٥)، وسندُه لا بأس به.

(٣) رواه حربٌ عنهما كما في «مسائله» (ص٥٩٤). وانظر: «شرح عمدة الفقه - كتاب الصلاة» لابن تيمية (ص٥٥٣ المشيقح).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٩) (١٩٥٨٧)، وابنُ حبَّان في «صحيحه» (١٢/ ١٦٥) (٥٣٤٦)، والحاكم (٤/ ١٦٣)، وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح وضعيف الترغيب والترهيب» (٢٥٣٩): «صحيح لغيره».

الشرح:

تعريف التَّنجيم: التَّنجيم هي أمورٌ يُستدلُّ بها علىٰ وقائع الأرض، وحوادث الكون، وهذا العلم مأخوذٌ عن الأمم الضَّالَّة الَّتي سلفت قبل نُبوَّة نبيِّنا ﷺ حيث يعتقدون أنَّ النَّجم الفلانيَّ إذا اقترن بالقمر، وتزوَّج أحدهم في تلك اللَّيلة حصل له كذا، ومَنْ سافر في تلك اللَّيلة حصل له كذا. والمُنجِّمون يأخذون اسم الشَّخص واسم أمِّه، ويجمعون حروفهما، ولهم في ذلك طريقةٌ موروثةٌ عن أهل الباطل تتضمَّن أمورًا تنافي الشَّريعة:

الأمر الأوَّل: ادِّعاؤهم لعلم الغيب.

الأمر الثَّاني: ادِّعاؤهم التَّأثير؛ لاقتران النُّجوم بالقمر.

الأمر الثَّالث: ادِّعاؤهم شريكًا مع الله، فإنَّهم يزعمون أنَّ الكواكب لها تأثيرٌ في هذا الكون، وهذا شركٌ أكبر.

الأمر الرَّابع: زعمهم العلاقة بين النُّجوم وبين أدمغة العباد وعقولهم، وأنَّ النُّجوم لها تأثيرٌ علىٰ أدمغة النَّاس، وتأثيرٌ فيها، وهذا هو الكذب والدَّجل والتَّضليل، ونسأل الله السَّلامة.

ثمَّ اعلم أنَّ علم النُّجوم ينقسم إلىٰ قسمين:

١- علم التَّسيير.

٢- علم التَّأثير.

فعلم التَّسيير: هو علمُ المنازل، وذلك لمعرفة أوقات الزِّراعة وغيرها، فالمنازل الثَّمانية والعشرون تقسم علىٰ الفصول الأربعة، لكلِّ فصلٍ منها سبع منازل مضروبةٌ في ثلاثة عشر يومًا، أي: ثلاثة أشهرٍ لكلِّ فصلٍ من الفصول،

فصل الخريف سبع منازل، وفصل الشِّتاء سبع منازل، وفصل الرَّبيع سبع منازل، وفصل الصَّيف سبع منازل؛ وكلُّ واحدٍ من هذه الفصول ثلاثة أشهرٍ، فهذا العلم الَّذي هو علم التَّسيير لا شيء فيه، وإن كان قَدْ أنكره بعض السَّلف، وأجاز ذلك أحمد وإسحاق.

أمَّا علم التَّأثير: فهو اعتقاد تأثير النُّجوم علىٰ بني آدم، وربط حياتهم وموتهم، وصحَّتهم ومرضهم، وسلمهم وحربهم، وراحتهم وشقائهم، وفقرهم وغناهم، كلُّ ذلك مرتبطٌ - في زعم هؤلاء - بعلم النُّجوم وبالنُّجوم وتأثيرها، وهذا قولٌ باطلٌ، واعتقادٌ مُحرَّمٌ، مَنِ اعتقده خرج من الإسلام، ومَنْ مات عليه مات كافرًا مستحقًّا للخلود في النَّار، إذ إنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ تُبيِّن لنا أنَّ علم الغيب هو لله عَزَّوَجَلَّ دون غيره، وأنَّه لا دخل لأحدٍ من المخلوقين ولا تأثير له في حياة عباده، بل إنَّ الله وحده هو المُتصرِّف في أمور عباده، فهو الخالق لهم، وهو الرَّازق لهم؛ حياتهم وموتهم بيده، وصحَّتهم ومرضهم بيده، وفقرهم وغناهم بيده، وسعادتهم وشقاوتهم بيده، وتمليكهم وسلبهم بيده، وإعزازهم وإذلالهم، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطىٰ، ولا رادَّ لما قضىٰ، كلُّ شيءٍ بيده، وتحت تصرُّفه وقهره، هذه هي العقيدة الصَّحيحة الَّتي جاء بها الإسلام، ومَنْ خالفها واعتقد تأثير النُّجوم في الكون وفي حياة النَّاس، وذلك بقراءة بعض الكتب الَّتي ينتشر منها هذا العلم الباطل ككتاب أبي معشرٍ الفلكي، وكتاب شمس المعارف، وغير ذلك، فمَنْ تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ، وكلَّف نفسه، وأضاع نصيبه من الآخرة.

ولهذا فقد ذكر قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«أَنَّ اللهَ خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ**

نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

فدليل أنَّها زينةٌ للسَّماء قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

ودليل أنَّها رجومٌ للشَّياطين قولُه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [تبارك: ٥].

ودليل أنَّ الله جعل النُّجوم علاماتٍ يُهتَدىٰ بها في ظلمات البرِّ والبحر قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بالسِّحْرِ»** رواه أحمدُ وابنُ حبَّان في «صحيحه».

وهذا النَّهي يُتأوَّل علىٰ أمرين:

الأمر الأوَّل: مَنِ استباح الإدمان علىٰ الخمر، واستحلَّه، واستحلَّ قطيعة الرَّحم، فهو لا يدخل الجنَّة أبدًا، بل يكون خالدًا مُخلَّدًا في النَّار.

الأمر الثَّاني: وإمَّا أن يكون المعنىٰ: مدمن الخمر، وقاطع الرَّحم لا يدخلون الجنان المُعدَّة للمؤمنين، ولكن يدخلون جنانًا مُتدنِّيةً بعد أن يُعذَّبوا ويُطهَّروا، ويُنقَّوا، وهي الجنان الَّتي يدخلها أصحابُ الكبائر، والعياذ بالله.

أمَّا قوله: «وَمُصَدِّقٌ بالسِّحْرِ» فالمُصدِّق بالسِّحر كافرٌ، والكافر مُخلَّدٌ في النَّار، وأمَّا تأوُّلنا المذنبين الأوَّلين؛ لأنَّ إدمان الخمر كبيرةٌ من الكبائر، وفِعْلها لا يوجب الكفر المخرج من المِلَّة، وكذلك قطيعة الرَّحم، أمَّا المصدِّق بالسِّحر فهو كافرٌ كما قلنا.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وَلَهُمَا عَنْ زَيدِ بنِ خَالِدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(٢).

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ. وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢]»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٣) أخرجه مسلم (٧٣)، ولم أجده عند البخاري، انظر: «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٢/ ١٣٠)،

الشرح:

قوله: «بَابُ مَا جَاءَ فِي الاِسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ» الأنواء جمع نوءٍ، وهي المنازل أو النُّجوم، وذلك أنَّ المنازل تُعرَف بسقوط الكواكب وطلوعها، فإذا طلع الكوكب يُسمَّىٰ طلوعه نوءًا، يقال: ناء بمعنىٰ طلع، فقد يقع بتلك المنزلة مطرٌ وخيرٌ، فيزعم بعض النَّاس أنَّ تلك المنزلة هي الَّتي فعلت ذلك، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

ومعنىٰ ذلك: وتجعلون شكر رزقكم أنَّكم تكذِّبونه، فالرِّزق من الله، والمطر هو سبب الرِّزق، والله يأتي بالمطر ويأتي بالثَّمرة، فقد يأتي المطر، وتصلح الزِّراعة، ثمَّ بعد ذلك تخيب الثَّمرة، والفضل لله عَزَّوَجَلَّ في إنزال المطر، وصلاح الثَّمرة ذلك أنَّه هو الرَّزَّاق؛ رَزَق البهائمَ بإخراج النَّبات الَّذي تأكله، ورَزَق النَّاسَ بإخراج الثَّمر الَّذي يأكلونه، والفضلُ لله في ذلك كلِّه.

والأنواء أو النُّجوم أو المنازل إنَّما هي أوقاتٌ لتنزيل الغيث أو لصلاح الثَّمرة، واللهُ هو الَّذي ينزلُ الغيث، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، وقال جلَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

فإسناد نزول المطر أو صلاح الثَّمر إلىٰ النَّوء الَّذي وقع فيه، أو المنزلة الَّتي وقع فيها حينما يقول النَّاس: صدق نوء كذا، أو صلح نوء كذا، يكون فيه إسنادٌ لنعمة الرِّزق إلىٰ النَّوء والمنزلة، والله هو الفاعل لذلك كلِّه، فيكون فيه نوعٌ من

=

و«تحفة الأشراف» للمزِّي (٤/ ٤٦٩).

الشِّرك غير أنَّه لا يُخرِج من الإسلام، وهو الَّذي جاء في حديث زيد بن خالدٍ الجهنيِّ، وأنزل الله فيه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله: (وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»).

هذه الخصال بَقِيتْ في المسلمين رغم إسلامهم، ورغم عقيدتهم الَّتي تعلَّموها من الكتاب والسُّنَّة إلَّا هذه الأربع بَقِيَتْ فيهم؛ وهي من أمر الجاهليَّة.

قوله: «**الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ**» بأن يفتخر الإنسان بحسَبِه.

والمقصود بالحسَب: الشَّرف.

والشَّرف:

١- إمَّا أن يكون بأمرٍ من أمور الدُّنيا؛ كالمال أو الجاه.

٢- أو بأمرٍ من أمور الآخرة؛ كالعلم والعمل الَّذي ينفع به النَّاس، فالنَّاس يفتخرون، أي: من طبيعتهم أنَّهم يفتخرون بالأحساب، فيقول أحدهم: أبي الَّذي فعل كذا، أو جَدِّي الَّذي فعل كذا، والَّذي ينبغي ويجب علىٰ العبد ألَّا يفتخر بالحسَب؛ سواءٌ كان من أمور الدُّنيا، أو من أمور الدِّين، فإنَّ الفضل لله علىٰ العباد، فالفضل له علىٰ الصَّالح في هدايته للصَّلاح، والفضل له علىٰ صاحب المال في إعطاء الله له ذلك، والَّذي ينبغي للمسلم عدم الفخر بشيءٍ من ذلك إلَّا أن يذكر شيئًا من باب التَّحدُّث بنعمة الله، فلا بأس عند المناسبة والحاجة.

أمَّا قوله: «**وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ**»: هو أنَّ بعض النَّاس إذا حصل بينه وبين أحدٍ من النَّاس خصومةٌ ومغاضبةٌ، طَعَن في نسبه بأيِّ قولٍ من الأقوال الَّتي يطعن بها فيه، وهذا مذمومٌ.

قوله: «وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»: هذا هو محلُّ المناسبة للباب، وكون الإنسان يقول: النَّجم الفلانيُّ جاد، والنَّجم الفلانيُّ لم يجد، وما أشبه ذلك، فهذا لا ينبغي للمسلم، بل المسلم يعتقد أنَّ الله هو الفاعل.

قوله: «وَالنِّيَاحَةُ»: النِّياحة: نَدْبُ المَيِّت بذِكْر محاسنه، ولكونه تَسخُّطًا للقَدَر، واعتراضًا عليه، فإنَّ الأمر في ذلك لله، هو الَّذي بيده الإحياء والإماتة، فلمَّا كانت النَّائحة معترضةً علىٰ قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ حينئذٍ، تُوعِّدت في هذا الحديث بقول النَّبيِّ ﷺ: **«وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»** نسأل الله العفو والعافية.

الثَّوب الَّذي يكون من قطرانٍ ثوبٌ حارٌّ في منتهىٰ الحرارة، والدِّرع الَّذي يكون من جربٍ مؤذٍ للإنسان في جلده بالحَكَّة الَّتي تكون فيه، وهذا من العذاب، نسأل الله العفو والعافية، فهذا وعيدٌ للنَّائحة أنَّها عندما تقوم يوم القيامة تكون مُعذَّبةً بذلك، نستجير بالله من غضبه.

ثمَّ إنَّ هذه الأربع لا توجب كفرًا يُخرِج من المِلَّة؛ فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ: **«اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ»**[(١)].

والمراد بذلك كفر دون كفرٍ، وليس الكفر المخرج من المِلَّة، أي: من الكفر العامِّ أو الكفر الأصغر، وبالله التَّوفيق.

ثمَّ أورد حديث زيد بن خالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاس فَقَالَ... » الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

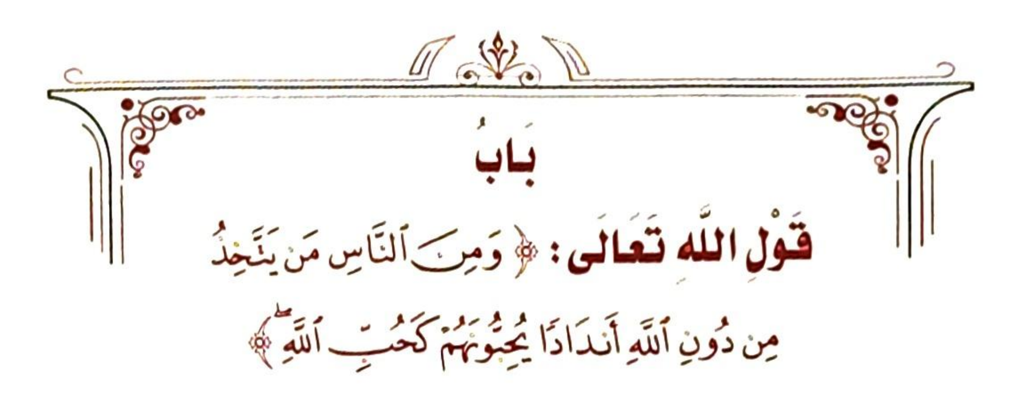
قوله: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ**»: المؤمن هو الَّذي يقول: **مُطِرنا** بفضل الله ورحمته، والكافرُ الَّذي يقول: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا**»، وليس المقصود به الكفر المُخرِج من المِلَّة، ولكن المقصود به كفرٌ دون كفرٍ، وذلك أنَّ مَنْ أسند إنزال المطر إلىٰ الكوكب فإنَّه يُعتبَر عملُه هذا من الكفر العمليِّ الَّذي ينبغي للإنسان أن يتركه، وأن يُسند إنزال المطر وعدمه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لا إلىٰ الكوكب، فكلُّ هذه الأمور ذِكْرُ الكفر فيها ليس المراد به الكفر المُخرِج من المِلَّة، ولكن المراد الكفر العمليُّ.

قوله: (**وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ**). أي: معنىٰ حديث زيد بن خالدٍ.

(**وَفِيهِ**: «**قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا**»، **فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ**: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ **الآيَاتِ**)، وبهذا تعلم أنَّ النجوم إنَّما هي وقتٌ لتنزُّل المطر أو لصلاح الثَّمر، واللهُ هو الَّذي يفعل هذه الأشياء.

وبالله التَّوفيق.





بابُ
قولِ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

عَنْ أَنسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ(١).

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ... »(٣) إِلَىٰ آخِرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤١).

صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَىٰ أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ[١].

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. قَالَ: «المَوَدَّةُ»[٢].

الشرح:

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ هذا الباب: «أصل التَّوحيد وروحه: إخلاص المحبَّة لله وحده؛ وهي أصل التَّألُّه والتَّعبُّد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتمُّ التَّوحيد حتَّىٰ تكمل محبَّة العبد لربِّه، وتسبق محبَّته

(١) أخرجه ابنُ المبارك في «الزُّهد» (٣٥٣)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ١٣٤)، وابنُ أبي عمر العدني في «الإيمان» (ص١٢٨ الدار السلفية)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٢٢ الكتب العلمية)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤٠٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٦٩١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٦٩)، من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عنِ ابنِ عبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: «أَحِبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغِضْ فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ مُوالَاةُ اللهِ بذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وَلَوْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، ولَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وذَلِكَ لا يُجْدِي عَنْ أَهْلِهِ». وفي بعض الرِّوايات زيادة: ثُمَّ قَرَأَ ابنُ عَبَّاسٍ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وَقَرَأَ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزُّخرف: ٦٧].

والأثر في إسناده ضعف؛ ليث بنُ أبي سُليم، قال فيه الحافظ في «التَّقريب» (ص٨١٧ - ٨١٨): «صدوق اختلط جدًّا ولم يتميَّز حديثُه فتُرك».

تنبيه: الأثر عزاه ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العُلوم والحكَم» (١/ ١٢٥ الأرنؤوط) لابن جرير، ولم أقف عليه عنده في «تفسيره».

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٩٠)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٩) (٣٠٧٦)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقرَّه الذهبي.

جميع المحابِّ، وتغلبها، ويكون لها الحكمُ عليها؛ بحيث تكون سائر مَحابِّ العبد تبعًا لهذه المحبَّة الَّتي فيها سعادة العبد وفلاحه، ومن تفريعها وتكميلها الحبُّ في الله، فيحبُّ العبدُ ما يحبُّه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكملُ إيمانُ العبد وتوحيدُه»[(١)]. اهـ.

وأقول: هذا كلامٌ نفيسٌ، لو كُتِب بماء الذَّهب لكان قليلًا عليه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي أوجد العبد، وهو الَّذي ربَّاه بنعمه؛ رزقه ما يعيش عليه من الطَّعام والشَّراب، وأنفذ ذلك الرِّزق في جسده يَتغذَّىٰ به، ويمنحه به القوَّة علىٰ عبادته، ومنحه لذَّة الغذاء، ولذَّة الماء إذا شربه ليكون مقبولًا للشُّرب، فينتفع به، وأوجد له اللِّسان، واللُّعاب، والأسنان والأضراس ليتمكَّن من طَحْن ذلك الطَّعام، والانتفاع به في جسده، ولهذا جاء في الحديث: «**أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي**»[(٢)].

يُضاف إلىٰ ذلك أنَّ الله أوجدنا لعبادته، وعلَّمنا تلك العبادة بما أنزله في كتابه، وبما بيَّنه رسولُه ﷺ من صفات تلك العبادة في سُنَّته من أقوالٍ وأفعالٍ، وأخبرنا بطريق الخير الَّذي يُوصِلنا إلىٰ الجنَّة، وطريق الشَّرِّ الَّذي يُؤدِّي بنا إلىٰ النَّار، قال تعالىٰ بعد أنْ حذَّر من إنكاح المشركين أو نكاح المشركات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

---

(١) «القول السَّديد في مقاصد التَّوحيد» (ص١٢٨).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٧٨٩) عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: «حسنٌ غريبٌ»، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

ليتذكَّر أحدُنا أنَّه لولا فضلُ الله عليه بهدايته للإيمان، ووجوده في مجتمعٍ مسلمٍ؛ لكان ممَّن تحقُّ عليهم كلمةُ الله بالعذاب.

لهذا فإنَّه يجب علينا محبَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه خلقنا، ورزقنا، وهدانا، ووَفَّقنا، وعلَّمنا ما لم نكن نعلم.

ومن علامات محبَّة العبد لربِّه أن يكون محبًّا لما أحبَّ من الأعمال، ومَنْ أحبَّ من الأشخاص، ومبغضًا لما أبغض من الأعمال، ومَنْ أبغض من الأشخاص، وَقَدْ جاء في الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُبَلِّغُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ**»[(١)].

ومن هنا أيضًا يتبيَّن قولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، ويَتبيَّن أيضًا أنَّ مَنْ أحبَّ غيره من الآلهة الَّتي لا تَخْلق، ولا تَرْزق، ولا تُحيي، ولا تُميت، ولا تُدخِل الجنَّة، ولا تُنجي من النَّار، أنَّ مَنْ أحبَّ هذه الآلهة والأنداد الَّتي لا تفعل شيئًا ممَّا يفعله الله، ولا تتَّصف بشيءٍ ممَّا يتَّصف به الله، فإنَّه قَدْ وضع المحبَّة في غير محلِّها، وكان مذمومًا عند الله علىٰ أَلْسِنَة رسله وفي كتابه، مستحقًّا للَّوْم والمَقْت.

ولهذا فإنَّ مَنْ يعبدون الآلهة، ويُحبُّونهم كحبِّ الله، ويوالون ويعادون ويقاتلون من أجلها، سيأتي عليهم يومٌ يمقتون فيه أنفسهم، وإنَّ الواجب علىٰ كلِّ مسلمٍ إخلاص العمل لله محبَّةً له، وإجلالًا له، ومن الواجب علىٰ كلِّ مسلمٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، ونقل عن البخاري أنه قال فيه: «حسن صحيح». وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٧٢٦).

أن يوالي أولياء الله، وهم أهل طاعته، وأتباع شريعته، ويبغض أعداء الله الَّذين يكونون بخلاف ذلك، وهذه الآيات تُبيِّن لنا أنَّه لا يجوز للعبد أن يُقدِّم محبَّة الآباء والأبناء، ولا الإخوان، ولا العشيرة، ولا الأموال الَّتي اكتسبها واقترفها، ولا الدُّور الَّتي شيَّدها، ألَّا يُقدِّم شيئًا منها علىٰ محبَّة الله عندما تتعارض مع هذه الأمور ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

فإذا دعاك أبوك إلىٰ الكفر بالله، والشِّرك به، أو ابنُك أو أخوك أو زوجتك أو عشيرتك، فلا يجوز لك أن تطيعهم في معصية الله؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ما أكثر هذا في الَّذين يقطنون في بلاد الكفر، وكذلك في بعض البلاد الَّتي هي محسوبةٌ علىٰ الإسلام، يدعو الوالد ابنَه إلىٰ الكفر أو الفسق، ويقول له: إذا لم تفعل كذا، فلست ولدي، وربَّما يطرده من بيته! وَقَدْ وردت إليَّ أسئلةٌ بخصوص ذلك.

وقولُه: (عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»)، أي: لا يكملُ إيمانُ عبدٍ إلَّا بهذا، بأن يُقدِّم محبَّة رسول الله علىٰ محبَّة النَّاس جميعًا، وطاعة الله ورسوله علىٰ طاعة النَّاس جميعًا.

وكذلك حديث أنسٍ أيضًا: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

يا له من حديثٍ عظيمٍ! ما أعظم هذه الثَّلاث الخصال الَّتي لا يبلغها العبد إلَّا بعونٍ من الله!

إنَّ العبد في هذه الدُّنيا لَيتعرَّض لدواعي الشَّرِّ، ومخالفة ما أمر الله به ورسولُه، وصوارف تصرفُه عن محبَّة الله، ومحبَّة رسوله، وتدعو العبد إلىٰ أن يُقدِّم محبَّة العشيرة والقرابة، أو السُّلطان والمجتمع، أو الزَّوجة والأبناء علىٰ محابِّ الله ورسوله، فالمؤمن يستمسك بمحبَّة الله ورسوله، ويُضحِّي بكلِّ شيءٍ سواها إذا كان يدعو إلىٰ مخالفتها، وإنَّ محبَّة الله تدعو العبد أن يحبَّ له، ومن أجله، فيحبُّ مَنْ أحبَّ الله، ومَنْ أحبَّ رسول الله ﷺ ويبغض مَنْ أبغضه الله، وأبغضه رسول الله ﷺ، وأن يكره الرُّجوع إلىٰ الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذَف في النَّار؛ لأنَّ الكفر موجبٌ للقذف في النَّار، والبقاء فيها أبد الآبدين ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

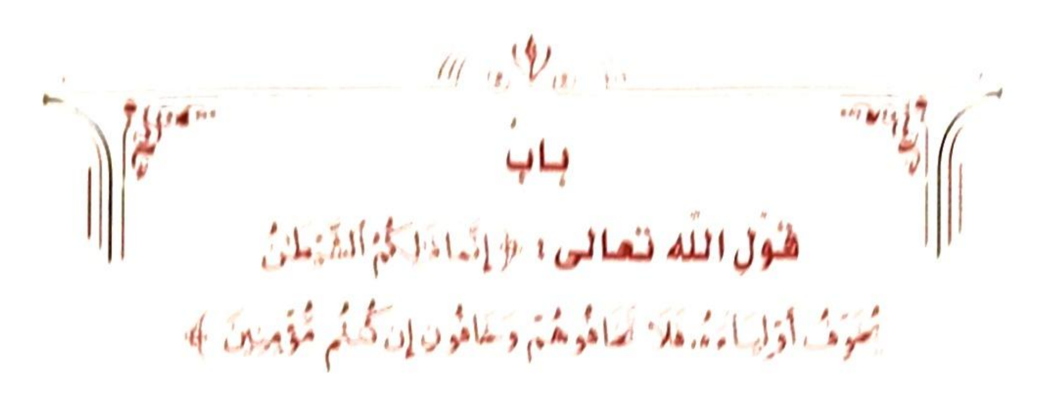
وأخيرًا في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: «**مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ...** » إلخ، صفةٌ للمؤمن بأنَّه يحبُّ في الله ويبغض في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، وأنَّ وَلاية الله لا تُنال إلَّا بهذه المرتبة حتَّىٰ وإنْ كثرت صلاةُ العبد وصومُه، ولم يكن من الموصوفين بهذه الأوصاف؛ فإنَّه لم يصل إلىٰ حقيقة الإيمان وكماله، ولن يصل إليه إلَّا بذلك.

ثمَّ أخبر ابْنُ عَبَّاسٍ أنَّه: «**قَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ وَمُوَادَّتِهِمْ عَلَىٰ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَنْ أَهْلِهِ شَيْئًا**»، أي: لا ينفعهم ذلك يوم القيامة، ولهذا قال ابنُ عَبَّاسٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، قال: «**الْمَوَدَّة**»، أي:

انقطعت المودَّةُ الَّتي كانت بينهم في الدُّنيا علىٰ أمور؛ دُنيا كسبوها، ومنافع تبادلوها، ولكن تلك الأمور وتلك الدُّنيا تذهب يوم القيامة، ولا يبقىٰ إلَّا ما كان لله وفي الله، اللَّهمَّ اجعلنا ممَّن يحبُّ لك، ويبغض من أجلك، ويوالي أهل طاعتك، ويعادي أهل معصيتك، إنَّك سميع الدُّعاء.

وبالله التَّوفيق.





باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ الآية [التوبة: ١٨]. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٦)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٢٠٣). وأشار البيهقيُّ إلى ضعفه. وحكم الألبانيُّ بوضعه في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (١٤٨٢).

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا؛ أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٣٠)، والبيهقيُّ في «الأربعون الصغرى» (٥١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٤٧). وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري والأعمش، تفرَّد به العُمري». وقال البيهقي: «هكذا رواهُ خالدٌ العُمريُّ عنهم. وإنَّما رواهُ الثِّقاتُ عن سُفيان بن عُيينَة، عن أبي هارونَ المدنيِّ قال: قال ابنُ مسعودٍ: «اليقينُ أنْ لا تُرضيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ» فذكرهُ موقوفًا مُرسلًا».

قلتُ: وخالد العُمري هذا هو خالد بن يزيد العمري كذَّبه يحيى بن معين وأبو حاتم كما في «الميزان» (١/ ٦٤٦). ووقع عند القضاعي: خالد بن نجيح - وهو خطأ، كما أشار إلى ذلك القضاعي - وهو كذَّاب أيضًا كما في

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»[1].

الشرح:

قال السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الباب عقده المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لوجوب تعلُّق

=

«الميزان» (١/ ٦٤٤).

وجاء من وجه آخر مرفوعًا، أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٢٠٤)، من طريق أبي قرَّة عن سفيان الثَّوري، عن منصُورِ بنِ المُعْتَمِرِ، عن خَيثمةَ، عنِ ابنِ مسعودٍ به. وإسناده صحيح. لكنَّه خُولف؛

فقد رواه عبد الرَّحمن بن مهدي عن سفيان، فجعله عنه، عن زبيد، عن عبد الله موقوفًا مختصرًا، أخرجه الحسينُ المروزي في زوائده علىٰ «الزُّهد والرّقائق» لابن المبارك (١٠٠٣)، فروايةُ ابن مهدي أرجح؛ لكونه مِن أثبت أصحاب الثَّوري وأكثر ملازمةً له؛ قال أبو حاتم الرَّازيُّ: سألتُ عليَّ ابنَ المديني: من أوثق أصحاب الثَّوري؟ قال: يحيىٰ القطَّان، وعبد الرَّحمن بن مهدي. وقال ابنُ معين وسُئل عن أثبت أصحاب الثَّوريِّ: هم خمسة: يحيىٰ بن سعيد، ووكيع بن الجرَّاح، وعبد الله بنُ المبارك، وعبد الرَّحمن بنُ مهدي، وأبو نُعيم الفضل بنُ دُكين. انظر: «شرح علل التِّرمذي» لابن رجب (٢/ ٧٢٢ - ٧٢٦ همام).

وقد تُوبع ابنُ مهدي مُتابعةً قاصرةً في زبيد، فأخرجه ابن المبارك في «الزُّهد والرَّقائق» (١٤٣٨)، وابن أبي الدُّنيا في «اليقين» (٢٢)، مِن ثلاث طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن زبيد به موقوفًا، مثل رواية عبد الرَّحمن. وهذه طرُق صحيحةٌ إلىٰ زبيد، لكنَّ زبيدًا لم يلق أحدًا مِن الصَّحابة، كما في «جامع التَّحصيل» للعلائي (ص١٧٦)، فالرِّواية منقطعة.

وقد تابع زبيدًا علىٰ وقفه أبو هارون موسىٰ بن أبي عيسىٰ المدني؛ أخرجه هنَّاد في «الزُّهد» (٥٣٥)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الرِّضا عن الله» (٩٤)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٢٠٥)، من طريق ابن عُيينة عن أبي هارون، قال: قال عبد الله بن مسعود، فذكَره بطوله. وإسنادُه صحيحٌ إلىٰ أبي هارون المدني، لكنَّه منقطعٌ بينه وبين ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّه يروي عن صغار التَّابعين، كما في «تهذيب الكمال» (٢٩/ ١٣٢).

(١) أخرجه ابنُ حبَّان في «صحيحه» (١/ ٥١٠) (٢٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التَّعليقات الحسان» (٢٧٦)، وفي «السِّلسلة الصَّحيحة» (٢٣١١).

الخوف والخشية بالله وحده، والنَّهي عن تعلُّقه بالمخلوقين، وبيان أنَّه لا يتمُّ التَّوحيد إلَّا بذلك، ولا بدَّ في هذا الموضع من تفصيلٍ يَتَّضح به الأمر، ويزول الاشتباه».

ثمَّ قال: «اعلم أنَّ الخوف والخشية تارةً يقع عبادةً، وتارةً يقع طبيعةً وعادةً، وذلك بحسب أسبابه ومُتعلَّقاته، فإن كان الخوفُ والخشيةُ خوفَ تَألُّهٍ وتَعبُّدٍ، وتَقرَّب بذلك الخوف إلىٰ مَنْ يخافه، وكان يدعو إلىٰ طاعةٍ باطنةٍ، وخوفٍ سريٍّ يزجر عن معصية مَنْ يخافه، كان تَعلُّقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتَعلُّقه بغير الله من الشِّرك الأكبر الَّذي لا يغفره الله؛ لأنَّه أشرك في هذه العبادة - الَّتي هي من أعظم واجبات القلب - غير الله مع الله، وربَّما زاد خوفُهُ من غير الله علىٰ خوفه من الله». اهـ[1].

وأقول: إنَّ التَّعلُّق تارةً يكون سببًا، وصاحبه معتقدٌ أنَّه سببٌ، فلا يكون من الشِّرك الأكبر، بل يكون من الشِّرك الأصغر إذا زاد عن العادة.

وأذكرُ قِصَّةً هي تُعتبَر من هذا القبيل: تخرَّج قومٌ في الجامعة، وعقدوا لهم اختبارًا، أو طلبوا منهم تقديمًا للتَّوظيف، فكان منهم مَنْ توسَّط بوزيرٍ، ومنهم مَنْ توسَّط بغير ذلك، ومن هؤلاء رجلٌ ضعيفٌ ليس له واسطةٌ، ولكنَّه قويُّ الإيمان وكثير الدُّعاء والتَّعلُّق بالله عَزَّوَجَلَّ، وكان يدعو الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يُيسِّر له ما فيه الخير، فكان الَّذين تَوسَّطوا بأصحاب المناصب قَدْ صارت وظائفهم في أماكنَ بعيدةٍ، وذلك المسكين الَّذي يرفع يديه إلىٰ الله في كلِّ صلاةٍ يدعوه، ويرجوه، ويتضرَّع إليه ظهرت وظيفته في بلدٍ قريبٍ، وبقي فيها إلىٰ أَنْ أُحِيل إلىٰ التَّقاعد، وسكنها، فهذا التَّعلُّق لا يُعَدُّ من الشِّرك، لكنَّه إذا زاد في الرُّكون ربَّما

---

(١) «القول السَّديد في مقاصد التَّوحيد» (ص ١٣٢).

كان من الشِّرك الأصغر، ومَنْ كان تَعلُّقه بالله خالصًا فهو الَّذي يفوز بالخير في الدُّنيا والآخرة.

وأذكر مثالًا آخر للتَّعلُّق الَّذي يكون من الشِّرك الأكبر، أو الخوف الَّذي يكون من الشِّرك الأكبر: هو أنَّ رجلًا كان يَدَّعي الولاية، فكانت مزرعته ومواشيه حمًى، يزعمون أنَّه يطَّلع علىٰ مَنْ يأخذ من مزرعته شيئًا، فلا يقرب من مزرعته أحدٌ، وكذلك أيضًا مواشيه؛ لأنَّهم يزعمون بأنَّه يَطَّلع عليهم حتَّىٰ علىٰ نِيَّاتهم، فهذا شركٌ أكبر، وليس هذا من الفرضيَّات أو التَّخيُّلات، بل هو واقعٌ بلغني عنه من أخبارٍ عدَّةٍ.

وأقول: إذا كان الخوف من ذلك الشَّخص قَدْ زاد علىٰ خوف الله أو ساواه علىٰ الأقلِّ، بحيث زعموا أنَّ لذلك الرَّجل سلطانًا غيبيًّا يعلم به المُغيَّبات حسب ما يعتقده الخرافيُّون، فهذا من أعظم الشِّرك الأكبر المُخرِج من الملَّة.

أمَّا مَنْ خاف من شخصٍ خوفًا طبيعيًّا أن يضربه أو يقتله، أو خاف أن يأخذ شيئًا من ماله أو ما أشبه ذلك، فهذا الخوف الطَّبيعيُّ لا يدخل في العبادة، وَقَدْ عرفنا ممَّا سبق في هذا العرض أنَّ الخوف من غير الله تارةً يكون مباحًا، وتارةً يكون مكروهًا أو مُحرَّمًا، لكنَّه لا يُخرِج من المِلَّة، وتارةً يكون مُخرِجًا من المِلَّة، وهكذا الرَّجاء.

ما هي مناسبة الآية للباب؟

الجواب: إنَّ مناسبة آية (آل عمران)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يُخوِّف بأوليائه، فمناسبةُ هذه الآية واضحةٌ، وَقَدْ نهىٰ الله عباده المؤمنين أن يخافوهم بقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن

كنتم مؤمنين حقَّ الإيمان فإنَّ إيمانكم يقتضي ذلك.

أمَّا مناسبة آية (التَّوبة) فهي في قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ومعنى ذلك لم يخشَ خشيةَ عبادةٍ إلَّا مِنَ الله، وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: لا تخافوهم خوفَ عبادةٍ.

أمَّا آية (العنكبوت) الَّتي يقول الله فيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: فمنعته تلك الفتنة من أن يُؤدِّي ما أمر الله به خوفًا منها.

ثمَّ أورد حديث أبي سعيدٍ: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**».

وأقول: إرضاء النَّاس بسخط الله مُحرَّمٌ، وكذلك أن تَحْمدهم علىٰ رزق الله ناسيًا أنَّ الله هو مُسخِّر القلوب ومُصرِّفها، وليس معنىٰ ذلك ألَّا تشكر مَنْ أحسن إليك، بل إنَّ الواجب عليك أن تشكر الله أوَّلًا، ثمَّ تشكر ذلك الَّذي أحسن إليك عاطفًا له بـ (ثمَّ)، فتقول: إنِّي أشكر الله، ثمَّ أشكرك علىٰ إحسانك إليَّ؛ أمَّا أن تشكره، وتنسىٰ الله، فهذا هو المذموم.

وأمَّا قوله: «**أَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**» فهذا معناه أن تعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المعطي وهو المانع، فإنْ شاء سخَّر لك ذلك المخلوق الضَّعيف، وإنْ شاء لم يُسخِّره، فلا ينبغي أن تسارع بالذَّمِّ للنَّاس فيما لم يُؤتِك الله.

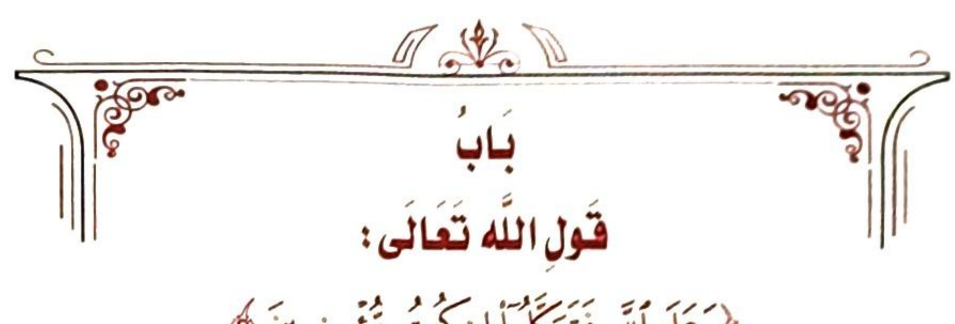
ثمَّ أخبر الرَّسول ﷺ بهذا الحديث: «**أَنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ**»؛ يعني: أنَّ الرِّزق بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فتارةً قَدْ يكون مِن النَّاس مَنْ يكون حريصًا علىٰ

إعطائك شيئًا، ويأبىٰ الله فلا يصل إليك ذلك الشَّيء، وتارةً يكون العكس، فتجد من النَّاس مَنْ يكون كارهًا إيصال الخير إليك، فيصل علىٰ رُغْمِهِ.

أمَّا حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّذي كتبتْه إلىٰ مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فهو حديثٌ عظيمٌ معناه: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ...**» بمعنىٰ أنَّه حرص علىٰ رضا الله، وإن كان ذلك الإرضاء لله فيه إسخاطٌ للنَّاس، فإنَّ الله يجعل العاقبة أنَّ النَّاس يَرْضون عنه بأَنْ يجعل أسبابًا تكون هي المُؤثِّرة في رضاهم عنه، والعكس بالعكس، أي: مَنِ الْتَمس رضا النَّاس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه النَّاس بأَنْ يجعل أسبابًا تسخطهم عليه، والقلوبُ بِيَدِ مُقلِّبها.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
قَولِ اللّه تَعَالَى:
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآيَةُ [الأنفال: ٦٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلقِيَ فِي النَّار، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٧٣]. رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١).

الشرح:

التَّوكُّل علىٰ الله: هو تفويض الأمور إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والوثوق بكفايته والاعتماد عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تيسير كلِّ مُهمٍّ من أمور الحياة، وليس معنىٰ ذلك أن يترك العبد الأسباب المادِّيَّة الَّتي تُؤدِّي إلىٰ إنجاح طلبه من جلبِ كلِّ مرغوبٍ، أو دفعِ كلِّ مرهوبٍ، بل عليه أن يباشرها معتقدًا في تلك الأسباب بأنَّها من قَدَر الله، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقدر أن يُرتِّب عليها ما يُطلَب منها، ويقدر أن يسلبها ذلك.

وعلىٰ العبد أن يؤمن أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتصرَّف بحسب رغباتِ عبادِهِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ١٥٤) (١٠٤٣٩).

ولكنَّه يَتصرَّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسب ما قَدْ قَدَّره وكتبه في اللَّوح المحفوظ، وهو أعلم بعباده، وهو أعلم بمصالحهم.

ومن جهةٍ أخرىٰ، فإنَّه ينبغي للعبد أيضًا أنْ يدعوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راغبًا إليه، ومعتمدًا عليه في حصول ما قصد، ودفع ما حذر، وهذا هو سببٌ آخر؛ أي أنَّ الدُّعاءَ سببٌ مستقلٌّ، بل هو من أنجح الأسباب، ولقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بالتَّوكُّل عليه في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فهذا أمرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده أن يَتوكَّلوا عليه، وأن يُفوِّضوا أمورهم إليه مع مباشرةِ الأسباب المادِّيَّة، والاعتمادِ علىٰ مُسبِّبها.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ «إنَّما»: أداة حصرٍ، يُستفَاد منها:

حصرٌ للإيمان الكامل في هذه الصِّفات الثَّلاث:

أوَّلها: أنَّهم إذا سمعوا آيات الله وَجِلَتْ قلوبهم، وخافت من لقائه، وفرحت بما كانت قَدْ أحسنته؛ لقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وثانيها: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يُؤخَذ من هذه الجملة من الآية أنَّ الإيمان يَزِيد بسماع كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يزيد مقداره في قلب العبد، وهذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطَّاعات، وينقص بالمعاصي، خلافًا للمرجئة والجهميَّة الَّذين يقولون إنَّ الإيمان هو التَّصديق، والتَّصديق لا يزيد ولا ينقص.

ثالثًا: قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: علىٰ ربِّهم يعتمدون، مُفوِّضين إليه

أمورهم، وطالبين منه إنجاح مساعيهم، فهذه الثَّلاث الخصال مَنْ جمعها فقد بلغ كمال الإيمان.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك، قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي مَنِ اتَّبعك من المؤمنين بإعطائكم النَّصر علىٰ أعدائكم إنْ أطعتموه، واتَّبعتم أمره، واجتنبتم نهيه، وحذرتم الوقوع في محارمه.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: هو كافيه، وناصره، ومُؤيِّده.

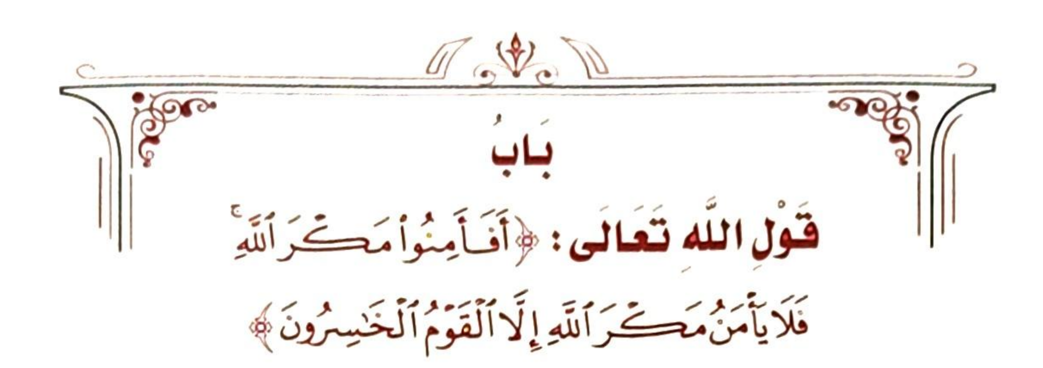
ثمَّ أورد حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: قال: (﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾) أي: هذه الجملة الَّتي فيها التَّفويض لله عَزَّوَجَلَّ (**قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حِينَ قَالُوا لَهُ**: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾)، ومعنىٰ ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: أي كافينا ومُوفِّقنا وهادينا.

ويُؤخَذ من هذه الآيات: أنَّ التَّوكُّل علىٰ الله فرضٌ من فرائض الإيمان، وأنَّه سببٌ في كماله، وأنَّ مَنْ توكَّل علىٰ الله كفاه ما أهمَّه، وأنَّ: «حسبنا الله ونعم الوكيل»: كلمتان عظيمتان في التَّوكُّل علىٰ الله، والاعتماد عليه، وفي صرف كلِّ ما يؤذي، وجلب كلِّ ما ينفع.

ويُؤخَذ منه أنَّ التَّوكُّل من أعمال القلوب، واللِّسانُ يُصدِّقها، نسأل الله أن يجعلنا ممَّن يَتأسَّون بالنَّبيَّينِ الكريمينِ، وهما: إبراهيم ومحمدٌ عليهما الصَّلاة والسَّلام.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»(١).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ(٢).

---

(١) أخرجه البزَّار (١/ ٧١ كشف الأستار)، والبرديجي في «الكبائر» برقم (٢ التركي)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٣١)، وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤): «رواهُ البزَّارُ والطَّبرانيُّ، ورجالُهُ مُوثَّقُون». قلت: في إسناده شبيبُ بن بشر مختلف فيه؛ وثَّقه ابن معين، وذكره ابنُ حبَّان في «الثقات»، وقال: يخطئ كثيرًا. وليَّنه أبو حاتم الرازي، وأشار إلىٰ أنه يهم في الإسناد؛ فإنه سُئل عن عمر بن الوليد الشني، فقال: «ما أرىٰ بحديثه بأسًا، ومن تثبُّت عمر أن عامَّة حديثه عن عكرمة فقط، ما أقل ما يجوز به إلىٰ ابن عبَّاس، لا يشبه شبيب بن بشر الذي جعل عامَّة حديثه عن عكرمةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ!». انظر: «الجرح والتعديل» (٦/ ١٤٠)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٦٢)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٠٦). وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٩): «في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا». وذهب الشيخ الألباني إلىٰ تحسين إسناده كما في «الصحيحة» (٢٠٥١).

(٢) أخرجه معمر بن راشد في «الجامع - الملحق بمصنَّف عبد الرزاق -» (١٠/ ٤٥٩)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٤٤٨)، وإسماعيل القاضي في «أحكام القرآن» (ص٨٩ - ٩٠)، والطبريُّ في «التفسير» (٦/ ٦٤٨ - ٦٤٩ هجر)، وابنُ المنذر في «التفسير» (٢/ ٦٦٧)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٩/ ١٥٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٤٠) (١٠١٩). وصحَّح إسناده الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» =

الشرح:

باب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال أهلُ العلم: ينبغي للعبد أن يكون بين الخوف والرَّجاء، وألَّا يغلب عليه الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، أو العكس من ذلك، فإنَّ كلا الطَّرفين هلاكٌ، والوسط هو عنوان الاستقامة، ويقولون إنَّه ينبغي للعبد أن يكون الخوف والرَّجاء له بمنزلة الجناحين للطَّائر؛ فإذا فقد أحدهما لم يستطع الطَّيران، وإنَّما يستطيع الطَّيران مَنْ كان له جناحان.

وقالوا: إنَّ الَّذي يجب أن يكون العبد في حال صحَّته وسلامته الخوفُ عليه أغلب، ويكون في حال مرضه مثلًا وتَهيُّئه للرَّحيل من الدُّنيا أن يكون الرَّجاءُ عليه أغلب.

ولهذا جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه دخل علىٰ شابٍّ وهو في الموت، فقال: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قال: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»[1].

وإنَّ الأمن من مكر الله، والقُنُوط من رحمة الله يحصل أحدهما عند غَلَبة جانبٍ دون جانبٍ، فمَنْ غلب عليه الرَّجاء وزاد في ذلك حتَّىٰ يخرج عن الاعتدال

=

(١/ ١٠٤)، وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٩): «وهو صحيح إليه - أي: إلىٰ ابن مسعود - بلا شكٍّ».

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابنُ ماجه (٤٢٦١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

فإنَّه في هذه الحالة يأمن مكر الله، وهذا دليلٌ علىٰ انعدام الخوف من الله عنده، أو ضعفه حتَّىٰ وقع في هذا المأزق الَّذي حكم الله علىٰ أصحابه بالخسار، فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اللَّهمَّ إنَّا نعوذ بك من أن نأمن مكرك.

والجانب الآخر: الخوف إذا زاد عن حدِّ الاعتدال، ووصل بالعبد إلىٰ جانب القنوط واليأس، فتلك مصيبةٌ أيضًا تُورِده إلىٰ المهالك، وعلىٰ العبد أن يكون معتدلًا بين الخوف والرَّجاء، فلا يستبدُّ به الخوف حتَّىٰ يخرجه إلىٰ القنوط، ولا يستبدُّ به الأمن حتَّىٰ يكون من أهل الخسار؛ فإنَّه إن حصل له ذلك أو بعض ذلك كان علىٰ خطرٍ عظيمٍ، والعياذ بالله.

ولهذا جاء في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ باللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**».

فالشِّرك أعظمُ ذنبٍ عُصِي الله به، فمَنْ أشرك بالله شركًا أكبر فإنَّه مُحرَّمٌ عليه دخولُ الجنَّة، ومُحتَّمٌ عليه دخولُ النَّار.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فمَنْ أشرك بالله شركًا أكبر فإنَّه مستحقٌّ لهذا الوعيد.

واليأس من رَوْح الله يجعل الإنسان يُسِيء الظَّنَّ بربِّه، فيشتدُّ خوفه، ويكثر قلقُهُ، وربَّما ظنَّ أنَّ ذنوبه لا تُغفَر، فيقع فيما هو أشدُّ من ذنوبه الَّتي قارفها.

والثَّالثة: الأمن من مكر الله، فهو يغلب عليه جانبُ الأمن، فيستهين بحقِّ ربِّه، ويقع فيما يوجب غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

وهكذا نعود فنقول: العبد بحاجةٍ إذا رأىٰ أنَّ الأمن غلب علىٰ نفسه أن يقرأ الآيات الَّتي فيها وعيدٌ، وإذا رأىٰ أنَّ اليأس غلب علىٰ نفسه أن يقرأ النُّصوص الَّتي فيها الوعد، وَقَدْ جاءت أحاديثُ كثيرةٌ عن النَّبيِّ ﷺ في الشَّفاعة، وأنَّ الله يأمر بإخراج قومٍ علىٰ سبيل التَّدنِّي:

«اُنْظُرُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ - فَأَخْرِجُوهُ»[(١)].

«اِرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا»[(٢)].

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنِ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ»[(٣)].

«أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»[(٤)].

«اِذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا»[(٥)].

ومع ذلك يُبقِي اللهُ في الجنَّة فضلًا، فيُنشِئ لها أقوامًا، أو فيخلق لها أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط، فيُسكِنهم إيَّاها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦) (١١١٤٣)، وابنُ أبي عاصم في «السنة» (٦٣٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٧٣٢ - ٧٣٤ الشهوان)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظلال الجنَّة» (٦٣٤): «إسناده جيِّد».

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٤)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيدِ الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الأحاديث الَّتي يغلب فيها الوعد علىٰ الوعيد يقرؤها العبد إذا اشتدَّ خوفُهُ، ووصل به إلىٰ اليأس والقنوط.

وأحاديث الوعيد يقرؤها العبد إذا أحسَّ من نفسه الأمنَ وعدم الخوف والمبالاة، فإذا توازن في نفس العبد الخوفُ والرَّجاءُ، ففي هذه الحالة يكون أقرب إلىٰ الحقِّ، فنسأل الله أن يُثبِّتنا، اللَّهمَّ لا تُؤمِّنَّا مَكْرك، ولا تُلْهِ قلوبنا عن ذِكْرك، ولا تُولِّ علينا غيرك. وبالله التَّوفيق.







بَابٌ
مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ»(١).

وَفِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ المَيِّتِ»(٢).

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ»(٣).

وَعَن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيَا، وَإِذَا أَرادَ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ»(٤).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٧)، والطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١ شاكر)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٨)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٤/ ١١٠)، وفي «شعب الإيمان» (٩٥٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي»: «حسن صحيح». وحسَّنه في «الصَّحيحة» (١٢٢٠).

قومًا ابتلاهم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ[(١)].

الشرح:

قوله: (باب من الإيمان بالله الصَّبر علىٰ أقدار الله)؛ الصَّبر علىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ هو علامة الإيمان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمقصودُ هنا: صبرُ المسلم علىٰ الأقدار الَّتي ليس له فيها سببٌ.

يعني أنَّ الأقدار تنقسم إلىٰ قسمين:

١- الأقدار المكروهة الَّتي يُقدِّرها الله تعالىٰ علىٰ العبد وليس للعبد فيها سببٌ؛ كالمرض والحاجة والابتلاءات الَّتي يُبتلَىٰ بها العبد، وهي ليست من المعاصي، فهذه ينبغي للعبد أن يصبر عليها، ويجب عليه ذلك.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]، ويقولُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢].

فالقحط وعدم المطر من المصائب، والمرض من المصائب، والعاهات الَّتي تأخذ الثَّمرة من المصائب، والابتلاء بالفقر والحاجة من المصائب، وهكذا، فينبغي للعبد أن يؤمن بتلك المصائب المُقدَّرة من الله من قبل أن يخلق السَّموات والأرض، فيصبر عليها ويقابلها بالحمد والشُّكر لله عَزَّوَجَلَّ الَّذي قدَّرها.

٢- وأمَّا الابتلاء بالمعاصي، فكأَنْ يُبتلَىٰ الإنسان بفعل الزِّنا أو بشرب الخمر أو بسفكِ دمٍ حرام، فهذا لا يجوز له أن يحتجَّ عليه بالقدر، وإنِ احتجَّ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣٩٦)، وابنُ ماجه (٤٠٣١)، وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن التِّرمذيِّ»، وفي «الصَّحيحة» (١٤٦).

بالقدر فهو مخطئٌ في ذلك، وعلىٰ العبد أن يتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك الذَّنب الَّذي قارفه، وأن يلقي باللَّوم علىٰ نفسه.

والمقصود: أنَّ الصَّبر هنا هو الصَّبر علىٰ محض الأقدار الَّتي ليس للإنسان فيها سببٌ، ولا هو قادرٌ علىٰ صرفها كما مَثَّلنا سابقًا، وتفسيرُ الآية يدلُّ علىٰ ذلك، قال علقمة: (**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ**)، أي: يجب أن يرضىٰ بقدر الله و يصبر عليه.

وللعبد أمام المقادير حالتان: حالة الصَّبر، وحالة الرِّضا.

وهذه الحالة - وهي الرِّضا - حالة المُقرَّبين؛ وهو أن ترضىٰ عن رَبِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّه قدَّر عليك هذا القدر، وتكون راغبًا في ثواب المصيبة أفضل من أن تبقىٰ لك (بقاء الولد دون سَلْبه، بقاء المال دون أَخْذه)، فإنْ رزقك الله بولدٍ، وبعدما بلغ أن يخدمك بعض الخِدْمة أخذه الله من بين يديك، فأنت حينئذٍ إذا رضيت بقَدَر الله، تنال كمال الثَّواب؛ لأنَّك علمت أنَّ أجر المصيبة الَّذي ادَّخره الله لك أفضل من بقاء ذلك الَّذي سلبك إيَّاه، وَقَدْ جاء في الحديث: «**أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِذَا قَبَضَ وَلَدَ الْعَبْدِ، قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ**». رواه التِّرمذيُّ وأحمد[1].

فتذكَّر هذا الحديث يا من أُصبتَ بقبض روح ولدك وموته، حتَّىٰ إنَّك لو

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (٤/ ٤١٥) (١٩٧٤٠) ولفظُه مختصر، من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي». وانظر: «الصحيحة» (١٤٠٨).

خُيِّرت بين أن يبقىٰ ولدك، ويعود لك علىٰ قيد الحياة، والبيت الَّذي في الجنَّة؛ لاخترتَ البيت الَّذي في الجنَّة، هكذا حال المؤمن.

أمَّا الحالة الثَّانية؛ فهي حالة الصَّبر، وهي حبس النَّفْس علىٰ ألم المصيبة مع وجود التَّألُّم وهي دون حالة الرِّضا في المرتبة.

إذًا، ما مناسبةُ حديث أبي هريرة للباب: «**اثْنَتَان بِالنَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَب، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ**»؟

نقول: مناسبتُه: أنَّ النِّياحة تَسخُّطٌ لقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم رضًا به، هذا معناه. كذلك حديث ابن مسعودٍ - أي في «البخاري ومسلم» مرفوعًا -: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ**» أي: عند المصيبة، «**وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ**»[1]، وهو أنَّه مَنْ وقعت عليه المصيبة:

١- إمَّا أن يكون مؤمنًا، فيرضىٰ ويُسلِّم.

٢- وإمَّا أن يكون ضعيف الإيمان، فيضرب خدَّه، ويشقُّ جيبه؛ وضربُ الخدِّ معروفٌ.

والجيبُ: هو جيب القميص أو ما يقوم مقامه، وهو الفتحة الَّتي يدخل فيها الرَّأس، بأن يقدَّه (أي يقطعه) تَسخُّطًا للمصيبة.

فالمُتسخِّط لقَدَر الله يشقُّ الجيب، أي: يشقُّ قميصه تَسخُّطًا لذلك القَدَر المقدور.

وكذلك أن يدعو علىٰ نفسه بدعوىٰ الجاهليَّة؛ كقول: واجبلاه، واناصراه؛ نسأل الله العفو والعافية، هذه حالة المُتسخِّطين الَّذين لا يرضون بالقَدَر، فالواو

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

في «واجبلاه»، وفي «واناصراه» تُسمَّىٰ عند أهل اللُّغة: واو النُّدْبة.

وفي حديث أنسٍ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، في هذا الحديث إخبارٌ أنَّ العبد قَدْ تصيبه المصائب وتتوالىٰ عليه النَّكَبات، فيظنُّ أنَّ ذلك مِنْ كُرْه الله له، وليس كذلك؛ بل قَدْ يكون الله مُحبًّا له وهو يريد أن يبتليه بالابتلاءات حتَّىٰ يأتي يوم القيامة وَقَدْ تَخفَّف من الذُّنوب.

أمَّا مَنْ أمسك الله عنه، وأسبل عليه رداء العافية، فأعطاه المال والولد، وهَيَّأ له الجاه مع أنَّه مقيمٌ علىٰ معصيةٍ، فذلك ربَّما كان دليلًا علىٰ أنَّ الله أراد به شرًّا، وجمع له العقوبة في الآخرة - والعياذ بالله -.

وفي الحديث الأخير: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ**» يعني أنَّ الثَّواب الجزيل والأجر الكثير يكون علىٰ مَنِ ابْتُلي ابتلاءاتٍ فصبر، ألم تسمع إلىٰ ربِّك وهو يقول: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأثنىٰ عليه ربُّه في قوله: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧]. ذلك أنَّه كان مؤمنًا وحده، فكسر أصنام قومه، فحكموا عليه بأن يُلقَىٰ في النَّار، فصبر، فجعل الله النَّار عليه بردًا وسلامًا، وخرج مرفوع الرَّأس، وابتلاه الله بفراق والديه وأهله، فصبر وهاجر، ومع ذلك ابتلاه الله بعدم الولد فصبر، ثمَّ حصل له إسماعيل، فابتلاه الله بأن يضعه في تلك الجبال القاحلة فصبر، وبتركه هناك فصبر، فلمَّا بلغ معه السَّعي ابتلاه الله بأن أمره بذبحه فصبر، نجح في كلِّ هذه الابتلاءات وغيرها.

ونحن يُقدِّر الله علينا بعض المقادير، فيتسخَّط الواحد منَّا ولا يصبر لبلاء ربِّه، اللَّهمَّ اجعلنا ممَّن يصبر عند البلوىٰ، ويشكر عند النَّعماء.

ثمَّ قال: «وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»، اختبر صبرهم «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»؛ أي: مَنْ رضي بقَدَر الله، رضي الله عنه، ومَنْ تَسخَّط مِنْ قَدَر الله، سَخِط الله عليه، نعوذ بالله مِنْ سَخَط الله.

وعقيدةُ أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الخير والشَّرَّ كلاهما مقدَّرٌ من الله، ولكنَّ الشَّرَّ لا يُنسَب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل ينبغي نِسْبتُهُ إلىٰ مجهولٍ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]. أو إلىٰ نفس العبد كما في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]؛ يعني أنَّ السَّيِّئة هي حاصلةٌ من كَسْبك، ومن عَمَلِك، فأنت المُتسبِّب فيها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وفي دعاء الاستفتاح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[(١)]، فتنزيه الله عن الشَّرِّ ليعلم أنَّه إنَّما يحصل من الله علىٰ سبيل المجازاة للعبد والمعاقبة له، كما في الحديث السَّابق: «وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث طويل، عن عليٍّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا...».



بَابُ
مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الآيَة [الكهف: ١١٠].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ ». قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحمَدُ[٢].

الشرح:

تعريف الرِّياء: هو أن تُرِي النَّاسَ بأنَّ عملك لله مع أنَّ عملك إنَّما هو للنَّاس أو للدُّنيا - والعياذ بالله -، وهو - أي: الرِّياء - ينقسم إلىٰ قسمين:

١ - باعثٌ علىٰ العمل.

٢ - وعارضٌ في العمل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) (١١٢٧٠)، وابن ماجه في «سننه» (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٥٣٣٣).

فالباعث علىٰ العمل هو رياءُ المنافقين، بأن يكون هذا المرائي لولا مراءاته للنَّاس ما عمل ذلك العمل، فيُعدُّ الرِّياء باعثًا له علىٰ العمل، وهذا ينطبق علىٰ أقوامٍ من النَّاس إن كان الواحد مع النَّاس صلَّىٰ، وإنْ كان وحده لم يصلِّ، وهم الَّذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فتجد الواحد منهم لا يعمل العمل الَّذي يرضي الله إلَّا إذا كان بين النَّاس يريد أن يُثْنوا عليه به.

وأمَّا العارض في العمل فهو يُعدُّ من الشِّرك الأصغر، فيقوم الإنسان يصلِّي لكن إذا رأىٰ أحدًا من النَّاس ينظر إليه زَيَّن صلاته من أجل نظر ذلك الرَّجل؛ وهكذا: أن يدخل في العمل من أجل الله، فيعرض له الرِّياء حين أداء العمل، وهذا إنْ غلب علىٰ الإنسان فربَّما أحبط عمله، وإنِ استعاذ منه فإنَّه يمكن أن يتغلَّب عليه، لكن ينقص من أجره.

والمهمُّ: أنَّ ما كان باعثًا علىٰ العمل فهو يُعتبَر من الشِّرك الأكبر، وما كان عارضًا في العمل كان من الشِّرك الأصغر، وَقَدْ علَّم النَّبيُّ ﷺ أُمَّته بأن يدعو الإنسان إذا أحسَّ من نفسه شيئًا، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ**»[1].

وأيضًا يدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَىٰ نَفْسِي إِثْمًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ**»[2].

---

(١) ورد هذا الدُّعاء في حديث أخرجه البخاريُّ في «الأدب المُفرد» عن معقل بن يسار رضي الله عنه (٧١٦). وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الأدب المفرد» (١/ ٢٥٩).

(٢) ورد هذا الدُّعاء في حديث أخرجه الترمذي (٣٥٢٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ =

«اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»[(١)].

وجاء في الحديث القدسي أنَّ الله تعالىٰ يقول: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، هذا ممَّا يدعو العبد إلىٰ الإخلاص في عمله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ معنىٰ كونه صالحًا: أن يكون خالصًا لله تعالىٰ، ولا يشرك بعبادة ربِّه أحدًا، وممَّا يدعو الإنسان إلىٰ التَّوحيد والإخلاص أن يعلم أنَّ النَّاس ليس عندهم شيءٌ من الثَّواب فيعطوه، وليس بأيديهم شيءٌ من العقاب فيُسلِّطوه عليه، فالثَّواب والعقاب بيد الله، والخير والشَّرُّ بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا ينصرف الشِّرك وإرادة النَّاس بالعمل إلَّا إذا دعا العبد ربَّه، وسأله أن يجعل الأعمال خالصةً لوجهه، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ !**».

قَالُوا: بَلَىٰ.

قَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**».

وإنَّ النُّفوس ضعيفةٌ، فينبغي للعبد أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصرف عنه كيد الشَّيطان الرَّجيم، وأن يجعل عمله خالصًا لله تعالىٰ؛ لأنَّ ما تخوَّفه النَّبيُّ ﷺ

=

في «صحيح وضعيف سنن التِّرمذيِّ».

(١) ورَد هذا الدُّعاء في حديث أخرجه التِّرمذيّ (٣٤٨٣)، عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سُنن التِّرمذيِّ».

علينا لاشكَّ أنَّه أمرٌ مَخوفٌ، وأنَّ الواجب علينا أن نلجأ إلىٰ الله بأن يصرف عنَّا الشَّيطان الَّذي يدعونا إلىٰ البدع والمعاصي، ويوقعنا فيما يحبط أعمالنا، وأن يُعِيننا علىٰ أنفسنا من الوقوع فيما يضرُّنا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع لنا أن نستعين به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فنحن لا نقدر علىٰ صرف الشَّيطان عن أنفسنا إلَّا بهذا، فإذا دعونا الله عَزَّوَجَلَّ أن يصرفه عنَّا، صرفه عنَّا.

وبالله التَّوفيق.



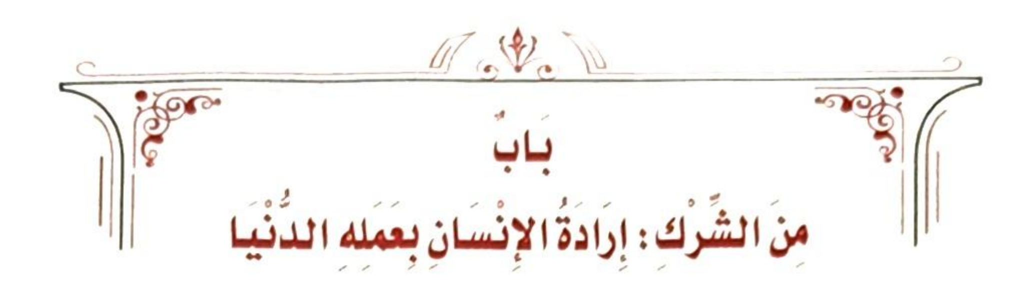
علينا لاشكَّ أنَّه أمرٌ مَخوفٌ، وأنَّ الواجب علينا أن نلجأ إلىٰ الله بأن يصرف عنَّا الشَّيطان الَّذي يدعونا إلىٰ البدع والمعاصي، ويوقعنا فيما يحبط أعمالنا، وأن يُعِيننا علىٰ أنفسنا من الوقوع فيما يضرُّنا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع لنا أن نستعين به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فنحن لا نقدر علىٰ صرف الشَّيطان عن أنفسنا إلَّا بهذا، فإذا دعونا الله عَزَّوَجَلَّ أن يصرفه عنَّا، صرفه عنَّا.

وبالله التَّوفيق.









بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ الآيَتَين [هود: ١٥].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ: إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»(١).

الشرح:

وأقول: قوله: «بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا»؛ فإنَّ هذا نوعٌ من أنواع الشِّرك، أي: يريد الإنسان بعملٍ من أعمال الآخرة يريد به الدُّنيا فقط، وَقَدِ استدلَّ المؤلِّف علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ في «سورة هود آية ١٥»: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ دلَّت هذه الآية علىٰ أنَّ مَنْ أراد بعمله الدُّنيا فقط بأنَّ ذلك يكون رِدَّةً، نسأل الله العفو والعافية، وهو يُعتبَر من الشِّرك الأكبر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا الوعيد إنَّما يكون لمَنْ يُشرِك

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

بالله شركًا أكبر، ويترتَّب عليه حبوط العمل، ودخول النَّار والخلود فيها.

أمَّا مَنْ قَصَد الدُّنيا للاستعانة بها وهو مؤمنٌ بالآخرة لعلمه أنَّها هي الحياة الباقية، فإنَّه فيما يظهر لا ينالُه هذا الوعيد إن شاء الله، وهذا لما يكون فيه من المداخلة كمَنْ درس - مثلًا - العلوم الشَّرعيَّة من أجل أن يعلِّمها، ويعمل بها، ثمَّ ينال بتلك الشَّهادة وظيفةً يستعين بها على دنياه وآخرته، وإنَّما إرادة الدُّنيا وزينتها تكون مذمومةً في حقِّ مَنْ لم تكن له هِمَّةٌ في دينه، بل إنَّه لو منع الدُّنيا إلَّا بتَرْك الدِّين لَفَعَله، فهذا الَّذي يناله الوعيد.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا بأنَّ هذا الصِّنف من النَّاس كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في «الآية ١٤ من سورة الأحزاب» في وَصْف المنافقين: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٤، ١٥]، وفي قراءةٍ: ﴿لأتَوْها﴾[1].

فأخبر فيها عن المنافقين أنَّه لو دُخلت عليهم المدينة من جميع جهاتها؛ سواءٌ دخلها اليهود أو المشركون، ثمَّ طُلِب منهم أن يُشركوا، وأن يعودوا إلى الشِّرك؛ لفعلوا، فمَنْ كان هذه حاله، فالظَّاهر أنَّ هؤلاء هم المقصودون دون النَّوع الأوَّل الَّذين ذكرتُهم، والله تعالى أعلم.

قال ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية - أي: آية (هود) -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، الآية والَّتي بعدها: «قال العوفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ في هذه الآية: إنَّ أهل الرِّياء يُعطَون بحسناتهم في الدُّنيا، وذلك أنَّهم لا

---

(١) قال شيخُنا النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى قراءة: ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي: أعطوها، أي: الفتنة، وهي الإجابة إلى الكفر والشرك، ومعنى قراءة: ﴿لَأَتَوْهَا﴾، أي: فعلوها».

يُظلمون نقيرًا، يقول: مَنْ عمل صالحًا الْتِمَاس الدُّنيا؛ صومًا أو صلاةً أو تهجُّدًا باللَّيل لا يعمله إلَّا الْتِمَاس الدُّنيا، يقول الله تعالىٰ: أُوفِّيه الَّذي الْتَمس في الدُّنيا من المثابة[1]، وحبط عمله الَّذي كان يعمله لالتماس الدُّنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين».

وهكذا رُوي عن مجاهدٍ والضَّحَّاك وغيرِ واحدٍ.

وقال أنس بنُ مالكٍ والحسن: «نزلت في اليهود والنَّصارىٰ».

وقال مجاهدٌ وغيرُه: «نزلت في أهل الرِّياء».

وقال قتادة: «مَنْ كانت الدُّنيا همَّه ونيَّته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدُّنيا، ثمَّ يُفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطىٰ بها جزاءً، وأمَّا المؤمن فيُجازىٰ بحسناته في الدُّنيا، ويُثاب عليها في الآخرة».

وَقَدْ ورد في الحديث المرفوع نحوٌ من هذا.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾»، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾». اهـ[2].

قوله: وَفِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تعِسَ**

---

(١) الظَّاهر أنَّ الصَّحيح: «من المثوبة».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١٠، ٣١١).

عَبْدُ الدِّينَار، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ... ». الحديث.

قوله: «**تَعِسَ**»: دعاءٌ عليه.

«**عَبْدُ الدِّينَار**»، «**عَبْدُ الدِّرْهَم**» هو الَّذي يتوقَّف رضاه علىٰ إعطائه الدِّينار والدِّرهم، وسخطُه علىٰ عدم ذلك - وهذه منقصةٌ تدلُّ علىٰ أنَّ الدُّنيا إنَّما هي مَعْبرٌ وليست بدارِ إقامةٍ، ووسيلةٌ وليست غايةً - لكنَّ مَنْ خالط قلبُه الإيمان كان بخلاف ذلك، فيستقلُّ الدُّنيا ويستضعفها، ويزهد فيها إن لم تكن من طريقٍ حلالٍ، وما عُطف علىٰ الدِّينار والدِّرهم فهو في حكمِه؛ كقوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ**».

والخميصة والخميلة نوعان من الثِّياب، أي: الَّتي يرضىٰ بوجودها ويغضب عند فَقْدها.

ثمَّ بالغ في وصفه، فقال: «**إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ**»، وزاد دعاءً عليه فقال: «**تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**».

ومعنىٰ هذا دعاءٌ عليه، وأنَّه إذا وقع في ورطةٍ لا يخرج منها، أي: دعاءٌ عليه بالبقاء فيها، وعدم الخلاص منها.

ثمَّ شرع في وصف النَّوع الآخر الَّذي همُّه أداءُ ما عليه من واجباتٍ حتَّىٰ ولو حصل ذلك مع نقصِ حُظُوظِ نفسِه، فقال: «**طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ**»؛ أي: أنَّه مهتمٌّ بأداء الواجبات، لا يمكنه التَّفرُّغ لدهن رأسه وترجيله، بل هو مغمورٌ بأداء الواجب، ومكثَّفٌ عليه الأعمال لكونه شخصًا طيِّعًا يريد رضا الله، والتَّقرُّب إليه، والتَّطلُّع إلىٰ فضله وازدراء الدُّنيا

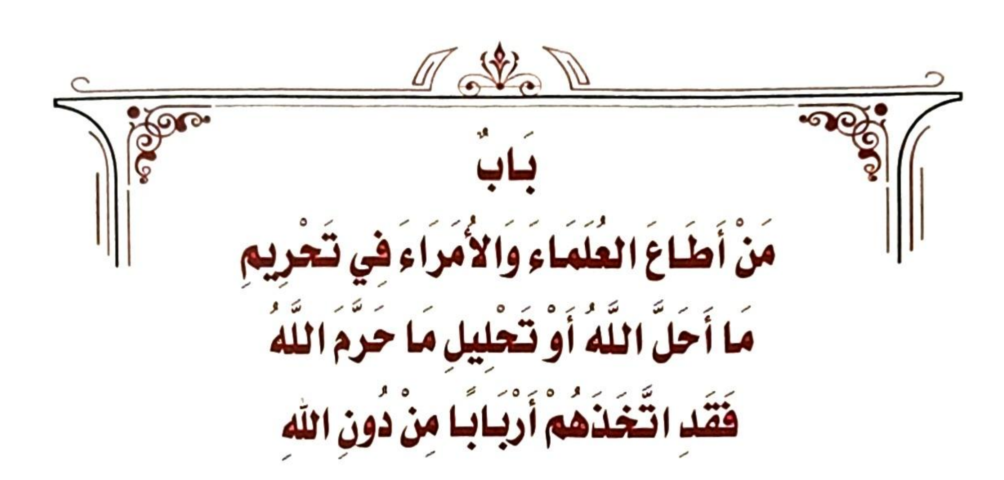
واحتقارها، ولهذا قال: «أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ».

«إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ»، والمراد بالحراسة: حراسة المجاهدين عند نزولهم ونومهم.

«وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ»، والمراد بالسَّاقة: مؤخَّرة الجيش، وصاحبها يَتتبَّع العاجزين، ويُسْعِفهم، ويُعِينهم، لا يكثر من الاستئذان، بل إنَّه قَدْ يستأذن فلا يُؤذَن له، ويشفع فلا يشفَّع؛ ويعرض الأمر فلا يُقبَل رأيه، ولا تتبع مشورتُه، فهذا حال أصحاب الطَّاعة المُتطلِّعين للثَّواب الأخرويِّ، وذاك حال أصحاب الدُّنيا الَّذين تنعقد نفوسهم بالأمور المادِّيَّة، فلا يرضون إلَّا بها.

وبالله التَّوفيق.





بَابٌ
مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ»[١].

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلَىٰ

---

(١) هذا الأثر ذكره هكذا بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «المجموع» (٢٠/ ٢١٥، ٢٥١) و(٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٣٨) وفي «الطرق الحكمية» (ص ٢٥) وفي غيرها من كتبه.

وقد أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٣٧)، وابنُ حزم في «حجة الوداع» (ص ٢٦٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٧٨، برقم ١٢٤٨)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه» برقم (٣٧٣)، والضِّياء المقدسي في «المختارة» (١٠/ ٣٣١) برقم (٣٥٧)، ولفظه: عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ»، فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَهَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: نَهَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَقُولُ: نَهَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

ورواه إسحاق بنُ راهويه كما في «المطالب العالية» (١/ ٣٦٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» برقم (٣٧٤)، وابنُ حزم في «حجَّة الوداع» (ص٢٦٩) بلفظ: «هَذَا الَّذِي أَهْلَكَكُمْ - وَاللهِ - مَا أَرَىٰ إِلَّا سَيُعَذِّبُكُمْ، إِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَجِيئُونِي بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»، ولفظ إسحاق: «مِنْ هَهُنَا تَرِدُونَ، نَجِيئُكُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَجِيئُونَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ». قال الحافظ ابنُ حجر: «سنده صحيحٌ».

وفي لفظ لعبد الرَّزَّاق (٢/ ٣٧٨ -جامع البيان لابن عبد البر)، ومن طريقه ابن حزم في «حجَّة الوداع» (ص ٢٦٩): «وَاللهِ مَا أُرَاكُمْ مُنْتَهِينَ حَتَّىٰ يُعَذِّبَكُمُ اللهُ؛ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتُحَدِّثُونَنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ».

رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]. أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»(١).

عَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةُ [التوبة: ٣١]. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ! قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ، فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتُحِلُّونَهُ؟**» فَقُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٢).

---

(١) لم أجده بهذا السِّياق، وكأنَّه ملفَّق من روايتين؛ فقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية في «الصَّارم المسلول» (ص٥٦ - ٥٧ محمد محيي الدِّين)، وابنُ مفلح في «أصول الفقه» (٤/ ١٥٧٢ العبيكان) وفي «الفروع» (١١/ ١٠٧ الرسالة)، والمرداوي في «التَّحبير شرح التَّحرير» (٨/ ٤١١١ الرُّشد)، عن الإمام أحمد من رواية أبي طالب المشكاني، وقيل له - يعني أحمد -: إن قومًا يدعون الحديث، ويذهبون إلىٰ رأي سفيان وغيره! فقال: أعجبُ لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحَّته، يدعونه ويذهبون إلىٰ رأي سفيان وغيره! قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]! وتدري ما الفتنة؟ الكفر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلىٰ الرأي.

وأخرج ابنُ بطَّة العكبري في «الإبانة الكبرىٰ» (١/ ٢٦٠ الراية) من رواية الفضل بن زياد عن الإمام أحمد، من ذكره للآية: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، إلىٰ آخره بمعناه، ولفظه: قال الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ: نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ فَوَجَدْتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا، ثُمَّ جَعَلَ يَتْلُو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا، وَيَقُولُ: وَمَا الْفِتْنَةُ؟: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَزِيغَ فَيُهْلِكَهُ، وَجَعَلَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وَقَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: «مَنْ رَدَّ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ، فَهُوَ عَلَىٰ شَفَا هَلَكَةٍ».

(٢) لم أقف عليه في «مسند الإمام أحمد». وأخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

الشرح:

أقولُ: إنَّ طاعةَ العُلماء والأمراء في مخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأن يُحلُّوا ما حرَّم الله، أو يُحرِّموا ما أحلَّه، فهذه تُعتَبر عبادةً لهم من دون الله؛ ذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل إلينا القرآن وتَعبَّدنا به، وأوصل إلينا سُنَّة نبيِّه ﷺ وتَعبَّدنا بها، فهذا هو الدِّين الَّذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأَنْ يُدَانَ به، فمَنْ أطاع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حَرَّم الله، أو تحريم ما أحلَّ الله، فإنَّه قَدِ اتَّخذهم مُشرِّعين، وبذلك اتَّخذهم أربابًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورىٰ: ٢١]. لهذا أنكر ابنُ عبَّاسٍ علىٰ مَنْ كان يقول لهم: قال رسول الله كذا، وشرع كذا، وهم يقولون: قال أبو بكرٍ كذا، وشرع عمر كذا.

وكان الخلاف بينه وبين بعض الصَّحابة أو غيرهم حصل في التَّمتُّع، إذ إنَّ رسول الله ﷺ شرع التَّمتُّع، وأمر به مَنْ لم يَسُقِ الهدي من أصحابه، أمرهم أن يُحوِّلوا حَجَّتهم إلىٰ عُمْرةٍ، وكان آخر أمره لهم عند المروة لمَّا أكملوا السَّعي، وكان لأبي بكرٍ وعمر رأيٌ في هذه المسألة؛ إذ إنَّهم رأيا أنَّ من تمام العمرة والحجِّ أن يُنْشَأ لكلِّ واحدٍ منهما سفرٌ خاصٌّ به، فأمرا بذلك؛ لا معارضةً لأمر الرَّسول ﷺ، ولكن اجتهادًا منهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومن أجل ذلك فقد استمرَّ بعض النَّاس علىٰ هذا، وجعلوا ينكرون علىٰ مَنْ تَمتَّع بالعمرة إلىٰ الحجِّ، فناقش عبدُ الله بن عبَّاسٍ أقوامًا في ذلك، فلذلك قال لهم: «يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من

=

(١٧/ ٩٢)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ١٩٨)، وفي «المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» (ص ٢٠٩ - ٢١٠)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه» (٢/ ١٢٩-١٣٠). وحسَّنه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصَّحيحة» (٣٢٩٣).

السَّماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكرٍ وعمر!».

وقال الإمام أحمد بنُ حنبل: «**عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلَىٰ رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ**»، اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِك من الزَّيغ.

معلومٌ أنَّه لا يجوز أن تعارَض سُنَّةُ النَّبيِّ ﷺ برأيِ أَحَدٍ؛ وإن كانوا أفضل الخَلْق بعد الأنبياء.

وكذلك إنكار أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أقوامٍ عرفوا الإسناد وصِحَّته، يذهبون لرأي سفيان، وإنَّما ذَمَّهم الإمام أحمد بنُ حنبل؛ لأنَّهم ذهبوا إلىٰ رأي سفيان، وتركوا السُّنَّة، ولو لم يكن كذلك ما كان لإنكاره عليهم وجاهةٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، الضَّمير في ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يعود إلىٰ رسول الله ﷺ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ نعوذُ بالله مِن فتنة القلوب، ربَّنا لا تُزِغ قُلوبنا بعد إذ هديتنا، وَهَبْ لنا مِن لدُنكَ رحمةً، إنَّك أنتَ الوَهَّاب.

إنَّ هذا وعيدٌ أيُّما وعيدٍ؛ إنَّه وعيدٌ شديدٌ علىٰ مَنْ خالف أمرَ رسول الله ﷺ بأَنْ قَبِلَ قول غيره، وترك سُنَّته ﷺ أن يُبتَلىٰ ببلوىٰ تزيغ قلبه، وتُحوِّله من الإيمان إلىٰ شيءٍ من النِّفاق، نسألُ اللهَ السَّلامة مِن ذلك، لهذا قال: «**أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ**».

وأقولُ: الأصل في الفتنة أنَّها هي الابتلاء والامتحان؛ ربَّما أنَّ الله يبتلي العبد بشيءٍ من الابتلاء لينظر هل يُقدِّم أمره أو أمر غيره، فإنْ أراد الله به خيرًا أوقع الإيمان في قلبه، فترك طاعة النَّاس، وقدَّم طاعة الله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣]، اللَّهم إنَّا نسألك السَّلامة.

قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. عذابٌ مؤلمٌ بسبب ما قدَّمت أيديهم، والعياذ بالله.

ثمَّ أورد حديث عديِّ بن حاتمٍ: أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال: فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟!**» فَقُلْتُ: بَلَىٰ؛ قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**».

إنَّ طاعة الخَلْق في معصية الله فيها شيءٌ من الشِّرك وإن كان شركًا غير مُخرجٍ من المِلَّة أحيانًا إلَّا أنَّه شركٌ أصغر، ويُسمَّىٰ من أجل ذلك عبادةً، ومن هنا يخطئ كثيرٌ من النَّاس، فيظنُّون أنَّ طاعة المخلوق في معصية الخالق في أمورٍ جزئيَّةٍ يظنُّون أنَّ ذلك من الكفر المُخرِج من الملَّة، وهذا خطأٌ، والظَّاهر أنَّ ذلك يتفاوت بتفاوت ما وقعت به الطَّاعة، وهذه المسألة بالذَّات تحتاج إلىٰ تحقيقٍ أكثر؛ لأنَّنا لو قلنا: إنَّ كلَّ طاعةٍ قُدِّمت للمخلوق في معصية الخالق تُعَدُّ كفرًا، للزم من ذلك تكفير المسلمين بأمورٍ من المعاصي، ولكنَّها من الشِّرك الأصغر، والكفرِ الأصغر الَّذي لا يُخرِج من المِلَّة.

ومثال ذلك: لو أنَّ شخصًا أمرته زوجتُه بأن يشتري لها شيئًا مُحرَّمًا في الشَّريعة، فوافقها وحقَّق رغبتها، هل يُعتَبر حين أطاع زوجته قَدْ خرج من الإسلام، واتَّخذها ربًّا، والعياذ بالله؟

الجواب: لا؛ لأنَّ هذه الطَّاعة هي طاعةٌ في معصية الله، ولكنَّها طاعةٌ جزئيَّةٌ،

لا يترتَّب عليها كفر المطيع.

وكذلك لَوْ أنَّ شخصًا مِمَّنْ يزعمون أنَّهم علماء ودعاةٌ، ولكنَّهم مفتونون بالحزبيَّات، كأَنْ يكون إخوانيًّا أو قطبيًّا أو تحريريًّا ينتمي إلىٰ حزب التَّحرير، قال لشخصٍ كان ممتنعًا عن الدُّخول في الحزبيَّات: إنَّ الحزبيَّات جَيِّدةٌ، تُحفِّز علىٰ العمل، ونحن نرىٰ الحزبيِّين يجتهدون في الدَّعوة أكثر ممَّن يُقال: إنَّهم سلفيُّون، فأطاعهم ذلك الشَّخص، ودخل في الإخوانيَّة مثلًا، أو في حزب التَّحرير، أو القطبيَّة، فهل نقول: إنَّه كفر بطاعته لهذا المفتي الَّذي أفتاه؟

الجواب: لا، وإنْ كان هذا المفتي يُعَدُّ من الأحبار والرُّهبان، وَقَدْ أطاعه في معصية الله.

كذلك لو أطاع نفسه الَّتي أمرته بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ؛ بأَنْ كان في حوارٍ مع أخيه أو مشادَّةٍ معه، فغضب عليه، فسفك دمه، أو أزهق روحه، فهل يُعتَبر قَدْ كفر بذلك؟ الجواب: لا.

ونقولُ: إنَّ كثيرًا من النَّاس الَّذين يُكفِّرون النَّاس بالمعصية يذهبون إلىٰ هذا التَّأويل الخاطئ الَّذي يُكفِّرون به عباد الله المسلمين، ولو كان هذا من الكفر المُخرِج من المِلَّة لما بقي من المسلمين أحدٌ علىٰ إسلامه، ولكن كما قيل في المثل: «يُفسِد الأديانَ نصفُ فقيهٍ، ويُفسِد الأبدانَ نصفُ طبيبٍ».

ولزيادة الإيضاح نجدُ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سمَّىٰ القاتلَ أخًا في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال في سورة (الحجرات): ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الحجرات: ٩، ١٠].

فسمَّىٰ الفئتين المقتتلتين إخوةً، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّهما لم يخرجا من الإسلام بالتَّقاتل.

ومن هنا أيضًا تعلم خطأ الخوارج والمعتزلة الَّذين يُكفِّرون بالكبيرة، ومَنْ سلك مَسْلكهم من أهل الحِزْبيَّات في هذا الزَّمن.

لو قال لنا قائلٌ: كيف تردُّ علىٰ مَنْ يقول: إنَّ تربية الشَّباب علىٰ احترام العلماء، وعدم الإنكار عليهم إذا أخطؤوا في اجتهاداتهم، أنَّ هذا نوعٌ من الشِّرك الأكبر؟

وأقول له: إنَّ القول بأنَّ هذا شركٌ أكبر قولٌ باطلٌ، وأنَّ تربية العلماء السَّلفيِّين لطُلَّابهم علىٰ احترام العلماء لا يلزم منه السُّكوت عن أخطائهم، ولكنَّهم يقولون: إنَّ الَّذي ينبغي لمَنْ أنكر علىٰ العالِم أن ينكر عليه بطريقةٍ يكون فيها أدبٌ ولِينٌ، إمَّا أن يكون فيما بينهم وبين العالِم، وإمَّا أن يصوغ له سؤالًا يُنبِّهه فيه علىٰ الخطأ من غير مجابهته؛ لأنَّ كلمة (أنت أخطأت يا شيخ) فيها شيءٌ من الاستخفاف وسوء الأدب، فمَنْ يقول: إنَّ السَّلفيِّين حينما يأمرون طُلَّابهم باحترام العلماء يكون في ذلك شركٌ أكبر قوله غير صحيحٍ؛ بل هو باطلٌ، والمعروف عن السَّلفيِّين أنَّهم يأمرون بالنَّصيحة بطريقةٍ لَبِقَةٍ لا يكون فيها استهزاءٌ، ولا استخفافٌ كما سبق أن بيَّنَّاه. وبالله التَّوفيقُ.



بَابُ
مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. [البقرة: ١١].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآيَة [المائدة: ٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[(١)].

قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ «الحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٧)، والحسن بن سفيان في «الأربعين» (٨ البشائر)، وابن بطَّة في «الإبانة الكبرىٰ» (٢٧٩)، والبيهقيُّ في «المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» (١/ ١٨٨)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ٢٥٥ الأنصاري)، وأبو الفتح نصر المقدسي في «الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة» كما في «مختصره» (١/ ٣١برقم٢٥ أضواء السلف)، والخطيب في «تاريخه» (٥/ ١٣٣)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١/ ٢١٢ - ٢١٣)، وأبو القاسم التيميُّ الأصبهانيُّ في «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١/ ٢٦٩)، وفي «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٩ دار الحديث)، وابنُ الجوزي في «ذمِّ الهوىٰ» (ص١٨)، وغيرهم، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظلال الجنة» (١٥).

(٢) «جامع العُلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٩٣ الأرنؤوط). وذكر فيه أن أبا نعيم الأصبهاني أورده في «الأربعين» مصححًا له. وقال أبو نصر السِّجزي: «حسن غريب» كما في «كنز العمال» (١/ ٢١٧). وقال =

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ - وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ الْيَهُودِ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيَةَ [النساء: ٦٠] »[(١)].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَىٰ عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَقَتَلَهُ»[(٢)].

= الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٨٩): «أخرجهُ الحسنُ بنُ سُفيانَ وغيرُهُ، ورجالُهُ ثقاتٌ». وضعَّفه ابن رجب في «الجامع» (٢/ ٣٩٤)، والألبانيُّ في «ظلال الجنة» (١/ ١٢ - ١٣).

(١) أخرجه المروزيُّ في «تعظيم قدر الصَّلاة» (٢/ ٦٥٨)، والطبريُّ في «التفسير» (٧/ ١٨٩ - ١٩٠ هجر)، وفي «تهذيب الآثار» (ص٤٢٧ - ٤٢٩ المأمون)، وابنُ المُنذر في «التفسير» (٢/ ٧٧٠ - ٧٧١)، والواحديُّ في «أسباب النُّزول» (ص١٦١ - ١٦٢) بسندٍ صحيح عن الشَّعبيِّ، وهو مرسلٌ. وبنحو هذا قال قتادةُ، ويُروىٰ عن سليمان التَّيمي عن رجل حضرمي نحوه كذلك، كما في «تفسير الطبري» (٧/ ١٩٠ - ١٩١ هجر)، و«أسباب النُّزول» للواحدي (ص١٦١).

(٢) أخرجه الواحديُّ في «أسباب النُّزول» (ص ١٦٢) معلَّقًا عن الكلبي، عن أبي صالحٍ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ فذكره، ومثلُه البغويُّ في «التفسير» (١/ ٦٥٤ - ٦٥٥). ولا يصحُّ إسناده.

وقد رواه الطبريُّ (٧/ ١٩٣)، وابنُ أبي حاتم (٣/ ٩٩١)، وابنُ المنذر (٢/ ٧٧٠)، عن مجاهد نحوه مختصرًا، ليس فيه قصَّة عمر مع الرَّجل.

ولعلَّ سبب النُّزول الأقرب للآية هو ما ورد عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ، فتنافر إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ:... الآية». أخرجه: ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٣٧٣)، وفي «الشاميِّين» (١٠٢٧)، ومن طريقه الضياءُ المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١٢/ ١١٥).

قال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٦): «رجالُه رجالُ الصَّحيح»، وجوَّد إسناده الحافظُ في «الإصابة» (٧/ ٣٢).

الشرح:

وأقول: إنَّ معنىٰ هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ الآية؛ أنَّ مَنْ زعم أنَّه آمن بما أُنزل علىٰ النَّبيِّ ﷺ من كتابٍ وسُنَّةٍ، فإنَّه لا يجوز له أن يحاكم إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ وغير رسوله ﷺ، وهذا الاستفهام هنا استفهامُ تَعجُّبٍ؛ ومعناه: اعجَب يا محمد إلىٰ هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمنوا بما أُنزل إليك، وما أُنزل من قبلك، ثمَّ هم يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطَّاغوت، أليس قَدْ أُمروا أن يَكفُرُوا به؟ والجواب: بلىٰ قَدْ أُمِرُوا أن يكفروا به، ولكن الشَّيطان يريد أن يُضلَّهم ضلالًا بعيدًا.

وأنَّ التَّحاكم إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ ضلالٌ بعيدٌ، وجريمةٌ عظمىٰ، وخطأٌ فادحٌ، وخسارٌ فاحشٌ لا يُشبِهه خسارٌ، وغبنٌ عظيمٌ ليس مثله غبنٌ، أن يترك الإنسان الحقَّ ويذهب إلىٰ الباطل، إنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ هو الحقُّ الَّذي تطمئنُّ إليه القلوب، وترتاح إليه النُّفوس، حقٌّ ليس فيه باطلٌ.

فيجب علىٰ المسلم أن يعود إلىٰ الحقِّ، وأَنْ يتحاكم إليه؛ لأنَّ ذلك محضُ ما أمر الله - سبحانه - به في آياتٍ كثيرةٍ، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

وإنَّ اتِّباع الحقِّ، والرِّضا به، موجبٌ لدخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار، والعواقب الحميدة في الدُّنيا والآخرة، وإنَّك لتعجب لكثيرٍ من الدُّول الَّذين هم مسلمون يقولون: لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله، ومع ذلك يستوردون القوانين الَّتي ما أنزل الله بها من سلطانٍ، ويتركون كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لا يُقرأ

القرآن في بُيُوتهم إلَّا في المآتم، أمَّا السُّنَّة فلا يَرْضون بها، ولا يقبلونها، وإنَّما يقبلون ما جاء من عند أعداء الله عَزَّوَجَلَّ؛ سواءٌ كانوا مُلْحِدين أو نصارىٰ أو يهودًا، وكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما أنزل القرآن إلَّا ليُقرَأ في المآتم، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

إنَّها - واللهِ - مصيبةٌ عظمىٰ، وخسارةٌ فادحةٌ، أَنْ يتحاكم المسلمون إلىٰ غير ما أتاهم من عند ربِّهم، وجاء به نَبيُّهم ﷺ الَّذي هو حقٌّ لا باطل فيه، وتوحيدٌ لا شِرْك فيه، وصدقٌ لا كذبَ فيه، يضمن للنَّاس مصالحهم، ويحقن دماءهم، ويحفظ حقوقهم، تُضمن لهم به العزَّة والنَّصر، والملكُ والسُّؤدد، كما ضمنت لمَنْ كان قبلهم، والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقولُ أيضًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وإنَّ الواجب علىٰ المسلمين أن يكون تحاكمُهم إلىٰ كتاب الله، وإلىٰ سُنَّة رسوله ﷺ، وإلىٰ الفقه الإسلاميِّ المأخوذ منهما بواسطة العلماء المُبرِّزين، ولا يجوز العدول عنه بأيِّ صورةٍ من الصُّور، فليتَّق الله وُلَاة أمور المسلمين، وليعودوا إلىٰ الحقِّ الَّذي هو شرع الله عَزَّوَجَلَّ المأخوذ من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، وإنَّ العودة إليه هو الصَّلاح، وتركه هو الفساد، وَقَدْ أخبر الله عن المنافقين بأنَّه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ أي: يُعرضون ويتولَّون نافرين عن الحقِّ، مشتهين

للباطل، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: نالتهم عقوبةٌ في النَّفس أو المال أو الأهل والأولاد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما سبق لهم من الإعراض عن كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ.

والحقيقة أنَّ النُّفور عن شرع الله، وكراهته، ومحبَّة غيره من الباطل، جريمةٌ عظيمةٌ، ومصيبةٌ كبرىٰ، بل كفرٌ مخرجٌ من المِلَّة، فلقد أباح الله عَزَّوَجَلَّ إزهاق أرواح الكفَّار، وسفك دمائهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وغنيمة أموالهم، كلُّ هذا أُبيح بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، أفما أبيح هذا كلُّه من أجله، أيكون سهلًا؟ ! الجواب: لا، ليس بالأمر السَّهل؛ أي أنَّ تركه ليس بسهلٍ وإنِ استسهلوه بأهوائهم، قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، هكذا يقول المنافقون، يزعمون أنَّهم أرادوا إحسانًا وتوفيقًا.

ودعاةُ أنصاف الحلول حالُهم قريبٌ من حال أولئك المنافقين؛ يقولون: تنازلوا أنتم يا أهل الإسلام عن بعض الحقِّ الَّذي معكم، ويتنازل لكم أعداء الإسلام عن بعض ما يريدون ليتمَّ الوئام، وتجتمع الكلمة، هذا هو الإحسان الَّذي أرادوه، وهذا ليس بإحسانٍ، وإنَّما هو إفسادٌ في نفس الأمر.

وكذلك ما يزعم بعض النَّاس من دعوىٰ التَّقارب أو التَّقريب الآن بين الرَّافضة وأهل السُّنَّة، الرَّافضة الَّذين يَتَّهمون الأَمِينَيْن (جبريلَ ومُحمَّدًا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ) بالخيانة، ويَسبُّون أبا بكرٍ وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ويُسمُّون بأسماء أبي بكرٍ وعمر كِلابَهم وحَمِيرَهم؛ بل ويُصغِّرونها، فيقول أحدهم لكلبه: بكير، ولحماره: عمير

- والعياذ بالله -، ويَسبُّون سائر الصَّحابة ما عدا عددًا قليلًا مع عليِّ بن أبي طالبٍ ﵁، وكلّ الصَّحابة أخرجوهم من الإسلام إلَّا ما ندر، واتَّهموهم بما يَسْتحِي من ذِكْره السُّوقَة، ومع ذلك يزعمون أنَّ التَّقارب معهم صلاحٌ وإصلاحٌ!!

وهكذا إذا أنكر أهلُ السُّنَّة علىٰ أصحاب الدَّعوات المبتدعة من إخوانيَّةٍ وسُروريةٍ وقُطبيَّةٍ، وغيرهم، إذا أنكر عليهم أهلُ السُّنَّة البدع الَّتي يَدْعون إليها وأنكروا عليهم تساهلهم في الشِّرك؛ وعدم إنكاره، وزهدهم في التَّوحيد، وعدم العناية به، قالوا: هذا تفريقٌ وإفسادٌ في الأرض، ولقد قال إخوانهم المنافقون الَّذين كانوا في زمن النَّبيِّ ﷺ؛ عبدُ الله بنُ أبيّ ابن سلول وأمثالُه من المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وهذا قولٌ باطلٌ، وزعمٌ كاذبٌ، فمتىٰ كان هؤلاء دعاةَ إصلاحٍ، وإنَّما هم دعاة فسادٍ، فمَنْ يزعم بأنَّ الاتِّفاق مع هؤلاء إصلاحٌ وجمعٌ للكلمة فهو كاذبٌ مبطلٌ يريد التَّرويج للباطل، ونبذ الحقِّ، يريدون من أهل السُّنَّة أن يقبلوا البدع، وأن يتركوا الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، وهذا هو عين الفساد والضَّلال، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنَّ بلادنا[1] - والحمد لله - تَنْعم باجتماع الكلمة، ووحدة الصَّفِّ، فلمَّا دخل إليها هؤلاء المُخرِّبون؛ خربوا علينا أولادنا، وفرَّقوا صفَّنا، وأفسدوا جَمْعَنا، وخالفوا بين كلمتنا، فالفساد إنَّما جاء منهم، وبهم دخل إلينا، وبسببهم تفرَّقت كلمتنا، يستعملون السِّرِّيَّة، ويهدفون إلىٰ السِّياسة، ويتظاهرون بالصَّلاح

---

(١) أي: المملكة العربيَّة السَّعوديَّة.

والإصلاح، وحفظ القرآن والدَّعوة إلىٰ التَّعبُّد والعناية بالفضائل، وترك العقائد، وهذا هو الفساد بعينه ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فيا أهل السُّنَّة، الزموا السُّنَّة، واحذروا من هؤلاء أن يخربوا أكثر ممَّا قَدْ خرَّبوا، ويفسدوا أعظم ممَّا قَدْ أفسدوا، والله، لئن تساهلتم بهذا الأمر ليوشكنَّ أن تنالكم العقوبة.

ثمَّ أورد حديث عبد الله بن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

وأقول: إنَّ معنىٰ قوله: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**»؛ أي: لا يبلغ أحدكم كمال الإيمان حتَّىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ، لقد جاء رسولُ الله ﷺ بالحقِّ صافيًا ناصعًا، انظر إلىٰ أحكامه هل تجد فيها شيئًا تنكره العقولُ السَّليمة؟ ! لا والله؛ بل كلُّ ما فيه تُؤيِّده العقولُ السَّليمة، فإنَّه عين الحقِّ، ومحضُ الحكمة، مع أنَّه حقٌّ قائمٌ بنفسه لا يحتاج إلىٰ شاهدٍ؛ لأنَّه شرع الله المُنزَّل، ودينه المكمَّل، والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

فأيُّ حكمٍ تجده فيه فاعلم أنَّه عَيْنُ الحكمة، ولبُّ العدل، وغايةُ الصَّلاح والإصلاح، يعلم ذلك مَنْ يتأمَّل أحكام الله الَّتي حملها إلينا رسولُ الله ﷺ من كتابٍ وسُنَّةٍ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[(١)].

ثمَّ ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأثر عن الشَّعبيِّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه»، وأورده في «الصَّحيحة» (٩٣٧).

وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ الْيَهُودِ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيَةَ». والمقصودُ به المنافق.

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: نَتَرَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ... » إلىٰ آخر القصَّة.

وهذه القصَّة والَّتي قبلها يُؤخَذ منهما: أنَّ مَنْ ردَّ حُكمًا من أحكام رسول الله ﷺ كارهًا له، مُحبًّا لغيره؛ فإنَّه يُعتَبر قَدْ كفر، ولو كان في مسألةٍ واحدةٍ، وهذا ما حمل عمر بنَ الخطَّاب رضي الله عنه أن يقتل ذلك المنافق؛ لأنَّه كَرِه حكمَ رسول الله ﷺ ولم يرضَ به، وأحبَّ حكمَ كعب بن الأشرف.

ومن هنا أيضًا نأخذ: أنَّ مَنِ استبدل القوانين بشرع الله، معتقدًا أنَّ القوانين أحسنُ في نظره، فإنَّه قَدْ كفر، وخرج من الإسلام بسبب ذلك، لكن إن حكم بحكم غيره لسببٍ من الأسباب، مع علمه بأنَّ حكم الله هو الحقُّ؛ فإنَّه حينما يُقدِّم غيره - والحال هذه - يُعتَبر عاصيًا وفاسقًا؛ لأنَّه حينئذٍ يكون قَدْ أتىٰ حرامًا، ولم يخرج من الإسلام، وهذا هو القول الفصلُ في المسألة فيما أظنُّ وأعتقد.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآيَة [الرعد: ٣٠].

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١).

وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»(٢).

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠](٣).

الشرح:

قوله: بَاب مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، أي: ما حكمُه؟ هل يُكفَّر بذلك؟ أو يكون أتىٰ شيئًا حرامًا لا يبلغ إلىٰ حدِّ الكفر، هذا محلُّ نظرٍ، والَّذي يظهر لي أنَّ مَنْ أنكر شيئًا من أسماء الله وصفاته الثَّابتة بالقرآن والسُّنَّة الَّتي لا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق في «مصنَّفه -جامع معمر-» (١١/ ٤٢٣) (٢٠٨٩٥)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ٥٥٦)، وابنُ أبي عاصم في «السنَّة» (١/ ٢١٢). قال الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١/ ٢١٣) (٤٨٥): «إسنادُه صحيح، رجاله ثقاتٌ علىٰ شرط مسلم».

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٣٠ - ٥٣١ هجر)، و«الدُّر المنثور» للسُّيوطي (٤/ ٦٥٠ - ٦٥١).

يشركه فيها أحدٌ؛ وهي معروفةٌ أنَّها من أسماء الله وصفاته، أنَّ مَنْ أنكر شيئًا من ذلك؛ فإنَّه يُعتبَر كافرًا، أمَّا إنْ جحد شيئًا من صفات الله عَزَّوَجَلَّ لقيام شبهةٍ عنده، وكان يريد بهذا الجحد تنزيه الله - في زعمه -، أو تأوَّل الصِّفات كما فعلت الأشاعرة، فهذا لا يُكفَّر فيما يظهر، وبهذا التَّفصيل يتَّضح الحقُّ إن شاء الله.

قوله: (وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟») يُؤخَذ من هذا الأثر أنَّه ينبغي لطالب العلم أن يُحدِّث النَّاس بما يعرفون، فإنَّه لعلَّه إذا حدَّثهم بما لا يعرفون، أدَّىٰ بهم ذلك إلىٰ التَّكذيب، فيكون المُحدِّث قَدْ تَسبَّب في تكذيب الله ورسوله.

والَّذي يظهر - والله أعلم - أنَّ الأمور الَّتي تَخْفىٰ علىٰ العامَّة ينبغي طَيُّها عنهم، فإنِ احتاج إلىٰ التَّحديث، وجب عليه أن يُبيِّن ويُوضِّح حتَّىٰ يعرف العاميُّ الطَّريقة الحقَّة، والحقيقة أنَّ الجهل بهذا - أي: الجهل ببعض الأمور - ينبغي تعليم العامَّة لها حتَّىٰ لا يستنكروها، فلعلَّ الإنكار إنَّما يكون لشيءٍ لم يسمعه من ذي قبل.

ولقد أنكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أهل الكتاب بأنَّهم يظهرون بعضه، ويُخْفون البعض، وَقَدْ نُهينا عن مشابهتهم، وإنَّما يأتي الاستنكار حينما يكون هذا العاميُّ مقيمًا بين أُناسٍ يُحذِّرون من سماع بعض الأحاديث الَّتي فيها صفة الرَّحمن لله عَزَّوَجَلَّ؛ فيأتيه الخوف والفَرَق ممَّا سمع من هؤلاء، فمَنْ أقام بين الجهميَّة أو المعتزلة الَّذين ينكرون صفات الله وأسماءه، ويسمع منهم الإنكار لأسماء الله وصفاته، لا شكَّ أنَّه يرتعد إذا سمع هذه الصِّفات، ويخاف ويقشعرُّ جلدُهُ؛ لأنَّه لم يَتوطَّن علىٰ معرفتها وسماعها، ومثل هذا ينبغي أن يُبيَّن له، فمثلًا يقال: نحن

إذا أثبتنا لله اليد، فإنَّما نثبت له يدًا تليق بجلاله، منزَّهةً عن الجارحة الَّتي هي يد المخلوق، وهكذا يُقال في الأصابع، ويُقال في الوجه، ويُقال في الرِّجل، ويُقال في القَدَم، ويُقال في السَّاق، فإذا وضح لهذا العاميِّ؛ فإنَّه حينئذٍ سيعتقد الفرقَ بين صفة الخالق وصفة المخلوق، ويزول عنه الخوف، وتذهب عنه القشعريرة.

وهذا هو الواجب علىٰ أهل السُّنَّة، إذا رَأَوْا من أحدٍ استنكارًا لصفةٍ من صفات الله، أو اسمٍ من أسمائه، بَيَّنوا له، فإنْ أصرَّ بعد البيان فهو مفتونٌ، ولهذا قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حين رأىٰ رجلًا انتفض لمَّا سمع حديثًا عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصِّفات استنكارًا: «**مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ**[(١)]».

الفَرَقُ: هو الخوف، أي: ما هو السَّبب في خوفهم، يجدون رقَّةً عند مُحْكَمِهِ، ويهلكون عند مُتشابِهِهِ، فقد عدَّ ابنُ عبَّاسٍ انتفاض ذلك الرَّجل من سماعه لصفة الرَّبِّ الجليل هلكةً.

ولكن ينبغي أن يُعلم أنَّ الاتِّفاق في الأسماء بين صفة الله وصفة خلقه لا يلزم منه الاتِّفاق في الحقائق، فإذا قلنا: إنَّ الله حيٌّ، واعتقدنا ذلك، وصفناه بالحياة، ووصفنا المخلوق بأنَّه حيٌّ، فإنَّنا في هذه الحالة يجب أن نعرف الفارق بين حياة الله وحياة خَلْقه، فحياة الله قديمةٌ بلا ابتداءٍ، وباقيةٌ بلا انتهاءٍ، وهي كاملةٌ كما وصف نفسه بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أمَّا حياة المخلوق فوُجدت بعد العدم، وسيكون لها نهايةٌ، وهي فيما بين ذلك لا تبقىٰ إلَّا بإبقاء الله لها، وهي باقيةٌ علىٰ أمورٍ لا تبقىٰ إلَّا بها كالطَّعام والشَّراب

(١) قال شيخنا النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المحكم**: هو الذي له تأويلٌ (معنىٰ) واحد. **والمتشابه**: هو الذي لا يُعرف تأويلُه، وفيه متشابهٌ قد يكون له تأويلات؛ فمثلًا: الحروف المُقطَّعة هذه من المتشابه». اهـ.

والنَّوم في حقِّ الإنسان، فالله وصف نفسه بأنَّه حيٌّ قَيُّومٌ لا تأخذه سِنةٌ ولا نومٌ، فالفرق بين حياة الله وحياة المخلوق فرقٌ واضحٌ بيِّنٌ، وهكذا في جميع الصِّفات.

والمهمُّ: أنَّ اتِّفاق الأسماء - أي: أسماء الله وأسماء النَّاس - إذا اتَّفقت الأسماء والصِّفات فإنَّ الحقائق مختلفةٌ؛ هكذا يُقال في السَّمع والبصر، وفي جميع صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا بُيِّن للإنسان لعلَّه يعلم الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق، واسم الخالق واسم المخلوق، وَقَدْ يُسمَّىٰ المخلوق بأنَّه مَلِكٌ، ويُسمَّىٰ الخالق مَلِكًا؛ لكنَّ مُلْك الله شاملٌ، ومُلْك المخلوق محدودٌ، وهو في نفس الوقت عاريَّةٌ، والمُلْك الحقيقيُّ لله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وهكذا يظهر الفرق جَيِّدًا.

ثمَّ أورد المؤلِّف استنكار قريشٍ لاسم: «الرَّحمن»، وأنَّ الله أنكر عليهم ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الرَّحمن اسمٌ من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، والكفر به إنكارُه، ولمَّا ذكر النَّبيُّ ﷺ اسم الرَّحمن، أنكرت قريشٌ ذلك، فأنزل الله هذه الآية، والرَّحمن مشتقٌّ من الرَّحمة، وهو أشمل من حيث متناوله، والرَّحيم كذلك، وهو أخصُّ من حيث متناوله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

أمَّا اسم (الرَّحمن) فهو شاملٌ، ويُقال: رحمن الدُّنيا والآخرة، فالرَّحمة الَّتي جعلها الله في عباده كما جاء في الحديث الصَّحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّىٰ تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

ولمسلم من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

اللَّهمَّ ارحمنا فيمَنْ ترحم، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصَّالحين.

وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

بَابُ
قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي[١].

وَقَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ اللهِ: يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا[٢].

وَقَالَ ابْنُ قُتَيبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا[٣].

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيدِ بنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: أَصبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ... »[٤]. الحَدِيث، وَقَدْ تَقَدَّمَ: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا[٥]. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلسِنَةِ كَثِيرٍ.

---

(١) أخرجه الطَّبريُّ في «التَّفسير» (١٤/ ٣٢٥ - ٣٢٦ هجر)، وعزاه السُّيوطيُّ أيضًا في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ١٥٥) لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه سعيد بنُ منصور في «التفسير» (٦/ ٥٦ برقم ١٢٣٨ الصميعي)، والطبريُّ في «التَّفسير» (١٤/ ٣٢٦ هجر)، وعزاه السُّيوطيُّ أيضًا في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ١٥٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم. وفي إسنادَي سعيد والطَّبري: ليثُ بن أبي سليم؛ وهو ضعيف.

(٣) «غريب القرآن» (ص٢٤٨ أحمد صقر). وانظر: «زاد المسير» (٢/ ٥٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وقد سبق لفظه تامًّا.

(٥) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣٣).



الشرح:

وأقول: إنَّ هذا الباب مقصودٌ لبيان حكم إسناد النِّعَم إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ؛ وهذا نوعٌ من الشِّرك، إلَّا أنَّ الغالب أنَّ الَّذين يفعلون هذا أو يقولونه لا يقصدون به تحقيق نسبة النِّعَم إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما يجري علىٰ ألسنتهم من غير قصدٍ لذلك؛ فإنْ قَصَد أنَّ تلك النِّعمة أو النِّعَم مضافةٌ إلىٰ مَنْ أضافها إليه، وأنَّ ذلك الغير هو المُتفضِّل بها دون الله عَزَّوَجَلَّ فهذا شركٌ أكبر، لكن إذا أضافها إليه بلسانه وهو معتقدٌ بقلبه أنَّ الله هو المُنعِم علىٰ العباد؛ فهذا شركٌ أصغر لا يُخرِج من الإسلام إلَّا أنَّه يخدش التَّوحيد ويقدح فيه، كما في حديث زيد بن خالدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ بالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بالْكَوْكَبِ**».

والميزان - كما قلتُ - هو ما في القلب، فمَنْ علم أنَّ النِّعم كلَّها من الله؛ صغيرَها وكبيرَها، فذلك هو المؤمن المُوحِّد، فإنْ جرىٰ علىٰ لسانه ما يخالف ذلك، كان ذلك من قبيل الشِّرك الأصغر إلَّا أنَّه يخدش كمال التَّوحيد، وهكذا قول مَنْ قال: لولا الكلبُ لأتانا اللُّصوص، لولا فلانٌ لحصل كذا. والمَخرَج من ذلك أن يبدأ في إسناد النِّعم بالله، ثمَّ يعطف سبب المخلوق عليها بـ: «ثمَّ»: لولا الله ثمَّ كذا لحصل كذا، فإذا فعل ذلك؛ فإنَّه يعتبر قَدْ أضاف النِّعمة إلىٰ واهبها، وهو الله، وخرج من الشِّرك؛ صغيرِهِ وكبيرِهِ.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَىٰ صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ وَحَيَاتِي، وَتَقُولُ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَىٰ اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ؛ لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[1].

وَعَنْ عُمَرَ[2] بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ[3].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٦٢) (٢٢٩). وجوَّد إسناده الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللهُ في «التيسير» (٢/ ١١٦٢).

(٢) صوابه: (عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) فالحديث من مسنده، وليس من مسند والده رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، انظر: «تحفة الأشراف» (٥/ ٤١٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (١٥٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٣٠) (٧٨١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي»، وانظر: «إرواء الغليل» (٢٥٦١).

(٤) أخرجه ابنُ وهب كما في «المدوَّنة» لسحنون (١/ ٥٨٤ الكتب العلمية)، عن ابن عيينة، عن مسعر، عن وبرة، عن همَّام بن الحارث أنَّ عبد الله بن مسعود كان يقولُ، فذكرَه. وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

=

ذلك، وَقَدْ جاء في الحديث المُتَّفق عليه عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركبٍ يحلف بأبيه، فقال: «**أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ باللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[١]، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مطلق الحلف لا يكون من الشِّرك الأكبر.

وقال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ باللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغَيْرِهِ صَادِقًا»، وهذا فيه تنفيرٌ من الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ ذلك لأنَّ أكبر الكبائر أهونُ من الشِّرك الأصغر، وَقَدْ جاء في الحديث: أنَّ أعرابيًّا جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِاللهِ**».

قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**».

قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**».

قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ**»[٢].

فدلَّ قولُ ابن مسعودٍ هذا علىٰ أنَّ الحلف بالله كاذبًا - الَّذي يعدُّ من جنس اليمين الغموس - أقلُّ من الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك أنَّ صغير الشِّرك أكبر من كبير الكبائر.

وفي حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»، رواه أبو داود بسندٍ صحيحٍ.

هذا تعليمٌ من الصَّحابيِّ الجليل للأُمَّة حتَّىٰ لا يقعوا في الشِّرك الأصغر؛ فإنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

مَنْ قال: ما شاء الله ثمَّ شاء فلانٌ، احتاط لنفسه بالبُعد عن مواطن الشِّرك.

وجاء عن إبراهيم النَّخعي: «أنَّه يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، ويُجَوِّزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بكَ»، قَالَ: «وَيَقُولُ: لَوْلا اللهُ ثُمَّ فُلانٌ، وَلا يَقُولُوا: لَوْلا اللهُ وَفُلانٌ».

أوصيك يا عبد الله أن تحذر من الشِّرك صغيرِهِ وكبيرِهِ، وأن تبتعد عنه بالتَّحرُّز من الألفاظ المُوهمة.

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ(١).

الشرح:

قوله: باب ما جاء فيمَنْ لم يقنع بالحلف بالله، أي أنَّه لم يُعظِّم الله حقَّ تعظيمه مَنْ لم يرض بالحلف بالله، ومن هنا جاءت مناسبتُه للتَّوحيد، فتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ هو الإقرار له بالعظمة والكبرياء، وأنَّه هو الخالق لهذا الكون، المُتصرِّف فيه، وأنَّ اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن يعظَّم إجلالًا له جَلَّ وَعَلَا، ولا يجوز أن يُبتذَل ويُستخفَّ بحقِّه؛ لهذا أمر رسولُ الله ﷺ أن يحلف النَّاس بربِّهم، وأنَّ مَنْ حلف بالله فإنَّ الواجب عليه أن يَصْدق في حلفِهِ، وفي يمينِهِ، وأنَّ الواجب علىٰ مَنْ حُلِف له بالله أن يرضىٰ.

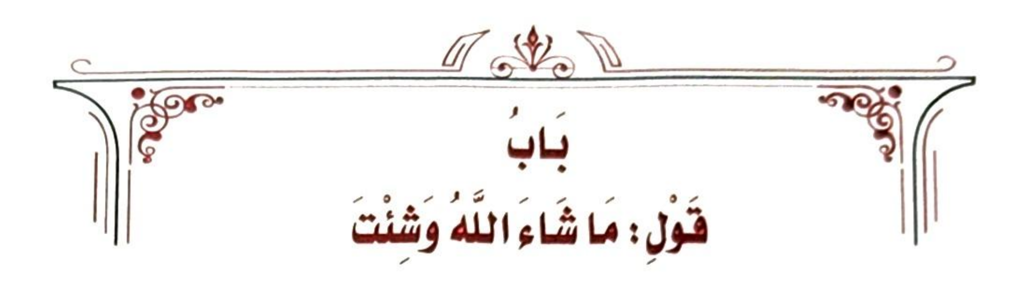
وإنْ غلب علىٰ ظنِّه بأنَّ الحالف كاذبٌ؛ اعتقدَ بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سيجزيه بما يجزي به الكاذبين المُتجرِّئين علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا جاء: «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»، وهذا وعيدٌ يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ لم يرض

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف ابن ماجه»، وفي «إرواء الغليل» (٢٦٩٨).

باليمين بالله عَزَّوَجَلَّ، ويقنع به، ويعلم بأنَّ في الله خلفًا من كلِّ شيءٍ؛ فهذا دليلٌ على ضعف إيمانه، وبالله التَّوفيق.





بَابُ
قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ[(١)].

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ ! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[(٢)].

وَلابْنِ مَاجه، عَنِ الطُّفَيلِ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا قَالَ: رَأَيتُ كَأَنِّي أَتيتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، قُلتُ: إِنَّكُمْ لَأَنتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَأَنتُمْ لَأَنتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٣٧٧٣)، وصحَّح إسنادَه الحافظُ في «الإصابة» (٤/ ٢٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٣٦). وفي «صحيح وضعيف سُنن النَّسائيِّ».

تنبيه: حديث قُتيلةَ هذا مثل حديث حذيفة السَّابق؛ لذا عدَّهما بعضُ العلماء حديثًا واحدًا، راويه حذيفة، ووهَّموا من رواه عن قُتيلة، ومن هؤلاء الإمام البخاريُّ كما نقل عنه الترمذيُّ في «العلل الكبير» (ص ٢٥٣).

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٢٤٥) (١٠٨٢٥ العلمية)، ولفظه: عنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَهُ فِي بَعْضِ الأَمْرِ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ». وحسَّن إسناده الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصَّحيحة» (١٣٩).

أَخْبَرتُ بِهَا مَنْ أَخبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرْتُهُ، قَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**».

قُلتُ: نَعم. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَىٰ رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1].

الشرح:

هذا الباب فيه نهيٌ عن التَّشريك في المشيئة، ولذا عطف بقوله: «**وَشِئْتَ**»؛ أي: بالواو، وحينئذٍ كان شريكًا لله في المشيئة، وهذا لا يجوز.

وَقَدْ أورد فيه حديث قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ... »، الحديث.

يُؤخَذ من هذا:

أوَّلًا: أنَّ الحلف لا يجوز إلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يجوز الحلف بالكعبة، ولا بالنَّبيِّ، ولا بجبريل، ولا بأحدٍ من المخلوقين كائنًا مَنْ كان؛ إذ إنَّ الحلف تعظيمٌ، وتعظيمُ غير الله شركٌ، إذا حلفت بهذا المُعظَّم فإنَّك حينئذٍ تكون قَدْ عظَّمته تعظيمًا كتعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن احتجَّ أحدٌ بأنَّ الله أقسم بأشياءَ كثيرةٍ، فينبغي أن يعلم هذا الَّذي يحتجُّ هذا الاحتجاج أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أن يقسمَ بما شاء من خَلْقِهِ، وإذا أقسم بما شاء مِنْ خلقِهِ فإنَّ قَسَمه به تشريفٌ له.

أمَّا نحن المخلوقين فلا يجوز أن نقسم بأحدٍ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وقال: بنحوه، مُحيلًا علىٰ لفظ حديث حذيفة قبله، ولفظه مختصر.

وأخرجه باللَّفظ المذكور أحمد (٥/ ٧٢) (٢٠٧١٣)، وابنُ أبي شيبة في «المسند» (٢/ ١٦٥)، والمروزيُّ في «تعظيم قدْر الصَّلاة» (٢/ ٨٦١ - ٨٦٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٢١٤)، والحاكم (٢/ ٥٢٤)، والضِّياء في «المُختارة» (٨/ ١٤٣). وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٣٨).

وَقَدْ جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّه ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وهذا ثابتٌ في «صحيح البخاريِّ»، فمَنْ كان حالفًا بالنَّبيِّ أو بالكعبة؛ **فليقل:** وربِّ محمَّدٍ، أو وربِّ الكعبة، وما أشبهَ ذلك.

ثانيًا: النَّهي عن التَّشريك في المشيئة، فلا يجوز للمُكلَّف أن يقول لمُكلَّفٍ مثله: ما شاء الله وشئت، أو لولا الله وأنت، بل يجب أن يقول: **ما شاء الله ثمَّ** شئت، ولولا الله ثمَّ أنت.

كذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: **مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**.

فالمشيئة هي في الحقيقة مشيئة الله، فلا يمكن لأحدٍ أن يشاء غير ما شاء الله، إذ إنَّ القَدَر قَدْ كُتِبَ، فالنَّافذة مشيئة الله، ومشيئة العباد تأتي تبَعًا لمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا جاء: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، فلو أردت شيئًا والله لم يشأ أن يقع، لم تقدر علىٰ إنفاذ تلك المشيئة إلَّا إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ ذلك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّكوير: ٢٧ - ٢٩].

ثمَّ أورد رؤيا الطُّفيل - أخي عائشة لأُمِّها - قال: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ. قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ**» أي: فتشرِكون في

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).

المشيئة، وبهذا يَتبيَّن أنَّ التَّشريك في المشيئة لا يجوز، وأنَّ الخلاص من ذلك أن يقول العبد: «ما شاء الله وحده»، أو يقول: «ما شاء الله ثمَّ شاء فلانٌ».

ملحوظة:

ينبغي أن يُعلم أنَّ التَّشريك في المشيئة يُعدُّ من الشِّرك الأصغر الَّذي لا يُخرِج من المِلَّة. وبالله التَّوفيق.





بَابٌ
مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الآيَةُ [الجاثية: ٢٤].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ...»[(٢)].

الشرح:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذي يُقلِّب الدَّهر، أي: يُقلِّب الزَّمان كيف يشاء، فلابدَّ في الزَّمان من تَقلُّباتٍ يأتي فيه حرٌّ وبردٌ في الصَّيف والشِّتاء، ويأتي في الزَّمان عسرٌ ويسرٌ، وشدَّةٌ ورخاءٌ، وحياةٌ وموتٌ، وصِحَّةٌ ومرضٌ، وأحيانًا يُسلِّط الله الآفات، ويبتلي بالبلايا، وأحيانًا يمنح الله عباده العافية، ويعطيهم النِّعم المتوالية، أحيانًا يبتلي بالحروب، واستحكام الخوف وقلَّة الأمن، ونحن نسمع بين حينٍ وآخر؛ إمَّا زلازل مُدمِّرة، وإمَّا فيضانات تأخذ الأخضر واليابس، وتجتاح القرى، وتذهب بالغِلَال، وأحيانًا تأتي أعاصير تحرق ما وقعت عليه، والنَّاس يرون هذه التَّقلُّبات ويعيشونها، وبالأخصِّ في زمننا هذا، والكثير منهم لا يُفكِّرون، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) واللَّفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

يَتأمَّلون، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما يُسلِّط هذه الكوارث ليُذكِّر عباده بأنَّه هو المُتصرِّف في الدَّهر، فينبغي لهم أن يحرصوا علىٰ رضاه، وأن يبتعدوا عن كلِّ ما يُسْخطه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك أَرْضَوا ربَّهم، وضمنوا لأنفسهم الفلاح والفوز.

فلا يجوز للإنسان أن يسبَّ الدَّهر إذا رأىٰ ما يكره، أو يسند إلىٰ الزَّمان الشَّيء الَّذي قدَّره عَزَّوَجَلَّ ومنحه عباده، لا يجوز هذا ولا ذاك، فإنَّ الله هو الَّذي يُقلِّب الدَّهر ويُصرِّفه؛ لأنَّه هو الَّذي أوجد اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، وهو الَّذي أوجد الدَّهر، فلا يجوز أن يُنسَب إلىٰ الدَّهر شيءٌ من النِّعم، ولا يجوز أن يُسَبَّ الدَّهر تَسخُّطًا لما وقع فيه.

ومن الملاحظ أنَّ كثيرًا من النَّاس يُسمُّون الكوارث من زلازل مُدمِّرةٍ، وأعاصير مهلكةٍ، وفيضاناتٍ، وغير ذلك يسمُّون هذه الأمور: كوارث طبيعيَّةً، وهذا يُعتبَر شركًا، وَقَدْ يكون من الشِّرك الأكبر حينما ينسبون هذه الكوارث إلىٰ الطَّبيعة، ويَنْسَون خالق هذا الكون، والمُتصرِّف فيه.

والله - سبحانه - يقول في ردِّه علىٰ المشركين: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

ويقول: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٤].

فيجب علىٰ المسلم أن يعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المُتصرِّف في هذا الكون بأَسْرِهِ، ليس لأحدٍ معه ملكٌ ولا شَراكةٌ، وبالله التَّوفيق.





بابُ
التَّسمِّي بِقَاضِي القُضَاة

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»[١] . قَالَ سُفيَانُ: مِثلُ: شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»[٢] .

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعنِي: أَوْضَعَ.

الشرح:

أقول: في هذا الباب كراهة التَّسمِّي بقاضي القضاة، وملك الملوك، أو ملك الأملاك، إذ إنَّ الله هو قاضي القضاة، أي: يحكم بينهم، وكذلك ملك الملوك أو ملك الأملاك، فالله هو الملك، وَقَدْ أثبت الله عَزَّوَجَلَّ اسم الملك في القرآن بقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فالتَّسمِّي بالمَلِك جائزٌ، لكن المحذور والممنوع أن يَتسمَّىٰ بمَلِك الملوك أو مَلِك الأملاك، وهذه الصِّفة لا تليق إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز لأحدٍ أن يَتسمَّىٰ بها، ومثلُ ذلك قاضي القضاة، إذ إنَّ قاضي القضاة هو الله، ولكن يقال: رئيس القضاة، أو ما أشبه ذلك.

لربَّما قيل: ما مناسبةُ هذا الباب لكتاب التَّوحيد الَّذي يُحذِّر من الشِّرك،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

ويأمر بالتَّوحيد: فأقول: التَّشريك في التَّسمية بأن يَتسمَّىٰ شخصٌ بأنَّه مَلِك الملوك، فهذا فيه مضاهاةٌ لله عَزَّوَجَلَّ بهذه التَّسمية، فلذلك مُنعت، ويُقَاس عليه التَّسمِّي بقاضي القضاة، فلا يجوز لأحدٍ أن يَتسَّمىٰ بهذا الاسم، لا بقاضي القضاة، ولا بمَلِك الأملاك أو مَلِك الملوك؛ لما في هذين الاسمين من المضاهاة لله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا كلمةُ شاهانْ شاهْ، فهو بمعنىٰ: مَلِك الملوك، بلغة فارس.

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَىٰ أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**».

فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ.

فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**».

قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**».

قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ[(١)].

الشرح:

هذا الحديث فيه تغيير الاسم الَّذي يكون فيه مشابهةٌ لاسم الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أبو شريحٍ الخزاعي جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وهو يكنىٰ أبا الحكم، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**»، ولمَّا سأله عن أسماء أبنائه، وأخبره بذلك، كنَّاه أبا شريحٍ.

وعلىٰ هذا، فإنَّ الواجب احترامُ أسماء الله تعالىٰ، وعدمُ الاعتداء عليها بشيءٍ من المشابهة، وهذا من الاحترام الواجب لأسماء الله تعالىٰ. قلت: ومن أسماء الله تعالىٰ: الحَكَمُ العدلُ، والله تعالىٰ يقول: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**

---

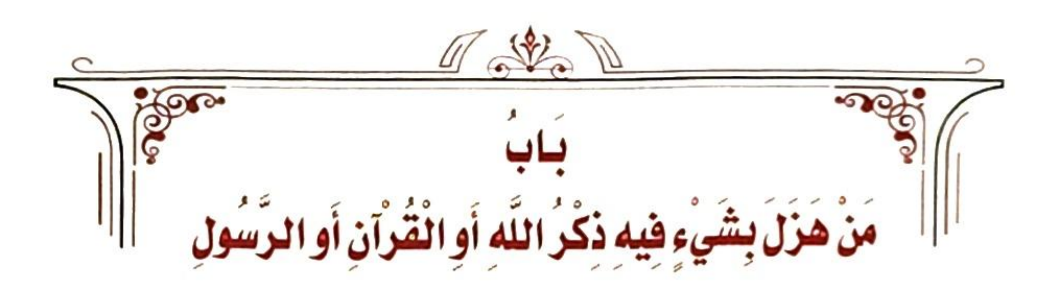
(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنَّسائيُّ (٥٣٨٧). وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن أبي داود»، وفي «إرواء الغليل» (٢٦١٥).

وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وتجوز المشابهة لأسماء الله فيما ورد به الإذن في النُّصوص كالمَلِك، وما أشبه ذلك.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الآيَةَ [التَّوبة: ٦٥].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ - أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ - يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ -، فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ[١] نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التَّوبة: ٦٥] وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ[٢].

---

(١) النِّسعة: سير مضفور يُجعل زمامًا للبعير، وقد تنسج عريضة تجعل علىٰ صدر البعير.

(٢) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (١١/ ٥٤٣ - ٥٤٤ هجر)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٢٩)، عن ابنِ

الشرح:

يُؤخذ من هذا كفرُ مَنْ هزل بشيءٍ فيه ذِكْر الله، أو القرآن، أو الرَّسول، فمَنِ استهزأ بشيءٍ من ذلك؛ فإنَّه يُعتبر قَدْ كفرَ كفرًا يُخرِجه من المِلَّة.

ويقصد هذا الرَّجل بقوله[(١)] رسولَ الله - والعياذ بالله - ويقصد به أصحابه القُرَّاء. إنَّ رسول الله ﷺ كان غايةً في الشَّجاعة، كانوا يَتَّقون به إذا احمرَّ الحدق، فلمَّا انهزم بعضُ مَنْ كان معه يوم حُنينٍ، جعل النَّبيُّ ﷺ يركض ببغلته إلىٰ العدوِّ، ويقول:

أَنَـا النَّبِـيُّ لا كَـذِبْ أَنَـا ابْـنُ عَبْـدِ المُطَّلِـبْ[(٢)]

ويوم أُحُدٍ كان كذلك ثابتَ الجأش قويًّا، حتَّىٰ ضُرب المغفر علىٰ رأسه، وغاص في وَجْنته، فَشُجَّ بذلك، وقال: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ**»[(٣)]. وفي رواية: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ؟»[(٤)].

ولقد كان القُرَّاء يَثبتون غايةً في الثَّبات، ثبتوا يوم قتال مسيلمةَ حتَّىٰ إنَّ

=

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأورده الشيخ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النُّزول» (ص١٠٨ - ١٠٩).

وأخرجه الطَّبريُّ (١١/ ٥٤٥ هجر) عن محمد بن كعب وغيره، بسند فيه ضعف.

وأخرجه الطَّبريُّ (١١/ ٥٤٣ هجر)، عن زيد بن أسلم، بسند فيه ضعف.

وأخرجه عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (٢/ ١٥٨)، والطَّبري (١١/ ٥٤٥ هجر)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٣٠)، بأسانيد صحيحة عن قتادة مرسلًا.

(١) أي: قوله في الحديث: «**مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (١٧٩١) بنحوه.

(٤) أخرجه ابنُ ماجه (٤٠٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه».

الواحد منهم ليحفر لرجليه كما يقال حتَّىٰ لا يفرَّ، وقُتِلَ منهم يوم حرب مسيلمة خمس مئة (٥٠٠) قتيلٍ من القُرَّاء حتَّىٰ خاف الصَّحابة أنَّ يضيع بعض القرآن.

والمهمُّ: أنَّ كذبَ هذا الرَّجل واضحٌ غاية الوضوح، وإنَّما حمله علىٰ ذلك النِّفاق، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

فيجب علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يحذر من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء من الاستهزاء بكتاب الله أو بسُنَّة رسول الله ﷺ، فإنَّ في ذلك الهَلَكة.

ملحوظةٌ: معنىٰ «أَرْغَب بُطُونًا»؛ أي: يصف المنافقُ الرَّسولَ ﷺ وأصحابَه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بكثرة الأكل، وهذا ذمٌّ لهم. وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ(١).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي(٢).

وَقَوْله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

قَالَ قَتَادَةُ: عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ(٣).

---

(١) علَّقه البخاريُّ عنه في كتاب: تفسير القرآن، باب: سُورَةُ (حم السَّجْدَةِ) تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ (٦/ ١٢٧)، ووصله الطّبري في «التفسير» (٢٠/ ٤٥٨ هجر).

(٢) ذكره عنه الواحديُّ في «البسيط» (١٩/ ٤٧٥)، والقرطبيُّ في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٣ الكتب المصرية)، وابنُ القيِّم في «شفاء العَليل» (١/ ٣٦٩ عالم الفوائد).

(٣) ذكره عنه ابنُ عطيَّة في «المُحرَّر الوجيز» (٤/ ٥٣٦ الكتب العلميَّة)، والقرطبيُّ في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٦)، وابنُ القيِّم في «شفاء العليل» (١/ ٣٦٤)، عند قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزُّمر: ٤٩].

وذكره جمع من المفسِّرين عند آية القصص ولم ينسبوه لقائل؛ انظر: «غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ٨٧٣ القبلة)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ١٥٧)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٣٩٣ الكتاب العربي)، و«تفسير الرَّازي» (٢٥/ ١٥).

وقد جاء عن قتادة في الآية قولٌ غير هذا؛ فأخرج عبدُ الرزَّاق في «التفسير» (٣/ ١٣٤)، والطبريُّ في «التفسير» (١٩/ ٣٢٥ – ٣٢٦)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٢)، أنه قال: «عَلَىٰ خيرٍ عِنْدِي»، ولفظ ابن جرير: «عَلَىٰ خبرٍ عِنْدِي»، ولفظُ ابن أبي حاتم: «عَلَىٰ خَيْرٍ عِنْدِي وَعِلْمٍ عِنْدِي». ورواه عبد بن حُميد وابن المنذر أيضًا كما في «الدُّر المنثور» (٦/ ٤٤٠).

وذكره ابنُ كثير (٦/ ٢٥٥) باللَّفظ الأول.

=

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ [(١)].

وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ[(٢)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَىٰ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيهِمْ مَلَكًا، فَأَتَىٰ الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْإِبِلُ - أَوِ: الْبَقَرُ؛ شَكَّ إِسْحَاقُ - فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ - أَوِ: الْإِبِلُ - فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ

=

ورواه ابنُ جرير (٢٠/ ٢٢١) عند آية (الزمر)، ولفظه: عن قتادة، قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ حَتَّىٰ بلغ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عِنْدِي: «أَيْ عَلَىٰ خَيْرٍ عِنْدِي». وإسنادُه صحيحٌ.

(١) أخرجه ابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٢)، عن السُّدِّي، وذكره عنه ابنُ كثير (٦/ ٢٥٥). وذكره كثيرٌ من المفسِّرين عند آية الزُّمر؛ انظر: «تفسير الطبري» (٣٠/ ٢٢٠)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (٨/ ٢٤٠ إحياء التُّراث العربي)، و«النكت والعيون» للماوردي (٥/ ١٣٠ العلمية)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٣/ ٥٨٦ الكتب العلمية)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢)، و«تفسير الجلالين» (ص٦١٣ الحديث).

(٢) أخرجه الطَّبريُّ في «التَّفسير» (٢٠/ ٢٢١)، وأخرجه الفريابِيُّ وعبدُ بنُ حُميد وابن المُنذر، كما في «الدُّرِّ المنثور» (٧/ ٢٣٤).

اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ - بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَىٰ الْأَعْمَىٰ فِي صُورَتِهِ. فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ؛ فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ». أخرجاه[1].

الشرح:

هذا الباب فيه النَّهيُ عن الإدلال علىٰ الله بالعمل أو المنزلة، وحيث إنَّ ذلك يُصيِّر به الإنسانُ نفسَه شريكًا مع الله حيث نسب النِّعمة الَّتي أنعم الله بها عليه

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) واللفظ له.

إلىٰ علمِهِ ومعرفتِهِ، أو إلىٰ مقامه عند ربّه ومنزلته.

فإنْ كان المعنىٰ أنَّ هذا حصل لي بعملي ومعرفتي بوجوه المكاسب؛ فهذا إدلالٌ بعمله، وأنَّه بعمله ذلك حصل له ما حصل، وفي ذلك جحدٌ لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ كان المعنىٰ هو الإدلال بالمنزلة، فكذلك أيضًا فيه جحدٌ لنعمة الله وفضله، حيث إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتفضَّل علىٰ عباده بالنِّعم من غير حقٍّ لهم عليه، إذْ كلُّ النِّعم هي من الله فضلٌ، ولكون هذا فيه شيءٌ من الجحود لنِعَم الله، وجعل الإنسان لنفسه منزلةً استحقَّ بها ذلك، فلذلك كان هذا داخلًا في الشِّرك، ومناقضًا لكمال التَّوحيد.

وعلىٰ هذا المعنىٰ جاء ابتلاء الثَّلاثة، فاثنان منهم سقطوا في هذا الابتلاء، وحملهم ما عندهم من الجهل إذ نَسَوْا ما كانوا عليه، وما صَيَّرهم الله إليه، فمنعوا، وحملهم الشَّيطان علىٰ البخل وجحود نعمة الله، فسقطوا في الابتلاء والامتحان، وأمَّا الثَّالث وهو الَّذي كان أعمىٰ؛ فإنَّه عرف نعمة الله عليه، وبذل لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاكرًا لنعمته، ومُثنيًا عليه بها، فكان له الفلاح والفوز، نعوذ بالله من السُّقوط في الامتحان والابتلاء، ونعوذ به من غضبه جَلَّ وَعَلَا.

أَلَا يرىٰ الإنسان أنَّه كان مبتلًىٰ مصابًا بعاهةٍ، ومُستقذَرًا من قِبَل النَّاس، فشفاه الله من ذلك الدَّاء، وأعطاه المال الَّذي ساد به، وكان مقبولًا عند الخَلْق؛ هذا لو تَفكَّر العبد فيما كان عليه، وما آل أمرُهُ إليه، لكان في ذلك عظةٌ له، وعبرةٌ تحمله علىٰ أن يشكر الله علىٰ ما أعطاه من المال، واللَّون الحسن، ولكن نعوذ بالله من الخذلان.

ويُؤخَذ من هذه القصَّة:

أنَّ العبد لا يركن، ولا يأمن، فقد يكون ما أعطاه الله إيَّاه ابتلاءً وامتحانًا، كما

قال جلَّ من قائل: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍو، وعَبْدِ الكَعبَةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ المُطَّلِبِ!»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمُ الَّذي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لَتُطِيعَانِنِي، أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرنَي أَيِّلٍ، فَيَخرُجُ مِن بَطنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلأَفعَلَنَّ، وَلأَفعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَر مِثلَ قَولِهِ، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ(٢).

---

(١) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٥٤).

(٢) أخرجه سعيد بنُ منصور في «التفسير» (٥/ ١٧٣ - ١٧٤ رقم٩٧٣ الصميعي)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٣٤)، وابنُ الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢١٩)، واللَّفظُ لابن أبي حاتم. وفي أسانيدهم: خُصيف الجزري؛ صدوق سيِّئ الحفظ، وفي طريق ابن منصور وابن الجوزي: عتَّاب بن بشير؛ صدوق يخطئ، وفي حديثه عن خصيف نكارةٌ، كما في «الميزان» (٣/ ٢٧).

وفي طريق ابن أبي حاتم شريكُ بن عبد الله القاضي، صدوق يخطئ كثيرًا.

وأخرجه الطبري في «التفسير» (١٠/ ٦٢٤ - ٦٢٥ هجر)، من ثلاث طرق أخرىٰ عن ابن عبَّاس نحوه، وكلُّها ضعيفة.

وأخرجه ابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣) من طريق قتادة، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، عن أُبيِّ بن كعب نحوه، وفي =

=

إسناده: سعيد بن بشير؛ ضعَّفه الأكثرون، وأُنكر عليه أشياء يرويها عن قتادة، انظر: «الميزان» (٣/ ١٢٨ - ١٣٠).

وهذا المعنىٰ المرويُّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في الآية، قد صحَّ عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وبكر بن عبد الله المُزني؛

فالرِّواية عن مجاهدٍ أخرجها الطَّبريُّ (١٠/ ٦٢٦).

والرِّواية عن سعيد بن جبير أخرجها الطبريُّ (١٠/ ٦٢٦ - ٦٢٧)، وابنُ الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢١٩).

والرواية عن قتادة أخرجها الطبريُّ (١٠/ ٦٢٥ - ٦٢٦)، وابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤).

والرواية عن بكر بن عبد الله المزني أخرجها ابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤).

وأخرجه الطبريُّ (١٠/ ٦٢٧ - ٦٢٨)، وابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤)، عن السُّدي نحوه.

وروي هذا التفسير مرفوعًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ من حديث قتادة عن الحسن عن سمُرة رضي الله عنه بلفظ: «**لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ وَكَانَ لا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ**»، أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١١) رقم (٢٠١٢٩)، والتِّرمذيُّ (٣٠٧٧)، والبزَّار في «المُسند» (٤٥٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٩٤) وغيرُهم، وقال الترمذيُّ: «حسن غريب». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». وأقرَّه الذَّهبيُّ، لكن ردَّه في «الميزان» (٣/ ١٧٩) بقوله: «هو حديثٌ منكرٌ كما ترىٰ». وهذا هو الصَّوابُ، فالحديثُ معلولٌ لا يصحُّ؛ فإنَّ في إسناده عمر بن إبراهيم العبدي؛ وثَّقه أحمد وابنُ معين، وضعَّفه أبو حاتم الرَّازي وغيرُه، وقال ابنُ عديٍّ: يروي عن قتادة ما لا يُوافَق عليه. وقال عبد الله بنُ أحمد: سألتُ أبي عنه، فقال: له مناكيرُ. وهذا الحديثُ منها؛ فإنَّه قد رواه مَن هو أوثقُ منه عن سمُرة موقوفًا؛ أخرجه الطَّبريُّ في «التفسير» (١٠/ ٦٢٣ و٦٢٤) من طريقين عن سليمان التيميِّ، حدَّثنا أبو العلاء بن الشِّخِّير، عن سمُرة قال: «سَمَّىٰ آدَمُ ابْنَهُ: عَبْدَ الْحَارِثِ».

وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

قلت: ذكر هذين الوجهين من التعليل الحافظ ابنُ كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢٦)، وقال: «الثَّالث: أنَّ الحسنَ نفسَه فسَّر الآيةَ بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرةَ مرفوعًا لمَا عدَل عنه»، ثُمَّ قال: «فهذا يَدلُّك علىٰ أنَّه موقوفٌ علىٰ الصَّحابيِّ، ويُحتملُ أنَّه تلقَّاه مِن بعضِ أهل الكتابِ، مَن آمن منهم، مثل: كعبٍ أو وهبِ بنِ مُنبِّه وغيرِهما، كما سيأتي بيانُه إنْ شاء الله تعالىٰ إلَّا أنَّنا برئْنا مِن عهدةِ المرفوعِ، والله أعلمُ».

وانظُر للتَّوسُّع في نقد هذا الحديث وبيان ضعفه «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (٣٤٢)، و«الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم» لأحمد القصيِّر (ص٥٩١ - ٥٩٥ ابن الجوزي).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَم يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ(١).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا(٢). وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيرِهِمَا(٣).

الشرح:

قولُ ابن حزم: «اتَّفقوا علىٰ تحريم كلِّ اسمٍ مُعبَّدٍ لغير الله؛ كعبد عمرٍو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشا عبد المُطَّلب»، ابنُ حزمٍ: هو عالِمُ الأندلس في زمنه، أبو محمَّد عليُّ بنُ أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري. تُوفِّي سنة ٤٥٦ هـ وله ٧٢ سنة، وقَدْ حكىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتِّفاق العلماء علىٰ تحريم كلِّ ما عُبِّد لغير الله؛ لأنَّه شركٌ في الرُّبوبيَّة والإلهيَّة؛ ولأنَّ الخَلْق كلَّهم ملكٌ لله، وعبيدٌ له، خلقهم لعبادته، وأمرهم بتوحيده، فلا يجوز لأحدٍ منهم أن يُعبِّد ولده لغير خالقه، ومَنْ فعل ذلك فقد أشرك بالله، ومن هنا نعلم أنَّ ما يعمله الرَّافضة من تعبيد أبنائهم لغير الله عَزَّوَجَلَّ كعبد الزَّهراء، وعبد الكاظم، وعبد الحسين، وما

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٣١٢ شاكر)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤)، وهو صحيحٌ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٣)، وفي سنده: يحيىٰ بن يمان العجلي، أبو زكريا الكوفي، صدوق يخطئ كثيرًا. كما في «التقريب».

(٣) رواية الحسن؛ أخرجها عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٨)، والطَّبريُّ (١٠/ ٦٢٠ هجر)، وابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣)، من طريق معمر عنه في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: «غُلَامًا».

ورواية سعيد - يعني: ابن جبير -؛ أخرجها الطبريُّ (١٠/ ٦٢١ هجر)، وابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣)، عنه أنه قال في قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]: «شبهنا مثلنا»، ولفظ ابن أبي حاتم: «مثل خلقنا».

وورد نحو هذا التفسير عن أبي البختري والسُّدِّي وأبي صالح وأبي مالك؛ انظر: «تفسير الطَّبري» (١٠/ ٦٢٠ و٦٢٢ هجر)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٣٣).

إلىٰ ذلك أنَّه شركٌ بالله.

أمَّا استثناء عبد المُطَّلب، وأنَّ هذه التَّسمية لا يُقصَد بها العبوديَّة، فهذا فيما يظهر مُتَّفقٌ عليه، ولا شكَّ أنَّ التَّعبيد لله ربِّ العالمين هو الواجب علىٰ المسلم، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: في غزوة حُنَين:

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ[1]

وعن أنس بن مالكٍ يقول: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**...» الحديث[2]، فيكون مستثنىٰ بهذا الإقرار.

قوله: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الْآيَةِ، قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ؛ لَتُطِيعُنَّنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ») الحديث.

أقول: في صِحَّة هذا منسوبًا إلىٰ آدم نظرٌ، ولكن كونه من ذُرِّيَّة آدم من فعل ذلك، فهذا لا يبعُد؛ إذ إنَّ صدور الشِّرك من آدم وزوجته مع علمهما بكيد عدوِّهما الشَّيطان الرَّجيم في ثبوته نظرٌ؛ إذ إنَّ قوله: «**لَتُطِيعُنَّنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ**» هذا يعني تصديقًا للشَّيطان في أنَّه يقدر أن يُحوِّل ما في بطنها من خِلْقةِ إنسانٍ إلىٰ خِلْقةِ حيوانٍ، ومَنْ صدَّق بهذا فإنَّه يُعتبَر قَدْ أشرك شركًا أكبر، ولكن

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣).

طاعته في التَّسمية لا تكون من الشِّرك الأكبر، بل تكون من الشِّرك الأصغر، وعلىٰ ذلك فقولُ قتادة: جعلا له شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته، ولعلَّ ذلك حصل لهما برؤيا ظنًّا أنَّها حقٌّ، وهي باطلٌ.

وأخيرًا: أقول: اللَّهمَّ إنَّا نبرأ من اتِّهام آدم بذلك، أمَّا كونُه من ذُرِّيَّتهما، فهذا لا يبعُد.

وباللهِ التَّوفيق.





بابٌ

فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآيَةَ

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: يُشرِكُونَ(١).

وَعَنْهُ: سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّىٰ مِنَ العَزِيزِ(٢).

وَعَنِ الأَعْمَشِ: يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا(٣).

الشرح:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾: هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده بأن يدعوه بالأسماء الحسنىٰ، وفي الحديث المُتَّفق عليه:

---

(١) لم أجده عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وإنَّما أخرجه عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٠)، والطَّبريُّ (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٨ هجر)، وابنُ أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣)، بسندٍ صحيحٍ عن قتادةَ.

(٢) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (١٣/ ٢٨٢ هجر)، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٣)، عن ابن عبَّاس بنحوه، ولفظه عند ابن أبي حاتم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾، قال: الإِلْحَادُ، الْمُلْحِدِينَ أَنْ دَعَوُا اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ فِي أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وسنده ضعيف.

وأخرجه الطَّبريُّ (١٣/ ٢٨٣) بسنده عن ابن جريج عن مجاهد، ولفظه: «اشْتَقُّوا الْعُزَّىٰ مِنَ الْعَزِيزِ، وَاشْتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ».

(٣) أخرجه ابنُ أبي حاتم في «التَّفسير» (٥/ ١٦٢٣)، وفي سنده: مبشِّر بن عبيد القرشي؛ متروكٌ، ورماه أحمد بالوضع كما في «التَّقريب».

«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ أكثرُ من ذلك؛ بدليل ما جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ، وَلا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ؛ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ غَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا».

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟

فَقَالَ: «بَلَىٰ، يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».

عزاه ابنُ كثيرٍ إلىٰ «مسند أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» من طريق يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرَّحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ، وقال بعد ذلك: «وقد أخرجه أبو حاتمٍ ابنُ حبَّان البستي في «**صحيحه**» بمثله(٢)»(٣).

قولُه: «**الْحُسْنَىٰ**». وهي كلُّ اسمٍ تضمَّن كمالًا كالعليم، والحكيم، والرَّحيم، وما أشبه ذلك، لكن إذا وُصف الله أو سُمِّي بما لم يكن فيه مدحٌ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فسمَّاه شيئًا، ولكن لكون الشَّيء لا يكون فيه مدحٌ، ولا يدلُّ علىٰ صفةِ كمالٍ، فلا يُدعَىٰ به، فلا يقال: يا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٥٢) (٤٣١٨)، وابنُ حبَّان في «صحيحه» (٣/ ٢٥٣) (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٦٩٠). وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصَّحيحة» (١٩٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥١٥).

شيء، أعطني أو ارزقني.

وكذلك ممَّا جاء في الحديث: «**لا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ**»[(١)]، فهذا أيضًا لا يَتضمَّن كمالًا، فلا يُدعَىٰ به.

ووصف الله نفسه بأوصافٍ علىٰ سبيل المقابلة، لا تكون مدحًا إلَّا إذا جاءت علىٰ سبيل المقابلة، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وهذه الخصال إذا انفردت تكون ذمًّا، لكن وردت في سياق المقابلة لما يعمله الكُفَّار من المكر بدينه وأوليائه، والكيد لهم، والخداع لهم؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فهذه الأسماء لا يُدعَىٰ بها؛ لأنَّها لم تشتمل علىٰ مدحٍ إلَّا علىٰ سبيل المقابلة والمجازاة لأعدائه.

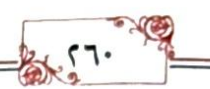
والمُهمُّ: أنَّ الله لا يُدعَىٰ إلَّا بالأسماء الحسنىٰ الَّتي اشتملت علىٰ نعوتِ كمالٍ، وخصالِ جلالٍ.

أمَّا قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، فالإلحاد هو المَيْل بالشَّيء عن سَمْتِهِ.

قال ابنُ كثيرٍ: «وأصلُ الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل، والجَور، والانحراف، ومنه اللَّحدُ في القبر، وذلك أنَّ العرب ألحدوا في أسماء الله، فجعلوها لغيره، واشتقُّوا أسماء آلهتهم منها، فَسمَّوا اللَّات من الإله، والعُزَّىٰ من العزيز؛ كما روىٰ ذلك ابنُ جريج عن مجاهدٍ. وقال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ: الإلحادُ التَّكذيب، ولهذا جاء عن ابنِ عبَّاسٍ: يلحدون

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.



يشركون. وقال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها». اهـ. بتصرُّفٍ[(١)].

وأقول: هذه أوصافٌ عاب الله فيها المشركين، وذمَّهم بها؛ لذلك فإنَّ الواجب على المسلمين أن يُجِلُّوا أسماء الله، ويعرفوا حقَّها، وما اشتملت عليه من الكمال الَّذي لا يوازيه فيه أحدٌ.

ونحن إذا تأمَّلنا أسماء الله نجدها كاملةً أعظم الكمال، وحسنةً في غاية الحسن، فإذا وصفنا الله عَزَّوَجَلَّ بالحكمة، ونظرنا في مخلوقاته، نجد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قدْ جعل لكلِّ مخلوقٍ ما يناسبه، فالإنسان كَرَّمه الله، وسَوَّاه في أحسن خَلْقٍ، فإنْ أطاع ربَّه، وعرف حقَّه عليه، أعطاه من مواهبه وقدرته، وإفضاله الشَّيء الكثير، والجزاء الحسن، ومن ذلك قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ [يونس: ٢٦]. وقولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦].

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فانظر أخي المسلم كيف خلق الله كلَّ شيءٍ، وهيَّأه للمقصود منه، فالَّتي خُلِقت للحمل كالإبل، والخيل، والبغال، والحمير؛ انظر كيف خُلِقَتْ مناسِبةً للحمل عليها والرُّكوب، وهكذا جعل الله لكلِّ شيءٍ ما يناسبه:

مَـنْ صَـوَّرَ النُّطْفَـةَ فِـي الْأَرْحَـامِ ... وَأَنْطَـقَ الإِنْسَـانَ بِـالْكَلَامِ

أَمَّـنْ بِشَـكْلِ الآدَمِـيِّ قَـدْ عُنِـي ... سَـوَّاهُ فِـي خَلْـقٍ عَظِـيمٍ مُـتْقَنِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥١٦).

إِذْ جَعَلَ الْوَجْهَ بِأَعْلَىٰ وَالْبَصَرْ ... لِكَيْ يَكُونَ مُدْرِكًا لِمَا نَظَرْ

وَإِنْ تَكُنْ قَدْ جُعِلَتْ فِي الرُّكْبَتَيْنْ ... مَا نَظَرَتْ غَيْرَ مَحَلِّ الْقَدَمَيْن

ثُمَّ اللِّسَانَ وَالشِّفَاهَ قَدْ عَرَىٰ ... عَنْ شَعَرٍ لِحِكْمَةٍ لا تُزْدَرَىٰ

سَلْ شَعَرَ الأَجْفَانِ مَنْ قَوَّسَهُ ... بِحِكْمَةٍ لِلْعَيْنِ قَدْ أَلْبَسَهُ

وُكلُّ أُصْبُعٍ بِظُفْرٍ شَدَّهَا ... لِكَيْ يُقَوِّيهَا، بِهِ أَمَدَّهَا

قَدْ جَعَلَ الْمَدْخَلَ فِي أَعْلَىٰ الْجَسَدْ ... وَمَخْرَجًا فِي أَسْفَلٍ لِلنَّبْذِ قَدْ

هَيَّأَهُ رَبِّي بِتَفْصِيلٍ عَجِيب ... يَهْدِي إِلَىٰ الْإِيمَانِ ذَا الْعَقْلِ الأَرِيب

وبالله التَّوفيق.







بَابٌ
لا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِن عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»[1].

الشرح:

وأقول: المُستَنكَرُ هنا قولهم: السَّلام علىٰ الله من عباده؛ لأنَّ السَّلام معناه دعاءٌ بالسَّلامة من النَّقائص والآفات، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن ذلك، لم يكن في حاجةِ أحدٍ من عباده؛ لأنَّه هو السَّلام، ومنه السَّلام، أي: هو اسمه السَّلام، ومنه السَّلام، فهو يمنح عباده السَّلامة، ويُوفِّقهم لما فيه صلاحهم وسلامتهم في الدُّنيا والآخرة، وَقَدْ كان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انصرف من الصَّلاة استغفر ثلاثًا، ثمَّ قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»[2].

قال في «فتح المجيد»[3]: «ومعنىٰ قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»: أنَّه تعالىٰ سالمٌ من كلِّ نقصٍ، ومن كلِّ تمثيلٍ، فهو الموصوف بكلِّ كمالٍ، المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ».

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) (٢/ ٤٣٧).

قلت: العباد كلُّهم بحاجةٍ إلىٰ ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يذكرونه باسمه السَّلام، ويطلبون منه السَّلامة في مبادئ الأمور وعواقبها، ولهذا وَجَّه النَّبيُّ ﷺ أُمَّته إلىٰ أن يسألوا ربَّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المغفرة والرَّحمة الَّتي تتمُّ بها سلامتهم، ولهذا يكون دعاء الرُّسل يوم القيامة علىٰ الصِّراط: «اللَّهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[(١)].

وقَدْ روىٰ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له لمَّا سأله أن يُعلِّمه دعاءً يدعو به: **«قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»**[(٢)].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُسلِّمنا من كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، وأن يُثبِّتنا علىٰ الحقِّ حتَّىٰ نلقاه ونحن علىٰ ذلك. وبالله التَّوفيق.



---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).



بَابُ
قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي إِن شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمنِي إِن شِئتَ، لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا مُكرِهَ لَهُ**».

وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعطَاهُ**»[(١)].

الشرح:

قال الشَّيخ عبدُ الرَّحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بخلاف العبد، فإنَّه قَدْ يُعطِي السَّائل مسألتَه لحاجته إليه، أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كارهٌ.

فاللَّائق بالسَّائل للمخلوق أن يُعلِّق حصول حاجته علىٰ مشيئة المسؤول؛ مخافةَ أن يعطيه وهو كارهٌ، بخلاف ربِّ العالمين؛ فإنَّه تعالىٰ لا يليق به ذلك؛ لكمال غناه عن جميع خَلْقه، وكمال جوده وكرمه، وكلُّهم فقيرٌ إليه محتاجٌ، لا يستغني عن ربِّه طرفة عينٍ، وعطاؤه كمالٌ.

وفي الحديث: «**يَمِينُ اللهِ مَلأَىٰ؛ لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَفِي يَدِهِ الأُخْرَىٰ الْقِسْطُ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ**»[(٢)]، يعطي تعالىٰ لحكمةٍ، ويمنع لحكمةٍ، وهو الحكيم الخبير»[(٣)]. اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «فتح المجيد» (٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤).

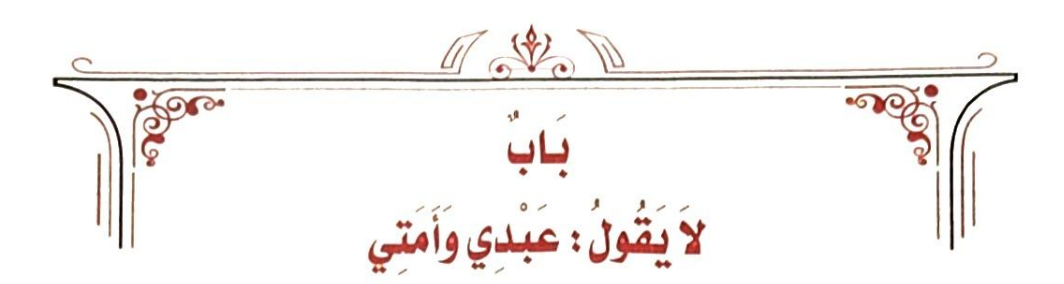
وأقول: إنَّ مناسبة هذا الباب لكتاب التَّوحيد حتَّىٰ لا يُشبَّه الله عَزَّوَجَلَّ بخَلْقِه؛ فإنَّه إنْ قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ**»، فكأنَّما ظنَّ به البخلَ أو العُدمَ أو تعاظُمَ المسألة، كما أنَّ هذه صفةُ المخلوقين، وتمامُ الحديث عند مسلمٍ: «**وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**».

ملحوظةٌ:

ينبغي أن نعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كريمٌ، بل هو أكرم الكرماء، وأنَّ الله غنيٌّ لا يُعْدِم، وكريمٌ لا يبخل، فإنْ لم تحصل للإنسان طِلْبته الَّتي طلبها من ربِّه، فإنَّه ينبغي أن يعْلَم أنَّ ذلك إنَّما كان لمانعٍ من الموانع؛ وهو إمَّا أن يكون أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يعطه مسألته من أجل أنَّه يريد أن يَدَّخر له ذلك عنده إلىٰ يوم القيامة، أو من أجل أنَّ الله يريد أن يصرف عنه من الشَّرِّ بقدر مسألته تلك، أو من أجل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يرىٰ المصلحة في عدم إجابته في الدُّنيا، أو من أجل أنَّ دعوته كان ينقصها الإخلاص والإيمان، أو غير ذلك من الموانع... فلا يجوز للعبد أن يظنَّ بربِّه ظنًّا سَيِّئًا، بل يجب عليه أن يعتقد أنَّ عدم الإجابة حاصلٌ من قِبَل نفسه هو، وفي الحديث: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**». قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**» رواه أحمد[1]، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨) (١١١٤٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم (١/ ٦٧٠). وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (١٦٣٣): «حسن صحيح».



بَابٌ
لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لا يَقُل أَحَدُكُم: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ. وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**»[(١)].

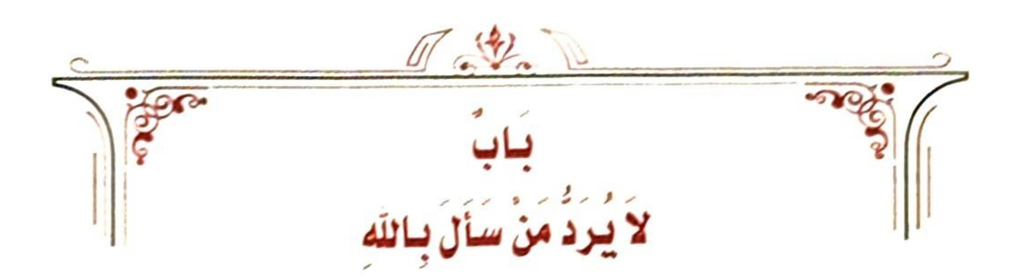
الشرح:

في هذا الباب النَّهيُ عن إطلاق الرَّبِّ على المولىٰ الأعلىٰ، يعني المالك أو المُعتِق، والنَّهيُ عن إطلاق عبدي وأَمَتي على المولىٰ الأسفل، وهذا نهيٌ عن التَّشبيه في اللَّفظ، وإنْ كان جائزًا، إلَّا أنَّ الأَوْلىٰ والأَبْلغ في الأدب ألَّا يقول المولىٰ الأسفل لمولاه الأعلىٰ: ربِّي، ولا يُقال: أطعم ربَّك، وَضِّئ ربَّك، ومن باب الأدب أن يقال: فتاي، وفتاتي، بدل عبدي وأَمَتي؛ من أجل أن يكون ذلك تحقيقًا للتَّوحيد، فيُنهىٰ عن التَّشابه في الألفاظ أدبًا مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِمَا في ذلك من كمال التَّوحيد، فأبدل بدل «ربّ»: سيِّد ومولىٰ. وبدل «عبدي وأمتي»: فتاي وفتاتي.

وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).



بَابٌ
لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُم فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَروا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

الشرح:

ترجمة هذا الباب أنَّه لا يُرَدُّ مَنْ سأل بالله؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي أعطىٰ وخوَّل، ويَسَّر للعبد الرِّزق والمال، ويَسَّر له الأسباب الجالبة للخير، وقَوَّاه علىٰ ذلك ذهنيًّا وجسديًّا، فإذا سُئل أحدٌ بالله فإنَّه ينبغي للمسؤول أن يتذكَّر نعمة الله عليه، وإكرامه إيَّاه بأَنْ جعله مَسؤولًا لا سائلًا، ومعطيًا مُتفضِّلًا علىٰ غيره بسبب ما خوَّله إيَّاه، ومن حقِّ هذا المُنعَم عليه أن يعطي من أجله، أي: من أجل الله، وليس معنىٰ ذلك أن يعطي السَّائل ما سأل، ولكن أن يعطيه علىٰ قدر استطاعته بحسب ما تَيسَّر له.

ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ»، أي: ابذلوا له، وأطيعوا ربَّكم في البذل له؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ندب العباد إلىٰ الإنفاق في غير ما آيةٍ؛

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنَّسائيُّ (٢٥٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سُنن النَّسائيّ»، وفي «الصَّحيحة» (٢٥٤).

قال جلَّ مِن قائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧، ٢٦٨]. وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال - جلَّ مِن قائل -: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

والمهمُّ: أنَّ الله ندب عباده للإنفاق، كلٌّ بحسب حاله.

وفي هذا الحديث أمرٌ بإعطاء مَنْ سأل بالله علىٰ حسب المُتيسِّر للمسؤول.

وقال أيضًا في الحديث: «**وَمَنِ اسْتَعَاذَ باللهِ فَأَعِيذُوهُ**»، أي: إذا استعاذكم أحدٌ بالله، فينبغي لكم أن تُعيذوه إذا قدرتم علىٰ ذلك؛ إلَّا مَنِ استعاذ من حدٍّ أو حقٍّ واجبٍ عليه؛ فإنَّه لا يُعاذ من الحدِّ، ولا من القصاص.

قوله: «**وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ**»، كذلك أيضًا من حقِّ المسلم علىٰ المسلم إجابةُ دعوته إذا استطاع، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ**».

قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطِسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

قوله: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ»، أي: كافئوه علىٰ الصَّنيعة والمعروف إنْ قدرتم علىٰ ذلك، «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ بِهِ فَادْعُوا لَهُ»، فجعل الدُّعاء مكافأةً.

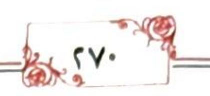
قوله: «حَتَّىٰ تُرَوْا»؛ أي: تَظنُّوا أنَّكم قَدْ كافأتموه.

ويُؤخذ من هذا الحديث: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دلَّ أُمَّته علىٰ كمال الخير، وخصال الفضل، فمَنْ عمل بطاعة ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واتَّبع ما أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ فإنَّه يعيش علىٰ خيرٍ، ويموت علىٰ خيرٍ، نسأل الله أن يجعلنا من أهل ذلك.

ومناسبةُ هذا الباب لكتاب التَّوحيد: أنَّ من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ الإعطاءَ من أجله.

وبالله التَّوفيق.







بَابٌ
لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إلاَّ الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[١].

الشرح:

وحيث إنَّ الحديث أخرجه أبو داود برقم (١٦٧١) وفي سنده سليمان بن قرم بن معاذ. قال يحيىٰ بن معين: «ليس بشيءٍ». وقال عبد الحقِّ وابنُ القطَّان: «ضعيف»[٢]، وضَعَّفه الألبانيُّ في «المشكاة» رقم (١٩٤٤)، وَقَدْ عارضه ما يدلُّ علىٰ جواز ذلك أحاديث، منها الدُّعاء الَّذي دعا به النَّبيُّ ﷺ عند منصرفه من الطَّائف حين كَذَّبه أهلها، فدعا بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَىٰ النَّاس، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُني؟! إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؛ أَوْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟! إِنْ لَمْ يَكُنْ بكَ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي**» وفي آخره: «**أَعُوذُ بنُور وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١)، وضعفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف أبي داود - الأم» (٢٩٨)، وفي تعليقه علىٰ «المشكاة» (١٩٤٤).

(٢) انظر: «الأحكام الكبرىٰ» لعبد الحق الإشبيلي (١/ ٤١٨ الرشد)، و«بيان الوهم والإيهام» لابن القطان (٥/ ٥٢٣ - ٥٢٤)، و«ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ٢١٩)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/ ٢١٣ - ٢١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٧٣) برقم (١٨١)، وفي «الدُّعاء» (١٠٣٦) رقم (١٠٣٦)، =

وورد دعاء آخر في البخاريِّ[١] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ - ». وفي دعاء دخول المسجد: «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[٢].

والجمع بين هذه الأحاديث وحديث الباب هو أنَّ هذه الأدعية الَّتي ورد فيها السُّؤال بوجه الله، سأل النَّبيُّ ﷺ فيها ربَّه سبحانه بما يكون سببًا في دخول الجنَّة، والنَّجاة من النَّار، فلا يتعارض مع حديث الباب، بل يُقوِّيه، ويدلُّ علىٰ جواز مثل ذلك، يعني أنَّه يجوز ما يكون سببًا في دخول الجنَّة، والنَّجاة من النَّار.

ويُؤخَذ من هذا الحديث: أنَّ وجهَ الله عظيمٌ؛ فلا يُسأل به إلَّا عظيمٌ، ويُنزَّه عن التَّوافه، والدُّنيا تُعتبَر حقيرةً بالنِّسبة لوجه الله.

ويُؤخَذ من الحديث: إثباتُ صفةِ الوجه لله تعالىٰ، ونسأل الله الكريم، ربَّ العرش العظيم، أن يرزقنا الجنَّة، ويُعيذَنا من النَّار.

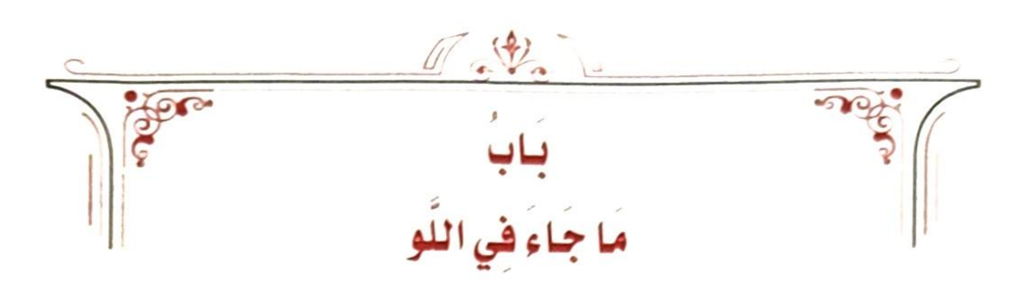
وبالله التَّوفيق.

=

والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ٢٧٥) برقم (١٨٣٩)، من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما. وضعَّفه الألبانيُّ رحمه الله في «الضعيفة» (٢٩٣٣).

(١) حديث (٤٦٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح أبي داود/ الأم» (٤٨٥).



بَابُ
مَا جَاءَ فِي اللَّو

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨] الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اِحْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

الشرح:

المراد بـ «اللَّو» هي الَّتي تُقال عند المصائب ونزول الأمور المكروهة: لو فَعَلْنا كذا ما كان كذا، ولو كان كذا ما كان كذا، ولكون «لَوْ» تدلُّ علىٰ الإشعار بعدم الصَّبر، وكثرة الأسىٰ والحزن علىٰ ما فات، حيث يزعم قائلها أنَّه لو حصل ما ظَنَّه ممَّا يكون فيه خلاصٌ من القدر لَمَا وقع ذلك المكروه، وحيث إنَّه يُنبِئ بالاعتراض، وزعم القائل أنَّ ما قُدِّر سيكون منه خلاصٌ لو كان كذا، فلذلك كان قول: «لو كان كذا ما حصل كذا» أمرًا مذمومًا، وينبغي الإذعان لقَدَر الله، فإنَّ قَدَرَ الله لا خلاصَ منه، ولا مناص؛ إذْ ما قَدْ قُدِّر فلابدَّ أن يكون، ولهذا جاء في الحديث - حديث أبي هريرة المذكور في الباب - الحثُّ علىٰ الحرص علىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

ما ينفع قبل وقوع النَّوازل، والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ علىٰ التَّخلُّص من المكروه قبل نزوله مع التَّوكُّل علىٰ الله، فإنْ أراد الله لك الخلاص، فعل بك ذلك، وإن لم يرد الله، فإنَّه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أمَّا إذا أصابك ما يوجب الأسىٰ والحزن؛ فإنَّ المفترَض عليك أن ترضىٰ بقدر الله، وأن تبتعد عن «لو»، وما نتج عنها، فإنَّها من عمل الشَّيطان.

وما أعظم دلالات النُّصوص النَّبويَّة الَّتي هي وحيٌ من الله! وإنَّ اتِّباعها فيه الخير، وفيه النَّجاة؛ حتَّىٰ وإنْ نزل بك المكروه ينبغي لك أن ترضىٰ بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ كان هناك شيءٌ حصل لك ما يسوؤك بسببه، فهو من تقصيرك في الأسباب، وضعف تَوكُّلك؛ لهذا قال ﷺ في هذا الحديث: «**اِحْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**».

فيا أخي المسلم، اعمل الأسباب ما دامت مُواتيةً، وتَوقَّ الشَّرَّ بقدر ما تستطيع قبل نزوله، ومتىٰ نزل فاعلم أنَّ الله قَدْ قدَّر هذا، فاصبر، واحتسب، واعلم أنَّه ما يكون شيءٌ إلَّا بِقَدَرٍ سابقٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فهذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّه ما يكون شيءٌ في الكون إلَّا وَقَدْ كُتب من قبل وجود الكون، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ من قبل أن يخلق الخليقة، فاصبر واحتسب، فلعلَّ في ذلك خيرًا لك، رفعةَ درجاتٍ، أو

تكفير سيِّئاتٍ. وحكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ في خَلْقِهِ سرٌّ من أسراره، لا يطَّلع عليها أحدٌ غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما أعظم التَّوجيهات الإلهيَّة، والإرشادات النَّبويَّة! نسأل الله أن يعطينا من الخير العاجل والآجل، وأن يصرف عنَّا الشَّرَّ العاجل والآجل، وإنِ ابتلانا بشيءٍ، فنسأله أن يُبصِّرنا بالحقِّ فيه، ويُرضينا بحكمه.

وَقَدْ ورد في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ، وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً»[1].

فهذا النَّصُّ دليلٌ علىٰ استعمال «اللَّو» في تَمنِّي الأمر الفاضل إذا فات بأمرٍ مفضولٍ، وأنَّ ذلك لا يدخل في «اللَّوِّ» المنهيِّ عنها، فقد تَمنَّىٰ رسول الله ﷺ أنْ لو وُفِّق لعدم سَوْق الهدي، وجعل نُسُكه عمرةً مُتمتِّعًا بها إلىٰ الحجِّ ليقتدي به أصحابه، وسائر الأُمَّة.

ولكن تعارض هنا أمران في كلٍّ منهما مصلحةٌ مشروعةٌ:

الأمر الأوَّل: سَوْق الهدي، وجمع الحجِّ والعمرة، والبقاء علىٰ الإحرام إلىٰ يوم النَّحر حتَّىٰ يبلغ الهدي محلَّه؛ زمانًا ومكانًا.

والأمر الثَّاني: شَرعيَّة العمرة لمَنْ لم يسق الهدي ليكون مُتمتِّعًا بها إلىٰ الحجِّ.

فتعارض هنا أمران محبوبان إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فكان تَمنِّي رسول الله ﷺ لترك سَوْق الهدي، وجعل نُسُكه عمرةً مُتمتِّعًا بها إلىٰ الحجِّ فيه ترجيحٌ للتَّمتُّع في حقِّ مَنْ لم يكن له قدرةٌ علىٰ سَوْق الهدي، ولكونه أيسر علىٰ أكثر النَّاس، فكان تَمنِّيه لعدم سَوْق الهدي وجَعْلها عمرةً؛ ترجيحًا لأمرٍ مشروعٍ علىٰ أمرٍ مشروعٍ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قصَّة حجَّة النبيِّ ﷺ.

فدلَّ علىٰ جواز «اللَّوِّ» في مثل ذلك، وأنَّ النَّهي خاصٌّ بـ «اللَّوِّ» الَّتي يكون فيها اعتراضٌ علىٰ القدر، أو تَمنِّي معصيةٍ في المستقبل.

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيتُم مَا تكرَهُونَ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرمِذيُّ(١).

الشرح:

يُؤخَذ من هذا الحديث النَّهيُ عن سبِّ الرِّيح؛ لأنَّ الرِّيح مأمورةٌ، فمَنْ سَبَّها فقد سبَّ الآمر لها، والمُصرِّف لها، وهذا مثل النَّهي عن سبِّ الدَّهر؛ لأنَّ التَّسخُّط من الفعل تَسخُّطٌ من الفاعل؛ لذلك فإنَّه من تمام التَّوحيد أن نؤمن بأنَّ الرِّيح والدَّهر كلاهما مأمورٌ مُصرَّفٌ ومُدبَّرٌ.

فمِنْ تمام توحيدنا لربِّنا أن نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل في هبوبها خيرًا لنا، ولذلك أرشدنا النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نسأل خالقها، ومُصرِّفها، ومُدبِّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أن نسأله - جل شأنه - أن يجعل في تصريفها وتدبيرها خيرًا لنا في ديننا ودنيانا، وأن نعوذ به من شرِّ ما أُمِرَتْ به، وألَّا يجعلها عذابًا علينا كما جعلها عذابًا علىٰ قوم عادٍ.

وينبغي للنَّاس أن يفعلوا ما أمر به النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأوا شيئًا من ذلك، فقد

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، وقال: «وفي الباب: عن عائشة، وأبي هريرة، وعثمان بن أبي العاصِ، وأنس، وابن عبَّاسٍ، وجابرٍ، هذا حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي»، وفي «الصَّحيحة» (٢٧٥٦).

أرشد النَّبيُّ ﷺ النَّاس إذا رأوا هبوب الرِّياح أن يستقبلوها، ويجثو الشَّخص علىٰ ركبتيه، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»؛ فإنَّ هذا فيه دفعٌ لمَضرَّتها، واستجلابٌ لخيرها، وكم سمعنا في هذا الزَّمن من كوارث بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزَّلازل، أو غير ذلك من الأشياء المُدمِّرة، ولكن لجهل النَّاس، وعدم علمهم، لا يأتون بالأسباب الَّتي أَمَرَ الله بها في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ ليستدفعوا بذلك شرًّا نزل، أو مُتوقَّعًا نزوله، ويستجلب بذلك خيرًا ينزل أو يُتوقَّع نزوله.

ملحوظةٌ:

وردت (الرِّيح) مُوحَّدةً في (ريح العذاب)، ووردت (الرِّياح) مجموعةً في الرِّياح المُبشِّرة بالخير؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

ومن هنا نعلم أنَّ الرِّيح إذا أُفرِدَتْ قُصد بها الرِّيح الَّتي تأتي بالعذاب، وإذا جُمِعَتْ قُصِدَ بها الرِّيح الَّتي تأتي بالرَّحمة.

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولَىٰ: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ القَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لأَنَّهُ ظَنُّ غيرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّه يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَىٰ الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَىٰ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ، بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَىٰ اللهِ وَيَسْتَغفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ القَدَرِ، وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ، هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟!

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لا إِخَالُكَ نَاجِيًا»[١]

الشرح:

يخبر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات عمَّا كان يدور في أنفس المنافقين من أنَّ الله لا ينصر رسوله، وأنَّ الله لا يتمُّ له أمره؛ إذ كانوا يظنُّون هكذا، وبالأخصِّ إذا وقعت علىٰ الرَّسول ﷺ وأصحابه أزمةٌ أو نكبةٌ، وَقَدْ جاء في الآية الأخرىٰ في سورة الفتح: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾، وَقَدْ ذُكِرَ عن الجدِّ بن قيس أنَّه قال حين خرج النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ إلىٰ تبوك: «لَكَأنِّي بمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ مُقَرَّنِينَ بِالْحِبَالِ»[٢].

وفي هذه الآيات نزلت في سورة (آل عمران) في موقعة أُحُدٍ يخبر الله عن المنافقين بأنَّ حالتهم كانت بخلاف حال المؤمنين، فالمؤمنون عندما اشتدَّت الأزمة، أوقع الله عليهم النُّعاس أَمَنَةً منه، فكان الواحد منهم يسقط سيفُهُ من يده، أمَّا المنافقون فقد كانوا بخلاف ذلك، يَتملَّكهم الانزعاج، والخوف، والجزع، والقلق، فلم يَغْشَهم النُّعاس كما غشي المؤمنين؛ لأنَّ المؤمنين كانت نُفُوسهُمْ مطمئنةً إلىٰ أنَّ الله سينصر رسوله ﷺ وأصحابه، وستكون العاقبة لهم.

أمَّا المنافقون، فإذا حصلت علىٰ الرَّسول ﷺ أزمةٌ، أو وقع قَتْلٌ في أصحابه فإنَّهم يظنُّون أنَّ الإسلام قَدِ انتهىٰ، والرَّسولَ ﷺ قَدْ هلك هو وأصحابه، فكانت نُفُوسُهمْ مُتوقِّعةً استعلاء المشركين، وإبادة الإسلام وأهله، فعابهم الله بهذا

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٥).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٢٥ الحلبي).

الظَّنِّ، وذَمَّهم به في مواقعَ كثيرةٍ من كتابه، منها:

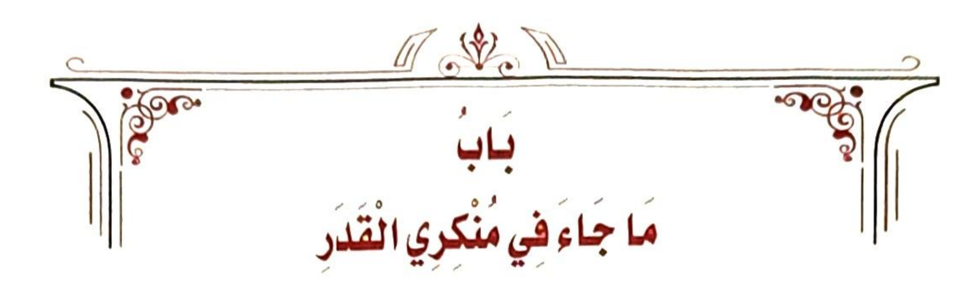
قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

وردَّ عليهم في زعمهم أنَّهم لو كانوا في بُيُوتِهم ما قُتِلوا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ ما يقع علىٰ رسله، وأتباع رسله يقع لحِكَمٍ، منها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكتب الشَّهادة لمَنْ شاء من عباده المؤمنين، ويبتلي المنافقين ليخرج من صدورهم بعضَ ما كانوا يكتمونه، ويُمحِّص المؤمنين الَّذين يبقون علىٰ قيد الحياة بالابتلاءات الَّتي يُضاعِف لهم فيها الحسنات، ويكتب لهم فيها الأجر والمثوبة، ثمَّ تكون العاقبة بعد ذلك للرُّسل، والرَّسولُ ﷺ قَدْ كانت العاقبة له، أنْ نصره الله علىٰ أعدائه، وأظهر دينه، وأَعْلَىٰ كلمته، وخيَّب آمال المعتدين الظَّالمين من المشركين والمنافقين، فالحمد لله علىٰ ذلك.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التَّوحيد: أنَّ أهل الظَّنِّ السَّيِّئ ليسوا من أهل التَّوحيد القائمين به، وليسوا من أهل الإيمان الَّذين تَيقَّنت قلوبهم ظهور هذا الدِّين بعد شيءٍ من الابتلاءات، وهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان في كلِّ زمنٍ؛ ينبغي أن يعتقدوا بأنَّ الله سيظهر دينه، ويُعْلي كلمته، وأنَّ الابتلاءات والأزمات قَدْ تكون هي الطَّريق إلىٰ النَّصر، والعاقبة الحميدة. وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي الْقَدَرِ

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ».

ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنَيَّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[٢].

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣].

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطرقه في «ظلال الجنَّة» (١/ ٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٧)، والترمذيُّ (٢١٥٥)، وغيرُهما. وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظلال الجنَّة» (١/ ٤٨ - ٤٩).

وَشَرِّهِ أَحرَقَهُ الله بِالنَّارِ»[(١)].

وَفِي «المُسْنَدِ» وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي.

فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»[(٢)].

الشرح:

باب: ما جاء في منكري القَدَر، أي: من الوعيد الشَّديد، ونحو ذلك.

اعلم أنَّ القَدَر قَدْ هلكت فيه فئتان:

---

(١) أخرجه ابن وهب في كتاب القَدَر (ص ١٢١)، وسندُه منقطع.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢ و١٨٥)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابنُ ماجه (٧٧). وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١/ ١٠٩) برقم (٢٤٥). ولم أجده عند الحاكم.

تنبيه: ورد الحديث عند مخرِّجيه موقوفًا عن أبيِّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وحذيفة، إلَّا زيد بن ثابت فإنه رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ولفظه: عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: لَقِيتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ؛ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي. قَالَ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لَدَخَلْتَ النَّارَ» قَالَ: فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ. هذا لفظه عند أحمد في الموضع الأوَّل، والروايات الأخرىٰ بنحوه.

الفئة الأولىٰ: فئةٌ أنكرته بالكُلِّيَّة، أو أنكرت بعضَه، والمشهور أنَّ هذه الفئة أنكرت الشَّرَّ أن يكون من قَدَر الله، فأنكروا أن يكون الكفر قَدَرًا من الله، أو المعاصي قدرًا من الله، أو الشِّرك الأكبر قَدرًا من الله؛ زاعمين أنَّ الله لا يُقدِّر ذلك، ويُعذِّب عليه، زاعمين بأنَّه لو عَذَّب العبادَ عليه كان تعذيبُهُ لهم ظلمًا منه لهم، وبهذا القول قالت المعتزلة، وهو ما قرَّره أئمَّتهم، وهم: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والجُبَّائي، وأبو هاشم، والنَّظَّام، وأمثالُهم.

وَقَدْ ظهرت هذه البدعة في آخر زمن الصَّحابة، وجاء رجلان من الَّذين أنكروا علىٰ النُّفاة، فذكروا لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قائلين: إنَّه قَدْ ظهر قِبَلَنا قومٌ يقرؤون القرآن، ويَتقفَّرون العلم، ويقولون: لا قدر، فقال لهم عبد الله بن عمر، أي: قال للسَّائل: «إِذَا لَقِيتَ أولئك فأخبرهم أنِّي بريءٌ منهم، وأنَّهم برآء منِّي، والَّذي نفسي بيده، لو كان لأحدهم مثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثمَّ أنفقه في سبيل الله، ما قَبِله اللهُ منه حتَّىٰ يؤمن بالقَدَر خيرِهِ وشرِّهِ»[1].

الفئة الثَّانية: تُقابل أهل هذا المذهب قومٌ أثبتوا القَدَر، وبالغوا فيه حتَّىٰ جعلوا الإنسان بمنزلة الحَجَر الَّذي يُدهدَه، أو الغصن الَّذي يُحرَّك، حتَّىٰ قال قائلهم:

أَلْقَاهُ فِـي الْـيَمِّ مَكْتُوفًـا وَقَـالَ لَـهُ ... إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالْمَـاءِ

وكلا الفريقين مُبطلٌ وظالمٌ وجاهلٌ.

والحقُّ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَدَّر مقادير العباد قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء[2]، وأنَّ أوَّل ما خلق الله القلم، فقال

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرج مسلم (٤٧٩٧) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ =

له: اكتبْ، فجرىٰ في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ العباد لا يتجاوزون ما قُدِّر لهم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

ويجب أن نعلم أنَّ لله في عباده الحكمة البالغة، وأنَّ الله سبحانه لا يظلم أحدًا من خَلْقِهِ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل للعباد عقولًا، وأفهامًا، وأسماعًا، وأبصارًا، وأَلْسنةً، وجوارح، وأرسل إليهم الرُّسل، وأنزل إليهم الكتب، ووعد بالجنَّة للمطيعين، والنَّار للعاصين، وأجرىٰ ذلك علىٰ أَلْسنَةِ رسله، وأنزله في كتبه، فمَنْ كفر، فللَّه الحُجَّة عليه؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

والنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله عمرُ، فقال: أرأيتَ ما نعملُ فيه؛ أمرٌ مُبتدع أو مُبتدأ، أو أمرٌ قَدْ فُرِغ منه؟ قال: «**أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَاعْمَلْ يَابْنَ الْخَطَّاب؛ فَإِنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْل السَّعَادَة فَإِنَّهُ يَعْمَلُ للسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْل الشَّقَاوَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ للشَّقَاءِ**». رواه أحمد[1].

فالقَدَر سرٌّ من أسرار الله عَزَّوَجَلَّ، يجب علينا أن نؤمن به، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

فيجب علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يؤمن بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي «المسند»، و«سنن أبي

=

الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ».

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٩ و٥٢) (١٩٦) و(٥١٤٠)، والترمذي (٢١٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي»، وفي «ظلال الجنَّة» (١/ ٧٢).

داود» عن ابن الدَّيلمي، واسمه عبد الله بن فيروز، ولفظ أبي داود كما قال ذلك صاحب «فتح المجيد»: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا، لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، قَالَ: فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأخرجه ابنُ ماجه»[1]. اهـ.

ثمَّ اعلم أنَّ القَدَر قدرة الله: قال الإمام أحمد لمَّا سئل عن القَدَر، قال: «القَدَر قُدرة الرَّحمن».

واستحسن هذا ابنُ عقيل من أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، والمعنىٰ: أنَّه لا يمتنع عن قدرة الله شيءٌ، ونفاة القَدَر قَدْ جحدوا كمال قدرة الله تعالىٰ، فضلُّوا عن سواء السَّبيل، وَقَدْ قال بعض السَّلف: «ناظروهم بالعلم، فإنْ أقرُّوا به خصموا، وإن جَحَدوه كفروا»[2]. اهـ.

والمهمُّ أنَّ كلا الفريقين من أهل القَدَر (النَّافين وهم الَّذين يقال لهم القَدريَّة النُّفاة، والقدريَّة المجبرة وهم الَّذين زعموا أنَّ العبد مجبورٌ علىٰ الكفر أو علىٰ المعاصي)؛ كلُّهم مخطئون خطأً فاحشًا.

والحقُّ: ما ذهب إليه سلفُ الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين؛ وهو ما رواه عمر بنُ

---

(١) «فتح المجيد» (٢/ ٥١١).

(٢) «فتح المجيد» (٢/ ٥٠٩).

الخَطَّاب وغيره في حديث أركان الإيمان: «وَأَنْ تُؤْمِنَ بالقَدَر خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». وما قرَّره عبد الله بن مسعودٍ، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ».

قلت: معنىٰ ذلك لعَذَّبهم بحُجَّةٍ، واللهُ قَدْ نفىٰ عن نفسه الظُّلم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فَسِرْ أَيُّها المسلم علىٰ هذا المبدأ، واسأل الله أن يُوفِّقك إلىٰ الحقِّ، وأنْ يُثبِّتك عليه حتَّىٰ تلقاه.

وبالله التَّوفيق.





بَابُ
مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» أَخْرَجَاهُ[(١)].

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ»[(٢)].

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[(٣)].

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»[(٤)].

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[(٥)].

الشرح:

باب ما جاء في المُصوِّرين: أي: من النَّهي، والزَّجر، والإخبار بما يَلْقونه من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) بنحوه، ومسلم (٢١١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

(٥) أخرجه مسلم (٩٦٩).

العذاب في البرزخ، ويوم القيامة.

قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**» أَخْرَجَاهُ).

في هذا الحديث يُخبر النَّبيُّ ﷺ بما بلغه عن ربِّه بقوله: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ !**».

أوَّلًا: أنَّ هذا الحديث حديثٌ قدسيٌّ، فإنَّ هذا وأمثاله ممَّا يبلغنا به النَّبيُّ ﷺ عن ربِّه بأنَّه كذا؛ فإنَّ هذا الحديث وأمثاله يقال له: حديثٌ قدسيٌّ.

ثانيًا: يُؤخَذ من قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ !**» - الاستفهام هنا: استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا أحد أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقي، أي: كخَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثالثًا: يُؤخَذ من هذا تحريمُ التَّصوير وبشاعتُه؛ حيث إنَّه مضاهاةٌ لخَلْق الله تعالىٰ، وذلك فيه من التَّشبُّه بربِّ العزَّة ما يجعل هذا الذَّنب من أشدِّ الذُّنوب.

رابعًا: يُؤخَذ من قوله: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**».

المراد بالخَلْق هنا: إيجادُ ذَرَّةٍ فيها أو حبَّةٍ أو شعيرةٍ تُؤكَل، ويجد فيها الآكل ما يجد في الحبَّة الحقيقيَّة والشَّعيرة الحقيقيَّة من الغذاء، أو أنَّ التَّصوير هو جَعْلُ صورةٍ مشابهةٍ لصورةِ ما خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لا يَقدرون أن يُوجدوا فيها ماهيَّةً يكون لها نفعٌ كماهيَّة الذَّرَّة الحقيقيَّة، أو الحبَّة الحقيقيَّة.

وإذا نظرنا في عناقيد العنب المُصوَّرة أو عناقيد الموز، نجد أنَّ هؤلاء الَّذين صوَّروا تلك الأشياء لا يستطيعون، ولا يستطيع أمثالُهم بالملايين والمليارات؛

ولو اجتمعت حكماء الجنِّ والإنس، ومُفكِّروهم؛ لما استطاعوا أن يوجدوا في عنقود العنب المُصوَّر ماهيَّة العنب الحقيقيِّ مهما كانت قدراتهم؛ فإنَّهم لا يستطيعون ذلك؛ بل لا يستطيعون أن يوجدوا في حبَّةٍ واحدةٍ الشَّيء الَّذي يُوجِده الله في ماهيَّة العنب الحقيقيِّ أو الموز الحقيقيِّ، فما هي إلَّا الصُّورة يضاهئون بها، ولذلك فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعاقب مَنْ فعل ذلك بتكليفه، أي: بتكليف المُصوِّر أن يوجِد في ذات الرُّوح روحًا، وذات الماهيَّة النَّافعة ماهيَّةً نافعةً.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣]. فهو الخلَّاق العظيم، والقادر علىٰ كلِّ ما يريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أمَّا حديثُ عائشة الَّذي ذكره المؤلِّف بقوله: (وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»).

المضاهاةُ هي المشاكلة والمشابهة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق خلقًا حقيقيًّا؛ وهؤلاء يضاهئون بخَلْق الله، ويجعلون شيئًا يُشابهون به خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلكونهم يفعلون ذلك تَشبُّهًا بالله الَّذي يخلق؛ فإنَّ نوع هذه المشابهة موجبةٌ لغضب الله عليهم، فلذلك كانوا أشدَّ النَّاس عذابًا يوم القيامة؛ لكونهم يضاهئون بخَلْق الله، أي: يجعلون للشَّيء شكلًا كشكل الخَلْق؛ كما قلنا في شرح الحديث السَّابق، لكنَّهم لا يُوجِدُون فيه الحقيقة الَّتي خَلَق الله الشَّيء لها؛ سواءٌ كان مأكولًا أو غير مأكولٍ، فالمأكول يوجد فيه لَذَّةٌ ونفعٌ يعود علىٰ العبد في صِحَّته وعقله وسمعه وبصره وقوَّته، فلمَّا حصلت منهم المشاكلة لخَلْق الله عَزَّوَجَلَّ عُوقِبوا أشدَّ العقوبة، وعُذِّبوا أشدَّ العذاب علىٰ كونهم يضاهؤون بخَلْق الله،

ويجعلون له شكلًا ادِّعاءً للمشاركة في الخالقيَّة الَّتي اختصَّ الله بها.

وكذلك ما ورد في حديث ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّار، يُجْعَلُ لَهُ بكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بهَا فِي جَهَنَّمَ**».

فالمُصوِّر لمَّا صوَّر الصُّورة علىٰ شكل ما خلقه الله؛ من إنسانٍ أو بهيمةٍ أو شيءٍ من الأطعمة فإنَّه يُعتَبر قَدْ ضاهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لهذا يُجعل له بكلِّ صورةٍ صوَّرها نفسًا يُعذَّب بها.

ومثلُ ذلك في الحديث الرَّابع: (وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بنَافِخٍ**»).

كلُّ هذه الأحاديث دالَّةٌ علىٰ عقوبةِ مَنْ ضاهىٰ خَلْق الله، وهو يُعتبَر نوعًا من الشِّرك.

قال في «فتح المجيد»: «فإذا كان هذا فيمَنْ صوَّر صورةً علىٰ مثال ما خَلَقه الله تعالىٰ؛ من الحيوان، فكيف بحال مَنْ سوَّىٰ المخلوق بربِّ العالمين، وشَبَّهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة الَّتي ما خَلَق الله الخَلْق إلَّا ليعبدوه وحده بما لا يستحقُّه غيره من كلِّ عملٍ يحبُّه الله من العبد ويرضاه؟ !»[1]. اهـ.

قلتُ: ويشهد لهذا قولُ الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يعدلون به غيره، ويُسوُّون الخَلْق به، فيجعلون لهم نصيبًا من العبادة يشركونهم فيها مع الله.

ولذلك كان المشرك أشدَّ عقوبةً؛ لأنَّه جعل شريكًا مع الله، وهذا هو نهايةُ ما يكون في الذُّنوب، فلذلك أوجب الله إحباط العمل، والخلود في النَّار، وحرمان الجنَّة؛ فالمُشرِك لا تُغفَر له سَيِّئةٌ، ولا تُقبَل منه حسنةٌ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

---

(١) (٢/ ٥١٨).

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]. نعوذ بالله من ذلك.

ثمَّ الحديث الأخير: (عَنْ أَبِي الْهَيَّاج قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»).

قولُه: «وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا» ومعنىٰ طمستها: أزلْتَها.

ومن هذا يُؤخَذ: وجوبُ طمس الصُّور؛ لأنَّ فيها مضاهاةً لخَلْق الله؛ لذلك أمر النَّبيُّ ﷺ بطمسها، وهو إزالةُ معالمها.

كذلك قوله: «وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»: في هذه الفقرة النَّهيُ عن رفع القبور؛ لأنَّ في رَفْعها ذريعةً إلىٰ عبادتها، فلذلك نُهِيَ عن رفعها، ونُهِيَ عن البناء عليها، ونُهِيَ عن تشييدها، ونُهِيَ عن إسراجها، كلُّ ذلك محافظةً علىٰ التَّوحيد، وإمعانًا في إزالة أسباب الشِّرك.

اللَّهمَّ نسألك بأسمائك الحسنىٰ، وصفاتك العليا، أن تجعلنا من المؤمنين بك، المُوحِّدين لك، المخلصين لجلالك، القائمين بحقِّ العبوديَّة لرُبوبيَّتك، وأن تصرف عنَّا كلَّ سببٍ من أسباب الشِّرك، وذريعةٍ من ذرائعه، وعملٍ من أعماله، إنَّك القادر علىٰ ذلك، وبالله التَّوفيق.

ملحوظةٌ: ويُؤخَذ ممَّا تقدَّم: تحريمُ التَّصوير بجميع أنواعه؛ سواءٌ كان نقشًا باليد، أو تصويرًا بـ(الكاميرا)، أو غيرها من آلات التَّصوير، فكلُّه حرامٌ.

ولا يُستثنَىٰ من ذلك حبس الظِّلِّ كما قاله بعضُ الفضلاء؛ لأنَّ الأحاديث في ذلك عامَّةٌ؛ فهي تعمُّ كلَّ أنواع التَّصوير.

وأشدُّ التَّصوير ما كان فيه حركةٌ وكلامٌ، ودونه ما كان فيه الصُّورة بدون

حركةٍ ولا كلامٍ، فكلُّها مُتوعَّدٌ فاعلُها بالعذاب الَّذي ورد في النُّصوص.

وهل يجوز تصويرُ الشَّجر، والجبال، وما لا رُوحَ فيه؟

هذا محلُّ نظرٍ، فمِنْ أهل العلم مَنْ أجازه بناءً علىٰ قول ابْن عبَّاسٍ رضي الله عنهما لذلك المُصوِّر: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ، فَإِنْ كُنْتَ لابُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ، وَمَا لا نَفْسَ لَهُ**»(١).

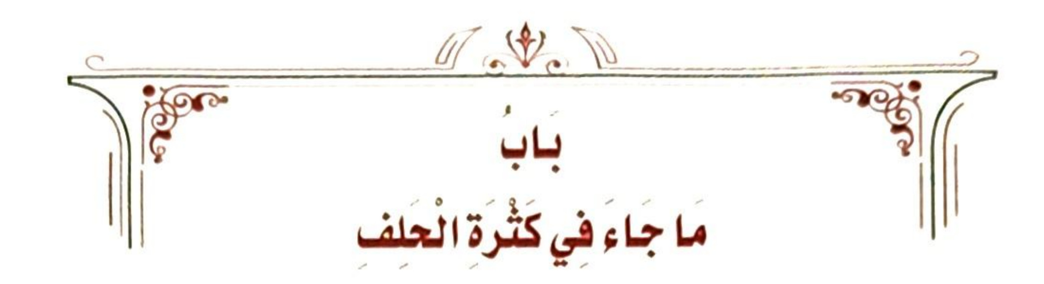
ومن أهل العلم مَنْ مَنَع ذلك، واستدلَّ بالحديث الَّذي سبق ذِكْره، وهو حديثٌ مُتَّفقٌ عليه: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**» الحديث، فقالوا: إنَّ الحبَّة والشَّعيرة لا رُوحَ فيها، وَقَدْ نهىٰ النَّبيُّ ﷺ عن تصويرها، وجعلها مضاهاةً لخَلْق الله تعالىٰ.

وأمَّا فعلُ التَّصوير فلا يجوز، وأمَّا حملُ الصُّورة وطلبُها وأخذُها إذا اضطُرَّ إليها؛ فإنَّ ذلك يجوز للضَّرورة الَّتي يلجأ إليها النِّظام؛ كصورة البطاقة، والرُّخصة، والجواز، وما إلىٰ ذلك، فيُعفَىٰ عمَّا كان كذلك للضَّرورة المُلحَّة في أخذه في حقِّ الآخذين.

وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه البخاريُّ (٢٢٢٥) ومسلم (٢١١٠) واللَّفظ له.



بَابُ
مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ[(١)].

وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[(٢)].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً؟ - «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[(٣)].

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٢/ ٨٢) (٨٢١)، وفي «الأوسط» (٥/ ٣٦٧) (٥٥٧٧)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٨٧) (٤٥١١)، قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٨): «رجاله رجال الصحيح». وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف الجامع» (٥٣٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

وبعد المئتين وعشر حَدث في الأُمَّة ما حدث، فقد كان الولاة يقتلون الزَّنادقة والَّذين يخرجون علىٰ الأُمَّة الإسلاميَّة بالبدع؛ فقد ضَحَّىٰ خالد القسري بالجعد بن درهم، وهكذا من بعده من الولاة، قتلوا كثيرًا من المبتدعة، ولمَّا تولَّىٰ المأمون، وخُدع بقبول آراء المعتزلة، وحمل النَّاس علىٰ القول بخَلْق القرآن، تَغيَّرت الحال، وصارت الأُمَّة من ضعفٍ إلىٰ ضعفٍ، وجاء تحقيقُ قول النَّبيِّ ﷺ: «**فَإِنَّهُ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّىٰ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»[1].

فالنَّقص في التزام عموم أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ بالدِّين حصل كثيرًا بعد القرون الثَّلاثة، ولهذا جاء في حديث عمران بن حصينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**».

وفي حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»، وكلاهما دلَّ علىٰ تغيُّر الأنفس، وقلَّة اصطباغها بالدِّين بحيث إنَّ ذلك يضعف في نفوسهم، وهذا ما يُشَاهد في الكثرة الكاثرة؛ من انتشار الخيانات، وضعف الأمانات، وقلَّة الالتزام بالأوامر الشَّرعيَّة، وما ذلك إلَّا لضعف الإيمان في النُّفوس، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فينبغي لك يا عبد الله أن تحرص علىٰ المتابعة والامتثال لأوامر الله.

قوله: «**قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**»؛ لاستخفافهم بأمر الشَّارع، وعدم تَحلِّيهم بالصِّدق، بل قَدْ جُعلت الشَّهادة مرتبطةً بالدَّفع عن القرابة والأصدقاء؛ فإن كانت عليهم فإنَّهم يُمنَعون أداءها، وكم رأينا من هذا القبيل.

نسأل الله السَّلامة والتَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٠٦٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.




باب
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ[١] أَوْصَاهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا[٢]، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ: خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَل مِنْهُم وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ.

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِم إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنْ أَبَوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ، الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ

---

(١) السَّرِيَّة: قطعةٌ من الجيش تخرجُ منه تُغير وتعود إليه، وقيل: سُمِّيت سريَّة؛ لأنَّها تسري في اللَّيل ويخفىٰ ذهابها.

(٢) من الغلول، ومعناه: الخيانة في المغنم، أي: لا تخونوا في الغنيمة؛ فتأخذوا منها شيئًا ولو يسيرًا قبل أن تُقسم.



فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الشرح:

فقوله: باب ما جاء في ذِمَّة الله وذِمَّة رسوله، أي: من النَّهي عن إخفار ذِمَّة الله وذِمَّة نبيِّه، وأن نحتاط لذلك.

(وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾).

قال العمادُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا ممَّا يأمر الله تعالىٰ به، وهو الوفاءُ بالعهود والمواثيق، والمحافظةُ علىٰ الأيمان المُؤكَّدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾، وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: لا تتركوها بلا تكفير». اهـ[(٢)].

وأقول: إنَّ هذه الآيات لا يُعارِضُ بعضها بعضًا، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالوفاء

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٩٨).

بالعقود والعهود، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، وقال جلَّ مِن قائل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾؛ أي: أوفوا بما عاقدتم عليه النَّاس؛ كالعقود الَّتي أمر الله بالوفاء بها، وأوفوا بما عاهدتم عليه؛ سواءٌ كان العهد لله، أو مع المخلوقين، وأوفوا بأيمانكم المُؤكَّدة الَّتي عقدتم قلوبكم عليها، وأَقِلُّوا من الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ حتَّىٰ لا يكون ذلك امتهانًا منكم لاسمه، فإنْ حلفتم علىٰ شيءٍ بيمينٍ لم تعقدوها، بل جرت علىٰ ألسنتكم؛ فإنَّه لا يجب عليكم أن تُكفِّروه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾.

وَقَدْ تبيَّن من هذا:

أوَّلًا: أنَّ لغو اليمين لا يُؤاخِذ الله به، ولم يشرع فيه الكفَّارة، وهو ما جرىٰ علىٰ اللِّسان من غير عقدٍ للقلب عليه.

ثانيًا: اليمين المعقود عليها في المستقبل، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾، فهذه يلزم الوفاءُ بها إذا كان المحلوفُ عليه طاعةً أو مباحًا، وكان في المستقبل، أي: في الأمور الآتية:

١- إذا عُقدت اليمينُ علىٰ فِعْل شيءٍ معصيةً لله؛ فإنَّه لا يجب الوفاء بهذا اليمين، ولا كَفَّارة فيها، علىٰ القول الأصحِّ.

٢- إذا كانت اليمين معقودةً علىٰ فِعْلِ شيءٍ في المستقبل؛ ولم يَتمكَّن العاقد مِنْ فعلِهِ، وهو من الطَّاعة أو المباح، فهذه الَّتي تلزم فيها الكَفَّارة.

ثالثًا: مَنْ لزمته كَفَّارةٌ في يمينٍ ولم يُكفِّرها، فهو آثمٌ، وفِعْله معصيةٌ من المعاصي.

رابعًا: إذا حلف علىٰ شيءٍ ممَّا مضىٰ وهو كاذبٌ في يمينه، فهذه اليمين لا تُشرَع فيها الكفَّارة، والحالفُ مستحقٌّ للعقوبة فيها، وهي الَّتي تُسمَّىٰ: اليمين الغموس.

خامسًا: اختلف أهلُ العلم في العهد إذا كان عازمًا فيه علىٰ الوفاء ولم يَتمكَّن، فهل تلزمه كَفَّارةٌ في ذلك أم لا؟

سادسًا: يُؤخَذ من هذا أنَّ الغدر بالعهود من الأمور المُحرَّمة أشدَّ التَّحريم.

قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ بُرَيْدَةَ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بتَقْوَىٰ اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: اغْزُوا باسْم اللهِ...**».) الحديث.

يُؤخَذ من هذا الحديث مسائل:

الأولىٰ: أنَّه ممَّا يجب علىٰ الإمام أن يوصي به أمير الجيش أو أمير السَّريَّة ومَنْ معه، تقوىٰ الله.

الثَّانية: يُوصِيه أيضًا بحسن التَّصرُّف، والرِّفق بمَنْ تحت يده؛ لقوله: «**أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا**».

الثَّالثة: يوصيه ومَنْ معه بوصيَّة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اُغْزُوا باسْم اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

الرَّابعة: في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اُغْزُوا باسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**»: أمرٌ بإخلاص النِّيَّة، وأن تكون النِّيَّة - أي: نِيَّة القتال - في سبيل الله؛ لا لغرضٍ من أغراض الدُّنيا؛ كامتلاك الأراضي، أو غلب القوم الَّذين يغزونهم، أو الحصول علىٰ الغنائم، كلُّ ذلك لا يجوز أن يكون من مقاصد المجاهدين.

الخامسة: في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ باللهِ**»: أمرٌ بقتال الكُفَّار؛ سواءٌ كانوا مشركين، أو ملحدين، أو أهل كتابٍ، وكلٌّ منهم قَدْ ورد فيه ما يدلُّ علىٰ قتالهم

حتَّىٰ يُذْعنوا للحقِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

السَّادسة: يُؤخَذ من قوله ﷺ: «**اُغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا**»: أمرٌ بالغزو، ونهيٌ عن الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

السَّابعة: قوله ﷺ: «**وَلَا تَغْدِرُوا**»: نهيٌ عن الغدر، والغدر هو الخيانة، وهو الانطواء علىٰ شيءٍ من الخيانة الَّتي لا تجوز.

الثَّامنة: أنَّ من الغدر ما يفعله أصحابُ العمليَّات الانتحاريَّة، وهو أن يأتي الشَّخص بسيَّارةٍ مُفخَّخةٍ، ويُفجِّرها في نفسه، وفي قومٍ غافلين ليس عندهم علمٌ عن القتال، وأنَّ هذه العمليَّات من أعظم الغدر، ومن وسائل الإرهاب، وأنَّها لا تجوز، ومَنْ أجازها مِمَّن يُفتون هؤلاء فإنَّه قَدْ ارتكب خطأً عظيمًا وإثمًا كبيرًا.

التَّاسعة: يُؤخَذ من قوله: «**وَلَا تُمَثِّلُوا**»: التَّمثيل: هو قطعُ الأطراف والتَّشويه لمَنْ قُتِل، وهذا لا يجوز.

وَقَدِ اختلف أهلُ العلم فيمَنْ مَثَّل هو في قتله، هل يُمثَّلُ به في القصاص أم أنَّ النَّهي عن التَّمثيل كان بعد قَتْل المحاربين وسَمْل أعينهم؟

فإنْ كان كذلك، فإنَّ التَّمثيل في القصاص يكون منسوخًا.

العاشرة: يُؤخَذ من قوله ﷺ: «**وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»، وفي روايةٍ: «**وَلَا امْرَأَةً**»[1]

(١) أخرج هذه الزِّيادة الطَّحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٢١)، والطَّبرانيّ في «الصَّغير» (٣٤٠)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١١/ ١١).

- وَقَدْ نهىٰ عن قَتْل الشُّيوخ الكبار الَّذين لا يقاتلون، والرُّهبان المنقطعين للعبادة - أن العمليَّات الانتحاريَّة التي تستهدف النِّساء والأطفال، ولا تُبقِي أحدًا، هي منكرٌ من المَناكِرِ الَّتي يجب إنكارها.

الحادية عشرة: قوله ﷺ: «**وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ** - أو: **خِلَالٍ** - **فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ**»؛

وقد فَصَّل هذه الثَّلاث فيما يأتي، وهي:

أوَّلًا: الدَّعوة إلىٰ الإسلام، فإنْ أجابوا إلىٰ ذلك؛ وَجَبَ علىٰ قائد الجيش القَبُول منهم، والكَفُّ عن قتالهم.

ثانيًا: دعوتهم إلىٰ التَّحوُّل من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، وهذه قَدِ انتهت في زمن الفتح حينما استولىٰ - صلوات الله وسلامه عليه - علىٰ مكَّة، وقال: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[(١)].

ثالثًا: فإنْ هم أَبَوْا فيسألهم الجزية، أي: إذا أَبَوْا أن يقبلوا الإسلام، فاطلب منهم الجزية: «**فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ**»؛ أي: إذا أعطوا الجزية «**فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ**».

الثَّانية عشرة: قولُه ﷺ: «**إِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ، وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ، وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**».

الثَّالثة عشرة: قوله ﷺ: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ عَلَىٰ أَنْ تُنْزِلَهُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟ ».

الرَّابعة عشرة: ويُؤخَذ من المسألة الأخيرة أيضًا كما قال المُصنِّف: الفرق بين حكم الله، وحكم العلماء، ومعنىٰ ذلك: أنَّ حكم العلماء اجتهادٌ؛ قَدْ يصيب حكم الله، أو لا يُصيب.

وبالله التَّوفيق.







بَابُ
مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ ! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[٢].

الشرح:

الإقسامُ علىٰ الله ربَّما يكون تَجرُّؤًا علىٰ حقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحينئذٍ يكون فيه تَجَرُّؤٌ علىٰ مقام الرُّبوبيَّة، إذ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يستطيع أحدٌ أن يفرض عليه شيئًا؛ لأنَّه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكه.

فمَنْ حلف أنَّ الله لا يغفر لفلانٍ، فإنَّه قَدْ تجرَّأ علىٰ مقام الأُلُوهيَّة، وظنَّ أنَّ الأمر في ذلك سهلٌ، وكأنَّه أراد أن يفرض علىٰ مقام الرُّبوبيَّة ما يشاء، فلذلك غضب الله عليه، فأحبط عمله وغفر لذلك الفاسق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتعاظمه ذنبٌ، ولا ينبغي للعبد أن يَتجرَّأ علىٰ مقام الأُلُوهيَّة بمثل هذا التَّألِّي.

فمِنْ هنا جاءت مناسبتُه لكتاب التَّوحيد، وَقَدْ يأتي الإقسامُ مبنيًّا علىٰ الرَّجاء،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١). وصحَّحه الألبانيُّ في «التعليقات الحسان» (٥٦٨٢).

ومن ذلك حديث محمد بن عبد الله الأنصاري، قال: حدَّثني حميدٌ: أنَّ أنسًا حدَّثهم أنَّ الرُّبَيِّع - وهي ابنة النَّضْر - كَسَرت ثَنِيَّة جاريةٍ[١]، فطلبوا الأَرْشَ[٢]، وطلبوا العفو، فأَبَوْا، فأتوا النَّبيَّ ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النَّضر: أتُكسَر ثَنيَّةُ الرُّبيِّع يا رسول الله؟ ! لا، والَّذي بعثك بالحقِّ، لا تُكسَر ثَنيَّتها، فقال: «**يَا أَنَسُ! كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ**»، فرضي القوم، وعَفَوْا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**»؛ زاد الفزاريُّ عن حميدٍ عن أنسٍ: «**فَرَضِيَ الْقَوْمُ، وَقَبِلُوا الأَرْشَ**»[٣].

وقَدْ كان من السَّلف مَنْ يُطلَب منه أن يُقسِم علىٰ الله أن يمنح المجاهدين رقاب العدوِّ، فيُحقِّق الله لهم ما أرادوا، إمَّا أن يكون ذلك بدعاءٍ: «اللَّهمَّ امنحنا رقابهم»، وإمَّا أن يكون بطريق الإقسام[٤].

والفارق بين الأمرين:

الأمر الأوَّل: أنَّ الإقسام علىٰ الله ألَّا يفعل كذا علىٰ سبيل التَّحقيق: لا يجوز؛

---

(١) **الثَّنيَّة**: مفرد (الثَّنايا)، وهي مُقدَّم الأسنان. **والجارية**: هي المرأة الشابة هنا لا الأَمَة.

(٢) **الأرش**: دية الجراحة أو الأطراف.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٠٣).

(٤) ومِن هؤلاء البراءُ بن مالك رضي الله عنه؛ أخرج الحاكمُ في «مُستدركِه» (٣/ ٣٣١) (٥٢٧٤) وصحَّحه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّ قَسَمَهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**»، فإنَّ البراءَ لقي زحفًا مِن المشركين، وَقدْ أَوجعَ المُشركُونَ في المُسلِمينَ. فقَالُوا: يَا بَرَاءُ، إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: إنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَىٰ الله لَأَبرَّكَ، فَأَقسِمْ عَلَىٰ رَبِّكَ! فقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لمَا مَنَحْتَنا أكتَافَهُمْ! ثُمَّ الْتَقَوْا علىٰ قَنْطَرَة السّوس، فأَوجَعُوا في المُسْلِمينَ. فقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ، أَقسِمْ عَلَىٰ رَبِّكَ! فقَالَ: أَقسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحقْتَنِي بنَبِيِّك ﷺ، فمُنِحُوا أكتافهم، وقُتِل البراءُ شَهيدًا».

لكونه فيه استخفافٌ بمقام الأُلُوهيَّة.

والأمر الثَّاني المباح: إذا كان المُقْسِم راجيًا من الله أن يُحقِّق له ما يريد، وكان من أهل القربة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا الحديث حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صحَّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأَطْوَلَ من هذا كما نقله صاحب «فتح المجيد»[(١)] من «شرح السُّنَّة» للبغوي، قال: وساق بالسَّند إلىٰ عكرمة بن عمّار، حدثنا ضمضم بن جوس قال: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، فَنَادَانِي شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا يَمَامِيُّ، تَعَالَ، وَمَا أَعْرِفُهُ؛ قَالَ: لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللهِ، لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ؛ قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ؟

قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ. قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِأَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِزَوْجَتِهِ أَوْ لِخَادِمِهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابَّيْنَ؛ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، حَتَّىٰ وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَىٰ ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، وَلَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ أَبَدًا، قَالَ: فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَىٰ عَبْدِي رَحْمَتِي؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ النَّارِ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[(٢)].

وعزاه إلىٰ أبي داود في «سننه» مختصرًا.

---

(١) «فتح المجيد» (٢/ ٥٦١).

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السُّنَّة» (١٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥).

ويُؤخَذ من هذا:

١- أنَّه لا يجوز الإقسام علىٰ الله بأنَّه لا يغفر لفلانٍ؛ إذ إنَّ الله قَدْ أخبر أنَّ رحمته سبقت غضبه، كما جاء في الحديث القدسيِّ: «**إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَىٰ الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١).

٢- **يُؤخَذ منه**: أنَّه لا يجوز لنا أن نحكم علىٰ أحدٍ بجنَّةٍ ولا نارٍ من خلال الأعمال، ولكن نقول: مَنْ مات علىٰ الكفر دخل النَّار، ومَنْ مات علىٰ الشِّرك الأكبر أو النِّفاق الأكبر دخل النَّار، ومَنْ مات علىٰ فسقٍ، وعنده أصل الإسلام والتَّوحيد؛ فهو بين الرَّجاء والخوف، وهو تحت مشيئة الله، إنْ شاء غفر له، وأدخله الجنَّة بلا عذابٍ، وإنْ شاء عَذَّبه بقدر جنايته، ثمَّ أدخله الجنَّة.

٣- **يُؤخَذ منه**: أنَّه لا يجوز الاعتراضُ علىٰ الله في مُلْكه.

٤- أنَّ الجنَّة والنَّار كلتيهما أدنىٰ إلىٰ أحدنا من شِراك نعلِه(٢)، أسألُ اللهَ أنْ يختمَ لنا بخيرٍ.

٥- **يُؤخَذ منه**: أنَّه لا ينبغي للعاقل أن يستخفَّ بالكلام؛ فربَّما أنَّ كلمةً أوبقته، ودخل بسببها النَّار، وَقَدْ جاء في الحديث الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّار أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»(٣).

نسأل اللهَ أنْ يختمَ لنا بخيرٍ. وبالله التَّوفيق.

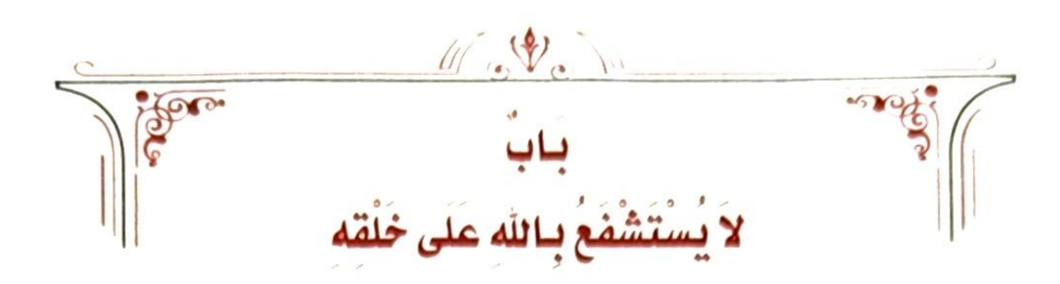
---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **الشِّراك**: أحد السُّيور من الجلد، والتي تُمسك بالنَّعل علىٰ ظهر القدم. وفي الحديث: «**الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**». أخرجه البخاريّ (٦٤٨٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.





باب
لا يُسْتَشْفَعُ بِالله على خَلْقِه

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ... » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

الشرح:

تمام الحديث: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ».

قال عبد الرَّحمن بن حسن في «فتح المجيد»[2]: «قال الحافظ الذَّهبيُّ: رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ عنده في الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة من حديث محمد بن إسحاق بن يسارٍ» قوله: «وَيْحك! إنَّه لا يُسْتشفَع بالله علىٰ أحدٍ من خلقِهِ».

فإنَّه تعالىٰ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، والخيرُ كلُّه بيده؛ لا مانع لما أعطىٰ، ولا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وقال ابنُ منده في «التوحيد» (٢/ ١٨٨ فقيهي): «إسناده صحيح متَّصل». وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الضعيفة» (٢٦٣٩).

(٢) (٢/ ٥٦٧ - ٥٦٨).

معطي لما منع، ولا رادَّ لما قضىٰ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، والخَلْق وما في أيديهم ملكه، يَتصرَّف فيه كيف يشاء، وهو الَّذي يشفع الشَّافع إليه، ولهذا أنكر علىٰ الأعرابيِّ قوله هذا، وسبَّح الله كثيرًا، وعظَّمه؛ لأنَّ هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده؛ إنَّ شأن الله أعظم من ذلك». اهـ.

وفي هذا الحديث:

أوَّلًا: إثبات عُلوِّ الله علىٰ خَلْقه.

ثانيًا: أنَّه مستوٍ علىٰ عرشه.

ثالثًا: أنَّ عرشه فوق سمواته.

رابعًا: أنَّ الله في العُلُوِّ، إذًا السَّماء ما علا، وقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] دليلٌ علىٰ ذلك.

خامسًا: يُعلَم من هذا ضلالُ مَنْ يقولون: أنَّ الله لا فوق العرش، ولا تحته، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا مُتَّصلٌ به، ولا منفصلٌ عنه، وضلالُ مَنْ يقول: إنَّ الله في كلِّ مكانٍ.

سادسًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصف العرش فوق السَّموات بأنَّه عليها كالقُبَّة حتَّىٰ وصف ذلك بكفِّه.

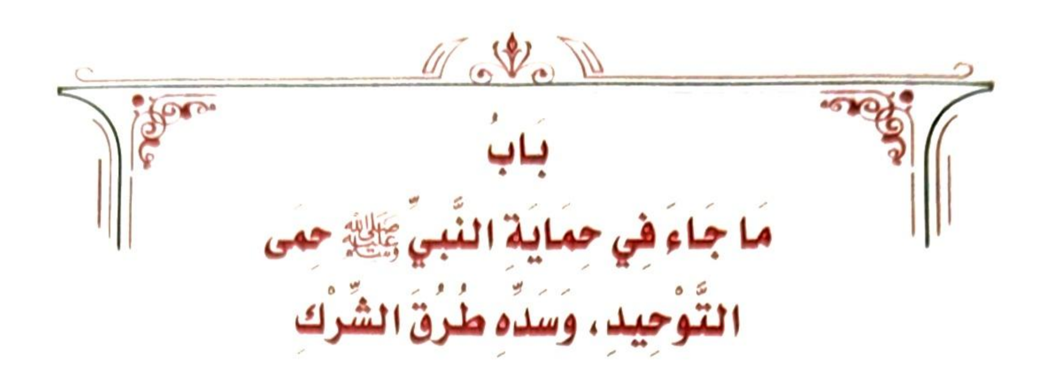
سابعًا: أنَّ هذا القول وهو الاستشفاع بالله علىٰ خَلْقه قولٌ باطلٌ، لا يجوز لأحدٍ أن يقوله، فاللهُ مالكُ الخَلْق وما مَلَكوا، وإنَّما يَسْتشفِع العبدُ الضَّعيف إلىٰ مَنْ يملك الأشياء، أمَّا مالكُ الأشياء فإنَّه لا يجوز أن يُقَال في حقِّه: إنَّا نستشفع

بالله على فلانٍ، فهل يصحُّ في عقلِ عاقلٍ أن يُستَشْفع بمَنْ يملك إلى مَنْ هو مملوكٌ له هو وكلُّ ما مَلَكه؟!

ثامنًا: وهذا هو الَّذي أثار غضب رسول الله ﷺ، أي: يُقَال في حقِّ مَنْ تعنُو له رقابُ الجبابرة، وتذلُّ له ولعزَّته عظماءُ الخَلْق، فهل يُعقَل في حقِّه أن يُقَال بأنَّه يُستَشْفع على خَلْقِهِ؟! الجواب: لا، فشأنُ الله عظيمٌ، كما قال رسولُ الله ﷺ: «شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ». وبالله التَّوفيق.







بابُ
ما جاءَ في حمايةِ النَّبيِّ ﷺ حمى التَّوْحِيدِ، وَسدِّه طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ - أَوْ: بَعْضِ قَوْلِكُمْ - وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ[1].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُم، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ[2].

الشرح:

وأقولُ: إنَّ الأَوْلَىٰ أن يُقَال: وَسَدّه الطُّرقَ المُوصِلةَ إلىٰ الشِّرك.

قوله: (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن الشِّخِّير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ») الحديث.

قوله: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»: السَّيِّد عند العرب: هو المُطاع في القبيلة، المُتَّبع فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٤٩٠٠).

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في «الكبرىٰ» (٦/ ٧١) (١٠٠٧٨)، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الصَّحيحة» (١٠٩٧) و(١٥٧٢).

فقال ﷺ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»: هذا من النَّبيِّ ﷺ تواضُعًا، وهو من الهَضْم لنفسه، وإلَّا فهو سَيِّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر.

قوله: «وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا»: الطَّوْل: هو السِّيادة والكرم، وهذه كلُّها لائقةٌ بالنَّبيِّ ﷺ، لكنَّه - صلوات الله وسلامه عليه - أحبَّ أن يُقتدَىٰ به في ردِّ مدح المادح؛ لأنَّ المدح ممَّا يجعل النُّفوس تتعاظم وتخرج عن طَوْرِها، وذلك يتنافىٰ مع مقام العُبُوديَّة للإنسان.

فَرَدْعُ المادح بأن يُردَّ عليه مَدْحه، والنَّبيُّ ﷺ أراد أن تقتدي أُمَّته في تجاوز ذلك المدح، وعدم قبوله، وأن يُقابل المادح بما يردُّه، ويمنعه عن المدح.

وكذلك الحديث الثَّاني: (عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا») الحديث.

قولُهم: «يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا»: لا شكَّ أنَّ أهل بيت النَّبيِّ ﷺ كانوا أصحابَ شرفٍ ونُبْلٍ في زمن الجاهليَّة، ولكنَّ الخيريَّة الَّتي ترتَّبت علىٰ النُّبوَّة لم تَنَلْهم، ففي ذلك مجاوزةٌ للحقِّ والله أعلم؛ علمًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَكْرَه المدح، وينهىٰ عنه، وقال للمادح: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، ثَلَاثًا»[(١)]، وقال: «إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ التُّرَابَ» أخرجه مسلمٌ والتِّرمذيُّ وابن ماجه عن المقداد بن الأسود[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتتمَّة الحديث: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فُلَانًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَدًا، أَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ».

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) وأبو داود (٤٨٠٤)، والترمذي (٢٣٩٣)، وابن ماجه (٣٧٤٢)، ولفظه عند مسلم: عن همَّام بن الحارث أنَّ رجلًا جعل يمدح عثمان، فعَمد المقدادُ فجثا علىٰ ركبتيه، وكان رجُلًا =

فيُؤخذ أوّلًا من هذا: النَّهي عن المدح.

ثانيًا: قطع أسباب الغلوّ.

ثالثًا: تواضع النَّبيِّ ﷺ.

رابعًا: كونه ﷺ حمَىٰ جانب التَّوحيد، وقال: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[(١)].

خامسًا: أراد أن يُبيِّن لهم أنَّ السِّيادة المُطلقة هي للرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفي الحديث القدسيِّ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّار»[(٢)].

إذًا؛ فهذا من حماية جناب التَّوحيد، وقطع أسباب الغلوِّ، وَقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ حين جاء سعد بن معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليحكم في بني قريظة، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ»[(٣)].

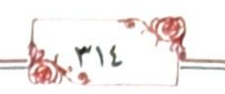
سادسًا: يُؤخَذ من قوله: «لا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»: أنَّ الشَّيطان يستجري بني آدم بمعنىٰ أنَّه ينزلهم درجةً درجةً ليوقعهم في الشِّرك، كما فعل مع قوم نوحٍ، وكما يفعل مع النَّاس في إيقاعهم في المعاصي، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

= ضخمًا، فجعل يحثُو فِي وجهه الحصباء، فقال له عثمانُ: ما شأنُك؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ».

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٦) (٨٨٨١)، وأبو داود (٤٠٩٠) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٥٤١)، وأصلُه عند مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ نَازَعَنِي عَذَّبْتُهُ».

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

تنبيهٌ:

بعد أن أمليتُ ما حضرني في شرح هذا الباب، وكنتُ مُتذكِّرًا أنَّه قَدْ سبق بابٌ شبيهه؛ لهذا نَبَّهني أحد الإخوة - جزاه الله خيرًا - بأنَّه في بعض الأسئلة الَّتي قُدِّمت للطُّلَّاب في بعض المدارس: ما الفرق بين الباب (باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التَّوحيد وسدِّه كلَّ طريقٍ يوصل إلىٰ الشِّرك)، وبين هذا الباب (الَّذي هو باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حِمَىٰ التَّوحيد وسدِّه طُرُق الشِّرك)؟

وأنَّه قَدِ اطَّلع هو وبعضُ زملائه علىٰ شرح الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأنَّه فرَّق بين البابين: أنَّ الأوَّل في الأفعال، وهذا في الأقوال[(١)]، وبعد التَّأمُّل فيما أورده المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجدنا أنَّ قول السَّعديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الحقيقة، والكلُّ مقصودٌ به حماية التَّوحيد ممَّا يخدشه؛ فنسأل الله أن يُفقِّهنا في دينه، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يُعلِّمنا ما لم نكن نعلم، ويرزقنا العمل به. وبالله التَّوفيق.



(١) انظر: «القول السديد في مقاصد التوحيد» (ص ٢١٤ الوزارة).



باب
قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآيَةُ [الزمر: ٦٧][1]. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ[2]: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ[3]: «وَيَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٥١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) حديث (٢٧٨٦).

(٣) حديث (٤٨١١)، وهي رواية لمسلم أيضًا.

ولمسلم[1] عن ابن عمر مرفوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[2].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ: أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»[3].

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»[4].

---

(١) حديث (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه عبد الله بنُ أحمد في «السُّنَّة» (١٠٩٠)، والطَّبريُّ في «التفسير» (٢٠/ ٢٤٦). وذكره شيخُ الإسلام في «الرسالة العرشية» كما في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٦١) وطُرقًا أخرى عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وقال: «هذه الآثارُ معروفةٌ في كتُب الحديث».

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧). وإسناده ضعيف مرسلٌ. انظر: «السِّلسلة الضَّعيفة» للألبانيِّ (٦١١٨).

(٤) أخرجه ابنُ أبي عمر العدني في «مسنده» (٣٤٤١ المطالب العالية)، ومحمد ابنُ أبي شيبة في «العرش» (٥٨ الرشد)، والطبريُّ في «التفسير» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠ و٥٨٧ و٦٣٥ و٦٤٨)، وابنُ حبَّان في «الصحيح» (٣٦٢)، والآجرِّي في «الأربعين» (٤٤ البدر)، وابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرى» (٧/ ١٨١ رقم ١٣٦)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٦١) و(٨٦٢)، مِن طرق عن أبي ذرٍّ به نحوه، مُختصرًا ومطوَّلًا، وطرُقه كلُّها ضعيفة، لكن أشار الألبانيُّ رحمه الله =

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ[1].

وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ[2]. قَالَهُ

=

إلىٰ تقويته بمجموع هذه الطُّرق، انظر: «السِّلسلة الضَّعيفة» (١٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩) تحت رقم (٦١١٨)، و«السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩).

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٥١)، من طريق عبد الرَّحمن بن مهدي به. وأخرجه الدَّارميُّ في «الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة» (ص٥٩ الشوامي)، وفي «النَّقض علىٰ المريسي» (ص١٥٧ الشوامي)، وابنُ خزيمة في كتاب «التَّوحيد» (١/ ٢٤٢ - ٢٤٣ و٢٤٤)، والدِّينوري في «المجالسة» (٢٨٣٠ ابن حزم)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٩٨٧)، وأبو الشَّيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٨ - ٦٨٩)، وابنُ أبي زمنين في «أصول السُّنَّة» (٣٩)، مِن طرُق أخرىٰ عن حمَّاد بن سلمة به. وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في «العلوِّ للعليِّ الغفَّار» (١٠٣ - مختصر الألباني)، وابنُ القيِّم في «الصَّواعق المرسلة» (ص٤٣٥ مختصر الموصلي)، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦ - القدسي) للطبراني، وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٨٥٢)، من طريق أحمد بن عبد الجبَّار عن يونس بن بُكير عن المسعودي به. والمسعوديُّ صدوق اختلط قبل موته، ولا يُدرىٰ عن سماع يونس بن بكير منه متىٰ كان أَقَبْل الاختلاط أو بعده. وقد رواه يزيدُ بنُ هارون عن المسعوديِّ، فجعله عن أبي وائل وعن زرٍّ عن عبد الله، أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ١٠٤٧) بسند صحيح عن يزيد بن هارون عنه. ويزيد بن هارون ممَّن سمع من المسعودي بعد الاختلاط كما في «الكواكب النيِّرات» (ص٢٨٨).

ورواه أبو النضر هاشم بن القاسم وروح بن عبادة ويزيد بن هارون - في رواية أخرىٰ - عن المسعودي عن عاصم عن زرِّ بن حبيش عن عبد الله، أخرجه هكذا ابنُ خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٨٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٦٥)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٧/ ١٧١ - ١٧٢). وأبو النَّضر ويزيد سمعا من المسعودي بعد الاختلاط، ورَوْح لم يُذكر متىٰ سمع منه؛ انظر: «الكواكب النيِّرات» (ص٢٨٨ وما بعدها). قلت:

=

الحَافِظُ الذَهَبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ(١).

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ أَعمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخرَجَهُ أَبُو دَاودَ وَغَيرُهُ(٢).

=

الظاهرُ أنَّ هذا الاضطراب من المسعوديِّ مِن قِبَل اختلاطه، لكن قد تابعه حمَّاد بنُ سلمة في روايته عن عاصم عن زرٍّ كما سبق، فلعلَّها تكون أرجح من غيرها، ولا يُضعفها ما ذكر ابنُ معين وابنُ المديني من كون المسعودي كان يخطئ فيما روىٰ عن عاصم بن بهدلة وسلمة كما في «الكواكب النيِّرات» (١/ ٢٩٦)؛ فإن هذا يقضي بالتثبُّت من روايته عنهما حيث لم يُتابَع، فإن توبع رُجِّح أحد الاحتمالين علىٰ الآخر، كما يفيده كلام الحافظ في «نزهة النظر» (ص١٢٩ - ١٣٠ الرحيلي). والله أعلم.

(١) «العلوُّ للعليِّ الغفَّار» (ص ٤٦ أضواء السَّلف).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦) (١٧٧٠) واللفظ له، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابنُ ماجه (١٩٣)، بلفظٍ قريب من لفظ أحمد. ولفظه عند أصحاب السنن نحوه إلَّا أنه ذكر أن بين السماء والتي تليها ثنتين أو ثلاثًا وسبعين سنة، وليس فيه عندهم قوله: «وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ». وهذا الحديث تنازع العلماء في ثبوته؛ فحسَّنه الترمذيُّ، وأورده ابنُ خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥ الشهوان) الذي شرط أن لا يُورد فيه إلَّا ما اتَّصل سندُه وعُدِّلت نقلتُه، وحكم ابنُ منده في كتاب «التوحيد» (١/ ٦٣ - ٦٤ رقم ٤٢ الفقيهي) باتِّصال إسناده، وأورده الضياء في «الأحاديث المختارة» (٨/ ٣٧٣ - ٣٧٧)، وحسَّنه شيخ الإسلام ابنُ تيمية في «الواسطية» (٣/ ١٣٩ مجموع الفتاوىٰ)، ودافع عنه في «المناظرة الواسطية» كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٩١ - ١٩٢)، ودافع عنه ابنُ القيم في «تهذيب السنن» (١٣/ ٥ - ٦ بحاشية العون)، وردَّ علىٰ من ضعَّفه، وحسَّنه أيضًا الذهبيُّ في «العرش» (٢/ ٤١).

ومال آخرون إلىٰ تضعيفه فأشار البخاريُّ إلىٰ انقطاع في سنده كما في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٥٩)،
=

الشرح:

في هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ردٌّ على المشركين في زَعْمِهم أنَّ عبادة غير الله جائزةٌ؛ حين طلبوا التَّصالح مع النَّبيِّ ﷺ بأن يعبدوا إلهه سنةً، وهو يعبد إلههم سنةً، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ إنكارًا عليهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] [الكافرون: ١ - ٤].

وفي هذه الآيات يقول الله عَزَّوَجَلَّ: قل لهم يا مُحمَّد: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ⑥٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ⑥٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٧].

ففي هذا ردٌّ عليهم في زعمهم جواز عبادة غير الله، وبيان عظمة الله في هذه الآيات حيث بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ جميع الأرض تكون ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: مقبوضة في كفِّه، وأنَّ السموات مَطويَّاتٌ كلُّها بيمينه، وذلك دليلٌ على عظمة الله الرَّبِّ جلَّ شأنه، وتعالت أسماؤه وصفاته، فلمَنْ تأمروني أن أصرف العبادة؛ مع أنَّ إلهي مَنْ وَصَف نفسه بهذا الوصف؛ أأصرف العبادة للمخلوقين الضِّعاف الَّذين لا يقومون بحاجة أنفسهم ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾؟!

=

وتابعه العقيليُّ في «الضعفاء» (٢/ ٢٨٤)، وذكر الذهبيُّ في «العلوّ للعلي الغفار» (ص٦٠) أن في سنده مجهولًا. وضعَّفه الألبانيُّ في «الضعيفة» (١٢٤٧).

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٣ هجر)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٧).

فسبحان الله العظيم الَّذي لم يُقدِّر الخَلْقُ قَدْرَه؛ لجهلهم به وبعظمته، ولذلك يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ومن هنا تَبيَّن أنَّ الشِّرك محبطٌ للأعمال؛ لأنَّ المشرك سَوَّىٰ المخلوق الضَّعيف بالرَّبِّ الجليل، فإذا كان الرُّسل، بل أفضلهم محمَّدٌ ﷺ تُوعِّد بإحباط العمل إنْ هو أشرك بربِّه، وحاشاه أن يكون منه ذلك! فإذا كان الرُّسل تُوعِّدوا بذلك، فغيرُهم من باب أَوْلَىٰ، وَقَدْ أعقب الله ذلك بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة، أمَّا مَنْ سِوَاه، فمِنْ حقِّه أن يكون عابدًا لربِّه لا معبودًا.

واللهُ تعالىٰ الَّذي عظمتُه لا تُوازَىٰ، وقَدْرُه كما وصف سبحانه نفسه بأنَّه يوم القيامة يطوي السَّموات السَّبع بيمينه، والأرضين السَّبع بيده الأخرىٰ، فمَنْ أحقُّ بالعبادة من صاحب هذه القدرة الَّتي لا يتعاصىٰ عليها شيءٌ؟!

الجواب: لا أحد، فهو الحقيقُ بالعبادة، والجديرُ بها.

قوله: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ...** »)، في هذا الحديث والَّذي قبله إثباتُ اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الحديث الأوَّل إثباتُ الأصابع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إثباتُ الكفِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإثباتُ القبضة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونؤمن بأنَّ الله يفعل ما يشاء، وأنَّ بيده ملك الأشياء جميعًا والتَّصرُّف فيها كما يشاء.

ويُؤخَذ منه أنَّ الله يطوي السَّموات السَّبع كُلَّهنَّ، ويطوي الأرضين السَّبع كُلَّهنَّ.

ويُؤخَذ من الحديث الأوَّل: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ضَحِك تصديقًا لقول الحبر، وَقَدْ يكون تَعجُّبه من كون الحبر يعلم هذا، ولا يؤمن بالقرآن الَّذي نزل فيه تصديق ما وصف في هذا الحديث، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ

لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ سبحان الله العظيم! السَّموات بسعتها وكثافتها وارتفاعها يطويها الله عَزَّوَجَلَّ كطيِّ السِّجلِّ للكتب، ما أعظم قدرةَ الله!!

لذلك، فإنَّ الواجب على جميع المخلوقين أن يُوحِّدوه بالعبادة، وأن يُفردوه بها، وألَّا يجعلوا معه شريكًا، فهو الإله الحقُّ الَّذي تنبغي له العبادة؛ خضوعًا لجلاله، وإيمانًا بعظمته وقدرته.

ثمَّ أورد بصفة التَّضعيف (ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما السَّمَوَاتُ السَّبْعُ، وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وقال ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».**

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ».**

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.. ».

وعن العَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ »** قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **«بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.. »).**

أقول: في هذه الأحاديث إثباتُ سَعَة العرش، وأنَّ كلَّ شيءٍ دونه، فالكرسيُّ والسَّموات والبحر الَّذي فوق السَّماء السَّابعة، كلُّ هذه تدلُّ على سَعَة خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، فينبغي أن نتأمَّل كيف هذا البحر الَّذي جعله الله في الهواء فوق السَّماء السَّابعة، وما بين أسفله وأعلاه كما بين سماءٍ وسماءٍ، ما أجلَّ عظمة الله!

إذا فكَّرنا في هذه المخلوقات كيف عظمتُها؟ ! كيف عظمةُ حَمَلة العرش؟ ! كيف عظمةُ ذلك المَلَك الَّذي بين عاتقه وشَحْمة أذنه مخفق الطَّير سبعين عامًا؟ ! وإذا كان

الملائكة الحَفَظة يَعْرجُون إلىٰ السَّماء السَّابعة، ويَطَّلعون علىٰ ما كُتِبَ في اللَّوح المحفوظ عن كلِّ شخصٍ، ويقابلون ما بينه وبين الأعمال المنسوخة من أفعالهم، فيجدونها متساويةً، وإذا كان من الأرض إلىٰ ما فوق السَّماء السَّابعة مسيرة سبعة آلاف عامٍ، وهم يقطعونها في بضعِ ساعاتٍ، كيف أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَكَّنَهم مِنْ قطعِ هذه المسافة العظيمة؟ ! فيجب أن نَتأمَّل في هذه الأمور، وما ثبت في هذه الأحاديث من الصِّفات الدَّالَّة علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فمَنْ عرف الله بهذه الصِّفات حقَّ المعرفة، ووحَّده حقَّ التَّوحيد، عَبَده حقَّ العبادة؛ لِمَا له من كمال القدرة والعظمة والجلال.

قال في «فتح المجيد»[1] **نقلًا عن الحافظ الذهبيِّ**[2]: «وروىٰ التِّرمذيُّ نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**بُعْدَ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ خَمْس مِئَةِ عَامٍ**»، ولا منافاةَ بينهما؛ لأنَّ تقدير ذلك بخمسِ مئةِ عامٍ هو علىٰ سير القافلة مثلًا، ونيفٍ وسبعين سنةً علىٰ سَيْر البريد؛ لأنَّه يصحُّ أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سَيْر العادة، وثلاثة أيَّامٍ باعتبار سَيْر البريد، وروىٰ شريكٌ بعض هذا الحديث عن سِمَاكٍ، فوقفه. هذا آخر كلامه».

وأقول: في هذه الأحاديث إثباتُ علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإثبات هذه المسافات بالنِّسبة لسَيْرنا نحن بني آدم، وَقَدْ أنكرت الجهميَّة علوَّ الله علىٰ عرشه.

يقول الحافظ الذَّهبيُّ كما في «فتح المجيد»[3]: «وأوَّل وقتٍ سُمعت مقالة مَنْ أنكر أنَّ الله تعالىٰ فوق العرش: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع

---

(١) (٢/ ٦٠٩ - ٦١٠).

(٢) من كتاب «العرش» (٢/ ٤٢).

(٣) (٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧).

الصِّفات، فقتله خالد بن عبد الله القسري، وقِصَّته مشهورةٌ، وأَخَذَ عنه هذه المقالة: الجهمُ بن صفون إمام الجهميَّة، فأظهرها، واحتجَّ لها بالشُّبهات، وكان ذلك في آخر عصر التَّابعين، فأنكر مقالته أئمَّة ذلك العصر، مثل: الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، واللَّيث بن سعد، والثَّوري، وحماد بن زيدٍ، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمَّة الهدىٰ»[1].

إلىٰ أن قال: «وقال الإمام الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لله أسماءٌ وصفاتٌ لا يَسَع أحدًا ردُّها، ومَنْ خالف بعد ثبوت الحُجَّة عليه؛ كَفَر، وأمَّا قبل قيام الحُجَّة فإنَّه يُعذَر بالجهل، ونُثْبِت هذه الصِّفات، وننفي عنه التَّشْبِيه؛ كما نفىٰ عن نفسه، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾» انتهىٰ[2].

والواجب: أن نؤمن بما جاء في هذه الأحاديث من الصِّفات الَّتي ثبتت لله عَزَّوَجَلَّ، فنؤمن بذلك حقَّ الإيمان، ونستيقنه حقَّ اليقين، وما ذكر من الأبعاد - ما بين السَّموات والأرض - في هذه الأحاديث نؤمن بها، ونعلم أنَّ عِظَمَ مخلوقات الله دالَّةٌ علىٰ كماله، فنسأل الله أن يرزقنا الإيمان، واليقين، والثَّبات علىٰ الحقِّ حتَّىٰ نلقاه علىٰ ذلك، وبالله التَّوفيق، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلىٰ آله وصحبه.

انتهى من إملائه على الطُّلاَّب

في ١٤٢٥/٦/١١هـ

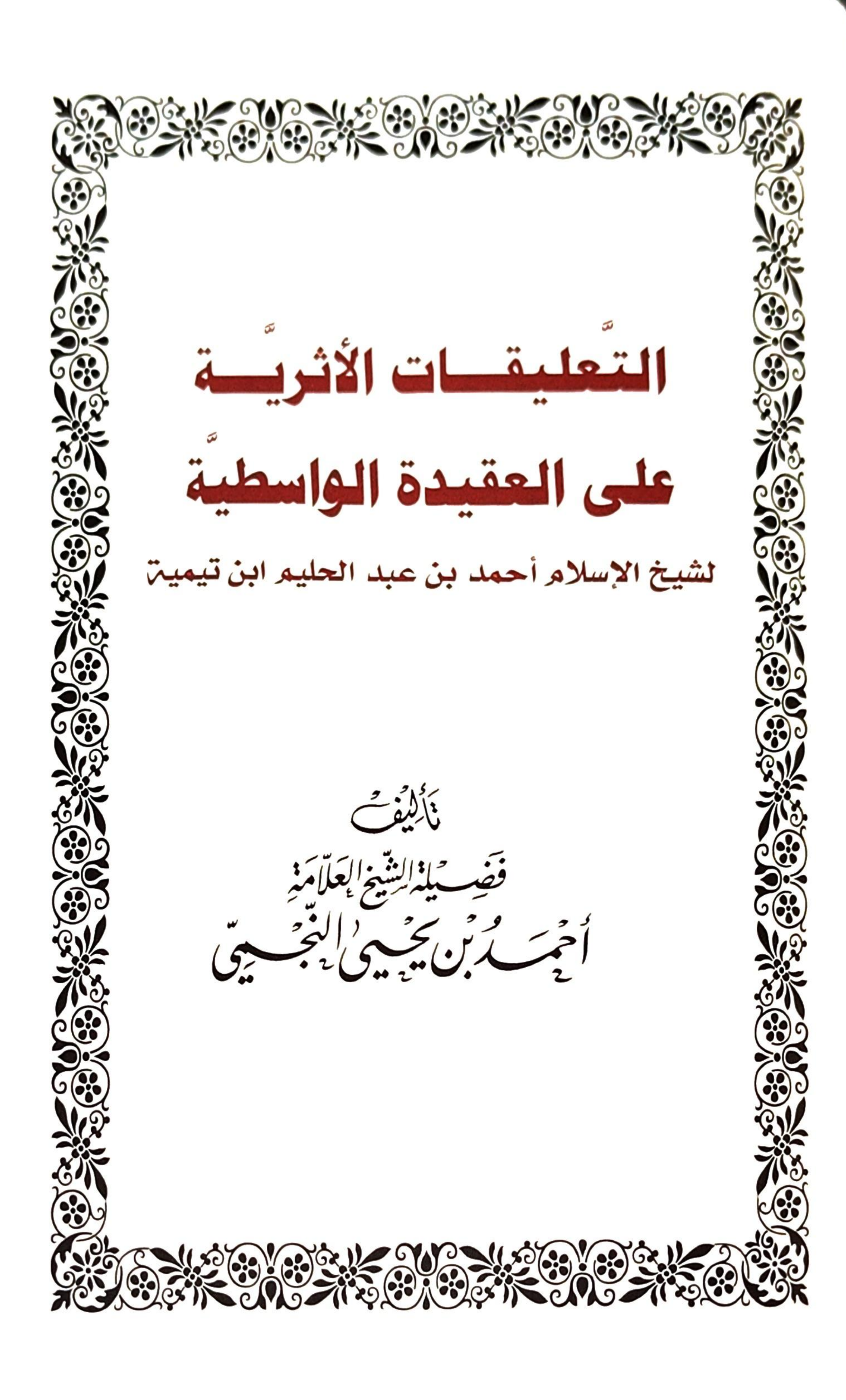
المؤلف

أحمد بن يحيى بن محمد شبير النجمي

---

(١) انظر: «العرش» للذهبي (٢/ ٢١٩ - ٢٢١).

(٢) «فتح المجيد» (٢/ ٦٠٨).



التَّعليقـــات الأثريَّـــة
على العقيدة الواسطيَّة

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

أحمد بن يحيى النجمي





ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

اسمُه ونسبُه:

هو شيخ الإسلام، الإمام، المُحدِّث، الحافظ، النَّاقد، والمُفسِّر الغَوَّاص في معاني القرآن، والمُؤرِّخ المُطَّلِع علىٰ أحداث التَّاريخ، المُبرِّز في العُلُوم النَّقليَّة والعقليَّة علىٰ كبار المُتخَصِّصين فيها، والآمر بالمعروف، النَّاهي عن المنكر، الزَّاهد، العابد، المجاهد، المُظفَّر في ميادين القتال، وفي ميادين الدِّفاع عن حِيَاض الإسلام بالحُجَّة والبرهان، سَيف الله المَسلول علىٰ الفلاسفة والمُلحدين وعلىٰ الغُلاة المبتدعين: تقيُّ الدِّين، أبو العبَّاس؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحرَّاني.

فإذا أُطلِق (شيخ الإسلام) فالمقصود به هو، طيَّب اللهُ ثراه.

وأمَّا عن لقب «تيمية»؛ فَقَد قال الحافظ أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عبد الهادي: «قيل: إنَّ جَدَّه مُحمَّد بن الخضر حجَّ علىٰ دَرْب تَيْماء، فرأىٰ هناك طفلةً، فلمَّا رجع، وَجَد امرأته قَد وَلَدَت له بنتًا، فقال: يا تيمية، فلُقِّب بذلك»، وقال ابن النَّجَّار: «ذُكر لنا أنَّ جدَّه مُحمَّدًا كانت أُمُّه تُسمَّىٰ تيمية، وكانت واعظةً، فنُسب إليها، وعُرِف بها».

مولده ونشأته:

وُلِدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الاثنين، عاشر، وقيل: ثاني عشر من ربيع الأوَّل سنة ٦٦١هـ

في حرَّان، وسافر والداه به وبإخوته إلى الشَّام عند جَوْر التَّتار، وقَدِموا دمشق في أثناء سنة سبعٍ وستين وستٍّ مئة، وَقَد وُلِدَ في بيتِ علمٍ ودينٍ.

والدُه وجدُّه:

أمَّا والدُه: فهو الشَّيخ شهاب الدِّين أبو المحاسن، عبد الحليم، وُلد سنة سبعٍ وعشرين وست مئة بحرَّان، وتُوفِّي سنة اثنتين وثمانين وست مئة بدمشق.

قال الذَّهبيُّ: «قرأ المذهب حتَّى أتقنه على والده، ودرَّس وأفتى وصنَّف وصار شيخَ البلد بعد أبيه».

وأمَّا جَدُّه، فهو: مجد الدِّين أبو البركات عبد السَّلام، الإمام المقرئ المُحدِّث المفسِّر فقيه الوقت وأحد الأعلام، وُلد سنة تسعين وخمس مئة - تقريبًا - بحرَّان، وتُوفِّي سنة ثلاث وخمسين وست مئة.

ومجد الدِّين من أعيان المذهب؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان جَدُّنا عَجَبًا في سرد المُتُون، وحِفظ مذاهب النَّاس وإيرادها بلا كُلفةٍ».

شيوخه:

بَلَغ عددُ شُيُوخه أكثر من مئتي شيخٍ، مِن أبرزهم:

١ - والده الشَّيخ عبد الحليم بن عبد السَّلام ابن تيمية.

٢ - المُحدِّث أبو العبَّاس، أحمد بن عبد الدَّائم.

٣ - ابن أبي اليسر.

٤ - الشَّيخ شمس الدِّين عبد الرَّحمن المقدسي الحنبلي

٥ - ابن الظَّاهري الحافظ أبو العبَّاس الحلبي الحنفي.

تلاميذه:

أمَّا تلاميذه فلا يُحصَون كثرةً، فمن تلاميذه البارزين والمُبرَّزين:

١ - شمس الدِّين، أبو عبد الله، مُحمَّد بن أبي بكرٍ الزرعي، ابن قيِّم الجوزيَّة.

٢ - الحافظ أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الهادي.

٣ - الحافظ أبو الحَجَّاج المزي.

٤ - الحافظ المُؤرِّخ أبو عبد الله محمد بن عثمان الذَّهبي.

٥ - أبو الفتح ابن سَيِّد النَّاس مُحمَّد بن محمد اليعمري المصري.

٦ - الحافظ علم الدِّين القاسم بن محمد البرزالي.

علمه:

سَمِع شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسندَ الإمام أحمد بن حنبل مرَّاتٍ، وسمع الكُتُب السِّتَّة الكِبار، والأجزاء، ومن مسموعاته: «معجم الطَّبراني الكبير».

وقرأ ونَسَخَ وتَعَلَّمَ الخَطَّ والحساب في المَكتب، وحَفِظ القرآن، وأَقبَلَ علىٰ الفقه، وقرأ العربيَّة علىٰ ابن عبد القويِّ، ثمَّ فهمها، وأخذ يتأمَّل كتاب سيبويه حتَّىٰ فَهِم في النَّحو، وأقبل علىٰ التَّفسير إقبالًا كليًّا حتَّىٰ حَاز فيه قَصب السَّبْق، وأَحْكَم أصولَ الفقه، وغير ذلك.

هذا كلُّه وهو بعدُ ابنُ بضع عشرة سنةً، فَانبَهر أهلُ دمشق من فَرْط ذكائِهِ، وسَيَلان ذهنِهِ، وقُوَّة حافظته، وسرعة إدراكه.

واتَّفق أنَّ بعض مشايخ العلماء بحلب قَدِم إلىٰ دمشق، وقال: «سمعت في البلاد بصبيٍّ يُقَال له: أحمد ابن تيمية، وأنَّه سريع الحفظ، وَقَد جئتُ قَاصدًا لَعَلِّي أَرَاه».

وقال الحافظُ أبو عبد الله الذَّهبيُّ: «نشأ الشَّيخ تقيُّ الدِّين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَصوُّنٍ تامٍّ وعفافٍ وتَألُّهٍ وتَعبُّدٍ واقتصادٍ في المَلبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صِغَره، ويُناظر ويُفحم الكبار، ويأتي بما يَتحيَّر منه أعيانُ البلد في العلم، فأفتىٰ وله تسع عشرة سنةً، بل أقلُّ، وشَرَع في الجَمْع والتَّأليف من ذلك الوقت، وأَكَبَّ علىٰ الاشتغال.

ومات والده وكان من كبار الحنابلة وأَئمَّتهم، فدرَّس بعده بوظائفه وله إحدىٰ وعشرون سنةً، وتقدَّم في عِلم التَّفسير والأُصول وجميع علوم الإسلام؛ أصولها وفروعها، ودِقِّها وجلِّها، وله خبرةٌ تامَّةٌ في الرِّجال، وجرحهم وتعديلهم، ومعرفةٌ بفُنُونِ الحديثِ، والصَّحيح والسَّقيم، مع حفظه لمُتونه الَّذي انْفَرد به، فلا يَبلغ أحدٌ في العصر رُتْبَتَه، ولا يُقاربه، وهو عجيبٌ في استحضاره، واستخراج الحُجَج منه، وإليه المُنتهىٰ في عَزوه إلىٰ الكُتُب السِّتَّة، بحيث يَصدق عليه أن يقال: كُلُّ حديثٍ لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديثٍ، واشتهر أمرُه، وبَعُدَ صِيتُهُ في العالم».

وقال الحافظُ المزِّيُّ: «ما رأيتُ مثلَه، ولا رأىٰ هو مثلَ نفسِهِ، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ولا أتبع لهما منه».

وقال العَلَّامةُ ابن الزَّملكانيّ: «كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم، ظنَّ الرَّائي والسَّامع أنَّه لا يعرف غير ذلك الفنِّ، وحكم أنَّ أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطَّوائف إذا جَلَسُوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا قَد عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنَّه نَاظَرَ أحدًا فانقطع معه، ولا تكلَّم في علمٍ من العُلُوم سواء أكان من عُلوم الشَّرع أم غيرها إلَّا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه،

وكانت له اليدُ الطُّولىٰ في حُسن التَّصنيف، وجَودة العبارة والتَّرتيب والتَّقسيم والتَّبيين، واجتمعت فيه شُرُوط الاجتهاد علىٰ وجهها».

جهاده:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائمًا بأمر الجهاد، وله في ذلك مواقفُ كثيرةٌ، فمن ذلك:

ما ذكره عنه ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **حيث قال:** «ولمَّا كان يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة (٦٩٧) عمل الشَّيخ تقي الدِّين ابن تيمية ميعادًا في الجهاد، وحَرَّض فيه، وبالغ في أجور المجاهدين، وكان ميعادًا حافلًا جليلًا».

وقال البزَّار: «وأخبر غيرُ واحدٍ أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم؛ إن رأىٰ من بعضهم هَلَعًا أو رِقَّةً أو جبانةً شَجَّعه وثَبَّته وبَشَّره ووعده بالنَّصر والظَّفَر والغنيمة، وبَيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السَّكينة، وكان إذا ركب الخيلَ يَتحنَّك ويجول في العدوِّ كأعظم الشُّجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويُكبِّر تكبيرًا أَنْكَىٰ في العدوِّ من كثيرٍ من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوضَ رجلٍ لا يخاف الموت.

وحَدَّثوا أنَّهم رأوا منه في فتح عكَّة أمورًا من الشَّجاعة يعجز الواصف عن وَصفها، قالوا: ولَقَد كان السَّبب في تَملُّك المسلمين إيَّاها بفعلِهِ ومشورتِهِ وحُسنِ نَظَره».

وجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقلمه؛ فردَّ علىٰ اليهود والنَّصارىٰ والفلاسفة، وعلىٰ طوائف أهل البدع.

قيامه بالأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر:

له رسائل إلىٰ البحرين، وإلىٰ مُلُوك العرب، وإلىٰ ثُغُور الشَّام؛ إلىٰ طرابلس

وغيرها بمصالح تَتعلَّق بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

زهده في المناصب:

قال ابن رجبٍ: «عُرِض عليه قضاء القضاة قبل التِّسعين، ومشيخة الشُّيُوخ، فلم يَقبل شيئًا من ذلك».

وقال عمر بن علي بن موسىٰ البزَّار: «أخبرني مَن لا أَتَّهمه أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين وُشِيَ به إلىٰ السُّلطان المُعظَّم الملك النَّاصر مُحمَّد أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنَّني أُخبرت أنَّك قَد أطاعك النَّاس، وأنَّ في نفسك أَخْذَ المُلْك، فلم يكترث به، بل قال له بنَفسٍ مُطمئنَّةٍ، وقلبٍ ثابتٍ، صوتٍ عالٍ سمعه كثيرٌ مِمَّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! واللهِ، إنَّ ملكك وملك المُغْل[1] لا يُساوي عندي فَلْسين.

فَتَبسَّم السُّلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع اللهُ له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنَّك واللهِ لَصادقٌ، وإنَّ الَّذي وَشَىٰ بك إليَّ كاذبٌ».

حاله وعبادته:

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: إنَّ في الدُّنيا جَنَّةً مَن لم يدخلها لا يدخل جنَّة الآخرة. وقال لي مَرَّةً: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جَنَّتي وبستاني في صدري، إن رُحتُ فهي معي لا تُفارقني، إنَّ حبسي خَلوةٌ، وقَتلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سياحةٌ.

وكان يقول في مَحْبسه في القلعة: لو بَذَلتُ مِلء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شُكر هذه النِّعمة، أو قال: ما جزيتهم علىٰ ما تَسبَّبوا لي فيه من الخير،

---

(١) أي: المَغول.

ونحو هذا.

وكان يقول في سُجُوده وهو محبوسٌ، اللَّهمَّ أَعنِّي علىٰ ذِكرك وشُكرك وحُسنِ عِبادَتِك، ما شاء الله.

وقال لي مَرَّةً: «المحبوس: مَن حُبِس قلبه عن ربِّه تعالىٰ، والمأسور: مَن أَسَره هَواهُ».

ولمَّا دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: ١٣].

وعَلِمَ اللهُ ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قطُّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرَّفاهية والنَّعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتَّهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أَطيب النَّاس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسرِّهم نَفسًا، تَلُوح نَضرَةُ النَّعيم علىٰ وجهه، وكُنَّا إذا اشتدَّ بنا الخوف، وساءت مِنَّا الظُّنُون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلَّا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلُّه، وينقلب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً، فسبحان مَن أشهد عباده جَنَّته قبل لقائه! وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوحها ونسيمها وطِيبِها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليه. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَورع النَّاس وأزهدهم وأكرمهم».

صبره على المحن:

سُجِن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبعَ مَرَّات لمُدَدٍ مُتفاوتةٍ، بلغت جُملتها خمسَ سنواتٍ، أسبابُها كلُّها واهياتٌ، فهي نتيجةُ حسدٍ، ووشايةٍ، وَسِعَاياتٍ.

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام الذَّهبيُّ: «ابن تيمية: الشَّيخ الإمام العالم، المُفسِّر، الفقيه، المجتهد،

الحافظ، المُحدِّث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التَّصانيف الباهرة، والذَّكاء المُفرط».

وقال فيه: «... كان قَوَّالًا بالحقِّ، نَهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائمٍ، ذا سطوةٍ وإقدامٍ، وعدم مداراة الأغيار، ومَن خالطه وعرفه قَد ينسبني إلىٰ التَّقصير في وَصفه... ».

وقال عنه: «... لا يُؤتَىٰ من سوءِ فهمٍ، بل له الذَّكاء المفرط، ولا من قِلَّة علمٍ، فإنَّه بحرٌ زَخَّارٌ، بصيرٌ بالكتاب والسُّنَّة، عديم النَّظير في ذلك، ولا هو بمتلاعبٍ بالدِّين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيءٍ إلىٰ مداهنةِ خُصُومه وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو ينفرد بمسائل بالتَّشهِّي... فهذا الرَّجل لا أرجو علىٰ ما قلته فيه دُنيا، ولا مالًا، ولا جاهًا بوجهٍ أصلًا، مع خبرتي التَّامَّة به، ولكن لا يسعني في ديني ولا في عقلي أن أكتم مَحَاسِنَه، وأدفن فضائله، وأبرز ذُنُوبًا له مغفورةً في سعة كرم الله تعالىٰ.... ».

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **له بعد سماع كلامه:** «ما كنت أظنُّ أنَّ الله تعالىٰ بقي يخلقُ مثلك».

وقال أيضًا: «لمَّا اجتمعت بابن تيمية، رأيت رجلًا العُلُوم كُلُّها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويَدَعُ ما يريد».

وقال ابن الزَّملكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإمام العالم العَلَّامة الأوحد الحافظ، المجتهد الزَّاهد، العابد القدوة إمام الأئمَّة، قدوة الأُمَّة، عَلَّامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدِّين، بركة الإسلام، حُجَّة الأعلام، قامع المبتدعين، محيي السُّنَّة، ومَن عَظُمَت به لله علينا المِنَّة، وقامت به علىٰ

أعدائه الحُجَّة واستبانت ببركته وهَديه».

وكتَب فيه قوله:

مَاذَا يَقُولُ الوَاصِفُونَ لَهُ ... وَصِفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ
هُوَ حُجَّةٌ للهِ قَاهِرَةٌ ... هُوَ بَيْنَنَا أُعْجُوبَةُ الدَّهْرِ
هُوَ آيَةٌ لِلْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ ... أَنْوَارُهَا أَرْبَتْ عَلَىٰ الْفَجْرِ

وقال أبو البقاء السُّبكي: «والله يا فُلانُ، ما يُبغض ابنَ تيمية إلَّا جاهلٌ أو صاحبُ هوىٰ؛ فالجاهلُ لا يدرِي ما يقولُ، وصاحبُ الهوىٰ يَصدُّه هواه عن الحقِّ بعْدَ معرفتِه به».

مؤلَّفاتُه:

مُؤلَّفات الشَّيخ كثيرةٌ يصعب إحصاؤها، وعلىٰ كثرتها فهي لم توجد في بلدٍ مُعيَّنٍ في زمانه، إنَّما كانت مبثوثةً بين الأقطار كما قال الحافظ البزَّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا مُؤلَّفاته ومصنَّفاته، فإنَّها أكثر من أن أقدر علىٰ إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحدٌ، لأنَّها كثيرةٌ جدًّا، كبارًا وصغارًا، أو هي منشورةٌ في البلدان، فَقلَّ بلدٌ نزلتُه إلَّا ورأيتُ فيه من تصانيفه».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا تصانيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهي أشهر من أن تُذكَر، وأَعرف من أن تُنكَر، سَارَت سَير الشَّمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قَد جاوزت حدَّ الكثرة، فلا يمكن أحدٌ حصرها، ولا يَتَّسع هذا المكان لعدِّ المعروف منها؛ ولا ذكرها».

وذكر ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أجوبة الشَّيخ يشقُّ ضبطها وإحصاؤها،

ويعسر حصرها واستقصاؤها، لكثرة مكتوبه، وسرعة كتابته، إضافةً إلىٰ أنَّه يكتب مِن حفظِهِ من غير نقلٍ، فلا يحتاج إلىٰ مكانٍ مُعيَّنٍ للكتابة، ويُسأل عن الشَّيء، فيقول: قَد كتبتُ في هذا، فلا يدري أين هو؟ فيلتفت إلىٰ أصحابه، ويقول: رُدُّوا خَطِّي وأظهروه ليُنقل، فمِن حرصهم عليه لا يَردُّونه، ومِن عَجْزهم لا ينقلونه، فيذهب ولا يعرف اسمه».

فمُؤلَّفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرةٌ جدًّا بحيث عَجَز تلاميذه ومُحبُّوه عن إحصائها، قال تلميذه ابن رشيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا بعد: فإنَّ جماعةً من مُحبِّي السُّنَّة والعلم سألني أن أذكر له ما أَلَّفه الشَّيخ الإمام العَلَّامة الحافظ أوحد زمانه، تقي الدِّين أبو العبَّاس أحمد ابن تيمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فذكرتُ لهم أنِّي عجزت عَن حصرها وتعدادها لوجودِ أَبْدَيتُها لبعضهم، وسأذكرها إن شاء الله فيما بعد... ».

ثمَّ قال: «فمِمَّا رأيته في التَّفسير» فذكر اثنين وتسعين مُؤلَّفًا ما بين رسالةٍ وقاعدةٍ...، ومِمَّا صَنَّفه في الأُصُول مُبتدئًا أو مُجيبًا لمعترضٍ أو سائلٍ - فذكر عشرين مُؤلَّفًا ما بين كتابٍ ورسالةٍ وقاعدةٍ...، ثمَّ قال: «قواعد وفتاوىٰ» فذكر خمسةً وأربعين ومئةً ما بين كتابٍ وقاعدةٍ ورسالةٍ.

ثمَّ «الكُتُب الفِقهيَّة» وسرد خمسةً وخمسين مُؤلَّفًا ما بين كتابٍ ورسالةٍ وقاعدةٍ.

ثمَّ «وصايا وإجازات ورسائل تَتضمَّن عُلُومًا» بلغت اثنتين وعشرين.

وذكر الحافظ ابن عبد الهادي كثيرًا من مُؤلَّفات شيخ الإسلام مع ذِكر نماذج لبعض المُؤلَّفات، والتَّنويه بمكانتها في كتابه: «العقود الدُّرِّيَّة من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية».

ومِن أبرز كتُبه ما يلي:

١ - «الاستقامة».

٢- «اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم».

٣- «بيان تلبيس الجهميَّة».

٤- «الجواب الصَّحيح لمَن بدَّل دين المسيح».

٥- «درء تعارض العقل والنَّقل».

٦- «الصَّفديَّة».

٧- «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القَدريَّة».

٨- «النُّبوات».

وله من الكُتُب والرَّسائل الكثير جدًّا مِمَّا طُبع بعضُه مستقلًّا، وبعضُه في مجاميعَ كبيرةً؛ كمجموع الفتاوىٰ، ومجاميع صغيرة، والكثير منه لا يزال مخطوطًا؛ سواء كان موجودًا، أو في عداد المفقود.

وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لمَّا أُخرج ما عنده من الكُتُب والأوراق، أَقبَلَ الشَّيخُ بعد إخراجها علىٰ العبادة والتِّلَاوة والتَّذكُّر والتَّهجُّد حتَّىٰ أتاه اليقين.

وختم القرآن مُدَّةَ إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدىٰ وثمانين ختمةً، انتهىٰ في آخر ختمةٍ إلىٰ آخر سورة (القمر): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

وفي ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة (٧٢٨ هـ) تُوفِّي شيخ الإسلام بقلعة دمشق الَّتي كان محبوسًا فيها، وأُذِنَ للنَّاس بالدُّخول فيها، ثُمَّ غُسِّل فيها، وَقَدِ اجْتَمَع النَّاس بالقلعة والطَّريق إلىٰ جامع دمشق، وصُلِّي عليه بالقلعة، ثُمَّ وُضِعَت جنازته في الجامع، والجند يحفظونها من النَّاس من شِدَّة

الزِّحام، ثُمَّ صُلِّي عليه بعد صلاة الظُّهر، ثُمَّ حملت الجنازة، واشتدَّ الزِّحام، فقد أَغلَقَ النَّاس حوانيتهم، ولم يتخلَّف عن الحضور إلَّا القليل من النَّاس، أو مَن أعجزه الزِّحامُ، وصار النَّعْش علىٰ الرُّؤوس، تارةً يتقدَّم، وتارةً يتأخَّر، وتارةً يقف حتَّىٰ يمرَّ النَّاس، وخرج النَّاس من الجامع من أبوابه كلِّها وهي شديدة الزِّحام.

قال أهل التَّاريخ: لم يُسمع في جنازةٍ بمثل هذا الجَمع إلَّا جنازة الإمام أحمد بن حنبل.

وقال ابن رجب: «وصُلِّي عليه صلاةُ الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتَّىٰ في بلاد اليمن والصِّين، وأُخبِر المسافرون أنَّه نُودِي بأقصىٰ الصِّين للصَّلاة عليه يوم الجُمُعة: الصَّلاة علىٰ ترجمان القرآن».

ومِمَّا قاله الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رثائه:

يَا مَوْتُ خُذْ مَنْ أَرَدْتَ أَوْ فَدَعِ ... مَحَوتَ رَسْمَ الْعُلُومِ والوَرَعِ
أَخَذْتَ شَيْخَ الإِسْلَامِ وَانْفَصَمَتْ ... عُرَىٰ التُّقَىٰ وَاشْتَفَىٰ أُولُو الْبِدَعِ
غَيَّبْتَ بَحْرًا مُفَسِّرًا جَبَلًا ... حَبْرًا تَقِيًّا مُجَانِبَ الشِّبَعِ
أَسْكَنَهُ اللهُ فِي الجِنَانِ وَلَا ... زَالَ عَلِيًّا فِي أَجْمَلِ الخِلَعِ
مَضَىٰ ابْنُ تَيمِيَةَ وَمَوْعِدُهُ ... مَعْ خَصْمِهِ يَوْمَ نَفْخَةِ الفَزَعِ

مصادر ترجمته:

«العقود الدُّريَّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية»، لابن عبد الهادي.

«الشَّهادةُ الزَّكيَّة في ثناء الأئمَّة علىٰ ابن تيمية»، لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي.

«المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، لابن مفلح.

«الذَّيل علىٰ طبقات الحنابلة»، لابن رجب.

«شذرات الذَّهب في أخبار مَن ذهَب»، لابن العماد.

«الأعلام العليَّة في مناقب ابن تيمية»، للحافظ عمر بن علي البزار.

«الوابل الصَّيِّب من الكلِم الطَّيِّب»، لابن قيِّم الجوزية.

«الرَّدُّ الوافر»، لابن ناصر الدِّين الدِّمشقي.







مقدّمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

التعليق:

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نَبيِّه الكريم نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين:

فهذه العقيدةُ كانت إجابةً علىٰ سؤالٍ وَرَدَ علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مدينة واسط، وهذا سببُ تَسميتها بـ«العقيدة الواسطيَّة» حسب ما عِلمْنا، كتب هذه العقيدة ما بين صلاة العصر والمغرب، ولذلك فإنَّ بعضَ المُدرِّسين يقول للطُّلَّاب حينما كانت هذه العقيدة مُقرَّرةً في السَّنة كاملةً، وبعضهم يرسب فيها؛ فيقول لهم بعض المُدرِّسين: هذه العقيدة كَتَبها مُؤلِّفها فيما بين العصر والمغرب، وأنتم تجلسون فيها سنةً كاملةً، والبعض منهم لا ينجح!

قوله: «**فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ**»:

أقول: هذا مأخوذٌ من قول النَّبيِّ ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي قائمةً بأمرِ اللهِ، لا يضرُّهُمْ مَنْ خذلَهُمْ أوْ خالفَهُمْ، حتَّى يأتِيَ أمرُ اللهِ وهُمْ ظاهرُونَ على النَّاسِ»(١).

قوله: «وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ»:

أقول: إنَّ الإيمان بالله، منه الإيمان بوجوده أوَّلًا، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق لهذا الكون، والمُتصرِّف فيه، والأدلَّةُ علىٰ ذلك كثيرةٌ، فقد عرَض القرآن منها أدلَّةً كثيرةً بأساليبَ مُتعدِّدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ [الغاشية: ١٦ - ١٩]، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

وثانيًا: الإيمان بِوحدانيَّته في الأُلوهيَّة، وأنَّه هو المُتصرِّف في هذا الكون، وأنَّ العباد كلَّهم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعًا، أو أن يدفعوا عنها ضرًّا، كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن ذكر عظمته وقُوَّته وقدرته علىٰ تصريف هذا الكون: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وكقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٤١)، ومسلمٌ (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ له.

وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

وثالثًا: الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة إيمانًا بها، وبما دلَّت عليه في اللُّغة العربيَّة من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تحريفٍ، وهذا كلامٌ مجملٌ، وإلَّا فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَيتكلَّم عن هذا الموضوع كلامًا وافيًا فيما بعدُ.

قولُه: «وَمَلَائِكَتِهِ»؛ أي: الإيمان بأجناسهم، فمِنهم حَمَلة العرش، ومنهم جبريل المُوكَّل بالوحي، وميكائيل المُوكَّل بالأرزاق والنَّبات، وإسرافيل المُوكَّل بالنَّفخ في الصُّور، ومَلَك الموت المُوكَّل بقبض الأرواح، ومنهم خَزَنة النَّار... إلىٰ غير ذلك من أنواع الملائكة.

وأعدادهم لا يُحصيها إلَّا الله الَّذي خَلقهم، وقَد جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليلةَ أُسري به قال: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وهذا لفظ مسلمٍ[(١)].

قوله: «وَكُتُبِهِ»: الكُتب هي الكتب المُنزَلَّة علىٰ الأنبياء؛ كَصُحُف إبراهيم، وتوراة موسىٰ، وزبور داود، وإنجيل عيسىٰ - عليهم الصَّلاة والسَّلام -؛ والقرآن هو آخرُ كتابٍ أنزل من عند الله، وهو المهيمن عليها، فنؤمن بالكتب الأولىٰ إجمالًا، ونؤمن بكتابنا القرآن إيمانًا مفصَّلًا بكلِّ ما جاء فيه.

قوله: «وَرُسُلِهِ»: الرُّسل عَدَدهُم كثيرٌ، يُقَال: إنَّهم ثلاث مئة وبضعة عشر[(٢)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، واللفظ له.

(٢) جاء في حديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٨ قرطبة) (٢١٥٨٦) عن أبي ذر رضي الله عنه: «... قلتُ: =

وأشرفهم أولو العزم، وهم: نوحٌ، وإبراهيم الخليل، وموسىٰ الكليم، وعيسىٰ، ومُحمَّدٌ - صلوات الله وسلامه عليهم -؛ فنؤمن بالرُّسل المُتقدِّمين إجمالًا، ونؤمن برسولنا مُحمَّدٍ ﷺ إيمانًا مفصَّلًا في كلِّ ما جاء به.

قوله: «**وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ**»؛ أي: نؤمن بيوم القيامة، وبأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سيُعيدُ هذه الأجساد، ويجزي كلًّا منهم بما عمل.

قوله: «**وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»؛ أي: بأنَّ كلَّ المقادير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ الخيرُ من الله فضلًا، والشَّرُّ منه عدلًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشُّورىٰ: ٣٠].

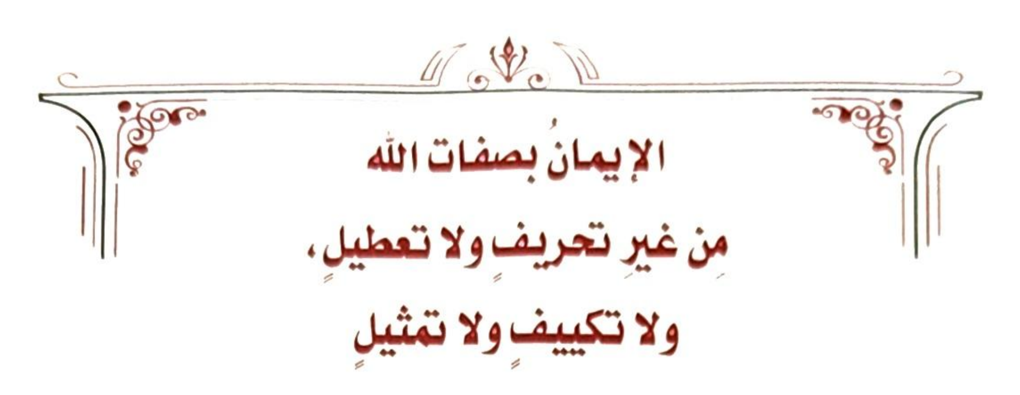


=

فأيُّ الأنبياءِ كَانَ أَوَّل؟ قال: «آدَمُ»، قلتُ: أَوَنَبِيٌّ كَانَ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ» قلتُ: فكَمْ المُرْسَلُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «ثَلَاثَ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا». وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٥٧٣٧).

وجاء بلفظٍ آخر في «المسند» أيضًا (٥/ ٢٦٥) (٢٢٣٤٢): قال: «قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، كَمْ وَفَّىٰ عِدَّةُ الأَنْبياءِ؟ قال: «مِئَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا».





الإيمانُ بصفات الله
من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ.

التعليق:

قوله: «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ»:

هذا قد تقدَّم الكلام عليه في قولنا: «**وثالثًا**: الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة إيمانًا بها، وبما دلَّت عليه في اللُّغة العربيَّة من غير تكييفٍ، ولا تمثيل، ولا تأويل، ولا تعطيل، ولا تحريفٍ».

التَّحريف: هو تغيير الشَّيء عمَّا يُرَاد به، مأخوذٌ من الانحراف، وهو الالتفاف، **وهو ينقسم إلىٰ قسمين:**

١- **تحريفُ اللَّفظ.**

٢- **تحريفُ المعنىٰ.**

فمثال تحريف اللَّفظ أَن يُقال بدل «استوىٰ»: «استولىٰ».

والتَّعطيل: معناه نفي صفات الكمال عن الله عَزَّوَجَلَّ ادِّعاءً للمشابهة لها.

والتَّأويل: هو تأويلها باللَّازم، وهو التحريف للمعنىٰ، وهو كثيرٌ عند الأشاعرة؛ كتأويلهم المَحبَّة بالإكرام، والبغض بإرادة الانتقام، وما أشبه ذلك.

والتَّكييف: هو أنْ تذكر الكيفيَّة في صفة الله عَزَّوَجَلَّ، علمًا بأنَّ السَّلف - رحمهم الله - يؤمنون بالصِّفة علىٰ معناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ولكنَّهم يُفوِّضون كَيفيَّتها إلىٰ الله سبحانه، فمثلًا صفة الاستواء: «لمَّا سُئل مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكيف استوىٰ؟ فقال مالكٌ: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ»؛ أي: أنَّ الاستواء في اللُّغة العربيَّة معناه معلومٌ، وهو العُلوُّ والاستقرار، لكن الكيفيَّة مجهولةٌ، لا يعلمها العباد، بل يَعتَبرون السُّؤال عنها بدعةً، ولهذا قال مالكٌ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ، وما أراك إلَّا رجل سوءٍ، أخرجوه، فأُمر به فأُخرج»[1].

فالسَّلف الصَّالح - رحمهم الله - يؤمنون بالصِّفة علىٰ ما يقتضيه المعنىٰ في

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٢/ ٣٠٥ - ٣٠٦ برقم ٨٦٧ الحاشدي)، وفي «الاعتقاد» (ص١١٩ أبو العينين).

ورواه البيهقي أيضًا في «الأسماء والصِّفات» (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥ برقم ٨٦٦) عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب قال: كنتُ عند مالك فدخل رجل فقال، فذكر نحوه. وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في «العلوِّ للعلي العظيم» (ص١٣٨ أشرف عبد المقصود). وذكره الذَّهبي من رواية جماعة عن مالك، وقال: «هذا ثابت عن مالك». وقال الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٤٠٧ المعرفة): «إسنادُه جيِّد». وصحَّحه الألبانيّ في «مختصر العلوِّ»: ص (١٤١ - ١٤٢). وانظر للتَّوسّع كتابَ: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة الاستواء» للشيخ عبد الرَّزَّاق العبَّاد حفظه الله.

اللُّغة العربيَّة، ويُفوِّضون الكيفيَّة، فالكيفيَّة لا بدَّ أنَّها واقعةٌ، ولكن لا يعلمها إلَّا الله، وفي هذا المعنىٰ ألَّف أحدُ المشايخ رسالةً، وهو الشَّيخ رضا نعسان، صِهْر الشَّيخ الألباني علىٰ ابنته، وكانت هذه رسالة ماجستير له في جامعة أمِّ القرىٰ، وقدَّم لها الشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

كذلك يُنزِّهون الله عن التَّمثيل؛ لأنَّ التَّمثيل مُقتضٍ للتَّشبيه، فمَن قال: استوىٰ مثل استوائي؛ فهو مُشبِّهٌ، ومعلومٌ أنَّ الأشاعرة يُؤوِّلون الصِّفات باللَّازم منها؛ فمثلًا يقولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤]، أي: يكرمهم، علمًا بأنَّ المحبَّة صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

والإكرام هو: فعل الله عَزَّوَجَلَّ بعباده المؤمنين؛ إذ إنَّه يكرمهم بالثَّواب والجنَّة، فيكون الإكرام مِن لازم المحبَّة، ففسَّروا المحبَّة به، فهذا تفسيرٌ باطلٌ، والذي حَمَلهم علىٰ هذا التَّأويل، هو الَّذي حَمَل الجهميَّة والمعتزلة علىٰ التَّعطيل؛ حيث زعموا أنَّهم يُنزِّهون الله عَزَّوَجَلَّ عن مشابهة المخلوقين، والحقيقة أنَّ الاتِّفاق في اسم الصِّفة لا يقتضي الاتِّفاق في حقيقتها.

فمثلًا: إذا قلنا بأنَّ الله حيٌّ، والمخلوق يُسمَّىٰ حيًّا أيضًا، فهل الاتِّفاق في اسم «الحيِّ» مُقْتضٍ للاتِّفاق في حقيقة الحياة بين الخالق والمخلوق؟ **الجواب:** لا، فحياة الله عَزَّوَجَلَّ غير حياة المخلوقين؛ إذ إنَّ حياة الله عَزَّوَجَلَّ لم يسبقها عدمٌ، ولم يَتبعها فناءٌ، ولا تحتاج إلىٰ مَن يقوم بها، أي: لا تحتاج إلىٰ مُؤثِّرٍ يُؤثِّر فيها، أمَّا حياة المخلوق فقد سُبِقَت بالعدم، وأُتْبِعَت بالفناء، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

---

(١) وعنوان هذه الرِّسالة: «علاقة الإثبات والتفويض بصفات ربِّ العالمين». ط/ دارالهجرة.

فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]، وهي في ذلك بحاجةٍ إلىٰ مُوجدها، وبحاجةٍ إلىٰ حِفظ وُجُودها، فالله أَوجَدَ الخَلق، فهو الَّذي يحفظ وُجُودَهم بما شاء، فَتَبيَّن من هنا أنَّ اسم «الحيِّ» في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، واسم «الحيِّ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، غير اسم «الحيِّ» الَّذي يُوصَف به المخلوق في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩].

قوله: «بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»:

في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]، جَمَع الله بين النَّفي والإثبات؛ فالنَّفي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والإثبات في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، فنفىٰ المماثلة بينه وبين خَلقه نفيًا عامًّا في كلِّ شيءٍ، فلا مُمَاثلة، ولا مُشابَهة بينه تعالىٰ وبين خَلقه، فمَن زعم أنَّ مَن أثبت شيئًا من الصِّفات فقد شبَّهَ الله بِخَلقهِ، فَزَعْمُهُ هذا باطلٌ، ومَن زعم أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة مُشبِّهةٌ، فزعمُهُ أيضًا باطلٌ، لأنَّ أهل السُّنَّة إذا أثبتوا صفات الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّما يُثبِتُونها علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله تعالىٰ، مُتصوِّرين هذه الآية الَّتي جمعت بين النَّفي والإثبات، فنفت المماثلة بينه وبين خَلقه، فكلُّ ما يدور في الخيال، ويَتصوَّره العقل فالله بخلافه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وأثبت له السَّمع والبصر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فدلَّ هذا علىٰ وجوب النَّفي والإثبات في عقيدة المُكلَّفين، فينفون عن الله النَّقائص، وتشبيهُهُ بخَلقه منقصةٌ في حقِّه، وذلك لا يجوز، وإثبات السَّمع والبصر في حقِّه إثبات كَمالاتٍ.

قوله: «**وَلا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ، وَلا يُكَيِّفُونَ وَلا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ**»:

الإلحاد هو: الميل، ولهذا سُمِّي اللَّحد لَحْدًا؛ لأنَّه يُمَال به عن سَمْت القبر، فمَن حرَّف كلام الله، وحاول تحريف صفاته أو شبَّهها بصفاتِ خَلقه؛ فقد ألْحَد في أسماء الله وصفاته.

قوله: «**لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ لا سَمِيَّ لَهُ، وَلا كُفءَ لَهُ، وَلا نِدَّ لَهُ**»:

هذه الثَّلاث منفيَّةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ:

١- أنَّ الله لا سَمِيَّ له، قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، فهذا استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنىٰ أنَّه لا يُعلَم له سَمِيٌّ.

٢- أنَّ الله لا كفء له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، فنفىٰ المكافأة بينه وبين خَلقه مهما كانوا.

٣- أنَّ الله لا ندَّ له، والنِّدُّ هو المساوي أو المشابه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ندَّ له، لا في ذاته، ولا في صفاته، وإذا كان الإيمان بالله إيمانًا بالغيب، فإنَّ افتراضات العقول وقياسات الأذهان مَنفيَّةٌ عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إذ لا تتصوَّره العقول، ولا تقيسه الأذهان، فمَن أراد أن يستعمل شيئًا من ذلك في حقِّ الله تعالىٰ؛ فقد ضلَّ، فلا سبيل إلىٰ معرفة أسماء الله وصفاته إلَّا من طريق كتابه الَّذي أنزله، ومن طريق رسوله الَّذي أرسله، أمَّا غير ذلك فلا يمكن لأحدٍ أن يقول شيئًا في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، ومَن فَعَل ذلك فقد ضلَّ.



الله أعلم بنفسه وبخلقه

وَلا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ **فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لا يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

التعليق:

قوله: «فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ»:

لأنَّه لا يستطيع أحدٌ أن يعرف كُنه ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا ما أخبرنا به عن نفسه، فمَن يقول علىٰ الله في وَصفه بصفاتٍ له لم يَقُلها، لا هو ولا رسوله؛ فإنَّه يُعتبَر قَدِ افترىٰ علىٰ الله، وأَوبَقَ نفسه.

قوله: «وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا»؛ أي أنَّ قِيلَه أصدق القيل وأعدله، وحديثه أحسن الحديث وأعذبه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقد وَصَف الرَّسول ﷺ كلام ربِّه أنَّه صدقٌ لا كذِب فيه، وعدلٌ لا جَورَ فيه، وقال ﷺ: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»**[1].

وقوله: «ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يَعْلَمُونَ»: الرُّسل صادقون بأنفسهم، مُصدَّقون، يعني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوحي إليهم من طريق أمينه جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فما أوحاه الله إليهم وثبت، فالواجب أَخْذه، علمًا بأنَّ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ لا بدَّ أن تكون حسنىٰ؛ فما وُصِفَ الله به، لكنَّه عَرِيَ عن كونه مُتَّصفًا بالحسنىٰ، فإنَّه لا يُوصَف به جَلَّ وَعَلَا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وما لم يكن كذلك فلا يُؤخَذ منه اسمٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ فمثلًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩]، فعبَّر عن نفسه بشيءٍ، لكن لا يُقَال أنَّ «شيء» من أسمائه الحسنىٰ، ومثل قوله: «**لا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ**»[1]، فلا يُسمَّىٰ الله بشخصٍ؛ لأنَّ ذلك لا يكون فيه المدح الَّذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يُسمَّىٰ بما يشتمل علىٰ المدح.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، وقوله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢].

فهذه الصِّفات لا يُؤخَذ منها اسمٌ؛ لأنَّها حينما أُطْلِقَت علىٰ الله، كان المقصود بها المقابلة، فلا يُقال في حقِّ الله: كائد، ولا ماكر، ولا مخادع؛ لأنَّ تلك الصِّفات تكون صفاتِ نقصٍ إذا عريت عن كونها مقابلةً لمكرهم بمَكرِهِ، وكيدهم بكيده، وخداعهم بخداعه، وإنَّما يُجعَل له اسمٌ أشعر بمدح، وكمالٍ، وجلالٍ.

إذًا؛ فرُسُل الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما يُثبتون له الأسماء المُتضمِّنة للكمال والحسن؛ امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

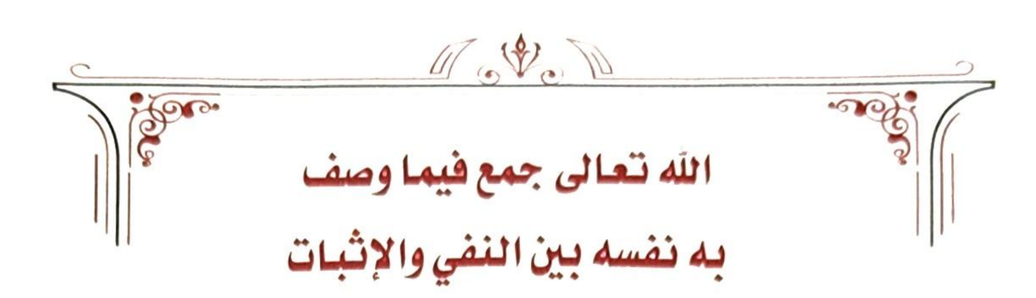
---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٩) مِن حديث المغيرة بن شُعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالله غالبٌ علىٰ أمره، وقاهرٌ لعباده، ومُتَّصفٌ بصفات الكمال جميعًا، ولهذا قال جلَّ من قائل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، فأخبر بأنَّ رُسُله يصفونه بالكمالات، وَحَمِدَ نفسه علىٰ ذلك بعد أن نَزَّهها بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ والتَّنزيه نفي النَّقص والعيب، والحمدُ هو إثباتُ الكمالات لله تعالىٰ، ولهذا قيل: النَّفي المُجمل، والإثبات المُفصَّل، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا نفيٌ مجملٌ، أمَّا الإثبات فهو مُفصَّلٌ، فقد أثبت لنفسه السَّمع، والبصر، واليدين، والوجه، والرِّجل، وهكذا في سائر الصِّفات.







الله تعالى جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ: النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

التعليق:

قوله: «فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ»؛ أي: نزَّهها عمَّا يصفه به المخالفون للرُّسُل من أوصافٍ لا تليق بجلاله؛ كقولهم: الملائكة بنات الله، وما أشبه ذلك من الأقوال الَّتي تثير غضب الله، وتجلب مَقْتَه لهم، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٥].

وقوله: «وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ»: لأنَّهم لا يصفونه إلَّا بما وَصَفَ به نفسه؛ لأنَّهم هم المُبلِّغون عنه، فلا يقولون عليه غير ما أَوحاه إليهم.

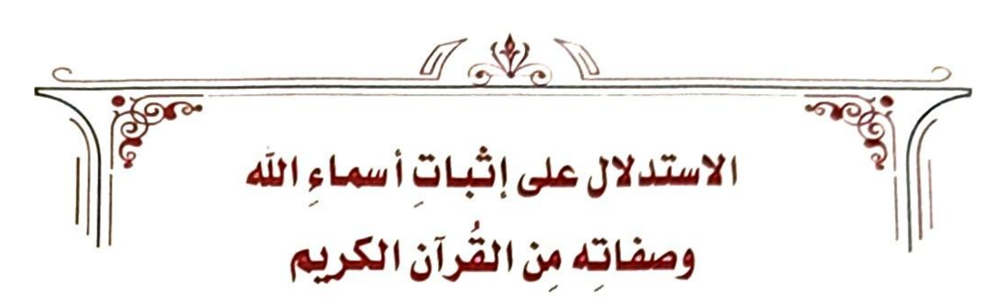
قوله: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ: النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ»:

ففي الإثبات قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥].

وفي النَّفي قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: «**فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ**»: أهل السُّنَّة والجماعة هم أتباع نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ لا يقولون إلَّا بما قاله الرُّسُل، ولا يُثْبِتون له سبحانه إلَّا ما أثبته لنفسه، وينفُون عنه كلَّ النَّقائص الَّتي لا تليق بجلاله.





الاستدلال على إثباتِ أسماءِ الله وصفاتِه مِن القُرآن الكريم

١- الجمع بين النَّفي والإثبات في وصفه تعالى:

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ - أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ - ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَلِهَذَا كَانَ: «مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ يُصْبِحَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ.

فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ

التعليق:

قال المُؤلِّف: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]»:

ففي قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إثبات الأَحَديَّة لله بأنَّه واحدٌ في أسمائه، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في ذاته؛ فهو أحدٌ بمعنىٰ أنَّه مُتوحِّدٌ، لا يشبهه أحدٌ من المخلوقين، ولا يُشبِه أحدًا من المخلوقين.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فسَّر «الصَّمد» بتفسيرين[1]:

=

وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّىٰ تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّىٰ تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ».

(١) انظر: «تفسير الطَّبري» (٢٤/ ٧٣١ هجر)، «تفسير البغوي» (٨/ ٥٨٨ طيبة)، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨ طيبة)، «تفسير ابن رجب» (٢/ ٦٦٦ العاصمة).

التَّفسير الأوَّل: الصَّمد هو السَّيِّد الَّذي كَمُل في سؤدده، وشرفه، وعظمته، الَّذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ولذلك فإنَّ الخلائق جميعًا تَصمد إليه؛ أي: تقصده في حاجاتها، ومهمَّاتها، وخلاصة هذا بأنَّه المقصود في الحوائج.

التَّفسير الثَّاني: الصَّمد في اللُّغة العربيَّة الَّذي ليس بأجوف؛ أي: ليس له جوفٌ، وكلاهما جائزٌ؛ أي: ليس بأجوف أو ليس له جوفٌ، ونحن نقول: إذا لم يكن له تجويفٌ، نقول له: مُصَمَّد، فالله سبحانه مُنزَّهٌ عن التَّجويف.

فهاتان الصِّفتان: الأحديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ووصفه بأنَّه صمدٌ، صفتا إثبات لله تعالىٰ، وهو كونه أحدًا في كماله وصفاته، ولذلك كان مقصودًا في الحوائج، منفردًا بقضائها.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ هاتان صفتا نفي عن الله تعالىٰ، فهو سبحانه منفردٌ بالخَلق والإيجاد.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ الولادة صفة نقص في حقِّ الله، ولذلك فهي منفيَّةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كذلك كونه وُجِد من شيءٍ، هذا منفيٌّ عن الله، بل إنَّ نسبة ذلك إلىٰ الله أمرٌ عظيمٌ، وذنبٌ كبيرٌ يوجب غضب الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٣].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ أي: ليس له مكافئٌ، لا في ذاته، ولا في صفاته.

والمكافئ: هو النِّدُّ أو المساوي، فالله تعالىٰ ليس له مماثلٌ، ولا نظيرٌ، جلَّت قدرتُهُ، وتَقدَّست أسماؤه، وتَعالت صفاتُهُ.

فقد جمع في هذه السُّورة النَّفي والإثبات، ولمَّا كانت هذه السُّورة خالصةً في صفات الله عَزَّوَجَلَّ، كانت أفضل سور القرآن، فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال عن سورة (الإخلاص): «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»[1] ، وكذلك آية الكرسي، فهي أعظمُ آيةٍ في كتاب الله، والَّتي ضمَّت عشر جملٍ:

١- **قوله:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه جملةٌ.

٢- **قوله:** ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هذه جملةٌ.

٣- **قوله:** ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ هذه جملةٌ.

٤- **قوله:** ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه جملةٌ.

٥- **قوله:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ هذه جملةٌ.

٦- **قوله:** ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ هذه جملةٌ.

٧- **قوله:** ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ هذه جملةٌ.

٨- **قوله:** ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ هذه جملةٌ.

٩- **قوله:** ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ هذه جملةٌ.

١٠- **قوله:** ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هذه جملةٌ.

فالجملة الأولىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحتوي علىٰ نفيٍ وإثباتٍ، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي الأُلوهيَّة عن غيره، ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثباتها له سبحانه.

والجملة الثَّانية: قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وَصفه بالحياة والقَيُّوميَّة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومعنى القَيُّوميَّة: أنَّه قائمٌ بنفسه، مُستغنٍ عن غيره.

والجملة الثَّالثة: قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ السِّنَة هي الغفلة والنِّسيان والنُّعاس، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ أي: كذلك لا يأخذه النَّوم؛ لأنَّ النَّوم أخو الموت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيٌّ قَيُّومٌ، مَنفيَّةٌ عنه جميع النَّقائص، ومنها السِّنَة والنَّوم.

والجملة الرَّابعة: قوله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا إثباتٌ لِملكيَّته لما في السَّموات وما في الأرض؛ فكلُّها مملوكةٌ لله، السَّماوات ومَن فيها، والأرض ومَن فيها، وما بينهما، كلُّها مِلكٌ له.

والجملة الخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿مَن﴾ هنا اسمُ استفهام، والاستفهام هنا إنكاريٌّ؛ أي: لا أحدَ يشفع عنده إلَّا بإذنه، ونعلم أنَّ الشَّفاعة لا تُطلب من الشَّافع، فلا يجوز أن تقول مثلًا: يا رسول الله، اشفع لي، ولكن تُطلَب من الله عَزَّوَجَلَّ، فتقول: اللَّهمَّ شَفِّع فيَّ عبدَك ورسولك مُحمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والجملة السَّادسة: قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذا فيه إثبات علم الغيب الماضي والمستقبل، وليس هناك أحدٌ يعلم الغيب غير الله، قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]؛ أي: أنَّه يُطلع رُسُله على بعض الغيب ليُعلم به صدقهم في الرِّسالة.

والجملة السَّابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ هذا فيه نفي العلم عن الإنسان إلَّا بما علَّمه الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقال في سورة (العلق):

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢].

ثمَّ قال تعالىٰ في الجملة الثَّامنة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، هذه الجملة تدلُّ علىٰ العظمة.

فإذا كان الكرسيُّ يسع السَّموات والأرض، فما بالك بالعرش.

والكرسيُّ يُقَال: إنَّه موضع القدمين، وهو دون العرش، وقد جاء في الحديث: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَىٰ الْحَلْقَةِ**»[1]. وفي روايةٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**»، قال: وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**»[2].

والجملة التَّاسعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يكرثه[3]، ولا يثقله حفظهما، أي: حفظ السَّموات والأرض ومَن فيهما، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في «صحيحه» (٣٦١) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وصحّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بمجموع طرُقه في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩).

(٢) أخرجه الطَّبريُّ في «تفسيره» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشَّيخ في «العظَمة» (٢/ ٥٨٧ العاصمة)، وأشار الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ تقويته بمجموع طرقه، انظر: «السِّلسلة الضعيفة» (١٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩) تحت رقم (٦١١٨)، و«السِّلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٣) كرث الأمر ويكرثه كرثًا، وأكرثه: ساءَه، واشتدَّ عليه، وبلَغ منه المشقَّة، قال الأصمعيُّ: «ولا يقال: كرثه، وإنما يقال: أكرثه». «لسان العرب» (٢/ ١٨٠). وانظر: «تفسير الطَّبريِّ» (٤/ ٥٤٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٨١).

والجملة العاشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه إثبات العُلوِّ لله جَلَّ وَعَلَا؛ عُلوِّ الذَّات، وعُلوِّ القَدر، وعُلوِّ القَهر، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

ووصف نفسه بالعظمة؛ عظمةِ الذُّات، وعظمة الكبرياء لله جَلَّ جَلَالُهُ، وتَقدَّست أسماؤه، وتعالت صفاته؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، ولا تَخفىٰ عليه أسئلة السَّائلين في كلِّ وقتٍ، وبكلِّ لسانٍ.

❁ ❁ ❁

٢- الجمعُ بين علوه، وقُربِه، وأزليَّته، وأبديَّته:

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ٣]، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١].

التعليق:

قولُه سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نفسه بأنَّه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ وهذا يُفسِّره الحديث الصَّحيح: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[1]. فقد فسَّر هذا الحديثُ هذه الآية بأنَّ أَوَّليَّة لله عَزَّوَجَلَّ أَوَّليَّةٌ مطلقةٌ، فهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ، وآخريَّته آخريَّةٌ مطلقةٌ، فهو الآخر الَّذي ليس بعده شيءٌ.

فهذا قاطعٌ لكلِّ كلامٍ، ومانعٌ لكلِّ تقديرٍ، أَوَّليَّةٌ مطلقةٌ، وآخريَّةٌ مطلقةٌ، سيفنىٰ هذا الكون، يفنيه الله عَزَّوَجَلَّ، ويَبقىٰ وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. فحين يُفْني الله هذا الكون ومَن فيه، يكون هو الباقي، لا يجري عليه فناءٌ، وليس لأوَّليَّته ابتداءٌ، وبعد ذلك يَطوي السَّموات بيمينه، والأرضين بيده الأخرىٰ، ثمَّ يقولُ: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»[1].

والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، ثمَّ بعد ذلك يحيي الله الموتىٰ، ويحشرهم علىٰ أرض الموقف، ويفصل بينهم، فيجازي كُلًّا بعملِه؛ فريقٌ في الجنَّة، وفريقٌ في السَّعير.

أمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظَّاهر أي: الَّذي ليس فوقه شيءٌ، ظاهرٌ بآياته كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإنِ اتَّجهْتَ ببصرك إلىٰ السَّماء تُقلِّبه فيها، سترىٰ العجب العُجاب!! مَنِ الَّذي حفظ هذه السَّماء مَبنيَّةً فوق الأرض بدون عَمَدٍ؟ ومَنِ الَّذي أجرىٰ الكواكب، والشَّمس والقمر؟ ومَنِ الَّذي سخَّر السَّحاب بين السَّماء والأرض وأنزل منه المطر؟ ومَنِ الَّذي حوَّل النُّطفَة الَّتي خُلِقَ منها الإنسان إلىٰ هذا الخَلق العظيم؟!

قَلِّب ببصرك، وفكِّر بعقْلِك، فسترىٰ آلاف الأدلَّة، بل عشرات الآلاف من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأدلَّة، بل الملايين علىٰ أنَّ الصَّانع لهذا الكون هو العليم الحكيم الَّذي عَلِمَ كلَّ شيءٍ، وخَلق كلَّ شيءٍ، فأحسن خَلْقه، وأعطىٰ كلَّ شيءٍ قَدْره(١).

ثمَّ هو الباطن الَّذي يطَّلع علىٰ البواطن، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّه جَلَّ وَعَلَا كما وَصَف نفسه بالظَّاهر الَّذي ليس فوقه شيءٌ، وصف نفسه بالباطن الَّذي ليس دونه شيءٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾:

هذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الله حيٌّ، وأنَّه لا يموت كما تموت المخلوقات، فكلُّ مخلوقٍ يموت، واللهُ حيٌّ لا يموتُ كما تقدَّم لنا في تفسير آية سورة (الحديد)، والأمر بالتَّوكُّل علىٰ الحيِّ الَّذي لا يموت، وفيه أنَّ مَن يموت لا يجوز التَّوكُّل عليه؛ لأنَّه سَيُضيِّع مَن توكَّل عليه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الحيُّ الَّذي لا يموتُ، فَالتَّوكُّل عليه هو الحقُّ.

أيَا مَن أردتَ النَّصيحة، وأردتَ الحقَّ، توكَّل علىٰ الحيِّ الَّذي لا يموت، وفوِّض إليه أمرك، واجعلْ إليه إذعانك، وتوجَّه إليه بقلبك، يكفيك عن غيره.

ثمَّ إنَّ التَّوكُّل عليه تَوكُّل علىٰ الحكيم الخبير الَّذي له الحكمة في مجريات الأمور، وهو الخبير بكلِّ شيءٍ من بواطن الأمور، وظواهرها، فهذان الاسمان يَتضمَّنان صفتان من صفاته:

---

(١) انظر - أخي الكريم - كتاب شيخنا أحمد النَّجميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صيحة حقٍّ في صماخ الباطل»، حيثُ تكلَّم عن مثل ذلك تحت عنوان: (حوار مع مُلحدٍ)، وهي أرجوزةٌ نظمَها الشَّيخُ قديمًا، فرحمهُ الله رحمةَ الأبرار.

- **وهما الحكمة**؛ ومعنىٰ الحكمة: وَضع الأشياء في مواضعها.

- **والخبير**: الَّذي يعطي كلَّ مخلوقٍ ما يكون بحاجةٍ إليه، انظر كيف خَلَق الله للعبد قَدَمًا، وجَعَل في القدم أصابع وهو في بطن أمِّه، خلق له ذلك؛ لأنَّه يعلم أنَّه سيمشي علىٰ الأرض، وخَلَق له اليد وفيه الأصابع؛ لأنَّه يعلم أنَّه سيتحرَّك بهذه اليد، فيقبض بها، ويأكل بها، ويشرب بها، ويكتب بها، فمن ليست له أصابع كيف يكتب؟ جعل الله له في بطن أمِّه ذلك؛ لأنَّه علم أنَّه سيحتاج إلىٰ هذه الأشياء متىٰ استقلَّ بنفسه، أليس الَّذي فعل ذلك خبيرًا؟! بلىٰ.

أليس الَّذي فتح الفم للعبد، وجعل فيه الأسنان والأضراس خبيرًا بأنَّه سيأكل؟ وجعل المعدة الَّتي تستقبل ما جاء إليها، ثمَّ تهضمه، ثمَّ تُوزِّعه علىٰ أصعدةٍ ثلاثةٍ: الفضلات: وتخرج من طريق الدُّبُر غائطًا، ومن طريق المثانة بولًا، أمَّا الغذاء: فإنَّها تُحوِّله إلىٰ الكبد ليُحوِّله إلىٰ الدَّم، ومِن هناك تُكرَّر في القلب، ثمَّ يرسل إلىٰ الخلايا بالجسم[(١)].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ٣]؛ أي: عليمٌ بكلِّ ما في السَّموات وما في الأرض، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمر عباده فيهما، فهو يعلم بكلِّ ما يصدر عنهم من حَسَنٍ، أو قبيحٍ، أو طاعةٍ، أو معصية.

وفي ذلك أيضًا إثبات الحكمة لله عَزَّوَجَلَّ، فهو حكيمٌ في خَلقه، وحكيمٌ في أمره وشرعه، يضع كلَّ شيءٍ في موضعه. ومَن تَفكَّر في نفسِه، ورأىٰ حكمةَ الله، وعرف شواهدها في نفسِه، عظَّم ربَّه؛ لعظمتها في نفسه، فسبحانه ما أعظمه وأجلَّه!!

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١]؛ اقتران اسم (الحكيم) بـ(الخبير) أو

---

(١) **انظر**: (حوار مع مُلحدٍ) مِن كتاب شيخنا: «صيحةُ حقٍّ في صماخ الباطل»، والذي سبقتْ الإشارة إليه قريبًا.

بـ(العليم) يدلُّ علىٰ أنَّ حكمته تعالىٰ عن علمٍ وخبرةٍ، تضع الأشياء في مواضعها، فلا تكادُ ترىٰ شيئًا مِن حكمة الله في غير موضعها اللّائق بها.

❁❁❁

٣- إحاطةُ علْمِه بجميع مخلوقاتِه:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام: ٥٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨].

التعليق:

وأقول: قد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ علمه قد أحاط بالأشياء جميعًا: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لنتفكَّر كيف خلق الله الأرض هشَّةً نستطيع أنْ نحفرَ فيها، ونُغيِّب ما نحتاج إلىٰ تغييبه فيها من الموتىٰ والفضلاتِ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦)﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]، أي: الأرض تَكْفِتُ ما غُيِّب فيها، فنحفر القبور للموتىٰ، ونُغيِّبهم فيها، ويحفر للفضلات، ونُغيِّبها فيها، فلو كانت الأرضُ صلبةً، هل نستطيع ذلك؟ هل سنعيش عليها؟

الجوابُ: لا، جعلها هشَّةً، وجعل فيها الماءَ، وأوجد فيها الجبالَ، وأوجد فيها الشِّعاب، فتكفت الأحياء في البُيوت الَّتي تُجعَل لهم، وتكفت الأموات في

القبور الَّتي تُجعَل لهم، هذا معنىٰ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ من الزَّرع، والأشجار، والثِّمار، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، السَّماء هو العُلُوُّ؛ ينزل منها المطر من السَّحاب، وتنزلُ منها الملائكةُ، والأرزاق بمقاديرها، كلُّ ذلك بعلم الله، ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾؛ أي: ما يصعد إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ الغيب أمرٌ لله يختصُّ به، فلا يستطيع أحدٌ أن يَطَّلع عليه إلَّا أن يُطلعَه اللهُ سبحانه عليه، ومفاتيحُ الغيب قد فسَّرها النَّبيُّ ﷺ في حديث ابن عمر عند البخاريِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ**»[1].

قولُه: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾، أي: كلُّ أنثىٰ لا تحمل ولا تضع إلَّا بعلمه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قد عَلِمَ النُّطَف الَّتي تتحوَّل إلىٰ أجنَّةٍ، وعَلِمَ النُّطَف الَّتي تكمل في بُطُون الأُمَّهات، وتخرج سويَّةً أو ناقصةً، كلُّ ذلك قد عَلِمه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قولُه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾؛ أي: لكي تعلموا أنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وفي ذلك شمولُ قُدرتِه، وأنَّها لا يتعاصىٰ عليها شيءٌ، وشمولُ عِلمِه، وإحاطته بكلِّ مَن في السَّموات والأرض؛ من ملائكةٍ، وإنسٍ، وجنٍّ، وحيوان، وغير ذلك.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ في هذا إخبارٌ بأنَّ الرِّزق بيد الله، وأنَّه لا أحدَ يستطيع أنْ يرزق أحدًا إلَّا بعونٍ وقُوَّةٍ من الله، بل إنَّ الإنسان لا

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يستطيع أنْ يرزقَ نفسَه، فكيف يرزقُ غيرَه، وأنَّه قد علم حاجة كلِّ عبدٍ إلىٰ الرِّزق، فرزقه ما تَبْقَىٰ به حياتُه، ويعيش به حتَّىٰ يأتيه الموتُ.

❁❁❁

٤- إثباتُ السَّمع والبصر لله تعالى:

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

التعليق:

في هاتين الآيتين إثبات السَّمع والبصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالآية الأولىٰ في سورة (الشُّورىٰ) أوَّلها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: يخلقكم، ويُجدِّد خَلقكم، ويجعلكم خلائف بعد خلائف، ومعنىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدئهما علىٰ غير مثالٍ سبق؛ إذ إنَّ: «فَطَرَ» بمعنىٰ ابتدأ الخلْق؛ لهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كنت لا أدري ما معنىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتَّىٰ احتكم إليَّ أعرابيَّان في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فطَرتُها؛ أي: أنا ابتدأتُها»[(١)].

ومعنىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: صيَّر، وخَلَق لكم من أنفسكم أزواجًا، والمراد به: الإناث. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾: إذ إنَّ الأنثىٰ زوجٌ للذَّكَر. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾: أي يخلقكم ويُجدِّدكم خَلفًا بعد سَلَفٍ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: هذا نفيٌ، والمرادُ به تنزيه الله سبحانه أن يكون له مِثْلٌ أو ندٌّ أو نظيرٌ مِنْ خَلقه. ثمَّ

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (٢١٦)، والطبري في تفسيره (٩/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٩١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢١٢ الرشد) (١٥٥٩)، «والأسماء والصفات» (١/ ٧٨ السوادي) (٤٠).

قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي الَّذي يسمعُ الأصواتَ جميعًا؛ أصوات الجنِّ والإنس، لا تختلفُ عليه ولا تختلطُ، بخلافِ سمْعِ الإنسان؛ فإنَّ سَمع الإنسان محدودٌ، لو تكلَّمَ عشرةٌ بكلامٍ مختلفٍ في وقتٍ واحدٍ لَمَا فهمت من كلامهم شيئًا بخلاف سَمْعِ الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إثبات البصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس الاتِّفاق في الاسم موجبًا للاتِّفاق في الحقيقة، فحقيقة بصَرِ الإنسان غيرُ بصر الله، وحقيقة بصر الباري غير بصر الإنسان، ولهذا فإنَّ النَّفي الحاصل في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ دالٌّ علىٰ عدَم المشابهة بين صفات الباري، وصفات العبد المخلوق.

وكذلك في الآية الثَّانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾، هذا فيه وعدٌ ووعيدٌ، حيث إنَّ أوَّل الآية قول الله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ أي: يسمع كلامكم، ويرىٰ أعمالكم، وتَصرُّفاتكم، فَمَن طبَّق ما أُمرَ به فله الثَّوابُ الموعودُ، ومَن خالف ذلك فإنَّ اللهَ يعلم مخالفتَه، وسيجزيه بذلك بحسب ما يستحقُّ، وقَد تَبيَّن بهذا أنَّ إثبات السَّمع والبصر لله لا يقتضي المشابهة بين سَمع الإنسان وبصره، وبين سمع الله وبصره، فبصرُ الإنسان محدودٌ تَمنعُهُ الحُجُب، ويمنعه البُعدُ، أمَّا بصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه يرىٰ به ما في جوف الأرض، وما في لُجَج البحار، لا يمنع بصَرَهُ مانعٌ، ولا يحجبه حاجبٌ، فمَن زعم أنَّ إثبات الصِّفات لله عَزَّوَجَلَّ مقتضٍ للمشابهة بينه وبين خَلقه، فإنَّ زَعْمَه هذا باطلٌ لما سَبرناهُ وبيَّنَّاه.

❁ ❁ ❁

٥- إثبات المشيئة والإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

التعليق:

وأقولُ: لَقَد قسّم أهل السُّنَّة والجماعة الإرادة إلىٰ قسمَين:

١- إرادةٌ كونيَّةٌ.

٢- إرادةٌ شرعيَّةٌ.

فالإرادة الكونيَّة: شملت الكفر والإيمان، والفسق والبرَّ، والطَّاعة والمعصية، وهي ما كتبه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العباد أنَّهم سيعملونه، وقدَّره لهم وعليهم، كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وكما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. كلُّ هذه الآيات دلائل علىٰ أنَّ ما في الكون قد كُتِبَ وسطر وقبل خَلْق السَّموات والأرض، وقد جاء في الحديث الصَّحيح: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ**

كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١].

أمَّا الإرادة الشَّرعيَّة: فهي ما جاء في الشَّرائع من الأوامر والنَّواهي؛ فالمؤمن اجتمعت فيه الإرادة الكونيَّة، والإرادة الشَّرعيَّة؛ طلب الله منه الإيمان شرعًا، وقدَّره له كونًا، فقول الله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، هذه الآية جاءت بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، فأخبرهم جَلَّ وَعَلَا أنَّه حَرَمهم الإيمان بأسبابِ أعمالٍ عمِلوها، فقلَّب أفئدتهم وأبصارهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: لو أعطيناهم كلَّ آيةٍ، وقد كتب الله عليهم الشَّقاء ما كانوا ليؤمنوا، ومِن هنا فلربَّما حصَل أنَّ الإنسان قد يُوسوس له الشَّيطان بوساوس يريد بها أنْ ينسب العبدُ الظُّلمَ إلىٰ ربِّه، كيف كتَب الله لهؤلاء الإيمان؟ وكتب الله علىٰ هؤلاء الكفر؟ وكيف عاقب الكُفَّار مع أنَّه هو الَّذي كتب عليهم الكفر، وما كانوا ليخرجوا عن إرادته؟ فإرادتُهُ مسيطرةٌ علىٰ إرادتهم، ومشيئتُهُ مهيمنةٌ علىٰ مشيئتهم.

وهنا في هذا المأزق لا ينجو من كيدِ الشَّيطان إلَّا مَن بصَّرهم الله بالعلم، وَوفَّقهم له.

ويجب أوَّلًا: أن نتذكَّر أنَّ العباد كلَّهم خَلْق الله، يفعل فيهم ما يشاء، ويحكم فيهم بما يريد، وقد قَالَ جماعةٌ من الصَّحابة: «**لَوْ عَذَّبَ اللهُ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ، وَأَهْلَ**

---

(١) أخرجه أحمد في «مُسنده» (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٧)، وبنحوه أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سُنن أبي داود».

أَرْضِهِ جَمِيعًا؛ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»(١).

وثانيًا: يجبُ أنْ نتذكَّر أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا في آياتٍ كثيرةٍ بأنَّه لا يظلم أحدًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل: ١١٨]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الَّتي نفىٰ الله فيها الظُّلم عن نفسه. وقد جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»(٢).

وثالثًا: يجبُ أن نعلم أنَّ لله تعالىٰ في عباده الحكمة البالغة، وأنَّ له عليهم الحُجَّةَ الدَّامغةَ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له حِكَمٌ في هذا الكون، وفي هذا الخلق، لا نعلمُها، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحُجَّة علىٰ عباده، فلا يُعذِّب أحدًا منهم إلَّا بحُجَّةٍ، فينبغي للعبد أنْ يسألَ اللهَ دائمًا وأبدًا أن يُثبِّته علىٰ الحقِّ، وأن يُلهمه رُشدَه، وألَّا يجعل للشَّيطان عليه سبيلًا، وقد علَّمنا رسول الله ﷺ أنْ نقول: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ

(١) أخرج أبو داود (٤٦٩٩) عن ابن الدّيلمي، قال: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: لَهُ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي، قَالَ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ»، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ» وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

عَلَىٰ نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ»[(١)]. وقال ﷺ مُعلِّمًا بعض أصحابه: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»[(٢)].

وأمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فيؤخَذ منها إثبات المشيئة لله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك فإنَّه ينبغي لمَن رأىٰ نعمةً وَهَبَه الله إيَّاها أعجبته، فالمشروع له أن يقول: ما شاء الله، ثمَّ يحمد الله علىٰ تلك النِّعمة كما حصل لصاحب الجنَّة، مع محاورة المؤمن، وأنَّ الله في النِّهاية أغار ماءَ جنَّته، ويبست، وذهبت الأشجار الَّتي فيها، فأصبحتْ صعيدًا زلقًا.

❁❁❁

٦- إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤].

التعليق:

هذه الأدلَّة حَشَدها المُؤلِّف ليُبيِّن بها مَحبَّة الله لأوليائه، فهو أخبر بأنَّه يحبُّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٣) من حديث أبي مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والترمذي (٣٥٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا واللفظ له، وصحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٤٨٣) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح وضعيف سُنن التِّرمذي».

المحسنين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ والإحسان يأتي لمَعنَيينِ:

١- إحسانُ الشَّيء بمعنىٰ إتقانه، ومن ذلك قوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)]؛ أي: بأَنْ تتقن عبادتك، وتخلص فيها لربِّك حتَّىٰ كأنَّك ترىٰ الله أمامَك، أو تَتيقَّن بأنَّ الله يراك.

٢- الإحسان بمعنىٰ آخر: وهو إسداء المعروف إلىٰ العباد؛ سواءٌ كان ذلك الإحسان بالمال، أي: إعطائهم المال الَّذي يَستعينُون به علىٰ قضاء حاجاتهم، أو بالمُعاملة الحسنة، أو الإحسان إليهم بالتَّعليم، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ودلالة الخَلق علىٰ الحقِّ، كلُّ ذلك إحسانٌ، وأفضلُهُ الإحسان إليهم بتعليمهم لما يجب عليهم في الدِّين، فالله يحبُّ هؤلاء، ومَحبَّته جَلَّ وَعَلَا تليقُ بجلاله؛ لأنَّه لا يحبُّ إلَّا مَن يكون أهلًا للمحبَّة.

أمَّا العباد فقد يغترُّ الإنسان بشخصٍ ما، ويحبُّه وهو لا يعرف حقيقتَه، ثمَّ تنكشفُ الأمورُ له بعد ذلك، فيَتحوَّل مُحبُّه إلىٰ مُبغِضٍ، وتَتحوَّل المَحبَّة إلىٰ بغضاء.

قولُه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ القسط هو العدل، واللهُ يحبُّ من عباده أن يتمثَّلوا بالعدل، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد أخبر الله في هذه الآية بأنَّه يحبُّ أهل العدل الَّذين يقولون قَولةَ الحقِّ علىٰ القريب والبعيد سواء.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) بتمامه من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قولُه: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾، المتَّقون هم الَّذين يتَّقون اللهَ في أقوالهم، وأفعالهم، ومعاملاتهم.

وأخبر أنَّه يحبُّ التَّوَّابين، ويحبُّ المُتطهِّرين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ يخبر الله تعالىٰ أنَّه يحبُّ التَّوَّابين، وهم جمع تائبٍ: وهو الَّذي يتوب من الذُّنُوب، ويحبُّ المُتطهِّرين: المتابعين والمحافظين علىٰ الطَّهارة الشَّرعيَّة من الأنجاس والأحداث.

وأخبر أنَّ من أسباب مَحبَّته تعالىٰ لعبده: متابعة العبد للنَّبيِّ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ يخبر الله أنَّ متابعة رسوله ﷺ موجبةٌ لمَحبَّته سبحانه، فمَن أمَّرَ السُّنَّة علىٰ نفسه، أجرىٰ الله علىٰ لسانه الحكمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هذا تهديدٌ للمؤمنين.

وكلُّ هذه الآيات فيها إثبات المَحبَّة لله عَزَّوَجَلَّ محبةً تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز أن نُكيِّف أو نُؤول أو نُحرِّف أو نُعطِّل؛ بل الواجب علينا أن نُمِرَّ هذه الصِّفات الَّتي أثبتها الله لنفسِه، ونُثبت معناها لله علىٰ الوجه اللَّائق بجلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ ❁ ❁

٧- إثبات اتِّصافه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّحمة والمغفرة:

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].



التعليق:

في هذه الآيات إثبات اتِّصافه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّحمة والمغفرة لعباده المؤمنين، فقد وصف نفسه بأنَّه رحمنٌ رحيمٌ، ووَصَف رحمته بأنَّها وسعتْ كلَّ شيءٍ، قال تعالىٰ حاكيًا عن الملائكةِ بأنَّهم قالُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، فعلينا أن نؤمن بأنَّ رحمة الله صفةٌ من صفاته تليق بجلاله، وأنَّ الله كتبَها - أي: هذه الرَّحمة - للمُتَّقين المُتَّبعين لنبيِّه، والعبدُ يَتَّصفُ بالرَّحمة، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[1]، وجاء في الحديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[2].

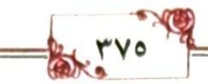
فهذه النُّصوص دالَّةٌ علىٰ أنَّ الإنسان يَتَّصف بالرَّحمة، ويُوصَف بأنَّه رحيمٌ وليس الاتِّفاق في الاسم اتِّفاقًا في الحقيقة، بل إنَّ الاسم غير الحقيقة، فرحمة العبد حقيقتها تليق به؛ لأنَّه عبدٌ ضعيفٌ مسكينٌ، ورحمة الله حقيقتُها تليقُ بجلاله، ولا يجوزُ أنْ نحرِّف (نُؤوِّل)، ولا أن نُكيِّف، ولا أن نُمثِّل، ولا أن نُعطِّل صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

والواجبُ علىٰ العبد أنْ يضعَ الأمور في مواضعها، وليعلم أنَّ صفات الله لائقةٌ بجلاله، فكما أنَّ له ذاتًا لا تُشبِه الذَّوات، فكذلك له صفاتٌ لا تُشبِه صفات المخلوقين، والله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٤٨)، ومسلمٌ (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والتِّرمذي (١٩٢٤) واللَّفظ له، مِن حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الصَّحيحة» (٩٢٥).



٨- ذكر رضا الله، وغضبه، وسخطه، وكراهيته في القرآن الكريم؛ وأنه متصف بذلك:

وَقَوْلُهُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾ [الصف: ٣].

التعليق:

أقول في هذه الآية: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: صفة الرِّضا لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يرضى عن عباده المؤمنين الَّذين يَتَّبعون مراضيه عَزَّوَجَلَّ، ويعملون بمرضاته؛ لذلك هو يَرضىٰ عنهم، وهم يَرضون عنه؛ لما يؤتيهم من الثَّواب، والنَّعيم المقيم.

ورضا الله عَزَّوَجَلَّ صفةٌ تليق بجلاله، كما أنَّ سائر الصِّفات الَّتي وصف الله بها نفسه صفاتٌ تليق بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ سواءً كانت صفة رضًا، أو غضب، أو سخط، أو كراهية، أو غير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾، فقد وصف الله نفسه بالغضب علىٰ مَن قتل مؤمنًا مُتعمِّدًا بدون ما يُوجِب ذلك.

ولا يجُوزُ قَتْل المؤمن إلَّا في ثلاثة أمورٍ:

١- ردَّةٌ بعد إيمانٍ.

٢- أو زنًا بعد إحصانٍ.

٣- أو أن يقتل مسلمًا، فيُقتَل به(١).

فمَنِ ارتدَّ بعد إيمانه، عُرِضت عليه التَّوبةُ ثلاثةَ أيَّام؛ فإنْ رجَع إلىٰ الإسلام، وإلَّا قُتِلَ كافرًا مُرتدًّا، ومَن ثبَت عليه الزِّنا بعْد الإحصان، رُجِمَ حتَّىٰ يموتَ، ومَن قتَل مسلمًا مُتعمِّدًا قُتِل به (حُكْم الله ورسوله)؛ فمَن قتَل مؤمنًا بغير سببٍ من هذه الأسباب الثَّلاثة، فقد استحقَّ غضب الله، ومَنِ الَّذي يقدر علىٰ غضب الله؟ !! لا أحد؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١]؛ أي: سقط في النَّار، والعياذ بالله، ونسأل الله العفو العافية.

أمَّا الآية الَّتي بعدها؛ وهي قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: عملوا بمساخطِه، وتركوا رِضوانه، وكرهوه، ففي هذه الآية صفة السُّخط والرِّضا، وأنَّ مَنِ اتَّبعَ مساخطه، وَابْتَعَد عن مراضيه، وكرهها، وكَرِهَ مَن يدعو إليها؛ فإنَّه قد استحقَّ سخط الله جَلَّ وَعَلَا عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ معنىٰ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، ومعنىٰ: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: أوقع الله بهم نِقمَته، وهم فرعونُ وقومُه، حيثُ عادَوا اللهَ ورسولَه، فأهلكهم الله بالغرقِ في البحر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٥ - ٥٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾: في هذه الآية صفة الكراهية لله عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أي: كسَّلهم عن الخروج لمصلحة أهل

(١) أخرج البخاريُّ (٦٨٧٨)، ومسلمٌ (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**».

الإيمان، ولمصلحة الدِّين والرَّسول.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عَظُمَ مقتًا، والمقتُ هو أشدُّ اللَّومِ، فالله يمقت أهلَ معصيته، ويَذمُّهم، ويلومهم.

❁ ❁ ❁

٩- ذكر مجيء الله سبحانه لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله:

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥].

التعليق:

في هذه الآيات إثبات الإتيان لله عَزَّوَجَلَّ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾؛ أي: أنَّ الله يأتي لفصل القضاء بعد أنْ يقف النَّاسُ في موقف القيامة زمنًا طويلًا ينتظرون ما يحكمُ الله فيهم، فيأتي تعالىٰ لفصل القضاء إتيانًا يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيأمرُ الله بفصل القضاء، فيقضي بين العباد، ويُنزِّل كلَّ عبدٍ منزلتَه الَّتي يَستحقُّها؛ أهلُ النَّار في النَّار يُعذَّبون، وأهلُ الجنَّة في الجنَّة يُنعَّمون، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

فانقضاء الأمر بإعطاء كلٍّ ما يستحقُّ، وتنزيل كلٍّ في منزلته.

ونسأل الله أن يجعلنا من أهل السَّعَادة، ونعوذ به - جلَّت قدرته، وعَزَّ سلطانه، وتَعَالت صفاتُهُ، وتَقَدَّست أسماؤه -؛ من مُوجِبَات غضبِهِ، ومن عذاب النَّار، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من الفائزين برضاه وجَنَّته.

والمقصود: أنَّ في هذه الآية إثبات المجيء والإتيان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه يأتي لفصل القضاء علىٰ ما يليق بجلاله سبحانه، وذلك ثابتٌ في آياتٍ كثيرةٍ، منها:

قول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾.

وقول الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: أنَّ الله يأتي لفصل القضاء، والملائكة صفوفٌ، والنَّاس واقفون علىٰ أرض المحشر، قُلُوبُهم واجفةٌ، وأبصارُهُم خاشعةٌ، وأَفئِدَتُهم خائفةٌ، يكون ذلك بعد شفاعة نَبِيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ في فصل القضاء عندما يأتي النَّاس آدم فيعتذر، وإلىٰ نوح فيعتذر، وإلىٰ إبراهيم فيعتذر، وإلىٰ موسىٰ فيعتذر، وإلىٰ عيسىٰ فيعتذر، فيُحِيلُهُم علىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ فيقول: «**أَنَا لَهَا**» فيشفع إلىٰ ربِّه، ويطلب منه أن يأتي لفصل القضاء، وأن يكون البدء بأُمَّتِه، فيُشفِّعه الله فيهم، ويفصل بين عباده[1]،

---

(١) أخرج البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَىٰ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَىٰ فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ =

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ كما في الآية الأولىٰ.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: دكُّ الأرض: تسويتها وإزالة ما عليها من جبالٍ، وَوِهَادٍ وغيرها حتَّىٰ تكون مستوية، وتمتدُّ الأرض لتسع الخلائق، فسبحانك لا نُحصِي ثناءً عليك.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السَّمَاء، وتَفطُّرها، وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَلُ النُّور العظيم الَّذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السَّماوات يومئذٍ، فيُحِيطُون بالخلائق في مقام المحشر، ثمَّ يجيء الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - لفصل القضاء»[1]. اهـ.

❁❁❁

١٠- إثبات الوجه لله تعالى:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

التعليق:

في هاتين الآيتين إثبات الوجه لله عَزَّوَجَلَّ إثباتًا يليق بجلاله من غير تحريفٍ،

=

فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ -أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ... ».

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٥).

ولا تعطيلٍ، ولا تأويلٍ، ومن غير تكييف ولا تمثيلٍ (أي: تشبيه)، فمَن يؤوِّلون الوجه بالذَّات مخطئون، ومَن يُعطِّلون هذه الصِّفة أو يُحرِّفونها مخطئون، وكذلك مَن يمثِّلونَها أو يُكيِّفونَها فهؤلاء أيضًا مُخطئون، والحقُّ إثبَاتُها، أي: إثباتُ صفةِ الوجه علىٰ الوجه اللَّائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكما أنَّا نثبتُ له ذاتًا لا تُشبهُ الذَّواتَ، فإنَّا نُثبتُ له صفاتٍ لا تُشبِهُ الصِّفات.

وقد سبق أَنْ مَثَّلنا بالحياة؛ أي: أنَّ الله يُوصَف بالحيِّ، والعبد يُوصَف بأنَّه حيٌّ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، فإذا وصفنا اللهَ بأنَّه حيٌّ؛ فإنَّ حياتَه لا تُشبِهُ حياة المخلوقين، إذْ إنَّ حياة المخلوقين مَسبُوقةٌ بعدمٍ، ومَتبُوعَةٌ بفناءٍ، وبقاؤها يَتوقَّف علىٰ إبقاء المُوجِدِ لها؛ سواءٌ بسببٍ، كالأكل والشُّرب والنَّوم في حقِّ البشر، أو بغير سببٍ؛ كالملائكة الَّذي خلقهم الله، فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ومع ذلك يبقون أحياءً حتَّىٰ يُنفَخ في الصُّور النَّفخة الأولىٰ الَّتي يموتُ منها النَّاسُ، فيموتون، والمُهِمُّ أنَّ حياة الملائكة سُبِقَت بِعَدمٍ، وأُتْبِعَت بفناءٍ، ثمَّ بعد ذلك يُحيِيهم الله عَزَّوَجَلَّ حين يُحيي بني آدم، وغيرهم من المخلوقات، وأنَّ هناك فرقًا بين الحيِّ الَّذي لا يموتُ، والحيِّ الَّذي يموتُ، وكلٌّ منهما يُقَال له: حيٌّ.

إذًا؛ فلا مُشَابهة بين صفة الخالق والمخلوق، فإذا أَثبتَ الله لنفسِه وَجْهًا لا يجري عليه الهلاكُ، فنحنُ نُثبتُ له ذلك؛ إيمانًا بكتاب ربِّنا، وسُنَّة نبيِّنا ﷺ.

❁ ❁ ❁

١١- إثباتُ اليدَين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن الكريم:

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

التعليق:

في هاتين الآيتين وغيرهما إثباتُ اليدين لله عَزَّوَجَلَّ إثباتًا يليق بجلاله من دون تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تأويلٍ، ولا تمثيلٍ، بل يجبُ علينا أنْ نُثبتَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّة الواردة في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله ﷺ علىٰ الوجهِ اللَّائقِ باللهِ تعالىٰ، وقد أخبرَنا الله عَزَّوَجَلَّ بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبأنَّه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فإذا أثبتنا لله عَزَّوَجَلَّ صفةً مِن الصِّفات الواردة في الكتاب والسُّنَّة، فإنَّا نُثبتُها بمعناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ولكنَّنا نكِلُ كَيفِيَّتها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوزُ أنْ نخوض في الكيفيَّة، بل إنَّ الكيفيَّة عند أهل السُّنَّة والجماعة لا يجوز الخَوض فيها، ولكن يُفوَّضُ عِلمُها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ إنَّ اليد، والوجه، والكفَّ، والأصابع، والرِّجل، والقدم، والسَّاق، كلُّ هذه صفاتٌ ذاتيَّةٌ[١].

وهناك صفاتٌ فعليَّةٌ[٢]؛ كالاستواء، والنُّزول، والخلق، والإتيان، والمجيء.

وصفاتٌ فعليَّة ذاتيَّةٌ كالرِّضا، والغضب، والمحبَّة، والسُّخط، والكلام، وما إلىٰ ذلك.

فلا يجوز أن يُشبَّه اللهُ بصفات خَلقه، ولا أن نُعطِّلها عن معناها، وقد تَقدَّم لنا قول مالكٍ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ،

---

(١) وهي التي لا تنفكُّ عن الذَّات أزلًا وأبدًا، ولا تتعلَّق بالمشيئة.

(٢) وهي الَّتي تتعلَّق بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، إنْ شاءَ فعلَها وإنْ شاء لم يفعلْها، وكلُّها صفاتُ كمالٍ، لا نقْصَ فيها بوجْهٍ مِن الوُجوهِ.

والسُّؤال عنه بدعةٌ»(١) .

❁ ❁ ❁

١٢- إثبات العينين لله تعالى:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر: ١٣ - ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩].

التعليق:

في هذه الآيات إثبات أنَّ لله عينَينِ، وهذه من الصِّفات الذَّاتيَّة الَّتي يجب إمْرَارُها كما جاءتْ، والإيمان بها علىٰ الوجه اللَّائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكما سبَق أنْ قُلنا: إنَّ كيفيَّة صفات الله عَزَّوَجَلَّ يجب تَفويضُها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنحن نؤمن أنَّ لله عينين، ولكن نقول: نؤمن بصفات الله علىٰ الوجه اللَّائق بالله سبحانه من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ ولا تحريفٍ (تأويل)، ولا تعطيل، وقد قال النَّبيُّ ﷺ عندما ذكر الدَّجَّال بأنَّه أعور: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ، عَيْنُهُ اليُمْنَىٰ كَأَنَّهَا عِنبَةٌ طَافِيَةٌ**»(٢) .

والعَوَرُ: هو خراب إحدىٰ العينين، أو ذهاب نورها، أمَّا كونه جاء في هذه الآيات بالجمع والإفراد: «فإنَّ لغة العرب جاءت بإفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المُتَّصل إلىٰ مفردٍ أفردوه، وإن أضافوا إلىٰ جمعٍ ظاهرٍ أو مُضْمرٍ فالأحسنُ جَمعُهُ مشاكلةً للَّفظ، كقوله سبحانه:

(١) تقدّم تخريجه (ص٣٤٥).

(٢) أخرج البخاري (٣٤٣٩) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَىٰ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**».

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١].

وإنْ أضافوه إلىٰ اسمٍ مُثنًّىٰ فالأصحُّ في لُغتِهم جمعه؛ كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وإنَّما هما قلبان، فلا يلتبس علىٰ السَّامع قول المُتكلِّم: نراك بأعيننا، ونأخذك بأيدينا، ولا يَفهمُ منه بَشَرٌ علىٰ وجه الأرض عيونًا كثيرةً علىٰ وجهٍ واحدٍ، والله أعلم». انتهىٰ ما أفاد به الشَّيخ صالح الفوزان علىٰ شرحه للعقيدة الواسطيَّة (ص ٥٩) طبعة مكتبة المعارف[(١)].

❁ ❁ ❁

١٣- إثبات السَّمع والبصر لله تعالى:

وَقَوْلُه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]، **وقولُه:** ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشُّعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التَّوبة: ١٠٥].

التعليق:

أقول: في هذه الآيات إثبات السَّمع والبصر لله تعالىٰ علىٰ الوجه اللَّائق بجلال الله، وإذا كانت امرأة أوس بن الصَّامت قد دخلت علىٰ رسول الله ﷺ، وهو في بيت عائشة، واشتكت إليه حالَها، وحَالَ زوجِها، وتقول عائشة: «الحمدُ للهِ الَّذي وَسِعَ سَمعُهُ الأصوَاتَ، لَقَد جَاءَت خَولَةُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشكُو

---

(١) وهو في (ص ٦٨) من طبعة دار الميراث النَّبويّ - بالجزائر -.

٣- أو أن يقتل مسلمًا، فيُقتَل به[(١)].

فمَنِ ارتدَّ بعد إيمانه، عُرِضت عليه التَّوبةُ ثلاثةَ أيَّام؛ فإنْ رجَع إلىٰ الإسلام، وإلَّا قُتِلَ كافرًا مُرتدًّا، ومَن ثبَت عليه الزِّنا بعْد الإحصان، رُجِمَ حتَّىٰ يموتَ، ومَن قتَل مسلمًا مُتعمِّدًا قُتِل به (حُكْم الله ورسوله)؛ فمَن قتَل مؤمنًا بغير سببٍ من هذه الأسباب الثَّلاثة، فقد استحقَّ غضب الله، ومَنِ الَّذي يقدر علىٰ غضب الله؟ !! لا أحد؛ فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾ [طه: ٨١]؛ أي: سقط في النَّار، والعياذ بالله، ونسأل الله العفو العافية.

أمَّا الآية الَّتي بعدها؛ وهي قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: عملوا بمساخطِه، وتركوا رِضوانه، وكرهوه، ففي هذه الآية صفة السُّخط والرِّضا، وأنَّ مَنِ اتَّبعَ مساخطه، وَابْتَعَد عن مراضيه، وكرهها، وكَرِهَ مَن يدعو إليها؛ فإنَّه قد استحقَّ سخط الله جَلَّ وَعَلَا عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ معنىٰ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، ومعنىٰ: ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: أوقع الله بهم نِقمَته، وهم فرعونُ وقومُه، حيثُ عادَوا اللهَ ورسولَه، فأهلكهم الله بالغرقِ في البحر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾: في هذه الآية صفة الكراهية لله عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾؛ أي: كسَّلهم عن الخروج لمصلحة أهل

---

(١) أخرج البخاريُّ (٦٨٧٨)، ومسلمٌ (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ».

بنو إسرائيل كلُّهم، ودخل الأقباط فيه كلُّهم، أمر الله البحر فَالْتَأَمَ عليهم.

وهكذا اليهود، لمَّا كادوا لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرفعه الله إليه، وألقىٰ شَبَهه علىٰ أحد الحَوارِيّين، فقتلوه، وظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كانت إلَّا فتنةً لهم، أمَّا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو في السَّماء حيٌّ إلىٰ الآن، وهكذا يكيد الله لأعدائه؛ جزاءً لهم علىٰ كيدهم لأوليائه، فيمكر بهم جزاءً لهم علىٰ مَكرهم بأوليائه.

ولمَّا اجتمعت قريشٌ ليروا في النَّبيِّ ﷺ رأيهم - حسب زعمهم -، عند ذلك حبَّذَ إبليس الَّذي حضر الجلسة علىٰ صورة شيخٍ من أهل نجد ما قاله أبو جهل، أن يختاروا اثني عشر شابًّا، كلُّ واحدٍ منهم يُعطَىٰ سيفًا صارمًا، فإذا خرج النَّبيُّ ﷺ ضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فَيتفرَّق دَمُهُ في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتالهم، ويرضون بالعقل، وهي الدِّية.

ففعلوا، وخرج النَّبيُّ ﷺ، والقوم جلوسٌ خارج بابه ينتظرون خروجه، فيقتلونه، فألقىٰ الله تعالىٰ النَّوْم عليهم جميعًا، وخرج من بينهم، ويقال إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَد أَخَذ كفًّا من ترابٍ، فوزَّعه علىٰ رؤوسهم وسار، ولمَّا جاؤوا إلىٰ الغار أعمىٰ الله أبصارهم عنه.

والمهمُّ؛ أنَّ ما ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ عن نفسه من المكر بأعدائه، إنَّما يفعله الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ سبيل المقابلة، والانتصار لأوليائه.

وقَد قدَّمنا أنَّ أسماء الله حسنىٰ، فلا يُطلَق عليه إلَّا ما جمع صفة الكمال، وما لم يكن كذلك فلا يجوز أن يُطلَق علىٰ الله، فلا يجوز أن نطلق علىٰ الله اسم: «ماكر» من المكر، ولا اسم: «خادع» من الخدع، ولا «كائد» من الكيد؛ لأنَّ هذه الصِّفة إذا انفردت فهي تكون صفة نقصٍ وليست صفة كَمالٍ، وإنَّما تكون صفة

كمالٍ إذا ذُكرت على سبيل المقابلة؛ حين يبدأ أعداء الله، وأعداء أوليائه بالمكر والكيد والخداع، وما أشبه ذلك، فيكيدهم الله عَزَّوَجَلَّ، ويمكر بهم جزاءً لهم على ما فعلوا، وفيما ضربنا من الأمثلة كفايةٌ لبيان ذلك، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

١٥- وصفُ الله بالعفو والمغفرة والرَّحمة والعزَّة والقُدرة:

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، **وَقَوْلُهُ عَن إبليس:** ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

التعليق:

وأقول: في هذا المقطع وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ بالعفو والمغفرة والرَّحمة، ولمَّا كان العفو والمغفرة والرَّحمة قَد تَحصل من المخلوق على سبيل الضَّعف عن المقابلة وعدم القدرة، قُرِنَت غالبًا بالعزَّة والقدرة:

فقال - جلَّ من قائل -: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾، فأخبر جَلَّ وَعَلَا بأنَّ العباد إن أبدوا الخير أو أخفوه، أو عَفَوا عن سوءٍ؛ فإنَّ الله كان عفوًّا قديرًا، وعفوُه ومغفرتُه ورحمته لأوليائه إكرامٌ منه لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع كمال قدرة وعزَّته، فالله إذا صدر منه العفو، وصدرت منه المغفرة والرَّحمة؛ فإنَّما يفعل ذلك إكرامًا لأوليائه كما قلنا، ولا يكون ذلك منه عجزًا عن الانتقام مِمَّن ناوأه وعصاه، ولكن إكرامًا لأوليائه، وامتنانًا منه عليهم، وتَفضُّلًا منه جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور: ٢٢].

وذلك أنَّ أبا بكرٍ كان ينفق علىٰ «مسطح»؛ لقرابة أمِّه من أبي بكرٍ، وكان مسطح مِمَّن صرَّح بالإفك، فلذلك حلف أبو بكرٍ ألَّا ينفق عليه؛ جزاءً منه علىٰ ما فعل، ولكنَّ الله أمر أولياءه بالصَّفح والعفو؛ رغبة أن يعفو الله عنهم، ويغفر لهم ذنوبهم، والله غفورٌ رحيمٌ[1].

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيٍّ حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ العزَّة له، ولرسوله، ولأوليائه المؤمنين.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية من سورة (المنافقون): «قال مُحمَّد بن إسحاق بن يسارٍ: حَدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنَّ عَبدَ الله بن أُبَيٍّ - يعني: لمَّا بلغه ما كان من أمر أبيه - أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تريد قَتْل عبد الله بن أبيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله، لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالده منِّي، إنِّي أخشىٰ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلىٰ قاتل عبد الله بن أُبيٍّ يمشي في النَّاس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافرٍ، فأدخل النَّار!

فقال رسول الله ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

وذكر عكرمةُ، وابن زيدٍ، وغيرهما: أنَّ النَّاس لمَّا قفلوا راجعين إلىٰ المدينة،

---

(١) قصَّة الإفك أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وقف عبدُ الله هذا علىٰ باب المدينة، واستلَّ سيفه، فجعل النَّاس يَمرُّون عليه، فلمَّا جاء أبوه عبد الله بن أُبيٍّ قال له ابنه: وراءك. فقال: ما لك؟ ويلك! فقال: واللهِ، لا تجوز من هاهنا حتَّىٰ يأذنَ لك رسول الله ﷺ، فإنَّه العزيز، وأنت الذَّليل.

فلمَّا جاء رسول الله ﷺ - وكان إنَّما يسير ساقةً -، فشكا إليه عبد الله بن أُبيٍّ ابنَه، فقال ابنُه عبد الله: والله يا رسول الله، لا يدخلها حتَّىٰ تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أَمَا إذ أَذِنَ لك رسول الله ﷺ، فَجُزِ الآن.

وقال أبو بكر عبد الله بن الزُّبير في «مسنده»: حدَّثنا سفيان بن عُيَينة، حدَّثنا أبو هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول لأبيه: واللهِ، لا تدخل المدينة أبدًا حتَّىٰ تقول: رسولُ الله ﷺ الأعزُّ، وأنا الأذلُّ.

قال وجاء النَّبيُّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحقِّ، ما تأمَّلت وجهه قطُّ هيبةً له، لئن شئتَ أن آتيك برأسه لآتينَّك، فإنِّي أكره أن أرىٰ قاتل أبي» اهـ[١].

فالمهمُّ؛ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّ له العزَّة، وأنَّه هو العزيز، وأنَّ العزَّة لأهل طاعته، والإيمان به، فذِكر العزَّة والقُدرة حينما تذكر مع الرَّحمة والعفو والمقدرة، وأنَّه إن عفا وغفر ورحم؛ فإنَّما يفعل ذلك إكرامًا لأوليائه، ومَن يريد بهم الخير، وليس عجزًا ولا ضعفًا، كما يفعل ذلك المخلوقون في بعض الأحيان.

وقوله تعالىٰ عن إبليس -نعوذ بالله منه-: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾: هذا إقسامٌ من إبليس -لعنه الله-؛ بأنَّه سيُضِلُّ أكثر بني آدم، وذلك بتزيين الشَّهوات لهم، وإدخال الشُّبُهات عليهم حتَّىٰ يصيروا جميعًا من الغاوين؛ أي: الخارجين

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٢).

عن طاعة الله، وطريقته، وطريقة رسله، إلىٰ طريقة أهل الزَّيغ والكفر والعناد، ولمَّا علم الخبيثُ أنَّ هناك فئةً لا يقدرُ عليهم استثنىٰ، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٣].

والشَّاهدُ: وَصْف الله عَزَّوَجَلَّ بما في هذه الآيات من العفو والمغفرة والرَّحمة بالمؤمنين، ومن العزَّة والقدرة لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أعدائه، وبالله التَّوفيق.

❁❁❁

١٦- إثباتُ الاسم لله ونفيُ المثل عنه:

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرَّحمن: ٧٨]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

التعليق:

قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي: تكاثر، كثر خيرُه، وكثرت نِعمُه. قال الإمام ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبارك وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدَّائمة»[1]. وعند القرطبيّ في «تفسيره»: «تبارك: تفاعل من البركة... وقال الحسن: تَقدَّس. وقيل: دام فهو الدَّائم الَّذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه»[2]. اهـ.

وقوله: ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ الاسم: هو الواحد مِن الأسماء؛ مثل الرَّحمن، والغفور، والودود.

وقوله: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ﴿ذِي﴾؛ أي: صاحب ﴿الْجَلَالِ﴾؛ أي: العظمة،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥ الكتب المصريَّة).

﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ أي: أنَّه تعالىٰ يكرم عباده المؤمنين.

قول الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾؛ أي: أفرِدْه بالعِبادة؛ لأنَّ العبادة - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - لا تُسمَّىٰ عبادةً إلَّا مع التَّوحيد.

وقوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ **الاصطبار**: حبسُ النَّفس علىٰ الصَّبر، وحفظها، ومنعها من التَّضجُّر والتَّسخُّط، ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ أي: لفعلها، والعمل بها.

وقولُه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾: الاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: أنَّه لا يوجد له سَميٌّ، ولا يوجد له مُساوٍ، ولا مُضاهٍ، ولا عديلٌ، فاللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مُنفردٌ بأسمائه وصفاته؛ أحدٌ فيها، لا يشركه غيره في معانيها، وإن كان قد يشاركه في لفظ الاسم غيره، لكن الحقيقة تختلف اختلافًا عظيمًا كالمَلِك مثلًا، والعزيز، فيُقال للمُخلوق: ملك، ولكن هو وملكه ملكٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا سُمِّي أحدٌ بـ «العزيز»؛ فإنَّ عزَّة الله عَزَّ وَجَلَّ غير عزَّة المخلوق، إذ إنَّ المخلوق لا يكون عزيزًا إلَّا بعونٍ من الله وتأييده، ويكون معه مَن تكون له به عِزَّةٌ محدودةٌ، أمَّا عزَّة الله فليس لها حُدودٌ.

والمهمُّ؛ أنَّ أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الثَّابتة له لا يجوزُ أنْ يشركه فيها أحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾؛ أي: ليس له مكافئٌ ولا عديلٌ ولا نظيرٌ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾: أندادًا جمع ندٍّ، وهو ما ادُّعي مساويًا، يرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذا عبد البشر مخلوقًا، فقد اتَّخذه ندًّا لله عَزَّ وَجَلَّ، والله ليس له ندٌّ، ولهذا قال في فاتحة سورة (الأنعام): ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ

﴿وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

ومع ذلك، فإنَّ الَّذين كفرُوا يجعلون عُدلاء ونُظَراء لله، مع ما عند المخلوق مِن الضّعف والفقر والعجز، فكلُّ مخلوقٍ ضعيفٌ وفقيرٌ وعاجزٌ أمام قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فالله له الغنىٰ المُطلق، والقوَّة العظيمة، والقدرة الَّتي لا يُعجزها شيءٌ، ومع ذلك فقد جعَل هؤلاء المخلوقين أندادًا لله، وعُدَلاء ونُظَراء له.

والشَّاهد من الآيات: إثباتُ الاسم لله عَزَّوَجَلَّ الَّذي ينفردُ به، ونفي السَّميِّ والكفء، والنِّدِّ، والعديل عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الشَّيخ صالح الفوزان حفظه الله: «وهذه هي الطَّريقة الواردة في الكتاب والسُّنَّة فيما يَنفىٰ عن الله تعالىٰ، وهي أن يَنفي عن الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ ما يضادُّ كماله الواجب من أنواع العيوب والنَّقائص»[1]. اهـ.

وأقولُ: إنَّ من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يجوز التَّسمِّي به لغيره أبدًا؛ كلفظ الجلالة (الله) فهذا الاسم لا يجوز لأحدٍ أن يَتسمَّىٰ به، وهناك أسماء تجوز فيها مشاركة المخلوقين، كما مثَّلنا باسم الملك، واسم العزيز، واسم الحيِّ، ففي هذه الأسماء يُنفىٰ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّقائص والعيوب الَّتي تَعتري المخلوقين، ويُثبت له الكمال المطلق، وبالله التَّوفيق.

❁❁❁

١٧- نفي الشَّريك عن الله تعالى:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ

---

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (ص ٧٧) الميراث النبوي.

ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

التعليق:

استدلَّ المؤلِّف بهذه الآيات علىٰ نفي الشَّريك عن الله تعالىٰ.

فالآية الأولىٰ؛ صَدَّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحمد لنفسِه علىٰ ما له من الكمالات الَّتي لا يحتاج معها إلىٰ أحدٍ، فقال لعبده ورسوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: أكثِر من تحميد ربِّك علىٰ ما له من الكمالات، فهو سبحانه أهل الحمد، وصاحبُه المستحقُّ له؛ لما له من الكمالات، ولما له من النِّعم؛ وهو كاملٌ في ذاته، غنيٌّ بنفسه؛ لا يحتاج إلىٰ مُؤازِر، ولا مُعاون، ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وارثًا له؛ إذ إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يموت فيُورَث، ولا يضعف فيحتاج إلىٰ مَن يُعينُه؛ فهذه مِن صفات البشر، واللهُ مُنزَّهٌ عنها، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزُّخرف: ٨١].

وهذا علىٰ سبيل التَّنزُّل، وإلَّا فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يتنزَّه عن الصَّاحبة والولد، بل

أخبر جَلَّ وَعَلَا بأنَّ السَّموات تكاد تتفطَّر، والأرض تكاد أن تنشقَّ، والجبال تكاد أنْ تخرَّ هدًّا؛ غضبًا لله، وتنزيهًا لجلاله عن نسبة الولد إليه، وإنَّما يكون الولد لمَن يكون له مُجَانسٌ، وليس هناك مُجَانسٌ لله، أو عدلٌ له، أو نظيرٌ، والولدُ يُتَّخذ للمؤازرة والمعاونة، والله يُجَلُّ ويُتنزَّه عن أن يكون له مُؤازِرٌ أو معاونٌ، وإنَّما يُتَّخذُ الولدُ لِيتعزَّز به والدُه، وينصره علىٰ مَن ناوأه، واللهُ غنيٌّ عن ذلك كلِّه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: لا يشاركه أحدٌ في ملكه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

وقوله - جلَّ من قائل -: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، فالعباد يَتعزَّزون ببعضهم، كلٌّ يَتعزَّز بالآخر، ويَتَّخذ الآخرين أولياء من أجل أن يَتعزَّز بهم، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن بحاجةٍ إلىٰ وليٍّ يَتعزَّز به من الذُّلِّ؛ إذ إنَّه الغنيُّ بنفسه، والكامل بنفسه، القادر علىٰ كلِّ شيءٍ.

ثمَّ قال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾؛ أي: عَظِّمه تعظيمًا؛ لما له من الكمالات، ولمَا له مِن الغنىٰ عن غيرِه.

وفي الآية الثَّانية يُخبر جَلَّ وَعَلَا بأنَّه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ خضوعًا له، وإجلالًا لعظمته، وكلُّهم مُعترفون له بالرُّبوبيَّة، وتَوحُّده بالتَّصرُّف والتَّدبير.

وفي قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، **وفي آية (الفرقان) قال: - جلَّ من قائل -:** ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾: دلَّ هذا علىٰ نفي الشَّريك له، لا في قُدرته علىٰ الخَلق، ولا في

حكمته في الخَلق الّتي دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

إنَّك لتنظر إلىٰ الآلاف مِن الخَلق، بل إلىٰ الملايين، كلٌّ واحدٍ فيه من الأعضاء ما في الآخر، ولكنَّك لا بدَّ أن ترىٰ في كلِّ واحدٍ منهم ملامحَ وصفاتٍ تُميِّزه عن الآخرين، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: هذا فيه ردٌّ علىٰ طوائفَ، وأعظم هذه الطَّوائِف: النَّصارىٰ الَّذين زعموا أنَّ عيسىٰ ابن الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك زعموا أنَّ اليهود قتلوه، وصلبوه، ولم يحمِه الرَّبُّ الَّذي نسبوه إليه، وزعموا أنَّ له ابنًا، وهذا لو كان حقًّا في المخلوق لكان ذُلًّا به؛ إذ إنَّ الَّذي لا يدفع الضَّيم عن ولده فهو ذليلٌ، وقد زعمت النَّصارىٰ مزاعمَ باطلةً، وإنَّ دينهم لمجموعةٌ من التُّرَّهات الَّتي لا يصدقها العقل، فلمَّا قيل لهم: كيف لم يدفع الرَّبُّ عن ابنه الذي تنسبونه إليه، مع أنَّ الربَّ لا بدَّ أن يكون قادرًا؟ قالوا: ليتحمَّل الفِداء عن بني آدم وخطيئتهم، ما أعظمها من فريةٍ!! وما أفظعه من كذب!! وما أشدَّه من بهتانٍ!! وسبحان مَن يحلم عنهم، ويُؤخِّر العقوبة عنهم، فلا يعجِّل بها!

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يشاركه أحدٌ في ملكه، لا بقليلٍ، ولا بكثيرٍ، بل أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّ له ملك السَّموات والأرض، لم يشاركه فيهما أحدٌ، ولا بمثقال ذَرَّةٍ، قال تعالىٰ في سورة (سبأ): ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وقال في سورة (فاطر): ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾، فهذا النَّفي نفيٌ لكلِّ شراكةٍ؛ قلَّت أو كثرت، فلو أنَّ هناك شركاء مع الله،

لطالب كلٍّ واحدٍ منهم بنصيبه في الشَّراكة من ملك السَّموات والأرض.

وسائر الآيات الَّتي استدلَّ بها شيخ الإسلام دالَّةٌ علىٰ نفي الشَّريك عن الله عَزَّوَجَلَّ، كما تبيَّن لنا ممَّا سبق من الشَّرح، نسأل الله أن يشرح صدورنا للإيمان به، ومعرفته حقَّ المعرفة.

وإنَّك لَتَعجب كيف يذهب المشركون الخرافيُّون إلىٰ غيره يطلبون منه ما لا يُطلَب إلَّا من الله؟! فيطلبون من هؤلاء - الَّذين اتَّخذوهم آلهةً - إنزالَ المطر، وإعطاء الولد، والنَّصر علىٰ الأعداء، وتفريج الكرب، وإسداء النِّعم، يطلبون من آلهةٍ مزعومةٍ لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا، إنَّك لتَعجب كيف ذهبت عقولُهم؟!

ولكن لا عجَب، فالله هو الَّذي يُوفِّق مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن أراد مِمَّن كتب الله عليه الضَّلال، فإنَّه لا يهتدي، ومَن تَفضَّل عليه بالهداية، فإنَّه لا يقدر علىٰ إضلاله أحدٌ، فالأمر كلُّه بيد الله، ولله علىٰ النَّاس الحُجَّة الدَّامغة، وله فيهم الحكمة البالغة، فنسألك يا ربِّ ألَّا تضلَّنا بعد الهدىٰ، ونستجيرك من الغواية بعد الرشد، ومن الحَور بعد الكَور، وإنِّي لأوصي كلَّ مسلمٍ أن يسأل ربَّه الهدىٰ، ويستعيذ به من الغواية والضَّلالة.

وقولُ الله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٩٢﴾: لو أنَّ المخلوق من بني آدم خَلَقه آلهةٌ مُتعدِّدون، فخلق أحَدُهم جزءًا منه، وخَلَق الآخرُ جزءًا آخر، وخَلَق الآخرُ جزءًا غير جزء الأولين، لَقال كلٌّ منهم: أنا أريد نصيبي من هذا الآدميِّ، قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. الله أكبر! ما أعظم آيات ربِّنا، وأدلَّها علىٰ وَحدانيَّته وتَفرُّده

بالملك، واستغنائه عمَّن سواء، فأين عقول المشركين!! اللَّهمَّ إنَّا نسألُك أن تُعرِّفنا بنفسك، وما لها من الصِّفات، ونسألك أن تُعرِّفنا بالمخلوقين، وما فيهم من الضَّعف والمسكنة، ونحمدك علىٰ ما عَرَّفتنا بذلك، عرَّفتنا بالمخلوقين وعَجزِهم وضَعفهم وعَدم قُدرتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ١٦].

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

أي: لا تُمثِّلوا الله بخلقهِ، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي أنَّه يعلم، ويشهد أنَّه لا إله إلَّا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره»[1]. اهـ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

في هذه الآية بَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرَّم البغي بغير حقٍّ، والبغي هو التَّعدِّي علىٰ النَّاس بغير شيءٍ يُوجِب ذلك منهم.

ثمَّ إنَّ الشَّاهد في الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: لا تجعلوا شركاء في عبادته؛ فإنَّ ذلك موجبٌ لغضب الله علىٰ مَن أشرك، وأنَّ العبد يَستحقُ بذلك إحباط العمل، وتَحتُّمَ الخلُود في النَّار، كما هو معروفٌ من الآيات.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: ما لم ينزل به حُجَّة، فالسُّلطان هو الحُجَّة الَّتي يعتمد عليها في عقيدته.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٨٨).

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وحرَّم أن تقولوا عليه من الافتراء والكذب ما يُوجِب غضبه؛ مِن دَعوىٰ الولد له، ودَعوىٰ الشَّريك معه؛ لأنَّ ذلك كلَّه موجبٌ لغضب الله، قال تعالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

١٨- إثبات استواء الله على عرشه:

وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ:

فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (يُونُسَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (الرَّعْدِ): ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (طه): ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (الْفُرْقَانِ): ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (الم السَّجْدَةِ): ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (الْحَدِيدِ): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

التعليق:

وأقولُ: في هذه السَّبعة المواضع أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش بعد خَلق السَّموات والأرض.

والاستواء في اللُّغة: يُراد به العلوُّ والاستقرار، وكذلك ارتفعَ وصعَد، إلَّا أنَّ

المرادَ به في هذه الآيات العلوُّ والاستقرارُ.

ولم يعدَّ السَّلف - رحمهم الله - قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة (فُصِّلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصِّلت: ١١] من هذا المعنىٰ، وإنَّما المقصود منها أنَّه قصد إلىٰ السَّماء.

والاستواء له معانٍ:

- فمتىٰ عُدِّي فإنَّه يُعدَّىٰ بـ: (علىٰ) إذا قصد به العلوُّ والاستقرارُ.

- ويُعدَّىٰ بـ: (إلىٰ) إذا كان معناه القصد إلىٰ الشَّيء، فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: قصد إلىٰ خَلقها.

- ويُعدَّىٰ بالواو ويُرَاد به المساواة، يُقَال: استوىٰ الماء والخشبة.

- ويأتي بدون حرفِ تَعْديةٍ، ويكون المقصود به: نضج وكمل، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يقول عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

إذًا؛ فالاستواء في هذه الآيات السَّبْع مُتَعدٍّ بـ: (علىٰ)، ومقصودٌ به العلوُّ والاستقرار، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أَمَرَنا إذا استوينا علىٰ المركوبات الَّتي سَخَّرها لنا (من إبلٍ وخيلٍ وبغالٍ وحميرٍ، ومن المصنوعات الحديثة؛ كالسَّيَّارة والطَّائرة، وما أشبه ذلك) أن نَذكُره، ونُسبِّحه علىٰ تسخيره هذه المركوبات لنا، كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

والمهمُّ؛ أنَّ هذه الآيات السَّبع أخبر الله فيها عن نفسه أنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وهذا الاستواء المُتعدِّي بـ: (علىٰ) يُؤدِّي معنىٰ علا واستقرَّ، فيجب أن نعتقد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ استوىٰ علىٰ عرشه استواءً يليق بجلاله عَزَّوَجَلَّ، ويعتقد أهل

السُّنَّة والجماعة أنَّ الله مستوٍ علىٰ عرشِه بذاتِه، بائنٌ من خَلقِه، وعلمُه بكلِّ مكانٍ، أي أنَّه مُطَّلعٌ علىٰ عباده، ومهيمنٌ عليهم، وقادرٌ عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونأخذ من هذه الآيات: أنَّ اللهَ مستوٍ علىٰ عرشه، فنُثبِت له حُكم الاستواء، ونُثبت له بأنَّه بائنٌ من خَلقِه، ونُثبتُ له أنَّه عالٍ علىٰ كلِّ مخلوقاته، ونُثبتُ له أنَّه مُطَّلعٌ علىٰ عباده، وعالمٌ بهم، وعالمٌ بكلِّ ما يجري منهم؛ من أعمالٍ، وحركاتٍ، ووساوسَ، وخطراتٍ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ، وأنَّه يَتصرَّف في عباده كيف يشاء، والمأثور عن السَّلف أنَّهم ينكرون السُّؤال عن كيفيَّة الاستواء، ولمَّا سئل مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فأطرق، وعَلَتْه الرُّحَضَاء - أي: علاه العرق -، ثمَّ قال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ»[1].

فلا يجوز لنا أن نقول: كيف استوىٰ؟ ولا يجوز لنا أنْ نقبل هذا السُّؤال كما لم يقبله مالكٌ، وإنَّما علينا أنْ نُؤمِن بالاستواءِ علىٰ الوجه اللَّائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونؤمن أنَّ العرش سقفُ المخلوقات، ونؤمن بأنَّ العرش يحمله ملائكةٌ؛ يحمله اليوم في الدُّنيا أربعةٌ، وإذا كان يوم القيامة يحملُه ثمانيةٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧].

ونحكمُ علىٰ مَن أوَّل الاستواءَ بالاستيلاءِ بأنَّه مُبتدعٌ، وبالله التَّوفيقُ.

❁ ❁ ❁

١٩- إثباتُ علوِّ اللهِ على مخلوقاته:

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٤٥).

[النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

التعليق:

قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: يخاطب الله عَزَّوَجَلَّ عيسىٰ ابن مريم بقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ معنىٰ «مُتوفِّيك»: أي بالنَّوم.

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف المُفسِّرون في قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فقال قتادة وغيرُه: هذا من المُقدَّم والمُؤخَّر؛ تقديره: إنِّي رافعُك إليَّ، ومُتوفِّيك، يعني: بعد ذلك. وقال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مُميتك. وقال محمَّد بنُ إسحاق عمَّن لا يُتَّهم، عن وهبِ بن مُنبِّه، قال: تَوفَّاه اللهُ ثلاثَ ساعاتٍ من النَّهار حين رفعه اللهُ إليه.

قال ابنُ إسحاق: والنَّصارىٰ يزعمون أنَّ الله تَوفَّاه سبعَ ساعاتٍ، ثمَّ أحياه. وقال إسحاق بن بشر عن إدريس عن وهب: أماته الله ثلاثةَ أيَّامٍ، ثمَّ بعثه، ثمَّ رفعَه. وقال مطر الورَّاق: مُتوفِّيك من الدُّنيا، وليس بوفاة الموت، وكذا قال ابن جريج: تَوفِّيه هو رَفْعُهُ. **وقال الأكثرُون:** المرادُ بالوفاة هاهنا النَّوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وكان رسول الله ﷺ إذا قام من النَّوم قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا**

أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[(١)]. اهـ. من تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

وأقولُ: إنَّ القولَ الأخير هو الصَّحيح، وهو أنَّ المقصودَ بالوفاةِ هنا وفاةُ النَّوم، أي: إنِّي مُتوفِّيك بالنَّوم، ورافعُك إليَّ في حالِ نَومِك، وهذا القول الَّذي استدلَّ له من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهو القولُ المُعتَمد، إنْ شاء الله.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ إذ إنَّ الرَّفع لا يكون إلَّا إلىٰ أعلىٰ، والصُّعود لا يكون إلَّا إلىٰ أعلىٰ.

وقوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾: كان فرعون مُتيقِّنًا أنَّ الله في العُلُوِّ، فلذا أراد أن يبحث عنه في العُلُوِّ، ولقد كان فرعون أحسن حالًا من المُعطِّلة الَّذين لا يُثبِتُون لله العُلوَّ، وإن كان فرعون بنفسه هو كاذبٌ بِادِّعائه ذلك، أي: بِادِّعائه الوصول إلىٰ إله موسىٰ، وهو يعرف نفسه أنَّه كاذبٌ في ذلك، فسبحان مَن يمهل ولا يهمل! لَقَد غشيه الموت، فاعترف بأُلُوهيَّة الله ورُبُوبيَّته حين لا ينفعه ذلك، ولو أنَّه آمن من قبل نزول العذاب به لكان خيرًا له؛ ولكن لله في خَلقه شؤون.

ويستدلُّ بهذه الآيات علىٰ أنَّ الله في العُلوِّ، مُستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ مِن خَلقِه، وعلمُه بكلِّ مكانٍ.

أمَّا قولُه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٧١١) - واللَّفظُ له - عن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ، كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا، وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ» وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٦ - ٤٧ سلامة).

فيستدلُّ أيضًا بهاتَين الآيتَين علىٰ أنَّ الله في السَّماء، أي: في العُلوِّ.

وإنَّك لتعجب مِمَّن يقرؤون القرآن، ويقرؤون السُّنَّة، ويبحثون فيهما، ويكتبونَهما، وإذا أرادوا أنْ يُثبتُوا وجودَ الله عَزَّوَجَلَّ واستواءه علىٰ عرشه تَلَعْثَموا، وزعمُوا أنَّ ذلك تشبيهٌ له بخَلقه، فهم إمَّا أن يقولوا إذا أرادوا إثبات ذات الله عَزَّوَجَلَّ: لا فوق العرش، ولا تحته، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا خلف، هذا أو قريبٌ منه قول الأشاعرة، وهذا كفر بالله.

وإمَّا أنْ يقولوا بقولِ المُتأثِّرين بوحدة الوجود أو الحُلُوليَّة، الَّذين يقولون: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ، ويقصدون أنَّه في كلِّ مكانٍ بذاته، وهذا كفرٌ أيضًا من أعظم الكفر، نسأل الله العفو والعافية.

وإنَّ هذه الآيات الَّتي ذَكَرها المُؤلِّف وغيرها، دالَّةٌ علىٰ إثبات العُلوِّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ عُلوِّ مكانٍ، وعُلوِّ مكانةٍ؛ فعُلُوُّ المكانة وعُلُوُّ المكان هو كونه فوق عرشه، عاليًا علىٰ جميع مخلوقاته، بائنًا منهم، هذه هي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة التَّابعين للكتاب والسُّنَّة الذين نَجَوا من الكلام، ومعرَّة الكلام، وولَّوا وجوههم إلىٰ رَبِّهم، فأخذوا عقيدتهم من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ؛ وقَد مرَّ بنا إثبات الاستواء لله علىٰ العرش، وأنَّه استواءٌ يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمَن قال خلاف ذلك فهو مبتدعٌ، ضالٌّ، مضلٌّ، مبطلٌ.

اللَّهمَّ أرنا الحقَّ حقًّا، وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلتبَسًا علينا فَنَضِلَّ.

علمًا بأنَّ الاستواء معناه الاستقرار علىٰ الشَّيء؛ **ولا يجوز أن نقول بلا مُماسَّةٍ:**

١ - لأنَّ ذلك لم يَرِد لا في الكتاب، ولا في السُّنَّة.

٢- ولأنَّه لم يقل بذلك أحدٌ من أهل السُّنَّة المعتمد علىٰ قولهم، وما نقل عن الإمام أحمد؛ فإنَّه لا يصحُّ.

٣- أنَّ الاستواء علىٰ الشَّيء معناه الاستقرار عليه كما هو معلومٌ من اللُّغة، ومَن قال: بلا مُماسَّةٍ، فقوله هذا يَتنافىٰ مع وضْع الكلمة في اللُّغة العربيَّة.

والظَّاهرُ أنَّ قولَهم: «بلا مُماسةٍ»؛ أنَّ هذه دسيسةٌ من أهل البدع، وقد أحببتُ التَّنبيه علىٰ ذلك ليحذر طُلَّاب العلم من الاغترار بهذا، والله المُوفَّق.

❁ ❁ ❁

٢٠- إثبات معية الله لخلقه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

التعليق:

في هذه الآيات إثباتُ مَعيَّة الله لخلقِهِ، معيَّة علمِهِ، واطِّلاعِهِ، وهيمنته؛

فالآية الأولىٰ من سورة (الحديد): أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بأنَّه خلَق السَّموات والأرض في سِتَّة أيَّام، ثمَّ استوىٰ علىٰ العرش، فلمَّا أخبر باستوائه علىٰ عرشه

بعد خَلق السَّموات والأرض، دلَّ ذلك علىٰ أنَّه فوق العرش، بائنٌ من خَلقه، فلرُبما قال قائلٌ أو تَوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّه فوق العرش، لا يعلم ما دون ذلك مِمَّا في الأرض والسَّماء؛ فبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه مع عُلوِّه علىٰ عرشه، وكونه بائنًا من خَلقه، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، ويعلم ما ينزل من السَّماء، وما يعرج فيها، وأنَّه مع خَلقه بعلمِه واطِّلاعه وهيمنته عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: في أيِّ مكانٍ كنتم؛ سواء كنتم في فجاج الأرض، أو في لجج البحار، أو في طبقات الهواء، كلُّ ذلك معلومٌ عنده، ومعروفٌ لديه، إذ إنَّه عالم الغيب والشَّهادة، فلا يظهر علىٰ غيبِه أحدًا، فهو بصيرٌ بأعمال عباده، ومُطَّلعٌ علىٰ حَركَاتهم وسَكَناتهم.

وأخبرَ في آية سورة (المجادلة) أنَّه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾؛ أي: لا أقل، ولا أكثر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

فيا عبد الله! اعْلَم بأنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليك، ومهيمنٌ عليك، ولا تظنَّ أنَّك مهما ناجيتَ أو جهرتَ أنَّه يَخفىٰ علىٰ ربِّك، بل هو معلومٌ ومكتوبٌ بدواوين عملك، ثمَّ أخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾، وهذا إخبارٌ عن جملة الأشياء، أنَّه عليمٌ بها، ومُطَّلعٌ عليها، ومحيطٌ بها، ومِمَّن صدرتْ منه.

وقول النَّبيِّ ﷺ لصاحبه أبي بكرٍ حينما كان في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فهذه معيَّةُ رعاية، ومعيَّةُ إعانةٍ.

وقال تعالىٰ أيضًا لمُوسىٰ وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾: أخبر - جلَّ من قائل - بأنَّه مع المحسنين، وأنَّه مع المُتَّقين، وأنَّه مع الصَّابرين؛ مَعيَّةَ

خاصَّةً كما تقدَّم، أي: مَعيَّة عناية ورعايةٍ.

ثمَّ ينبغي أن يُعلَم أنَّ المعيَّة تنقسم إلىٰ قسمين:

١- مَعيَّةُ اطِّلاعٍ وهيمنةٍ علىٰ المخلوقات.

٢- مَعيَّةٌ خاصَّةٌ للمؤمنين: وهي مَعيَّةُ رعايةٍ وعونٍ للمحسنين الصَّابرين المُتَّقين، فهذه المعيَّة الخاصَّة فيها عنايةُ الله بالمؤمنين، ولُطفُه لهم، وعونُه لهم، ودفاعُه عنهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨].

فهذه المعيَّة مَعيَّةُ شرفٍ وتوفيقٍ وسدادٍ للمؤمنين المُتَّقين.

وقولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ أي: معهم تعالىٰ برعايته، وعنايته، وتوفيقه، وتسديده.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾؛ أي: يُعينُهم تعالىٰ، ويُسدِّدهم، ويُوفِّقهم، فيكون توفيقُهُ وتسديدُهُ إيَّاهم بمنزلة القوَّة المادِّيَّة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾؛ أي: كثيرًا ما تغلب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ؛ لأنَّها مع الله، فالله أعانها؛ لأنَّها معه، فغلبت، ومَن يكن اللهُ معه فلا غالبَ له: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وبالله التَّوفيقُ.

❁ ❁ ❁

٢١- إثبات الكلام لله تعالى:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ

صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقولُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقولُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقولُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

التعليق:

هذه الآيات يُؤخذ منها إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي الآية الأولى يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾: المراد بالحديث هنا: الكلام، أي: كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ صدقٌ لا كذبَ فيه، والاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا أصدق حديثًا من الله.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ «قيلًا» مصدر، وأصله: «قِولًا»، ولمَّا كانت القافُ مكسورةً في المصدر، صار «قِوْلًا»، فاستثقلت الواو بعد الكسرة؛ فأُبدلتْ الواوُ ياءً، فصارت «قيلًا»؛ والقيل هو القول.

وقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: فيه إثبات القول لله عَزَّوَجَلَّ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: كلامه تعالىٰ، والكلمة هي اسمُ جنسٍ من الكلام، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ يَتَّصف بالصِّدق، فلا أَصدَق من الله قيلًا، ويَتَّصف بالعدل، فكلام الله عدلٌ وحقٌّ، يضع الأشياء في مواضعها، فالصِّدقُ ضدُّه الكذبُ، والعدلُ ضدُّه الجَورُ، وكلامُ الله موصوفٌ بالصِّدقِ، فلا كَذِبَ فيه، وموصوفٌ بالعدل، فلا جَور فيه.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: فيه دليلٌ أيضًا علىٰ تمام كلام الله عَزَّوَجَلَّ في هاتين الصِّفتين: صدقُ القول، وعدلُ الحُكم، فلن تجد في كلام الله ما ينافي الصِّدق، ولن تجد فيه ما ينافي العدل. والعدولُ من المؤمنين أتباع الرُّسُل يكون كلامهم مُتَّصفًا بالصِّدق والعدل إلَّا أنَّه يدخله ما يدخله من حيث إنَّ الإنسان مهما بلغ في الصِّدق - ما لم يكن نبيًّا معصومًا - فإنَّه قد يدخل في قوله ما ليس بِصِدقٍ، ويدخل فيه من الجَور ما ليس بعدلٍ، فيكون فيه النَّقص بقدر ذلك.

أمَّا كلام الله فهو موصوفٌ بالتَّمام في الصِّدق الذي لا يدخله الكذبُ، والعدلِ الذي لا يدخله الجَور، فكلماتُ الله تَامَّةٌ من هاتين النَّاحيتين؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**»[١]، فوصف كلمات الله بالتَّمام. وكان يُعوِّذ الحسنَ والحسينَ، ويمسح رؤوسهما، ويقول: «**أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السّلميَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١)، وأبو داود (٤٧٣٧) عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واللَّفظ لأبي داود، وفيه: ثُمَّ يَقُولُ: «كَانَ أَبُوكُمْ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»، قال أبو داود: «هذا دليلٌ علىٰ أنَّ القرآنَ ليس =

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ «تكليمًا» مصدر «كلَّم»، وهذا المصدر أُتِيَ به - والله أعلم - ليُبيِّن أنَّه كلَّمه تكليمًا؛ لأنَّ فعل «كلَّم» رُبَّما يكون فيه من التَّوسُّع في اللُّغة، وأنَّه كتب إليه، أو كلَّمه بواسطةٍ، فلمَّا أُتِيَ بالمصدر «تكليمًا» انتفىٰ هذا، وتعيَّن التَّكليم المعروف، والحمد لله.

وهذا فيه أعظم ردٍّ علىٰ مَن يَتأوَّلون الكلام، وبعضهم يقول: إنَّ الله خَلقَ الكلام في الشَّجرة وغير ذلك، ففيه ردٌّ عليهم في هذا الادِّعاء.

وقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، أي: منهم مَن كلَّمه الله، والمقصود به موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: أي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أخبر بأنَّه كلَّمه، فالضَّمير مفعولٌ لـ «كلَّمه»؛ والربُّ فاعلُ التَّكليم.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾، فالنِّداء هو الكلام المرتفع، والنَّجيُّ هو الكلام الخفيُّ؛ والنِّداء لا يكون إلَّا بالكلام بأَن ينادي المُنادىٰ باسمه.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾؛ أي: دعاه الله وأمره أنْ يأتيَ القومَ الظَّالمين، فيدعوهم إلىٰ الله، ويأمرهم بعبادة الله.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: نداء الله لآدم وحواء حينما أكلا من الشَّجرة، وبَدَت لهما سوءاتهما، فانطلقا يهرولان حياءً من الله، وخوفًا منه، وقال لهما: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ أي: ينادي

=

بمخلوقٍ». وصحَّحه الألبانيُّ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (١٥٣٥).

المشركين علىٰ سبيل التَّأنيبِ لهم بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: الجنُّ والإنس، ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: هل أجبتموهم بالطَّاعة والمتابعة أم بالعصيان والمُشَاقَقَة؟ !

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وإن أَحَدٌ من المشركين استجار بك طالبًا منك الأمان علىٰ نفسه وماله أو عليهما، فأجِرْهُ وأَسْمِعْهُ كلام الله، فإن قَبِلَه، وآمن به؛ فهو أخٌ في الإسلام، وإلَّا فأبلغه مأمنه بأن تُجِيرَهُ حتَّىٰ يعود إلىٰ وطنه وقومه، ثمَّ له حكم قومه من المحاربة والمهادنة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾: يدلُّ علىٰ أنَّهم عقلوا كلام الله الَّذي أَمَرَ به، ولكنَّهم حَرَّفوه من بعد ما عقلوه، وجعلوا له معنًىٰ غير المعنىٰ المراد، مثل قول اليهود: «راعنا» يقصدون به من الرُّعونة، مع أنَّ المعنىٰ من الرِّعاية: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وكذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي أنَّ المنافقين يذهبون مع النَّبيِّ ﷺ وأصحابه بقصد الإفساد - والعياذ بالله -؛ فمُنِعُوا من أجل ذلك حتَّىٰ لا يسري فسادُهم بين المؤمنين، وقَد قال الله عن المؤمنين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي: فيكم مَن يقبل كلامهم، ويَتأثَّر بهم، ويتَّبعهم.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ المراد بـ(كلماته): كلماتُ الله القدريَّة، فلا مُبدِّل لها، وكذلك كلماته القرآنيَّة محفوظةٌ من التَّبديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وَقولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: يقصُّ من القَصص، وهو الإخبار بالأمور الماضية أو الآتية، ويخبرهم بحقيقة ما اختلفوا فيه حتّىٰ يَتبيَّن لهم مَن أصابَ الحقَّ، ومَن لم يُصِبهُ.

وأخيرًا في هذه الآيات إثبات الكلام؛ تارةً بالكلام، وتارةً بالقول أو القيل، وتارةً بالحديث، وتارةً بالنِّداء، وتارةً بوصف ما أوحىٰ الله إلىٰ رسوله أنَّه كتابه وكلماته.

ومن هذه الآيات أثبت أهل السُّنَّة والجماعة الكلامَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ **وقالوا**: إنَّ الله يتكلَّم بكلامٍ قديمِ النَّوعِ، حادثِ الآحادِ، أمَّا أهل الأهواء فَقَد نَفَوْا صفة الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ، وزعموا أنَّ مَن أثبت الكلام لله، فقد شَبَّهه بخَلقِه، ولهذا قد قال بعضُهم: إنَّ القرآن يُوحَىٰ إلىٰ الرَّسول معناه، وهو يُعبِّر عن ذلك المعنىٰ، وقال بعضهم: إنَّ الله خَلَق الكلام في الشَّجرة الَّتي كُلِّم منها موسىٰ، فردَّ عليهم أهل السُّنَّة والجماعة بقولهم: هل يصحُّ أن تقول الشَّجرَة: يا موسىٰ إنِّي أنا ربُّك فاخلع نعليك؟ !

والحقُّ أن نقول: إنَّ الله يتكلَّم بكلامٍ قديمِ النَّوعِ، حادثِ الآحادِ، وقَد يكون الكلام نداءً عاليًا، وقَد يكون نجوىٰ؛ والنَّجوىٰ هي المخافتة، ويلزم من قول الجهميَّة والمعتزلة في نفيهم صفة الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّهم قَد جَرَّدوه عن صفات الكمال، وشبَّهوه بالجماد الَّذي لا يتكلَّم.

نسألُ الله العفوَ والعافية، اللَّهمَّ أرنا الحقَّ حقًّا، وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعلْه مُلتبسًا علينا فنَضِلَّ.

❁ ❁ ❁

٢٢- إثباتُ تَنزيلِ القُرآنِ من الله تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ

لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].

التعليق:

قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾: يُؤخذُ منها أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالكتابُ هو القرآن؛ وقد أنزله علىٰ النَّبيِّ ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير البركة؛ لهدايته للنَّاس إلىٰ ما ينفعهم في الدُّنيا والآخرة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: الجبل واحد الجبال، والجبال آيةٌ في الصَّلابة، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه لو أنزل القرآن علىٰ جبلٍ لرُؤيَ الجبل: ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

إذًا؛ فالقلوب التي لا تخشع لسماع القرآن هذه أشدُّ من الجبال الصُّمِّ قسوةً.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: التَّبديل معناه النَّسخ، بأن ينسخ الله آيةً، ويجعل بدلها آيةً.

والنَّسخ ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسامٍ:

١- نسخُ تلاوةٍ.

٢- نسخُ حُكمٍ.

ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

تنبيهٌ:

بعد أن أمليتُ ما حضرني في شرح هذا الباب، وكنتُ مُتذكِّرًا أنَّه قَدْ سبق بابٌ شبيهه؛ لهذا نَبَّهني أحد الإخوة - جزاه الله خيرًا - بأنَّه في بعض الأسئلة الَّتي قُدِّمت للطُّلَّاب في بعض المدارس: ما الفرق بين الباب (باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التَّوحيد وسدِّه كلَّ طريقٍ يوصل إلىٰ الشِّرك)، وبين هذا الباب (الَّذي هو باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حِمَىٰ التَّوحيد وسدِّه طُرُق الشِّرك)؟

وأنَّه قَدِ اطَّلع هو وبعضُ زملائه علىٰ شرح الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأنَّه فرَّق بين البابين: أنَّ الأوَّل في الأفعال، وهذا في الأقوال[1]، وبعد التَّأمُّل فيما أورده المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجدنا أنَّ قول السَّعديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الحقيقة، والكلُّ مقصودٌ به حماية التَّوحيد ممَّا يخدشه؛ فنسأل الله أن يُفقِّهنا في دينه، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يُعلِّمنا ما لم نكن نعلم، ويرزقنا العمل به. وبالله التَّوفيق.



---

(١) انظر: «القول السديد في مقاصد التوحيد» (ص ٢١٤ الوزارة).

فأخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه إذا نَسَخ آيةً، استبدلَ بها غيرَها، فلابدَّ أن يكون البدلُ خيرًا منها، أو مثلها، والمقصود بالخيريَّة بأن تكونَ الآيةُ المُبدلة خيرًا للمُكلَّفين، أو الحُكم المُبْدَل خيرًا للمُكلَّفين من الحُكم الأوَّل.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: المقصود بـ«روح القدس»: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: كانت الكتب تنزل علىٰ الرُّسُل جملةً، أمَّا القرآن فَقَد نزل مفرَّقًا بحسب الحوادث من أجل أن يُثبِّت الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بهذا التَّنزيل.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: القرآنُ معجزٌ بألفاظِه ومعانيه، لا يستطيع أيُّ بَشَرٍ أن يُعبِّر كتعبير القرآن، ولَقَد تَحدَّىٰ الله قمم البلاغة والفصاحة من العرب، وهم قريشٌ، تَحدَّاهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سورٍ من مثله، أو بسورةٍ من مثله، فعجزوا، فإذا كانوا عاجزين علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكيف يستطيع بَشَرٌ لسانُه أعجميٌّ أن يأتي بمثل هذا القرآن، ويُعلِّم مُحمَّدًا إيَّاه، هذا باطلٌ في العقل والشَّرع؛ فإنَّ قولهم هذا ما هو إلَّا كذبٌ وافتراءٌ.

والمهمُّ: أَنْ نأخذَ من هذه الآيات أنَّ القرآن كلام الله، وأنَّه مُنزَّلٌ من عند الله، وأنَّ الله نزَّله بحسب الوقائع لِيُثبِّت به المؤمنين، ويُفحِمَ به الكافرين؛ فإذا افْتَروا فرية ردَّ الله عليهم فيها، وبيَّن كَذبَهم ودَجَلَهم وافْتِراءهم علىٰ القرآن، ونبيِّ القرآن.

ومنها أنَّ القرآن معجزٌ، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، أو بعشرِ سُورِ مثلِه، ولا بِسُورةٍ من مثلِه، وكَم تَحدَّىٰ الله الأمم به في كلِّ عصرٍ، وفي كلِّ بلدٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ

وَلِمُسْلِمٍ[(١)] عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟».

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[(٢)].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ: أَنبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلقِيَتْ فِي تُرْسٍ»[(٣)].

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»[(٤)].

---

(١) حديث (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه عبد الله بنُ أحمد في «السُّنَّة» (١٠٩٠)، والطَّبريُّ في «التفسير» (٢٠/ ٢٤٦). وذكره شيخ الإسلام في «الرسالة العرشية» كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٥٦١) وطُرقًا أخرىٰ عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: «هذه الآثارُ معروفةٌ في كتُب الحديث».

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧). وإسناده ضعيف مرسلٌ. انظر: «السِّلسلة الضَّعيفة» للألبانيِّ (٦١١٨).

(٤) أخرجه ابنُ أبي عمر العدني في «مسنده» (٣٤٤١ المطالب العالية)، ومحمد ابنُ أبي شيبة في «العرش» (٥٨ الرشد)، والطبريُّ في «التفسير» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠ و٥٨٧ و٦٣٥ و٦٤٨)، وابنُ حبَّان في «الصحيح» (٣٦٢)، والآجرِّي في «الأربعين» (٤٤ البدر)، وابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرىٰ» (٧/ ١٨١ رقم ١٣٦)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٦١) و(٨٦٢)، مِن طرق عن أبي ذرٍّ به نحوه، مُختصرًا ومطوَّلًا، وطرُقه كلُّها ضعيفة، لكن أشار الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ =

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ[1].

وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ[2]. قَالَهُ

=

إلىٰ تقويته بمجموع هذه الطُّرق، انظر: «السِّلسلة الضَّعيفة» (١٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩) تحت رقم (٦١١٨)، و«السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩).

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٥١)، من طريق عبد الرَّحمن بن مهدي به. وأخرجه الدَّارميُّ في «الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة» (ص٥٩ الشوامي)، وفي «النَّقض علىٰ المريسي» (ص١٥٧ الشوامي)، وابنُ خزيمة في كتاب «التَّوحيد» (١/ ٢٤٢ - ٢٤٣ و٢٤٤)، والدِّينوري في «المجالسة» (٢٨٣٠ ابن حزم)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٩٨٧)، وأبو الشَّيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٨ - ٦٨٩)، وابنُ أبي زمنين في «أصول السُّنَّة» (٣٩)، مِن طُرق أخرىٰ عن حمَّاد بن سلمة به. وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في «العلوِّ للعليِّ الغفَّار» (١٠٣ - مختصر الألباني)، وابنُ القيِّم في «الصَّواعق المرسلة» (ص٤٣٥ مختصر الموصلي)، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦ - القدسي) للطبراني، وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٨٥٢)، من طريق أحمد بن عبد الجبَّار عن يونس بن بُكير عن المسعودي به. والمسعوديُّ صدوق اختلط قبل موته، ولا يُدرىٰ عن سماع يونس بن بكير منه متىٰ كان أَقَبْل الاختلاط أو بعده. وقد رواه يزيدُ بنُ هارون عن المسعوديِّ، فجعله عن أبي وائل وعن زرٍّ عن عبد الله، أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ١٠٤٧) بسند صحيح عن يزيد بن هارون عنه. ويزيد بن هارون ممَّن سمع من المسعودي بعد الاختلاط كما في «الكواكب النيِّرات» (ص٢٨٨).

ورواه أبو النضر هاشم بن القاسم وروح بن عبادة ويزيد بن هارون - في رواية أخرىٰ - عن المسعودي عن عاصم عن زرِّ بن حبيش عن عبد الله، أخرجه هكذا ابنُ خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٨٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٦٥)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٧/ ١٧١ - ١٧٢). وأبو النَّضر ويزيد سمعا من المسعودي بعد الاختلاط، ورَوْح لم يُذكر متىٰ سمع منه؛ انظر: «الكواكب النيِّرات» (ص٢٨٨ وما بعدها). **قلت:**

=

الحَافِظُ الذَهَبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ(١).

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ أَعمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخرَجَهُ أَبُو دَاودَ وَغَيرُهُ(٢).

=

الظاهرُ أنَّ هذا الاضطراب من المسعوديِّ مِن قِبَل اختلاطه، لكن قد تابعه حمَّاد بنُ سلمة في روايته عن عاصم عن زرٍّ كما سبق، فلعلَّها تكون أرجح من غيرها، ولا يُضعفها ما ذكر ابنُ معين وابنُ المديني من كون المسعودي كان يخطئ فيما روىٰ عن عاصم بن بهدلة وسلمة كما في «الكواكب النيِّرات» (١/ ٢٩٦)؛ فإن هذا يقضي بالتثبُّت من روايته عنهما حيث لم يُتابَع، فإن توبع رُجِّح أحد الاحتمالين علىٰ الآخر، كما يفيده كلام الحافظ في «نزهة النظر» (ص١٢٩ - ١٣٠ الرحيلي). والله أعلم.

(١) «العلوُّ للعليِّ الغفَّار» (ص ٤٦ أضواء السَّلف).

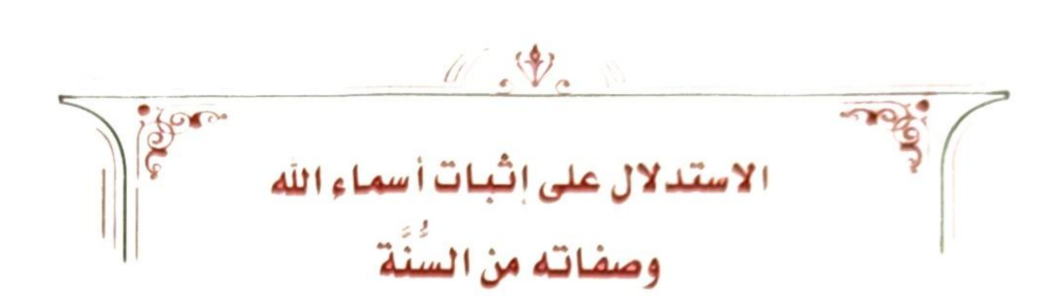
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦) (١٧٧٠) واللفظ له، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابنُ ماجه (١٩٣)، بلفظٍ قريب من لفظ أحمد. ولفظه عند أصحاب السنن نحوه إلَّا أنه ذكر أن بين السماء والتي تليها ثنتين أو ثلاثًا وسبعين سنة، وليس فيه عندهم قوله: «**وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ**». وهذا الحديث تنازع العلماء في ثبوته؛ فحسَّنه الترمذيُّ، وأورده ابنُ خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥ الشهوان) الذي شرط أن لا يُورد فيه إلَّا ما اتَّصل سندُه وعُدِّلت نقلتُه، وحكم ابنُ منده في كتاب «التوحيد» (١/ ٦٣ - ٦٤ رقم ٤٢ الفقيهي) باتِّصال إسناده، وأورده الضياء في «الأحاديث المختارة» (٨/ ٣٧٣ - ٣٧٧)، وحسَّنه شيخ الإسلام ابنُ تيمية في «الواسطية» (٣/ ١٣٩ مجموع الفتاوىٰ)، ودافع عنه في «المناظرة الواسطية» كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٩١ - ١٩٢)، ودافع عنه ابنُ القيم في «تهذيب السنن» (١٣/ ٥ - ٦ بحاشية العون)، وردَّ علىٰ من ضعَّفه، وحسَّنه أيضًا الذهبيُّ في «العرش» (٢/ ٤١).

ومال آخرون إلىٰ تضعيفه فأشار البخاريُّ إلىٰ انقطاع في سنده كما في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٥٩)،

=

في الجنَّة، فهي رؤيةٌ بغيرِ إحاطةٍ، فكما أنَّ النَّاس يَرون الشَّمس والقمر في الدُّنيا حينما تكون هذه الرُّؤية في يوم صَحْوٍ، أو في ليلةٍ بدونِ سحابٍ، فكذلك أيضًا المؤمنون، يَرَون ربَّهم يوم القيامة رؤيةً بدونِ إحاطةٍ، وبالله التَّوفيق.





الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السُّنَّة

فصلٌ

ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

التعليق:

أقول: سُنَّة الرَّسُول ﷺ هي المصدرُ الثَّاني، وهي المُبيِّنة لكتاب الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال - جلَّ من قائل -: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

إذًا؛ فالسُّنَّة يجب الأَخْذُ بها لِتُبيِّن المجملات، وتُخصِّص العمومات لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القُرآن، وأنزل بإزائه السُّنَّة؛ فالقُرآنُ مُنزلٌ بألفاظه ومعانيه، ومعجزٌ للفُصحاءِ، تَحدَّىٰ قمم البيان مِن العرَب أن يأتوا بمثله، أو يأتوا بعشرِ سورٍ مثله، أو بسورةٍ من مثله، والسُّنَّة وحيٌ من الله أيضًا، والرَّسول ﷺ هو المُعبِّر فيها.

وقال - صلوات الله وسلامه عليه - في حديث المِقدَام بنِ مَعدِيكَرِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثلَهُ مَعَهُ؛ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ**

لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ سبحان الله العظيم! السَّموات بسعتها وكثافتها وارتفاعها يطويها الله عَزَّوَجَلَّ كَطيِّ السِّجلِّ للكتب، ما أعظم قدرةَ الله!!

لذلك، فإنَّ الواجب علىٰ جميع المخلوقين أن يُوحِّدوه بالعبادة، وأن يُفردوه بها، وألَّا يجعلوا معه شريكًا، فهو الإله الحقُّ الَّذي تنبغي له العبادة؛ خضوعًا لجلاله، وإيمانًا بعظمته وقدرته.

ثمَّ أورد بصفة التَّضعيف (ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما السَّمَوَاتُ السَّبْعُ، وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وقال ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ».

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.. ».

وعن العَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.. »).

أقول: في هذه الأحاديث إثباتُ سَعَة العرش، وأنَّ كلَّ شيءٍ دونه، فالكرسيُّ والسَّموات والبحر الَّذي فوق السَّماء السَّابعة، كلُّ هذه تدلُّ علىٰ سَعَة خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، فينبغي أن نتأمَّل كيف هذا البحر الَّذي جعله الله في الهواء فوق السَّماء السَّابعة، وما بين أسفله وأعلاه كما بين سماءٍ وسماءٍ، ما أجلَّ عظمة الله!

إذا فكَّرنا في هذه المخلوقات كيف عظمتُها؟! كيف عظمةُ حَمَلة العرش؟! كيف عظمةُ ذلك المَلَك الَّذي بين عاتقه وشَحْمة أذنه مخفق الطَّير سبعين عامًا؟! وإذا كان

فسبحان الله العظيم الَّذي لم يُقدِّر الخَلْقُ قَدْرَه؛ لجهلهم به وبعظمته، ولذلك يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ومن هنا تَبيَّن أنَّ الشِّرك محبطٌ للأعمال؛ لأنَّ المشرك سَوَّىٰ المخلوق الضَّعيف بالرَّبِّ الجليل، فإذا كان الرُّسل، بل أفضلهم محمَّدٌ ﷺ تُوعِّد بإحباط العمل إِنْ هو أشرك بربِّه، وحاشاه أن يكون منه ذلك! فإذا كان الرُّسل تُوعِّدوا بذلك، فغيرُهم من باب أَوْلَىٰ، وَقَدْ أعقب الله ذلك بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة، أمَّا مَنْ سِوَاه، فمِنْ حقِّه أن يكون عابدًا لربِّه لا معبودًا.

واللهُ تعالىٰ الَّذي عظمتُه لا تُوازَىٰ، وقَدْرُه كما وصف سبحانه نفسه بأنَّه يوم القيامة يطوي السَّموات السَّبع بيمينه، والأرضين السَّبع بيده الأخرىٰ، فمَنْ أحقُّ بالعبادة من صاحب هذه القدرة الَّتي لا يتعاصىٰ عليها شيءٌ؟!

الجواب: لا أحد، فهو الحقيقُ بالعبادة، والجديرُ بها.

قوله: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ...** »)، في هذا الحديث والَّذي قبله إثباتُ اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الحديث الأوَّل إثباتُ الأصابع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إثباتُ الكفِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإثباتُ القبضة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونؤمن بأنَّ الله يفعل ما يشاء، وأنَّ بيده ملك الأشياء جميعًا والتَّصرُّف فيها كما يشاء.

ويُؤخَذ منه أنَّ الله يطوي السَّموات السَّبع كُلَّهنَّ، ويطوي الأرضين السَّبع كُلَّهنَّ.

ويُؤخَذ من الحديث الأوَّل: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ضَحِك تصديقًا لقول الحبر، وَقَدْ يكون تَعجُّبه من كون الحبر يعلم هذا، ولا يؤمن بالقرآن الَّذي نزل فيه تصديق ما وصف في هذا الحديث، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ

١- ثبوت النُّزول الإلهيِّ على ما يليق بجلال الله:

فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

التعليق:

أقولُ: إنَّا نعتقد ثُبُوت النُّزولِ الإلهيِّ من عرشه إلىٰ السَّماء الدُّنيا: «حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ» وفي بعض الألفاظ: «إِذَا مَضَىٰ شَطرُ اللَّيلِ أَو ثُلُثَاهُ، يَنزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَيَقُولُ: هَل مِنْ سَائِلٍ يُعطَىٰ؟ هَل مِنْ دَاعٍ يُستَجَابُ لَهُ؟ هَل مِنْ مُستَغفِرٍ يُغفَرُ لَهُ؟ حتَّىٰ يَنفَجِرَ الصُّبحُ»[2].

ونؤمن بصفة النُّزول الإلهيِّ، وهي من الصِّفات الفعليَّة علىٰ ما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولا يجوز أن نُشبِّهه بالمخلوقين، أو نمنع النُّزول خوفًا من التَّشبيه، ولا يجوز أن نقول: هل خلا منه العرش وقتَ النُّزول، أَو لم يخلُ منه؟ فإنَّ هذا لم يَرِد عن النَّبيِّ ﷺ. وخُلوُّ المكان الَّذي انتقل الشَّخص منه، ووُجودُه في المكان الَّذي انتقل إليه، هذا من صفات المخلوقين، ولم يَرِد في الشَّرع شيءٌ من ذلك في حقِّ الله تعالىٰ، ولا يجوز إيراد هذا السُّؤال؛ لأنَّه بدعةٌ، بل الواجب علينا أن نؤمن بما ثبت في هذا الحديث، وما في معناه علىٰ الوجه اللَّائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غير تشبيهٍ (تمثيل)، ولا تعطيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تكييفٍ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



٢- إثباتُ أنَّ الله يفرحُ ويضحكُ:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

التعليق:

أقولُ: عندنا الآن صفتان كلتاهما فعليَّةٌ: الفرح، والضَّحك، ثبتَتْ هذه الصِّفات بالسُّنَّة، ونحن نُؤمنُ إيمانًا لا يُساورُه شكٌّ - والحمد لله - أنَّ لله صفاتٍ كاملةً ككمالِ ذاتِه تعالىٰ، فكما أنَّ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذاتًا لا تُشبهه الذَّوات، فكذلك له صفاتٌ لا تُشبِهه الصِّفات، وقد أخبر الله تعالىٰ عن نفسِه بأنَّه ليس كمثله شيءٌ، وهو السَّميع البصير.

وإذا أثبتْنا لله الفرحَ، أو أثبتْنا له الضَّحكَ، أو أثبتْنا له العجبَ؛ فإنَّ صفاته هذه لا تُشبِهُ صفات المخلوقين، بل هي تليقُ بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكما أنَّ له ذاتًا لا تُشبِه الذَّوات، فكذلك له صفاتٌ لا تشبه الصِّفات، علمًا أنَّ الفرح والضَّحك والعجب والكلام، كلّها صفاتٌ فعليَّةٌ ذاتيَّةٌ.

---

(١) أخرج البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) - واللفظ له - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّىٰ أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) - واللَّفظُ له - عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ».

أمَّا الصِّفات الذَّاتيَّة مثل: الوجه، واليد، والأصابع، والكفّ، والرِّجل، والسَّاق، والقدم، والسَّمع، والبصر، فهذه صفاتٌ ذاتيَّةٌ كما سيأتي إثبات هذه الصِّفات.

❁❁❁

٣- إثباتُ أنَّ اللهَ يعجبُ ويضحكُ:

وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ» حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)].

التعليق:

وفي هذا الحديث الَّذي أورده المُؤلِّف فيه إثبات صفة العجب والضَّحك علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما هي القاعدة الَّتي يسير عليها أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «وَقُرْبِ غِيَرِهِ»؛ أي: علم أنَّ تغيير حالكم قريبٌ، فالغِيَر تغيير الحال، وعلىٰ روايةٍ: **«غِيَاثِهِ»**[(٢)] فالأمرُ واضحٌ، وكلُّها تدلُّ علىٰ المعنىٰ الَّذي هو تغيير الحال من ضيقٍ وشِدَّةٍ إلىٰ فرجٍ ونعمةٍ.

❁❁❁

---

(١) أخرج ابن ماجه (١٨١) عن أبي رزين، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ»**، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**، قُلْتُ: لَنْ نُعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا. وحسَّنه الألباني في «تخريج السُّنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٠٠).

وقوله: **«وَقُرْبِ غِيَرِهِ»** أي: سرعة رحمته لهم، وتغيير ما نزَل بهم مِن ضُرّ.

تنبيه: لفظ (عجب) غير موجود في مصادر التخريج، انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» للألباني(٦/ ٧٣٧-٧٣٨).

(٢) أخرج ابن بطَّة (٧/ ٩٢) (٦٧) عن أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَاثِهِ»** قَالَ أَبُو رَزِينٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: **«نَعَمْ، وَلَنْ نَعْدِمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«وَقُرْبِ غِيَرِهِ»**.

٤- إثباتُ الرِّجْل والقدم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ -، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

التعليق:

أقول: إنَّ الرِّجل والقَدَمَ من الصِّفات الذَّاتيَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سواء كانت ذاتيَّةً محضةً، أو ذاتيَّةً فعليَّةً فإنَّها تليق بجلاله، لا يُشبهه فيها أحدٌ من المخلوقين، فصفات المخلوقين المُحدَثين تليق بهم، وصفات الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تليق به جَلَّ وَعَلَا.

ومِن ناحيةٍ أُخرىٰ، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد أثبت بعض هذه الصِّفات لنفسه، فأنزلها في كتابه، أو أثبتها له رسولُهُ في سُنَّته الَّتي هي الوحي الثَّاني، فهل يليق أن يُقال: إنَّ هذا تشبيهٌ لله بخَلقِهِ؟

الجوابُ: لا، ومَن زعم هذا الزَّعْم؛ فإنَّ زَعمَه باطلٌ، وما هذه إلَّا دسيسةٌ من أعداء الإسلام، يريدون بها إبطالَ صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فيتذَرَّعون إلىٰ تكذيب صفات الله، وإدخال النَّاس في تكذيبها بهذا الزَّعم الباطل، وهو كونها تُشبه

---

(١) أخرج البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) - واللَّفظُ له - عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

وأخرجه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسياقٍ أطول، وفيه: «فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا» الحديث.

صفات المخلوقين بالاسم، ونحن نقول: إنَّ الاتِّفاق في الاسم، لا يلزم منه الاتِّفاق في الحقيقة.

وقد قال إمام الأئمَّة العالم مُحمَّد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتابه «التوحيد»**: «إنَّك لو قلت لواحدٍ مِمَّن يزعمون أنَّ إثبات الصِّفات تشبيهٌ، لو قلت له: إنَّ يدك يد خنزيرٍ، أو عينك عين كلبٍ، أو رجلك رجل قردٍ؛ لغضب منك أشدَّ الغضب، وبالإمكان أنَّه يقاتلك، ما هو السَّبب في غضبه هذا؟ يرىٰ أنَّك انْتَقصتَهُ، فَشَبَّهت عينه بعين الكلب، ويده بيد الخنزير، ورِجله بِرجل القردِ، وما ذلك إلَّا لأنَّه يعتقد أنَّ هذه المخلوقات، وإن كانت والإنسان مخلوقاتٍ خَلَقها الله جميعًا إلَّا أنَّه يعتقد أنَّ فَضْلَ الإنسان علىٰ هذه المخلوقات واضحٌ، وأنَّك عندما تُشبِّه هذه الصِّفات منه بصفات الخنزير والكلب والقرد، تكون قَدِ انْتَقصتَهُ، فهو إذًا أثبت التَّفاضل بين مخلوقٍ ومخلوقٍ، فكيف لا يثبت التَّفاضل بين الخالقِ والمخلوقِ.

وعلىٰ هذا، فإنَّ التَّفاضل بين الخالقِ والمخلوقِ تفاضلٌ عظيمٌ، فصفات الله لا تُشبِهها صفاتٌ»(١).

ونحن - مثلًا - نعتقد أنَّ الله حيٌّ، مع أنَّ المخلوق يُوصَف بأنَّه حيٌّ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ويقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩]، وأخبر عن الكُفَّار أنَّهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

---

(١) «التَّوحيد» لابن خزيمة (١/ ٥١ الرشد) بتصرف.

وإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أطلق علىٰ نفسه اسم «الحي»، وأطلق علىٰ الإنسان اسم «الحي»، فهل يُقَال: إنَّه يلزم من التَّشابه في الاسم التَّشابه في الصِّفة؟

الجواب: لا، فحياةُ الله غير مسبوقةٍ بالعدم، ولا متبوعةٍ بالفناء، فهي كاملةٌ لا يَعتَرِيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ولا تَتوقَّف حياتُهُ علىٰ شيءٍ، أمَّا حياة الإنسان فهي مسبوقةٌ بالعدم، ومتبوعةٌ بالفناء، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وبهذا نعرف الفرق بين صفة الله، وصفة غيره، ولو اتَّفقت في الأسماء، فَالاتِّفاق في الاسم لا يلزم منه الاتِّفاق في الحقيقة.

ونحن نؤمن بأنَّ الله سميعٌ بسمعٍ يسمع به جميع الأصوات، فلا تختلط عليه الأصوات مهما كثرت، فالنَّاس يرفعون إليه حاجاتهم، ويسألونه آناء اللَّيل وآناء النَّهار، ومع ذلك فهو يسمع سؤالَ كلِّ واحدٍ منهم علىٰ حدته مع أنَّه جَلَّ وَعَلَا يعلم ما تُوسوِس به نفس العبد، فهو أقرب إليه من حبل الوريد.

فسبحان مَن لا يُشبِهه أحدٌ مِن خَلْقه! ولا يُشبِهُ أحدًا منهم! سبحان الكامل في ذاته وصفاته، وبهذا التَّحقيق يَتَّضح لطالب العلم الفرق الكبير والعظيم بين صفات الله وصفات خَلقه، وأنَّ مَن يقولون: إنَّ الاشتراك في الاسم - أي: في اسم الصِّفة - يلزم منه المشابهة، أنَّ قولهم هذا قولٌ باطلٌ؛ سواء كانوا جهميَّةً، أو معتزلةً، أو أشعريَّةً، أو ماتريديةً، فكلُّهم قد ضَلُّوا عن الحقِّ، وبعدوا عن الصَّواب كلَّ البعد، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

٥- إثباتُ النِّداءِ والصَّوت والكلام لله تعالى:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَىٰ النَّارِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)]، وَقَوْلُهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»[(٢)].

التعليق:

أقول: في هذين النَّصَّين إثبات النِّداء لله عَزَّوَجَلَّ، والكلام لله تعالىٰ، والنِّداء قد ثبت في القُرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

والنِّداء لا يكون إلَّا بصوتٍ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثبت لنفسه النِّداء، وأثبته له رسولُهُ.

وكذلك قوله: «فَيُنَادِي بِصَوْتٍ»: فيه إثبات النِّداء بالصَّوت، ونحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من الكلام والقول والنِّداء والصَّوت، وكلُّ ذلك سيحصل يوم القيامة، فهو ينادي متىٰ شاء، ويتكلَّم متىٰ شاء، وكيف شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولا يجوز أن نُؤوِّل (نُحرِّف)، أو نُعطِّل، أو نُشبِّه، أو نُكيِّف.

قوله: «مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تُرجُمَانٌ»؛ أي: ليس بينهما واسطةٌ يُترجِم الكلام الَّذي ليس بمفهوم، ويُعبِّر عنه بكلامٍ مفهومٍ، فإنَّ النِّداء والكلام والقول كلَّه باللُّغة العربيَّة الَّتي يفهمها العرب، ويوم القيامة يحتمل أنَّه يُكلِّم كلَّ قومٍ بلسانهم، ويحتمل أنَّه يُكلِّمهم باللُّغة العربيَّة، ويُفهِمُهم إيَّاها، فالكلام والنِّداء من الصِّفات الفعليَّة الَّتي يجب أن نثبتها لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- إثباتُ علوِّ اللهِ على خلْقِه، واستوائِه على عرْشِه:

وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ[١]. وَقَوْلُهُ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ[٢]. وَقَوْلُهُ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٠) (٢٤٠٠٣)، وأبو داود (٣٨٩٢)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) يُشير شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديث الأوعال المشهور، وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦ قرطبة ١٧٧٠)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، والحاكم (٣١٣٧)، وأبو يعلىٰ (٦٧١٣)، وابن أبي عاصم في «السنَّة» (٥٧٧)، وابن خزيمة في «التَّوحيد» (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥ الشهوان)، والآجريّ في «الشَّريعة» (٦٦٣ و٦٦٤ و٦٦٥)، وابن منده في «التَّوحيد» (١/ ٦٣ - ٦٤ رقم ٤٢ الفقيهي)، وابن بطَّة في «الإبانة» (٧/ ١٤٨ - ١٥٠ رقم١٠٧)، والضِّياء في «المختارة» (٨/ ٣٧٣ - ٣٧٧)، وغيرهم، عن العبَّاس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في حديث طويل، والجملة التي ذكرها المصنف - رحمه الله - وردت في رواية أحمد والحاكم وأبي يعلىٰ، ولم تقع في روايات أصحاب السنن.

وقد اختلف أهل العلم في ثبوته؛ فحسَّنه الترمذي، وأورده ابنُ خزيمة في كتاب التَّوحيد الَّذي شرَط أنْ لا يُورد فيه إلا ما اتَّصل سندُه وعُدِّلت نقلتُه، وحكَم ابنُ منده باتِّصال إسنادِه، وأورده الضِّياءُ في «الأحاديث المختارة»، وحسَّنه شيخ الإسلام ابنُ تيمية كما هنا، ودافع عنه في «المناظرة في الواسطيَّة» كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٩١ - ١٩٢)، ودافع عنه ابنُ القيِّم في «تهذيب السُّنن» (١٣/ ٥ - ٦ بحاشية العون)، وردَّ علىٰ من ضعَّفه. وأشار البخاريُّ إلىٰ انقطاعٍ في سنده كما في «التَّاريخ الكبير» (٥/ ١٥٩)، وتابعه العُقيلي في «الضُّعفاء» (٢/ ٢٨٤)، وذكَر الذَّهبيُّ في «العلوِّ للعليِّ الغفَّار» (ص٦٠) أنَّ في سندِه مجهولًا. وضعَّفه الألباني في «الضَّعيفة» (١٢٤٧).

=

وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

التعليق:

أقولُ: في هذه الأحاديث إثباتُ علوِّ الله علىٰ خَلقه، فقوله ﷺ في رقية المريض: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ**» المقصود بالسَّماء هنا: العلوُّ، فهو علىٰ العرش جَلَّ وَعَلَا؛ والعرش فوق المخلوقات كلِّها؛ والله فوق العرش، ولا يَخفَىٰ عليه شيءٌ من أعمال العباد.

قوله: «**تَقَدَّس اسْمُك**»: المراد بالتَّقديس: الإجلال والتَّعظيم.

قوله: «**أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ**»: يُلاحَظ هنا أنَّ الأمر عامٌّ في السَّماء والأرض؛ وأنَّ الرَّحمة في السَّماء.

قوله: «**اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ**»: لماذا خصَّ الله الطَّيِّبين، والله ربُّ الطَّيِّبين وغيرهم؟ لأنَّ الطَّيِّبين هم الَّذين يؤمنون به، ويَتوكَّلون عليه، ويتَّبعون أمره، فهذه رُبُوبيَّةُ عنايةٍ وإكرامٍ.

قوله: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»: هذا فيه إثبات عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ خَلقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

=

وأمَّا اللَّفظُ الَّذي ذكَره شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهو ثابتٌ من قول ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا؛ رواه الدَّارميُّ في «الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة» (٨١)، وابنُ خزيمة في كتاب «التَّوحيد» (١/ ٢٤٢ - ٢٤٤)، الطَّبرانيُّ (٨٩٨٧)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٧/ ١٧١ - ١٧٢)، والبيهقيّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٥١)، وأبو الشَّيخ في «العظمة» (٢٧٩)، واللالكائيُّ في «شرح أصول أهل السُّنة والجماعة» (٦٥٩). وقال الذَّهبيُّ في «العلوّ» (١٠٣ - مختصر الألباني): «إسناده صحيح»، وعزاه الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٨٦ - القدسي) للطبراني، وقال: «رجاله رجال الصَّحيح».

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»: هذا بعض حديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمِيرَةَ عَن عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالبَطحَاءِ، فَمَرَّت سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَدرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلنَا: السَّحَابُ.

قَالَ: «وَالمُزنُ»، قُلنَا: وَالمُزنُ، قَالَ: «وَالعَنَانُ». قَالَ: فَسَكَتنَا، فَقَالَ: «هَلْ تَدرُونَ كَمْ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قَالَ: قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَفَوقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَينَ رُكَبِهِنَّ وَأَظلَافِهِنَّ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ العَرشُ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ مِنْ أَعمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ».

وفي روايةٍ: «هَل تَدرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قَالُوا: لَا نَدرِي، قَالَ: «إِنَّ بُعْدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ، أَو اثنَتَانِ، أَو ثَلَاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوقَهَا كَذَلِكَ؛ حَتَّىٰ عدَّ سَبعَ سَمَوَاتٍ»[1]. وهذا الاختلاف في التَّقدير اختلافٌ في السَّير، فبِسَيْر الجمل والرجل يكون خمس مئة سنةٍ، وبمسيرة الخيل يكون ثلاثًا وسبعين، هكذا جمع بينهما.

ثمَّ قال ﷺ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»، وفيه إثباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ مخلوقاته جميعًا، فهو ثابتٌ من هذه الأحاديث وغيرها، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣) من حديث العبَّاس بن عبد المطَّلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٧- إثباتُ معيَّة الله لخلْقه، وأنَّها لا تُنافي علوَّه فوقَ عرْشه:

وَقَوْلُهُ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»، حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)]. وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)]. وَقَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسِي وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ». رَوَاهُ «مُسْلِمٌ»[(٣)]. وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٤)].

التعليق:

وأقول: اللَّهمَّ علِّمنا ما جهلنا، وذكِّرنا ما نسينا، وارزُقنا العملَ بما علِمْنا، وَزِدنا علمًا إلىٰ ما علَّمتنا، إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٣٣٦) (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤). من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وضعَّفه الألبانيُّ رحمه الله في «الضَّعيفة» (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٠٨) من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما، ومسلم (٣٠٠٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مُسلمٌ بنحوه (٢٧١٣) مِن حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٩٩٢)، ومسلمٌ (٢٧٠٤)، مِن حديث أبي مُوسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه.

أقولُ: الأدلَّة من الكتاب علىٰ إثبات مَعيَّة الله لخَلقه، وأنَّها لا تُنافي عُلوَّه فوق عرشه قَد تَقدَّمتْ، وهنا أَدلَّةُ السُّنَّة:

١- قوله ﷺ: «أَفضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ»: العلم بمعيَّة الله عَزَّوَجَلَّ مَعيَّةُ عِلمٍ واطِّلاعٍ وتدبيرٍ وهيمنةٍ، هذا هو الإيمان، يُضاف إلىٰ ذلك أن تعلم أنَّ الله مستوٍ علىٰ عرشه بذاته الكريمة، بائنٌ من خَلقه، ومع ذلك فهو مُطَّلعٌ عليهم، عالمٌ بما يجري منهم، يراهم أينما كانوا، ويسمع حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، ويعلم خطرات قلوبهم، ولحظات أبصارهم، ولفظات ألسنتهم، وهو مُطَّلعٌ عليهم بعلمِهِ وهيمنتِهِ وقدرتِه.

٢- قوله صلوات الله وسلامه عليه: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ»؛ لأنَّ الملك كاتب الحسنات عن يمينه، «فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ».

فالنَّبيُّ ﷺ نهىٰ أُمَّته أن يبصق أحدهم قِبَل وجهه إذا قام في الصَّلاة؛ لأنَّ الله قِبَل وَجهِهِ، وقَد جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِلْمُصَلِّي، فَإِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ»[(١)].

فعلينا أن نؤمن بهذا إيمانًا بلا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا يجوز أن نُشبِّه، أو نُحرِّف، أو نُكيِّف؛ فإنَّ صفات الله لا تَتخيَّلها العقول، ولا تُكيِّفها المدارك، صفاتُ الله أعلىٰ مِمَّا نتصوَّر، فما جاء من الله، أو من رسول الله

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بلفظ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَىٰ، فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا»، ثُمَّ طَوَىٰ ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ.

ﷺ فهو حقٌّ وصدقٌ، ولا نشكُّ فيه أبدًا، يجب أن نؤمن به[١] كلَّ الإيمان مع علمنا أنَّ صفات الله أرفعُ مِن تَصوُّرنا، فعقولنا عاجزةٌ عن أن تتَصوَّر ذلك.

وقد يقول الشَّيطان للإنسان: إذا كان قد ثبت أنَّ الله علىٰ عرشه بذاته، فكيف ينصب وجهه للمُصلِّي في الأرض؟ فإذا خطرت لك هذه الخاطرة، فانفث عن يسارك ثلاثَ مَرَّاتٍ، واستَعِذ من الشَّيطان الرَّجيم ثلاثَ مَرَّاتٍ، وقل: آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله، علىٰ مرادِ اللهِ، ومرادِ رسولِهِ ﷺ؛ وتيقَّن أنَّ عقلك عاجزٌ علىٰ أن يدرك ذلك.

٣- قَولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الأَرضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسِي وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»: هذه من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الَّذي خلق السَّموات السَّبع، وخلق العرش الَّذي استوىٰ عليه، فهو ربُّ هذه الأشياء ومالكها.

أمَّا العرش؛ فهو مستوٍ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ومُخْتَصٌّ به جَلَّ وَعَلَا.

وأمَّا السَّموات، فهي عامرةٌ بأملاكها، أي: بما جعل الله فيها من الملائكة، كلٌّ منهم له عبادةٌ يختصُّ بها دون غيره، وأمَّا الأرض فقد خَلَق فيها من الأمم ما لم يعلمه ويُحْصِيه إلَّا هو، ينزل المطر عليها، ويخلق الحبَّ والنَّوىٰ؛ فينبت منه ما يجعله الله رزقًا لمَن في الأرض من جنٍّ، وإنسٍ، وطيورٍ، وبهائمَ، وحشراتٍ،

---

(١) يعود الضَّميرُ إلىٰ ما جاء مِن الله أو مِن رسولِه ﷺ مِن الصِّفات أو غيرِها.

وغير ذلك، فكلُّهم مملوكٌ له جَلَّ وَعَلَا؛ آخذٌ بنواصي العباد جميعًا.

وقوله: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ**»: في هذا إثبات الأوليَّة لله عَزَّوَجَلَّ الَّتي لا ابتداء لها، ولا شيء قبلها.

وفي قوله: «**وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»: إثباتٌ لآخريَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهنا يأتي قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وفي قوله: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»؛ أي: الظَّاهر بآياتك ومخلوقاتك الَّتي جعلتها دليلًا عليك، الَّتي لا يُحصيها مُحْصٍ، ولا يَعُدُّها عادٌّ، «**فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»؛ أي: ليس فوقك في الظُّهُور شيءٌ بما بَيَّنتَ من الأدلَّة، ونَصَبْتَ من الآيات.

وفي قوله: «**وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»؛ أي: أنت الَّذي تعلم بواطن الأمور، وتَقَلُّبات القلوب، وتَصوُّرات الأذهان، فلك الحمد علىٰ ما لك من صفات الكمال.

وفي قوله: «**اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ**»: هذا دعاءٌ عظيمٌ، علَّمه النَّبي ﷺ أصحابه.

٤- بينما كان يسير ﷺ هو وأصحابه - رضوان الله عليهم -؛ وكانوا يلهجون بذكر الله، ويرفعون أصواتهم بدعائه وندائه، قال ﷺ لهم: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ**»؛ يعني: هَوِّنوا علىٰ أنفسكم من هذا الجهد الَّذي تقومون به «**فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**».

وفي هذا ردٌّ علىٰ الجهميَّة ومَن قال بقولهم، الَّذين يزعمون بأنَّ إثبات السَّمع

والبصر، وإثبات الصِّفات لله تعالىٰ فيه تشبيهٌ له بخَلقه، وكذَبُوا؛ فإنَّهم إنَّما يريدون تعطيل صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقَد أدرَكوا بعض ما يريدون، حيث مَوَّهوا علىٰ بعض المسلمين بأنَّ إثبات الصِّفات لله فيه تشبيهٌ له بخَلقه، وهذا باطلٌ.

وقد بيَّنَّا ذلك بضرب بعض الأمثلة فيما سبق؛ كاسم «الحيِّ»، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُوصَف بأنَّه حيٌّ، والمخلوقُ الحيُّ يُوصَف بأنَّه حيٌّ؛ وقد بيَّنَّا فيما سبق الفرق بين الحياتين، فلله الحمد علىٰ ما علَّمنا وبَصَّرنا، وجعلنا علىٰ العقيدة الصَّحيحة، اللَّهمَّ كما علَّمتنا وبصَّرتنا بالحقِّ، فثَبِّتْنا عليه حتَّىٰ نلقاك علىٰ ذلك، ونعوذ بك أن تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ونستجير بوجهك الكريم من أن تُقلَّب قلوبنا عن الإيمان، وبالله التَّوفيق.

❁❁❁

٨- إثباتُ رؤيةِ المؤمنين ربَّهم يومَ القيامة:

وَقَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

التعليق:

وأقولُ: قَد تَقدَّم الاستدلال علىٰ الرُّؤية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والآن أراد المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ الاستدلال علىٰ رؤية المؤمنين لربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من السُّنَّة، فأورد في الرُّؤية هذا الحديث المُتَّفق عليه: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»؛ أي: ستشاهدونه بأبصاركم إذا دخلتم الجنَّة: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، وفي رواية: «وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١).

وفي هذا تشبيهٌ للرُّؤية بالرُّؤية، لا بالمرئيِّ، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشُّورى: ١١].

قوله ﷺ: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ» من الضَّيْم؛ أي: لا يلحقكم ضيمٌ في رؤيته، كما يلحق الإنسانَ الضَّيمُ في رؤية الأشياء الخفيَّة.

وقوله: «لَا تُضَامُونَ»: «لا» نافية، و«تُضَامُون» بضمِّ التَّاء وفتح الضَّاد، وضمِّ الميم المُخفَّفة، وروي بفتح التَّاء، وتشديد الميم: «لا تَضَامُّون»؛ أي: لا ينضمُّ بعضكم إلىٰ بعضٍ لأجل رؤيته، كما ينضمُّ بعضكم إلىٰ بعض في رؤية الهلال، وفي هذا تحقيقٌ للرُّؤية الَّتي وعدها الله لعباده المؤمنين وَعْدَ تفضُّل وإكرام، أسأل الله ألَّا يحرمنا من فضله.

ثمَّ أرشد النَّبيُّ ﷺ إلىٰ السَّبب الَّذي يمكن أن تُنال به تلك الرُّؤية، فقال ﷺ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا».

لا شكَّ أنَّ هاتين الصَّلاتين يُغلَب عليها كثير من النَّاس؛ أي: يغلبهم الشَّيطان، ويُلهيهم عنها بالسَّهر علىٰ ما لا ينفع، حتَّىٰ يأتي وقتها، وقد غُلبوا بالنَّوم، وهي صلاة الفجر.

---

(١) أخرج البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (٢٩٦٨) - واللفظُ له - من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا».

وأمَّا العصر؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاس يشتغلون إمَّا بأمورٍ دُنيويَّةٍ كالزِّراعة ورَعي الماشية، وما أشبه ذلك؛ وإمَّا بأمورٍ تُعَدُّ من الفضول واللَّعب؛ كمَن يَتلهون علىٰ ملاعب الرِّياضة، ومَن يجلسون علىٰ أكل القات، وكَم للشَّيطان من وسيلةٍ يلهي بها النَّاس عمَّا ينفعهم - والعياذ بالله -، ولا شكَّ أنَّ الشَّيطان حريصٌ علىٰ أن يُلهي النَّاس عمَّا ينفعهم في دنياهم وأخراهم حتَّىٰ يكونوا معه في نار جَهنَّم، ويوم القيامة يَتبرأَّ منهم كما حكىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في سورة (إبراهيم): ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾؛ أي: ما أنا بمنقذكم ممَّا أنتم فيه من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ أي: ما أنتم بمنقذي مِمَّا أنا فيه من العذاب، اللَّهمَّ اعصِمْنا مِن نَزَغات الشَّيطان، واستعمِلْنا فيما ينفعنا، وثَبِّت قُلوبَنا علىٰ دينِك يا ربَّ العالمِينَ، وبالله التَّوفيقُ.



موقفُ أهلِ السُّنَّة مِن هذه الأحاديث
الَّتي فيها إثباتُ الصِّفات الرَّبانيَّة

إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

التعليق:

وأقول: لقَد تَقدَّم الكلام علىٰ كلِّ صفةٍ وردت في السُّنَّة، وأنَّها حقٌّ وصدقٌ؛ إذ إنَّ السُّنَّة وحيٌ، كما أنَّ القرآن وحيٌ بشهادة القُرآن، حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤]. وحيثُ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ولمَّا نهىٰ بعضُ أشراف قريشٍ عبد الله بن عمرو بن العاص أن يكتب كلَّ ما يقول رسول الله ﷺ؛ وقالوا: إنَّ رسول الله ﷺ بَشَرٌ، يَتكَلَّمُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، قال: «فأَمسَكتُ عَنِ الكِتَابِ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَومَأَ بِأُصبُعِهِ إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «اُكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخرُجُ مِنهُ إِلَّا حَقٌّ»[(١)].

وبهذا يَتبيَّن أنَّ الحُجَّة قائمةٌ علىٰ العباد بما ثبت لهم عن رسول الله ﷺ أن يأخذوه، ويعملوا به، ويعتقدوه.

ومنها ما كان في صفات الله عَزَّوَجَلَّ يجبُ عليهم أنْ يَعتقدوها أيضًا؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٥٣٢).

صفات الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز لأحدٍ أن يَتكلَّم فيها إلَّا بما جاء عن طريق الوحي؛ لذلك فإنَّ أهل السُّنَّة يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، وبما أخبر به عنه نَبيُّه ﷺ من غير تحريفٍ للنُّصوص، ولا تعطيلٍ لها، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ؛ لأنَّ التَّحريفَ والتَّعطيلَ إبطالٌ لما جاءت به النُّصوصُ، والتَّكييفُ والتَّمثيلُ زيادةٌ في الإثبات، وخروجٌ عمَّا قرَّره الله عن نفسه، أو قرَّره عنه رسوله ﷺ؛ إلىٰ نوعٍ مِن التَّشبيه، وضَرْبٍ من التَّكييف لصفات الله تعالىٰ.

علمًا بأنَّ أهل السُّنَّة يؤمنون بالصِّفات علىٰ معناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة بدون كيفٍ؛ لأنَّ الكَيْفَ محجوبٌ عن النَّاس، وممنوعٌ عنهم معرفته.

فلا يجوزُ أنْ نقولَ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. كيف استوىٰ؟ وقد أنكر السَّلف الصَّالح علىٰ مَن سأل هذا السُّؤال.

وقد سُئِل مالكٌ هذا السُّؤال، فقال السَّائل: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أخبر عن نفسه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش، فكيف استوىٰ؟ فأطرق مالكٌ، وعلاه العرقُ، ثمَّ رفع رأسه بعد ذلك، وقال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ، وما أراك إلَّا رجل سوءٍ، أَخرِجُوه، فأُمِرَ به فأُخرِجَ»[1].

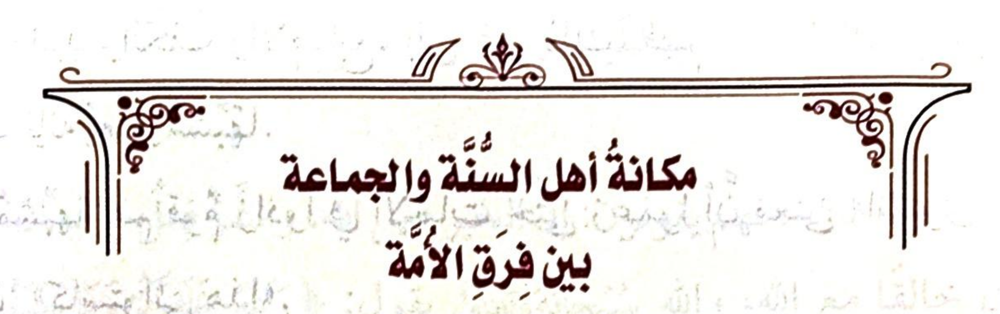
وقَد قرَّر ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ المُعطِّل لم يُعطِّل إلَّا بعد أن شَبَّه، وهؤلاء الَّذين عملوا مثل هذا خرجوا عن الكتاب والسُّنَّة، فالله أخبر عن نفسه بأنَّه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ: ١١]. فلا يجوز واحدٌ من الطَّرفين: لا يجوزُ التَّحريفُ والتَّعطيلُ، ولا يجوز التَّشبيهُ والتكييف.

فأهلُ السُّنَّة وسط في باب صفات الله ما بين أهل التَّعطيل (الجهميَّة)، وما

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٤٥).

بين أهل التَّمثيل (المُشبِّهة)، فهُم يُثبتُون الصِّفة على الوجه اللَّائق بجلالِ الله، وينفُون عنها التَّحريفَ والتَّعطيلَ والتَّشبيهَ والتَّكييف، وهذا قولُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وبالله التَّوفيقُ.





مكانةُ أهل السُّنَّة والجماعة بين فِرَقِ الأُمَّة

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ، فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ (الْجَهْمِيَّةِ)، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ (الْمُشَبِّهَةِ)، وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ.

التعليق:

أقولُ: قولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ**» أي: في عقيدتها، وأهلُ السُّنَّة من الأمَّةِ وسط في أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ بين فرق الضَّلال والبدع.

وقوله: «**فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ (الْجَهْمِيَّةِ)، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ (الْمُشَبِّهَةِ)**»:

أقولُ: كونُهم وسطًا بين أهل التَّعطيل وأهل التَّمثيل، ذلك أنَّ المُعطِّلة عطَّلوا اللهَ عن صفاتِه تعالىٰ، فلا يؤمنون بها، بل يدَّعون أنَّ إثباتها له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعَدُّ تشبيهًا، وهؤلاء هم الجهميَّة والمعتزلة، فهم لا يُثبتون لله صفةً، لا من الصِّفات الفعليَّة، كالاستواء والنُّزول، وما أشبه ذلك؛ ولا من الصِّفات الذَّاتيَّة؛

كالوجه واليد والكفِّ والأصابع، إلىٰ غير ذلك، فهم يدَّعون أنَّ مَن أثبت هذه الصِّفات فإنَّه يُعتَبر مُشبِّهًا.

والمُشبِّهة هم قومٌ زادوا في الإثبات حتَّىٰ زعموا أنَّ معنىٰ «استوىٰ» يثبتونه فيقولون: «كاستوائي هذا».

أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فإنَّهم يُثبتون لله عَزَّوَجَلَّ الصِّفات بالمعنىٰ الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة؛ سواء كانت تلك الصِّفات فعليَّةً؛ كالاستواء علىٰ العرش، والنُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا، وما إلىٰ ذلك، أو ذاتيَّةً؛ كإثبات الوجه لله، والرِّجل، والسَّاق، والقدم، أو ذاتيَّةً فعليَّةً؛ كالغضب، والرِّضا والكلام، وما إلىٰ ذلك، لكنَّهم يُثبتون لله صفاتٍ لا تُشبِه صفات المخلوقين، كما أنَّهم يُثبتون له ذاتًا لا تُشبِه ذوات المخلوقين، فهم يؤمنون بالصِّفة بمعناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ويَكِلُون الكيفيَّة إلىٰ الله تعالىٰ؛ امتثالًا لقوله - جلَّ من قائل -: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ: ١١]. فلذلك هم وسط بين المُعطِّلة والمُشبِّهة.

قوله: «**وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ**»: الجبريَّة هم القَدَريَّة الغلاة، والقَدَريَّة هم القَدَريَّة النُّفاة؛ والفرق أنَّ الجبريَّة يعتقدون أنَّ حركات العباد حركاتٌ قسريَّةٌ، بمعنىٰ مجبورون عليها، وهذا الاعتقاد اعتقادٌ باطلٌ، فكلُّ إنسانٍ يحسُّ من نفسه أنَّ الله جعل له اختيارًا، فهو يأكل إذا شاء، ويشرب إذا شاء، ويتكلَّم إذا شاء، وينام إذا شاء، ويسكت إذا شاء، فكيف يكون مجبورًا مع أنَّه يعلم من نفسه أنَّه يَتصرَّف غير مجبورٍ، بل يَتصرَّف باختيارِهِ؛ ولهذا فإنَّ الله تعالىٰ أخبرنا بأنَّ الكفَّار يرجعون علىٰ أنفسهم باللَّوم يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

أمَّا القَدَريَّة النُّفاة: فهم يقولون: إنَّ الخير فِعْلُ الله، والشَّرّ فِعلُ الإنسان، فجعلوا الإنسان خالقًا مع الله، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافَّات: ٩٦].

أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهم يؤمنون بأنَّ الله جعل للإنسان اختيارًا، ولكنَّه لا يخرج في اختياره عن قدَر الله؛ لأنَّا لو قلنا ذلك، فنحن قد أثبتنا خالقًا مع الله، واللهُ تعالىٰ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]. والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وبهذا يكون أهل السُّنَّة والجماعة وسطًا بين القَدَريَّة الغُلاة، والقَدَريَّة النُّفاة، فيجعلون للإنسان اختيارًا، ولكنَّه لا يخرج عن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا عن إرادته، ولا يكون مستقلًّا بنفسه، ولكنَّ السَّعادةَ فضلٌ من الله، والشَّقاوةَ عدلٌ من الله، فمَن تولَّىٰ أهل الشَّرِّ من شياطين الإنس والجنِّ؛ سلَّطهم الله عليه، وأخرجوه إلىٰ ما لا يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ.

قولُهُ: «وفي باب وعيدِ الله بين المُرجئةِ والوعيديَّة مِن القدريَّة وغيرِهم» المرجئة هم الَّذين يقولون: لا يَضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، والوَعيديَّة هم الخوارج: الَّذين يُكفِّرون بالكبيرة، ويقولون بتخليدِ أصحاب الكبائر في النَّار.

قولُه: «وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ»:

أقول: المعتزلة هم الذين يقولون: إنَّ أصحاب الكبائر في منزلةٍ بين المنزلتين؛ لا هم مؤمنون، ولا هُم كُفَّارٌ، والحَرُوريَّة يُكفِّرون بارتكاب الكبيرة، والمُرجئة والجهميَّة يُؤخِّرون العمل عن الإيمان، ويزعمون أنَّ الإيمان يَتحقَّق بالتَّصديق والقول فقط.

قوله: «وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ»: فالرَّافضة يُكفِّرون أصحاب رسول الله ﷺ، ويُعظِّمون أهل البيت، والخوارج يُكفِّرون الصَّحابة ما عدا أبا بكرٍ، وعمر؛ ويُكفِّرون أهل البيت أيضًا بدءًا بعليٍّ بن أبي طالبٍ، وانتهاءً بجميع أهل البيت الفضلاء، لكنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يَتولَّون أصحاب رسول الله ﷺ، ويُثْبِتون لهم ما لهم من الفضائل، ويَتولَّون أيضًا أهل البيت بخلاف الرَّافضة الَّذين يُعظِّمون أهل البيت، ويُكفِّرون سائر الصَّحابة بدءًا بأبي بكرٍ وعمر، وبالله التَّوفيق.







وجوبُ الإيمانِ باستواءِ اللهِ على عرشِه

فَصْلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا؛ حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرضَ أَن تَزُولا، وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَىٰ الأَرضِ إِلّا بِإِذنِهِ، وَمِن آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ.

التعليق:

أقول: ذكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل أنَّ الأدلَّة دالَّةٌ علىٰ أنَّ الله مستوٍ بذاته علىٰ عرشه، وأنَّه بائنٌ من خَلقه، منفصلٌ عنهم، مستقلٌّ عنهم، لا شيء منه داخلٌ في خَلقِه، ولا شيء من خَلقه داخلٌ فيه، وهذا ما دلَّت عليه الأدلَّة من كتابٍ وسُنَّةٍ.

وقَد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه أنَّه بعد خَلق السَّموات والأرض، استوىٰ علىٰ عرشه، فهو عالٍ علىٰ خَلقه جميعًا، دلَّت علىٰ ذلك سَبعُ آياتٍ في القرآن الكريم، ففي سورة (الأعراف) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي سورة (يونس) قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [يونس: ٣]، وفي سورة (الرَّعد) قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وفي سورة (طه)، و(الفرقان)، و(السَّجدة)، و(الحديد)، في كلِّ ذلك أخبر تعالىٰ عن نفسه أنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وهذا معناه عند أهل السُّنَّة أنَّه مستوٍ علىٰ العرش بذاته علىٰ الوجه اللَّائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهو معهم بعلمه، يعلم ما هم عليه، وما يجري منهم، وما يدور في أذهانهم مِن وساوسَ، وفي قلوبهم مِن خلجاتٍ، كما يقول جَلَّ وَعَلَا في سورة (ق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وكما يقول في سورة (الحديد): ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. إلىٰ غير ذلك ممَّا

أخبر الله به تعالىٰ عن نفسه؛ لشمول علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله - جلَّ من قائل -: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

والنَّبيُّ ﷺ حينما سمع أصحابه يُلِحُّون في الدُّعاء، ويرفعون أصواتهم بالذِّكر، قال: «**ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»[1].

ولذلك قال أهل السُّنَّة والجماعة: إنَّه لا تنافي بين الأمرين، فهو مستوٍ علىٰ عرشِه بذاتِه؛ استواءً يليق بجلاله؛ وهو معهم أينما كانوا بعلمِه، يعلم ما هم عاملون، ويُحصيه عليهم ويَدَّخره لهم، وكلُّ إنسانٍ سيرتحل بحصيلة ما عمل، وسيُجزىٰ بعد الحساب علىٰ حسب ما نطقت به دواوينُه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾ [الجاثية: ٢٨]، وفي أوَّل سورة (الإسراء) يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤]، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[2].

أمَّا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، فمعنىٰ السَّماء: ما علا، واللهُ أعلىٰ مِن كلِّ شيءٍ، فهو فوق العرش، والعرشُ فوق المخلوقات.

وقوله للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: فِي السَّمَاءِ[3]، ليس معنىٰ: (في السَّماء)

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تقدَّم تخريجه (ص٤٣١).

أنَّ السَّماء تُظلُّه أو تُقلُّه؛ بل كما قُلْنا: إنَّ المرادَ بـ«السَّماءِ»: ما علا، وهو سبحانه أعلىٰ مِن كُلِّ شيءٍ بذاتِه، وهو مع ذلك مُطَّلعٌ عليهم، وعلىٰ أعمالهم، مِن وساوس القُلوب، وخلجات النُّفُوس، ولحظاتِ الأبصار، وحركات الجوارح؛ إلَّا أنَّه مع ذلك قدْ قطَع الحُجَّة بإيجادِ الملائكةِ الكرام الكاتبين الَّذين يكتبون كلَّ ما صدَر مِن العباد لكي تقوم عليهم حُجَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وحتَّىٰ لا يدَّعوا أنَّه ظلَمهم بشيءٍ لم يعملوه، فهو لذلك لم يَكِلهم إلىٰ علمِه فقط، بل وكَّل بكتابة أعمالهم ملائكةً كرامًا كاتبين حتَّىٰ لا تكون لهم عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُجَّةٌ يوم القيامة.





وجوبُ الإيمانِ بقُربِه مِن خَلْقه، وأنَّ ذلك لا يُنافي علوَّه وفوقيَّته

فَصْلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[١]. وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه، لا يُنَافِي مَا نَذْكُرُ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِه، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

التعليق:

وأقولُ: لقد سبق لنا أنْ قُلنا إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وصَف نفسَه بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورى: ١١]. وبأنَّه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولقدْ علِمْنا من خلال ما قرأْنا، وقرَّرنا ما قرَّره أهل العلم قبلنا من أنَّ صفات الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّةٌ علىٰ الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة.

وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستوٍ بذاته علىٰ عرشه، بائنٌ من مخلوقاتِه، ومخلوقاتُهُ بائنةٌ منه، ليس فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، وليس في مخلوقاتِه شيءٌ منه، إلَّا أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ من عباده مع علوِّه، وعليٌّ في دُنوِّه، ولا تنافي بين ذلك في

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٧٠٤) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجوبُ الإيمانِ بقُربِه مِن خَلْقِه، وأنَّ ذلك لا يُنافي علوَّه وفوقيَّته

فَصْلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]. وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه، لا يُنَافِي مَا نَذْكُرُ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

التعليق:

وأقولُ: لقد سبق لنا أن قُلنا إنَّ الله سُبحانَهُ وتعالَىٰ قد وصف ...

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [الشورى: ١١] ...

ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ [الأنعام ...

ولقدْ عَلِمْنا من خلال ما قرأْنا، وقرَّرنا ما قرَّرْ ...

الله عَزَّوَجَلَّ مبنيَّةٌ علىٰ الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة

وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستوٍ بذاته علىٰ ...

بائنٌ منه، ليس فيه شيءٌ مِن مخلوقاته ...

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ من عبادِه ...

حقَّه، فقد قلنا: إنَّه مستوٍ علىٰ عرشه، وبائنٌ من خَلقه، وأنَّ علمَه بكلِّ مكانٍ، لا يخلو مكانٌ من علمِه، ولا تَخفَىٰ عليه خافيةٌ من أمور عباده، فهو معهم بعلمِه وهيمنتِه واطِّلاعِه وقدرتِه، وأنَّ جميعهم في حكمِه وقبضتِه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]؛ أي بعلمه، وقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيسَ بِأَصَمَّ وَلا غَائِبٍ، فَهُوَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رُؤُوسِ رَوَاحِلِكُمْ»[(١)]، والأدلَّةُ علىٰ ذلك كثيرةٌ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في «الكُبرىٰ» (١٠١١٦ الرسالة) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وجوبُ الإيمانِ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله حقيقةً

فَصْلٌ

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ.

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ، أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

التعليق:

وأقول: قوله: «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ»: الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله، مُنَزَّلٌ غير مخلوقٍ، يجب أن يعتقد المسلم هذا في نفسه، ويتلفَّظ بهذا، مُبيِّنًا عقيدته بأنَّ القرآن كلام الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال سُبحانَهُ وتعالَىٰ في وَصفِ رسولِهِ ﷺ: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله تعالىٰ:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣].

فهذه الآيات تدلُّ علىٰ أنَّ القرآن كلام الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، فمَن زعم أنَّه مخلوقٌ فإنَّه قد كفر، ولذلك فإنَّ السَّلف - رحمهم الله - قَد أطلقوا الكفر علىٰ مَن زعَم أنَّ القرآن مخلوقٌ؛ لأنَّه كفَر بهذه الآيات الَّتي ذكرناها، وغيرها من الآيات[1].

قولُه: «**مِنهُ بَدَا**»؛ أي: (بدا) مِن البُدُوِّ، وهو الظُّهُور، أو (بدأ) من البدء الَّذي هو البداية، وعلىٰ كلا المعنيين حقٌّ؛ إذْ إنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ، منه خرج، أي: تكلَّم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قولُه: «**وَإِلَيْهِ يَعُودُ**»؛ أي: أنَّه يعود إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حين يُرفَع من المصاحف، ومن الصُّدُور، فلا يَقدِرُ أحدٌ علىٰ كلمةٍ منه، وهذا يكون في آخر الزَّمان قبل قيام السَّاعة.

قولُه: «**وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً**»: هذا فيه ردٌّ علىٰ مَن زعم أنَّ القرآن حكايةٌ عن كلام الله، وليس هو كلام الله حقيقةً، وردٌّ علىٰ مَن زعم أنَّ الله خَلَقه في الشَّجرَة حين كلَّم موسىٰ، فلهذا قال المُؤلِّف: «**وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** ﷺ، **هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لا كَلَامُ غَيْرِهِ**»؛ أي: الكلامُ صفةٌ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

وأهل السُّنَّة إذا عرَّفوا الكلام الَّذي هو كلام الله يقولون فيه: «قديمُ النَّوعِ، حادثُ الآحادِ»؛ يعني: أنَّ صفة الكلام هي صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، قديمٌ بِقِدَمِهِ، وأنَّه

---

(١) انظر: «خلق أفعال العباد» للبخاري (٢/ ٣٠ أطلس)، و«السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١١٥، ١١٧، ١٣٠ ابن القيم)، و«شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ١٩٣ طيبة) (٢/ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٩، ٣٤٩، ٣٥١)، و«العلوّ» للذهبي (ص ١٥٠، ١٨١ أضواء السلف).

جَلَّ وَعَلَا يتكلَّم متىٰ شاء، وكيف شاء، وإذا شاء، وأنَّ إلهًا لا يتكلَّم، ولا يتحرَّك؛ فإنَّه يُعتبر جمادًا، وكيف يكون إلهًا مَن لا يتكلَّم؟

لقد دَخل في الإسلام أقوامٌ ليكيدوا لأهله، فزعموا لهم أنَّ الله لا يُوصَف بأنَّه مُتكلِّمٌ؛ لأنَّا إذا وصفناه بأنَّه مُتكلِّمٌ فقد شَبَّهناه بخلقِه، ولا يجوز أن نصفَه بأنَّ له يدًا؛ لأنَّا إذا وصفناه بذلك، فقد شَبَّهناه بخلقِهِ مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وصف نفسه بأنَّه كلَّم بعض رسله؛ فقال - جلَّ من قائل -: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومَن قال بأنَّه يخلق الكلامَ في غيره، فهو مبتدعٌ ضالٌّ؛ فهذه مقالةُ الجَهميَّة، وأَخذها منهم بعضُ أهل الإسلام، ونَفَوْا عن الله الوصف بأنَّه مُتكلِّمٌ.

[وكذلك الَّذين قالوا: «إنَّ القرآن حكايةٌ عن كلام الله»؛ لأنَّ كلام الله عندهم هو المعنىٰ القائم بنفسه، لازمٌ لذاته كَلُزُوم الحياة والعلم، لا يتعلَّق بمشيئته وإرادته، وإنَّ هذا القرآن ليس هو كلام الله، ولكنَّه حكاية كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه مقالةُ ابنِ كلَّاب ومَن تَبِعَهُ.

أمَّا مقالة الأشاعرة، فهم يقولون: «إنَّ القرآن عبارةٌ عن كلام الله»؛ لأنَّ كلام الله عندهم معنىٰ قائمٌ بنفسه، وهذا المعنىٰ غير مخلوقٍ، أمَّا هذا الألفاظ المقروءة فهي عبارةٌ عن ذلك المعنىٰ القائم بالنَّفس، وهي مخلوقةٌ، ولا يُقَال إنَّها حكايةٌ عنه.

وبعضُ العُلماء قالوا: إنَّ الخلاف بين الكلَّابية والأشاعرة خلافٌ لفظيٌّ لا طائل تحته، فالأشاعرة والكلَّابية يقولون: القرآنُ نوعانِ: ألفاظٌ، ومعانٍ، فالألفاظُ مخلوقةٌ، وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمةٌ، وهي معنىٰ واحدٌ لا تَبعُّضَ فيه، ولا تَعدُّدَ.

ثمَّ ذكَر الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) **مقالة المعتزلة حيث يقولون: «إنَّ كلام الله الحروف** دون المعاني»، فيقولون: «إنَّ مُسمَّىٰ القول والكلام عند الإطلاق اسمٌ للَّفظ فقط، والمعنىٰ ليس جزءَ مُسَمَّاه، بل هو مدلول مُسَمَّاه».

ثمَّ ذكَر الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **المذهب المقابل لذلك، فقال: «ولا المعاني دون** الحروف» كما هو مذهب الكلَّابية والأشاعرة، وكما سبق شرحه. **والمذهب الحقُّ**: أنَّ القرآن كلام الله؛ حروفه ومعانيه، كما هو قول أهل السُّنَّة والجماعة، والَّذي قامت عليه الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة، والحمدُ للهِ ربِّ العالمِين]. انتهىٰ كلام الشَّيخ صالح الفَوزان بِتصرُّفٍ(٢).



---

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» (ص ١٣٩ - ١٤١ الميراث النبوي).

وجوبُ الإيمانِ برُؤيةِ المؤمنين ربَّهم يوم القِيامةِ ومواضع الرُّؤيةِ

فَصْلٌ

وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَبِكُتُبِهِ، وَبِمَلَائِكَتِهِ، وَبِرُسُلِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ.

يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَىٰ.

التعليق:

وأقول: الإيمان برؤية الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من أمورٍ كثيرةٍ وكبيرةٍ، وقد ثبتت الأخبار عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من طريق كتاب الله، ومن طريق أخبارٍ عن رسول الله ﷺ ذكر فيها أنَّ الله يخاطب المؤمنين والكُفَّار والمنافقين؛ كلُّ واحدٍ يخاطبه بقوله جَلَّ وَعَلَا: «أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ. فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»(١).

وقد دلَّت آيةٌ في كتاب الله علىٰ أنَّ الكُفَّار لا يرونه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصفهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥﴾ [المطفِّفين: ١٥]. ومن أجل ذلك فقد حصل الخلاف في رؤية الكافرين له.

قال الشَّيخ صالح بن فوزان - حفظه الله - بعد أن ذكر اتِّفاق الأخبار الثَّابتة عن رؤية المؤمنين له، وإنَّ ذلك في موضعين: «الموضع الأوَّل: في عَرَصات القيامة...».

ثمَّ ذكر الخلاف في رؤية الكُفَّار والمنافقين له، وهل تختصُّ الرُّؤية بالمؤمنين دون غيرهم، فقال: «في المسألة ثلاثة أقوالٍ: قيل: يراه في عَرَصات القيامة المؤمنون والمنافقون والكُفَّار. وقيل: يراه المؤمنون والمنافقون فقط دون الكُفَّار. وقيل: يراه المؤمنون فقط، والله أعلم.

الموضع الثَّاني: يراه المؤمنون بعد دخولهم الجنَّة؛ كما ثبت ذلك في الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة»(٢).

قلت: أمَّا رؤية الله بعد دخول الجنَّة؛ فالأحاديث في ذلك كثيرةٌ، وفي عرصات

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» (ص ١٤٣).

القيامة تكليم الله للكُفَّار والمنافقين ثابتٌ؛ لكن هل يرونه أم لا؟ ظاهر هذه الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾: أنَّهم لا يرونه، ثمَّ إنَّ التَّكليمَ للكُفَّار والمنافقين تكليمُ تبكيتٍ لهم، وليس بتكليمِ إكرامٍ، فتكليمُ الإكرامِ يكون للمؤمنين المُصدِّقين بكلام الله، وكلام رُسُلِه.

أمَّا رؤية النَّبيِّ ﷺ لله سبحانه في الدُّنيا، فهذا محلُّ نظرٍ، قال بعض الصَّحابة: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ رأىٰ ربَّه بقلبه»[1]، ولكنَّ الأدلَّة لا تساعد علىٰ ذلك.

والصُّوفيَّة دعاواهم برؤية النَّبيِّ ﷺ كذبٌ؛ لأنَّ الشَّيطان لا يَتمثَّل بصورة النَّبيِّ ﷺ إلَّا أنَّه قد يَتَصوَّر بغيره، ويدَّعي أنَّه النَّبيُّ ﷺ، وقد يدَّعي أنَّه الرَّبُّ، وأهلُ البدع لا يرون النَّبيَّ ﷺ في النَّوم، وإنَّما يراه المؤمنون فيما يظهر، والله أعلم.



(١) رواه مسلم (١٧٦) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.



ما يَدخلُ في الإيمان باليوم الآخِر

فَصْلٌ

١- ما يكونُ في القبْر

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَبِنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟ فَـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي.

وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي؛ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَىٰ، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَىٰ الْأَجْسَادِ.

التعليق:

أقول: اليوم الآخر هو يوم القيامة، والبرزخ هو مِنْ مُقدِّمات يوم القيامة؛ إمَّا يكون العبد ناجحًا فيه في تلك الفتنة، فيقول الجواب الصَّحيح أو لا، كما في حديث البراء بن عازبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا».

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ».

قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي، وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ

السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ». رواه أحمد، وغيره[1].

وقد ورد في عذاب القبر ما رواه البخاريُّ عن سمرة بن جندب قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً، أَقبَلَ عَلَينَا بِوَجهِهِ، فَقَالَ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟». قَالَ: فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللهُ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟». قُلْنَا: لَا. قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَىٰ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ.

قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَىٰ: «إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ؛ حَتَّىٰ يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟! قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا؛ حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَىٰ قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِهِ بِفِهْرٍ؛ أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ؛ فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ؛ فَلَا يَرْجِعُ إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ! قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟! قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا إِلَىٰ ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ؛ أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ، وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا؛ حَتَّىٰ كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ! فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟!

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩).

ومَن لم يؤمن بالملائكة وبالحقائق الَّتي تضمَّنها القرآن من وجود الملائكة معنا، فإنَّه لا يكون مؤمنًا، فمَن أنكر عذاب القبر بزعمه: أنَّا لو كشفنا عن بعض أهل القبور لما رأينا عليهم عذابًا؛ فيُقال لهم أيضًا: إنَّ هذا ليس بِحُجَّةٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد حجَب أبصارنا أنْ نرىٰ حقائق ما يُلاقيه أهل القبور، كما حجَب أبصارَنا عن الملائكة، وكما حجَب أبصارنا عن الجنِّ، ولكن نعوذُ بالله من الضَّلال، ونسألُ الله أنْ يجعلَنا ممَّن يُؤمن به، ويُؤمن بالغيب الَّذي أخبرنا عنه، وبالله التَّوفيق.

❁❁❁

٢- القيامةُ الكبرى، وما يجرِي فيها

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا.

التعليق:

أقولُ: إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعث الأجساد، والجزاء لكلِّ عاملٍ بما عمل، فإنَّه أوَّلًا يأمر إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنَّفخ في الصُّور نفخةَ الفزع، وهي تطول وتدوم كما قال سبحانه في سورة (ص): ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥].

وتنشقُّ الأرض من قطرٍ إلىٰ قطرٍ، فحينئذٍ تتزلزل الأرض بمَن عليها، فيفزعون فزعًا عظيمًا كما في أوَّل سورة (الحجِّ): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ - ٢].

ثمَّ تأتي نفخةُ الصَّعق، فيموت كلُّ مَن خلَق الله من حيواناتٍ، وجنٍّ، وإنسٍ،

وملائكةٍ، وغيرها، حتَّىٰ يموت حَمَلة العرش، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت، فتبقىٰ الأرضُ مُدَّةً طويلةً ليس عليها أحدٌ، تبسُّ فيها الجبال بمعنىٰ أنَّها تَتفتَّتْ، والبحار تُسْجَر؛ فتكون نارًا تضطرم حتَّىٰ تنتهي، ثمَّ يرسل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الأرض ريحًا، فتنسف الجبال، وتُسوَّىٰ بالأرض كلِّها، وبدل من أن تكون الأرض كُرويَّةَ الشَّكل تُمَدُّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة (الانشقاق): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ١ - ٥].

ثمَّ يرسلُ الله عَزَّوَجَلَّ مطرًا من تحت العرش علىٰ الأرض، فينبت فيها الخَلق، ويمكث المطر أربعين يومًا، فينبت فيه الخَلق في أصوائهم وقبورهم، فإذا تكَامَلت خِلقتهم، وأراد الله تعالىٰ قيام الأجساد عندئذٍ يحيي أوَّل مَن يحيي إسرافيل، ثمَّ يأمره فينفخ في الصُّور، وقَد وضعت الأرواح في الصُّور؛ فيأمره بالنَّفخ فينفخ فيه، فتطير الأرواحُ إلىٰ أجسادها، وذلك بعد أن يزجرَ اللهُ الأرضَ؛ فترفع الأجساد إلىٰ قرب قشرتها، فإذا نُفِخ في الصُّور، طارت كلُّ روحٍ إلىٰ جسده الَّذي كان يعمره بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ يأمر اللهُ الأرضَ فتنشقُّ عنهم، تنشقُّ عن كلِّ واحدٍ؛ فيقوم ينفض التُّراب عن رأسه، يقول ربُّكَ: مَهيَم؟ أي: ما شأنك، ثمَّ يرسل الله داعيًا يدعو، يا أيُّها النَّاس، هلمُّوا إلىٰ ربِّكم، فيذهبون إلىٰ الدَّاعي، ويتَّبعونه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ - ٨]،

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨].

فيجتمعون علىٰ أرض المحشر، ليس لكلِّ إنسانٍ إلَّا موضع قدميه، ويقفون موقفًا طويلًا في ذلك اليوم الَّذي يُقدَّر بخمسين ألف سنةٍ، فتدنو منهم الشَّمس، ويصهرهم الحرُّ، ويَعلُوهم العرق في ذلك الموقف الطَّويل.

ثمَّ إنَّ المؤمنين يَمشُون بعضهم في بعضٍ: «فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ

غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ»[1].

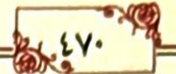
ثمَّ يأمر الله عَزَّوَجَلَّ بفصل القضاء، فنحن الآخرون السَّابقون يوم القيامة، فحينئذٍ تُعرَض الدَّواوين، وتُنْصَب الموازين، هذه هي حال القيامة العامَّة.

والنَّاس فيها حينئذٍ أربعةُ أقسامٍ:

١ - أصحاب الشِّمال.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ.



٢- أصحاب اليمين.

٣- السَّابقون.

٤- الظَّالمون لأنفسهم.

فأمَّا الكُفَّار الملِّيُّون؛ أي: أصحاب البدع المُكفِّرة الَّتي تخرجهم من الإسلام، ويَبْقَون عليها إلىٰ أن يموتوا، فهؤلاء أصحاب النَّار، وقَد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بأنَّهم يدخلون من أبواب جهنَّم السَّبعة، لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: ٤٤].

وأمَّا السَّابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الكبائر من أمَّة مُحمَّد ﷺ وغيرهم من الأمم الَّذين ماتوا علىٰ التَّوحيد؛ فَتَوحيدُهُم يمنعهم من دخول نارِ الكُفَّارِ، وذُنوبُهم تمنعهم من دخول الجنَّة بدون عذابٍ؛ فهؤلاء يُعذَّبون في الطَّبقة العليا من نارِ جهنَّم الَّتي يُنصَب عليها الصِّراط، ويمرُّ النَّاسُ عليه، كلٌّ علىٰ قَدْر عملهِ؛ منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، وكالبرق الخاطف، وكسرعة الرِّيح، وكأجاويد الخيل، وكسعي الرِّجال، ومنهم مَن يهرول، ومنهم مَن يمشي، وبعض النَّاجين يزحفُ علىٰ بطنه، ويتساقط مَن يريد الله لهم العذاب، يتساقطون في النَّار، فتحرقهم، ويموتون فيها موتةً.

ثمَّ يأذن الله بالشَّفاعة بعد زمنٍ طويلٍ، فيخرج مَن كان في نار المُوحِّدين؛ إمَّا بشفاعة الشَّافعين، أو برحمة ربِّ العالمين، وعلىٰ هذا يكون الانتهاء والاستقرار لكلِّ عبدٍ بحسب عمله، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُثبِّتنا علىٰ الحقِّ حتَّىٰ نلقاه، وأَن يبْعثَنا عليه، وأَن يُثيبَنا بجَنَّته، ويُعيذَنا مِن نارِه، وبالله التَّوفيق.





ما يَجري في يوم القيامةِ

وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ؛ فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

وَيُحَاسِبُ اللهُ الْخَلْقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

التعليق:

أقول: القيامة قيامتان:

١- القيامة الصُّغرىٰ: وهي الموت، فمَن مات قامت قيامتُهُ.

٢- القيامة الكبرىٰ: وهي البعث بعد الموت، وجمع النَّاس ليوم لا ريب فيه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ -٨].

هكذا سيكون لا محالة، وإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدَّر أن يقوم النَّاس من قبورهم لربِّ العالمين حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وما معنىٰ: غُرلًا؟ بمعنىٰ أنَّ الغرارة الَّتي هي الحَشَفة تعود علىٰ الذَّكَر؛ لأنَّه يُبعَث كما خُلِق بدون خِتَانٍ، يُبعث النَّاس علىٰ هذه الهيئة؛ حُفاةً عُراةً. حُفاةً أي: لا نعال لهم. عُراةً: لا ثياب لهم.

وأوَّل مَن يُكسَىٰ من الخلائق: إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما ثبت ذلك في الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ.

وقولُه: «وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ»: سيكون هذا في يومٍ مقدارُهُ خمسون ألف سنةٍ، ويُقَال: إنَّ مقدار الوقوف في ذلك الموقف يُقدَّر بخمس مئة عام، يَشِيب فيه الوليدُ، ويَعظُمُ فيه الكربُ، ويكون النَّاس في رَشْحِهم علىٰ قَدر أعمالهم، فهذا رَشْحُهُ إلىٰ كعبيه، وهذا إلىٰ نصف ساقيه، وهذا إلىٰ ركبتيه، وهذا يلجمه العرق إلجامًا، والعياذ بالله.

ثمَّ بعد ذلك يشفع النَّبيُّ ﷺ في فصل القضاء بطلبٍ من المؤمنين؛ فيأمر الله بفصل القضاء بعد شفاعة النَّبيِّ ﷺ، وبعد أن يتنصَّل الرُّسُل جميعًا من هذه الشَّفاعة: آدم، ونوحٌ، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ - عليهم الصَّلاة والسَّلام -؛ فكلُّهم يَتنصَّلون منها، ويعتذرون منها، فيشفع النَّبيُّ ﷺ، ويأمرُ الله بفصل القضاء، وحينئذٍ تُنشر للمؤمنين الدَّواوين، ويُعطَون صحف أعمالهم بأيمانهم، وأمَّا الكافر؛ فتُعطىٰ صحيفتُه من وراء ظهره، ولا تُوجَد له حسنةٌ؛ لأنَّ حسنات الكُفَّار حابطةٌ - والعياذ بالله -، وإنْ نفعتْهم فإنَّها تنفعُهم في الدُّنيا، نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ.





حوض النَّبيِّ ﷺ ومكانه وصفاته

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

التعليق:

أقول: اختلف أهل العلم في الحوض، فاختلفوا في موضوعه في مسائل:

أوَّلًا: هل الحوض خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ من بين سائر الأنبياء، وأمَّته من بين سائر الأمم، أَم أنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضًا؟ أمَّا كونه خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ فهذا هو الظَّاهر من الأدلَّة، مثل قول تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر]؛ فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: **يُفهم منه أنَّ الله أعطىٰ نَبيَّه مُحمَّدًا ﷺ الكوثر دون غيره من الأنبياء.**

وقَد قال بعض أهل العلم: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضًا»[1]؛ وممَّن قال بذلك: أبو الحسن البربهاري[2].

ثانيًا: **هل الحوض قبل الصِّراط أو بعده؟** الظَّاهر أنَّه قبل الصِّراط، وقَد قال

---

(١) أخرج الترمذي (٢٤٤٣) عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**»، قال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وصحَّحه الألبانيُّ في «**الصَّحيحة**» (١٥٨٩).

(٢) «**شرح السُّنَّة**» للبربهاري، (ص ٢٦ ابن القيِّم/ ط ١) (١٣).

النَّبيُّ ﷺ: «تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الحَوضَ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاس عَنهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَن إِبِلِهِ». قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتعرِفُنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، لَكُم سِيمَا لَيسَت لِأَحَدٍ غَيرِكُم، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثَارِ الوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنكُم، فَلَا يَصِلُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ مِن أَصْحَابِي!! فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ، فَيَقُولُ: وَهَل تَدرِي مَا أَحْدَثُوا بَعدَكَ؟ !»[١].

والظَّاهر: أنَّ هذا الحوض يشرب منه مَن شرب من شريعة النَّبيِّ ﷺ، أُشربها قلبُهُ، وأيقنَت بها نفسُهُ، أمَّا مَن بَعُدَ عنها، ولم يؤمن بها، ولم يَتَّبعها، فالظَّاهر أنَّه يُحرَم من شرب حوض النَّبيِّ ﷺ الَّذي مَن شرب منه شربةً لا يظمأ بعدها أبدًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

إذًا؛ مَن لم يأخذ حظًّا من الشَّريعة فهو من الظَّالمين الَّذين كُتِبَت عليهم الشَّقاوة.

ثالثًا: **أجمَعَ أهل العلم علىٰ إثبات الحوض**، ووردت فيه أحاديثُ كثيرةٌ؛ قال ابنُ القَيِّم: «وقد روىٰ أحاديث الحوض أربعون صحابيًّا، وكثيرٌ منها أو أكثرها في الصَّحيح»[٢].

وخالفت في ذلك المعتزلة، فأنكروا الحوضَ، وأوَّلوا النُّصوص الواردة في ذلك، وحوَّلوها عن ظواهرها.

رابعًا: **أوصاف الحوض**؛ فعَن عَبدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ: عَن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلتُ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «حاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود» (١٣/ ٧٩ المكتبة السلفية) ط/ ٢.

يَا رَسُولَ اللهِ، مَا آنِيَةُ الحَوضِ؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لآنِيَتُهُ أَكثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاء وَكَواكِبِهَا؛ أَلَا فِي اللَّيلَةِ المُظلِمَةِ المُصحيَةِ آنِيَةُ الجنَّة، مَنْ شَرِبَ مِنهَا لَم يَظمَأ آخِرَ مَا عَليهِ، يَشخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجَنَّة؛ مَنْ شَرِبَ مِنهُ لَم يَظمَأ، عَرضُهُ مِثلُ طُولِهِ، مَا بَينَ عَمَّانَ إِلَىٰ أَيلَةَ؛ مَاؤُهُ أَشَدُّ بيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ**»[١].

وعنِ ابنِ أبي مُليكةَ قال: قال عبد الله بنُ عمرٍو ﵁: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**حَوضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، مَاؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطيَبُ مِنَ المِسكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنهَا، فَلَا يَظمَأُ أَبَدًا**»[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ حَوضِي أَبعَدُ مِنْ أَيلَةَ مِن عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلجِ، وَأَحلَىٰ مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكثَرُ مِن عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَن حَوضِهِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتعرِفُنَا يومَئِذٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، لَكُم سِيمَا لَيسَت لِأَحَدٍ مِن الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ**»[٣]. إلىٰ غيرها من الأحاديث الَّتي تدلُّ علىٰ أوصافِ حوضِ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، وبالله التَّوفيق.

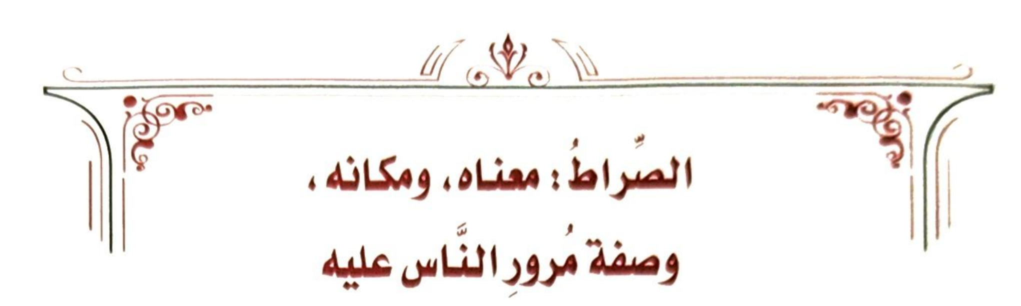
---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩) مِن حديثِ عبد الله بن عمرو ﵄.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧) مِن حديثِ أبي هريرة ﵁.





الصِّراطُ: معناه، ومكانه، وصفةُ مُرورِ النَّاس عليه

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ، وَيُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ.

التعليق:

أقول: الصِّراط: هو الجسرُ الَّذي فوق جهنَّم، وهذا الصِّراط الَّذي كان في الدُّنيا معنويًّا، تحوَّل يوم القيامة حسِّيًّا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

فالصِّراط - أصلًا - هو الطَّريق، والمقصود به الطَّريق الَّذي رسمه الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه ﷺ، وهو الشَّرع الَّذي أمره أن يسير عليه، فالصِّراط بدل ما كان في الدُّنيا معنويًّا، فإنَّه ينقلب يوم القيامة حسِّيًّا، فمَنِ استقامَ عليه في الدُّنيا، يستطيع السَّير عليه حينما يكون منصوبًا علىٰ النَّار وهو أدقُّ من الشَّعر، وأحدُّ من السَّيف، وبقدر المسارعة إلىٰ الحقِّ في الدُّنيا تكون المسارعة عليه يوم القيامة.

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة وحُذيفةَ بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قالا**: قال رسول الله ﷺ: **«يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ،**

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اِسْتَفتِح لنَا الجنَّة؟ فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ ! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَىٰ اِبْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ.

قَالَ: فَيَقُولُ إِبرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اِعْمِدُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ ﷺ؛ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ؛ اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَىٰ ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ، فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ؛ فَتَقُومَانِ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالبَرْقِ».

قَالَ: قُلتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ البَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوا إِلَىٰ البَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَينٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ؛ وَشَدِّ الرِّجَالِ؛ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُم، وَنَبِيُّكُم قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّم سَلِّم؛ حَتَّىٰ تَعْجِزَ أَعْمَالُ العِبَادِ؛ حَتَّىٰ يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا. قَالَ: وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَت بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ، وَالَّذِي نَفسُ أَبِي هُرَيرَةَ بِيَدِهِ، إِنَّ قَعرَ جَهنَّمَ لَسَبعُونَ خَرِيفًا»[١].

وهذا كلُّه لأُمَّة الإجابة، أمَّا أُمَّة الدَّعوة الَّذين لم يستجيبوا قطُّ[٢]، فأولئك يُسَاقون إلىٰ أبواب جهنَّم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤].

وكلُّ مَن كان بينهم تشابهٌ في الأعمال؛ كالمشركين الخُرافيِّين، واليهود المغضوب عليهم، والنَّصارىٰ الضَّالِّين، وغيرهم، فإنَّهم يدخلون النَّار من بابٍ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) من حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) وهم الكفَّار والمنافقون نِفاقًا اعتقاديًّا.

واحدٍ، قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٦]. وبالله التَّوفيق.





القنطرة بين الجنة والنار

فَمَنْ مَرَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وُقِفُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

التعليق:

أقول: يظهر من هذا أنَّ الحقوق الَّتي بين المسلمين والكُفَّار يُقتصُّ منها قبل الصِّراط.

وقَد جاء في الحديث القدسي من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّىٰ قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ: قُلْ لَهُ: جَابِرٌ عَلَىٰ الْبَابِ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوْبَهُ فَاعْتَنَقَنِي، وَاعْتَنَقْتُهُ.

فَقُلْتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ، أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - **عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**» قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ**» قَالَ:

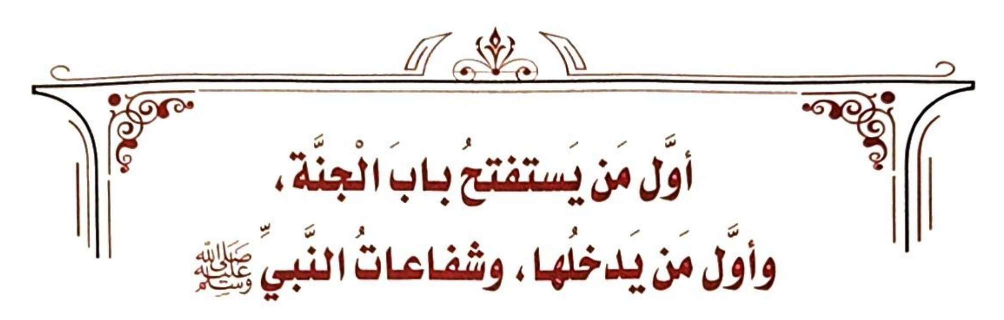
قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»[١].

ويظهرُ مِن هذا الحديث أنَّ الحقوقَ بين المُؤمنين تُؤخَّر، فإذا وصلوا إلىٰ هذه القنطرة، اقتصَّ لبعضهم من بعضٍ، ثمَّ بعد ذلك يُؤذَن لهم في دخول الجنَّة، فمَن تجاوز الجسر، وسَلِمَ مِن السُّقُوطِ في جهنَّم، فإنَّه لابدَّ له مِن دخولِ الجنَّة قبْل العذابِ، وباللهِ التَّوفيقُ.



---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥) (١٦٠٨٥)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والترهيب» (٣٦٠٨): «حسن لغيره».



أوَّل من يستفتح باب الجنَّة، وأوَّل من يدخلها، وشفاعات النَّبيِّ ﷺ

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ، وَلَهُ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَىٰ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الْأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

التعليق:

أقول: إنَّ الشَّفاعة في فصل القضاء يوم القيامة حتَّىٰ يستريحوا من الموقف، ويستحقُّ منهم منزله بعمله، وقد ورد من الأدلَّة أنَّ المؤمنين يوم القيامة عندما يَطُولُ عليهم الموقف والانتظار يمشي بعضهم في بعضٍ: «فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ

غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ! فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ

قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي. ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ»[(١)].

فيأمر الله عَزَّوَجَلَّ بفصل القضاء، فتكون أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ هي الأولىٰ من الأمم يفصل بينها، ولهذا يقول النبيُّ ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيَامَةِ؛ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَومُهُمْ الَّذِي فُرِضَ عَلَيهِم، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ؛ الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَىٰ بَعدَ غَدٍ»[(٢)]، فالمقامُ المحمودُ هي الشَّفَاعة الأولىٰ في فصْل القضاءِ.

ومرَّةً أخرىٰ بعد أن يمرَّ المؤمنون علىٰ الصِّراط، ويُهذَّبون في القنطرة عند ذلك يشفع لهم مَرَّةً أخرىٰ في دخول الجنَّة، فيشفع، ويفتح باب الجنَّة بشفاعته، ويكون أوَّلُ مَن يدخلها من الأمم أمَّته.

وهاتان الشَّفَاعتان خَاصَّتان بالنَّبيِّ ﷺ، والشَّفَاعة الثَّالثة تكون مشتركةً بينه وبين غيره من النَّبيِّين والصِّدِّيقين وغيرهم، وهي الشَّفَاعة في قومٍ استحقُّوا دخول النَّار، فيشفع فيهم أن يخرجوا منها.

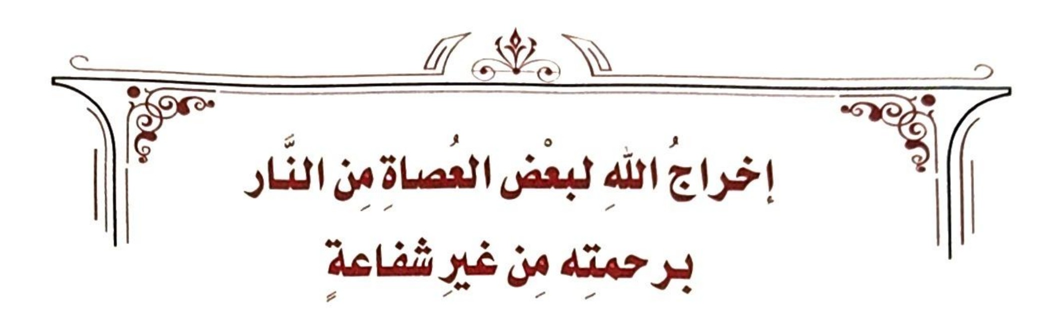
---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٨٧٦)، ومسلمٌ (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا تلك القنطرة، فهي مكانٌ بين الجنَّة والنَّار، يقتصُّ فيه لبعضهم من بعضٍ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا، دخلوا الجنَّة، إذ إنَّ الجنَّة طيِّبةٌ لا يدخلها إلَّا الطَّيِّبون، جعلَنا اللهُ منهم، وبالله التَّوفيق.





إخراج الله لبعض العصاة من النار برحمته من غير شفاعة

وَيُخْرِجُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، وَيَبْقَىٰ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا، فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَتَضَمَّنُهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالثَّوَابِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

التعليق:

وأقول: قد ورد في النُّصوص الشَّرعيَّة من أحاديث الشَّفاعة؛ منها ما وَرَدَ عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ** تبارك وتعالى **لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ** عز وجل **مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ** عز وجل **يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»[1].

وهذا ما يجعلُنا نطمعُ في الجنَّة كثيرًا، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلقُ للأجزاء الفاضلة من الجنَّة أقوامًا لم يُقدِّموا خيرًا قطُّ، ولم يكونوا من أهل الدُّنيا، فيسكنهم إيَّاها بفضله ورحمته إلَّا أنَّا نَتخوَّف من تقليب القلوب، وتحويلها عن الإيمان إلىٰ الكفر - والعياذ بالله -، فيستحقُّ العبد بذلك النَّار، ونحن نسألَ الله العفوَ والعافيةَ، وأنْ يُعافيَنا مِن تقليب القلوب، ومن الزَّيغ بعد الاستقامة.

نسألُه - جلَّت قُدرتُه - أنْ يعصمَنا من ذلك حتَّىٰ نلقاه علىٰ الإيمان الَّذي نستحقُّ به دخول الجنَّة، وبالله التَّوفيق.



---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الإيمانُ بالقدَرِ، وبيانُ ما يتضمَّنُه

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

التعليق:

أقولُ: القدَرُ هو ما قَدَّره الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العبادِ، وكتبَه عليهم مِن خيرٍ وشرٍّ، وكفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، وقد جاء في الحديث: «**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

وقد ورَد أنَّ الصَّحابة - رضوان الله عليهم - قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَا نَعْمَلُ، هُوَ شَيءٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَوْ شَيْءٌ مُسْتَأْنَفٌ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ شَيْءٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ إِذًا؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(٢).

وفي حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ**

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٤) (١٤٢٩٧) عن سُراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والتِّرمذي (٣١١١) عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

وأخرجَ أصلَه البخاريُّ (٤٩٤٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥ - ٦] الآيةَ».

مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنثَىٰ؛ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[(١)].

فهذه أدلَّةٌ علىٰ القَدَر، وأنَّه قد فُرِغ منه، وفي هذه الجمل الَّتي كتبها ابن تيمية بيانٌ لذلك.

قوله: «وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ».

أقول: درجات الإيمان بالقَدَر أربعُ درجاتٍ:

١- **الدَّرجةُ الأولىٰ:** عِلمُ الله الأزليُّ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك: عِلمُهُ بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

٢- **الدَّرجةُ الثَّانية:** كتابة ذلك العلم في اللَّوح المحفوظ.

٣- **الدَّرجةُ الثَّالثة:** مشيئة الله الشَّاملة، وقدرتُهُ التَّامَّة بكلِّ حادثٍ.

٤- **الدَّرجةُ الرَّابعة:** إيجاد الله لكلِّ المخلوقات، وأنَّه الخالق، وما سواه مخلوقٌ.

هذه مراتبُ القَدَر، وهي علىٰ سبيل الإجمال، فلو قَدَّر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ فلانًا يُخلَق بين أبوين هما فلانٌ وفلانةٌ، يلتقيان علىٰ ما قُدِّر كونًا وشرعًا من النِّكاح الشَّرعيِّ، أو قُدِّر كونًا، ولم يُقدَّر شرعًا من الزِّنا، فينشأ من ذلك الالتقاء الابنُ أو البنتُ الَّذي قدَّر الله، وكتب وجوده أو وجودهما من الأبوين في زمانٍ كذا، ومكانٍ كذا، وأنَّه قَدَّر لذلك المخلوق حين يخلقه رِزقًا وأجلًا، وهكذا إلىٰ أن يموت.

وهناك تقسيمٌ آخرُ للقَدَر، وأنَّه أربعُ مراتب:

١- **المرتبة الأولىٰ:** القَدَرُ الأزليُّ للأشياء، وكتابة ذلك القَدَر في اللَّوح المحفوظ.

٢- **المرتبة الثَّانية:** القَدَرُ العمريُّ، وهو أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يرسل المَلَك إلىٰ النُّطفة

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

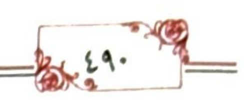
بعد كمال أربعة أشهرٍ، فيُصوِّرها، وينفخ فيها الرُّوح بعد كمال الأربعين الثَّالثة، ويُؤمَر بكَتبِ رِزقِه، وأَجلِه، وعملِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

٣- المرتبة الثَّالثة: القَدَرُ الحوليُّ، وهو أيضًا مأخوذٌ من القَدَر الأزليِّ، وهذه المرتبة تكون ليلة القدر الَّتي أخبر الله عنها أنَّه أنزل القرآن فيها كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣]، وَوَصَفها بأنَّه: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: ٤]. فيُكتَب الَّذين يموتون في هذا العام، والَّذين يُخلَقون فيه، وتُكتَب المصائبُ، وغيرُ ذلك.

٤- المرتبة الرَّابعة: القَدَر اليوميُّ؛ وهو أنَّ الحَفظة يكتبون أعمال العباد، ويرفعونها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويُطبِّقونها علىٰ ما هو موجودٌ في اللَّوح المحفوظ، فتوجد كذلك[1]، وهذه هي المرتبة الأخيرة الَّتي ينفذ فيها القَدَر، قال الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [الجاثية: ٢٨]. وبالله التَّوفيق.



(١) قال الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرَّعد: ٣٩].





تفصيلُ مراتبِ القدَر

الدَّرجةُ الأولى: العلمُ

فَالدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ، فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتْ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتْ الصُّحُفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ، فَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

التعليق:

أقول: جعل الشَّيخ مراتب القَدَر مرتبتين، وكلُّ مرتبةٍ لها درجتان:

فالأولى: عِلمُهُ الشَّامل بكلِّ شيءٍ مِمَّا سيكون في هذا الكون؛ فقد علم الله أنَّ

كلَّ واحدٍ من المخلوقين سيخلق في وقتٍ كذا، وسيعيش كذا، ويموت في بلدة كذا، وهكذا عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ شاملٌ لجميع المخلوقات، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

فكلُّ شيءٍ في الكون قد عَلِمَه الله جَلَّوَعَلَا من حركاتٍ، وسكناتٍ، وأفعالٍ، وأقوالٍ، وكلُّ ذلك قد كَتَبه القلم بأمر الله في اللَّوح المحفوظ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

فالقَحْطُ والجَدبُ، والمطرُ والخصبُ، والضِّيقُ والسَّعةُ، والمُلكُ وزوالُه، والحركةُ والسُّكون، كلُّ ذلك بقدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال - جلَّ من قائل -: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

فأخبر في الآية الأولىٰ أنَّ المصائبَ والنِّعَم مكتوبةٌ مِن قبل خَلْق السَّموات والأرض، وهذه الكتابة الَّتي في اللَّوح المحفوظ يخرج منها التَّقدير العمريُّ، وهو الَّذي يكتبه ملَك الأجنَّة حينما يدخل علىٰ الجنين، ويُصوِّره، وينفخ فيه الرُّوح؛ ثمَّ يكتبُ رزقَه، وأجلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

والتَّقدير الحوليُّ: وهو الَّذي يكون ليلة القدر، فيُنْسَخ من اللَّوح المحفوظ ما يكون في نفس العام؛ من مصائبَ ونِعَمٍ، ومُلكٍ، وزوالٍ، وموتٍ، وحياةٍ؛ إلىٰ غير ذلك... إلىٰ ليلة القدر من السَّنَة الآتية، ثمَّ يستخرج منه التَّقدير اليومي؛ وذلك حين التَّنفيذ، فيكتب الله عَزَّوَجَلَّ ما هو عاملٌ في يومه ذلك، أو في ليلته تلك؛ وهكذا... ثمَّ يطبق علىٰ ما في اللَّوح المحفوظ، فيُوجَد كما هو، فهذه

مراتبُ القدَر، وهذا هو القدَر الكونيُّ الَّذي قدَّر الله فيه الإيمانَ والكُفرَ، والطَّاعةَ والمعصيةَ، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

الدرجة الثانية: المشيئة

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلا رَبَّ سِوَاهُ.

التعليق:

أقول: في هذه الدَّرجة مشيئة الله النَّافذة، وهو إخراج ما كان معلومًا ومكتوبًا إلىٰ حيِّز الوجود، فما كتب من خَلْقٍ، وما قُدِّر من مقادير؛ فِعليَّةً أو قوليَّةً، فستكون كما قُدِّرت، وكما علم الله، وكتب في الأزل، وقد ورد أنَّ الملائكة الكرام الكاتبين يكتبون أعمال العباد، وما يجري منهم، ثمَّ يعرجون بها إلىٰ السَّماء، ويطبقونها علىٰ ما هو موجودٌ في اللَّوح المحفوظ، فإذا هي كما ذُكِرَ، وهذا دليلٌ علىٰ قُدرتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفاذ مشيئته وإرادته: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

الفرقُ بين القدَر الكَونيِّ والأمر الشَّرعيِّ

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ

سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

التعليق:

أقول: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلَق الجنَّة والنَّار، خلقَ الجنَّةَ للمطيعين، والنَّارَ للعاصين، وأَمَرَ النَّاس جميعًا بطاعته، والدُّخول في الإسلام، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

إذًا؛ فالله خَلَق النَّار، وخَلَق لها أهلًا، وخَلَق الجنَّةَ، وخَلَق لها أهلًا؛ فأهل الجنَّة أهلُ طاعته، وأهلُ النَّار أهلُ معصيته، والله يحبُّ المحسنين، ويحبُّ المُقسطين، ويبغض الكافرين ويبغض الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، وإن كان الله قد قدَّر الكفرَ في اللَّوح المحفوظ وكَتَبه؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كَتَبه كونًا، ولم يَرْضَه شرعًا، كما كَتَب الإيمان كونًا، ورضيه شرعًا، ولهذا فإنَّ القَدَر سرٌّ من أسرار الله جَلَّوَعَلَا.

فعلينا أن نؤمن بأنَّ الله يرضىٰ لعباده الإيمانَ، ويدعوهم إلىٰ الجنَّة، ويدعوهم إلىٰ المغفرة والرَّحمة، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والكفر والمعاصي، وقَد قال بعض أهل العلم: «لولا أنَّ الله قَدَّر الكفر والنَّار والجزاء الَّذي سيناله أهل النَّار، وسينال مَن ينال من العقوبات ما يظهر به اسمه المنتقم، واسمه الجبَّار إلىٰ غير ذلك من الأسماء الَّتي تدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ»؛ يعني: اسم

الجَبَّار، والقَهَّار، والقويّ، والمنتقم، والقادر، وما أشبه ذلك، هذه ما أظهرت معانيها إلَّا عقوباته للكُفَّار، فهو قَدَّر الكفرَ كونًا، ولم يَرْضَه شرعًا، وتقديره له كونًا من أجل أن يظهرَ به معاني أسمائه، وأيضًا أنَّه قَدَّره عليهم كونًا، وهم يعملونه مختارين لم يجبرهم عليه، ولا ظلَمَهم به.

وهو القويُّ، والجبَّار، والقهَّار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ومن هنا نعلم أنَّ الله قَد خلَق العباد، وقَسَمَهم إلىٰ سعداء وأشقياء، ومؤمنين وكَفَرة، وجعل لهؤلاء دارًا؛ فالكُفَّار والفُسَّاق والفُجَّار يعاملهم الله بعدله، والمؤمنون والمقسطون يعاملهم الله بفضله، وله في ذلك الحكمة التَّامَّة، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

الدَّرجة الثَّالثة والرَّابعة: العبادُ فاعلون لأعمالِهم وقادرُون عليها

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ.

وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ.

وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخالق قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ، يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّىٰ سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

التعليق:

أقول: يقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا

يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦]، ويقول تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٠ - ١٣].

ففي هذه الآيات أسندَ التَّذْكرة وعدمها إليهم، فهم فاعلون لها حقيقةً: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨]. وأسندَ الاستقامةَ إليهم، وهكذا في مواضعَ مُتعدِّدةٍ من القرآن، بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّهم فاعلون لأفعالهم، وإن كانت مشيئتهم واختيارهم خاضعةً لمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال - جلَّ من قائل -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهل دعاهم الله إلىٰ اتِّباع شيءٍ مستحيلٍ؟

الجواب: لا؛ لأنَّ الله يَتنزَّه عن ذلك، وهكذا أيضًا قول الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. فأَمَرهم بالاتِّباع لما أنزل، فهل أَمَرهُم الله بأمرٍ مستحيلٍ عليهم؟

الجواب: لا، بل أمرهم بما هو في مقدورهم وإمكانهم، ولكنَّ أهل الضَّلال يريدون التَّلبيس علىٰ النَّاس، فيزعمون لهم مزاعم تخالف الحقَّ، وإنَّ كلَّ واحدٍ منَّا ليعرف نفسه أنَّه يعمل الأعمالَ الاختياريَّة باختيارِه، فهو يمشي ويقعد، ويذهب ويجيء، ويأكل ويشرب، ويتكلَّم؛ كلُّ ذلك يفعله باختيارِه؛ فكيف يُقال: إنَّ العبد بمنزلة الحجر الَّذي يدهده، أو الغصن الَّذي يُحرَّك حركةً قسريَّةً، وكيف أيضًا يُقال: إنَّ العبد هو الَّذي يخلق أفعال الشَّرِّ، والله تعالىٰ يقول عن نبيِّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وأهل القَدَر ينقسمون إلىٰ قسمَين:

الفئة الأولىٰ: قَدَريَّةٌ غُلاةٌ: وهم الَّذين يقولون: إنَّ الله قَدَّر علىٰ العباد الكفر،

والعقائد الفاسدة، وعمل الفواحش، والفجور، ثمَّ يعاقبهم عليها، ويأخذون ببيتٍ من الشِّعر:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

الفئة الثَّانية: القَدَريَّة النُّفاة الَّذين يقولون: «إنَّ أفعال العباد تنقسم إلىٰ قسمين: الأفعالُ الخيريَّة، مخلوقةٌ لله، وأفعال الشَّرِّ مخلوقةٌ للعبد».

وهذه العقائد كلُّها باطلةٌ؛ لأنَّه يلزم من القول الأوَّل - وهو قول القَدريَّة الغُلاة - أنَّ الله عَذَّب عباده وهو ظالمٌ لهم، وهذا طعنٌ في الله، وسبٌّ له، وذمٌّ له بالظُّلم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخبر عن نفسه أنَّه: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]، وقال جلَّ من قائل: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ [التوبة: ٧٠]، وقال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، فمَن زعم هذا الزَّعْم، فَقَد نَسَب الظُّلم إلىٰ الله، وكَذَّب بهذه الآيات، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»[(١)]، فهو يخبرنا أنَّه حَرَّم الظُّلم علىٰ نفسه، ونحن نشتمه، وننسب الظُّلم إليه، هذا - واللهِ - هو الباطل مع علم كلِّ عبدٍ أنَّه يعمل من الأعمال مختارًا لها، ليس هناك سلطةٌ تُملي عليه شيئًا لم يُرِده، وأمَّا علىٰ المعنىٰ الثَّاني وهو أنَّ الله يخلق أفعال الخير، والنَّاس يخلقون أفعال الشَّرِّ، وأنَّه يلزم من ذلك جَعْل خَالِقَين؛ فالإنسانُ خالقٌ للشَّرِّ، والله خالقٌ للخير.

ومَن يقول بهذا القول فَقَد زَعَم أنَّه يقع في ملك الله ما لا يريد، ويلزم من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ذلك أنَّه مقهورٌ ومغلوبٌ؛ إذ إنَّه يريد الخير، والإنسانُ وشيطانُهُ يخلقان الشَّرَّ، ويفعلانه مراغمةً لله عَزَّوَجَلَّ، وخروجًا عن سلطانه، وفرضًا لما لا يريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فأهل هذه العقيدة أثبتوا خَالِقَين، وأشبهوا المجوس في عقيدتهم.

وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: إنَّ الإنسانَ هو الَّذي يعمل أعماله، ويفعل أفعاله مُختارًا لها، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدَّر الكفرَ كونًا، ومَنَعه شرعًا، وقدَّر الفسوقَ والعصيان والفواحش كونًا، ومَنَعها شرعًا، وأنَّ لله في عبادِه الحكمةَ البالغةَ، وله عليهم الحُجَّة الدَّامغة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأنَّ أفعالُ العبادِ كلّها واقعةٌ باختيارهم، فهي منهم فِعلًا وكَسبًا؛ وهي من الله خلقًا وقَدَرًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول عن إبراهيم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]. ولا يُعكِّر علىٰ هذه العقيدة ما ورد في كتاب الله عن الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، وقول النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1]؛ فإنَّ هذا معناه عند أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الشَّرَّ لا يُنسَب إلىٰ الله تنزيهًا له عن ذلك، وإلَّا فالله الَّذي خَلَق الشَّرَّ والخير، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

علمًا بأنَّ الله لا يخلق شرًّا محضًا، فالشَّرُّ الَّذي يُقدِّره الله عَزَّوَجَلَّ يكون خيرًا من جانبٍ، وشرًّا من جانبٍ آخر، وبالله التَّوفيق.



---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



حقيقةُ الإيمانِ، وحُكمُ مرتكبِ الكبيرةِ

فَصْلٌ

وَمِنْ أُصُولِ أَهلِ السُّنَّة وَالجَماعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوارِحِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ، لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠].

وَلا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِسْلامَ بِالْكُلِّيَةِ، وَلا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ؛ بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ المُطلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلُه ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ

يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(١)].

وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؛ فَلا يُعْطَى الِاسْمُ الْمُطْلَقَ، وَلا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ.

التعليق:

أقول: لقد ضلَّت في هذا الباب طائفتان كبيرتان، وإن قلنا ثلاث طوائف لم نبعد عن الحقيقة، وهذه الطَّوائف منها طائفتان غَلَت، وطائفةٌ فرّطت:

فأمَّا الطَّائفتان اللَّتان غَلَتَا فهما: الخوارج والمعتزلة، فإنَّهم حكموا على المسلم الَّذي يرتكب الكبيرة بأنَّه قد خرج من الإسلام، واستوجب الخلود في النَّار.

فأمَّا الخوارج فصرَّحوا بكُفرِ مُرتكبِ الكبيرة، وأمَّا المُعتزلة فقالوا: إنَّه في منزلةٍ بين المنزلتَين في الدُّنيا، وأمَّا الآخرة فقَدِ اتَّفقوا على أنَّه مخلَّدٌ في النَّار، وهذا ضلالٌ وخروجٌ عن طريق الحقِّ.

وأمَّا الطَّائفة المُفرِّطة: فهي المرجئة، والَّتي قالت: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، وجعلوا فُسَّاق المؤمنين إيمَانهُم وإيمانُ أبي بكرٍ بمنزلةٍ واحدةٍ.

وقالت المرجئة: إنَّ الإيمان التَّصديقُ، والتَّصديقُ واحدٌ لا يتفاوت، وهذا باطلٌ، فهم نفوا زيادة الإيمان ونقصانه، وجعلوا الإيمان درجةً واحدةً.

فهذه الطَّوائف الَّتي ضَلَّت في باب الإيمان.

وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة، فجعلوا مرتكبَ الكبيرة مؤمنًا، ناقصَ الإيمان، أو مسلمًا فاسقًا، وَاستدلُّوا على ذلك بأدلَّةٍ، منها قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ الآية، والَّتي استدلَّ بها المؤلِّف سابقًا:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأوَّلًا: أنَّ الله سمَّاهم مؤمنين جميعًا[(١)]، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فنسبهم جميعًا إلىٰ الإيمان مع إثبات الاقتتال بينهم، وفي الآية الأخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فجعلهم الله أخوين، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، فسمَّىٰ القاتل أخًا للمقتول وأوليائه.

ثانيًا: عن عُمر بن الخطَّابِ أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ عَهدِ النَّبيِّ ﷺ كَانَ اسمُهُ عَبدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ: حِمَارًا، وَكَانَ يُضحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ؛ فَأُتِيَ بِهِ يومًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القومِ: اللَّهُمَ الْعَنْهُ، مَا أَكثَرَ مَا يُؤتَىٰ بِهِ! فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لا تَلعَنُوهُ، فَوَاللهِ، مَا عَلِمتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[(٢)].

وَجاء بعده: عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بِسَكرَانَ، فَأَمَرَ بِضَربِهِ، فَمِنَّا مَن يَضرِبُهُ بِيَدِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضرِبُهُ بِنَعلِهِ، وَمِنَّا مَن يَضرِبُهُ بِثَوبِهِ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَخزَاهُ اللهُ؟ !! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا تَكُونُوا عَونَ الشَّيطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُم**»[(٣)]، فسمَّاه أخًا مع أنَّه كان يُكثِر من شُربِ الخَمرِ.

ثالثًا: من الأدلَّة علىٰ تفاوتِ الإيمانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**». قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**»[(٤)]، فهذا دالٌّ علىٰ التَّفاوُت في الإيمان.

---

(١) أي: الفئة الباغية، والفئة العادلة.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٧٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

رابعًا: أنَّ الَّذين يَمرُّون علىٰ الصِّراط يسقط كثيرٌ منهم في نارِ جهنَّم، ثمَّ يخرجون بشفاعة الشَّافعين، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**انْظُرُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ**»[1]. وفي رواية: «**ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا**»[2]. وفي رواية: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ**»[3]. وفي رواية: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[4]. وفي رواية: «**اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ.. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا**»[5].

فهذا يدلُّ علىٰ تفاوتِ الإيمانِ في قلوب المؤمنين، اللَّهمَّ نوِّر قُلُوبَنا بالإيمانِ، ورسِّخهُ فيها.

وقد جاء في الحديث القدسي بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «**فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»[6].

وحَميل السَّيل: هو ما يحمله من طينٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦) (١١١٤٣)، وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظِلال الجنَّة» (٦٣٤): «إسنادُه جيِّد».

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

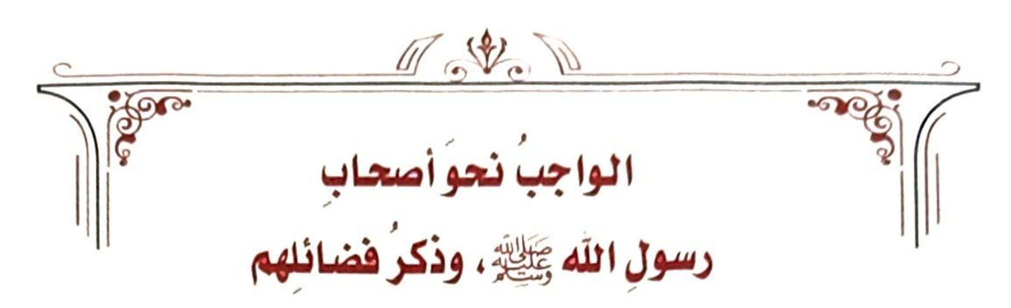
أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ أي: المكان الَّذي يُنقَل فيه التُّراب فيكون خَصبًا؛ نسأل الله أن يُثبِّتنا علىٰ دينه.

فهذه الأدلة تدلُّ علىٰ تفاوت الإيمان، لذلك قال أهل السُّنَّة: «المسلم مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرتِهِ»؛ فلا يُخرجونه من مُطلقِ الإيمان، ولا يعطونه الإيمانَ المطلقَ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مدح أقوامًا من المؤمنين بكمال إيمانهم، وأعمالهم الممتازة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ يعني: مهما عملوا من أعمالٍ فإنَّهم لا يَمُنُّون بها علىٰ ربِّهم، ولا يُدِلُّون بها عليه، بل هم مع ذلك قُلُوبُهُم وجلةٌ خائفةٌ؛ لأنَّهم راجعون إلىٰ الله، وليسوا يعلمون ما يحصل لهم.

والمهمُّ: أنَّ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة من الصَّحابة والتَّابعين هو المذهب الحقُّ الَّذي يجب المصير إليه، والَّذي تكون به النَّجاة دون الإفراطِ والتَّفريط، والغُلُوِّ والتَّقصيرِ.

تنبيهٌ: الأعمالُ شرطٌ في صِحَّة الإيمان، فلا ينفع أحدًا ادِّعاؤُهُ للإيمان إلَّا بالعمل إلَّا لمَن لم يتمَكَّن من العمل كالرَّجل الَّذي قُتل في أُحُد ولم يركع لله ركعةً، وكذلك الَّذي سَقَط من علىٰ راحلته فمات، وبالله التَّوفيقُ.





الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وذكرُ فضائلِهم

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»[١].

التعليق:

وأقول: إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يُعرَفون ويَتَميَّزون بسلامة ألسنتهم وقلوبهم لأصحاب رسول الله ﷺ؛ فقلوبُهُم سليمةٌ لهم من الطَّعنِ عليهم، والإزراءِ بهم، والذَّمِّ لهم، فهم يُعظِّمون أصحاب رسول الله ﷺ بقلوبهم، ويرفعون شأنهم بألسنتهم تبعًا لِمَا جاء في كتاب الله، وما جاء في سُنَّة رسول الله ﷺ؛ والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد أثنىٰ عليهم في مواضع من كتابه، منها في سورة (التَّوبة) حيثُ يقولُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩﴾ [التوبة: ٨٨ - ٨٩]، ويقولُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، والبيهقي - واللَّفظُ له - في «السُّنن الكبرىٰ» (١٠/ ٣٥٢) (٢٠٩٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، ويقول: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]. وهذه الآيات كلُّها في سورة (براءة).

ويقول في سورة (الفتح): ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويقول في سورة (الحشر) الآية (٨و٩): ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

ويقول النَّبيِّ ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنفق أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»**(١)؛ ومعنىٰ هذا الحديث أنَّ أَصحاب النَّبيِّ ﷺ الَّذين أنفقوا في حال الضَّعف والحاجة للمسلمين في أوَّل الإسلام أنَّ مُدَّ الواحد منهم أفضل مِمَّا لو أنفقَ غيرُهُم مثل أُحُدٍ ذهبًا، وفي هذا من الفضل ما فيه، وما لا يُستطَاع وصفه، ومن أجل ذلك فيجب أن نعرف لأصحاب رسول الله فَضلَهم، وأن ننشر الثَّناء عليهم، والاحترام لهم، وعدم الوقوع فيهم، وأن نُبيِّن حُرمة سَبِّهم وبغضهم بألسنتنا، وكتاباتنا، وأنَّ مَن فعل ذلك مِمَّن ينتسبون إلىٰ الإسلام من الخوارج والرَّوافض، فإنَّه علىٰ خطَرٍ عظيمٍ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

فضلُ الصَّحابةِ وموقفُ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ منهم

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ - وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ - وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثَ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ -: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[١]. وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؛ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ، وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا، لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

التعليق:

أقول: قَد تقدَّم لنا في الفصل قبل هذا بيانُ فضائل الصَّحابة، والآياتُ والأحاديث الدَّالَّة علىٰ ذلك، وأنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يعرفون للصَّحابة فَضلَهم علىٰ مراتبهم، ويشهدون لمَن شهد له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة، وأنَّ أهل بدرٍ قال لهم رَبُّهم: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، كَما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ، وأنَّه قَد صحَّ عنه - صلوات الله وسلامه عليه - أنَّه قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[(١)].

كان عددهم ما بين ألفٍ وأربع مئةٍ، وألف وخمسِ مئةٍ؛ وهي الشَّجرة الَّتي بايع النَّبيُّ ﷺ أَصحابَه تحتها في الحديبية، ويشهدون لمَن شهد له النَّبيُّ ﷺ أنَّه من أهل الجنَّة؛ كالعشرة المُبشَّرين بالجنَّة[(٢)]، وثابت بن قيس بن شَمَّاس[(٣)]،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠) (١٤٨٢٠)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

وأخرج مسلم (٢٤٩٦) عن جابر بن عبدِ الله قال: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» الحديث.

(٢) أخرج الترمذي (٣٧٤٧) عن عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ**»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرمذي» (٢٩٤٦).

(٣) أخرج البخاري (٣٦١٣) عن أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ، مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَىٰ بْنُ أَنَسٍ: فَرَجَعَ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

والمرأة الَّتي كانت تُصرَع[١]؛ فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ قوله في كلٍّ منهما أنَّه من أهل الجنَّة.

ويؤمنون بما تواتر به النَّقل عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه من أنَّ خير هذه الأُمَّة بعد نبيِّها: أبو بكرٍ، ثمَّ عُمرُ، ثمَّ عثمانُ[٢]، ويجعلون الرَّابع عليَّ بنَ أبي طالبٍ.

وأمَّا تَرتيبُهُم علىٰ الأفضليَّة بالنِّسبة للعموم؛ فأفضلُ الصَّحابة الَّذين أسلموا قبل بيعة العقبة، وهاجروا إلىٰ الحبشة، ثمَّ مَن هاجر بعد الحبشة إلىٰ المدينة، ثمَّ أصحاب بيعة العقبة وهم الأنصار خاصَّةً، ثمَّ أهل بدرٍ، ثمَّ أهل بيعة الرضوان - يعني: بيعة الحديبية -، ثمَّ مَن أسلم من قبل الفتح وقاتل، ثمَّ مَن أسلم من بعد الفتح وقاتل، ثمَّ صغار الصَّحابة؛ هذا ترتيبُهُم في الأفضليَّة.

وقد اختلَف السَّلف قديمًا فيمَن يكون هو الأفضل بعد أبي بكرٍ، وعمر، هل هو عثمان أو عليٌّ؟ جاء حديث عبد الله بن عمر: «**كُنَّا نَعُدُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ وَأَصحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ وَعُثمَانُ، ثمَّ نَسكُتُ**»[٣].

---

(١) أخرج البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦) عن عطاء بن أبي رباح قال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.

(٢) روىٰ البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩)، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «**أَبُو بَكْرٍ**»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ**»، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ**».

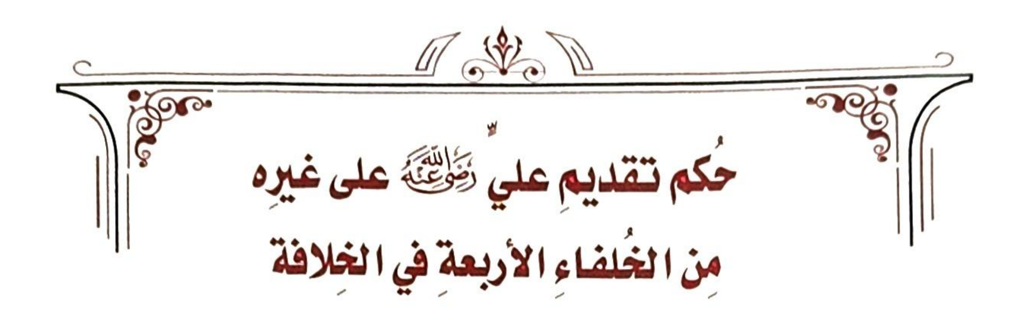
(٣) **أخرجه بهذا اللفظ**: أحمد في «مسنده» عن ابن عمر رضي الله عنهما (٢/ ١٤) (٤٦٢٦).

وأخرجه بألفاظ أخرىٰ البخاري (٣٦٥٥، ٣٦٩٧)، وأبو داود (٤٦٢٧، ٤٦٢٨)، والترمذي (٣٧٠٧).

وَقَدِ اتَّفَقَ أهل السُّنَّة والجماعة على تقديم عثمان على عليٍّ، والتَّربيع بعليٍّ رضي الله عنهما [١]، وهذا مذهب أهل السُّنَّة الَّذي استقرَّ عليه رأيهم، وبالله التَّوفيق.



(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٠٦): «وقد اتَّفق عامَّةُ أهلِ السُّنَّة مِن العلماءِ والعباد والأمراءِ والأجنادِ على أنْ يقولوا: أبو بكرٍ ثمَّ عمرُ؛ ثمَّ عثمانُ؛ ثمَّ عليٌّ رضي الله عنهم».



حكم تقديم عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على غيره من الخُلفاءِ الأربعةِ في الخِلافة

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - لَيْسَتْ مِنَ الْأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذلِكَ أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

التعليق:

أقولُ: خلافة الأربعة مُتَّفقٌ عليها عند أهل السُّنَّة والجماعة، وهم الخلفاء الرَّاشدون الَّذين نَوَّه بهم النَّبيُّ ﷺ في حديث العرباض بن سارية: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»(١).

إذًا؛ فالخُلفاء الرَّاشدون هم أبو بكرٍ، ثمَّ عمرُ، ثمَّ عثمانُ، ثمَّ عليٌّ، وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ**»؛ أي: لمخالفته النُّصُوص، واتِّفاق الصَّحابة على ذلك، وعدم بيعة معاوية لعليِّ بنِ أبي طالبٍ بعد قَتل عثمان، فليس ذلك من أجل أنَّه يدَّعي الخلافة لنفسه، وإنَّما كان ذلك من أجل أنَّه كان يطالب بِدَم ابنِ عمِّه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) (١٧١٨٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ رقم (٢٦٧٦)، وابنُ ماجه (٤٢). وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٢) أمَّا معارضة معاوية، فذلك من أجل أنَّه يطلب الثَّأر من قَتَلة عثمان، فكان عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لمعاوية: «بايع حتَّىٰ تجتمع الكلمة، فإذا اجتمعت الكلمة أخذناهم واحدًا واحدًا»، ومعاوية يقول: «لا أُبايعُ إلَّا بعْد =

ومَن قدَّم عليَّ بن أبي طالبٍ علىٰ أبي بكرٍ، وعمر، فهو رافضيٌّ ممقوتٌ ضالٌّ.

ومَن قدَّم عليًّا علىٰ عثمان، فقد خالف ما استقرَّ عليه رأي أهل السُّنَّة، ومَن خالف إجماع الصَّحابة، فقَد أَزْرَىٰ عليهم، وهو ضالٌّ بالنِّسبة للخلافة.

أمَّا تقديمُ عليٍّ رضي الله عنه بالنِّسبة للفضل: هل هو أفضل أو عثمان رضي الله عنه؛ فإنَّ مَن قدَّم عليًّا علىٰ عثمان في الفضل فهو كذلك أيضًا قَد أخطأ، وجانبَ الصَّوابَ، وخالفَ حديثَ عبد الله بن عمر: «**كُنَّا نَعُدُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ وَأَصحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ وَعُثمَانُ، ثمَّ نَسكُتُ**»[(١)].

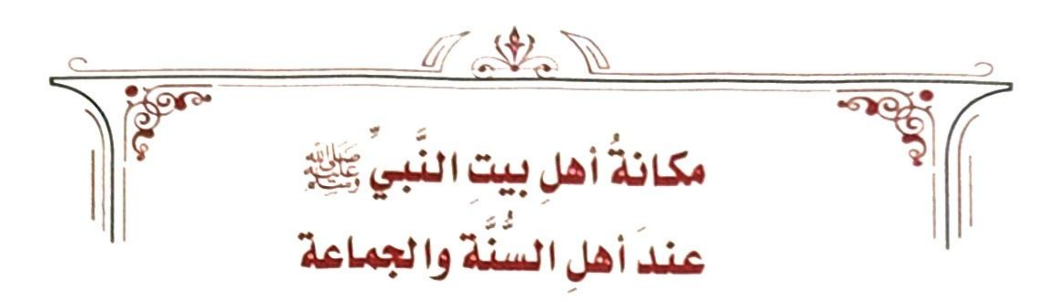
وعلينا أنْ نأخذَ بهذا الحديث، وأنَّ عُثمان مُقدَّمٌ علىٰ عليٍّ في الفضل أيضًا؛ ونتيجةً لذلك فقَد قدَّموه عليه في الخلافة، وبالله التَّوفيقُ.



=

قَتْل قَتَلةِ عُثْمان»، ثمَّ كان ما كان بينهما. انظر: «البداية والنِّهاية» لابن كثير (١٠/ ٤٢٩ وما بعدها) ط/ هجر.

(١) تَقدَّم تخريجُه قريبًا.



مكانةُ أهلِ بيتِ النَّبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السُّنَّة والجماعة

وَيُحِبُّونَ آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»[(١)]. وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ؛ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي»[(٢)]. وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[(٣)].

التعليق:

أقولُ: إنَّ الواجب علىٰ كلِّ مسلمٍ أنْ يُحِبَّ قرابةَ النَّبيِّ ﷺ نتيجةً لحبِّه ﷺ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ أي: إلَّا أن تَودُّوا قرابتي؛ وقرابتُهُ ﷺ هم آلُ عليٍّ، وآلُ جعفرٍ، وآلُ عقيلٍ، وآلُ العبَّاس، وبنو الحارث بن عبد المُطَّلب، وأزواج النَّبيِّ ﷺ من أهل بيتِهِ، ويشمل هؤلاء قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٧) (١٧٧٧) والترمذي (٣٧٥٨)، وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع الصَّغير» (٥٠٣٣).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

فالواجبُ أنْ نُحبَّ ونَتولَّىٰ أهل بيتِه السَّابقين، وأن نَتولَّىٰ من اللَّاحقين مَن يكون علىٰ الحقِّ والسُّنَّة من أهل بيته ﷺ.

فقول النَّبيِّ ﷺ: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»؛ يعني: بيته الَّذي كانوا معه علىٰ الدِّين والاستقامة، وكذلك مَن كان منهم علىٰ الدِّينِ والاستقامة من اللَّاحقين من أهل بيته، والنَّبيُّ ﷺ قَد تبرَّأَ من غير المُتَّقين في قوله: «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يَعْنِي فُلَانًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**»[1].

وَلَا شكَّ في خطأ مَن يجعل الآية شاملةً لأهل بيت النَّبيِّ ﷺ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنَّهم جميعًا معصومون مُطهَّرون كما يقوله الشِّيعة أو بعضهم، فأمَّا العصمة فإنَّها ليست لأحدٍ بعد النَّبيِّ ﷺ بنصِّ الوحي، وبإجماع سَلَف الأُمَّة علىٰ ذلك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في نبيِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنتُ أَكتُبُ كُلَّ شَيءٍ أَسمَعُهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفظَهُ، فَنهتنِي قُرَيشٌ، وَقَالُوا: أَتكتُبُ كُلَّ شَيءٍ تَسمَعُهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ، يَتكَلَّمُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، فأَمسَكتُ عَنِ الكِتَابِ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَومَأَ بِأُصبُعِهِ إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «**اُكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**»[2].

وقَد أشار إلىٰ ذلك شيخنا حافظ بن أحمد الحكمي في «الميمِّيَّة» فقال عن الحديث:

خيرُ الكَلامِ وَمِنْ خيرِ الأَنَامِ بَدَا ... مِنْ خيرِ قَلْبٍ بِهِ قَدْ فَاهَ خَيْرُ فَمِ

فمَن زَعَم أنَّ الآية[3] دَالَّةٌ علىٰ عصمة آل البيت جميعًا؛ فإنَّه قَد كَذَب في

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٥٣٢).

(٣) أي آية (الأحزاب) الآتي ذِكرُها.

زعمه ذلك، وحَمَّل الآية ما لا تحتمله؛ فإنَّ معنىٰ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ أي: أنَّ الله يريد تطهيركم - يا أهل بيت النَّبيِّ ﷺ - من الرِّجس بالتَّعاليم التي أوحاها إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأنتم بامتِثالكم لذلك وجميع المؤمنين تكونون قد عملتم بأسباب التَّطهير من الرِّجس، وليس معنىٰ ذلك أنَّهم معصومون من الخطأ؛ فهذا القولُ قولُ ضلالٍ، وقولٌ باطلٌ.

والواجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ: الرُّجُوع إلىٰ الحقِّ، وأن نتابع المؤمنين الأوَّلين في مَحبَّتهم لأهل بيت النَّبيِّ ﷺ مَحبَّةً لا تخرج عن نطاق الحقِّ، نحبُّ الصَّالح منهم لإسلامه، ولقرابته من النَّبيِّ ﷺ، ومَن عدا ذلك فلم يُوجِب الله سبحانه علينا مَحبَّته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي، وَلَيْسَ كَذَلِكَ. إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا**»[1]، وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) (٢٢١٠٥)، وابن حبَّان (٦٤٧)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٢١٢) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «التعليقات الحسان»، وفي «صحيح الجامع» (٢٠١٢).



مكانةُ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السُّنَّة والجماعة

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ، وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»[1].

التعليق:

أقول: أزواج النَّبيِّ ﷺ الإحدىٰ عشرة، وهنَّ: خديجة بنت خويلد، وسودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكرٍ، وأمُّ سلمة، وأمُّ حبيبة، وجويرية بنت الحارث، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي، وزينب بنت خزيمة الَّتي ماتت في حياته، وميمونة بنت الحارث الهلاليَّة، هؤلاء زوجاته الإحدىٰ عشرة، والسُّرِّيَّتين، وهما: ريحانة القرظية، وأمُّ إبراهيم ماريَّة القبطيَّة.

نؤمن بأنَّ هؤلاء زوجاته في الدُّنيا، وهنَّ زوجاتُهُ في الآخرة، وهنَّ أُمَّهات المؤمنين، ولهنَّ من المنزلة العالية ما لا يُوصَف؛ فخديجة بنت خويلدٍ هي أوَّل امرأةٍ تَزوَّجها، وهي أمُّ أولاده: القاسم، والطَّيِّب، وزينب، وأمُّ كلثوم، وفاطمة، وهي أوَّل مَن ناصره، وعاضده، وأعانه؛ إذْ كان لها مالٌ، وكانت ترسل مَن يُتاجِر في مالها بنسبةٍ مُعيَّنةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان ﷺ يثني عليها، وكان يذبح الذَّبيحة، ويُوزِّعها بين صديقاتها، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبَّهنَّ إليه، لم يتزوَّج بِكرًا غيرها، كان ينزل عليه الوحي في لِحَافِها، وإنَّ الله بَرَّأها مِمَّا رماها به أهل الإفك، وكانت أفقهَ نسائِه، حفظت من الحديث الشَّيءَ الكثير، وهي معدودةٌ من المُكثِرين من الحديث من أصحابه ﷺ، وهم السَّبعة: أنسُ بن مالكٍ، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيدٍ الخدري، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة رضي الله عنهم.

فيجب علينا أنْ نَعرفَ لأزواج النَّبيِّ ﷺ حقَّهُنَّ ومكانتهنَّ؛ إذْ إنَّهنَّ بمكانتهنَّ من النَّبيِّ ﷺ يَنَلْنَ أعلىٰ درجةٍ في الجنَّة، وبالله التَّوفيق.



تبرؤ أهل السُّنَّة والجماعة ممَّا يقوله المُبتدعة في حقِّ الصَّحابة وأهلِ البيت

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ، مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ عَنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ، بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ:

إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ، ثُمَّ إِنَّ الْقَدرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ

وَمَحَاسِنِهِمْ، مِنْ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ.

التعليق:

أقول: مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة وسط بين مذهب الرَّوَافض والنَّوَاصب؛ فهم يعرفون للصَّحابة حقَّهم، ويعتبرونهم أفضل الخَلق بعد الأنبياء مع أنَّهم لا يعتقدون عِصمَتَهم من الذُّنوب، وكذلك أيضًا هم يعرفون لأهل البيت حقَّهم، ولا يعتقدون عِصمَتَهم من الذُّنُوب؛ سواءٌ كانت صغائر أو كبائر، ويَتبرَّؤون مِمَّا يقوله الرَّوافض في الصَّحابة، ومِمَّا يقوله الخوارج فيهم، ويَتبرَّؤون مِمَّا يقوله النَّوَاصب في أهل البيت، ويعتقدون ضلالَ هذه الثَّلاث الفئات، ويُمسِكون عمَّا شَجَرَ بين الصَّحابة من الحروب وغيرها، ويقولون: إنَّ هذه الآثار تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسامٍ:

١- منها ما هو كذبٌ علىٰ الصَّحَابة رضوان الله عليهم.

٢- ومنها ما لأصله حقيقةٌ، ولكنَّه زِيدَ فيه ونقص، وغُيِّر عن وجهه.

٣- وهو الصَّحيح مِمَّا يُنسَب إليهم، وهُم فيه معذورون؛ إمَّا مجتهدون مصيبون، وللمجتهد المصيب أجران، وإمَّا مجتهدون مخطئون، وللمجتهد المخطئ أجرٌ واحدٌ.

ثمَّ إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة لا يعتقدون عِصمة الصَّحَابة، ولا أهل البيت؛ وأهلُ البيتِ هم قرابةُ الرَّسول ﷺ؛ لا يعتقدون عِصمتهم من الذُّنُوب، بل يعتقدون

أَنَّهم كغيرهم، وقَد تَصدُر من أحدهم الذُّنوب؛ سواء كانت كبائر أو صغائر، ولكن ذنوبهم مغفورةٌ بسبب ما قَدَّموه لنصرة نَبيِّه، والصَّبر علىٰ متابعته في ذلك الزَّمن مع الحاجة واللَّأْواءِ والبؤس، صَبَروا علىٰ ذلك إيقانًا منهم بأنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، لذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[١]؛ أي: أنَّ مُدَّ أَحَدِهِم إذا تصدَّق به في ذلك الوقت لا يعدله مثل جبل أُحُدٍ ذهبًا يتصدَّق به غيرهم؛ لذلك فإنَّ الله يغفر لهم ما لا يغفر لغيرهم، وقَد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٢].

فحَسَناتُهُم مضاعفةٌ إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وسَيِّئاتُهُم مغفورةٌ، ومعفوٌّ عنها، ثمَّ إنَّ ما جرىٰ بينهم هم فيه مجتهدون كما تقدَّم، والقَدْر الَّذي يُنكَر من أفعالهم قليلٌ، ولننظر كيف كان صَبْرُهُم علىٰ الفقر واللَّأْواءِ، والتَّضحية في سبيل الله، وهُم خير القرون بعد الأنبياء بشهادة خير الرُّسُل، حيث يقول: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[٣].

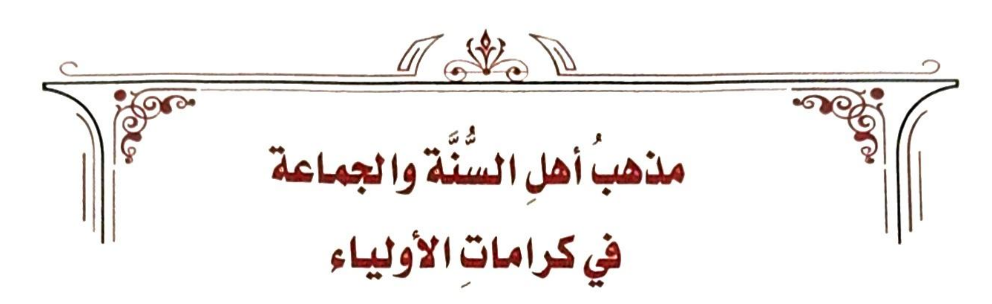
ولْنُفكِّر كيف فتح الله بهم الممالكَ كلَّها، فصبروا علىٰ الجهاد، وصابروا فيه، حتَّىٰ دخلَ النَّاس جميعًا في دين الله، فهم الصَّفوةُ بعْد الأنبياء، وهم خيرُ القرُون مِن الأُمم الماضية واللَّاحقة - رضوان الله عليهم -؛ فتبًّا وسُحقًا، ثمَّ تبًّا وسُحقًا لمَن يتكلَّم فيهم أو يَزْدريهم؛ فهذه عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، رضوان الله عليهم، وبالله التَّوفيق.

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٥٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، بلفظ: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**».

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.



مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة في كراماتِ الأولياء

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ، فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

التعليق:

أقول: الكرامات الَّتي هي كرامات الأولياء شيءٌ من خوارق العادات يُجرِيها اللهُ علىٰ أيدي بعض عباده الصَّالحين، كما أنَّ المعجزات تُجرىٰ علىٰ أيدي الأنبياء إلَّا أنَّ المعجزاتِ مقرونةٌ بالتَّحدِّي، والكرامات غير مقرونةٍ بالتَّحدِّي، ومن الفروق أيضًا أنَّ المعجزات ينبغي أن تُنشَر؛ لأنَّ نَشرَها يكون سببًا للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ الَّذي وقعت علىٰ يديه.

أمَّا كرامات الأولياء فإنَّها ليست مقرونةً بالتَّحدِّي، ولا يلزم نَشرها، فمِن كرامات الأولياء: ما حصل لمريم عليها السلام حينما ولدت نبيَّ الله عيسىٰ تحت نخلةٍ يابسةٍ، فأمَرها جبريلُ أَن تهزَّ النَّخلة، فهزَّتها، فتساقطت عليها رطبًا جنيًّا.

ومنها ما وَرَدَ: عَن أُسَيد بنِ حُضَيرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ (البَقَرَةِ)، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِندَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ

يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا، قَالَ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ**»[(١)].

وفي روايةٍ عن البراءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما: قَرَأَ رَجُلٌ (الكَهْفَ)، وَفِي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَسَلَّمَ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ، أَوْ سَحَابَةٌ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**اقْرَأْ فُلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ، - أَوْ - تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»[(٢)].

ومنها: طعام أبي بكرٍ حيث أَكَل منه الضَّيف، وأَكَل منه أهلُ البيت كأنَّه لم ينقص منه شيءٌ، ثمَّ أصبحوا، وذهبوا بذلك الأكل إلىٰ بيت النَّبيِّ ﷺ[(٣)].

ومنها: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِن شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ - أي: بالمكيال - فَفَنِيَ[(٤)].

ومنها: ما حصل للعلاء بن الحضرميِّ فيما روىٰ عنه أبُو هريرة رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ العَلَاءَ بنَ الحَضرَمِيَّ إِلَىٰ البَحْرَيْنِ، تَبِعتُهُ، فَرَأَيتُ مِنهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ لا أَدرِي أَيَّتهُنَّ أَعْجَبُ: انْتَهينَا إِلَىٰ شَاطِئِ البَحرِ، فَقَالَ: سَمُّوا اللهَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦) من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧) من حديث عبد الرَّحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٩٧)، ومسلم (٢٩٧٣) عن عائشة رضي الله عنها.

وَاقْتَحِمُوا، فَسَمَّينَا، وَاقْتَحمنَا، فَعَبَرنَا، فَمَا بلَّ المَاءُ إلَّا أَسَافِلَ خُفَافِ إِبِلِنَا، فَلَمَّا قَفَلْنَا، صِرْنَا مَعَهُ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَلَيس مَعَنَا مَاءٌ، فَشَكَونَا إِلَيهِ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَينِ، ثمَّ دَعَا اللهَ، فَإِذَا سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرسِ، ثمَّ أَرْخَتْ عَزَالِيهَا، فَشَرِبنَا، وَأَسْقَينَا، وَمَاتَ، فَدَفَنَّاهُ فِي الرَّملِ، فَلَمَّا سِرْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ قُلْنا: يَجِيءُ السَّبُعُ فَيَأْكُلُهُ، فَرَجَعْنَا، فَلَمْ نَرَهُ[1].

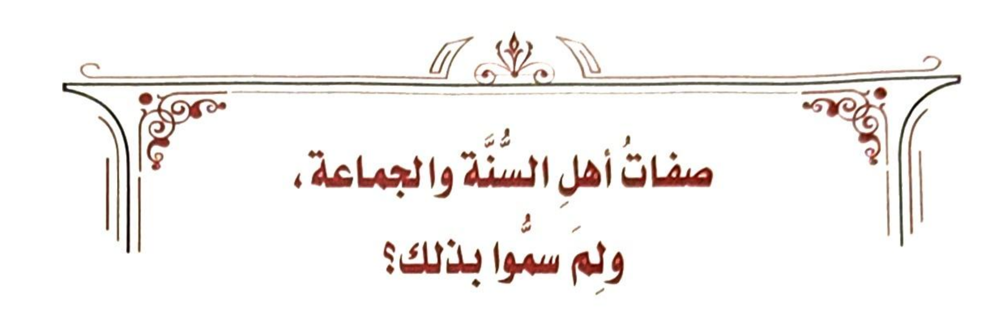
ومثل ذلك ما حصل لسعد بن أبي وقاص حين خاض دجلة إلىٰ المدائن بالخيل والجمال والحمير[2]، إلىٰ غير ذلك من الكرامات المأثورة في سَلَف الأُمَّة؛ وبالله التَّوفيق.



(١) أخرجه الطَّبراني في «الصَّغير» (٤٠٠) و«الأوسط» (٣٤٩٥) و«الكبير» (١٦٧)، وأبو نُعيم في «دلائل النُّبوَّة» (٥٢١).

(٢) انظر: «تاريخ الطَّبري» (٢٤/ ١١ التُّراث)، و«تاريخ الإسلام» للذَّهبيّ (٢/ ٩٣ - ٩٤ بشار)، و«البداية والنِّهاية» لابن كثير (١٠/ ١١).





صفاتُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، ولِمَ سمُّوا بذلك؟

فصل

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ، وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ، مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ، وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتِ الْأُمَّةُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابنُ ماجه (٤٢)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

التعليق:

أقول: إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة هم المُتَّبعون لكتاب الله، ولسُّنَّة رسول الله ﷺ؛ فهذان الأصلان اللَّذان أوحاهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ رسوله ﷺ قد أمر الله باتِّباعهما في غير ما آيةٍ من كتابه، منها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣]، وقوله - جلَّ من قائل -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

وقد أَمَرَ الله باتِّباع رسوله في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، ويقول تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن العظيم، الآمرة باتِّباعِ الكتاب المُنزَّل، ويتلو ذلك اتِّباع سُنَّة رسول الله ﷺ الَّتي هي المصدر الثَّاني لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهما يُصدِّق بعضهما بعضًا.

ومن هذه الأدلَّة نعلم أنَّ المصدرَين الأساسيَّين للشَّريعة الإسلاميَّة لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فالكتابُ هو الأساسُ الأوَّل، والسُّنَّة مُبيِّنةٌ له، ومن هنا ينبغي أن نعلمَ الخطأَ الفادحَ الَّذي ارْتكبه الخوارج في رَدِّهم لسُنَّة الرَّسول ﷺ، وأيضًا الخطأ الفادح الَّذي ارتكبه المعتزلة، حيث حَكَّموا العقل في سُنَّة رسول

الله ﷺ، ولم يقبلوا منها إلَّا ما تواتر، إذ كلٌّ من الكتاب والسُّنَّة يُكمِّل الآخر.

فالسُّنَّة بيَّنت المعنىٰ المراد من الكتاب، ووَضَّحته، ولا يتمُّ العمل بالكتاب إلَّا بالعمل بالسُّنَّة، فمَن ترك السُّنَّة فقَد ترك الكتاب، ولذلك فإنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يسيرون علىٰ الهدي النَّبويِّ الَّذي ترك النَّبيُّ ﷺ أُمَّته عليه، لا يُفرِّطون في شيءٍ من السُّنَّة لعلمهم بموقعها ومنزلتها من الكتاب، والمقصود بذلك ما صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ علىٰ القواعد الاصطلاحيَّة الَّتي أسَّسها خيارُ أُمَّته ﷺ، ومَشَوْا عليها، واسْتَبعدُوا الدَّخيلَ في السُّنَّة، وقَد قال نبيُّ الهدىٰ - صلوات الله وسلامه عليه -: «**قَدْ تَركْتُكُمْ عَلَىٰ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[1].

ثمَّ يتلو ذلك سُنَّة الخلفاء الرَّاشدين عملًا بقول النَّبيِّ ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[2]، وقال ﷺ في حديث الافتراق: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**»، قالوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[3].

والخلفاء الرَّاشدون، هم: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٌّ - رضوان الله عليهم -؛ فأبو بكرٍ سَنَّ مقاتلة مَن مَنَع الزَّكاة، وعمرُ سَنَّ سُننًا كثيرةً؛ منها كتابة الدَّواوين، وتنظيم بيت المسلمين، وغير ذلك من الأعمال، وعثمانُ سَنَّ الأذان

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه»، وانظر: «الصَّحيحة» (٩٣٧).

(٢) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٤١)، والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٧٨٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

قبل أذان الجمعة لتنبيه الغافل، وتذكير النَّاسي، وعليٌّ بن أبي طالبٍ أوَّل مَن نَقل مركز الخلافة من المدينة إلىٰ الكوفة رغبةً منه في توسيط عاصمة الدَّولة الإسلاميَّة بين الولايات لسرعة الاتِّصال بها.

وَقد ظهرت فرقة الخوارج في وقته، فحاول إقناعهم، فَاقْتَنَع فريقٌ منهم، لكنَّ فريقًا آخر استمرَّ علىٰ موقفِهِ، فاضطرَّ عليٌّ إلىٰ مقاتلتهم، لغُلوِّهم وقتلهم العُزّل من المسلمين، فهؤلاء كلٌّ منهم سَنَّ سُنَّةً أو سُنَنًا يجب الأخذ بها إذا لم تعارض شيئًا من سُنَّة رسول الله ﷺ؛ فإِنْ عارضت شيئًا، وحاشاهم أن تحصل منهم المعارضة قصدًا، ولكن قَد يأتي اجتهادهم معارضًا لما ثبت عن رسول الله ﷺ، وهنا يُترَك قولُهم، ويُؤخَذ بقول رسول الله ﷺ أو فعله، مثال ذلك: نَهْيُ عمر بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن متعة الحجِّ[1]، حيث تَأوَّل قول الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وحمل أمر النَّبيِّ ﷺ بالتَّمتُّع أمرًا إلزاميًّا في حَجَّته؛ هدمًا لما كانت الجاهليَّة تعتقده من تحريم عمل المتعة في أشهر الحجِّ.

وبعد ذلك ما لم نجد في كتاب الله، ولا في سُنَّةِ رسول الله ﷺ، ولا أحدًا من الخلفاء الرَّاشدين، ووجدنا قولًا لبعضِ أصحاب رسول الله ﷺ ولا يعارضه قولُ صحابيٍّ آخر، فينبغي أن نأخذه، وإِن عارضه قول صحابيٍّ آخر أخذنا بما هو أقرب إلىٰ الحقِّ، هذه هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة.

وما وقع عليه الإجماعُ - أي: إجماع أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ - فهُو مُعتَبرٌ، والأخذُ به واجبٌ ما لم يكن معارضًا لهدي أحدٍ من الخلفاء الرَّاشدين؛ لأنَّ إجماعَ الأُمَّة معصومٌ بشهادة رسول الله ﷺ حيث يقول: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تجتَمِعُ عَلَىٰ ضَلالَةٍ؛ فَإِذا**

(١) أخرجه مسلم (١٢١٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

رَأَيتُمْ اخْتِلَافًا فَعَلَيكُم بِالسَّوَادِ الأَعظَمِ»[١]. وفي روايةٍ: «إِنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَىٰ النَّارِ»[٢]. وفي روايةٍ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ» قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَسْتَرِيحُ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ»[٣].

والمقصود بأُمَّته: حَمَلة العلم والهدىٰ من الصَّحابة والتَّابعين وأتباع الأتباع في القرون الثَّلاثة المُفضَّلة؛ هذه هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة.

وما وُجِدَ مِمَّا أُحدِثَ في هذا الزَّمن يجبُ أنْ يَجتهدَ فيه عُلماءُ السُّنَّة، وهُم عُلماء الحديث والأثر، أن يجتهدوا فيه، ويقولوا فيه قولهم الَّذي يكون قُدوةً لمَن بعدهم، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من أهل الاتِّباع، وأن يُعيذَنا من طريقة أهل الابتداع، إنَّه سميعٌ قريبٌ، وبالله التَّوفيق.

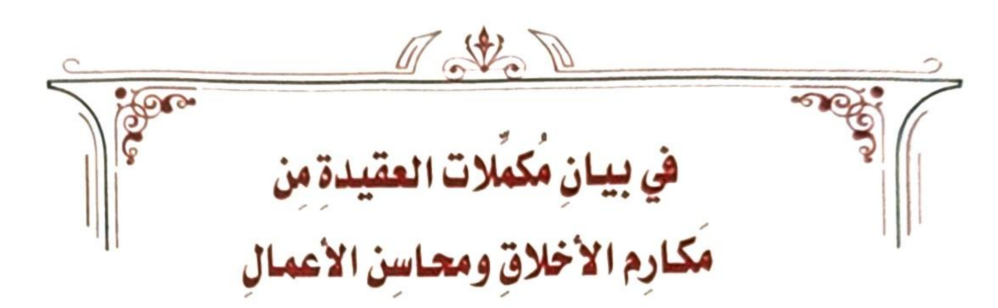


---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الألبانيُّ في «ضعيف سنن ابن ماجه» (ص٣٢١) (٧٨٨): «ضعيفٌ جدًّا دون الجُملةِ الأُولىٰ فهي صحيحةٌ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال الألبانيُّ في «ضعيف سُنن التِّرمذيّ»: «صحيحٌ دون: وَمَنْ شَذَّ».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٦٧٠) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



في بيانِ مُكمِّلاتِ العقيدةِ من مَكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الأعمالِ

فصلٌ

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ؛ أَبْرَارًا كَانُوا، أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ المَرصُوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[1]. وَقَوْله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»[2].

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[3]. وَيَنْدُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَك، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه وليس في الحديث لفظة «المرصوص».

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٢٨٤).

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سِفْسَافِهَا، وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً؛ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»(١)، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢)؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنْ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَىٰ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ، وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم وَدِرَايَتِهِم، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ، الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنصُورَةً؛ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»(٣).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنهُمْ، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ

---

(١) أخرج ابن ماجه (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَىٰ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ». وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٤٩٢).

(٢) تقدَّم تخريجه (ص٥٢٤).

(٣) أخرجه بنحوه البخاريُّ (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا.

التعليق:

أقول: إنَّ ما سَبَره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هو مِمَّا يتحلَّىٰ به المؤمنون؛ امتثالًا لأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

١- الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أمَرَ الله به، حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[1]، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١]. ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا، وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدَيْ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا»[2]. رواه أبو داود، وَرواه من طريق آخر بِنَحوِهِ وزَادَ: «أَوْ لَيَضرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعضِكُم عَلَىٰ بَعضٍ، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكُم

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألباني في «الضَّعيفة» (١١٠٥).

وأصل (الأطر): العطف والثَّني، أي: لَتردُّنَّه إلىٰ الحقِّ، ولَتعطفُنَّه عليه.

كَمَا لَعَنَهُم»(١).

وفي روايةٍ: **«والَّذي نَفسِي بِيَدِهِ، لَتأمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ، وَلَتنهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ، أَو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَن يَبعثَ عَلَيكُم عِقَابًا مِنهُ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلَا يُستَجَابُ لَكُم»**(٢). قال أبو عيسىٰ التّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ.

٢- وأهل السُّنَّة والجماعة يَرَون إقامة الحجِّ والجُمَع والأعياد والجهاد مع الأمراء؛ أبرارًا كانوا أو فجّارًا، طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ، وامتثالًا لأمْره، وحرصًا علىٰ جَمْع الكلمة، ومنعًا للفوضىٰ الَّتي تُؤدِّي بالمسلمين إلىٰ الضَّعف، وطمع الأعداء، هذا مِمَّا أوجَبه الله عَزَّوَجَلَّ.

والأدلَّة علىٰ ذلك معروفةٌ، وقَد سَبَرنَاها في غير ما موضعٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، وعَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **«مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**(٣)، وفي روايةٍ: **«فَقَدْ خَلَع رِبْقة الإسلامِ من عُنُقه»**(٤)، وفي «الصَّحيحين» من حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: **«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن أبي داود»، وانظر: «الضَّعيفة» تحت رقم (١١٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحسَّنه الألباني في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٥١٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٦٠١)، وأبو داود (٤٧٥٨) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (٢/ ٤٣٣) (٨٩٢).

اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[١]. وغير ذلك من الأحاديث الَّتي تدلُّ علىٰ وجوب السَّمع والطَّاعة لوليِّ الأمر بالمعروف، وأنَّه يجاهد معه، ويُصلَّىٰ وراءه، وتُسلَّم له الزَّكاة، وعلىٰ وليِّ الأمر أن ينصر المظلوم، ويمنع الظَّالم، ويردَّ عن المسلمين العادية؛ سواءٌ أكان هؤلاء الأعداء الطَّامعين من أهل دين الإسلام، أو من غيرهم.

٣- وأهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون أنَّ كلمة المؤمنين واحدةٌ، وأنَّهم ينصر بعضهم بعضًا، ويُعِين بعضهم بعضًا علىٰ الحقِّ، ويقفون جميعًا في وجه الظَّالِمِ المعتدي، ويَتَقوَّىٰ بهم المظلوم المستضعف، والنَّبيُّ ﷺ يقول: **«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»**[٢]، ويقول: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»**[٣].

٤- ومِن صفات أهل السُّنَّة والجماعة أنَّهم يأمرون بالصَّبر عند البلاء، والشُّكر عند الرَّخاء، والرِّضا بمُرِّ القضاء؛ هذه صفات المؤمنين، والنَّبيُّ ﷺ يقول: **«عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيرًا لَهُ»**[٤].

٥- وأهل السُّنَّة والجماعة يَدْعون إلىٰ مكارم الأخلاق الَّتي أَمَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، فهم يأمرون بالكرم والجود في حدود المُستطاع، ويأمرون بالشَّجاعة علىٰ قول الحقِّ، وإن أغضبَ ذلك المخلوقين، والشَّجاعة علىٰ نَصر المظلوم إن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه.

(٢) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٣) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

في المُستَطاع.

٦- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بمحاسن الأعمال من العفَّة والصَّبر والإحسان إلىٰ المخلوقين.

٧- وأهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون معنىٰ قوله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(١)، وقوله: «**فَمَن أَحَبَّ أَن يُزَحزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدخَلَ الجنَّة، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَليَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَن يُؤتَىٰ إِلَيهِ**»(٢). وتبذل إليهم مَعْرُوفَك بقَدر استطاعتك.

٨- وأهل السُّنَّة والجماعة يَرون من فضائل الأعمال أن تصلَ مَن قَطَعك وإن كان ظالمًا، وأَن تعطي مَن حرَمك، وتَعفُو عمَّن ظَلَمك مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أباح لعباده الانتصار من الظَّالِم، ولكنَّه ندَب إلىٰ العفو؛ فقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤١ - ٤٣].

٩- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون ببرِّ الوالدَين تنفيذًا لأمْرِ الله بذلك في آياتٍ مُتعدِّدةٍ في سورة (الإسراء) وغيرها.

١٠- وأهل السُّنَّة والجماعة كذلك يأمرون بصِلَةِ الأرحام، كَمَا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك، وتَوعَّد عليه في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِوَٱللَّهُعَنْهُمَا.

١١- وأهلُ السُّنَّة والجماعة يأمرون بحُسنِ الجوارِ؛ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦].

١٢- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بالإحسان إلىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السَّبيل كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وأَمَر به رسول الله ﷺ.

١٣- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بالرِّفق بالمملوك؛ سواءٌ أكان من بني آدم أو من الحيوانات، وفي الحديث: «**حُسْنُ المَلَكَةِ يُمْنٌ، وَسُوءُ الخُلُقِ شُؤْمٌ**»[(١)]، وفي روايةٍ: «**حُسْنُ المَلَكة نَمَاءٌ، وسُوءُ الخُلُق شُؤْمٌ، والبِرُّ زِيَادَةٌ فِي العُمُرِ، وَالصَّدَقَةُ تَمْنَعُ مَيْتَةَ السُّوءِ**»[(٢)].

وفي روايةٍ: «**لا يَدْخُلُ الْجنَّةَ سَيِّئُ المَلَكَةِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيسَ أَخبَرتَنا أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ أَكثَرُ الأُمَمِ مَملُوكِينَ وَيَتَامَىٰ؛ قَالَ: «**نَعَمْ، فَأَكرِمُوهُم كَكَرَامَةِ أَولَادِكُم، وَأَطْعِمُوهُم مِمَّا تَأكُلُونَ**»، قَالُوا: فَمَا يَنفَعُنَا فِي الدُّنيا؟ قَالَ: «**فَرَسٌ تَرتَبِطُهُ تُقَاتِلُ عَلَيهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَملُوكُكَ يَكفِيكَ؛ فَإِذَا صَلَّىٰ فَهُوَ أَخُوكَ**»[(٣)].

١٤- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنهَون عن الفخر والخُيَلاء، فالمؤمنون لا يَرَون لأنفسهم مِنَّةً ولا فَضلًا حتَّىٰ وإن أَحسنُوا، ولا يفخرون علىٰ غيرهم وإنْ كان لهم الفضل، وقَد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه يكره المرح، ولا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٦٢، ٥١٦٣) من حديث رافع بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن أبي داود»، وفي «ضعيف الجامع» (٢٧٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠٢) (١٣١٢٣) من حديث رافع بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٢٧٢٠).

(٣) أخرجه أحمدُ (١/ ١٢) (٧٥)، وابنُ ماجه (٣٦٩١) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه».

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٧ - ٣٨]، وقال - جلَّ من قائل -: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: ٧٥ - ٧٦].

١٥- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنهون عن البغي، ويمنعونه، ويَذمُّونه امتثالًا لأمر الله تعالىٰ في قوله - جلَّ من قائل -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

١٦- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهون عن الاستطالة، ومعناها مدحٌ للنَّفس، وذمٌّ لآخرين، وهي من الفخر؛ سواءً أكانت بحقٍّ أو بغير حقٍّ.

١٧- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بمعالي الأخلاق، ويَنهون عن سفاسفها؛ أي أنَّ المؤمنين يأمرون بمعالي الأخلاق امتثالًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك، ويَنهون عن سفاسفها من مُحقِّرات الأخلاق والأعمال، وهي من الأمور الدَّنيئة، وينبغي للمسلم أن يَترفَّع عنها.

وقولُ المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً؛ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»[1]، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ

(١) تقدَّم تخريجه (ص٥٢٨).

مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[(١)] ؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنْ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».

أقول: إنَّه لا يسلم مَن شَوَّبَ الإسلام بغيره، وخَلَطه بما ليس منه إلَّا أهل الحديث وأتباع الأثر، فَاسْتَمْسكوا أيُّها القوم بطريقة أهل الحديث، وطريقة أتباع الأثر.

أَمَّا قوله: «ومنهم أعلام الهدىٰ، ومصابيح الدُّجىٰ»: والمقصود بأعلام الهدىٰ، ومصابيح الدُّجىٰ: أهل العلم والإيمان الَّذين يَدُلُّون المسلمين علىٰ الخير، ويصرفونهم عن الشَّرِّ.

قوله: «وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ، وَفِيهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم»؛

وأقول: كلمة الأبدال والأقطاب، وما أشبه ذلك، جاءت في أحاديثَ ضعيفةٍ.

وقولُه: «وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم»؛ أقول: لقد قَسَّم الله عَزَّوَجَلَّ أهل الإسلام إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ كما في سورة (فاطر)، فقال - جلَّ من قائل -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. وكانت هذه القسمة علىٰ سبيل التَّرقِّي، فبدأ بالظَّالمين لأنفسهم، ثمَّ المقتصدين، ثمَّ السَّابقين بالخيرات.

وأمَّا في سورة (الواقعة)، فذكر الخُلَّص من المؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ١٢]؛ فأدخل الفُجَّار من المِلِيِّين في أصحاب الشِّمال، وهم الَّذين يُعذَّبون، ثمَّ يَخرجون من النَّار، وقَسَّم المؤمنين إلىٰ سابقين، وأصحاب يمينٍ، فالصِّدِّيقون

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٥٢٤).

والشُّهَداء، والصَّالحون، هذه مزايا لأصحاب الإيمان الكامل، والخُلُق الرَّفيع.

وقوله: «**وفيهم أئمَّة الدِّين الَّذين أجمَع المسلمون علىٰ هدايتهم**»: فيمثل لذلك بمَن مضىٰ من أهل الحديث كأحمد بن حنبل، والشَّافعيِّ، وابن المُبارك، وأمثال هؤلاء، ويدلُّ علىٰ ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ**»(١)، وهذه الطَّائفة قد قال بعضُ السَّلَف: هم أهل الحديث(٢).

فأهلُ الحديثِ والأثرِ هُمُ الَّذين أصابوا كلَّ خيرٍ، وجُنِّبوا كلَّ شرٍّ. نسأل الله أَنْ يجعلنا منهم، وألَّا يزيغ قلوبنا بعد إِذْ هدانا، وأن يهبَ لنا من لدنه رحمةً، إنَّه هو الوَهَّاب.

وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه.

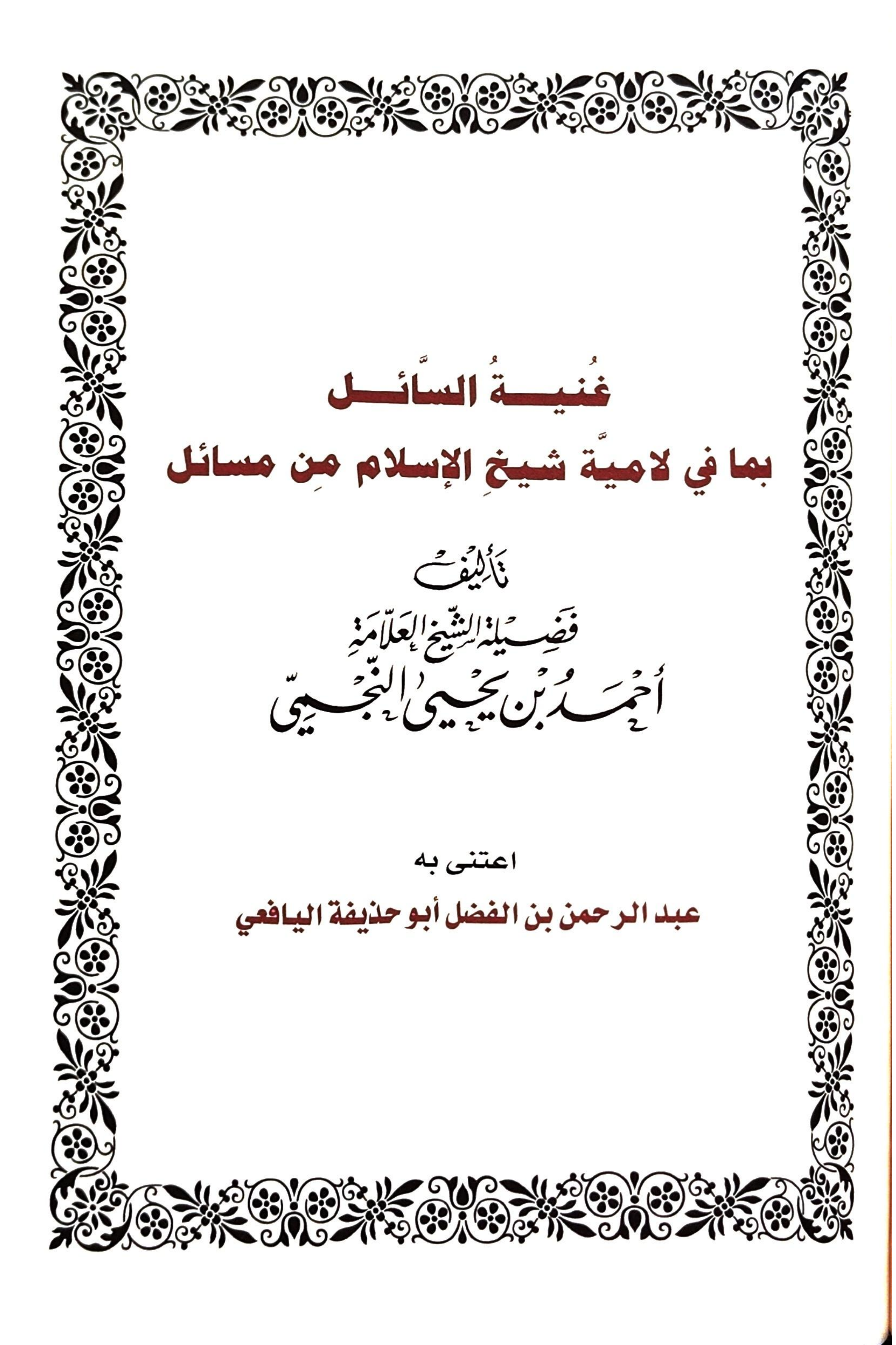
تمَّ بحمد الله



---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَةُ، فَقَالَ الْبُخَارِيُّ: هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ؟! قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَدُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ» «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٣/ ٦٦، ٦٧ إحياء التراث).



غُنيةُ السَّائل

بما في لاميَّة شيخِ الإسلام مِن مسائل

تأليف

فضيلة الشّيخ العلّامة

أحمد بن يحيى النّجمي

اعتنى به

عبد الرحمن بن الفضل أبو حذيفة اليافعي



تمهيد

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله مِن شُرورِ أَنفسِنا وسيِّئات أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فَلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، **أمَّا بعدُ:**

فإنَّ خيرَ الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدْي هديُ مُحمَّد ﷺ، وشرَّ الأُمور مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فقد سارَ العُلماء الرَّبانيُّون والأئمَّة الصَّادقون مِن عهْد السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وحتَّىٰ عصرنا هذا في جهادٍ لِتبيينِ مسائل الاعتقادِ الَّتي فيها نجاةُ العبد في الدُّنيا والآخرة وسعادته فيهما.

فيعتصم قلبُه وينعقدُ علىٰ ما لا اضطرابَ فيه ولا خللَ، ولا زيغَ ولا خطَلَ، بل منهجٌ سويٌّ، ومعالمُ واضحةٌ، ونورٌ يُضيءُ، فيسيرُ بخطَىٰ الثِّقة بمولاه، وإخلاص العمَل له دون ما سواه، قد حكَّم سنَّة رسولِ الله ﷺ علىٰ أقوالِه وأفعالِه وأحواله، وسلَّم أمْرَه لله راضيًا شاكرًا، سليمَ الباطن لإخوانه المُسلمين، وناصحًا لوُلاة أمرِ المُؤمنين، لا يُكِنُّ لهم غشًّا ولا بُغضًا ولا حسَدًا، قد جعَلَ همَّ المعادِ نصبَ عينيهِ، مُعِدًّا لِذلك الموقفِ وباذلًا كلَّ ما لديهِ.

ومِن هؤلاءِ الأئمَّة العُلماءِ السَّادةِ الحُنفاء ممَّن بذَل حياتَه في الدَّعوةِ والتَّعليم والإقراء والإفتاء، فعمَّ العبادَ والبلادَ، ونهَل مِن علْمِه الحاضرُ والباد، ومَن فاق أقرانَه وساد، فسلَك منهج السَّلف وما حاد، شيخُنا العلَّامة أحمدُ بن

يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةَ الأبرار، وأسكنَه الفردوسَ الأعلىٰ ونعم الدَّار، مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين الأخيار.

فقد كان ذا حرْصٍ علىٰ إخوانِه المُسلمين أنْ يعتلُوا أعلىٰ منازلِ الشَّرف بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، وكان أسرعَ النَّاس لها، ويسعىٰ في نفعِهم مع سعةِ صدْر وسماحة بال، ويجلسُ لهم السَّاعات الطَّويلةِ مِن كلِّ يومٍ، ويفتحُ بابه لطلَّاب العلم والمُستفتين، ويُيسِّرُ اللِّقاء به مِن غير ملَل ولا كلَل، مع قيامِه بالدَّعوة إلىٰ الله مِن خلال الدُّروس اليوميَّة والمحاضرات والدَّورات التي يلقيها في المساجد، ولا يتوقَّف مِن استقبالِ الاتِّصالات مِن جميع أنحاء الدُّنيا؛ شرْقًا وغربًا، يُفتيهم ويُرشدُهم ويَنصحُهم، وله مواقفُ عظيمةٌ وكثيرةٌ في الرَّدِّ علىٰ أهل الضَّلال والزَّيغ، وكشْف شُبهاتِهم، وتعرية باطلِهم، وبيان الحقِّ والعقيدة السَّلفيَّة، يظهرُ ذلك مِن خِلال كتُبه المطبوعةِ، وأشرطته المسموعة.

وفي جانِب الأمْر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر كان له الدَّورُ الفعَّال في القيام بهذا الأمر، ومُساندة القائم عليه، ونصيحة ولاة الأمر ونصيحة الرَّعيَّة. كان رجُلًا لا يهتمُّ بأضواءِ المسؤوليَّة، ولا ببوارق الجاه، ولا بِرنِين المال.

ولئن كان الشَّيخ قد ماتَ؛ فإنَّه قد خلَّف علمًا غزيرًا في العقيدة والفقه، وفي سائرِ أبواب العلم، وسوف يظلُّ بمشيئة الله حيًّا بما تركه لنا من علْم ونهجٍ؛ ومِن أهمِّ ما تركَه لنا هو هذا المنهج الَّذي احتذاه في سائر أعمالِه، مِن دعوةٍ إلىٰ التَّوحيدِ، وإلىٰ كلِّ وسيلةٍ تُؤدِّي إليه، ومحاربةِ الشِّرك، وكلِّ وسيلةٍ تؤدِّي إليه، ومُحاربة البدع أيًّا كانتْ ممَّن كانتْ، والنَّهي عن التَّعلُّق بالبشَر مهما كانُوا، ونبذ كلِّ ما يُؤدِّي إلىٰ فتنةٍ، والبحث عن كلِّ ما يكون فيه تأليف للقلوب.

ولَموتُ العالم الفذِّ مصيبةٌ كبيرةٌ، وفاجعةٌ عظيمةٌ، تفقدُ الأمَّة بفقده الدَّليلَ الَّذي يهدي، والنُّورَ الَّذي يُضيءُ الطَّريقَ.

ومهما قلتُ في حقِّه فإنَّني أراني مقصِّرًا في وصفِ ما له مِن جُهودٍ عظيمةٍ، وما تحلَّىٰ به مِن فضائلَ كريمةٍ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ، واللهُ ذو الفضْل العظيم.

ولا أستطيعُ أنْ أوفِّيَ هذا العالمَ الجليلَ ما يستحقُّه في هذه العُجالة؛ فإنَّما ثوابُه علىٰ الله، وإنَّما هي كلماتٌ سريعةٌ كتبتُها وفاءً لبعضِ حقِّه، ومعرفةً بقدْرِه، وتقديرًا لمَكانتِه وفضلِه.

واللهَ أسألُ أنْ يكتبَ كتابَه في علِّيين، وأنْ يُنزلَه منازلَ النَّبيِّين، وأنْ يجزيَه خيرَ ما جزىٰ عالمًا بأمَّته، إنَّه تعالىٰ قريبٌ مجيبٌ، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا باللهِ.

كتبه تلميذُه

الفقير إلى ذي المنّ والفضل

عبد الرَّحمن بن الفضل أبو حذيفة اليزيديّ اليافعيّ





المنظومةُ اللاَّمِيَّة

لشيخِ الإسلام ابن تيمية

[١] يَا سَائِلِي عَنْ مَذْهَبِي وعَقِيدَتِي ... رُزِقَ الْهُدَىٰ مَنْ لِلْهِدَايَةِ يَسْأَلُ

[٢] اسْمَعْ كَلَامَ مُحَقِّقٍ فِي قَوْلِهِ ... لَا يَنْثَنِي عَنْهُ وَلَا يَتبَدَّلُ

[٣] حُبُّ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ لِي مَذْهَبُ ... وَمَوَدَّةُ القُرْبَىٰ بِهَا أَتَوَسَّلُ

[٤] وَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ عَلَا وَفَضَائِلُ ... لَكِنَّمَا الصِّدِّيقُ مِنْهُمْ أَفْضَلُ

[٥] وَأَقُولُ فِي القُرْآنِ مَا جَاءَتْ بِهِ ... آيَاتُهُ فَهْوَ الْكَرِيمُ الْمُنْزَلُ

[٦] وَأَقُولُ قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَالْمُصْطَفَىٰ الْهَادِي وَلَا أَتَأَوَّلُ

[٧] وَجَمِيعُ آيَاتِ الصِّفَاتِ أُمِرُّهَا ... حَقًّا كَمَا نَقَلَ الطِّرَازُ الأَوَّلُ

[٨] وأَرُدُّ عُهْدَتَهَا إِلَىٰ نُقَّالِهَا ... وَأَصُونُهَا عَنْ كُلِّ مَا يُتَخَيَّلُ

[٩] قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ القُرَانَ وَرَاءَهُ ... وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

[١٠] وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ ... وَإِلَىٰ السَّمَاءِ بِغَيْرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ

[١١] وأُقِرُّ بِالْمِيزَانِ وَالْحَوْضِ الَّذِي ... أَرْجُو بِأَنِّي مِنْهُ رِيًّا أَنْهَلُ

[١٢] وَكَذَا الصِّراطُ يُمَدُّ فَوْقَ جَهَنَّمٍ ... فَمُوَحِّدٌ نَاجٍ وَآخَرُ مُهْمَلُ

[١٣] والنَّارُ يَصْلَاهَا الشَّقِيُّ بِحِكْمَةٍ ... وَكَذَا التَّقِيُّ إِلَىٰ الْجِنَانِ سَيَدْخُلُ

[١٤] ولِكُلِّ حَـيٍّ عَـاقِلٍ في قَبْرِهِ ... عَمَـلٌ يُقَارِنُـهُ هُنَـاكَ وَيُسْأَلُ

[١٥] هَـذَا اعْتِقَادُ الشَّـافِعِيِّ ومَالِكٍ ... وَأَبِـي حَنِيفَـةَ ثُـمَّ أَحْمَـدَ يُنْقَـلُ

[١٦] فَإِنِ اتَّبَعْتَ سَبِيلَـهُمْ فَمُـوَفَّقٌ ... وَإِنِ ابْتَـدَعْتَ فَمَـا عَلَيْـكَ مُعَـوَّلُ





المقدِّمة

قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بسم الله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله ﷺ.

فهذا شرحٌ وجيزٌ للاميَّة شيخِ الإسلام أحمدَ بن عبد الحليم بن عبدِ السَّلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سُؤال الهداية

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَـا سَـائِلِي عَـنْ مَـذْهَبِي وَعَقِيـدَتِي ... رُزِقَ الْهُـدَىٰ مَـنْ لِلْهِدَايَـةِ يَسْـأَلُ

الشرح:

هذا دعاءٌ مِن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ للسَّائل أنْ يَرزُقه اللهُ الهدايةَ؛ فإنَّ مَن سأل مثل هذا السُّؤال لابدَّ أن يكونَ أحدَ رَجُلينِ:

١- إمَّا أنْ يكونَ مُختبِرًا يريدُ أنْ يعرفَ عقيدةَ المسؤول فيعاملُه بحسَبها.

٢- وإمَّا أنْ يكونَ مُبتدئًا مُبجِّلًا للمسؤولِ، ومُعظِّمًا له؛ لِمَا رأىٰ فيه مِن علاماتِ الهُدىٰ، وهذا هو الغالب في مثل هذا السُّؤال، واللهُ الموفِّقُ.





العقيدة الرَّاسخة

ثُمَّ قالَ:

اِسْمَعْ كَلَامَ مُحَقِّقٍ فِي قَوْلِهِ لَا يَنْثَنِي عَنْهُ وَلَا يَتَبَدَّلُ

الشرح:

يُخبرُ الشَّيخُ هنا بأنَّ عقيدتَه جاءَتْ بعْدَ تمحيصٍ وبحثٍ ورجوعٍ إلىٰ الأدلَّة؛ فلذلك هو ثابتٌ عليها لا يَنثنِي عنها مهما كانت الصَّوارفُ، ولا يَتبدَّلُ بها غيرَها مهما كانت المغريات.





الاعتقادُ في الصَّحابة والقَرابة

ثُمَّ قالَ:

حُبُّ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ لِيْ مَذْهَبٌ ... وَمَوَدَّةُ الْقُرْبَىٰ بِهَا أَتَوَسَّلُ

الشرح:

يُشيرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنَّ حُبَّ الصَّحابة جميعًا مِن غيرِ استثناءٍ هو مذهبُه؛ لِقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدَ أنْ ذكَر المُهاجرين والأنصارَ في سورة (الحشر): ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، ولقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ولقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، ولقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

هذه الآيات وغيرُها دالَّةٌ علىٰ وُجوبِ حُبِّ الصَّحابةِ الَّذين أبلَوا مع النَّبيِّ ﷺ بلاءً حسنًا، وكان ذلك سببًا في رضا الله عنهم؛ لِثباتِهم علىٰ نُصرةِ نَبيِّهم علىٰ الحقِّ.

وهكذا يَجبُ علىٰ كلِّ مُسلمٍ أنْ يُحِبَّ جميعَ الصَّحابةِ، وألَّا يَتكلَّمَ علىٰ أحدٍ مِنهم بسُوءٍ؛ لِقولِه ﷺ: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي**»[(١)]، «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[(٢)].

وقولُه:

وَمَـوَدَّةُ الْقُرْبَـىٰ بِهَـا أَتَوَسَّـلُ

أي: أنَّ محبَّةَ قرابةِ النَّبيِّ ﷺ بها أتوسَّل إلىٰ الله، وأرجوه أنْ يغفر لي ذُنوبي، وأنْ يُدخلَنِي يومَ الدِّين مدخلَ مَن رضيَ عنهم مِن الصَّحابةِ والقرابة، والله سبحانَه يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشُّورىٰ: ٢٣]، أي: إلَّا أنْ تَوَدُّوا قَرابتِي وتُجِلُّوهم وتُعظِّموهم؛ لقُربهم منِّي ولصُحبتِي، وجاء في الحديثِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ، إِنَّ اللهَ اخْتَارَ الْعَرَبَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ كِنَانَةَ مِنَ الْعَرَبِ، وَاخْتَارَ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاخْتَارَ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ**»[(٣)] أو كما قال ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قوله النَّبيِّ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**» (٣٦٦١)، وفي تفسير سورة الأعراف، باب: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ رقم (٤٦٤٠) من حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ برقم (٢٥٤٠)، وأوَّله: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي** - بالإضافة للضمير - **بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورواه البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والتِّرمذيّ عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدون ذكر القسَم.

(٣) الحديث أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «الإشراف علىٰ منازل الأشراف» (٣٤٣)، والطَّبرانيّ في «الأوسط» (٦١٨٢)، وفي «الكبير» (١٣٦٥٠)، وأبو نُعيم في «دلائل النُّبوَّة» (ص٥٨ - ٥٩ رقم ١٨)، والبيهقيّ في =

ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ عَلَا وَفَضَائِلُ ... لَكِنَّمَا الصِّدِّيقُ مِنْهُمْ أَفْضَلُ

=

«شعب الإيمان» (١٤٩٣)، وفي «دلائل النُّبوَّة» (١/ ١٧١ - ١٧٢)، وابن عديٍّ في «الكامل» (٣/ ٣٣٧ السرساوي)، من طريق حمَّاد بن واقد الصفار، عن محمَّد بن ذكوان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر به في حديث طويل.

وحمَّاد بن واقد ضعيفٌ؛ ضعَّفه ابنُ معين. وقال البخاريُّ: مُنكرُ الحديث. وقال أبو زُرعة وغيرُه: ليِّن. وقال الفلَّاسُ: كثيرُ الخطأ والوهم، وقال أبو حاتم: ليس بقوي، ليِّن الحديث، يكتب حديثه علىٰ الاعتبار، وقال ابن عديّ: عامَّة ما يرويه ممَّا لا يُتابعه عليه الثِّقاتُ، وقال الحاكم أبو أحمد: ليس بالقويِّ عندهم، وقال ابنُ حبَّان: لا يجوزُ الاحتجاجُ بخبره إذا انفرد، وقال العقيليُّ: يخالَف في حديثه. **انظر:** «ميزان الاعتدال» (١/ ٦٠٠ البجاوي)، و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٢١ دائرة المعارف).

وتابع حمَّادًا هذا يزيدُ بن عوانة، عن محمَّد بن ذكوان به؛ أخرجه الحاكم (٤/ ٨٣ و٩٧) وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الدَّلائل» (١/ ١٧١ - ١٧٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٨٨)، وابنُ قدامة في «إثبات صفة العلوّ» (٢٩). وقال العقيليُّ: «لا يُتابَع عليه».

ومحمَّد بنُ ذكوان ضعَّفه الجمهور؛ فقال فيه البخاريُّ والنَّسائيُّ: «منكرُ الحديث». وقال ابنُ عديٍّ: «عامَّةُ ما يرويه إفراداتٌ وغرائبُ ومع ضعفه يُكتب حديثُه». «الكامل» (٩/ ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩)، وقال ابنُ حبَّان في «المجروحين» (٢/ ٢٦٢): «يروي عن الثِّقات المناكير والمعضلات عن المشاهير علىٰ قلَّة روايته حتَّىٰ سقط الاحتجاج به». ونقل ابنُ الجنيد في «سؤالاته» (ص١٨٩ الفاروق الحديثة) عن ابن معين أنَّه قال فيه: ليس به بأس.

وقد خالفه حمَّاد بن زيد؛ فرواه عن عمرو بن دينار، عن محمَّد بن عليٍّ مُرسلًا. أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات الكبرىٰ» (١/ ٢٠)، والفسويُّ في «المعرفة والتَّاريخ» (١/ ٤٩٧ - ٤٩٨ الرسالة)، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرىٰ» (٧/ ٢١٦ - ٢١٧)، من طُرق عن حمَّاد به بلفظ: «إِنَّ اللهَ اخْتَارَ الْعَرَبَ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ كِنَانَةَ أَوِ النَّضْرَ بْنَ كِنَانَةَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ قُرَيْشًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ». قال البيهقيُّ: «مرسل حسن». ورجَّح هذا المرسل الدَّارقطنيُّ في «العلل» (١٢/ ٤٠٣).

وضعَّف الموصول غيرُ واحدٍ: منهم أبو حاتم الرَّازي كما في «العلل» لابنه (٦/ ٤٠٢ الحميضي)، وقال ابنُ كثير في «البداية والنِّهاية» (٣/ ٣٩٧ هجر): «حديث غريب». وضعَّفه الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (٣٣٨) و(٣٠٣٨).

يُشيرُ بهذا إلىٰ المُفاضلة بين الصَّحابةِ، أي: مع حُبِّهم جميعًا، فالأدلَّة تدلُّ علىٰ تفضيل أبي بكر علىٰ غيرِه من الصَّحابةِ، ثمَّ تفضيلِ عُمر علىٰ سائرِهم، ثمَّ تفضيل عثمان، ثمَّ عليٍّ، ثُمَّ السِّتَّةِ الباقين من العشرة: وهم الزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقَّاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح.

ثُمَّ سائر الصَّحابة يتفاضلون بالسّبق إلىٰ الإسلام؛ فأهلُ الهجرتَينِ أفضلُ مِن غيرِهم من المُهاجرين، وأصحابُ بيعةِ العقبةِ أفضلُ مِن غيرِهم مِن الأنصارِ، ثُمَّ أهل بدْر، ثُمَّ أهل بيعةِ الرِّضوان، ثُمَّ مَن آمَن وهَاجر قبْل الفتح، ثُمَّ مَن آمَن وقاتَل بعْدَ الفتح، ثُمَّ صغار الصَّحابةِ، هكذا ترتيبهم في الأفضليَّة، وفي هذا تبرُّؤٌ من الشِّيعةِ والنَّواصبِ؛ فالشِّيعةُ لا يستثنون مِن تكفير الصَّحابةِ إلَّا عليَّ بن أبي طالب، وعددًا قليلًا معه لا يتجاوزون الأربعة عشر أو الخمسة عشر، والنَّواصبُ يتولَّون الصَّحابةَ ويُبغضون أهل البيت، وكِلْتا الفِرقتَينِ علىٰ ضلالٍ، والحقُّ: أنْ نتولَّاهم جميعًا، ونحبَّهم، وننزلَهم منازلهم الَّتي أنزلَهم اللهُ بها.





الاعتقادُ في القُرآن

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَقُولُ فِي القُرْآنِ مَا جَاءَتْ بِهِ ... آيَاتُهُ فَهْوَ الْكَرِيمُ الْمُنْزَلُ

وَأَقُولُ قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ... والْمُصْطَفَى الْهَادِي وَلَا أَتَأَوَّلُ

الشرح:

في هذين البيتين أخبر بأنَّه يَعتقدُ بأنَّ القُرآنَ كلامُ الله مُنزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، فنحنُ نقولُ كما قال اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فوصفه بأنَّه كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ كان مَسموعًا مِن مخلوقٍ، وفي هذا إبطالٌ لمذهبِ المُعتزلةِ الَّذين يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وإبطالٌ لمذهبِ اللَّفظيَّة الَّذين يقولون: لفظُنا بالقُرآنِ مخلوق.

وقد قرَّر أهلُ السُّنَّة والجماعة أنَّ مَن قال: القرآنُ مخلوقٌ؛ فهو كافر[1]، ومَن

---

(١) انظر: «عقيدة السلف أصحاب الحديث» للصابوني (ص٨٠ - بشرح الشيخ ربيع المدخلي)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٢٥٩ - ٣٤٤).

وسُئل العلّامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «س٨٣: **مَا حُكْمُ مَنْ قال بِخَلْقِ القرآن؟**

فأجاب: القُرْآنُ: كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقيقة؛ حُرُوفُهُ ومعانيه، ليس كَلَامُهُ الحُرُوفَ دُونَ المَعَانِي، ولا المَعَانِيَ دُونَ الحُرُوفِ، تَكلَّم اللهُ بِهِ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ وَحْيًا، وآمَنَ بِهِ المُؤْمِنُون حقًّا، فَهُوَ وَإِنْ خُطَّ بالبَنَانِ، وَتُلِيَ باللِّسَانِ، وحُفِظَ بالجَنَانِ، وسُمِعَ بالآذان، وَأَبْصَرَتْهُ العَيْنَان، لا يُخرِجُه ذلك عن كَوْنِهِ كلامَ الرَّحْمَن.

فالأَنَامِلُ والمِدَادُ والأَقْلَامُ والأَوْرَاقُ مَخْلُوقَةٌ، والمَكْتُوبُ بِهَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ، والأَلْسُنُ والأَصْوَاتُ مَخْلُوقَةٌ، والمَتْلُوُّ بِها علىٰ اخْتِلَافِهَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ، والصُّدُورُ مَخْلُوقَةٌ، وَالمَحْفُوظُ فِيهَا غَيْرُ مَخْلُوقٌ، =

قال: لفظي بالقُرآن مخلوقٌ؛ فهو مُبتدعٌ جهميٌّ[1]، والحقُّ كما أوضحناه: أنَّه

=

والأَسْمَاعُ مَخْلُوقَةٌ، والمَسْمُوعُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَدِيمُوا النَّظَرَ فِي المُصْحَفِ**» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٢٨)] والنُّصُوصُ فِي ذَلِكَ لَا تُحْصَىٰ، وَمَنْ قال: القُرْآنُ - أَوْ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ - مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ، يُخْرِجُهُ مِنَ الإسلام بالكُلِّيَّةِ؛ لأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالىٰ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَكَلَامُه صِفَتُهُ، وَمَنْ قال: شَيْءٌ مِنْ صِفَات اللهِ مخلوقٌ، فَهُوَ كافرٌ مُرْتَدٌّ، يُعْرَضُ عليه الرُّجوعُ إلىٰ الإسلام، فَإِنْ رَجَعَ وإِلَّا قُتِلَ كُفْرًا، ليس له شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ المُسْلِمِينَ». اهـ

وعلَّق العلَّامة النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذا بقوله: «هَذِهِ الفِقْرَةُ طَوِيلَةٌ، والخُلَاصَةُ فيها: أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، والأَدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كثيرةٌ، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

فَمَنْ قَالَ أَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ، فَإِنَّهُ يُعْتَبَرُ قَدْ كَفَرَ، بَعْدَ أَنْ يُعَرَّفَ بما يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَإِنْ أَصَرَّ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بالكُفْرِ المُخْرِجِ مِنَ المِلَّةِ؛ يُسْتَتَابُ وَيُبَيَّنُ له، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا يُعْتَبَرُ كَافِرًا». اهـ «الفوائد المنثورة علىٰ كتاب أعلام السُّنَّة المنشورة» ضمن الجزء السادس من هذا المجموع المبارك.

(١) **سُئل العلَّامة حافظ الحكمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**س٨٦: مَا حُكْمُ مَنْ قَالَ: لَفْظِي بالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ؟**

فأجاب: هذِه العبارةُ لا يَجوزُ إِطْلَاقُهَا نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ معنىٰ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ التَّلَفُّظِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ العَبْدِ، وَبَيْنَ المَلْفُوظِ بِهِ، الَّذِي هُوَ القُرْآنُ، فَإِذَا أَطْلَقَ القَوْلَ بِخَلْقِهِ شَمِلَ المَعْنَىٰ الثَّانِي، وَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْلِ الجَهْمِيَّةِ، وَإِذَا قِيلَ: غير مخلوق، شَمِلَ المَعْنَىٰ الأَوَّلَ الَّذِي هُوَ فِعْلُ العَبْدِ، وَهَذَا مِنْ بِدَعِ الاتِّحَادِيَّةِ، ولِهذا قَالَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رحمهم اللهُ تعالىٰ: مَنْ قَالَ: لَفْظِي بالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ قَالَ: غير مخلوق، فهو مُبْتَدِعٌ». اهـ

وعلَّق العلَّامة النَّجميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **علىٰ هذا بقوله**: «لماذا وُصِفَ مَن قال: لفظي بِالقُرْآنِ مَخلوق؛ بِأَنَّهُ جَهْمِيٌّ؟ **الجَوَابُ**: لِأَنَّهُ إِذَا قال هذا شَمِلَ التَّلَفُّظَ، وَشَمِلَ القُرْآنَ المُتَلَفَّظَ به، فَيَكُونُ دَاخِلًا في المَعْنَىٰ، وَإِذَا قَالَ العَكْس فَهُوَ يَشْمَلُ أيضًا مِنَ الوَجْهِ الثَّانِي.

=

كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وكلامُ الله صفةٌ مِن صفاتِه.

وأهلُ السُّنَّة والجماعة يعتقدون أنَّ اللهَ يتكلَّم بكلامٍ قديمِ النَّوعِ حادثِ الآحادِ؛ يتكلَّم متىٰ شاء بما شاء كيف شاء، وأنَّ عدمَ الكلام نقصٌ في المَخلوقِ فكيفَ لا يكون نقصًا في الخالق! قبَّح اللهُ أصحابَ الكلام، وما جاؤُوا به، وأدخلُوه في الإسلام مِن البدَع المُضلَّةِ.

ومِن ذلك زعمُهم أنَّ مَن وصفَ اللهَ بأنَّه مُتكلِّمٌ، وأنَّه يَتكلَّمُ متىٰ شاءَ يلزمُ منه المُشابهةُ للمخلوقين، وكذَبُوا في ذلك.



=

وَلَكِنْ يُقَالُ: القُرْآنُ كَلَامُ الله غَيْرُ مَخلُوقٍ، وَإِذَا قِيلَ هَذَا - القُرْآنُ كَلَامُ الله غَيْرُ مَخلُوق - فَإِنَّهُ يُنْفَىٰ بِهِ الاحْتِمَالُ الَّذِي يَحْصُلُ مِنَ الإِطْلَاقِ.

والحقيقةُ: أَنَّ التَّلَفُّظَ بِالقُرْآنِ أَوْ غَيْرِه مخلوقٌ، فَالأَلْسِنَةُ الَّتِي تَنْطِقُ بِهِ مَخْلُوقَةٌ، والقُلوبُ الَّتِي تَعِيه مَخْلُوقَةٌ، والمِدَادُ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ مَخْلُوقٌ، والوَرَقُ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ مَخْلُوقٌ، ولكن كلام الله غير مخلوق؛ فَالقُرْآنُ كَلَامُ الله غَيْرُ مَخْلُوق.

وَمَنْ قال: إِنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ كَافِرٌ. وَمَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوق؛ فَهُو جَهْمِيٌّ. وَمَنْ قَالَ: غير مخلوق؛ بِدُون أَنْ يُثْبِتَ أَنَّهُ كَلَامُ الله، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ». اهـ. «الفوائد المنشورة علىٰ كتاب أعلام السُّنَّة المنشورة» ضمن الجزء السادس من هذا المجموع المبارك.



الاعتقادُ في آياتِ الصِّفات

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَجَمِيعُ آيَاتِ الصِّفَاتِ أُمِرُّهَا	حَقًّا كَمَا نَقَلَ الطِّرَازُ الأَوَّلُ
وَأَرُدُّ عُهْدَتَهَا إِلَىٰ نُقَّالِهَا	وَأَصُونُهَا عَنْ كُلِّ مَا يُتَخَيَّلُ
قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ القُرَانَ وَرَاءَهُ	وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

الشرح:

أقولُ: قرَّر النَّاظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبيات الثَّلاثةِ أنَّه يُؤمن بجميع الصِّفات المذكورة في الكتاب والسُّنَّة؛ يُؤمن بها ويحملُها علىٰ ما تقتضيه اللُّغةُ العربيَّة مِن معنًىٰ، غير أنَّه يجعلُ ذلك علىٰ ما يليق بجلالِ الله؛ فإنْ أثبتَ (الوجهَ) قال: أُثبتُ لله وجهًا يليقُ بجلاله، وإنْ أثبتَ (اليدَ) قال: أُثبتُ لله يدًا تليقُ بجلاله، وإنْ أثبتَ (العينَ) قال: أُثبتُ لله عينًا تليقُ بجلاله، وهكذا يقالُ في جميعِ ما ورد مِن الصِّفاتِ؛ سواء كانتْ ذاتيَّةً كما سبَق، أو فعليَّةً كالاستواءِ والنُّزول إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا وما أشبه ذلك، علىٰ مقتضىٰ ما كان يعتقده ويُثبتُه الطِّرازُ الأوَّل؛ مِن الصَّحابةِ والتَّابعين وأتباع التَّابعين، أهلِ القُرون الثَّلاثة الَّذين أثنىٰ النَّبيُّ ﷺ عليهم وزكَّاهم[1].

---

(١) وذلك ما رواه البخاريُّ في كتاب: الشَّهادات، باب: لا يشهدُ علىٰ شهادة جور إذا شهد، رقم (٢٦٥٢)، وفي كتاب: فضائل الصَّحابة، باب: فضل أصحاب النَّبيِّ ﷺ ورضي الله عنهم، رقم (٣٦٥١)، وفي كتاب: =

وقولُه: (وَأَصُونُهَا عَنْ كُلِّ مَا يُتَخَيَّلُ)، أي: أصونُها عنْ كلِّ ما تتخيَّلُه الأذهانُ مِن مُشابهةِ المخلوقين.

وفي البيت الثَّالثِ: ذمُّ مَن ترَكَ القُرآنَ والسُّنَّة في استدلالِه، وذهَب يستدلُّ بقولِ الأخطلِ[(١)] النَّصرانيِّ الكافرِ، ومَن فعَل ذلك فهو جديرٌ بأنْ يُذمَّ ويُوصفَ بالقُبح والخُبث؛ لأنَّه ترَكَ الحقَّ وأخَذ الباطلَ، فإنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون.

والمقصودُ بالاستدلالِ بقول الأخطلِ: ما يستدلُّ به الأشاعرةُ علىٰ تأويل (الاستواءِ) بـ(الاستيلاءِ)، ويستدلون بقول الأخطل:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْرَاقِ[(٢)]

ويقولون: إنَّ (استوىٰ) هنا بمعنىٰ: (استولىٰ)، وهذا الاستدلالُ استدلالٌ باطلٌ؛ لأنَّه إذا قيل في بشر بن مروان: إنَّه استولىٰ علىٰ العراقِ؛ لكونه لم يكُن

=

الرِّقاق، باب: ما يُحذرُ مِن زهرةِ الدُّنيا والتَّنافسِ فيها، رقم (٦٤٢٩)، وفي الأيمان والنُّذور، باب: إذا قال: أَشهَدُ بالله، أو شهدْتُ بالله، رقم (٦٦٥٨)، ومسلم في كتاب: فضائل الصَّحابة، باب: فضل الصَّحابة ثُمَّ الَّذين يلُونهم ثُمَّ الَّذين يلُونَهم، رقم (٢٥٣٣)، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**».

ورواه البخاري في كتاب الشَّهادات، باب: لا يشهدُ علىٰ شهادة جَورٍ إذا أُشهدَ، رقم (٢٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصَّحابة، بابُ: فضْل الصَّحابة ثمَّ الَّذين يلونهم ثمَّ الَّذين يلونهم، رقم (٢٥٣٥) بلفظ: «**خَيرُكُمْ قَرْنِي..**». عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

ورواه مسلمٌ في كتاب فضائل الصَّحابة، بابُ: فضْل الصَّحابة ثمَّ الَّذين يلُونهم ثمَّ الَّذين يلُونهم، رقم (٢٥٣٤) بلفظ: «**خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ**». عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) الأخطَلُ: هو غِياث بن غوثٍ التَّغلبيُّ النَّصرانيُّ، شاعرُ زمانِه. انظر ترجمتَه في: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٩ الرسالة).

(٢) «ديوان الأخطل» (ص٥٥٧) دار الفكر المُعاصر (١٤١٦هـ).

مُستولِيًا عليها من قبلُ، وصحَّ ذلك في حقِّ المخلوقين، فإنَّ ذلك لا يصحُّ في حقِّ الخالقِ، فإنَّه لم يكن أحدٌ مستوليًا علىٰ عرشِه قبلَه، وهذا واضحٌ[1]، ولكنَّ الله

---

(١) قال العلَّامة محمَّد الأمين الشِّنقيطي في «آداب البحث والمناظرة» (ص٣٧٦ - ٣٧٩ عالم الفوائد):
«والبلِيَّة الثَّالثة مِن البلايا اللَّازمةِ لِمذهبِ الخلَفِ: هي أنَّهم لمَّا ادَّعَوا علىٰ صفةِ الاستواءِ أنَّ ظاهرَها غيرُ لائقٍ، ثُمَّ نفَوها مِن أصلِها بسببِ ذلكَ؛ زعمُوا أنَّ معنَىٰ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: استولَىٰ عليه، فجاؤُوا بالاستيلاءِ مِن تلقاءِ أنفسِهم، ونفَوا الاستواءَ الثَّابتَ في القُرآن، وضربُوا لِذلك مثلًا بقولِ الرَّاجزِ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

فقالُوا: (قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ) معناهُ: قد استولىٰ عليه، وإذًا فمعنَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ثُمَّ استولَىٰ عليه.

ونحنُ نقولُ في هذا: أيُّها المستدلُّ ببيتِ الرَّجز هذا علىٰ أنَّ الاستواءَ معناه: الاستيلاءُ، ألَم تخشَ اللهَ؟! ألم تستحِي مِن خالق السَّموات والأرض جَلَّ وَعَلَا استحياءً يمنعُك مِن أنْ تُشبِّه استيلاءَه علىٰ عرْشِه - الَّذي زعمتَ - باستيلاءِ بِشرٍ علىٰ العراق؟! وهل يُعقلُ في الدُّنيا تشبيهٌ أشنعُ مِن تشبيهِ استيلاءِ الله علىٰ عرشِه باستيلاء بشر بن مروان علىٰ العراق؟!

فاعلم - أيُّها الخلَفيُّ - أنَّ هذا التَّشبيهَ الَّذي جئتَ بِهِ في الاستيلاءِ - الَّذي زعمْتَ - والبيت الَّذي استدْلَلتَ به: أنَّك بِهِ أنتَ أعظم المُشبِّهين نَصيبًا في التَّشبيهِ لِصفاتِ الخالقِ بصفاتِ خلْقِه، وبأيِّ دليلٍ مِن كتابٍ أو سنَّةٍ أو إجماعٍ أو عقلٍ سوَّغتَ لنفسِك أنْ تُشبِّهَ استيلاءَ اللهِ علىٰ عَرْشِه - الَّذي زعمْتَ - باستيلاءِ بِشرِ بن مروانَ علىٰ العراقِ.

ثُمَّ اعلمْ - أيُّها الخلَفيُّ - أنَّ الاستيلاءَ الَّذي جئتَ بهِ مِن تِلقاءِ نفسِك مِن غيرِ اعتمادٍ علىٰ وحيٍ سماويٍّ أنَّه أشدُّ الصِّفاتِ تَوغُّلًا في التَّشبيهِ؛ لأنَّ فيهِ تشبيهَه تعالىٰ في استيلائه علىٰ عرشِه بكُلِّ مخلوقٍ قهَر مخلوقًا فغلبَه، واستولىٰ عليه، وهذا يستلزمُ مِن أنواعِ التَّشبيهِ بُحورًا لا سواحلَ لها.

ولا شكَّ أنَّك ستضطرُّ - أيُّها الخلفيُّ - إلىٰ أنْ تقولَ: هذا الاستيلاءُ الَّذي فسَّرتُ به استواءه منزَّهٌ عن مُشابهةِ استيلاءِ المخلوقين!

ونحنُ نسألُك ونطلبُ منك الجوابَ بالحقِّ، الخالي مِن التَّعصُّبات الَّتي تُعمي العُقلاءَ وتُصمُّهم: أيُّهما أحقُّ بالتَّنزيهِ عن مُشابهةِ صفات الخلْق؛ الاستواء الَّذي أثنىٰ اللهُ بِهِ علىٰ نفسِه في سبع آياتٍ مِن كتابه، وأنزلَ به الرُّوح الأمين علىٰ سيِّد الخلقِ ﷺ، قُرآنًا يُتلىٰ مُتعبَّدًا بلفظِه؛ كلُّ حرْفٍ منه عشر حسناتٍ لقارئِه، ويُقرأُ به
=

أخبرَنا بأنَّها لا تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمىٰ القلوبُ الَّتي في الصُّدور[1].

فمَن هو الَّذي كان مُنازعًا لله ربِّ العالمين؟! ومستوليًا علىٰ عرشِه قبْلَه؟! نعوذُ باللهِ مِن الضَّلالِ، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٢ – ٤٤].



=

في الصَّلاة، ومَن أنكرَ أنَّه مِن القُرآن كفَر بإجماعِ المُسلمين، أم الأحقُّ بالتَّنزيه عن مُشابهة صفات المخلوقين هو الاستيلاءُ الَّذي جئتُم به مِن تِلقاء أنفسِكم، مِن غيرِ أنْ يدلَّ عليه كتابٌ ولا سنَّةٌ ألبتَّةَ بوجهٍ مِن الوُجوهِ؟

والظَّاهرُ: أنَّك ستضطرُّ إلىٰ أنْ تقول: إنَّ كلامَ ربِّ العَالمين أحقُّ بالتَّنزيهِ مِن كلامٍ جاء به ناسٌ مِن تِلقاءِ أنفسِهم مِن غيرِ استنادٍ إلىٰ دليلٍ مِن نقلٍ ولا عقلٍ، إلَّا إذا كُنتَ مُكابرًا، والمُكابرُ لا داعيَ للكلام معه.

وهذا الَّذي ذكرْنا في الاستواءِ جارٍ في جميع الصِّفات الثَّابتة في الكتاب والسُّنَّة؛ كما قدَّمْنا أنَّ إيضاحَ مثالٍ واحدٍ منها كافٍ في إيضاح الجميع؛ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤]». اهـ

(١) يُشيرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].



الاعتقادُ في رُؤيةِ الله ونزولِه

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ

الشرح:

أي: أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يومَ القيامةِ، كما ثبت ذلك في أحاديثَ مُتعدِّدةٍ؛ منها حديثُ جرير بن عبد الله في (الصَّحيحين): «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ**»[(١)].

والأحاديثُ الواردةُ في رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ كثيرةٌ مشهورةٌ.

وقولُه: (**وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ**) أي: أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا بغيرِ كيف[(٢)] في الثُّلُثِ الأوسطِ والثُّلث الأخيرِ مِن اللَّيل؛ فعن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ،**

---

(١) روى البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، رقم الحديث (٧٤٣٤) ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرُّؤية، رقم الحديث (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا**».

(٢) والمراد من كلام الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: نفي علم الكيف.

مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(١)، وأهل السُّنَّة يؤمنون بذلك ويُثبتونه لربِّهم على الوجه اللَّائق بجلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب التَّوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ رقم (٧٤٩٤)، ومسلمٌ في كتاب الصَّلاة، باب: التَّرغيب في الدُّعاء والذِّكرِ في آخر اللَّيل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

وفي لفظ لمسلم رقم (٧٥٨): «يَنْزِلُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُضِيءَ الْفَجْرُ».



الإيمانُ بالميزانِ والحوضِ

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأُقِـرُّ بِـالْمِيزَانِ وَالْحَـوضِ الَّـذِي ... أَرْجُـو بِـأَنِّي مِنْـهُ رِيًّـا أَنْهَـلُ

الشرح:

أي: وأخبرَ أنَّه يُؤمنُ بالمِيزانِ الَّذي تُوزنُ به الأعمالُ، وهو ميزانٌ له كِفَّتانِ ولسانٌ، تُوضعُ الحسناتُ الَّتي للعبدِ في كفَّة، وتُوضعُ السَّيِّئات في كفَّة[1]، فإذا مالتْ الحسناتُ بالسِّيئات نجَا صاحب الأعمالِ ودخَل الجنَّة بسلامٍ.

أمَّا إنْ مالتْ كفَّة السَّيِّئات علىٰ كفَّة الحسنات؛ فإنَّ صاحبَ هذه الأعمال ربَّما يَلحقُه ما يَلحقُه مِن العذابِ، ثُمَّ بعْد ذلك يَدخلُ الجنَّة؛ إمَّا بشفاعةِ الشَّافعِين، وإمَّا برحمةِ أرحمِ الرَّاحمِينَ.

---

(١) وانظر ما رواه الإمام أحمد (٦٩٩٤ قرطبة)، والترمذي وحسَّنه في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله (٢٦٣٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَىٰ إنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**». وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» رقم (١٣٥).

والحوضُ: هو حوضُ النَّبيِّ ﷺ طولُه مسيرةُ شهرٍ، وعرضُه مسيرةُ شهْرٍ، يشربُ منه المؤمنون يوم القيامةِ، فمَن شرِبَ منهُ شربةً لم يَظمأْ بعْدَها أبدًا، أباريقُه عدد النُّجوم[(١)].



(١) كما أخرجه البخاريُّ في كتاب الرِّقاق، بابٌ: في الحَوض، رقم (٦٥٧٩)، ومُسلمٌ في كتاب الفضائل، بابُ: إثبات حَوضِ نَبيِّنا ﷺ، رقم (٢٢٩٢)، مِن حديث عبد الله بن عمْرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، مَاؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا**».





الإيمان بالصراط

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَذَا الصِّرَاطُ يُمَدُّ فَوْقَ جَهَنَّمٍ ... فَمُوَحِّدٌ نَاجٍ وَآخَرُ مُهْمَلُ

الشرح:

الصِّراطُ: هو جسرٌ يوضعُ علىٰ متْن جهنَّم؛

فالصِّراط الحسِّيُّ: هو الَّذي يُمثِّل الصِّراطَ المعنويَّ الَّذي كان في الدُّنيا، والَّذي أشار إليه قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشُّورىٰ: ٥٢].

فالصِّراط المأمورُ باتِّباعه في الدُّنيا هو الشَّرع المُتمثِّل في كتابِ الله وسنَّة رسولِ الله ﷺ، مَن استقام عليه في الدُّنيا فإنَّه يستقيمُ في سَيرِه يوم القيامة، وبالمُسارعة إلىٰ شرْع الله تكونُ المُسارعةُ علىٰ الصِّراط الممدودِ علىٰ نار جهنَّم.

وقد ورد في الأحاديثِ الصَّحيحة ما يدلُّ علىٰ عدم التَّماثل - بل التَّفاوُت العظيم - في سيْر المُسلمين علىٰ الصِّراط الحسِّيِّ؛ فمنهم مَن يمُرُّ كلمْح البصر، وكالبرقِ، وكالرِّيح، وكأجاود الخيل، وكسعي الرِّجال، ومنهم مَن يمشي مشيًا، ومنهم مَن يحبُو حبْوًا، ومنهم مَن يزحف علىٰ بطنِه[1]، وهذا التَّفاوُت هو

(١) الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٥) (١١٢١٦)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٢٧) وابن منده في «الإيمان» (٨٢٨) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ، عَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلَالِيبُ وَخَطَاطِيفُ تَخْطَفُ النَّاسَ، قَالَ: فَيَمُرُّ النَّاسُ مِثْلَ الْبَرْقِ، وَآخَرُونَ مِثْلَ الرِّيحِ،

بحسَب تفاوت سيْرِهم علىٰ شرع اللهِ وسُرعتهم إليهِ.

ثُمَّ قال: (فَمُوَحِّدٌ نَاجٍ وَآخَرُ مُهْمَلُ) أي: الَّذي كان سيرُه المعنويُّ علىٰ الصِّراط مُستقيمًا في الدُّنيا فهو ينجو، ومَن كان سَيرُه مُتأرجِحًا فهو يسقطُ، والعياذُ باللهِ.



=

وَآخَرُونَ مِثْلَ الْفَرَسِ الْمُجْرَىٰ، وَآخَرُونَ يَسْعَوْنَ سَعْيًا، وَآخَرُونَ يَمْشُونَ مَشْيًا، وَآخَرُونَ يَحْبُونَ حَبْوًا، وَآخَرُونَ يَزْحَفُونَ زَحْفًا.. ». الحديث.

وأخرجه بغيرِ هذا السِّياق البخاريُّ (٧٤٣٩) ومسلمٌ (١٨٣) وغيرهما.



الإيمان بالجنَّة والنَّار

ثُمَّ قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَـذَا التَّقِـيُّ إِلَىٰ الجِنَـانِ سَـيَدْخُلُ   وَالنَّـارُ يَصْـلَاهَا الشَّـقِيُّ بِحِكْمَـةٍ

الشرح:

أي: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعدَّ للجنَّة مِلْأَها، وأعدَّ للنَّار مِلْأَها[1]، وما ذلك إلَّا بأعمالِهم، وما قد كتَب لهم وعليهم مِن السَّعادة والشَّقاوة.

اللَّهمَّ اجعلْنا مِن النَّاجِين، واكتُبْنا مِن الفائزين برحمتك، الَّذين يَغنمُون السَّلامةَ مِن عذاب الهوان الَّذي يكونُ لأصحاب الكُفر والمعاصي في نار جهنَّم، والعياذُ بالله.

---

(١) يُشيرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ ما رواه البخاري في كتاب التَّفسير، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾، برقم (٤٨٥٠)، وفي كتاب التَّوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾، برقم (٧٤٤٩)، ومسلم في كتاب الجنَّة، باب: (النَّار يدخلُه الجبَّارون، والجنَّة يدخلها الضُّعفاء)، برقم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّما أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا**». الحديث.





الإيمانُ بسُؤال القبر ونعيمِه وعذابِه

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِكُلِّ حَيٍّ عَاقِلٍ فِي قَبْرِهِ عَمَلٌ يُقَارِنُهُ هُنَاكَ وَيُسْأَلُ

الشرح:

هذا البيتُ فيه أنَّه يصوَّر للإنسان عملُه في صورة رجُل؛ عن البراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**». قال: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ**» قال: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ**

يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي، وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ

يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

«فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[(١)].

فشيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُشيرُ إلىٰ هذا.

---

(١) رواه أحمد (١٨٥٥٧) واللفظ له، وأبو داود في كتاب السُّنَّة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣). وروىٰ طرَفه النَّسائيُّ في كتاب الجنائز، باب: الوقوف علىٰ الجنائز، رقم (٢٠٠١)، وابنُ ماجه في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٨) (١٥٤٩) وصحَّحه ابنُ خزيمة في «التَّوحيد» (١١٩)، وابن جرير في «تهذيب الآثار مُسند عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ» (٢/ ١٤٩١)، والحاكم (١/ ٣٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٣٩) وابن القيّم في «الرُّوح» (٨٨) و«إعلام الموقّعين» (١/ ١٧٨) و«تهذيب السُّنن» (٧/ ١٣٩) وقوّاه شيخ الإسلام ونقل عن جماعة تصحيحه في «شرح حديث النزول» (٢٦٢ - ٢٨٠) وقال الألباني في تحقيقه علىٰ «الآيات البيِّنات» (ص٨٤ المكتب الإسلامي): «صحيح، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -الطَّويل-». وصحَّحه أيضًا في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩).



اعتقاد الأئمة الأربعة

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هَــذَا اعْتِقَــادُ الشَّــافِعِيِّ وَمَالِــكٍ ... وَأَبِــي حَنِيفَــةَ ثُــمَّ أَحْمَــدَ يُنْقَــلُ

فَــإِنِ اتَّبَعْــتَ سَــبِيلَهُمْ فَمُوَفَّــقٌ ... وَإِنِ ابْتَــدَعْتَ فَمَــا عَلَيْــكَ مُعَــوَّلُ

الشرح:

أي: هذا ما سبرتُه هنا هو اعتقادُ الأئمة الأربعة وهم: الشَّافعي[(١)]، ومالك[(٢)]، وأبو حنيفة[(٣)]، وأحمد[(٤)]، فإنِ اتَّبعتَ سبيلهم فأنت موفَّق، وإنِ ابتدعْتَ وخرجْتَ عن طريقِهم فما عليك مُعوَّل، ونسألُ اللهَ أنْ يهديَك إلىٰ الحقِّ وإصابتِه.

وبالله التَّوفيق.

وصلَّىٰ اللهُ علىٰ محمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

---

(١) هو الإمام الفقيه ناصر السُّنَّة ومجدّد الملَّة أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المطَّلبي الشَّافعي، وُلد سنة (١٥٠هـ)، وتوفي سنة (٢٠٤ هـ). انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥ - ٩٩).

(٢) هو إمام دار الهجرة وعالم المدينة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحميري الأصبحي المدنيّ، ولد - علىٰ الأصح - سنة (٩٣ هـ)، وتوفي سنة (١٧٩هـ). انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٨ - ١٣٥).

(٣) هو الإمام فقيه الملة عالم العراق، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي، ولد سنة (٨٠هـ)، توفي سنة (١٥٠هـ). انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٩٠ - ٤٠٣).

(٤) هو الإمام حقًّا وشيخ الإسلام صدقًا، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي البغدادي أحد الأئمة الأعلام، ولد سنة (١٦٤ هـ)، وتوفي سنة (٢٤١هـ). انظر ترجمته في: «سِيَر أعلامِ النُّبلاءِ» (١١/ ١٧٧ - ٣٥٨).

فهذا ما أملاه شيخنا الإمام العلَّامة أحمد بن يحيىٰ النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليَّ، وقرأتُه عليه شرحًا علىٰ لاميَّة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك في مسجده بقرية النّجامية يوم الأربعاء الرَّابع مِن شهر صفر (١٤٢٨) هجريَّة، وكان الانتهاء من إملائه يوم الخميس الخامس من شهر صفر (١٤٢٨) هجريَّة.

وتمت قراءتُه علىٰ الشيخ عبيد الجابري حفظه الله وأقرَّ به عصر يوم الأربعاء (٥/ جمادىٰ الأوَّل ١٤٣٣هـ).

وكتبَه

حامدًا لربِّه ومُصلّيًا على نبيِّه الفقير إلى ذي الكرم والفضل

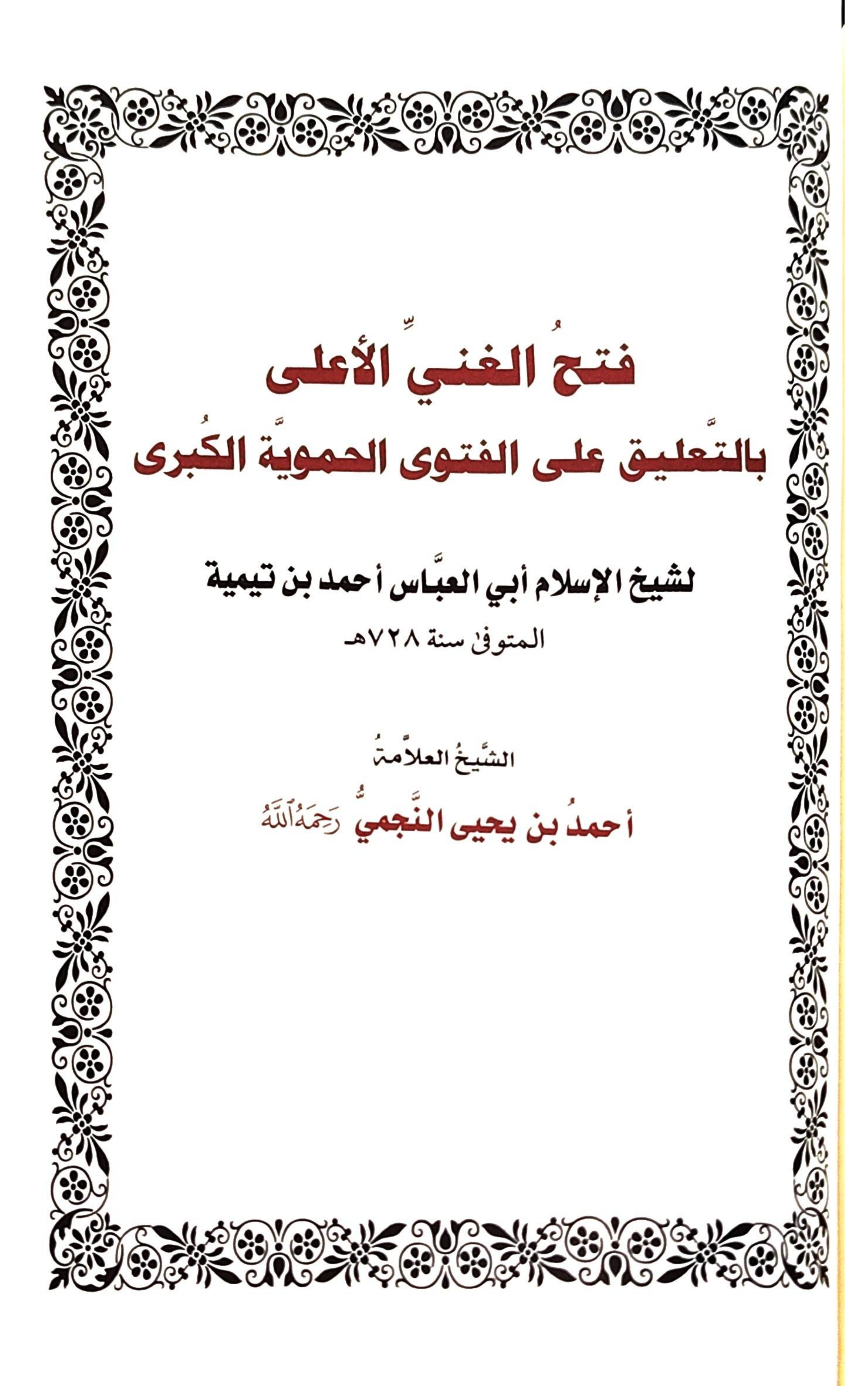
أبو حذيفة عبد الرَّحمن بن الفضل اليافعي

شمله الله ووالديه ومشايخه والمسلمين بعفوه وإحسانه

هاتف/ ٠٥٤١١٨٨٩٠٩/٠٥٦٠٠٠٧٩٧٥

البريد الإلكتروني: Yafie1979@gmail. com





فتحُ الغنيِّ الأعلى

بالتَّعليق على الفتوى الحمويَّة الكُبرى

لشيخ الإسلام أبي العبَّاس أحمد بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨هـ

الشَّيخُ العلاَّمةُ

أحمدُ بن يحيى النَّجميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ



مقدِّمة النَّاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبِه أجمعين، أمَّا بعدُ:

«فلقدْ حمىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دينَه بأوليائِه الَّذين وهبَهم مِن الإيمان والعلم والحكمة ما به يصدُّون هؤلاء الأعداء، ويَردُّون كيدَهم في نحورِهم، فما قام أحدٌ ببدعة إلَّا قيَّض الله - وله الحمدُ - مِن أهل السُّنَّة مَن يدحضُ بدعتَه ويُبطلُها.

وكان في مُقدِّمة القائمين علىٰ هؤلاء المُبتدعة شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّاني رَحِمَهُ اللَّهُ، (ت ٧٢٨هـ)، وله المؤلَّفات الكثيرة في بيان السُّنَّة، وتوطيد أركانِها، وهدم البدَع.

وممَّا ألَّفه في هذا البابِ رسالة (الفتوىٰ الحموية)؛ الَّتي كتبها جوابًا لسؤالٍ ورَد عليه سنةَ (٦٩٨هـ) مِنْ (حماة) بلد في الشَّام، يسألُ فيه عمَّا يقولُه الفقهاءُ وأئمَّة الدِّين في آيات الصِّفات وأحاديثها؟ فأجاب بجواب يقع في حوالي (٨٣) صفحة، وحصل له بذلك محنةٌ وبلاءٌ، فجزاه الله تعالىٰ عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء»[1].

وقد تولَّىٰ التَّعليقَ عليها فضيلةُ الشَّيخ العلَّامة أحمد بن يحيىٰ النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ

---

(١) «فتح ربِّ البرية بتلخيص الحمويَّة» للعلَّامة ابن عُثيمين (ص٣ - ٤ دار الوطن) - باختصارٍ يسيرٍ -.

فِي مجالسِه الَّتي كان يَعقدُها لطلَّاب العلم، وقدْ بلَغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعندنا مِن الدَّلائلِ السَّمعيَّة والعقليَّة ما لا يتَّسع هذا الموضعُ لِذكْرِه...، بل نفسُ عاقلٍ أنْ يأخُذَ سبُلَ هؤلاءِ المغضوب عليهم والضَّالين، ويدَعُ سبيل الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم؛ مِن النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين**).

وقد آثرْنا إخراجَ هذا التَّعليق - علىٰ الرَّغم مِن عدم تمامه - لكونه لم يُنشر مِن قبلُ؛ حرصًا منَّا علىٰ نشر العلم النَّافع، وإخراج تُراثِ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمُحبِّيه وطُلَّابه.

أمَّا عن طريقة الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التَّعليقِ فإنَّه كان يقرأُ عليه القطعة مِن الفتوىٰ، فيُعلِّق عليها إجمالًا؛ مُبيِّنًا مقاصد كلام شيخ الإسلام، ومُقرِّبًا لإشاراته، وقد يذكُر شواهدَ وأدلَّةً علىٰ ما قرَّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد يُعلِّق علىٰ بعض الأحاديث والآثار الواردة عن السَّلفِ، ويشرح بعض الألفاظِ الَّتي وردتْ في كلام المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان مِن طريقةِ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحيانًا ذِكرُ ما علَّق به مُحقِّقُ (الفتوىٰ الحمويَّة الكبرىٰ) الدُّكتورُ حمدُ بنُ عبد المُحسن التّويجريّ؛ من تخريج حديثٍ أو توثيق نصٍّ أو ترجمة عَلَم ونحو ذلك، وقد يُعلِّق عليه أحيانًا.

أمَّا عن عملِنا في هذا الكتابِ؛ فاتَّبعنا فيه المنهج الآتي:

- مُراجعةُ متنِ (الفتوىٰ الحمويَّة الكبرىٰ)، وتعديلُ ما يحتاج إلىٰ تعديلٍ في الشَّرح، وحذف المُكرَّر منه؛ إذْ أصلُ هذا التَّعليق دروسٌ مسموعةٌ.
- تخريج الآيات القرآنيَّة، والأحاديث والآثارِ الواردة في الكتاب، مع ذِكر أحكام العلَّامة الألبانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- إضافةُ ما لم يشرحه الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن متنِ رسالةِ: (الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ)؛ لتَتمَّ الفائدةُ بذِكرِها كاملةً. كما نقلْنا تراجم الأعلام الَّذين وردتْ

أسماؤهم فيه من كلام المُحقِّق، وكذا تعريفه بالفِرَق الَّتي ورد ذِكرُها؛ جريًا علىٰ عادة الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الشَّرح.

- وضع فهارس لمواضيع الكتاب.

- وضع مُقدِّمةٍ فِيها بيان طريقة عملِنا في هذا الكتاب.

وختامًا نسأَلُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَه عملًا مقبولًا خالصًا لوجهِه الكريم، وأنْ ينفع به النَّفع الحسن العميم، وأنْ يجزيَ الشَّيخَينِ المُؤلِّف والشَّارح جزاء العُلماء العاملين، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُئل شيخُ الإسلامِ أبو العبَّاس أحمدُ ابنُ تيمية[1]:

وذلك فِي سنة ثمان وتسعِين وستِّمائة، وجرىٰ بسببِ هذا الجواب أمورٌ ومحنٌ، وهو جوابٌ عظيمُ النَّفع جدًّا. فقالَ السَّائلُ:

ما قولُكم في آيات الصِّفات؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصِّلت:١١]، إلىٰ غير ذلك مِن الآياتِ وأحاديثِ الصِّفاتِ؛ كقولِه ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَينِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ»[2]، وقولِه: «يَضَعُ الجَبَّارُ قَدَمَهُ فِي النَّارِ»[3]، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث، وما قال العُلماء، وابسُطُوا القول في ذلك مأجورِينَ إنْ شاءَ الله تعالىٰ؟

فأجاب:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، قولُنا فيها ما قالهُ اللهُ ورسولهُ ﷺ والسَّابقون الأوَّلون مِن المُهاجرين والأنصارِ، والَّذين اتَّبعوهُم بإحسانٍ، وما قاله أئمَّة الهُدىٰ بعد هؤلاءِ الَّذين أجمعَ المُسلمُون علىٰ هدايتهم ودِرَايتِهم، وهذا هو الواجبُ علىٰ جميعِ الخلْقِ في هذا البابِ وغيرِه، فإنَّ اللهَ بعثَ مُحمَّدًا ﷺ بالهُدىٰ ودين الحقِّ ليُخرجَ النَّاس مِن الظُّلماتِ إلىٰ النُّور بإذْنِ ربِّهم إلىٰ صراطِ العزيزِ الحميدِ، وشَهِدَ له بأنَّه بعثَه داعيًا إليه بإذْنِه وسِراجًا مُنيرًا، وأمَره أنْ يَقولَ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ

---

(١) انظر ترجمته في: «التَّعليقات الأثريَّة علىٰ العقيدة الواسطيَّة» في (٣/ ٣٢٧) من مجموع العلَّامة أحمد النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ط/ دار الميراث النَّبويّ بالجزائر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فمِنَ المُحالِ في العقل والدِّين أنْ يكونَ السِّراجُ المُنيرُ الَّذي أخرجَ اللهُ به النَّاس مِن الظُّلماتِ إلىٰ النُّورِ، وأنزلَ معهُ الكتابَ بالحقِّ لِيحكمَ بين النَّاسِ فيمَا اختلفُوا فيه، وأمَرَ النَّاس أنْ يردُّوا ما تنازعُوا فيه مِن دِينِهم إلىٰ ما بعثَ به مِن الكِتابِ والحِكمةِ، وهو يدعو إلىٰ الله وإلىٰ سبيلِه بإذنِه علىٰ بصيرةٍ، وقدْ أخبر أنَّه أكملَ لهُ ولأُمَّتِه دينَهم، وأتمَّ عليهم نعمتَه، محالٌ - معَ هذا وغيرِه - أنْ يكونَ قد ترَكَ بابَ الإيمانِ باللهِ، والعلم به مُلتبسًا مُشتبهًا، فلم يميّز بين ما يجبُ لله من الأسماءِ الحُسنىٰ والصِّفات العُليا، وما يجوزُ عليه، وما يمتنع عليه.

فإنَّ معرفةَ هذا أصلُ الدِّين، وأساس الهداية، وأفضل ما اكتسبته القُلوبُ، وحصَّلته النُّفوس، وأدركتْه العُقولُ، فكيفَ يكون ذلك الكتاب، وذلك الرَّسول، وأفضل خلْق الله بعد النَّبيِّين لم يُحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا؟!

ومِن المُحال أيضًا أن يكونَ النَّبيُّ ﷺ قد علَّمَ أُمَّتَه كلَّ شيءٍ حتَّىٰ الخِراءَةَ، وقال: «تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[١]، وقال فيمَا صحَّ عنه أيضًا: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرِّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»[٢].

التعليق:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آله

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه. وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٩٣٧).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وصحبه أجمعين، أمَّا بعدُ:

فلقد ظهر شيخ الإسلام في قرون ساد عند أهلها أنَّ آياتِ الصِّفات وأحاديثَها يتضمَّن التَّشبيه للخالق بالمخلوق، وأنَّ تأويلَها تنزيهٌ لله ربِّ العالمين؛ تنزيهٌ له عمَّا لا يليق بجلاله، هكذا تصوَّروا، وظنُّوا أنَّ إمرارَ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه، واعتقاد معناها المعروف في اللُّغة العربيَّة؛ أنَّ ذلك يوجب التَّشبيه، فلذلك انقسموا إلىٰ أقسام:

١ - أناسٌ عطَّلُوا الله عن صفاتِه الَّتي أثبتها لنفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله؛ كالجهميَّة والمعتزلة وأمثالهم.

٢ - أناسٌ أثبتُوا تلك الصِّفات إثباتًا يُوجبُ التَّشبيه؛ وهم المُشبِّهة الَّذين يقولون: استوىٰ كاستوائي، وهذا أيضًا لا يجوزُ؛ إذ إنَّ الواجب علىٰ المُسلمين أن يثبتوا لله صفاتًا تليق بجلاله، وكما أنَّه يعتقد أنَّ له ذاتًا لا تشبهُ الذَّوات فالواجب عليهم أن يعتقدوا أنَّ له صفاتٍ لا تُشبهُ الصِّفات.

٣ - قومٌ زعموا أنَّهم أثبتوا هذه الصِّفات، ولكنَّهم تأوَّلوها زاعمين بأنَّ إثباتها علىٰ الوجه الَّذي ورَد يقتضي التَّشبيهَ، وأنَّهم بالتَّأويل يُنزهُّونه؛ وهؤلاء هم الأشاعرةُ، فمثلًا يُؤوِّلون اليد بالنِّعمة، والاستواء بالاستيلاء، إلىٰ غير ذلك، وهؤلاء أيضًا مُخطئون.

٤ - أهل السُّنَّة الَّذين أثبتوا لله عَزَّوَجَلَّ الأسماء والصِّفات؛ الَّتي أثبتها الله لنفسه، وقالوا: نثبتُ لله هذه الصِّفات علىٰ الوجه الَّذي يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لذلك فإنَّ شيخ الإسلام لَمَّا سُئل عن هذه الصِّفات الواردة في القُرآن والسُّنَّة؛ وكيف يقال فيها، وما هو الصَّواب من تلك الأقوال المتشعِّبة؟ بدأ يردُّ عليهم

بطريقة الإلزام؛ بأنَّ ما قاله اللهُ، وقاله رسولُه ﷺ، واعتقدَه السَّابقون الأوَّلون مِن المُهاجرين والأنصار، والَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، وما قاله أهلُ الأثر وأئمَّة الهُدىٰ بعد هؤلاء، الَّذين أجمَع المُسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم، وأنَّ قولهم في آيات الصِّفات وأحاديثِها هو أنَّهم يعتقدُون فيها المعاني الَّتي أثبتَها اللهُ لِنفسِه، وأثبتها رسولُه ﷺ علىٰ الوجه اللَّائق بجلالِه؛ إذ إنَّ الله بعَث نبيَّه محمَّدًا بالهدىٰ ودين الحقِّ لِيُخرج النَّاس مِن الظُّلمات إلىٰ النُّور بإذنِ ربِّهم إلىٰ صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنَّه بعثَه اللهُ داعيًا بإذنِه وسِراجًا منيرًا؛ فقالَ سُبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨ - ٩]، وقال في سُورة (الأحزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧]، فهل يعقلُ أنَّ الَّذي أرسلَه اللهُ إلىٰ النَّاس لِيُخرجهم من الظُّلمات إلىٰ النُّور، وأنزلَ معه الكتاب بالحقِّ لِيحكُم بين النَّاس فيما اختلفُوا فيه، وأمَر النَّاسَ أنْ يَردُّوا ما تنازعوا فيه مِن دِينِه إلىٰ ما بعث به مِن الكتاب والحِكمة، هل يُعقلُ بعْد ذلك أنَّ الله يترك النَّاس في هذا الباب مِن أبواب الاعتقاد؛ يتركهم بدون بيانٍ؟! هل يُعقل هذا؟! مع أنَّه سُبحانه أخبر بأنَّه أكمَل له الدِّين، وأتَم عليه النِّعمةَ، وسار علىٰ ذلك أصحابه، ومَن اتَّبعهم مِن أئمَّة الهدىٰ، هل يعقل بعد ذلك أنَّه تركهم بدون بيان؟!! الجواب: لا يعقلُ.

وهل يعقلُ أيضًا أنَّ أصحابه وخاصَّته، وأقرب النَّاس إليه؛ الَّذين عاشوا وماتوا وهم يعتقدون هذه الصِّفات بمعانيها؛ أنَّهم عاشوا وماتوا وهم علىٰ

ضلالٍ؟! لا يقول ذلك أحدٌ عنده مُسكةٌ مِن عقلٍ أو جَذوةٌ من إيمانٍ، ولهذا يلزم أنَّ الله قد بيَّن لهم أعظم بيانٍ، وأوضح لهم أعظم إيضاحٍ بأنَّ ما ذكره في كتابه مِن الصِّفات الَّتي نسبَها لِنفسِه، ونسبها له رسولُه ﷺ؛ أنَّها هي الحقُّ الَّذي لا مريةَ فيهِ ولا شكَّ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أخبر بأنَّه لا يضلُّ قومًا بعد إذْ هداهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التَّوبة: ١١٥]، فلو كان إثبات الصِّفات تشبيهًا وزيغًا عن الحقِّ لم يُقرَّهم علىٰ ذلك أبدًا، بل إنَّ إكمال الدِّين وإتمام النِّعمة هو البيان لهم بما يعتقدونه مِن صفات إلٰههم المعبود، وجعَل ذلك واضحًا لهم بدون لبْسٍ ولا اشتباهٍ.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ معرفةَ هذا أصلُ الدِّين، وأساسُ الهِدايةِ، وأفضلُ ما اكتسبَته القُلوبُ، وحصَّلته النُّفوس، وأدركتْه العُقول، فكيف يكون ذلك الكتابُ، وذلك الرَّسولُ، وأفضلُ الخلْقِ بعد النَّبيِّين لم يحكموا هذا الباب اعتقادًا، وقولًا؟!» يعني: أنَّ هذا محالٌ أن يكون؛ محالٌ أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ لم يُبيِّن لهم ذلك، والرَّسولُ ﷺ لم يُبيِّن لهم ذلك، ومحالٌ أيضًا أنْ يكونَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ لم يعلمُوا حقيقة العقيدة، كلُّ ذلك لا يمكن أن يكونَ؛ إذًا فلا بدَّ أنَّهم أحكموا هذا البابَ، واعتقدُوا صفات الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه اللَّائقِ بجلاله.

ومَن يقولُ: إنَّ إثبات الصِّفات ضلالٌ؛ وذلك يستلزمُ قوله أنَّ اللهَ أرشدَهم إلىٰ ضلالٍ، واللهُ يتنزَّه ويتقدَّس عن أنْ يكون أرشدَهم إلىٰ ضلالٍ، ويلزمُ مِن ذلك أيضًا أنَّ الرَّسولَ ﷺ حين أثبتَ تلك الصِّفاتِ قد أثبتَ لهم الضَّلالةَ، وأباح لهم اعتقادَ الضَّلال، ومَن يقول هذا القول، ويعتقدُ هذا الاعتقاد فهو كافرٌ أشدَّ الكفر؛ إذ إنَّه نسبَ اللهَ ونسبَ رسولَه إلىٰ أنَّ ما جاؤوا به وبيَّنوه للأمَّة أنَّه

ضلالٌ، وهذا لا يجوزُ أبدًا؛ لا شرعًا، ولا عقلًا، وهو يقتضي أيضًا أنَّ أصحابه قد عاشوا علىٰ ذلك الضَّلال وماتوا عليه، وهذا محالٌ أيضًا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بيَّن الحقَّ لِعبادِه، وبيَّنه رسولُه ﷺ، وما بيَّنه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله؛ فهو حقٌّ؛ إذًا فما هو الجواب؟ **الجواب**: أنْ تعتقد أنَّ إثبات تلك الصفات فرضٌ محتَّمٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ، لكن علىٰ الوجه اللَّائق بجلال اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والرَّسولُ ﷺ يقولُ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[1]، ويقول في حديث عبد الله بن عمرو الذي رواه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٨٤٤) وفيه: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**»، فهل يصحُّ في الشَّرع أو في العقل أنَّ الرَّسول يرسله الله فيخبرُهم بأخبارٍ، ويأمرهم باعتقادها، مع أنَّ هذه الأخبار اعتقادُها يوجبُ الكفر؛ هل يُعقل هذا؟! لا والله، وهذا ما تزعمه الجهميَّة، ومن يدين بدينها؛ وهذا من لوزام مذهبهم.

❁ ❁ ❁

وقال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»[2].

التعليق:

قوله: «قال أبو ذرٍّ: «لَقَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه أحمدُ (٢١٣٦١ الرِّسالة)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٦٤٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٨٠٣).



السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»» هذا علىٰ سبيل المُبالغة؛ فكلُّ ما ذُكر في هذا المقطع كلُّه إلزامٌ لِمَن يعتقدون أنَّ إثبات الصِّفات علىٰ وجهِها ومعانيها المُقتضية لها في اللُّغة العربيَّة؛ أنَّ إثباتَها كذلك ضلالٌ، وأنَّ الواجبَ نفيُها أو تأويلُها، وأنَّ هذا قولٌ باطلٌ، أي: أنَّ ما يلزم عليه من اللَّوازم الَّتي ذكرها شيخ الإسلام وبيَّنها؛ أنَّ ذلك الاعتقاد الَّذي قالوه لا يجوز اعتقادُه، بل الواجب هو اعتقادُ ما جاء به القرآن والسُّنَّة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله كما أنَّ المسلمين جميعًا يعتقدون ذلك في سائر الأحكام العمليَّة، وكذلك يجبُ أنَّ يعتقدوه في الأحكامِ الاعتقاديَّة الَّتي يدينون الله بها، ويعرفونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها.

فقوله: «لَقَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا» إمَّا أن يكون من باب المبالغة؛ بحيث إنَّ الرَّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نشر الشَّريعة الَّتي أُمِرَ بنشرِها، فلا تكادُ تجدُ أحدًا ممَّن عرفه وعايشه إلَّا وذكَر لك منه علمًا؛ وإمَّا أن يكون مِن باب الدّلالة، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي مكَّن الطَّير مِن الطَّيران؛ فأخبرَ جَلَّ وَعَلَا أنَّ الطُّيورَ الَّتي تطيرُ بجناحيها في السَّماء فيها آيةٌ مِن الآيات الَّتي نبَّه اللهُ عليها في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [تبارك:١٩]، فأخبر أنَّ طيران الطَّير فيه دلالةٌ علىٰ معرفة خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الَّذي مكنَّهم مِن الطَّيران في الأجواءِ الرَّفيعة، وقطْع المَسافات في السَّاعات السَّريعة.

❁❁❁

وقال عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا؛ فَذَكَرَ بَدْءَ الخَلْقِ، حَتَّىٰ دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، وَحَفِظَ ذَلِكَ مَنْ**

حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ». رواه البخاري[(١)].

محالٌ مع تَعليمِهم كلَّ شيءٍ لهم فيه منفعةٌ في الدِّين - وإنْ دقَّتْ - أنْ يترك تَعليمَهم ما يَقولونه بألسنتِهم، ويَعتقدونه بقُلوبِهم، في ربِّهم ومَعبودِهم ربِّ العالمين، الَّذي معرفتُه غايةُ المعارف، وعبادتُه أشرفُ المقاصدِ، والوصولُ إليه غايةُ المَطالب، بل هذا خُلاصةُ الدَّعوةِ النَّبويَّة، وزُبدةُ الرِّسالةِ الإلهيَّة.

فكيف يتوهَّم مَن في قَلبِه أدنىٰ مسكةٍ مِن إيمانٍ وحكمةٍ أنْ لا يكونَ بيانُ هذا البابِ قد وقَع مِن الرَّسولِ ﷺ علىٰ غاية التَّمام؟!!؛ إذا كان قد وقع ذلك منهم فمِن المُحالِ أنْ يكون خيرُ أمَّتِه وأفضلُ قُرونِها قصَّروا في هذا الباب؛ زائدِين فيه، أو ناقِصينَ عنه.

التعليق:

قولُ عُمر بنِ الخطَّاب: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا، وَذَكَرَ الخَلْقَ؛ حَتَّىٰ دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ»، أفيُعقلُ أنَّ الرَّسولَ ﷺ الَّذي هذا شأنُه؛ كما في الأثرَين؛ أثرِ أبي ذرٍّ، وأثرِ عُمرَ؛ أفيعقلُ أنْ يتركَ أُمَّته مِن دونِ أنْ يُبيِّنَ لهم عقيدتَهم في ربِّهم؟!! هذا مُحالٌ.

فإذا كان الرَّسولُ ﷺ قد علَّمهم حتَّىٰ الخِراءةَ؛ كما قيلَ لِسَلمانَ، فقالَ: «أَجَلْ»[(٢)]، فكيفَ لا يُعلِّمُهم عقيدتَهم في ربِّهم؟!!

ولهذا قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُحالٌ مع تعليمِهم كلَّ شيءٍ لهم فيهِ منفعةٌ في الدِّين؛ وإنْ دقَّت»؛ أي: صغُرتْ وقلَّتْ، «أن يتركَ تعليمَهم ما يقولونه بألسنتِهم،

---

(١) رقم (٣١٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢).

ويعتقدونَه بقُلوبِهم، في ربِّهم ومَعبودِهم ربِّ العالمين؛ الَّذي مَعرفتُه غايةُ المعارفِ، وعِبادتُه أشرفُ المقاصدِ، والوصولُ إليه غايةُ المَطالِب، بل هذا خُلاصةُ الدَّعوةِ النَّبويَّة، وزُبدةُ الرِّسالة الإلهيَّة، فكيفَ يتوهَّم مَن في قلبِه أدنىٰ مسكَةٍ مِن إيمانٍ وحِكمةٍ أنْ لا يكونَ بيانُ هذا قدْ وقَع مِن الرَّسولِ ﷺ علىٰ غاية التَّمام ؟!!».

والخُلاصةُ مِن هذَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ الَّذي علَّمهم كلَّ شيءٍ بتعليمِ ربِّه إيَّاه، وتعليمه هو إيَّاهم لا بدَّ أنَّه قد علَّمهم هذه العقيدة؛ أي: عقيدتهم في ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كانَ قد علَّمهم ما يعتقدون في ربِّهم فاعتقدوه، فمِن المحالِ أنْ يكونَ خيرُ أمَّتِه وأفضلُ قرونِها قصَّروا في هذا الباب فلم يُبيِّنوه لغيرهم، أو بيَّنُوه زائدِينَ فيه أو ناقصين عنه.

إذًا فيستحيلُ عدمُ البيان، ويستحيلُ بيانٌ مع زيادة أو نقصٍ؛ يستحيل منهم القصور في ذلك، ولكنَّ أعداء الإسلام أدخلُوا علىٰ أهلِه شُبهاتٍ يُريدون بها زحزحةَ أهلِ الإسلامِ عن عقيدتهم الحقَّة، فانطلَتْ تلكَ الشُّبهةُ علىٰ بعض المُتأخِّرين فضلُّوا.

❁❁❁

ثمَّ مِن المُحالِ أيضًا أنْ تكونَ القُرونُ الفاضلةُ - القرنُ الَّذي بُعِث فيهم رسولُ الله ﷺ، ثمَّ الَّذين يَلونَهم، ثمَّ الَّذين يَلونَهم - كانُوا غيرَ عالِمينَ وغيرَ قائلِينَ في هذا البابِ بالحقِّ المُبينِ؛ لأنَّ ضدَّ ذلكَ إمَّا عدمُ العلمِ والقولِ، وإمَّا اعتقادُ نَقيضِ الحقِّ وقولُ خلافِ الصِّدقِ، وكلاهما مُمتنِعٌ.

التعليق:

أقول: معنىٰ ذلك:

- إمَّا أنْ يكون أهلُ هذه القُرونِ الثَّلاثةِ المُفضَّلةِ جهلُوا الحقَّ الَّذي بيَّنه رسولُ الله ﷺ، وعلِمَه أولئكَ المُتحذلقون في آخر الزَّمن، وهذا مُحالٌ.

- وإمَّا أن يكونوا قد علمُوه، وكتمُوه فلم يقولُوا به، ويُبيِّنُوه لِمَن بعْدَهم.

فهذا محالٌ؛ لأنَّ ضدَّ ذلك إمَّا عدمُ العلم والقول به. وإمَّا نقيض الحقِّ؛ وقول خلاف الصِّدق، وذلك مُمتنعٌ في حقِّ الصَّحابة وتابعيهم وأتباع الأتباع؛ الَّذين شهِد لهم رسولُ الله ﷺ بالخيريَّة، وأنَّ ذلك يقتضي عدم الخيريَّة الَّتي شهِد بها الرَّسولُ ﷺ؛ إذ كانوا قد جهلُوا الحقَّ، أو علموه ولم يقولوه، بل قالُوا خلافَ الحقِّ والصِّدق، فهذا ممتنعٌ أشدَّ الامتناع في حقِّهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وعلىٰ هذا؛ فإنَّ مَا بلَّغوه لِمَن بعدَهم هو الحقُّ الَّذي علَّمهم إيَّاه رسولُ اللهِ ﷺ، ولذلك تبطلُ كلُّ شُبهةٍ زعمَها الخَلف؛ الَّذين تَشبَّعُوا بعلم الكلام وعلم المنطقِ الَّذي اكتسبوه من اليُونان.

❁ ❁ ❁

أَمَّا الأَوَّل؛ فلأنَّ مَن في قَلبِه أدنَىٰ حياةٍ وطلَبٍ لِلعلمِ، أو نهمةٍ في العبادة؛ يكونُ البحث عن هذا الباب والسُّؤال عنه ومعرفة الحَقِّ فيه؛ أكبر مَقاصدِه، وأعظم مَطالبِه، أعني: بيان ما ينبغي اعتقادُه، لا معرفة كيفيَّة الرَّبِّ وصفاتِه، وليستْ النُّفوسُ الصَّحيحةُ إلىٰ شيءٍ أشوقَ منها إلىٰ معرفةِ هذا الأَمْرِ.

وهذا أمرٌ مَعلومٌ بالفِطرةِ الوجديَّة، فكيف يُتصوَّر مع قيام هذا المُقتضىٰ - الَّذي هو مِن أقوىٰ المُقتضياتِ - أنْ يَتخلَّف عنه مُقتضاه في أولئك السَّادة في مجموع عُصورهم، وهذا لا يكادُ يقعُ مِن أبلدِ الخلْقِ، وأَشدِّهم إعراضًا عن الله،

وأعظمِهم إكبابًا علىٰ طلَبِ الدُّنيا، والغفلة عن ذكرِ الله، فكيف يقعُ مِن أُولئكَ؟!

التعليق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أمَّا الأوَّلُ؛ فلأنَّ مَن في قَلبِه أدنىٰ حياةٍ وطلبٍ للعلم، أو نهمةٍ في العبادة؛ يكون البحثُ عَنْ هذا الباب، والسُّؤالُ عنه، ومعرفةُ الحقِّ فيه؛ أكبرَ مَقاصدِه، وأعظمَ مَطالبه، أعني: بيان ما ينبغي اعتقادُه؛ لا معرفةُ كيفيَّة الرَّبِّ وصفاتِه، وليستْ النُّفوسُ الصَّحيحةُ إلىٰ شيءٍ أشوقَ منها إلىٰ معرفةِ هذا الأمر**».

يعني: إنَّ الصِّفات الَّتي أثبتها الله لِنفسِه، وأثبتها له رسولُه ﷺ؛ معرفتُها مِن أعظم المَطالب، حتَّىٰ يعلم العبدُ ما ينبغي أنْ يعتقدَه في ربِّه، فقد بيَّن اللهُ هذه الصِّفات؛ فبيَّن أنَّ له وجهًا، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمن: ٢٦ - ٢٧]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال جلَّ مِن قائلٍ في ردِّه علىٰ اليهودِ الَّذين زعمُوا أنَّ يدَ اللهِ مَغلولةٌ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المُجادلة: ١]، وقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [القلم: ٤٢]، إلىٰ غير ذلك من النُّصوص الَّتي أثبت فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفاته اللَّائقة بجلاله.

وقد نفىٰ الكيفيَّة عنها والتَّوهُّم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشُّورىٰ: ١١]؛ ولهذا قال أهلُ العلم: إنَّ صفات الله عَزَّوَجَلَّ واجبٌ إثباتُها؛ لمعانيها المعروفة في اللُّغة العربيَّة من دون كيفيَّة أو توهُّمٍ لِكيفيَّة؛ بل

يُثبتونُ تلكَ الصِّفات علىٰ الوجه اللَّائق بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنثبتُ له يدَينِ تليقُ بجلاله، وعينَينِ تليقُ بجلاله، وسمعًا وبصرًا يليقان بجلاله، وهكذا يقال في سائر الصِّفات.

وأنت - يا عبد الله - عندما تُفكِّر في صفةِ السَّمع تعلمُ أنَّ سمع المخلوقين محدودٌ؛ فلو وقفَ أمامَك عشرة أشخاص، وضجُّوا بأصواتٍ لم تفهم مِن أصواتهم شيئًا؛ كيف إذا كانوا مائةً أو ألفًا ؟!

أمَّا سمعُ الله فإنَّه قد وسِع الأصواتَ، وأحاط بها وعلِمَها، فها هي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾**»[1]، وقال جلَّ من قائل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٧]، وهكذا يقالُ في البصر وغيره.

❁ ❁ ❁

وأمَّا كونُهم كانُوا مُعتقِدِين فيهِ غيرَ الحقِّ أو قائليه؛ فهذا لا يَعتقدُه مُسلمٌ ولا عاقلٌ عرفَ حالَ القومِ. ثمَّ الكلام عنهم في هذا البابِ أكثرُ مِن أنْ يُمكن سطره في هذه الفتوىٰ أو أضعافها، يَعرفُ ذلك مَن طلبَه وتتبَّعَه.

ولا يجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الخالفون أعلمَ مِن السَّالِفِينَ؛ كمَا يقولُه بعضُ الأغبياءِ ممَّن لم يقدر قدْرَ السَّلفِ، بل ولا عرَف اللهَ ورسولَه والمُؤمنين بهِ حقيقةَ

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب التَّوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤]، مُعلَّقًا بصيغة الجزم. ووصله أحمدُ (٢٤١٩٥)، والنَّسائيُّ (٣٤٦٠)، وابنُ ماجه (١٨٨ و٢٠٦٣)، والحاكمُ (٣٧٩١)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذَّهبيُّ، وكذا الألبانيُّ كما في «الإرواء» (٧/ ١٧٥) تحت رقم (٢٠٨٧).

المعرفةِ المأمورِ بها؛ مِن أنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةَ الخلَفِ أعلمُ وأحكمُ.

التعليق:

قوله: «ولا يَجوزُ أيضًا أنْ يكون الخالفونَ أعلمَ مِن السَّالفين؛ كما يقولُه بعضُ الأغبياءِ ممَّن لم يقدر قدْرَ السَّلفِ، بل ولا عرَف اللهَ ورسولَه والمُؤمنين به حقيقةَ المعرفةِ المأمورِ بها؛ مِن أنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وطريقة الخلَف أعلمُ وأحكمُ».

وأقولُ: إنَّ في هذا تجهيلًا للسَّلف رحمهم الله واستبلاهًا؛ كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّهم جعلوهم جُبناءَ بُلهاءَ لا يعرفونَ إلَّا مُجرَّد ألفاظٍ مِن غير معرفة للمعنىٰ، وهذا مثلُ قول مُبتدعةِ العصْرِ: إنَّ العُلماء لا يفقهون الواقعَ، وأنَّهم هم الَّذين عرفوا الواقع، وهذا غاية التَّنقُّص للسَّلف؛ وهم الصَّحابةُ والتَّابعون لهم بإحسانٍ، الَّذين أخبر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ برضاه عنهم في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧]، وفي قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إلىٰ غير ذلك.

علمًا بأنَّ كلمة (السَّلَفِ) يُراد بها أصحابُ رسولِ الله ﷺ والتَّابعون وأتباعُهم الَّذين زكَّاهم رسول الله ﷺ بقولِهِ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[١]، ولمَّا سُئلَ النَّبيُّ ﷺ عن الفِرقةِ النَّاجيةِ قال: «هُمُ الَّذِينَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٤١)، والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٧٨٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

إذًا فالمجتمعُ الَّذي يُحرِزُ النَّجاةَ؛ هم الَّذين تابعُوا صحابةَ رسولِ الله ﷺ في كلِّ زمَنٍ ومكانٍ، فكيفَ يصحُّ أن يخبرَ رسول الله ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوىٰ بأنَّ سبيل النَّجاةِ هو الاتِّباع لِمَا كان عليه الصَّحابةُ، فهل يعقل أنَّه يخبر عنهم بأنَّهم أُسوةُ النَّاجين وقُدوةُ المُفلحين؛ مع أنَّهم لا يعرفون شيئًا ولا يعقلونه؟! هذا ليس بصحيحٍ، ولا يمكنُ أن يكون كذلك؛ لا عقْلًا، ولا شَرْعًا.

وإنَّ السَّلَفَ الَّذين هم أصحابُ رسولِ الله ﷺ ومَن بعدَهم هم الحائزون لكلِّ خيرٍ، والنَّاجون مِن كلِّ شرٍّ، وقد سُئِلَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في (مجموع الفتاوىٰ) (ج٥/ ١٥٣): «عن رجلَين تباحثا في مسألةِ الإثباتِ للصِّفات، والجزم بإثباتِ العلوّ علىٰ العرش؛ فقالَ أحدُهما: لا يجبُ علىٰ أحدٍ معرفة هذا، ولا البحث عنه»... إلىٰ أنْ قالَ: «ومَن تكلَّم في شيءٍ من هذا فهو مجسِّم حَشْويّ، فهل هذا القائلُ لهذا الكلام مصيبٌ أو مخطئ»... إلىٰ آخر ما قال في السُّؤال، فردَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنا سأملي خلاصة ما أجاب به بتصرُّف، والتِّعدادُ مِن عندي، قال:

«١ - أنَّ مَن شهدَ أنَّ محمَّدًا رسول الله لزمَه التَّصديقُ بما جاء به ﷺ؛ فإنَّ ذلك مضمون هذه الشَّهادة.

٢ - ما تضمَّنته هذه الشَّهادةُ أنَّه صادقٌ فيما يُخبرُ فيه عن الله؛ فإنَّ هذا حقيقة الرِّسالة.

٣ - يتضمَّن ذلك أيضًا الإقرار بما جاء به مِن كتابٍ وسنَّةٍ، ومن ذلك الإخبارِ عن صفات الله عَزَّوَجَلَّ الَّتي يعرف الله بها، ويتعبَّد له بها.

٤ - أنَّ اللهَ أمرَه بالبلاغ، ومِن جملةِ ما أمرَه بإبلاغِه الإخبارُ بأنَّه مستوٍ علىٰ

عرْشِه في سبعةِ مواضعَ مِن القُرآن، وأمَره اللهُ أنْ يُبلِّغَ ذلك مِن جُملة ما بلَّغ فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧].

٥ - أنَّه قد بلَّغ الرِّسالة، ولم يكتم مِن ذلك شيئًا، وقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ علىٰ الله الفِرْيَةَ، واللهُ يَقُولُ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [النَّمل:٦٥]»[1].

٦ - أنَّه بلَّغ أصحابه بما أُمر بتبليغِه، والصَّحابةُ بلَّغُوه إلىٰ مَن بعدَهم، ولم يكتمُوا شيئًا ممَّا بلَّغهم إيَّاهُ، فاعتنَوا بحفْظِ القُرآنِ، وحفْظِ السُّنَّة، وبلَّغوها إلىٰ مَن بَعدَهُم.

٧ - أنَّ العادةَ المُطَّردةَ تُوجبُ اعتناءهم بالقرآن لفظًا ومعنًىٰ، وليس لفظًا فقطْ؛ ولهذا يقول قائلُهم[2]: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - عُثمان بْن عفَّان وعبد اللهِ بن مسعودٍ - أَنَّهُمْ قالوا: كُنَّا إِذَا تَعَلَّمنَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ نُجَاوِزْهَا حَتَّىٰ نَتَعَلَّمَ مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»، يعني: يعلمونَ ما فيها مِن الفقه.

٨ - أنَّ اللهَ تعالىٰ قد حضَّهم وحثَّهم علىٰ تدبُّر القرآن وتفهُّمه، فقال تعالىٰ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧)، وأخرجه بنحوه البخاريُّ (٤٦١٢).

(٢) هو أبو عبد الرَّحمن السُّلميّ. والأثر أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢)، وابنُ سعد في «الطبقات» (٦/ ١٧٢صادر)، وابنُ جرير في «التفسير» (١/ ٧٤هجر)، والطَّحاويُّ في «شرح مُشكل الآثار» (١٤٥١، ١٤٥٢)، والفريابيُّ في «فضائل القُرآن» (١٦٩)، وغيرهم. وفي أسانيدهم: عطاء بن السَّائب، صدوقٌ اختلط كما في «التَّقريب»، لكن في الرُّواة عنه سُفيانُ الثَّوري وحمَّاد بن زيد؛ وهما ممَّن روىٰ عنه قبل الاختلاطِ.

وأخرج ابنُ جرير في «تفسيره» (١/ ٧٤) عن ابن مسعود قال: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [مُحمَّد: ٢٤].

٩ - أنَّ اللهَ أنزلَه - أي: القرآن - عربيًّا بلُغتِهم؛ ليتعلَّموه، ويُبلِّغوه إلىٰ غيرهم.

١٠ - أنَّه ذمَّ مَن لم يفهمه؛ فقال: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٥].

١١ - أنَّه ذمَّ الَّذين ليس لهم من القُرآن إلَّا سماعُ الصَّوت؛ فقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وأخبر أنَّهم أقرُّوا بذلك علىٰ أنفُسِهم بقولِه: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فُصِّلت: ٥]، وقوله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفُرقان: ٤٤].

١٢ - أنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم فسَّرُوا للتَّابعين القُرآن كما قال مجاهدٌ: «لَقَدْ عَرَضْتُ القُرْآنَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ، أَسْأَلُهُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَفِيمَ كَانَتْ»[1].

وأخيرًا؛ أفيُعقلُ بعدَ كلِّ هذا أنَّ الصَّحابةَ لم يعرفُوا معانيَ القُرآن ولم يعقلوها حتَّىٰ جاء أصحاب الكلام، وهم أفراخُ اليونانِ الَّذين سارُوا علىٰ طريقةِ أهل الكلام؛ أصحاب المنطق، فزعموا أنَّهم أعلمُ بكتابِ اللهِ وبسنَّة رسولِ الله ﷺ؛ ومِن ضمن ذلك قول هذا القائل: «أنَّه لا يجوزُ أنْ نثبتَ العلوَّ للهِ علىٰ عرشِه؛ بلْ إنَّ مَن فعَل ذلك فهو مُجسِّم»؛ لهذا قال الشَّيخُ رادًّا عليهم في زعمهم

---

(١) أخرجه الدَّارمي في «سُننه» (١١٦٠ الدَّاراني)، والحاكمُ في «مُستدركه» (٣١٠٥).

أنَّ طريقةَ السَّلف أسلمُ، وطريقة الخلَف أعلمُ وأحكمُ؛ ولا واللهِ ما كانت طريقةُ الخلَفِ أَعْلَمَ، ولا أَحْكَمَ.

❁ ❁ ❁

فإنَّ هؤلاءِ المُبتدعةَ الَّذين يُفضِّلون طريقةَ الخلَف علىٰ طريقة السَّلفِ إنَّما أُتوا مِن حيثُ ظنُّوا أنَّ طريقةَ السَّلفِ هي مُجرَّدُ الإيمانِ بألفاظِ القُرآنِ والحديثِ، ومِن غيرِ فقهٍ لِذلك، بمنزلة الأُميِّين الَّذين قال فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، وأنَّ طريقةَ الخلَف هي استخراجُ معاني النُّصوص المصروفة عن حقائقِها بأنواع المجازاتِ وغرائبِ اللُّغات.

التعليق:

معنىٰ الخَلف: يعني الَّذين جاؤُوا بعْد السَّلفِ.

والخلَفُ: يُطلقُ ويُرادُ به مَن خلَف بخيرٍ، وهذا يأتي غالبًا بالفَتحِ للَّام: (خلَف).

أمَّا الخلْف: الَّذين يخلُفون سلَفهم بالشَّرِّ؛ فهو يأتي بإسكانِ اللَّام: (خَلْف)، ومِن ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم:٥٩ - ٦٠].

وقولُه: «**إنَّ طريقةَ الخلَف هي استخراجُ معاني النُّصوص المصروفة عن حقائقِها بأنواع المجازاتِ**»، **قال المُحقِّق**[١]: «المجازُ مأخوذٌ مِن الجواز الَّذي هو التَّعدِّي؛ كما يُقالُ: جُزتُ هذا الموضعَ؛ أي: جاوَزتُه وتعدَّيتُه.

---

(١) (ص١٨٨)، ط/ الثَّانية، والمحقِّقُ هو الدُّكتور الشَّيخ: حمد بن عبد المحسن التويجري، الأستاذُ المُشارك بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة، والَّذي قامَ بدراسةٍ وتحقيق (الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ).

والمرادُ بالمَجازِ عندَ المُتكلِّمين ومَن وافقَهم مِن أهلِ اللُّغة هو: اللَّفظُ المُستعملُ في غيرِ ما وُضعَ له لِعلاقةٍ مع قرينةٍ».

وأقولُ: إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية[1]، وابن القيِّم[2]، ومَن تابعهما[3]، يقولون: ليس في القُرآن مجازٌ، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على الأمثلة الَّتي مثَّلوا بها للمجاز[4]؛ فقال في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢]، قال: إنَّ القريةَ لا تُسمَّىٰ قريةً إلَّا بسُكَّانٍ، وإنَّ العيرَ لا تكون عيرًا إلَّا برجالٍ، وإلَّا كانت إبلًا،... وهكذا.

فالمهمُّ: أنَّ هؤلاءِ الخارجين تسلَّطوا على آيات الصِّفاتِ وأحاديثِها، فعدلُوا عن ظاهرها لنوعٍ مِن أنواعِ المجاز - حسَب زعمهم -، وما تركُوا آيةً في الصِّفات إلَّا حوَّلوها عن ظاهرِها بهذا المجازِ المزعومِ؛ نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ.

❁ ❁ ❁

فهذا الظَّنُّ الفاسدُ أوجبَ تلكَ المقالةَ؛ الَّتي مضمونُها نبذُ الإسلامِ وراءَ الظَّهْرِ، وقدْ كذَبُوا علىٰ طريقةِ السَّلفِ، وضلُّوا في تصويبِ طريقةِ الخلَفِ؛ فجمعُوا بين الجهْلِ بطريقةِ السَّلفِ في الكذِب عليهم، وبين الجهْلِ والضَّلالِ بتصويبِ طريقةِ الخلَفِ.

وسببُ ذلك اعتقادُهم أنَّه ليسَ في نفسِ الأمْرِ صفةٌ دلَّت عليها هذه النُّصوصُ للشُّبهاتِ الفاسدةِ الَّتي شاركُوا فيها إخوانَهم مِن الكافرين، فلمَّا اعتقدُوا انتفاءَ

---

(١) **انظر:** «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٨٧فما بعدها، وص١١٣).

(٢) **انظر:** «مختصر الصَّواعق» لابن الموصلي (ص٢٨٦ - ٢٨٧سيِّد إبراهيم).

(٣) **انظر كتاب:** «منع جواز المجاز في المنزَّل للتَّعبُّد والإعجاز»، للعلَّامة محمَّد الأمين الشّنقيطي.

(٤) **انظر:** «مختصر الصَّواعق» للبعلي (ص٣٥٧ فما بعدها).

الصِّفاتِ في نفسِ الأمْرِ - وكان مع ذلك لا بدَّ للنُّصوص من معنىٰ - بقوا مُترَدِّدين بين الإيمانِ باللَّفظ وتفويضِ المعنىٰ - وهي الَّتي يُسمُّونها طريقةَ السَّلف -، وبين صرْفِ اللَّفظِ إلىٰ معانٍ بنوعِ تكلُّفٍ - وهي الَّتي يُسمُّونها طريقةَ الخَلف - ؛ فصارَ هذا الباطلُ مُركَّبًا مِن فسادِ العقلِ والكُفر بالسَّمع، فإنَّ النَّفيَ إنَّما اعتمدُوا فيه علىٰ أُمورٍ عقليَّةٍ ظنُّوها بيِّناتٍ وهي شُبهاتٌ، والسَّمع حرَّفوا فيه الكلام عن مواضعِه.

فلمَّا انْبنَىٰ أمرُهم علىٰ هاتين المُقدِّمتَينِ الكُفريَّتَينِ كانتْ النَّتيجةُ: استجهالَ الأوَّلين واستبلاههم، واعتقاد أنَّهم كانوا قومًا أمِّيِّين، بمنزلة الصَّالحين مِن العامَّة، لم يَتبحَّرُوا في حقائق العلم باللهِ، ولم يتفطَّنُوا لِدقائقِ العلمِ الإلهيِّ، وأنَّ الخلَفَ الفُضلاءَ حازُوا قصبَ السَّبق في هذا كلِّه.

التعليق:

توضيحُ هذَا الكلامِ: بأنَّ الَّذين ذهبوا هذا المذهب بنَوه علىٰ أنَّ السَّلفَ لم يفهموا كتابَ الله وسنَّةَ رسوله ﷺ؛ لأنَّهم كانُوا أُمِّيِّين يَقرؤون شيئًا ويَسمعونَه، ولا يَفهمُون معناه؛ ومعنىٰ هذا استجهالهم، وهذه فريةٌ عظيمةٌ علىٰ السَّلفِ رحمهم الله تعالىٰ؛ وقد سبق أنْ أمليتُ مِن كلامِ شيخ الإسلام عناصرَ تدلُّ علىٰ أنَّ السَّلفَ رحمهم الله هم أهل الإيمان وأهل اليقينِ وأهلُ العلم الصَّحيح؛ ذلك لأنَّهم آمنوا بكتابِ الله، وآمنوا بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، واقتضىٰ لهم هذا الإيمانُ تعلُّمَ الكتابِ والتَّعرُّف علىٰ السُّنن، فأخذُوا مِن رسولِ الله ﷺ ما دلَّهم علىٰ طريق الصَّوابِ والحقِّ فسلكُوه، فقرَؤُوا القُرآن؛ أتقنوا لفظه، وتعلَّموا معانيَه، ولم يتوفَّ اللهُ نبيَّه ﷺ إلَّا بعْدَ أنْ بيَّن لهم ما يجبُ بيانه مِن الخير الَّذي يلزم الإيمان به والعمل عليه؛ ودليلُ ذلك قولُ عُمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ثَلَاثٌ وَدِدْتُ

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يُفَارِقْنَا حَتَّىٰ يَعْهَدَ إِلَيْنَا عَهْدًا: الجَدُّ، وَالكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا»[1]؛ إذًا فقد سألُوه عن كلِّ شيءٍ، وبقِيَ عند عُمرَ إشكال في هذه الثَّلاث، ثمَّ يأتي بعد ذلك أقوامٌ في الأزمنةِ المُتأخِّرةِ يُفضِّلون أصحابَ طريقة الكلام الَّتي اكتسبوها مِن منطقِ اليُونانِ؛ يُفضِّلونهم علىٰ السَّلفِ مِن الصَّحابة والتَّابعين وأتباع الأتباع.

فبيَّن الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ مقالتَهم هذه بُنيتْ علىٰ شُبهاتٍ أوجبَتْ لهم نفيَ الصِّفاتِ؛ فتأرجحُوا بين إثبات اللَّفظ في النُّصوص، وتفويضِ المعنىٰ؛ الَّذي زعمُوا أنَّ السَّلَف كانُوا يعرفونَه، وبين صرْفِ اللَّفظِ عنْ ظاهرِه إلىٰ معانٍ سمَّوها بالمجاز، وتأولوا الصِّفات بتلك المعاني؛ فحرَّفُوا السَّمعَ؛ أي: حرَّفوا ما سمِعُوه، وما بلَغهُم مِن الوحيِ الَّذي أثبتَ اللهُ فيه الصِّفاتِ لِنفسِه؛ حرَّفوه عن مواضعِه بالمعاني المُتكلَّفة؛ فنتجَ عن ذلك استجهالُهم للسَّابقين الأوَّلين، وتنقُّصهم لهم، ورميهم بالبلَهِ والغباءِ، وتفضيلُهم للخلَفِ بما لا يَلزمُ منهُ تفضيلٌ، بل هو جهلٌ وحَيرةٌ؛ لهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ ❁ ❁

ثمَّ هذا القولُ إذا تدَّبره الإنسانُ وجدَه في غايةِ الجهالةِ، بل في غايةِ الضَّلالةِ.

كيفَ يكونُ هؤلاءِ المتأخِّرون - لا سيَّما والإشارة بالخلفِ إلىٰ ضرْبٍ مِن المُتكلِّمين - الَّذين كثُر في بابِ الدِّينِ اضطرابُهم، وغلُظ عن معرفةِ الله حجابُهم، أخبَر الواقفُ علىٰ نهاياتِ إقدامِهم، بما انتهىٰ إليه من مَرامِهم، حيثُ يقولُ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٨٨)، ومُسلمٌ (٣٠٣٢)، مِن حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَىٰ ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

التعليق:

يقول المحقِّق[1]: «هذان البيتان ذُكِرَا في أوَّل كتاب (نهاية الإقدام) (ص٣) للشِّهرستاني، ولم يَنسبهُما لأحدٍ، وقد قيل: إنَّهما لأبي بكر محمَّد بن باجه، ونسبهما ابن أبي العزّ الحنفي للشهرستاني نفسِه» اهـ. وقيل أيضًا: إنَّهما لأبي عليٍّ بن سينا، ذكَر ذلك المُحقِّق.

❁ ❁ ❁

وأَقرُّوا علىٰ أَنفُسِهم بما قالُوه مُمتثِلِينَ به أو مُنشئِينَ له فيما صنَّفوه مِن كتُبِهم؛ كَقولِ بعضِ رُؤسائِهم:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًىٰ وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَىٰ أَنْ جَمَعْنا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا[2]

لقدْ تأمَّلتُ الطُّرُقَ الكلاميَّةَ، والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رأيتُها تشفي عليلًا، ولا تُروي غليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقة القُرآن؛ اِقرأْ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، واقرأْ في النَّفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾

---

(١) (ص١٩١).

(٢) هذه الأبياتُ للفخر الرَّازي في رسالته «ذم لذات الدنيا» (ص٢٦٢)، وذكرها ابنُ الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» (٢/ ١٤٠ - ١٤١ الكتب العلميَّة)، ونسبها له ابنُ خلّكان في «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٥٠ صادر).

ومَن جرَّب مِثلَ تَجربتِي عرَف مِثلَ معرفتِي[١].

التعليق:

هذا الكلام والأبيات تُعزىٰ للفخر الرَّازي.

❁ ❁ ❁

ويقولُ الآخرُ منهُم: ولقدْ خُضتُ البحرَ الخضمَّ، وتَركتُ أهلَ الإسلامِ وعلومَهم، وخُضتُ في الَّذي نهَوْني عنه، والآنَ إنْ لم يَتداركني ربِّي برحمةٍ منهُ فالويلُ لفُلانٍ، وها أنا ذا أموتُ علىٰ عقيدةِ أمِّي.

التعليق:

قال المُحقِّق[٢]: «هو إمامُ الحرمَين أبو المعالي الجويني، ذكَر ذلك السُّبكيُّ في (طبقات الشَّافعيَّة) (٣/ ٢٦٠)، والذَّهبيُّ في (السِّير) (١٨/ ٤٧١)، وابنُ العماد الحنبليُّ في (الشَّذرات) (٣/ ٣٦١)... إلخ».

❁ ❁ ❁

ويقولُ الآخرُ منهم: أكثرُ النَّاس شكًّا عند الموتِ أصحابُ الكلام.

التعليق:

يقولُ المحقِّق[٣]: «أشار شيخ الإسلام في موضعٍ آخر إلىٰ أنَّ القائل هو أبو حامد الغزالي. انظر: (المنطق) (ص٢٥)».

---

(١) هذا الكلام للفخر الرَّازي أيضًا. انظر: «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (٢١/ ٥٠١ الرِّسالة)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٢/ ٦٥ - ٦٦عالم الكتب).

(٢) (ص١٩٤).

(٣) (ص١٩٥).

ويقولُ[١]: «وأيضًا ممَّا أثر عن بعْض المُتكلِّمين ما ذكَره الشَّيخُ بقوله: وقدْ بلغني بإسنادٍ مُتَّصلٍ عن بعضٍ رؤوسهم وهو الخونجي، صاحب (كشف الأسرار في المنطق)، وهو عند كثيرٍ منهم غاية في هذا الفنِّ، أنَّه قال عند الموت: أموتُ، وما علِمْتُ شيئًا إلَّا أنَّ المُمكن يفتقرُ إلىٰ الواجب. ثمَّ قال: الافتقار وصفٌ عدميٌّ، أموت وما علمتُ شيئًا» «درء تعارض العقل والنَّقل» (٣/ ٢٦٢)، «الرَّدّ علىٰ المَنطقيِّين» (ص١١٤)، ونقل عن الآمديّ أنَّه قال: أَمْعنتُ النَّظَرَ في الكلام، وما استفدتُ منه شيئًا إلَّا ما عليه العوام. ويقول الجوينيُّ: يا أصحابنَا لا تَشتغلُوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلامَ يَبلغُ بي ما بلَغ ما اشتغلتُ به» اهـ.

والمهمُ؛ أنَّ الكلامَ عن هؤلاء الحائرين الَّذين ينتهي بهم علمُهم الَّذي اختاروه علىٰ الوحي الَّذي جاء به محمَّدٌ رسول الله ﷺ إلىٰ الحيرة كثيرٌ.

❁ ❁ ❁

ثمَّ هؤلاءِ المُتكلِّمون المُخالِفون للسَّلف إذا حقَّقَ عليهم الأمرُ لم يُوجدْ عندَهم مِن حقيقةِ العلْم باللهِ وخالِص المعرفةِ به خبرٌ، ولم يَقفُوا مِن ذلك علىٰ عَينٍ ولا أَثرٍ، كيف يكون هؤلاء المحجوبُون المنقوصون المسبوقُون الحيارىٰ المُتهوِّكون أعلمَ باللهِ وأسمائه وصفاتِه، وأحكم في بابِ آياتِه وذاتِه؛ مِن السَّابقين الأوَّلين مِن المُهاجرين والأنصار والَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، مِن ورثةِ الأنبياءِ وخُلفاءِ الرُّسل، وأعلام الهُدىٰ، ومصابيح الدُّجىٰ، الَّذين بهم قام الكتابُ وبهِ قامُوا، وبهم نطَق الكتابُ وبه نطقُوا، الَّذين وهبَهمُ اللهُ مِن العلْم والحِكمة ما برزُوا به علىٰ سائر أتباعِ الأنبياءِ، فضلًا عن سائر الأمم الَّذين لا كتاب لهم،

---

(١) (ص ١٩٥).

وأحاطُوا مِن حقائقِ المعارِف وبَواطِن الحقائقِ بما لو جُمعت حكمة غيرهم إليها لَاسْتحيَا من يطلبُ المُقابلةَ.

التعليق:

أقول: إنَّ هذا يدلُّنا علىٰ أنَّ مَن ترَك كتابَ اللهِ وسنَّة رسولِه ﷺ، وذهَب إلىٰ علم الكلامِ؛ الَّذي هو مُكتسبٌ مِن اليُونانِ وفلاسفةِ اليونان، ومَن ترَك هذا الوحيَ الَّذي جاء به الرَّسول الكريم، واختار علمَ الكلام عليه، فلا تُستغربُ حيرتُه؛ بل قد يسلبُ منه الإيمان بدليلِ قوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] والذي يظهر أنَّ هذا الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام هو عن الأشاعرةِ.

وقولُه - الَّذي مرَّ قريبًا -: «وسببُ ذلك اعتقادُهم أنَّه ليس في نفس الأمرِ [illegible] ما هذه النُّصوصُ للشُّبهات الفاسدة الَّتي شاركوا فيها إخوانهم من [illegible] يقصدُ بـ(الكافرين) الجهميَّةَ الَّذين نفَوا الصِّفات الكلِّيَّة.

[illegible] المُتكلِّمون المُخالفونَ للسَّلف إذا حقَّق عليهم الأمرُ لم يوجد عندهم مِن حقيقةِ العلمِ بالله وخالص المعرفة به خبرٌ»، الوصف بـ(المُتكلِّمين) هذا وصفٌ ينطبق علىٰ من تعانَوا بالمنطق الذي يسمَّىٰ: علم [illegible]، وأنَّهم مفلسون مِن العلم الصَّحيح؛ إذْ إنَّ العلم الصَّحيح هو المُقتبس [illegible] الله، ومِن سنَّة رسولِ الله ﷺ، ومِن عمَل السَّلف الصَّالحِ، وهؤلاء [illegible] مِن ذلك.

[illegible] مِن ذلكَ علىٰ عينٍ ولا أثر»؛ (العينُ): هو الشَّيءُ بذاتِه،

قوله: «كيفَ يكونُ هؤلاءِ المَحجوبون المنقوصون المسبوقون الحيارىٰ المُتهوِّكون أعلمَ بالله وأسمائه وصفاتِه»، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصَف الكفَّار بأَنَّهم عن ربِّهم محجوبون، وهؤلاءِ الَّذين اشتغلوا بكلام اليونانِ، وبقايا علوم أهل الهند، وما أشبه ذلك من حثالات العقول المنحرفة - والعياذ بالله - ؛ هؤلاء لا شكَّ أنَّهم محجوبون.

قولـه: «المنقوصـون»، يعنـي: علمُهـم نـاقصٌ؛ بـل لا يُسـاوي شـيئًا بالنِّسبةِ لِعلومِ السَّلفِ.

قوله: «المسبوقُون»؛ فهُم مسبوقون في هذا الباب، والسَّلفُ هم الَّذين حازوا قصبَ السَّبقِ؛ لأنَّهم أخذُوا بكتاب بالله، وسنَّة نبيِّهم صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «الحيارىٰ»؛ جمع: (حيران) أو (حائر)؛ وهو المتردِّد في الشَّيء؛ الَّذي لم يقطع فيه بشيء، بل هو مُتردِّدٌ بين أُمورٍ.

قوله: «المُتهوِّكون»: «مِن التَّهوُّك؛ وهو الَّذي يقعُ في كلِّ أَمْرٍ» عزاهُ المحقِّق[1] إلىٰ «لسان العرب» (١٠/ ٥٠٨)، والتَّهوُّك - والله أعلم - معناه التَّردُّد في الشَّيء؛ الَّذين لا يتورَّعون عن الأمور المحرَّمة.

قولُه: «أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب آياتِه وذاتِه؛ مِن السَّابقِين الأوَّلين مِن المُهاجرين... إلخ»؛ يعني ذلك: كيف يكون هؤلاء أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم بآياته وذاته؛ هذا ردٌّ علىٰ المقولةِ الَّتي يَقولُها مَن فضَّل المُتأخِّرين علىٰ المُتقدِّمين؛ فيقولُ: إنَّ طريقةَ المُتأخِّرين أعلم وأحكم.

قولُه: «ومصابيح الدُّجىٰ»؛ الدُّجَىٰ هو: الظَّلام، وأولئك مصابيحُ؛ لأنَّهم أخذُوا

---

(١) (ص ١٩٦).

بالوحي الواصلِ إلينا نحنُ بني آدم مِن ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بواسطةِ جبريلَ أمينِ الوحيِ.

ثمَّ وصف هؤلاء السَّابقِين الأوَّلين بهذه الأوصاف الجميلةِ، فقال: «**الَّذين بهم قام الكتابُ وبه قامُوا، وبهم نطَقَ الكتابُ وبه نطقُوا**»، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

قال: «**الَّذين وهبَهم اللهُ مِن العِلمِ والحِكمةِ ما برزُوا به علىٰ سائرِ أتباعِ الأنبياءِ، فضلًا عن سائرِ الأممِ الَّذين لا كتابَ لهُم**»؛ أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه بُعث في خيرِ القُرون، وأخبر أنَّ خير القرون أصحابه، ثمَّ الَّذين يلونهم، ثمَّ الَّذين يلونهم؛ فأمَّة محمَّدٍ ﷺ فاضلةٌ علىٰ سائر الأُمم، وأصحابُه فاضلون علىٰ سائر أمَّته، ومَن بعدهم فاضلون علىٰ سائر الأمَّة عدا الصَّحابة، ومَن بعدَهم - وهو الجيل الثَّالثُ - فاضلون علىٰ سائر الأمَّة ما عدا الصَّحابة والتَّابعينَ؛ لقوله: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**»[(١)]، وفي روايةٍ: «**وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

ما المراد بالقرن؟ القرنُ: يُطلقُ ويُرادُ به مائةُ سنةٍ، ويُطلقُ ويُرادُ به الجماعةُ المُشتركون في زمنٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان:٣٨]، فكم مِن الأُممِ الَّتي جاءتْ من بعد نوحٍ إلىٰ بعثةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وإذا كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعدُّ مِن آخر الأُمم؛ كما في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَىٰ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ، قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ**»[1].

الشَّاهدُ منه: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لآدمَ: «**هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ**»؛ إذًا فالأممُ الَّتي مضتْ كثيرةٌ وكثيرةٌ جدًّا؛ إذا كان آدم عمرُه ألف سنةٍ؛ والَّذين كانُوا بعدَه كان الواحد يعمِّر ألفَ سنةٍ أو أكثرَ؛ حتَّىٰ إنَّ نُوحًا مكث في دعوته لقومه يدعوهم ألْفَ سنة إلَّا خمسين عامًا، ولو لم يكن قد جاء هذا الخبر في كتاب الله لكان ربَّما الكثيرُ مِن النَّاس لا يُصدِّق هذا؛ مكث تسعمائة وخمسين

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وقد رُويَ من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ». وحسَّنه الألبانيُّ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (١١٨).

سنة وهو يدعوهم؛ سبحان الله! والله أكبرُ! صبرٌ عظيمٌ.

فالمُهمُّ: أنَّ القرنَ هو مائة سنة أو الجماعةُ المشتركون في زمن؛ فإذا قلنا إنَّ المُراد به الجماعة المُشتركون في زمنٍ؛ تكون الثَّلاثة القرون قد انتهتْ بمائتين وعشر سنوات، وبدأت تدورُ الدَّائرة حينئذٍ؛ إذ دعَا الخليفة المأمون إلىٰ القولِ بخلْقِ القرآن حين تسلَّط عليه المعتزلة، وألقىٰ في السُّجون من لم يَستجيبُوا، وهذا القولُ وهو أنَّ الثَّلاثة القرون انقضت بمائتين وعشر سنين، وبدأ النَّقصُ بدعوةِ الخليفةِ المذكور إلىٰ القول بخلق القرآن؛ هو الظَّاهر - والله أعلم -، لِقوله ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»[(١)].

فإذا قُلنا: عمر كلِّ قرْنٍ سبعونَ سنةً؛ فحينئذٍ يكون القرن الأوَّل سبعين، والثَّاني سبعين، والثَّالث سبعين، ويكون الجميعُ مائتين وعشرَ سنواتٍ.

❁ ❁ ❁

ثمَّ كيفَ يكونُ خيرُ قرونِ الأمَّة أنقصَ في العلْمِ والحِكْمةِ - لا سيَّما العلم باللهِ وأحكامِ آياتِه وأسمائِه - مِن هؤلاءِ الأصاغر بالنِّسبةِ إليهم؟! أم كيفَ يكونُ أفراخ المُتفلسفةِ وأتباع الهند واليونانِ، ورثةِ المجوس والمشركين وضُلَّال اليهود والنَّصارىٰ والصَّابئين وأشكالهم وأشباههم؛ أعلمَ بالله مِن ورثة الأنبياءِ وأهلِ القُرآنِ والإيمانِ؟!

التعليق:

قولُه: «**ثمَّ كيف يكون خيرُ قرونِ الأمَّة أنقصَ في العلْمِ والحِكمةِ**»؛ حينَ

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٥٠) وحسَّنه، وابنُ ماجه (٤٢٣٦)، مِن حديث أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه لغيره الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٧٥٧).

قالُوا: طريقةُ الخلَفِ أعلمُ وأحكمُ، ما أعظمَها مِن فريةٍ!

وفي الحديث الَّذي ربَّما يُقالُ: في صحّته نظرٌ: «**إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ**»، فَقِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دُوَلًا، وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيقَهُ، وَجَفَا أَبَاهُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ، وَلُبِسَ الْحَرِيرُ، وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ، أَوْ خَسْفًا وَمَسْخًا**»[١].

المهمُّ؛ قولُه: «**ثمَّ كيف يكونُ خيرُ قرونِ الأمَّة أنقصَ في العلْمِ والحِكْمةِ - لا سيَّما العلم بالله وأحكامِ آياتِه وأسمائِه - مِن هؤلاءِ الأصاغر بالنِّسبةِ إليهم؟! أم كيفَ يكونُ أفراخُ المُتفلسفةِ وأَتباع الهِند واليُونانِ**».

يقول المحقِّق[٢]: «**الهندُ**: بلادٌ توجدُ في آسيا الجنوبيَّة؛ تضمُّ حاليًّا: باكستان وجمهوريَّة الهند وبنجلادش، تسمَّىٰ قديمًا (بهارات)، يفصلُها عن مُعظم أرجاءِ قارَّةِ آسيَا جبال الهملايا الشَّاهقة، يحدُّها مِن الغربِ خليجُ العرَب، ومن الشَّرق خليج بنغال، ذات حضارة عريقة، سكَّانها من قبائل مُتعدِّدة، ويدينون بدياناتٍ شتَّىٰ، ولا تزالُ كثرةُ المذاهبِ والدِّيانات سمةً غالبةً عليها» اهـ.

منهم أناسٌ يعبُدون البقر، وأناسٌ يعبدون الشَّيطان، وأناسٌ يعبدون القِردَةَ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٠) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السِّلسلة الضَّعيفة» (١١٧٠).

(٢) (ص ١٩٨).

وأناسٌ يعبدون الفرج - والعياذ بالله -، وهكذا أناسٌ يعبدون الشَّمس، ونسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ.

واليونان - قال المحقّق -[(١)]: «اسمُها القديمُ (هيلاس) أو (الآس)، وهي الآن مملكةٌ أوربيَّة واقعة في الجزءِ الجنوبيّ مِن شِبه جزيرة البُلقان، تُحَدُّ مِن جهةِ الشِّمال ببُلغاريا والصِّرب، وشرقًا بتُركيا، وجنوبًا بالبحر الأبيض المتوسِّط، وغرْبًا ببحر يونان...». اهـ.

قوله: «**ورثة المجوس والمُشركين وضُلَّال اليهود والنَّصارىٰ والصَّابئين**»:

- **المجوس**: هم الَّذين يقولونُ: لهذا الكون صانعان؛ صانع الخير، وصانع الشَّرّ.
- **والمشركون**: هم الَّذين يعبدُون الأوثان.
- **واليهود**: معروفون بأنَّهم الَّذين يزعمون أنَّهم أتباعُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- **والنَّصارىٰ**: الَّذين يزعمون أنَّهم أتباعُ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- **والصَّابئون**: قال المحقّق[(٢)]: «الصَّابئُ لغةً: هو الخارجُ مِن دينٍ إلىٰ دينٍ. «لسان العرب» (١/ ١٠٧)، وهم الَّذين بُعثَ فيهم إبراهيمُ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانوا يسكنون (حرَّان)، وكانوا يُعظِّمون الكواكب السَّبعة، ويقولون: إنَّها مُدبِّرةُ هذا العالم، وهم قسمان: مُشركون؛ وهم عبدة الكواكب، وصابئة حنفاءُ؛ وقد جاء ذِكرُهم في القرآن مع الأمم الَّتي تنقسم كلُّ أمَّةٍ منهم إلىٰ مؤمنٍ وكافرٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]» اهـ.

---

(١) (ص ١٩٨).

(٢) (ص ٢٠٠).

قوله: «وأشكالهم، وأشباههم، أعلمَ بالله مِن ورثةِ الأنبياءِ وأهلِ القُرآن والإيمان؟!» أي: كيف يكونون أعلمَ باللهِ مِن ورثةِ الأنبياءِ وأهل القرآن وأهل الإيمان؟! **الجواب**: لا يكونون كذلك، وهذا ادِّعاءٌ باطلٌ.

❁ ❁ ❁

وإنَّما قدَّمتُ هذه المُقدِّمة؛ لأنَّ مَن استقرَّتْ هذه المُقدِّمة عندَه عِلِمَ طريقَ الهُدىٰ أينَ هو في هذا الباب وغيرِه.

واعلمْ أنَّ الضَّلالَ والتَّهوُّك إنَّما استولىٰ علىٰ كثيرٍ مِن المُتَأخِّرين؛ بنَبذِهم كتابَ اللهِ وراءَ ظُهورِهم، وإعراضِهم عمَّا بعثَ اللهُ به محمَّدًا ﷺ مِن البيِّنات والهُدىٰ، وتركهم البحثَ عن طريق السَّابقين والتَّابعين، والتِماسِهم علمَ معرفةِ الله ممَّن لم يعرف الله بإقرارِه علىٰ نفسِه، ولِشهادةِ الأمَّة علىٰ ذلك، وبدلالاتٍ كثيرةٍ، وليس غرضي واحدًا، وإنَّما أصفُ نوعَ هؤلاءِ، ونوعَ هؤلاءِ.

التعليق:

قولُه: «**وإنَّمَا قدَّمتُ هذه المُقدِّمة؛ لأنَّ مَن استقرَّتْ هذه المُقدِّمة عندَه عِلِم طريقَ الهُدىٰ أين هو في هذا البابِ وغيرِه**»، وأقولُ: إنَّ ما سبره المؤلِّف في هذه المقدِّمة يدلُّ دلالةً واضحة أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ، ومَن تَبعهم بإحسانٍ مِن أئمَّة الهُدىٰ، وحمَلة العلم في القرون الثَّلاثةِ وما بعدَها؛ هم الأَوْلَىٰ بمعرفةِ الحقِّ؛ لأنَّهم قد أخذوا الشَّريعةَ مِن ينبوعِها الصَّافي من دون أخلاطٍ ولا كدَر، فلذلك كانُوا هم الأولىٰ بمعرفةِ الحقِّ، وقد دلَّ علىٰ ذلك حديثُ الافتراقِ وأنَّ هذه الأمَّة: «**سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً؛ قَالُوا: مَنْ**

هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **هُمُ الَّذِينَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[(١)]؛ فدلَّ هذا الحديثُ علىٰ أنَّ النَّجاةَ مكتوبةٌ لأصحابِه، ومَن كان علىٰ مثلِ ما كانُوا عليه من بعدهم؛ وهم أصحابُ الحديثِ والأثرِ.

ثمَّ قالَ: **«واعلمْ أنَّ الضَّلالَ والتَّهوُّك إنَّما استولىٰ علىٰ كثيرٍ مِن المُتأخِّرين؛ بنَبذِهم كتابَ الله وراء ظُهورِهم، وإعراضهم عمَّا بعَث اللهُ به مُحمَّدًا ﷺ مِن البيِّنات والهُدىٰ»**.

وأقولُ: إنَّ شواهدَ وأدلَّة ما قرَّره المؤلِّف أنَّ سببَ خذلان هؤلاءِ هو إعراضُهم عمَّا بعَث اللهُ به نبيَّه ﷺ كثيرةٌ؛ منها قول الله تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصَّف:٥]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾**﴾ [الأنعام:١١٠]، فدلَّ علىٰ أنَّ ما أصابهم مِن الخذلان والتَّهوُّك والضَّلال سببُه إعراضُهم عن كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وترك البحث عن طريقة السَّابقين؛ بل زعمهم أنَّها ليس فيها هدًىٰ ولا علمٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾ [النِّساء: ١١٥]، وليس مِن سبيل المؤمنين معرفةُ ذات الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته من طريق علْم اليُونان؛ المُسمَّىٰ بالكلام والمنطق.

وقد اعترف أولئك القوم علىٰ أنفسهم كما سبَق بيانُه بإقراراتهم الَّتي

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٤١)، مِن حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**». وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

سجّلوها عند موتهم؛ والّتي كتبْنا منها ما تيسَّر؛ بل اشتكَوا ممَّا هم فيه من الشَّكِّ والحيرة والإفلاس الَّتي أدَّت بهم إليها الطُّرقُ الكلاميَّةُ، والمناهجُ الفلسفيَّةُ؛ كما قال ذلك الرَّجلُ:

نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ العُقُــولِ عِقَــالُ وَأَكْثَــرُ سَــعْيِ العَــالَمِينَ ضَــلَالُ
وَأَرْوَاحُنَـا فِـي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا وَغَايَــةُ دُنْيَانَــا أَذًى وَوَبَــالُ
وَلَـمْ نَسْـتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمْرِنَـا سِـوَىٰ أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

ولسنا بحاجةٍ إلىٰ إعادةِ كلامهم، فقد دوِّن في موضعه.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتَرْكهم البحثَ عن طريقِ السَّابقِين والتَّابعِينَ، والتِماسِهم علمَ معرفةِ اللهِ ممَّن لم يعرف الله بإقراره علىٰ نفسِه، ولشهادةِ الأمَّة علىٰ ذلك، وبدلالاتٍ كثيرةٍ، وليس غرَضي واحدًا، وإنَّما أصفُ نوعَ هؤلاءِ، ونوعَ هؤلاءِ»؛ أي: أنَّ شهادتهم علىٰ أنفسهم وشهادة أهل العلم عليهم بالضَّلال بدلالاتٍ كثيرةٍ مِن كلامِهم ومِن حالتِهم الَّتي أبانوا بها عن أنفسِهم مِن الحيرة والضَّلال، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وقد صدَق فيهم قول الشَّافعيِّ حينَ قال: «**حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ، وَيُطَافُ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَخَذَ فِي الْكَلَامِ**»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٩/ ١١٦ السَّعادة)، والبيهقيُّ في «المناقب» (١/ ٤٦٢التُّراث)، والخطيبُ في «شرَف أصحاب الحديث» (ص٧٨أوغلي)، وابنُ عبد البرّ في «جامع بيان العلم» (١٧٩٤ الزّهيري)، والهرويّ في «ذمّ الكلام» (١١٤٢ الغرباء).

وإذا كانَ كذلكَ: فهذا كتابُ اللهِ مِن أوَّله إلىٰ آخرِه، وسنَّة رسول الله ﷺ مِن أوَّلِها إلىٰ آخرِها، ثُمَّ عامَّة كلامِ الصَّحابة والتَّابعين، ثمَّ كلام سائر الأئمَّة؛ مملوءٌ بما هو إمَّا نصٌّ، وإمَّا ظاهرٌ؛ في أنَّ الله سبحانه فوق كلِّ شيءٍ، وعليٌّ علىٰ كلِّ شيءٍ، وأنَّه فوقَ العرشِ، وأنَّه فوقَ السَّماءِ؛ مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، [الملك:١٦ - ١٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء:١٥٨]، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل:٥٠]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في ستَّة مواضع، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصِّلت:٤٢]، ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام:١١٤]، إلىٰ أمثالِ ذلكَ ممَّا لا يكاد يحصىٰ إلَّا بكُلفةٍ.

وفي الأحاديث الصِّحاح والحسان ما لا يحصىٰ؛ مثل قصَّة معراجِ رسولِ اللهِ ﷺ إلىٰ ربِّه[١]، ونزولِ الملائكةِ مِن عندِ الله وصُعودِهم إليه[٢]، وقولِه في الملائكةِ الَّذين يتعاقبون فيكم باللَّيلِ والنَّهار: «فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ»[٣].

---

(١) انظر: «صحيح البخاريّ» (٣٤٩ و٣٣٤٢)، و«صحيح مُسلم» (١٦٣).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢٦٨٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٥٥ و٣٢٢٣ و٧٤٢٩ و٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الصَّحيحِ في حديثِ الخَوارجِ: «أَلَا تَأْمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»[١].

وفي حديث الرُّقيةِ الَّذي رواه أبو داود[٢] وغيرُه: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الوَجَعِ»[٣]، قال ﷺ: «إِذَا اشْتَكَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ، أَوْ اشْتَكَىٰ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» وذكَرهُ. وقولُه في حديث الأوعالِ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» رواه أبو داود[٤].

وهذا الحديثُ مع أنَّه قد رواه أهل السُّننِ؛ كأبي داود وابن ماجه[٥] والتِّرمذي[٦] وغيرهم، فهو مرويٌّ مِن طرِيقَينِ مشهورَينِ، فالقَدْحُ في أحدهما لا يقدح في

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) قال المُحقِّق (ص٢٠٥) - باختصارٍ -: «هو سُليمان بنُ الأشعثِ بن شدَّاد، الأزديّ السّجستانيّ، صاحب كتاب (السُّنن)، وُلد سنةَ (٢٠٢)، وتُوفِّي سنة (٢٧٥)، قال الذَّهبيُّ: (كان علىٰ مذهب السَّلف في اتِّباع السُّنَّة والتَّسليم لها، وترْك الخَوض في مضائق الكلام)، وقال أبو حاتمٍ: (أحد أئمَّة الدُّنيا فقهًا وعلمًا وحفظًا ونسكًا وورعًا وإتقانًا، جمع وصنَّف وذبَّ عن السُّنن)».

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، من حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الألبانيُّ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (١٥٥٥): «مُنكر».

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٥) قال المحقِّق (ص٢٠٧ - ٢٠٨): «هو محمَّد بنُ يزيد أبو عبد الله ابن ماجه القزويني، الإمام الحافظ...، وُلد سنة (٢٠٩)، وتوفي في رمضان سنة (٢٧٣)، قال عنه الذَّهبيُّ: (كان ابن ماجه ناقدًا صادقًا واسع العلم)».

(٦) قال المحقِّق (ص٢٠٨): «محمَّد بن عيسىٰ بن سورة التِّرمذي، الإمام الحافظ...، قال الذَّهبيُّ: (جامعه قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه)، وقال ابن حبَّان: (كان أبو عيسىٰ ممَّن جمَع وصنَّف، وحفِظَ وذاكَر)».

الآخر، وقد رواه إمام الأئمَّة ابن خزيمة[١] في كتاب (التَّوحيد)، الَّذي اشترط فيه أنَّه لا يحتجُّ فيه إلَّا بما نقله العدْلُ عن العدْلِ، موصولًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

وقوله في الحديث الصَّحيحِ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قال: مَنْ أَنَا؟ قالتْ: رَسُولُ اللهِ، قالَ: أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[٢].

وقوله في الحديث الصَّحيح: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ مَوضُوعٍ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[٣].

وقوله في حديثِ قبْضِ الرُّوحِ: «حَتَّىٰ يَعْرُجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ»[٤]، إسنادُه علىٰ شرْطِ الصَّحيحَينِ.

وقول عبد الله بن رَواحةَ رضي الله عنه الَّذي أَنشدَه النَّبيَّ ﷺ، وأقرَّه عليه[٥]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَىٰ الكَافِرِينَا
وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا

وقول أميَّة ابن أبي الصَّلت الثَّقفيّ[٦] الَّذي أنشدَ للنَّبيِّ ﷺ هو وغيره من

---

(١) ستأتي ترجمته (ص٦٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بنحوه البخاريُّ (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، وابن ماجه (٤٢٦٢) بلفظ: «حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٩٦٨).

(٥) سيأتي الكلام عليه قريبًا.

(٦) قال المُحقِّق (ص٢١٥): «هو أميَّة بن أبي الصَّلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثَّقفيّ، مِن شُعراء الجاهليَّة، أدرَك زمَن النَّبيِّ ﷺ ولم يُسلِمْ. قيل: إنَّه أراد الإسلامَ فلمَّا علم بقتلىٰ بدرٍ، ومنهم عُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وهما ابنا خال أميَّة، كان هذا سببًا في عدَم إسلامِه، هلَك علىٰ الشِّرك سنةَ تسعٍ مِن الهِجرةِ، وكان شعرُه يحتوي علىٰ الحِكمةِ، ويذكر فيه خلْق السَّموات والأرض والملائكة والعرش».

شعرِه فاستحسنه وقالَ: «آمَنَ شِعْرُهُ، وَكَفَرَ قَلْبُهُ»[(١)]:

مَجِّدُوا اللهَ فَهْوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَىٰ كَبِيرًا

بِالبِنَا الأَعْلَىٰ الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ ... وَسَوَّىٰ فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا

شَرْجِعًا مَا يَنَالُهُ بَصَرُ العَيْنِ ... يَرَىٰ دُونَهُ المَلَائِكَةَ صُورًا

وقوله في الحديثِ الَّذي في (السُّنن)[(٢)]: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»، وقوله: «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ»[(٣)]، إلىٰ أمثالِ ذلك ممَّا لا يحصيه إلَّا الله ممَّا هو مِن أبلغِ المُتواتراتِ اللَّفظيَّة والمعنويَّة الَّتي تُورثُ عِلمًا يقينيًّا مِن أبلغِ العلومِ الضَّروريَّة أنَّ الرَّسول ﷺ المُبلِّغ عن الله ألقىٰ إلىٰ أمَّته المدعوِّين أنَّ الله سبحانه فوق العرش، وأنَّه فوقَ السَّماءِ، كما فطر اللهُ جميعَ الأُممِ؛ عربَهم وعجمَهم، في الجاهليَّة والإسلام، إلَّا مَن اجتالتْه الشَّياطينُ عن فطرتِه.

التعليق:

أقول: هذه الأدلَّة التي ساقَها المؤلِّف لبيانِ علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ جميع خلقِه، وأنَّه بائنٌ منهم، وأنَّ عِلْمَهُ بخلْقه شاملٌ لِكلِّ ما يصدرُ منهم؛ يعلم لحظات أعينِهم، وخطرات قلوبِهم، وحركات جوارحهم، ووساوِس أنفُسِهم؛

---

(١) أخرجه ابن الأنباري في «المصاحف» - كما في «فيض القدير» للمُناوي - (١/ ٥٩المعرفة)، وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (٤/ ٧)، وابنُ عساكر في «تاريخه» (٩/ ٢٧٢)، وضعَّفه الألباني في «السِّلسلةِ الضَّعيفة» (١٥٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والتِّرمذيّ (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، من حديث سلمان الفارسيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كلُّ ذلك معلومٌ عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالله التَّوفيق.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرع في إثبات الفوقيَّة لله جَلَّ وَعَلَا، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا مِن الأدلَّة علىٰ ذلك مِن القُرآن؛ منها قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ ﴾ [الملك:١٦ - ١٧]، ومنها قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]؛ والصُّعود يكون من أسفل إلىٰ أعلىٰ، والضَّميرُ يعودُ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، و(الكلم الطَّيِّب): الَّذي يخرجُ مِن أفواهِ المُؤمنينِ؛ القول الحسنُ، الثَّناء علىٰ الله - التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير والتَّهليل والحوقلة وقراءة القرآن، وكلّ أعمال الخيرِ؛ كلّ ذلك مِن الكلِم الطَّيِّب الذي يصعد إلىٰ الله.

كذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصِّلت: ٤٢]، والنُّزولُ يكونُ مِن أعلىٰ إلىٰ أسفل.

وقال تعالىٰ: ﴿ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ فالنُّزول مِن الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ مُحمَّدٍ ﷺ في الأرض بواسطة جبريل؛ إذًا فأين اللهُ؟ علىٰ العرشِ؛ كمَا أثبت ذلك في سبعةِ مواضعَ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ في ستَّة، و ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ في سورة (طه).

كلُّ هذه أدلَّة تدلُّ علىٰ إثباتِ الفوقيَّة لله.

- **قولُه ﷺ: «أَلا تَأْمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»**. **يقولُ المُحقِّق**[1]: «الحديثُ رواه البخاريُّ (٨/ ٦٧) رقم (٤٣٥١) كتاب المغازي، باب بَعْثِ عليٍّ بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلىٰ

(١) (ص٢٠٤).

اليمن قَبل حجَّةِ الوداعِ، ومسلمٌ (٢/ ٧٤٢) رقم (١٠٦٤) كتاب الزَّكاة، باب ذِكْر الخوارجِ وصفتهم».

- **وقوله** ﷺ: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا**»، الحُوب: هو الإثم. «**أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ**»، هو ربُّ العالمِينَ جميعًا، فلِمَ قالَ هنا: «**أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ**»، وخَصَّ الطَّيِّبين فقط؟! نعلمُ مِن هذا أنَّ الرُّبوبيَّة رُبوبيَّةٌ عامَّةٌ لِجميعِ المَخلوقاتِ، ورُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ معناها الرِّعاية والنَّصر، والتَّسديد والتَّأييد، فهو ربُّ الطَّيِّبين؛ بمعنىٰ أنَّه يرعاهم ويُسدِّدُهم ويُوفِّقُهم، «**أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الوَجَعِ فَيَبْرَأَ**»[1]، فقولُه: «**أَنْزِلْ**» شاهدٌ ثانٍ علىٰ فوقيَّة الله.

- **وقولُه في حديثِ الأوعالِ**: «**وَالعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**»، **يقولُ المُحقِّق**[2]: «**الأوعالُ**: جمْعُ (وعل)؛ وهو تيس الجبل، وأراد بالأوعال: الأشراف والرُّؤوس» حملة العرش، وأشراف الملائكة. ويقولُ: «شبَّههم بها؛ لأنَّها تأوي إلىٰ شعف الجبالِ، ومنه قول أبي هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَعْلُوَ التُّحُوتُ، وَتَهْلَكَ الوُعُولُ**»؛ قيل: وَمَا التُّحُوتُ؟ قال: «**سُفُولُ الرِّجَالِ، وَأَهْلُ البُيُوتِ الغَامِضَةِ؛ وَالوُعُولُ أَهْلُ البُيُوتِ الصَّالِحَةِ**»، رواه البخاري في «الكُنىٰ» (ص٥٩) **انظُر**: «النِّهاية في غريب الحديث» (٥/ ٢٠٧)، «لسان العرب» (١١/ ٧٣١)» اهـ.

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) (ص٢٠٧).

وقال المُحقِّق[(١)]: «هذا الحديثُ المعروفُ بحديثِ الأوعالِ قد كثُر الكلامُ حولَه، وأخرجه الأئمَّة في دواوينهم؛ ونصُّه: عن الأحنف بن قيس، عن العبَّاس بن عبد المُطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ فِي البَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فقَالَ: «**مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟**»، قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: «**وَالْمُزْنَ؟**»، قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «**وَالْعَنَانَ؟**»، قَالُوا: وَالْعَنَانَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**»، قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ**»، حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، «**ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَىٰ ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **فَوْقَ ذَلِكَ**». الحديث رواه أبو داود (٥/ ٩٣) رقم (٤٧٢٣)، كتاب السُّنَّة، باب في الجهميَّة، وهذا لفظه. والتِّرمذي (٥/ ٤٢٤) رقم (٣٣٢)، كتاب التَّفسير، باب تفسير سورة (الحاقَّة)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وابن ماجه (١/ ٦٩) رقم (١٩٣) المقدِّمة، باب فيما أنكرتْ الجهميَّة، وأحمد (١/ ٢٠٦ - ٢٠٧)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٢٥٤) رقم (٥٧٨)، وابن أبي شيبة في كتاب «العرش» (ص٥٥)، ورواه ابن خُزيمة في «التَّوحيد» (١/ ٣٣٤)، والدَّارمي في «الرَّدّ علىٰ الجهميَّة» (ص٢٤)... إلخ »اهـ.

المهمُّ: أنَّ هذا الحديثَ ضعَّفه بعضُ أهل العلم، وقوَّاه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «وهذَا الحديثُ مع أنَّه قد رواهُ أهلُ السُّنن؛ كأبي داود وابن ماجه

---

(١) (ص٢٠٧).

والتِّرمذي وغيرِهم، فهو مرويٌّ مِن طريقَينِ مشهورِينَ، فالقدْحُ في أحدهما لا يقدح في الآخر، وقدْ رواهُ إمام الأئمَّة ابن خُزيمةَ في كتاب (التَّوحيد)، الَّذي اشترط فيه أنَّه لا يحتجُ فيه إلَّا بما نقله العدْلُ عن العدْلِ، مَوصولًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ. هذا كلام ابن تيمية فيه، ويظهرُ مِن كلامه أنَّه قوَّاه وصحَّحه.

وأقولُ: إذا كان المراد الاستدلال بهذا الحديث علىٰ فوقيَّة الله، وأنَّه فوق العرش؛ فهذا الموضوع قد تقدَّم أنَّ بعض عُلماءَ الشَّافعية قال: «في القُرْآنِ ألفُ دليلٍ أو أزيَدُ تدلُّ علىٰ أنَّ اللهَ عالٍ علىٰ خلْقِه، وأنَّه فوقَ عبادهِ»، وأنَّ ابن القيِّم قال في نهاية كتابه (اجتماع الجيوش الإسلاميَّة): «ولو شِئْنَا لأتَيْنا علىٰ هذه المسألةِ بألفِ دليلٍ»، إذًا؛ فالقدح في هذا الحديث أو في إحدىٰ طرُقِه لا يضرُّ لِكثرةِ شواهدِه.

أمَّا اختلافُ التَّقدير بالمسافة ما بين الأرض إلىٰ السَّماء الدُّنيا؛ إمَّا بإحدىٰ وسبعين أو اثنتين وسبعين أو ثلاث وسبعين سنةً، وجاء في حديثٍ آخرَ علىٰ أنَّ المسافةَ مِن الأرض إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا مسيرةُ خمسمائة عامٍ إلىٰ آخر ما ذُكر، فالجمعُ بين هذين الحديثَينِ، وبين التَّقديرَينِ: أنَّ هذا مُقدَّرٌ بسيرٍ، وذلك مقدَّر بسيرٍ؛ فمثلًا خمسمائة عامٍ بسيرِ الرَّجُل أو القافلة، ومسير ثلاث وسبعين عامًا بسير حضر الفرَس، أي: جرْي الفرَس، وبهذا تجتمعُ الأدلَّة.

- وممَّا يدلُّ أيضًا علىٰ فوقيَّة اللهِ، وأنَّه في السَّماءِ؛ قولُه ﷺ للجاريةِ: **«أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قال: مَنْ أَنَا؟ قالتْ: رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»**(١).

---

(١) تقدَّم تخريجه.

- وقوله ﷺ في الحديث الصَّحيحِ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ مَوضُوعٍ عِندَهُ فَوْقَ العَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[١].

- **قال: «وقوله في حديث قبض الرُّوح: «حَتَّىٰ يَعْرُجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ»[٢]، إسنادُه علىٰ شرط الصَّحيحين»**.

- وقول عبدِ الله بن رواحةَ رضي الله عنه الَّذي أنشدَه لزوجتِه حين اتَّهمتْه بأنَّه وقَع علىٰ الجاريةِ، فأنكَر، فقالَتْ: إنَّ كنتَ صادِقًا فاقرأ القُرآنَ، فقالَ لها:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَىٰ الكَافِرِينَا
وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا

قال المُحقِّق[٣]: «أوردَ هذه الأبيات ابنُ عبد البرِّ في (الاستيعاب) (٢/ ٢٩٦)، وقال: «وقِصَّتُه مع زوجتِه في حين وقع علىٰ أَمَتِه مشهورةٌ، رويناها مِن وجوهٍ صحاحٍ»». اهـ.

- **قال: «وقولُ أميَّة ابن أبي الصَّلت الثَّقفيِّ الَّذي أنشدَ للنَّبيِّ ﷺ هو وغيره من شعرِه، فاستحسنَه، وقال: «آمَنَ شِعْرُهُ، وَكَفَرَ قَلْبُهُ»[٤]:**

مَجِّدُوا اللهَ فَهْوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَىٰ كَبِيرًا
بِالبِنَا الأَعْلَىٰ الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ ... وَسَوَّىٰ فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
شَرْجِعًا مَا يَنَالُهُ بَصَرُ العَيْنِ ... يَرَىٰ دُونَهُ المَلَائِكَةَ صُورَا»

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) (ص٢١٤).

(٤) سبق تخريجُه قريبًا.

- **قال**: «وقولُه في الحديثِ الَّذي في (السُّنن)[١]: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»»، أي: خاليتينِ لا شيءَ فيهما؛ بمعنىٰ أنَّ اللهَ يستجيبُ له ويعطيه.

- **قال**: «وقوله: «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ**»[٢] **إلىٰ أمثالِ ذلكَ مِمَّا لا يُحصيه إلَّا اللهُ ممَّا هُو مِن أَبْلَغِ المُتواتِراتِ اللَّفظيَّة والمَعنويَّة...إلخ**».

وأقولُ: في هذا كفايةٌ ومقنعٌ لمن يُريدُ الحقَّ: أنَّ اللهَ فوق عرشِه، وعرشُه فوق سمواتِه جميعًا؛ كما في حديثِ الأعرابي الَّذي قال للنَّبيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!**»، **وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا»، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**»[٣].

فكلُّ هذه الأحاديثِ والآياتِ الدَّالَّة علىٰ فوقيَّة اللهِ عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشِه يُكذِّبها كثيرٌ مِن النَّاسِ، ويقولون: إنَّه[٤] في كلِّ مكانٍ، أو لا داخلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلًا به، ولا مُنفصلًا عنه، وهذه العقيدةُ الَّتي بثَّها المعطِّلون لصفات الله بين العوامّ هي عقيدةُ زيغٍ وضلالٍ وتكذيبٍ لِكتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولِسنَّةِ رسولِ الله ﷺ،

---

(١) سبق تخريجُه قريبًا.

(٢) سبق تخريجُه قريبًا.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، من حديثِ جُبير بن مُطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٦١٣٧).

(٤) أي: الله جَلَّ وَعَلَا؛ تعالىٰ اللهُ عمَّا يقولُ الظَّالمون علوًّا كبيرًا.

فمَن اعتقَد عقيدة الاتِّحاديَّة أصحاب وحدة الوجود أنَّ الله بذاتِه في كلِّ مكانٍ، أو عقيدة الحلوليَّة أنَّه تعالىٰ حالٌّ في مخلوقاتِه؛ هذه العقائد الَّتي يبثُّها مَن تَربَّوا في أحضانِ أفراخ الجهميَّة المُعطِّلين للصِّفات؛ هي عقيدةٌ باطلةٌ، ومَن اعتقدَها كفَر، وإنْ صلَّىٰ وصام، وزعَم أنَّه مُسلمٌ، وبالله التَّوفيق.

- **قوله: «كما فطَر اللهُ جميعَ الأُممِ؛ عربَهم وعجمَهم، في الجاهليَّة والإسلام، إلَّا مَن اجتالتْه الشَّياطينُ عن فطرتِه».**

قال المُعلِّق[1]: «وقدْ فصَّل ذلك شمسُ الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة في كتابه (اجتماع الجيوش الإسلاميَّة)؛ بل ذكَر أنَّ هذا ممَّا فطر عليه جميع الخلقِ؛ مِن جنٍّ وحيوانٍ، إضافةً إلىٰ بني آدم مِن أنَّ اللهَ في العلوِّ؛ فليُراجع».

❁❁❁

ثُمَّ عن السَّلف في ذلك مِن الأقوالِ ما لو جُمع لَبلَغ مِئاتٍ أو ألوفًا.

التعليق:

تقدَّم لنَا الأدلَّةُ مِن كتاب الله ومِنْ سُنَّة رسول الله ﷺ علىٰ فوقيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وليس المقصود الاستقصاء؛ بل ذكَر بعضَ الأدلَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واكتفىٰ بها عن الأدلَّة الأُخرىٰ؛ سواء كانتْ مِن القُرآن أو من السُّنَّةِ.

وهنا يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ عن السَّلف في ذلكَ مِن الأَقوالِ ما لو جُمعَ لَبلَغ مئاتٍ أو ألوفًا».

قال المُحقِّق[2]: «قال بعضُ كبار أصحابِ الشَّافعيِّ: في القُرآنِ ألفُ دليلٍ أو

---

(١) (ص٢١٩).

(٢) (ص٢٠٢).

أزيَد تدلُّ علىٰ أنَّ اللهَ عالٍ علىٰ خلْقِه، وأنَّه فوق عباده.

وقال غيرُه: فيه ثلاثمائة دليلٍ علىٰ ذلك - (الفتاوىٰ) (٥/ ١٢١) -، قال ابنُ القيِّم: إنَّ الآياتِ والأخبارَ الدَّالَّة علىٰ علوِّ الرَّبِّ علىٰ خلْقِه واستوائِه علىٰ عرشه تُقارب الألوف، وقد أجمعَتْ عليها الرُّسل مِن أوَّلهم إلىٰ آخرِهم - (الصَّواعق المرسلة) (١/ ٣٦٨) -.

وقال في نهاية كتابه (اجتماع الجيوش الإسلاميَّة) (ص٣٣١): «ولو شِئْنا لَأتينا علىٰ هذه المسألة بألف دليلٍ» اهـ.

قلتُ: فتبيَّنَ مِن هذا الكمِّ الهائلِ مِن الأدلَّة أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ مِن خلْقِه، وعلمُه بكلِّ مكانٍ لا يخفَىٰ عليه شيءٌ مِن أمورِ عباده.

قال المُعلِّق[1]: «وممَّن عُني بجمعِ أقوالهم (أي: السَّلف[2]) في هذا؛ شيخُ الإسلام في الكتاب الَّذي بين أيدينا؛ كما سيتبيَّن ذلك في الصَّفحات القادمة، وكذلك الإمامُ ابنُ القيِّم في (اجتماع الجيوش الإسلاميّة)، واللَّالكائيّ في (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)، والذَّهبيّ في (العلوّ)، وابن قدامةَ في كتابه (إثبات صفةِ العلوِّ)، وغير هؤلاء كثيرٌ» اهـ.

❁ ❁ ❁

ثمَّ ليسَ في كتابِ اللهِ، ولا في سُنَّة رسولِ الله ﷺ، ولا عَنْ أحَدٍ مِن سلَفِ الأُمَّة؛ لا مِن الصَّحابةِ والتَّابعين، ولا عن أئمَّة الدِّين - الَّذين أدرَكُوا زمَن

---

(١) (ص٢١٩).

(٢) مِن كلام حسن دغريري، عند قول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثمَّ عن السَّلف في ذلك مِن الأقوالِ ما لو جُمع لَبلغَ مئاتٍ أو أُلوفًا».

الأهواءِ والاختلافِ - ؛ حرفٌ واحدٌ يُخالفُ ذلكَ، لا نصًا ولا ظاهرًا.

ولم يقُلْ أحدٌ منهم قطُّ: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ، ولا أنَّه ليس علىٰ العرش، ولا أنَّه بذاتِه في كلِّ مكانٍ، ولا أنَّ جميعَ الأمكنةِ بالنِّسبةِ إليه سواءٌ، ولا أنَّه لا داخل العالم ولا خارجَه، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا أنَّه لا تجوزُ الإشارةُ الحسِّيَّة إليه بالأصبع ونحوِها، بل قد ثبَت في الصَّحيحِ[1] عن جابرِ بن عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا خطَب خُطبتَه العظيمةَ يومَ عرفاتٍ، في أعظمِ مَجمَعٍ حضرَه رسولُ اللهِ ﷺ، جعَل يَقولُ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»، فيقولون: نَعَمْ، فيرفعُ أصبعه إلىٰ السَّماءِ وينكبُها إلَيهم، ويَقولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» غيرَ مرَّةٍ، وأمثال ذلكَ كثيرٌ.

التعليق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ ليسَ في كتابِ اللهِ، ولا في سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، ولا عن أحدٍ مِن سلَف الأمَّة؛ لا مِن الصَّحابة والتَّابعين، ولا عن أئمَّة الدِّين - الَّذين أدركُوا زمَن الأهواءِ والاختلافِ - ؛ حرفٌ واحدٌ يُخالفُ ذلك، لا نصًا ولا ظاهرًا».

أقولُ: معنىٰ ذلك أنَّه قد اجتمعَتْ علىٰ ذلك؛ أي: علىٰ فوقيَّة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ خلْقِه واستوائِه علىٰ عرشه، وأنَّه بذاته مُتميِّزٌ عن خلقه، بائنٌ منهم، عالٍ عليهم، وهو مع ذلك مُسيطرٌ عليهم، مُطَّلعٌ علىٰ جميع حركاتِهم وسكناتِهم، وكلِّ ما يَبدُر منهم؛ لِعلمه بهم، واطِّلاعِه عليهم، وقُدرتِه وهيمنتِه عليهم، وقَهْرِه لهم، فاجتمعَ علىٰ ذلك الكتاب والسُّنَّة والإجماعُ؛ فدلَّ علىٰ أنَّ مَن قال خلاف ذلك فإنَّه ظالمٌ مُعتدٍ، مُنتقصٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: «ولم يَقلْ أحدٌ منهم قطُّ: إنَّ الله ليس في السَّماء، ولا أنَّه ليس علىٰ العرش، ولا أنَّه بذاتِه في كلِّ مكانٍ، ولا أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

جميعَ الأمكنةِ بالنِّسبةِ إليه سواءٌ، ولا أنَّه لا داخلَ العالم ولا خارجَه، ولا متَّصل ولا منفصل، ولا أنَّه لا تجوزُ الإشارةُ الحسِّيَّة إليه بالأصبع ونحوها، بل قد ثبَت في الصَّحيحِ عن جابرِ بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا خَطَبَ خُطبتَه العظيمةَ يوم عرفاتٍ، في أعظم مَجمعٍ حضرهُ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعَل يقولُ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»، فيقولون: نعم، فيرفعُ أصبعه إلىٰ السَّماءِ وينكبُها إليهم، ويقولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» غير مرَّةٍ، وأمثال ذلكَ كثيرٌ».

وأقولُ: انظر - يا أخي المسلم - إلىٰ هذا التَّغيير الفظيع الَّذي صارَ به المعروف مُنكرًا، والمُنكر مَعروفًا، والحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، فجعلُوا الإشارة إليه؛ أي: رفْع الأصبع إلىٰ السَّماء؛ جعلُوا ذلك مُنكرًا، وأثبتُوا وجودَه في الأماكن القذرةِ، ولم يُنزِّهوه سبحانه عن أن يكون مُختلطًا بخلْقِه، أو أنْ يكون حالًّا فيهم، تعالىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ اللَّهمَّ إنَّا نُجلِّكَ ونُقدِّسُك عمَّا زعمَه فيكَ هؤلاء الأفَّاكون؛ أنَّك حلَلْتَ في خلْقِكَ، أو اتَّحدتَ بهم، أو ما أشبهَ ذلك من الفظائع القذرةِ الَّتي زعموها لكَ، وإنَّ أهل السُّنَّة لَيثبتُون علوَّك علىٰ عرشِكَ، وبَينونتك مِن خلْقِك، معَ إثباتِ العلْمِ الشَّامل، والقُدرةِ الكاملةِ، والقهر والسَّيطرة والهيمنة علىٰ عبادِك جميعًا؛ ترىٰ أعمالهم، وتسمعُها، وتَحكُم فيهم وعليهم بما تُريدُ، فأنتَ الفعَّال لِمَا تُريدُ.

❁ ❁ ❁

فإنْ كانَ الحقُّ فيما يقولُه هؤلاءِ السَّالبون النَّافون للصِّفات الثَّابتةِ في كتاب الله وسُنَّة رَسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِن هذه العباراتِ ونحوها، دون ما يُفهَمُ مِن الكتاب والسُّنَّة؛ إمَّا نصًّا، وإمَّا ظاهرًا، فكيفَ يجوزُ علىٰ اللهِ، ثُّم علىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ علىٰ

خيرِ الأمَّة، أنَّهم يَتكلَّمون دائمًا بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ في خلافِ الحقِّ الَّذي يَجبُ اعتقادُه؟! ولا يَبوحُون به قطُّ، ولا يَدلُّون عليه نصًّا ولا ظاهرًا، حتَّىٰ يجيءَ أنباط الفُرس والرُّوم وفروخ اليهودِ والفلاسفة يُبيِّنون للأمَّة العقيدةَ الصَّحيحةَ الَّتي يجبُ علىٰ كُلِّ مكلَّفٍ أو كُلِّ فاضلٍ أنْ يَعتقدَها.

لئنْ كان ما يَقولُه هؤلاء المُتكلِّمون المُتكلِّفون هو الاعتقاد الواجب، وهم مع ذلك أُحيلوا في معرفتِه علىٰ مُجرَّد عقولِهم، ما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّة نصًّا أو ظاهرًا، لقد كان ترك النَّاس بلا كتابٍ ولا سنَّةٍ أهدَىٰ لهم وأنفع علىٰ هذا التَّقدير، بل كان وجودُ الكتاب والسُّنَّة ضررًا مَحضًا في أصل الدِّين؛ فإنَّ حقيقة الأمر علىٰ ما يقوله هؤلاء: أنَّكم يا معشر العبادِ لا تطلبُوا معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ وما يَستحقُّه مِن الصِّفات نفيًا ولا إثباتًا؛ لا مِن الكتاب، ولا مِن السُّنَّة، ولا مِن طريقِ سلفِ الأمَّةِ، ولكنْ انظُروا أنتمُ؛ فما وجدتمُوه مُستحقًّا له من الأسماءِ والصِّفات فَصِفُوه به - سواء كان موجودًا في الكتابِ والسُّنَّة أو لم يكُن -، وما لم تَجدوه مُستحقًّا له في عقولكم فلا تَصفُوه به!!

التعليق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنْ كانَ الحقُّ فيما يقولُه هؤلاءِ السَّالبون النَّافون للصِّفات الثَّابتة في كتاب الله وسنَّة رسولِه ﷺ، مِن هذه العباراتِ ونحوها، دون ما يُفهَم مِن الكتابِ والسُّنَّة؛ إمَّا نصًّا، وإمَّا ظاهرًا... إلخ».

ومعنىٰ هذا المقطع: أيصحُّ في العقول والأذهان أنَّ الحقَّ لم يُعرف لا مِن الكتابِ، ولا من السُّنَّة، ولا دلَّ عليه أصحاب رسولِ الله ﷺ، والأئمَّة بعدهم؛ يعني: أنَّ خيرَ الأمَّة لم يتكلَّموا بالحقِّ، ولم يعرفوه؛ لا مِن كتاب الله، ولا مِن

سنَّة رسولِ اللهِ ﷺ؛ حتَّىٰ جاء هؤلاء الأنباط والأخلاط من بقايا الفُرس والرُّوم وأفراخ اليهود والفلاسفة، فبيَّنوا للأمَّة العقيدة الصَّحيحة الَّتي يجبُ علىٰ كلِّ مكلَّف أو كلِّ فاضلٍ أنْ يعتقدها.

ويتَّضِحُ ذلك بقوله: «لئنْ كانَ ما يَقولُه هؤلاءِ المُتكلِّمون المُتكلِّفون هو الاعتقاد الواجب، وهم مع ذلك أحيلوا في معرفتِه علىٰ مُجرَّد عُقولِهم، ما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّة نصًّا أو ظاهرًا، لقد كان ترْكُ النَّاس بلا كتابٍ ولا سنَّةٍ أهدىٰ لهم وأنفع علىٰ هذا التَّقدير، بل كان وجودُ الكتابِ والسُّنَّة ضررًا مَحضًا في أصل الدِّين»، يعني: علىٰ مُقتضىٰ كلامِهم ومُقتضىٰ مزاعمهم أنَّ الكتابَ والسُّنَّة لم يَدُلَّا علىٰ حقٍّ، وأنَّ الصَّحابةَ لم يعرفوا الحقَّ، وأنَّ التَّابعين ومَن بعدَهم مِن أهل العلم لم يعرفوا الحقَّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنَّ حقيقةَ الأمْر علىٰ ما يقوله هؤلاء: أنَّكم يا معشر العبادِ لا تطلبُوا معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وما يَستحقُّه مِن الصِّفات نفيًا ولا إثباتًا؛ لا مِن الكتابِ ولا مِن السُّنَّة، ولا مِن طريقِ سلَفِ الأمَّةِ، ولكن انظُروا أنتم؛ فما وَجدتمُوه مُستحقًّا له مِن الأسماء والصِّفات فصفُوه به - سواء كان موجودًا في الكتاب والسُّنَّة أو لم يكن -، وما لم تجدوه مُستحقًّا له في عقولكم فلا تَصفُوه به!!».

أقولُ: هذا ردٌّ عليهم في زعمهم الاستحالة العقليَّة في إثبات العلوِّ لله؛ فهو يقولُ: إذا كنتم قد وكلتُم إلىٰ عُقولكم، ووكل النَّاس إليها معكم؛ فلا داعيَ لكتابٍ ولا سنَّةٍ، ولكن ما استحسنته عقولُكم فقولُوه، وما استبشعتْهُ ورأتْ أنَّه غيرُ لائق بالله فاتركُوه. هذا مقتضىٰ قولهم: أنَّ الله أحالَنا إلىٰ عُقولِنا علىٰ حسَب ما يراه العقلانيُّون!

وأقولُ: محالٌ أنْ يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد وكل العبادَ إلىٰ عُقولهم، وما هذا إلَّا زعمٌ باطلٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمَر عباده باتِّباع كتابه وسنَّة رسولِه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر:٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، إلىٰ غيرِ ذلك مِن النُّصوص الدَّالَّة علىٰ وُجوبِ اتِّباعِ الكتاب والسُّنَّة.

بل إنَّ اتِّباع الكتاب والسُّنَّة هو سبيلُ المؤمنين، ومَن تركه فقدْ ترَك سبيلَ المؤمنين، وهو مُتوعَّدٌ بالوعيد الَّذي ذُكر؛ حيثُ يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النِّساء: ١١٥].

وعلىٰ هذا فإنَّ الله لم يُحلْ أحدًا علىٰ عقلِه؛ بل إنَّ العقل الَّذي لا يعقلُ عن الله هو عقلٌ مُتخلِّفٌ وعقلٌ ساذج، وقد عاب اللهُ الَّذين لا يعقلون في مواضعَ مِن كتابِه؛ بل إنَّ مَن هُديَ إلىٰ الحقِّ واستهدىٰ بالوحي هو المُفلحُ والنَّاجحُ؛ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١].

ثمَّ إنَّ عُقولَ العبادِ مختلفةٌ، ولو أُحيل جماعةٌ في أمرٍ مِن الأُمورِ علىٰ عُقولِهم، ثمَّ استفتيت هذه الجماعة لوجدت أنَّهم متناقضون في حُكمهم؛ فربَّما هذا يُبيحُ وهذا يمنعُ، وهذا يستحسنُ وهذا يستقبح، وهذا يأمر وهذا ينهىٰ؛

فلِذلك يستحيلُ أنْ يحيلَ اللهُ العبادَ علىٰ عُقولهم لأنَّه لو أحالهم علىٰ عُقولهم لأحالهم علىٰ تناقضٍ واختلافٍ، وبالله التَّوفيق.

❁❁❁

ثمَّ هم ههنا فريقان؛ أكثرُهم يقولون: ما لم تُثبتْه عُقولُكم فانفُوه، ومنهم مَن يقولُ: بلْ توقَّفوا فيه، وما نفاه قياسُ عُقولِكم - الَّذي أنتُم فيه مُختلفون مُضطربُون اختلافًا أكثر مِن جميعِ اختلافٍ علىٰ وجهِ الأرضِ - فانفُوه، وإليه عند التَّنازُع فارجعُوا؛ فإنَّه الحقُّ الَّذي تَعبدْتُكم به، وما كان مذكورًا في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يُخالف قياسَكم هذا، أو يُثبتُ ما لم تُدركْه عقولُكم علىٰ طريقةِ أكثرِهم؛ فاعلمُوا أنِّي أَمتحنُكم بتنزيلِه؛ لا لِتأخذوا الهُدىٰ منه، لكن لِتجتهدُوا في تخريجه علىٰ شواذِّ اللُّغة ووحشيِّ الألفاظِ وغرائب الكلام، وأنْ تَسكتُوا عنه، مُفوِّضين عِلْمَه إلىٰ الله، مع نفيِ دلالتِه علىٰ شيءٍ مِن الصِّفات، هذا حقيقةُ الأمر علىٰ رأيِ هؤلاءِ المُتكلِّمين.

التعليق:

يعني أنَّهم يعرضون الأسماء والصِّفات الواردة في الكتاب والسُّنَّة علىٰ عقولهم، فما لم تقبلْه عُقولهم؛ فحينئذٍ اختلفوا فيه: ففريقٌ منهم قالوا: ما لم تثبته عقولُكم فانفوه، وفريقٌ منهم يقول: ما لم تُثبته عقولُكم فتوقَّفوا فيه، «**وما نفاه قياسُ عقُولِكم الَّذي أنتم فيه مُختلفون مُضطربُون اختلافًا أكثر مِن جميع الاختلافِ علىٰ وجه الأرض فانفوه، وإليه عند التَّنازع فارجعُوا، فإنَّه الحقُّ الَّذي تعبَّدتُكم به، وما كان مذكورًا في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يُخالفُ قياسَكم هذا، أو يُثبتُ ما لم تُدركْه عقولُكم علىٰ طريقة أكثرهم، فاعلمُوا أنِّي أَمتحنُكم بتنزيلِه؛ لا**

لِتأخذُوا الهُدىٰ منه، لكن لِتجتهدُوا في تخريجه علىٰ شواذِّ اللُّغة، ووحشيِّ الألفاظِ، وغرائب الكلام، وأنْ تَسكتُوا عنه مُفوِّضين عِلْمَه إلىٰ الله؛ مع نفيِ دلالته علىٰ شيءٍ من الصِّفاتِ؛ هذا حقيقة الأمر علىٰ رأيِ هؤلاءِ المُتكلِّمين»، هو الآن يُلزمُهم إلزامًا؛ يقولُ: كأنَّكم تقولون: إنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ وعمَلَ السَّلفِ الصَّالح لم تدلَّ علىٰ حقٍّ في صفات الله، ولم تأت ببرهانٍ؛ حينئذٍ يَفترِضُ الشَّيخُ المُعارضة؛ كأنَّ سائلًا سألَهم: إذًا لِمَ أنزلَ اللهُ هذه الصِّفاتِ والأسماءَ في الكتاب؟! قالُوا: لِيمتحِنَ عبادَه بذلك؛ حتَّىٰ يجتهدوا في نفيها وإبطالها وتخريجها علىٰ شواذِّ اللُّغة، ووحشيِّ الألفاظِ، وغرائبِ الكلامِ.

❁ ❁ ❁

وهذا الكلامُ قدْ رأيتُه صرَّح بمعناه طائفةٌ منهم، وهو لازمٌ لِجماعتِهم لُزومًا لا محيدَ عنه، ومَضمونُه أنَّ كتابَ الله لا يُهتدىٰ به في معرفةِ الله، وأنَّ الرَّسولَ ﷺ مَعزولٌ عن التَّعليم والإخبارِ بصفاتِ مَن أَرسلَه، وأنَّ النَّاسَ عند التَّنازُع لا يَردُّون ما تنازعُوا فيه إلىٰ الله والرَّسولِ، بل إلىٰ مِثْلِ ما كانوا عليه في الجاهليَّة، وإلىٰ مثْلِ ما يتحاكمُ إليه مَن لا يُؤمنُ بالأنبياءِ؛ كالبراهمة والفلاسفة - وهم المُشركون - والمَجوس وبعض الصَّابئين.

التعليق:

قال الشَّيخُ: «**وهذا الكلام قدْ رأيتُه صرَّح بمعناه طائفةٌ منهم**»، **قال المُعلِّق**[1]: «وهو قولُ أكثر المُتكلِّمين النُّفاة؛ مِن الجهميَّة والمُعتزلة، وممَّن صرَّح بذلك: ابنُ عقيل وأبو حامد - في أوَّل عمره - وابنُ رُشدٍ الحفيدُ؛ يقولُ الشَّيخُ:

(١) (ص٢٢٥).

«الجهميَّة النُّفاة يقولون: فائدةُ إنزالِ هذه النُّصوص المُثبتةِ للصِّفات وأمثالها مِن الأمور الخبريَّة الَّتي يُسمُّونها هم: المُشكل والمُتشابه؛ فائدتُها عندهم: اجتهاد أهلِ العلم في صرفها علىٰ مُقتضاها بالأدلَّة المُعارضة لها؛ حتَّىٰ تنال النُّفوس كدَّ الاجتهاد، وحتَّىٰ تنهض إلىٰ التَّفكُّر والاستدلال بالأدلَّة العقليَّة المُعارضة لها، الموصلة إلىٰ الحق»»، معناه أنَّ العقول هي الموصلة إلىٰ الحقِّ، وليس ما جاءت به الرُّسلُ.

قال: ««فحقيقةُ الأمر عندهم أنَّ الرُّسلَ خاطبُوا الخلْقَ بما لا يُبيِّن الحقَّ، ولا يدلُّ علىٰ العلم»» هذا من لازم قولهم.

قال: ««ولا يُفهم منه الهُدىٰ؛ بل يدلُّ علىٰ الباطل، ويفهم منه الضَّلال؛ ليكون انتفاع الخلْق بخطاب الرُّسل اجتهادهم في ردِّ ما أظهرته الرُّسل، وأفهمته الخلق...» «درء تعارض العقل والنَّقل» (٥/ ٣٦٥)... إلخ».

وأقولُ: هذه فلسفةٌ شيطانيَّة؛ أراد الشَّيطانُ أن يصرفَ بها هؤلاء عن الحقِّ، وما مثَل ذلك إلَّا كما قال الشَّيطانُ للمُعتقدين في الصَّليبِ: إنَّه ابنُ الله، فلمَّا قيل لهم: كيف أمكنهم اللهُ أنْ يَقتلُوا ابنَه؛ وهو قادرٌ علىٰ الدَّفع عنه؟! قالوا: لِيجعلَه فداءً لذُنوب البشريَّة. فهذه المقولة عند النَّصارىٰ أسكتهم بها الشَّيطان، ودفعُوا بها - فيما زعموا - الاعتراضَ علىٰ أنَّه إذا كان عيسىٰ ابنُ الرَّبِّ فلِمَ مكَّنهم مِن قتْلِه وصلْبِه؟! قالوا: لِيجعلَه فداءً لذنوب البشريَّة، وعلىٰ هذا فيقال: إذًا فالبشريَّة كانوا عنده أغلىٰ من ابنه حين مكَّنهم مِن قتْلِه لِيكونَ فداءً للبشريَّة.

وما أشبَه ما قاله أصحابُ الكلام مِن هذه الفلسفةِ الشَّيطانيَّة الَّتي دفعَتْ عن النَّصارىٰ هذا الاعتراض - بزعمهم -، وكلُّ ذلك مِن حِيَلِ الشَّيطانِ وزخرفتِه؛

لِيقنِع النَّاس بالباطلِ حتَّىٰ يرضَوا بهذا الباطل ويَقبلُوه.

ثُمَّ قال الشَّيخُ: «وهو لازمٌ لِجماعتِهم لُزومًا لا مَحيدَ عنه، ومَضمونُه أنَّ كتابَ الله لا يُهتدَىٰ به في معرفة الله، وأنَّ الرَّسولَ ﷺ معزولٌ عن التَّعليم والإخبارِ بصفاتِ مَن أَرسلَه، وأنَّ النَّاسَ عند التَّنازُع لا يَردُّون ما تَنازعُوا فيه إلىٰ الله والرَّسُولِ، بل إلىٰ مِثْلِ ما كانُوا عليه في الجاهليَّة، وإلىٰ مثْلِ ما يتحاكمُ إليه مَن لا يُؤمِنُ بالأنبياء؛ كالبراهمةِ والفَلاسفةِ - وهم المشركون - والمجوس وبعض الصَّابئين». **يقولُ المُعلِّقُ**[1]: «البراهمةُ: قبيلةٌ مِن قبائلِ الهندِ، نسبة إلىٰ (براهما) أحد مُلوكهم، ثمَّ أصبحَ هذا الاسم علمًا علىٰ ديانةٍ ومذهبٍ له صفاتُه وخصائصُه، ولهم علاماتٌ يتميَّزون بها عن غيرهم؛ يُنكرون النُّبوات مع إقرارهم بوجود الصَّانع وحدوث العالم، لا يشربون الخمر، ولا الأنبذة» اهـ.

والفلاسفةُ: هم عُلماء اليونانِ في ذلك الزَّمن، أو حكماء اليُونان - كما يقولون -.

***

وإنْ كان هذا الرَّدُّ لا يَزيدُ الأمرَ إلَّا شدَّةً، ولا يَرتفعُ الخلافُ به؛ إذْ لِكلِّ فريقٍ طواغيتُ يُريدون أنْ يَتحاكمُوا إليهم، وقد أُمروا أنْ يَكفرُوا بهم، وما أشبَه حالَ هؤلاءِ المُتكلِّفين بقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ

---

(١) (ص٢٢٦).

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النّساء: ٦٠ - ٦٢].

فإنَّ هؤلاءِ إذا دُعُوا إلىٰ ما أنزلَ اللهُ مِن الكتاب وإلىٰ الرَّسولِ - والدُّعاء إليه بعْد وفاته هو الدُّعاء إلىٰ سُنَّته - أعرضُوا عن ذلك، وهم يقولون: إنَّا قصدْنَا الإحسانَ علمًا وعملًا بهذه الطَّريقِ الَّتي سَلكْناها، والتَّوفيق بين الدَّلائل العقليَّة والنَّقليَّة.

ثمَّ عامَّة هذه الشُّبهات الَّتي يُسمُّونها دلائل إنَّما تقلَّدوا أكثرها عن طواغيتَ من طواغيت المُشركين أو الصَّابئين، أو بعض ورثتهم الَّذين أمروا أن يكفرُوا بهم، مثل فُلان وفُلان، أو عن مَن قال كقولهم لِتشابُه قُلوبِهم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء:٦٥]، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢١٣].

التعليق:

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنْ كان هذا الرَّدُّ لا يزيدُ الأمرَ إلَّا شدَّةً، ولا يرتفعُ الخلافُ بهِ؛ إذْ لكلِّ فريقٍ طواغيتُ يُريدون أن يتحاكمُوا إليهم، وقد أُمروا أنْ يكفروا بهم».

أقولُ: يُبيِّنُ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه بالإحالة إلىٰ هؤلاء فإنَّ الاختلاف يكون أشدّ؛ فكلُّ قومٍ لهم كهنةٌ وأعراف يعودون إليها، فيصبح الاختلافُ فيما بين هذه الفئاتِ أشدّ من الاختلافِ الأوَّل؛ علْمًا بأنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد أخبر أنَّ مِن

النَّاس من يزعمون أنَّهم آمنوا بما أُنزل إلىٰ رسول الله ﷺ ذهبوا يتحاكمون إلىٰ الطَّاغوت، وقد أُمروا أن يكفروا به، فقال معلِّمًا لرسولِه ومعجبًا له: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٢]،

أقولُ: سبحان الله! ما أعظمَ انطباق هذه الآيات علىٰ هؤلاء المُتفلسفةِ؛ أصحابِ الكلام وعشاق المَنطق! وبالأخصِّ قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾؛ ولهذا قال الشَّيخُ: «**فإنَّ هؤلاء إذا دُعُوا إلىٰ ما أنزلَ اللهُ مِن الكتاب وإلىٰ الرَّسولِ... إلىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾** [البقرة:٢١٣]».

وأقولُ: هذه الآياتُ صريحةٌ واضحةٌ في أنَّ الهدايةَ كلَّ الهدايةِ في الرَّدِّ إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سُنَّة رسولِه ﷺ وإلىٰ ما كان عليه السَّلَف الصَّالح ممَّا علموه من كتاب الله، وعملوا به، وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

ولازِمُ هذه المقالةِ: أنْ لا يكونَ الكتابُ هدًىٰ للنَّاس ولا بيانًا، ولا شفاءً لمَا في الصُّدور، ولا نُورًا، ولا مردًّا عند التَّنازُع؛ لأنَّا نعلمُ بالاضطرار أنَّ ما يقولُه هؤلاء المُتكلِّفون أنَّ الحقَّ الَّذي يجبُ اعتقادُه لم يدلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة؛ لا

نصًّا ولا ظاهرًا، وإنَّما غايةُ المُتحذلِق أنْ يستنتجَ هذا مِن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، وبالاضطرار يعلمُ كلُّ عاقلٍ أنَّ مَن دلَّ الخلْقَ علىٰ أنَّ الله ليس علىٰ العرشِ ولا فوقَ السَّموات ونحو ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ لقدْ أَبعدَ النَّجعةَ، وهو إمَّا مُلغزٌ أو مُدلِّس، لكن لم يُخاطبهم بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ.

ولازمُ هذه المقالةِ أنْ يكون ترك النَّاس بلا رسالةٍ خيرًا لهم في أصلِ دينِهم؛ لأنَّ مردَّهم قبْل الرِّسالةِ وبعْدَها واحدٌ، وإنَّما الرِّسالةُ زادتْهم عمًىٰ وضلالًا.

يا سبحان الله! كيف لم يقل الرَّسولُ ﷺ يومًا مِن الدَّهر، ولا أحدٌ مِن سلفِ الأمَّة: هذه الآياتُ والأحاديثُ لا تعتقدُوا ما دلَّت عليه، لكن اعتقدُوا الَّذي تقتضيه مَقاييسُكم، أو اعتقدُوا كذا وكذا؛ فإنَّه الحقُّ، ومَا خالَف ظاهره فلا تعتقدُوا ظاهرَه، وانظُروا فيها؛ فمَا وافقَ قياسَ عُقولِكُم فاعتقدُوه، وما لا فتوقَّفوا فيه، أو انفُوهُ.

التعليق:

أقول: هذا المقطعُ تابعٌ للأوَّل؛ فيه مِن الإلزامات الَّتي تلزمُ علىٰ قولهم: إنَّ ما دلَّت عليه آيات الكتابِ، وما دلَّت عليه سنَّة الرَّسولِ ﷺ؛ كلُّ ذلك تجسيمٌ لا يجوزُ للنَّاسِ أنْ يعتقدوه، وإذا كان ما وصفَ اللهُ به نفسَه، وما وصفه به رسوله ﷺ؛ لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يعتقدَه، ولكن ينبغي أن يعتقدَ علىٰ مقاييس العقول، فإذا كان الأمر كذلك فترْكُ النَّاس بلا رسالةٍ خيرٌ لهم مِن وجودِها؛ فإذا كان وصف الرَّبِّ لا يُؤخذُ مِن الحقِّ الَّذي جاءتْ به الرِّسالة، وهو كتابُ الله المنزلُ، وسنَّة رسوله الَّذي أرسله اللهُ للنَّاس لِيهديَهم إلىٰ الصِّراطِ المُستقيم، إذا كان ذلك

اعتقاده عمًى وضلالة؛ فإنَّ مِن لازمه أنَّ الله لو تركَهم بلا رسالة ووكلَهم إلىٰ عقولهم كما كانت الأمور في الجاهليَّة كان أولىٰ، هذه مِن اللَّوازِم الباطلةِ الَّتي تلزمُ علىٰ مقالاتهم الشَّنيعة، ومزاعمهم الفظيعة، حيثُ زعمُوا أنَّ مَن أَثبتَ الفوقيَّة لله أو قال: إنَّ الله فوق العرش أو فوق السَّماءِ؛ فإنَّه مُجسِّمٌ ضالٌّ، يجبُ أنْ يُزجرَ ويُمنعَ مِن أنْ يقول مثل هذا الكلام.

إذًا ففي ذلك إبطالٌ للرِّسالة، ووصفٌ لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ بأنَّه قد دلَّ النَّاس علىٰ الضَّلال، أو اشتمل علىٰ الضَّلال؛ حين يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ ويصفُ نفسَه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وأنَّه فوق السَّماء، وأنَّ الملائكةَ تصعدُ إليه، وتعرج إليه، وتنزل من عنده بالمهمَّات إلىٰ خلقه، فما أفظعَها مِن مقالةٍ، قلبتِ الحقَّ باطلًا، والباطلَ حقًّا، والصِّدق واليقين ضلالًا، والضَّلال يقينًا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ ألم يقلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنَّه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ألم يقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٤ - ١٧٥]، ألم يقلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشُّورىٰ:٥٢ - ٥٣]، أليس اللهُ يمتنُّ علىٰ عباده في هذه الآيات وغيرها بإنزال الكتابِ، وإرسالِ الرَّسولِ، فهل يُعقَلُ - أيُّها النَّاسُ - أنَّ الله يمتنُّ علىٰ عباده بما يكون فيه ضلالٌ، أو يكون مُشتملًا علىٰ ضلالٍ، لَا والَّذي نفوس العبادِ بيدِه، وأرواحُهم في قبضتِه،

وقلوبُهم بين أصبعَين مِن أصابعه؛ إنَّما قالوه كذبًا ومينًا، وأنَّ الحقَّ فيما أنزل الله مِن القرآنِ، وفيما ثبَت عن رسولِ الله ﷺ، وجزىٰ الله شيخ الإسلام ابن تيمية خيرَ الجزاء علىٰ ما بيَّن ودلَّل من اللَّوازم الشَّنيعة الَّتي تلزمُ علىٰ قولهم هذا.

❁❁❁

ثمَّ الرَّسولُ ﷺ قدْ أخبَر بأنَّ أمَّته ستفترقُ ثلاثًا وسبعين فِرقةً، فقدْ علِمَ ما سيكونُ، ثمَّ قال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللهِ»[1].

وروىٰ عنه ﷺ أنَّه قال في صفة الفِرقة النَّاجية: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[2].

فهلَّا قال: مَن تَمسَّك بظاهرِ القُرآن في باب الاعتقادِ فهو ضالٌّ؟ وإنَّما الهُدىٰ رجوعُكم إلىٰ مَقاييس عُقولكم، وما يُحدثه المُتكلِّمون منكم بعد القرون الثَّلاثة، وإن كان قد نبع[3] أصلُها في أواخر عصر التَّابعين.

التعليق:

أقول: حاشا لله! ومعاذ الله أن يكون ذلك! ولكن الله أمَرَ، ورسوله أمَرَ أيضًا؛ كلٌّ من الله ورسوله قد أمرَا العباد أن يتَّبعُوا ما جاء به الكتاب المنزل، وما أرشدَ إليه الرَّسولُ المُرسلُ؛ يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف:٣]، ويقول اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، مِن حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ».

(٢) سبق تخريجه (ص٥٨٦).

(٣) في «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٠): (نبغ).

ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]، فأخبر أنَّ النَّاس إذا اتبعوا السُّبل الَّتي تُجلبُ بها الشَّياطين، وتُلقيها إليهم؛ وقعوا في الضَّلالة؛ لأنَّهم تركوا ما جاء من عند ربِّهم، وسنَّة نبيِّهم ﷺ؛ فضلُّوا مِن أجلِ ذلك، فهو يقولُ لهؤلاء: هل قال الرَّسولُ: مَن تمسَّك بظاهر القُرآنِ في الاعتقاد ضلَّ؟ لا. هل أمَر بالرَّدِّ إلىٰ العُقولِ؟ لا. ولكنَّه أمَر بالرَّدِّ إلىٰ حُكمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فقال جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّساء: ٨٣]، وإنَّ الرَّدَّ إلىٰ العقول، ومقاييس العقول، وما تُمليه الشَّياطينُ علىٰ أوليائها، وتنفثه في العقول؛ إحالةٌ علىٰ ما يُوقعُ في الضَّلال، ويبثُّ النِّزاع، وكثرة الأقوال؛ إذ إنَّ كلَّ عقلٍ يقول ما نفثه فيه شيطانُه؛ فتأتي وساوس العقولِ وحصائد الألسن بما يوجبُ اشتدادَ الاختلاف؛ فكانت الإحالةُ إلىٰ العقولِ في حقِّ الله مستحيلةً؛ مستحيلٌ أن يكِلَنا اللهُ إلىٰ عُقولِنا، فإذا كانتْ هذه العقولُ الَّتي أملَتْ هذا عقولًا ضالَّةً، تستقي علومها من ضلالِ الخلْقِ مِن اليهود والمشركين وضلَّال الصَّابئين، فذاك مِن بابِ أولىٰ أن يكون ما حصَل منهم مُوغلًا في الضَّلال، وبعيدًا عن الحقِّ، وهو في المقطع الآتي، بيْدَ أنَّ تلك المقالات التي أخذها هؤلاء المعطِّلة أصلُها مُتسلْسِلٌ؛ من اليهود والمشركين وضلَّال الصَّابئين، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ ❁ ❁

ثمَّ أصْلُ هذه المقالةِ - مقالة التَّعطيل للصِّفات - إنَّما هو مأخوذٌ عنْ تلامذةِ اليهود والمُشركين وضلَّال الصَّابئين؛ فَإنَّ أوَّل مَن حُفِظَ عنه أنَّه قالَ هذه المقالةَ في الإسلامِ هو الجعدُ بن درهم، وأخذَها عنه الجهمُ بنُ صفوان، وأظهرَها نُسبَتْ مقالة الجهميَّة إليه، وقد قيل: إنَّ الجعْدَ أخذَ مقالتَه عنْ أبان بن سمعان،

وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوتُ مِن لبيدِ بن الأعصم اليهوديِّ الَّذي سحَر النَّبيَّ ﷺ.

التعليق:

هذه المقالةُ أخذَها الجهمُ بنُ صفوان عن الجعد بن درهم، والجعدُ بن درهم أخذها عن أبان بن سمعان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوتُ عن لبيد بن الأعصم السَّاحر الَّذي سحَر النَّبيَّ ﷺ.

ولا شكَّ أنَّ هذه المقالات قد أُخذت بهذه الطَّريقة وبغيرها مِن كتُب اليُونانِ الَّتي عُرِّبَتْ؛ بأمْرٍ مِن المأمون، فصارَتْ شُؤمًا علىٰ الأُمَّة، ووبالًا عليها.

ونُترجم لِمَا ورَد من أسماء شخصيَّات، وإن كانت لا تستحقُّ التَّرجمةَ:

قال المُحقِّق[1]: «**الجهمُ بن صفوان**: هو أبو محرز الرَّاسبي، مولاهم السَّمرقنديّ، رأس الجهميَّة، وإليه تنسب هذه الفِرقةُ؛ ضالٌّ مبتدعٌ، وقد زرَع شرًّا عظيمًا، رأسٌ في التَّعطيل، يقول بنفي الأسماءِ والصِّفاتِ، ويزعمُ أنَّ القُرآن مخلوقٌ؛ وهو جبري في الأفعالِ»؛ يعني: في أفعال الله يقول بالجبر، وأنَّ العبادَ مجبورون علىٰ ما يعملونه، وهذا كذبٌ ودجلٌ وتضليلٌ، بل كلُّ واحدٍ منَّا يعرفُ أنَّه ليس بمجبور، ويعرف أنَّه يسير إذا شاءَ، ويجلس إذا شاء، ويأكل إذا شاء، وينام إذا شاء، هل أحدٌ منكم أحسَّ أنَّ عليه ضغطًا، وأنَّه مجبورٌ علىٰ أفعاله؟! إذاً هذا كذبٌ وإضلالٌ للعباد، وهو أيضًا يقول بفناء الجنَّة والنَّار؛ قال المُحقّق: «فَضرَب في كلِّ بدعةٍ بسهمٍ؛ قُتل سنةَ ثمانٍ وعشرين ومائة علىٰ يدِ سلم بن أحوز نائب مرو».

---

(١) (ص٢٣٣).

وشيخه الجعد بن درهم، **قال المحقق**[١]: «مِن الموالي، أصلُه مِن خُراسان، مُؤدِّب مروان الحمار؛ مُبتدعٌ ضَالٌّ؛ أوَّل مَن قالَ: إنَّ الله لم يَتَّخذْ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسىٰ تكليمًا، وأنَّ ذلك لا يجوز عليه؛ قُتل سنةَ أربعٍ وعشرين ومائة؛ قتَله خالد القسريُّ في الكوفة يوم الأضحىٰ؛ عندما خطبَ النَّاس، ثمَّ قال: أيُّها النَّاسُ ضحُّوا، تقبَّلَ اللهُ ضحاياكُم؛ فإنِّي مضحٍّ بالجعْدِ بن درهم؛ إنَّه يزعمُ أنَّ الله لم يَتَّخذْ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسىٰ تكليمًا، تعالىٰ اللهُ عمَّا يقول الجعدُ علوًّا كبيرًا، ثُمَّ نزَل، فذبَحَهُ».

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

مِنْ أَجْلِ ذَا ضَحَّىٰ بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... قَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ

إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... أَيْضًا وَلَا مُوسَىٰ الكَلِيمُ الدَّانِي

وأبان بن سمعان: **قال المُعلِّق**: «لم أجدْ فيما وقفْتُ عليه مِن كتُب التَّراجمِ أحدًا بهذا الاسم، وإنَّما الموجودُ ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) في (٩/ ٣٥٠) باسم: بيان بن سمعان التَّميميّ، وأنَّه هو الَّذي أخَذ الجعدُ بدعتَه عنه»؛ قال: «ولعلَّه المرادُ هنا والله أعلم.

بيان بن سمعان النَّهدي التَّميميُّ؛ ظهَر في العراق بعد المائة، وقال بإلهيَّة عليِّ بن أبي طالبٍ، وأنَّ فيه جُزءًا إلهيًّا مُتَّحدًا بناسوته»؛ قبَّح اللهُ هذه المقالة، ومسألة النَّاسوت واللَّاهوت، يقولها كذلك الصُّوفيَّة أصحاب الاتِّحاديَّة، يزعمون أنَّ النَّاسوت يختلط باللَّاهوت؛ يعني: أن جزءًا من الإله يكون بالنَّاس؛ وهذا كلام باطلٌ؛ أَيُعقلُ أنَّ اللَّاهوت خُلق من بطنِ أمٍّ، وخرج مع دم النِّفاس،

(١) (ص٢٣٢ - ٢٣٣).

وتربَّىٰ وتغذَّىٰ بالحليب شيئًا فشيئًا، ثمَّ كبر، ثمَّ تعلَّم؛ هل هذا معقول؟!! اللَّهمَّ الِعَنْ الظَّالمين؛ كتابُ الله هو الشِّفاءُ مِن الضَّلالاتِ، وهؤلاء عليهم لعائنُ الله أرادوا أنْ يُضلُّوا أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ.

ثمَّ طالوت ابنُ أخت لبيد: **قال المحقِّق**[1]: «لم أقف علىٰ ترجمة طالوت هذا حسَب ما أمكنني مِن بحثٍ».

ولبيد بن الأعصم اليهوديّ؛ الَّذي سحر النَّبيَّ ﷺ، **قال المحقِّق**[2]: «لبيد بن الأعصم من بني زُريق، قيل: كان منافقًا حليفًا لليهودِ، وقيل: بل أصلُه يهوديٌّ، وكان ساحرًا حاذقًا؛ لذا قال له اليهود: أنت أسحرُ منَّا، وقد سحرنا محمَّدًا، فسحره منَّا الرِّجال والنِّساءُ فلم نصنع شيئًا، وقد سحَر النَّبيَّ ﷺ وذلك سنة سبع، وعفا عنه النَّبيُّ ﷺ».

ولاشكَّ أنَّ هؤلاء كانُوا حريصِين علىٰ إضلالِ الأمَّة؛ كما كان ابنُ السَّوداءِ حريصًا علىٰ إضلالِ الأمَّة؛ الَّذي جاء مِن صنعاءَ، وكان يهوديًا، فأسلَم خدعةً مِن أجلِ أن يُضلِّلَ النَّاس، وهو الَّذي اخترع الوصاية لعليٍّ، وزعم أنَّ أبا بكرٍ وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة من عليٍّ؛ وهو الذي أشاع عن عثمان أنَّه ترك طريقة الشيخَين، ونشر هذه المقالات في أناسٍ أصغوا إليه، ومن هنا نشأت فرقة الخوارج؛ ومن الأسباب كذلك الكتُب اليونانيَّة المعرَّبة، فإن لها أثرًا كبيرًا في انتشار الفلسفة والمنطق، فحينئذٍ اجتمع من هذا، ومن هذا؛ نسأل الله العفو، والعافية.

❁ ❁ ❁

---

(١) (ص٢٣٤).

(٢) (ص٢٣٥).

وكانَ الجعْدُ هذا فيما قِيلَ مِن أهل حرَّان، وكان فيهم خلْقٌ كثيرٌ مِن الصَّابئيَّة والفلاسفة؛ بقايا أهل دين النَّمرودِ، والكنعانيِّين الَّذين صنَّف بعضُ المُتأخِّرين في سِحرِهم، والنَّمرود وهو ملكُ الصَّابئة الكنعانيِّين المُشركين، كما أنَّ كِسرَىٰ ملكُ الفُرس والمجوس، وفرعون ملك القبط والكفَّار، والنَّجاشيّ ملِكُ الحبشةِ النَّصارىٰ، فهو اسمُ جنسٍ لا اسمُ علمٍ.

التعليق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكانَ الجعدُ هذا فيما قيلَ مِن أهل حرَّان، وكان فيهم خَلقٌ كثيرٌ؛ مِن الصَّابئيَّة والفلاسفة؛ بقايا أهل دين النَّمرودِ**»؛ يعني: النَّمرودُ كان ملكًا في وقت إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الَّذي صارتْ بينه وبين إبراهيم المُناظرة؛ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فدعا اثنين من السِّجن فقتل واحدًا، وترَكَ الآخرَ، وقال: إنَّه أحيا وأماتَ، وكان إبراهيم قادرًا علىٰ مناظرته وإفحامه، ولكنه رأىٰ أنَّ الجهةَ الثَّانيةَ أقربُ؛ فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: إنْ كنتَ ربَّ هذا الكونِ فَأْتِ بالشَّمس من المغرب بدلًا مِن المشرق، فبُهت الَّذي كفر.

النّمرود: هو مَلِكُ الصَّابئة الكنعانيِّين؛ كما أنَّ المَلِك في مصر يقالُ له: فرعون، والملِك في الفُرس يقالُ له: كسرىٰ، والملِك في الرُّوم يقالُ له: قيصرُ، والملِك في الحبشة يُقال له: النَّجاشي، والملك في مصر في عهد النَّبيِّ ﷺ يقال له: المقوقس، والملِك عند أهل اليمن في ذلك الزّمن يقال له: تبّع، وعند العرب شمال الجزيرة يسمّىٰ: الملِك.

كانتْ الصَّابئةُ إلَّا قليلًا منهم إذْ ذاك على الشِّرك وعلماؤهم الفلاسفة، وإن كان الصَّابئُ قد لا يكون مُشركًا، بل مُؤمنًا بالله واليوم الآخر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩]. لكنَّ كثيرًا منهم أو أكثرهم كانوا كفَّارًا أو مشركينَ، كما أنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارىٰ بدَّلُوا وحرَّفُوا وصارُوا كفَّارًا أو مُشركِين، فأولئكَ الصَّابئون الَّذين كانوا إذ ذاك - كانوا كفَّارًا مُشركين، وكانُوا يَعبدُون الكواكب، ويَبنون لها الهياكلَ.

التعليق:

يقول الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - بعد أن ذكَر هذه الأسماءَ، وأنَّ الملِك عند كلِّ قومٍ له اسم -: «كانت الصَّابئة إلَّا قليلًا منهم إذْ ذاكَ على الشِّركِ وعلماؤهم الفلاسفة، وإن كان الصَّابئ قد لا يكون مُشركًا، بل مُؤمنًا بالله واليوم الآخر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩]»، وقال تعالىٰ في سورة (الحجِّ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: ١٧]، وسبَق أنْ نقلْنا كلام المُحقِّق؛ حيثُ قال في (ص٢٠٠): «الصَّابئ لغةً: هو الخارج من دينٍ إلىٰ دين. (لسان العرب) (١/ ١٠٧). وهم الَّذين بُعث فيهم إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانوا يسكنون حرَّان، وكانوا يُعظِّمون الكواكبَ السَّبعةَ، ويقولون: إنَّها مُدبِّرةُ هذا العالَم، وهم قسمان: مُشركون؛ وهم عبدةُ الكواكب، وصابئة حنفاء.

وقد جاء ذِكرُهم في القُرآن مع الأُممِ الَّتي تنقسمُ كلُّ أمَّةٍ منهم إلىٰ مؤمنٍ وكافرٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]» اهـ.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكنَّ كثيرًا منهم أو أكثرهم كانوا كفَّارًا أو مُشركين، كما أنَّ كثيرًا مِن اليهودِ والنَّصارىٰ بدَّلوا وحرَّفوا وصارُوا كُفَّارًا أو مُشركين، فأولئكَ الصَّابئون الَّذين كانوا إذْ ذاكَ - كانوا كفَّارًا مُشركين، وكانُوا يَعبدُون الكواكبَ، ويَبنون لها الهياكلَ».

يقولُ المحقِّق[1]: «جمع (هيكل)؛ وهو البيتُ الضَّخمُ المزخرفُ مِن الدَّاخل، يُخصَّص لعبادةِ الآلهةِ - (المعجم الوسيط) (ص٩٩٠)».

❁❁❁

ومذهب النُّفاةِ مِن هؤلاءِ في الرَّبِّ: أنَّه ليس له إلَّا صفات سلبيَّة، أو إضافيَّة، أو مركَّبة منها، وهم الَّذين بُعث إبراهيم الخليلُ إليهم.

فيكون الجعدُ أخذَها عن الصَّابئة الفلاسفةِ.

---

(١) (ص٢٣٩).

وكذلك أبو نصرٍ الفارابيُّ دخَل حرَّان، وأخَذ عن الفَلاسفةِ الصَّابئين تَمامَ فَلْسفتِه.

التعليق:

قال: «ومذهبُ النُّفاةِ مِن هؤلاءِ في الرَّبِّ: أنَّه ليس له إلَّا صفات سلبيَّة أو إضافيَّة أو مركَّبة منها، وهم الَّذين بُعثَ إبراهيمُ الخليلُ إليهم، فيكون الجعدُ أخذَها عن الصَّابئةِ الفلاسفة، وكذلك أبو نصرٍ الفارابيُّ». يقولُ المُحقِّق[(١)]: «هو محمَّد بن محمَّد بن طرخان بن أوزلغ التركي، أبو نصر الفارابي، الفيلسوف المنطقي، قال عنه الذَّهبيُّ: (له تصانيف مشهورة، مَن ابتغىٰ منها الهدىٰ ضلَّ وحار، منها تخرَّج ابنُ سينا، نسأل الله التَّوفيق). يُسمَّىٰ المُعلِّمَ الثَّاني؛ كما أنَّ أرسطو هو المعلِّمُ الأوَّل؛ وُلدَ حوالَي سنة (٢٥٧هـ)، وتوفِّي سنةَ (٣٣٩هـ)... إلخ». يقول الشَّيخُ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الدَّاليَّة)[(٢)]:

وَلَا ابْـنُ سِـينَا وفارابيـه قُـدْوَتنَا ... وَلَا الَّـذِي لِنُصُوصِ[(٣)] الشَّـرِّ يَسْـتَنِدُ

❁❁❁

وكذلك أبو نصر الفارابيُّ دخَل حرَّان، وأخَذَ عن الفَلاسفةِ الصَّابئين تمامَ فَلْسفتِه. وأخَذها الجهمُ أيضًا - فيما ذكَره الإمامُ أحمدُ وغيرُه - لمَّا ناظَر السُّمَنيَّة بعض فلاسفةِ الهنْدِ - وهُم الَّذين يَجحدُون مِن العُلومِ ما يُسمُّونه الحسيَّات -.

---

(١) (ص٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) انظر: «شرح الجوهرة الفريدة» للعلَّامة زيد المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٥٦، ١٣١ - ١٣٥). ط/ الميراث النَّبويّ.

(٣) وفي نسخة: (لفصوص الشَّرِّ)، ويقصدُ بها كتاب ابن عربيّ (فصوص الحِكَمِ).

فهذه أَسانيدُ جهمٍ ترجعُ إلىٰ اليهود والصَّابئين والمُشركين، والفلاسفة الضَّالِّين؛ إمَّا مِن الصَّابئين، وإمَّا مِن المُشركين.

ثمَّ لَمَّا عُرِّبت الكتُب الرُّوميَّة في حُدودِ المائةِ الثَّانيةِ زادَ البلاءُ، مع ما أَلْقَىٰ الشَّيطانُ في قُلوبِ الضُّلَّال ابتداءً، مِن جنْس ما ألقاه في قُلوب أشباهِهم.

ولمَّا كان في حُدود المائة الثَّانية انتشرَتْ هذه المقالةُ الَّتي كان السَّلفُ يُسمُّونها مقالةَ الجهميَّة بسببِ بِشرِ بن غيَاث المريسي وطبقته، وكلام الأئمَّة مثلِ: مالكٍ وسفيانَ بن عُيينة وابنِ المُباركِ وأبي يوسف والشَّافعيّ وأحمدَ وإسحاقَ والفُضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم في هؤلاءِ كثيرٌ؛ في ذمِّهم وتَضليلِهم.

التعليق:

قوله: «بِشر بن غِياث المرّيسي»؛ قال المُحقِّق[1]: «هو بِشرُ بن غِياث بن أبي كريمة العدويّ، مولاهم البغدادي المريسي، أبو عبد الرَّحمن؛ المُتكلِّم المُبتدع.
قال عنه الذَّهبيُّ: (نظَر في الكلام فغُلب عليه، وانسلَخ مِن الورع والتَّقوىٰ، وجرَّد القولَ بخلق القُرآن، ودعا إليه، حتَّىٰ كان عين الجهميَّة في عصره وعالِمَهم؛ فمقتَه أهلُ العلمِ، وكفَّره عدَّة، ولم يُدرك جهم بن صفوان بل تلقَّف مقالتَه مِن أتباعه). وسمَّاه الذَّهبيُّ: بِشْرَ الشَّرِّ...؛ هلك سنة ثماني عشرة ومائتين» اهـ.

قلتُ: هو الَّذي أثَّر علىٰ المأمون؛ فدعا العُلماءَ إلىٰ القولِ بخلْقِ القُرآن[2].

قال المُحقِّق: «وقد ردَّ عليه الإمامُ الدَّارميُّ في كتابه الموسوم بـ(ردّ الإمامِ الدَّارميِّ عثمان بن سعيد علىٰ بشْر المريسي العنيد) فشفىٰ وكفىٰ، وسيأتي

(١) (ص٢٤٢).

(٢) انظر: «البداية والنِّهاية» لابن كثير (١٤/ ٢١٧و٢٢٧هجر).

وصف هذا الكتاب، وثناء العُلماء عليه». اهـ.

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلام الأئمَّة مثلِ: مالكٍ وسفيانَ بن عُيينة وابنِ المُباركِ وأبي يوسف والشَّافعيّ وأحمدَ وإسحاقَ والفُضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم في هؤلاءِ كثيرٌ؛ في ذمِّهم وتَضليلِهم».

- **مالك بن أنس الأصبحي**[(١)]: أحد الأئمَّة الأربعةِ، وُلدَ في ثلاثٍ وتسعينَ، وتُوفِّيَ سنة تسعٍ وسبعين ومائة.

- **سفيان بن عيينة: قال المُحقِّق**[(٢)]: «هو سُفيانُ بن عُيينة بن أبي عمران ميمون؛ مولىٰ محمَّد بن مُزاحم، أبو محمَّد الهلاليّ، الإمامُ الحافظُ، طلَب العِلمَ صغيرًا؛ كان صاحبَ سنة واتِّباع، وُلدَ بالكوفة سنة سبع ومائة، وتوفِّيَ سنةَ ثمانٍ وتسعين ومائةٍ، وله إحدىٰ وتسعون سنةً».

- **ابنُ المُبارك: قال المُحقِّق**[(٣)]: «هو عبدُ الله بن المُبارك بن واضح، أبو عبد الرَّحمن الحنظلي؛ مولاهم التّركيّ، الإمام الحافظُ؛ جمَع بين العلم والجهاد والتِّجارة، كان يُنفقُ بسخاءٍ، له تصانيفُ كثيرةٌ، وقد أكثر التّرحال في طلب العلم والجهاد.

وُلدَ سنة (١١٨هـ)، وتُوفِّي (١٨١هـ)، ويقال: إنَّ الرَّشيد لمَّا بلغَه موتُ عبدِ الله بن المُبارك قال: مات سيِّدُ العُلماء. مِن مؤلَّفاته (الزُّهد) و(الجهاد)».

- **أبو يوسف: قال المُحقِّق**[(٤)]: «هو يعقوبُ بنُ إبراهيم بنِ حبيبٍ الكوفيّ؛ أبو يوسفَ صاحب أبي حنيفةَ، رئيس القُضاة، وهو أوَّل مَن دُعيَ بذلك، كان

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النُّبلاء» (٨/ ٤٨ - ١٣٥).

(٢) (ص٢٤٣).

(٣) (ص٢٤٣).

(٤) (ص٢٤٣).

جوادًا سخِيًّا، رُوي عنه أنَّه قال عند وفاته: (كلُّ ما أفتيتُ به فقَدْ رجعْتُ عنه إلَّا ما وافَق الكتابَ والسُّنَّة). وهو أوَّلُ مَن نشَر علْمَ أبي حنيفة، وكان الرَّشيدُ يُبالِغُ في إجلاله. مِن مُصنَّفاته: (أدب القاضي علىٰ مذهب أبي حنيفة)، (أمالي الإمام)، توفِّي سنة (١٨٢هـ)».

- **الشَّافعيّ**[(١)]: هو الإمام محمَّد بن إدريس بن شافع بن السَّائب المُطَّلبي، ولد سنة مائة وخمسين، وتوفِّي سنة مائتين وأربع.

- **أحمد بن حنبل**[(٢)]: هو إمامُ أهل السُّنَّة بلا مُنازعةٍ، كان شديدًا علىٰ أهل البدَع، ضُرب علىٰ القول بخلْقِ القُرآن، فلم يَقُلْ به، وُلد سنةَ أربعٍ وستِّين ومائةٍ، وتُوفِّي سنةَ مائتين وإحدىٰ وأربعين.

- **إسحاق**: **قال المُحقِّق**[(٣)]: «هو الإمامُ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، المعروف بابن راهويه. وراهويه هو لقبُ أبيه، ولقِّب بذلك لأنَّه وُلِدَ في طريق مكَّة، والطَّريق بالفارسية (راه)، و (ويه) معناه: وجد، فكأنَّه وُجد بالطَّريق.

كان أحدَ الأئمَّة الحُفَّاظ؛ جمَع بين الحديث والفقه والورع، قال الإمام أحمد عنه: (إسحاقُ عندنا إمامٌ مِن أئمَّة المسلمين، وما عبر الجسر أفقَه من إسحاق)، وعنه أيضًا: (لا أعرفُ لإسحاقَ في الدُّنيا نظيرًا).

كان صاحبَ سنَّةٍ واتِّباعٍ، وُلد سنة إحدىٰ وستِّين ومائة، وتُوفِّي سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين».

---

(١) **انظر ترجمته في**: «سير أعلام النُّبلاء» (١٠/ ٥ - ٩٩).

(٢) **انظر ترجمته في**: «السِّير» (١١/ ١٧٧ - ٣٥٨).

(٣) (ص٢٤٣ - ٢٤٤).

- الفضيل بن عياض: **قال المُحقِّق**[1]: «هو الفضيلُ بن عياض بن مسعود بن بشر، أبو عليٍّ، الإمامُ الزَّاهدُ، المُجاور ببيت الله الحرام، كان أوَّلَ حياته شاطرًا يقطعُ الطَّريق، ثمَّ كتَب اللهُ له الاستقامةَ والهدايةَ، إليه المُنتهىٰ في الزُّهد، وقصَّتُه مع الخليفة هارون الرَّشيد مشهورةٌ؛ تُوفِّي بمكَّة سنة (١٧٨هـ)».

- بشر الحافي: **قال المُحقِّق**[2]: «هو: بِشرُ بنُ الحارث بن عبد الرَّحمن بن عطاء؛ أبو نصر المروزيّ، المشهور بالحافي، الإمام المُحدِّث الزَّاهد، فاق أهلَ عصرِه في الورع والزُّهد، كان في أوَّلِ عُمره يطلبُ العلمَ ويمشي حافيًا، فاشتهر بذلك.

أكثر العُلماء مِن الثَّناءِ عليه، وكان زهدُه معتدلًا؛ سلِمَ مِن خُرافات الصُّوفيَّة وأباطيلهم. قيل للإمام أحمد: مات بشرٌ، قال: (ماتَ واللهِ وما له نظيرٌ إلَّا عامر بن عبد قيس...). وُلدَ سنة (١٥٢هـ)، وتُوفِّيَ سنة (٢٢٧هـ)» اهـ.

❁❁❁

وهذه التَّأويلاتُ الموجودةُ اليوم بأيدي النَّاس؛ مثل أكثر التَّأويلات الَّتي ذكَرها أبو بكر بن فُورك في كتاب (التَّأويلات)، وذكَرها أبو عبدِ الله محمَّد بن عمر الرَّازيّ في كتابِه الَّذي أسماه: (تأسيس التَّقديس).

التعليق:

يقول المحقِّق[3]: «أبو بكر بن فورك هو: محمَّد بن الحسن بن فورك، أبو بكر الأنصاريّ الأصبهانيّ، أشعريّ مُتكلِّمٌ؛ درَس مذهبَ الأشعريِّ علىٰ أبي

(١) (ص٢٤٤).

(٢) (ص٢٤٤).

(٣) (ص٢٤٥).

الحسنِ الباهليّ تلميذ أبي الحسن الأشعريّ، كان شديدَ الرَّدِّ علىٰ الكرَّاميَّة. يُروىٰ أنَّه كان يعتقدُ أنَّ رسالة نبيِّنا ﷺ انقطعَتْ بموته؛ ولذا قتَله محمود بن سبكتكين بالسُّمّ سنة (٤٠٦ هـ)...».

وقال: «كتاب (التَّأويلات): هذا الكتابُ له عدَّة أسماء، أشار إلىٰ ذلك سزكين في (تاريخ التُّراث) (٤/ ٢٥ - ٥٣) وذكر أنَّها تصلُ إلىٰ أربعة عشر اسمًا، وقد طُبع باسم (مشكل الحديث وبيانه)...». **قال**: «وهو في كتابِه هذا يُوردُ الأحاديثَ الصَّحيحةَ والضَّعيفة والمَوضوعة، ثُمَّ يَرومُ تأويلَها علىٰ منهج الأشاعرةِ في الجُملة».

قال شيخُ الإسلامِ: «**وذكَرها أبو عبدِ الله محمَّد بن عمر الرَّازي**[1] **في كتابه الَّذي أَسمَاه: (تأسيس التَّقديس)**». **قال المحقِّق**[2]: «أو (أساس التَّقديس)، هذا الكتابُ سبَق وأنْ طُبع مع كتاب: (الدُّرَّة الفاخرة في تحقيق مذهب الصُّوفيَّة والمتكلِّمين) لعبد الرَّحمن الجامي... وقد ألَّفه الرَّازي للسُّلطان أبي بكر بن أيُّوب، وأشار إلىٰ ذلك في أوَّل الكتاب... وقسَّمه أربعة أقسامٍ تحتَ كلِّ قِسْمٍ عدَّة فصولٍ: **القسمُ الأوَّل**: في الدَّلائل علىٰ أنَّه تعالىٰ مُنزَّهٌ عن الجسميَّة». **أقول**: علينا أن نتذكَّر الإلزامات الَّتي سبقَتْ وأنْ ألزم بها ابنُ تيمية هؤلاء المُتأوِّلين في

---

(١) قال المُحقِّق (ص٢٤٥ - ٢٤٦) - باختصار -: «محمَّد بن عمر بن الحسن، فخر الدِّين، درَس الفلسفة والفقه وعلم الكلام، قال الذَّهبيُّ: (قد بدتْ منه في تواليفه بلايا وعظائمُ، وسحرٌ وانحرافات عن السُّنَّة، والله يعفو عنه؛ فإنَّه تُوفي علىٰ طريقةٍ حميدةٍ، واللهُ يتولَّىٰ السَّرائر). أمَّا مذهبُه فهو شافعيُّ الفروع، أشعريُّ الأصول وقيل: إنَّه رجَع إلىٰ مذهب السَّلف في آخرِ حياتِه، فاللهُ أعلمُ. وُلد سنةَ (٥٤٤)، وتُوفي (٦٠٦)، من مُصنَّفاته: (التَّفسير الكبير)، (الأربعين في أصول الدِّين)، (عصمة الأنبياء)، (اعتقادات فرق المُسلمين والمُشركين)».

(٢) (ص٢٤٦ - ٢٤٧).

هذه الدَّلائل الَّتي يُسمُّونها دلائل.

ثمَّ قالَ: «**القسم الثَّاني**: في تأويل المتشابهات من الأخبار والآيات»، **أقول:** ليس في أخبار الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ عن صفات اللهِ شيءٌ مُتشابهٌ؛ بل إنَّها كلَّها واضحةٌ بأن تُحمل كلُّ صفةٍ وردتْ لله عَزَّوَجَلَّ في كلامه - القرآن -، أو في كلام رسوله ﷺ - السُّنَّة - ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّة رحمهم الله يعتقدون معناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ويُفوِّضون كيفيَّتها؛ فيقولون: نُثبتُ لله يدًا تليقُ بجلالِه، وبصرًا يليقُ بجلالِه، وسمْعًا يليقُ بجلالِه، وهكذا....

قال: «**القسم الثَّالث**: في تقريرِ مذهبِ السَّلَف»، لعلَّه يُريد بالسَّلفِ سلَفه.

قال: «**القسم الرَّابع**: في تفاريع مذهب السَّلف»، تقدَّم لكم أنَّ هذا الرَّجلَ؛ وهو الرَّازي قال في آخر حياتِه الأبيات الَّتي ذكَرها شيخ الإسلام منسوبةً إليه[1].

ثمَّ قال المعلِّق: «وقد ردَّ عليه شيخُ الإسلام في كتابه الكبير (نقض التأسيس) طبع منه جزءٌ يسيرٌ بعنايةِ الشَّيخ عبد الرَّحمن بن قاسم. وقد حُقِّق كاملًا في قسم العقيدة بكلِّيَّة أصول الدِّين بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة في عدَّة رسائل علميَّة».

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٧٢). قال الرَّازي في هذه الأبياتِ:

نِهَايَــــةُ إِقْــــدَامِ العُقُـــولِ عِقَـــالُ ... وَأَكْثَـــرُ سَـــعْيِ العَـــالَمِينَ ضَـــلَالُ
وَأَرْوَاحُنَـــا فِـــي وَحْشَـــةٍ مِـــنْ جُسُـــومِنَا ... وَغَايَـــةُ دُنْيَانَـــا أَذًى وَوَبَـــالُ
وَلَـــمْ نَسْـــتَفِدْ مِـــنْ بَحْثِنَـــا طُـــولَ عُمْرِنَـــا ... سِـــوَىٰ أَنْ جَمَعْنَـــا فِيـــهِ قِيـــلَ وَقَـــالُوا

ويوجدُ كثيرٌ منها في كلامِ خلْقٍ غيرِ هؤلاءِ؛ مثلِ أبي عليٍّ الجُبَّائيِّ، وعبد الجبَّار بن أحمد الهمذاني، وأبي الحُسين البصريِّ، وأبي الوفاءِ بن عَقيل، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم، هي بعينها التَّأويلاتُ الَّتي ذكَرها بشرٌ المرِّيسي الَّتي ذكرها في كتابِه، وإنْ كان قد يوجدُ في كلامِ بعضِ هؤلاءِ ردُّ التَّأويل وإبطالُه أيضًا، ولهم كلامٌ حسنٌ في أشياءَ.

فإنَّما بيَّنت أنَّ عينَ تأويلاتِهم هي عين تأويلات المرِّيسي، ويدلُّ علىٰ ذلك كتاب (الرَّدِّ) الَّذي صنَّفه عثمانُ بن سعيد الدَّارميّ، أحدُ الأئمَّة المشاهير في زمان البخاريِّ، صنَّف كتابًا سمَّاه: (ردّ عثمانَ بن سعيد علىٰ الكاذبِ العنيدِ، فيما افترىٰ علىٰ الله في التَّوحيد)، حكَىٰ فيه هذه التَّأويلاتِ بأعيانِها عن بشر المرِّيسي بكلامٍ يقتضي أنَّ المرِّيسيَّ أقعد بها، وأعلم بالمنقول والمعقول مِن هؤلاء المُتأخِّرين الَّذين اتَّصلتْ إليهم مِن جهتِه، ثُمَّ ردَّ ذلك عُثمان بن سعيد بكلامٍ إذا طالَعهُ العاقلُ الذَّكيُّ عَلِمَ حقيقةَ ما كان عليه السَّلفُ، وتبيَّنَ له ظُهورُ الحُجَّة لِطريقِهم، وضعفُ حجَّة مَن خالَفهم.

ثمَّ إذا رأىٰ الأئمَّة - أئمَّة الهُدىٰ - قد أجمعُوا علىٰ ذمِّ المرِّيسيَّة، وأكثرُهم كفَّروهم أو ضلَّلوهم، وعلِمَ أنَّ هذا القولَ السَّاريَ في هؤلاءِ المتأخِّرين هو مذهب المرِّيسيَّة تبيَّن الهُدىٰ لِمَن يُريدُ اللهُ هدايتَه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

التعليق:

قال شيخُ الإسلام: «ويُوجدُ كثيرٌ منها»؛ أي: مِن هذه التَّأويلاتِ الَّتي قرَّرها أبو بكر بن فُورك، قال: «في كلامِ خلْقٍ غيرِ هؤلاءِ؛ مثلِ أبي عليٍّ الجُبَّائيِّ، وعبدِ الجبَّار بن أحمد الهمذاني، وأبي الحُسين البصري، وأبي الوفاء بن عَقيل، وأبي حامد الغزاليّ، وغيرهم، هي بعينها التَّأويلات الَّتي ذكرَها بشرٌ المرِّيسي الَّتي

ذكرها في كتابه».

قال المحقِّق[١]: «لعلَّه كتاب (التَّوحيد)، أو كتاب (كُفر المُشبِّهة)، وهذان الكتابان مِن تأليفه ذكرَهما الذَّهبيُّ، انظر: (السِّيَر) (١٠/ ٢٠١)».

قوله: «مثل أبي علي الجُبَّائيّ»؛ قال المُحقِّق[٢]: «أبو عليٍّ الجُبَّائيّ: هو محمَّد بنُ عبد الوهَّاب بن سلام البصري؛ أبو عليّ الجُبَّائيّ، أحد أئمَّة المُعتزلةِ؛ إمامٌ في الكلامِ»، أقول: وَصْفُه بأنَّه: إمامٌ، لا ينبغي؛ لا ينبغي أن نصِفَ مَن غطَس في قذارة الكلام، وترَكَ كتاب الله وسنَّةَ رسوله ﷺ؛ لا يجوز أن نقول: إنَّه إمامٌ.

قال المحقِّقُ: «وقد أخَذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوبَ بنِ عبد الله البصريّ رئيسِ المُعتزلةِ بالبصرةِ في عصْرِه، وعنه أَخَذ أبو الحسنِ الأشعريّ علم الكلام، ومُناظرته معه مشهورةٌ في الإخوة الثَّلاثة. توفِّي سنةَ ثلاثٍ وثلاثمائة؛ عاش ثمانية وستِّين سنةً...».

قال شيخ الإسلام: «وعبد الجبَّار الهمذانيّ»، قال المحقق[٣]: «هو عبدُ الجبَّار بنُ أحمدَ بنِ خليلٍ، أبو الحسن الهمذاني، المشهور بالقاضي عبد الجبَّار، من أئمَّة المُعتزلة، شافعيٌّ في الفُروع، ولِيَ القضاءَ بالرّيّ، تُوفِّي سنة خمس عشرة وأربع ومائة...».

قال: «وأبي الحسين البصري»، قال المحققِّ[٤]: «هو: محمَّد بن عليّ بن الطَّيِّب البصريّ، أبو الحسين، قال عنه ابنُ كثيرٍ: (شيخُ المُعتزلةِ، والمنتصر لهم،

---

(١) (ص٢٤٩).

(٢) (ص٢٤٧).

(٣) (ص٢٤٧).

(٤) (ص٢٤٧).

والمُحامي عن ذِممِهم بالتَّصانيف الكثيرة).

كان فصيحًا بليغًا، أحد أئمَّة علم الكلام. توفِّي ببغدادَ سنةَ ستٍّ وثلاثين وأربعمائة...». اهـ. **وأقولُ**: هل تنفع أحدًا بلاغةُ لسانِه، وذلاقةُ حُججِه؛ إذا كانت في الباطل؟ **الجوابُ**: لا؛ بل هي وبالٌ عليه.

- **قال المؤلّف**: «**وأبي الوفاء بن عقيل**»، **قال المحقِّق**[1]: «هو عليُّ بن عَقيل بنِ محمَّد بن عقيل البغدادي؛ أبو الوفاء الحنبلي المُتكلِّم، أخذ علم الكلام عن أبي عليّ بن الوليد، وأبي القاسم بن التَّبان؛ ولذا مال إلىٰ بعض كلام المُعتزلةِ، وعنده تأويلٌ لبعْضِ الصِّفات. قال عنه شيخ الإسلام: (وكان الأشعري أقرب إلىٰ مذهب أحمدَ وأهلِ السُّنَّة مِن كثيرٍ من المُتأخِّرين المُنتسبين إلىٰ أحمد؛ الَّذين مالوا إلىٰ بعضِ كلامِ المُعتزلةِ؛ كابن عقيل...)... وُلد سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة، وتوفِّي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة...».

- **قال**: «**وأبي حامد الغزالي**»، **قال المحقِّق**[2]: «هو محمَّد بنُ محمَّد بنِ محمَّد بنِ أحمدَ الطُّوسيّ الشَّافعيّ الغزاليّ، أبو حامد الفقيه، تتلمذ علىٰ يدِ أبي المعالي الجويني بنيسابور - رئيس المدرسة النّظاميَّة -، وبعد وفاة الجويني رحل إلىٰ بغداد، ودرس فيها الفقه والأصول وعلم الكلام، ثمَّ توجَّه إلىٰ بيت المقدس وعاش عزلة تقرُبُ مِن عشرِ سِنين، وفي نهاية عُمره عادَ إلىٰ بلدِه طوس، وبنىٰ بجوارِ بيتِه مدرسةً، وأكبَّ علىٰ التَّدريس بها حتَّىٰ توفِّي سنة (٥٠٥هـ)، وقد كثُر الكلام حول أبي حامد بين مادحٍ وذامٍّ له،... وقال القاضي

---

(١) (ص٢٤٨).

(٢) (ص٢٤٨ - ٢٤٩).

عياض: (والشَّيخُ أبو حامد ذو الأنباء الشَّنيعة، والتَّصانيف العظيمة، غلا علىٰ طريقة التَّصوُّف، وتَجرَّد لِنصْر مذهبهم، وصار داعيةً في ذلك، وألَّف فيه تواليفه المشهورة؛ أخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمَّة، والله أعلم بسرِّه، ونفذ أمرُ السُّلطان عندنا بالمغرب، وفتوىٰ الفقهاء بإحراقها، والبُعد عنها، فامتثل ذلك)» اهـ.

إنَّ هؤلاء المُتأخِّرين؛ وهم الخمسةُ المذكورون وغيرهم؛ قد كرَّروا تأويلاتِ المُتقدِّمين من أهل التَّجهُّم والاعتزالِ، قال شيخُ الإسلامِ: «**هي بعينها التَّأويلاتُ الَّتي ذكَرها بشرٌ المرِّيسي الَّتي ذكَرها في كتابِه**» اهـ.

قولُه: «**وإنْ كانَ قد يُوجدُ في كلامٍ بعضِ هؤلاءِ ردّ التَّأويل وإبطاله أيضًا**»، **أقولُ**: أذكرُ مثالًا علىٰ ذلك: الشَّوكانيّ؛ وهو قد سلَك مسلكَ الأشاعرةِ في التَّأويل، إلَّا أنَّه حين جاءَ إلىٰ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة (ن): ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ومعلومٌ أنَّ الأشاعرةَ يُؤوِّلون هذه الآية، فيقولون: الكشفُ عن السَّاق معناه كشفٌ عن شدَّة؛ لكنَّ الشَّوكانيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين وصل إلىٰ هذا الموضع مِن تفسيرِه أوردَ الحديث الوارد في ذلك، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكشف عن ساقِه ويخرُّون له سُجَّدًا، فمَن كان في الدُّنيا يسجدُ طواعيةً لله فإنَّه يستطيعُ السُّجودَ، ومن كان يسجدُ رياءً وسمعةً فإنَّ اللهَ يجعل ظهره طبقًا واحدًا فلا يستطيع السُّجودَ.

وقال الشَّوكانيُّ: «إذا جاءَ نهر اللهِ بطَل نهر معقل»[1]، وقال: «قدْ أغنانَا اللهُ سبحانه في تفسيرِ هذه الآيةِ بما صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ كما عرفْتَ، وذلكَ لا

(١) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٥٢٨ الكلم الطَّيِّب).

يستلزمُ تَجسيمًا ولا تَشبيهًا، فليس كمِثْلِه شيءٌ»[١]؛ وجرىٰ علىٰ مذهب أهل السُّنَّة؛ فهؤلاء كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ورحمنا ورحمهم؛ يقعُ منهم في بعض الأحيان رجوعٌ إلىٰ الحقِّ وردٌّ للتَّأويل.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهم كلامٌ حسنٌ في أشياءَ، فإنَّما بيَّنت أنَّ عينَ تأويلاتِهم هي عينُ تأويلاتِ المرِّيسي»، يعني: أنَّهم اقتدَوا به، وتابعوه في تلك التَّأويلات.

وقال الإمام ابنُ تيميةَ: «ويدلُّ علىٰ ذلك كتاب (الرَّدِّ) الَّذي صنَّفه عثمانُ بنُ سعيد الدَّارميّ، أحدُ الأئمَّة المشاهير في زمان البُخاريِّ».

وأقول: قال المحقِّقُ[٢]: «عُثمان بن سعيد الدَّارميُّ: هو عُثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارميّ السِّجستانيّ؛ أبو سعيدٍ، الإمامُ العلَّامةُ، كان قذًىٰ في عُيون المُبتدعةِ، حسَن المُناظرةِ، حاضر الحجَّةِ، أكثر التَّرحال في طلب الحديث، وصنَّفَ (المُسند)، توفِّي سنةَ ثمانين ومائتين. له ردٌّ علىٰ المرِّيسي والجهميَّة، وهو الذي يُشيرُ إليه الشَّيخُ... إلخ».

❁❁❁

والفتوىٰ لا تَحتملُ البسْطَ في هذا البابِ، وإنَّما نُشيرُ إشارةً إلىٰ مباديءِ الأُمورِ، والعاقلُ يَسيرُ فينظُر.

التعليق:

قال المحقِّق في الهامش[٣]: «في (ع): (يشير)». **قلتُ**: والظاهر أنَّه: (يسبر).

---

(١) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٥٣١ - ٥٣٢).

(٢) (ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(٣) (ص ٢٥٢).

من السَّبر والتَّقسيم؛ والسَّبر هو البحث عن الأشياء، وجمعُها وتقسيمها، فلعلَّ المراد: (يسبر فينظر).

❁❁❁

وكلامُ السَّلفِ في هذا الباب موجودٌ في كتُبٍ كثيرةٍ، لا يُمكنُ أنْ نذكُرَ هنا إلَّا قليلًا منه؛ مثل كتاب (السُّنن) للَّالكائي، و(الإبانة) لابن بطَّة، و(السُّنَّة) لأبي ذرٍّ الهرويِّ، و(الأصول) لأبي عُمر الطَّلمنكيّ، وكلام أبي عُمر ابن عبد البرِّ، و(الأسماء والصِّفاتِ) للبيهقيِّ، وقبل ذلك (السُّنَّة) للطَّبرانيِّ، ولأبي الشَّيخ الأصبهانيّ، ولأبي عبد الله بن مندَهْ، ولأبي أحمد العسَّال الأصبهانيّ، وقبْلَ ذلك (السُّنَّة) للخَلَّالِ، و(التَّوحيد) لابن خُزيمةَ، وكلام أبي العبَّاس بن سُريج، والرَّدّ علىٰ الجهميَّة لِجماعةٍ، وقبل ذلك (السُّنَّة) لعبد الله بن أحمد، و(السُّنَّة) لأبي بكر بن الأثرم، و(السُّنَّة) لحنبل، وللمرُّوذي، ولأبي داود السِّجستانيِّ، ولابن أبي شيبة، و(السُّنَّة) لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب (الرَّد علىٰ الجهميَّة) لعبد اللهِ بن محمَّد الجُعفي شيخ البخاريّ، وكتاب (خلق أفعال العباد) لأبي عبد الله البُخاريّ، وكتاب (الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة) لعُثمان بن سعيد الدَّارميّ، وكلام عبد العزيز المكِّي صاحب (الحيدة) في الرَّدّ علىٰ الجهميَّة، وكلام نُعيم بن حمَّاد الخُزاعيّ، وكلام الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيىٰ بن يحيىٰ النّيسابوريّ وأمثالهم، وقبل هؤلاء عبد الله بنُ المُبارك وأمثاله، وأشياءُ كثيرةٌ.

وعندنا مِن الدَّلائلِ السَّمعيَّة والعقليَّة ما لا يتَّسع هذا الموضعُ لِذكرِه، وأنا أعلمُ أنَّ المُتكلِّمين لهم شُبهاتٌ موجودةٌ، لكن لا يُمكن ذِكرُها في الفتوىٰ، فمَن نظَر فيها وأراد إبانة ما ذكروه من الشُّبَهِ فإنَّه يسيرٌ.

وإذا كان أصل هذه المقالة - مقالةِ التَّعطيل والتَّأويل - مأخوذًا عن تلامذة المُشركين والصَّابئين واليهود، فكيفَ تطيبُ نفسُ مُؤمنٍ، بل نفسُ عاقلٍ أنْ يأخُذَ سبُلَ هؤلاءِ المغضوب عليهم والضَّالين، ويدَعُ سبيل الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم؛ مِن النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين.

التعليق:

قال المؤلِّف: «وكلامُ السَّلفِ في هذا البابِ موجودٌ في كتُبٍ كثيرةٍ، لا يُمكنُ أنْ نذكُرَه هنا إلَّا قليلًا منه»، الظَّاهر أنَّ الصَّواب: «إلَّا قليلًا منها»؛ إنْ كان المُرادُ: (الكتب).

- **قال ابن تيمية: «مثل كتاب (السُّنن) للَّالكائيِّ»، قال المُحقِّق**[1]: «هو هبةُ الله بنُ الحسَن بنِ منصور الرَّازيّ الطَّبريّ اللَّالكائيّ، أبو القاسم، كان شافعيَّ المذهبِ، ومِن أشهر شيوخه الإسفرايينيُّ؛ إمامُ مذهب الشَّافعيِّ في عصرِه، ومِن أبرز تلامذته الخطيبُ البغداديُّ. توفي سنة (٤١٨هـ)، له مؤلَّفات عدَّةٌ منها: (أسماء رجال الصَّحيحين)؛ (كرامات أولياء الله)، شرح كتاب عمر بن الخطَّاب إلىٰ نصارىٰ الشَّام... إلخ».

وأقول: هذا الكتاب - أي السُّنن - محقَّقٌ في ثمانية أجزاء؛ اسمه: (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصَّحابة والتَّابعين ومن بعدهم)؛ ذكَر فيه مُؤلِّفه مسائل العقيدةِ وفقَ مَنهجِ أهلِ السُّنَّة والجماعة، علىٰ طريقة أهل الحديث؛ برواية هذه المسائل بالإسنادِ.

- **قال الإمام ابن تيمية: «و(الإبانة) لابن بطَّة»، قال المحقِّق**[2]: «هو الإمامُ

---

(١) (ص٢٥٢).

(٢) (ص٢٥٣).

أبو عبد الله عبيدُ الله بن محمَّد بن محمَّد بن بطَّة، أكثرَ التَّرحالَ في طلبِ العلم، وكان يؤثر العُزلةَ، ذو عبادةٍ وزهدٍ... وُلد سنةَ (٣٠٤هـ)، وتوفِّي سنةَ (٣٧٨ هـ)، وله مُصنَّفاتٌ عدَّةٌ؛ منها: رسالة في إبطال الحيل، (الشَّرحُ والإبانة علىٰ أصول السُّنَّة والدِّيانة)، واشتهر هذا الكتاب باسم: (الإبانة الصُّغرىٰ)... إلخ».

- **قال شيخُ الإسلام**: «و(السُّنَّة) لأبي ذرٍّ الهرويّ»، **قال المحقِّقُ**[1]: «هو أبو ذرٍّ عبدُ الله بن أحمد بن محمَّد الأنصاريّ الهرويّ المالكيّ في الفُروع، الأشعريّ في الأصول، أخَذ علْمَ الكلام عن القاضي أبي بكر بن الطَّيِّب، كان علىٰ قدْرٍ كبيرٍ من الزُّهد والورع والسَّخاءِ، قال عنه الذَّهبيُّ: (هو الَّذي كان ببغداد يُناظِرُ عنِ السُّنَّة وطريقة الحديث بالجدَل والبُرهان، وبالحضرة رؤوس المعتزلة والرَّافضة والقدريَّة...)، وهو أحدُ رواةِ الصَّحيح، وُلد سنة (٣٥٥هـ)، وتُوفِّي سنة (٤٣٥هـ)، له مصنَّفاتٌ منها: (كتاب السُّنَّة)؛ وهو الذي ذكرَه الشَّيخُ، ولعلَّه لم يزلْ مَفقودًا... إلخ».

- **قال ابن تيمية**: «و(الأصول) لأبي عمر الطَّلمنكيّ»، **قال المحقِّق**[2]: «هو أبو عمر أحمد بن محمَّد بن عبد الله المعافريّ الأندلسيّ الطَّلمنكيّ، نسبةً إلىٰ مدينة (طلمنك)، مِن أئمَّة المالكيَّة؛ كان إمامًا مُتقنًا استفادتْ الأندلسُ مِن عِلمِه كثيرًا، قال عنه ابن بشكوال: (كان سيفًا مجرَّدًا علىٰ أهل الأهواء والبِدَع؛ قامعًا لهم، غيورًا علىٰ الشَّريعةِ، شديدًا في ذات الله...)، توفِّي سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة، عاش قريبًا مِن تسعين سنةً، ومِن مُصنَّفاته: كتاب (الأصول) الَّذي

---

(١) (ص٢٥٣ - ٢٥٤).

(٢) (ص٢٥٤).

أشار إليه الشَّيخ، أو باسم (الوصول إلىٰ معرفة الأصول)... إلخ».

- **قال: «وكلام أبي عمر ابن عبد البرِّ»**، قال المحقِّقُ(١): «هو الإمامُ أبو عمر يوسفُ بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البرِّ النَّمريّ الأندلسيّ القرطبيّ المالكيّ، حافظ المغرب، كان إمامًا عالمًا صاحبَ سُنةٍ واتِّباعٍ؛ قال عنه الذَّهبيُّ: (كان في أصول الدِّيانة علىٰ مذهبِ السَّلَف، لم يدخُل في علْمِ الكلامِ). عاش ابنُ عبد البرِّ في الأندلس إلىٰ أنْ توفِّي سنة ثلاث وستِّين وأربعمائة، وله خمس وتسعون سنةً.

وقد خلَّف تُراثًا ضَخمًا يُنبئُ عن سعةِ علْمِه، وقوَّة حِفظِه، ومِن ذلكَ: (التَّمهيد)، (الاستذكار)، (الاستيعاب)، (جامع بيان العلم وفضله)...إلخ».

- **قال: «و(الأسماء والصِّفات) للبيهقيِّ»، قال المُحقِّق**(٢): «هو الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ، الفقيه الشَّافعيّ؛ مِن كبارِ أصحاب الحاكم، و(بيهق): قرًىٰ مجتمعةٌ بنواحي نيسابور. وُلد سنة (٣٨٤هـ)، وتوفِّي سنة (٤٥٨هـ). صنَّف مُصنَّفات جمَّة؛ منها: (كتاب الأسماء والصِّفات) الَّذي ذكره الشَّيخ، وقد طُبع في مجلَّدين بتحقيق عماد الدِّين أحمد حيدر، ويأتي الكلام علىٰ هذا الكتابِ، وله أيضًا: (السُّنن الكبرىٰ)، و(الصُّغرىٰ)، و(شُعَب الإيمان)... إلخ».

- **قال الإمام ابن تيمية: «وقبل ذلك (السُّنَّة) للطَّبراني»، قال المُحقِّق**(٣): «هو الإمام أبو القاسم سُليمان بن أحمد بن أيُّوب اللَّخميّ الطَّبرانيّ، نسبةً إلىٰ (طبريَّة)، رحل ثلاثًا وثلاثين سنةً في طلَب الحديث، لقيَ الكثير، وروىٰ عنه

---

(١) (ص٢٥٤).

(٢) (ص٢٥٥).

(٣) (ص٢٥٥).

الكثير، قال عنه الذَّهبيُّ: (الإمامُ الحافظُ الثِّقةُ، الرَّحَّال الجوَّال، مُحدِّث الإسلام، عالِم المُعمِّرين...). وُلد سنة ستِّين ومائتين، وتوفي سنة ستِّين وثلاثمائة. وله مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ؛ أشهرُها: المعاجم الثلاثة؛ الكبيرُ والأوسط والصَّغير، وله كتاب السُّنَّة؛ وهو الذي أشار إليه الشَّيخ؛ وذكَره ابنُ حجرٍ بسندِه في كتابه (تجريد أسانيد الكتب المشهورة) - مخطوطٌ - لوحة ١٧ ... إلخ».

- قال شيخُ الإسلام: «ولأبي الشَّيخ الأصبهانيّ»، قال المحقِّق[1]: «هو أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر الأصبهانيّ، صاحب سنَّة واتِّباعٍ، وقد رحَل إلىٰ بلاد عدَّةٍ لِسماعِ الحديث، وبرع في علم التَّفسير، قال عنه الذَّهبيُّ: (كان أبو الشَّيخ مِن العُلماء العاملين، صاحب سنَّة واتِّباع...). وُلد سنةَ أربع وسبعين ومائتين، وتُوفِّي سنة تسعٍ وستِّين وثلاثمائة، مِن مؤلَّفاته: كتاب (السُّنَّة)، وهو الَّذي أشارَ إليه الشَّيخُ، وكتاب (العظمة)، والسُّنن... إلخ».

- قال شيخ الإسلام: «ولأبي عبد الله بن منده»، قال المحقِّق[2]: «هو الإمام أبو عبد الله محمَّد بن إسحاق بن محمَّد بن يحيىٰ بن منده، العبديّ الأصبهانيّ، الحافظ المحدِّث، رحَّالة زمانه، قال عنه الذَّهبيُّ: (ولم أعلَمْ أحدًا كان أوسع رحلةً منه، ولا أكثرَ حديثًا منه، مع الحفظ والثِّقة، فبلَغنا أنَّ عدَّة شُيوخه ألف وسبعمائة شيخ)، وقد دامتْ رحلتُه بضعًا وثلاثين سنةً، سخَّرها في طلَبِ العلمِ وروايةِ الحديثِ. وُلد سنة (٣١٠هـ)، وتوفِّي سنةَ (٣٩٥هـ). ومِن مؤلَّفاته: كتاب (الإيمان) و(التَّوحيد) و(الصِّفات)، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة)، وكتاب

---

(١) (ص٢٥٥ - ٢٥٦).

(٢) (ص٢٥٦).



(السُّنَّة) الَّذي أشار إليه الشَّيخُ... إلخ».

- **قال شيخُ الإسلام: «ولأبي أحمد العسَّال الأصبهانيّ»، قال المُحقِّق**[١]:

«هو أبو أحمد محمَّد بن أحمد الأصبهانيّ القاضي، المعروف بـ(العسَّال)، أحد أئمَّة الحديث، حافظٌ مُتقنٌ، قال عنه ابنُ منده: (طفتُ الدُّنيا مرَّتَين؛ فمَا رأيتُ مثل العسَّال)، توفِّي سنةَ (٣٤٩هـ). له مصنَّفاتٌ عدَّة منها: (السُّنَّة) الَّذي أشار إليه الشَّيخ، و(تفسير القرآن)، و(التاريخ)، و(الرُّؤية)، و(العظمة)... إلخ».

- **قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقبل ذلك (السُّنَّة) للخلَّال»، قال المحقِّق**[٢]:

«هو الإمام أبو بكر أحمدُ بن محمَّد بن هارون بن يزيد الخلَّال، شيخ الحنابلة وعالمهم، والخلَّال نسبةً إلىٰ بيع الخلِّ، أخذ الفقه عن كثيرٍ من أصحاب أحمدَ، وتتلمذ علىٰ يدِ أبي بكر المرُّوذي، رحَل وسافَر إلىٰ كثيرٍ مِن البلادِ مِن أجْلِ جمْعِ مسائلِ الإمام أحمدَ، قال عنه ابن ناصر الدِّين: (هو رحَّال واسعُ العلم شديد الاعتناءِ بالآثار، وُلد سنة أربعٍ وثلاثين ومائتين، وتوفِّيَ سنةَ إحدىٰ عشرة وثلاثمائة، وله سبعٌ وسبعون سنةً. له عدَّةُ مؤلَّفات؛ منها: (الجامع لعلوم أحمد)، و(العلل)، و(الطَّبقات)... إلخ».

- **قال شيخ الإسلام: «و(التَّوحيد) لابن خُزيمةَ»**؛ كتاب (التَّوحيد) ردَّ فيه مؤلِّفه علىٰ أصحاب المذاهب المُبتدعة؛ من جهميَّة واعتزاليَّة وغيرها، **قال المحقِّق**[٣]:

«ابن خزيمة: هو الإمام الحافظُ الحجَّة محمَّد ابن إسحاق أبو بكر السّلميّ

---

(١) (ص٢٥٦).

(٢) (ص٢٥٧).

(٣) (ص٢٠٨).

النَّيسابوريّ الشَّافعيّ، كان مِن أئمَّة أهل السُّنَّة، وكتابُه (التَّوحيد) شاهدٌ علىٰ ذلك؛ قال عنه ابن سُريج: (كان يستخرجُ النُّكَت من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ بالمِنقاشِ). وُلد سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائتين، وتوفِّي ثاني ذي القعدة سنة إحدىٰ عشرة وثلاثمائة، وله تسعٌ وثمانون سنةً...».

- **قال الإمامُ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلام أبي العبَّاس بن سُريج»، قال المحقِّق**[1]: «هو أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن سُريج البغداديّ الشَّافعيّ، قام بنُصرة مذهب الشَّافعيِّ، وردَّ علىٰ المُخالفين، توفِّي سنة ستٍّ وثلاثمائة... إلخ».

- **قال شيخ الإسلام: «و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لجماعةٍ»، قال المحقِّق**[2]: «ومِن ذلك (الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) للإمام أحمد، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لابن أبي حاتم، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) للبُخاريّ، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لابن منده، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) للدَّارميّ، و(الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لابن قُتيبةَ، وغيرهم.

- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقبل ذلك (السُّنَّة) لعبد الله بن أحمد»، قال المحقِّق**[3]: «هو أبو عبد الرَّحمن، عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، نشَأَ في بيتِ والدِه الإمامِ أحمدَ، وتربَّىٰ علىٰ يدَيهِ، وسمِعَ منه كلَّ حدِيثِه، ولذا صار من أكثر النَّاس روايةً عن أبيه، وقال عنه الخطيب البغدادي: (كان ثقةً ثبْتًا فهِمًا). وُلد سنةَ ثلاث عشرةَ ومائتَينِ، وتُوفِّي سنةَ تسعين ومائتين، مِن مُصنَّفاتِه: (مسائل الإمام أحمد) بروايةِ عبد اللهِ، (العِلَل)، (فضائل عثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)... أمَّا كتابُه

---

(١) (ص٢٥٧).

(٢) (ص٢٥٧).

(٣) (ص٢٥٨).

(السُّنَّة) الَّذي ذكَره الشَّيخُ فقد طُبع في جزأَينِ... ويعدُّ هذا الكتاب مِن مصادر العقيدة السَّلفيَّة، شأنُه شأن (أصول اعتقاد أهل السُّنَّة) للَّالكائيّ، و(الإبانة) لابن بطَّة الَّتي تَروي مسائل العقيدةِ بالإسنادِ؛ كما تميَّزَ كتابُ (السُّنَّة) لعبد الله بن الإمام أحمد بالتَّوسُّع في موضوعِ الرَّدِّ على الجهميَّة» اهـ.

- **قال شيخ الإسلام**: «**و(السُّنَّة) لأبي بكر بن الأثرم**»، **قال المُحقِّق**[1]: «هو أحمدُ بنُ محمَّد بن هانئ الأثرم الطَّائيّ، تلميذ الإمام أحمد، وأحد رواة المذهب الحنبلي. تُوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وسبعين ومائتين. له كتاب (السُّنن)، ومصنَّفٌ في علل الحديث، وكتاب السُّنَّة؛ وهو الَّذي أشار إليه الشَّيخُ... إلخ».

- **قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ**: «**و(السُّنَّة) لحنبل**»، **قال المحقِّق**[2]: «هو أبو عليّ، حنبل بنُ إسحاق بن حنبل الشَّيبانيّ، ابنُ عمِّ الإمام أحمد وتلميذُه، سمِع (المسند) مِن الإمام أحمد كاملًا، وله مسائلُ كثيرةٌ عنه، توفِّي سنةَ ثلاث وسبعين ومائتين. له مصنَّفاتٌ منها: (الفتنُ)، (المحنة)، و(التَّاريخ)، وكتاب (السُّنَّة)؛ الَّذي ذكره الشَّيخ... إلخ».

- **قال شيخ الإسلام**: «**وللمرُّوذي**»، **قال المحقِّقُ**[3]: «هو أبو بكر أحمدُ بنُ محمَّد بن الحجَّاج المرُّوذيّ، صاحَب الإمامَ أحمد، وحدَّثَ عنه، وروى عنه مسائل كثيرة، والمرُّوذي نسبةً إلى (مرو الرّوذ)، قال عنه الذَّهبيُّ: (كان إمامًا في السُّنَّة شديدَ الاتِّباعِ، له جلالةٌ عجيبةٌ في بغدادَ). توفِّي سنةَ خمسٍ وسبعين

(١) (ص٢٥٨).

(٢) (ص٢٥٨ - ٢٥٩).

(٣) (ص٢٥٩).

ومائتين... إلخ».

- قال الإمامُ ابن تيمية: «ولأبي داود السِّجستانيّ»، قال المُحقِّق[1]: «هو سُليمان بن الأشعث بن شدَّاد، أبو داود السِّجستانيُّ، الإمام المُحدِّث، صاحب كتاب السُّنن، تقدّمت ترجمته.

أمَّا كتابه (السُّنَّة) الَّذي أشار إليه الشَّيخُ، فمَن ترجم لأبي داود لم يذكر في مُصنَّفاته هذا الكتاب، ولعلَّ المراد بذلكَ هو كتاب (السُّنَّة) الَّذي ضمَّنه آخر كتابه السُّنن، وقد اشتمل هذا الكتاب علىٰ جلِّ مَسائلِ العقيدةِ؛ انظر: ج٥ من السُّنن، مِن أوَّل الكتاب إلىٰ (ص١٢٩)» اهـ.

- قال ابن تيمية: «ولابن أبي شيبة»، قال المحقِّق[2]: «هو أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن أبي شيبة العبسيّ، مولاهم الكوفيّ، صاحب (المصنّف) من الأئمَّة الكبار، وهو مِن أقران أحمد، وقد نعته الذَّهبيّ بأنَّه: (الإمامُ العلَم، سيِّد الحفَّاظ، وصاحب الكتُب الكبَار)، وله مِن الكتُب الكبار سوىٰ (المصنَّف): (المسند)، و(التَّفسير). توفِّي سنةَ خمسٍ وثلاثين ومائتين... إلخ».

- قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و(السُّنَّة) لأبي بكر بن أبي عاصم»، قال المُحقِّق[3]: «هو أبو بكر، أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشَّيبانيّ البصريّ، كان إمامًا فقيهًا ورِعًا صالحًا، تولَّىٰ القضاء بأصبهان ثلاث عشرة سنة، قال عنه أبو الشَّيخ: (كان مِن الصِّيانة والعفَّة بمحلٍّ عجيبٍ)، من مُصنَّفاته: (المسند الكبير)، (الآحاد

(١) (ص٢٥٩).

(٢) (ص٢٥٩).

(٣) (ص٢٦٠).

والمثاني)، (المختصر في المسند)... وُلد سنةَ ستٍّ ومائتين، وتُوفي سنةَ سبع وثمانين ومائتين... إلخ».

- قال شيخ الإسلام: «**وكتاب (الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لعبد الله بن محمَّد الجُعفي شيخ البُخاريّ**»، قال المُحقّق[1]: «أبو جعفر، مولاهم البخاريّ، شيخ الإمام البخاريّ، كان صاحبَ سنَّةٍ، رحَل في الآفاقِ لجمعِ الحديثِ، قال عنه الحاكم: (هو إمامُ الحديث في عصرِه بما وراء النَّهر بلا مُدافعةٍ، وهو أستاذُ البخاريّ)، توفِّي سنة تسعة وعشرين ومائتين، ولم أقفْ علىٰ مَن ذكَر كتابه هذا: (الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) فيمَن ترجم له، وقد أشار إليه الشَّيخ أيضًا في (الفتاوىٰ الكبرىٰ) (٥/ ٦٥٨)... إلخ».

- قال شيخ الإسلام: «**وكتاب (خلق أفعال العباد) لأبي عبد الله البخاري**»، وأقولُ: محمَّد بن إسماعيل البخاري[2]؛ وهو صاحب الصَّحيح، وُلد سنةَ أربع وتسعين ومائةٍ، وتُوفِّي سنةَ مائتين وست وخمسين.

- قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكتاب (الرَّدّ علىٰ الجهميَّة) لِعثمان بن سعيد الدَّارميّ**»، قال المُحقِّق (ص٢٦١): «عُثمان بن سعيد الدَّارميّ سبقَتْ ترجمتُه».

- قال شيخُ الإسلام: «**وكلامُ عبد العزيز المكِّيِّ صاحب (الحيدةِ) في الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة**»، قال المُحقِّق[3]: «عبد العزيز المكِّيّ: هو عبد العزيز بن يحيىٰ بن عبد العزيز الكِنانيّ المكّيّ الشَّافعيّ، قليل الحديث؛ كان يلقَّب بـ(الغُول) لِدمامة

---

(١) (ص٢٦٠).

(٢) انظر ترجمته في: «سير أعلام النُّبلاء» (١٢/ ٣٩١ - ٤٧١).

(٣) (ص٢٦١).

خِلقتِه، جرتْ بينه وبين بشر المرِّيسيّ مُناظرات في القول بخلق القرآن. توفِّي سنةَ أربعين ومائتين...».

ثُمَّ قال: «هذا الكتاب طُبع عدَّة طبعاتٍ، نسَخُه الخطِّيَّة كثيرة جدًّا، أشار إليها سزكين (تاريخ التراث ٤/٦٦). أمَّا نسبة الكتاب إلىٰ المؤلِّف - عبد العزيز المكّي - فليس موضع اتِّفاق، فالذَّهبيّ يُشكِّك في نسبة الكتاب إليه، ويقولُ: (لم يصحَّ إسناد (الحيدة) إليه، فكأنَّه وُضع عليه، والله أعلم)، ويوافقه علىٰ ذلك السُّبكيُّ... إلخ».

- **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «**وكلام نُعيم بن حمَّاد الخُزاعيّ**»، **قال المُحقِّق**[(١)]: «هو نُعيم بن حمَّاد بن معاوية، أبو عبد الله الخزاعي المروزي، يُنسبُ إليه أنَّه قال: (أنا كنتُ جهميًّا، فلذلك عرفتُ كلامَهم، فلمَّا طلبتُ الحديثَ عرفتُ أنَّ أَمْرَهم يرجعُ إلىٰ التَّعطيل)، وقد نعته الإمام أحمد بأنه كان شديدًا علىٰ الجهميَّة، وهو ممَّن امتُحن في القولِ بخلْقِ القُرآن، وقد تُوفِّي مَسجونًا سنةَ تسع وعشرين ومائتين. وقد أوصىٰ أنْ يُدفنَ في قُيودِه، وقال: إنِّي مخاصم... إلخ».

- **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «**وكلام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ويحيىٰ بن يحيىٰ النِّيسابوري وأمثالهم**»، **قال المحقِّق**[(٢)]: «يحيىٰ بن يحيىٰ النّيسابوري، أبو زكريا التَّميمي، كان حافظًا مجوّدًا، يُثني عليه الإمامُ أحمدُ كثيرًا، وكان يستعظمُ كلام الجهميَّة، وحتَّىٰ حكاية كلامهم إنكارًا لذلك، قال عنه الإمام أحمد: (ما رأىٰ النَّاسُ مثلَه). وُلد سنة اثنتين وأربعين ومائة، وتُوفِّي سنةَ ستّ وعشرين

---

(١) (ص٢٦٢).

(٢) (ص٢٦٢ - ٢٦٣).

ومائتين... إلخ» اهـ.

- قال شيخ الإسلام: «وقبل هؤلاء عبدُ الله بن المُباركِ وأمثالُه»، قال المُحقِّق[(١)]: «تَقدَّمتْ ترجمتُه (ص٢٤٣)».

❁ ❁ ❁

تتمَّة رسالة (الفتوى الحمويَّة الكُبرى)[(٢)]

فصلٌ

ثمَّ القولُ الشَّاملُ في جميع هذا البابِ أنْ يُوصفَ اللهُ بما وصفَ به نفسَه، أو بما وصفَه رسولُه ﷺ، وبما وصفَه به السَّابقون الأوَّلون، لا يُتجاوزُ القُرآن والحديث.

قال الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه: «لا يُوصفَ اللهُ إلَّا بما وصف به نفسَه، أو بمَا وصفَه به رسولُه ﷺ، لا يتجاوزُ القُرآن والحديث»[(٣)].

ومذهبُ السَّلف أنَّهم يَصفون اللهَ بما وصَف به نفسَه، وبما وصفه به رسولُه ﷺ، مِن غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومِن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ونعلمُ أنَّ ما وصف اللهُ به مِن ذلكَ فهو حقٌّ، ليس فيه لغزٌ ولا أحاجي، بل معناه يُعرَف مِن حيثُ يُعرفُ مقصودُ المُتكلِّم بكلامِه، لا سيَّما إذا كان المُتكلِّم أعلمَ الخلْقِ بما يقولُ، وأفصحَ الخلْقِ في بيان العلم، وأنصحَ الخلْقِ في البيان

---

(١) (ص٢٦٣). وانظر: (ص٦٤٢) من هذا الكتاب.

(٢) أضفْنَا بقيَّة متن رسالةِ: «الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ»، وإنْ لم يَتناولها الشَّيخُ أحمدُ النَّجميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بالتَّعليق؛ لتَتمَّ الفائدةُ بذِكرِها كاملةً.

(٣) أخرجه بمعناه ابن قدامة في «ذمِّ التأويل» (٢٢رقم٣٣ البدر)، وأخرجه بمعناه كذلك ابنُ بطَّة في «الإبانة الكُبرىٰ - الرَّد علىٰ الجهميَّة» (٣/ ٣٢٦برقم٢٥٢).

والتَّعريف والدّلالة والإرشادِ.

وهو سُبحانه مع ذلك ليس كمثلِه شيءٌ؛ لا في نفسِه المُقدَّسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعالِه، فكما يتيقَّن أنَّ الله سبحانه له ذات حقيقةً، وله أفعال حقيقيَّة، فكذلك له صفات حقيقيَّة، وهو ليس كمثلِه شيءٌ؛ لا في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعاله، وكلُّ ما أوجب نقصًا أو حُدوثًا فإنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عنه حقيقةً؛ فإنَّه سبحانه مُستحقٌّ للكمالِ الَّذي لا غايةَ فوقَه، ويمتنعُ عليه الحُدوث لِامتناعِ العدَم عليه، واستلزام الحدوث سابقه العدم، ولافْتِقار المُحدَث إلىٰ مُحدِثٍ، ولِوجوبِ وُجودِه بنفسِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومذهبُ السَّلفِ بين التَّعطيل وبين التَّمثيل؛ فلا يُمثِّلون صفات الله بصفات خلْقِه، كما لا يُمثِّلون ذاته بذات خلْقِه، ولا يَنفُون عنه ما وصف به نفسَه، أو وصفَه به رسولُه ﷺ، فيُعطِّلون أسماءه الحُسنىٰ وصفاته العُلىٰ، ويُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعِه، ويُلحدون في أسماءِ الله وآياتِه.

وكلُّ واحدٍ مِن فريقَي التَّعطيل والتَّمثيل فهو جامعٌ بين التَّعطيل والتَّمثيل.

أمَّا المعطِّلون فإنَّهم لم يفهموا مِن أسماءِ الله وصفاته إلَّا ما هو اللَّائق بالمخلوق، ثُمَّ شرعُوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعُوا بين التَّمثيل والتَّعطيل؛ مثلَّوا أوَّلًا، وعطَّلُوا آخرًا، وهذا تشبيهٌ وتمثيلٌ منهم للمفهوم مِن أسمائِه وصفاتِه بالمفهوم مِن أسماءِ خلْقِه وصفاتهم، وتعطيل لِمَا يستحقُّه هو سبحانه مِن الأسماء والصِّفاتِ اللَّائقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإنَّه إذا قال القائلُ: لو كان اللهُ فوق العرش لَلَزِمَ إمَّا أن يكون أكبر مِن العرش، أو أصغر، أو مساويًا، وكلُّ ذلك مُحالٌ، ونحو ذلك من الكلام؛ فإنَّه لم

يفهم من كون اللهِ علىٰ العرش إلَّا ما يثبتُ لأيِّ جسْمٍ كـانَ، علىٰ أيِّ جسْـمٍ كـان، وهذا اللَّازم تابعٌ لهذا المفهوم، أمَّا استواء يليق بجلال الله ويختصُّ به؛ فلا يلزمُه شيءٌ مِن اللَّوازم الباطلة الَّتي يجبُ نفيُها.

وصار هذا مثلُ قولِ المُمثِّل: إذا كان للعالم صانعٌ؛ فإمَّا أنْ يكون جوهرًا أو عرَضًا، وكلاهُما مُحالٌ: إذْ لا يُعقلُ مُوجودٌ إلَّا هذان، أو قوله: إذا كان مُستويًا علىٰ العرش فهو مُماثلٌ لاستواءِ الإنسانِ علىٰ السَّرير أو الفلك؛ إذْ لا يُعلمُ الاستواءُ إلَّا هكذا، فإنَّ كلَيهما مثَّلَ وكلَيهِما عطَّل حقيقة ما وصف اللهُ به نفسَه، وامتاز الأوَّلُ بتعطيلِ كلِّ مُسمًّىٰ للاستواء الحقيقيِّ، وامتاز الثَّاني بإثبات استواءٍ هو مِن خصائصِ المخلوقين.

والقولُ الفاصلُ: هو ما عليه الأمَّة الوسطُ؛ مِن أنَّ اللهَ مستوٍ علىٰ عرشِه استواءً يليقُ بجلالِه ويختصُّ به، كما أنَّه موصوفٌ بأنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ ونحوُ ذلك، ولا يجوزُ أن يثبتَ للعلم والقُدرة خصائص الأعراض الَّتي كعلم المخلوقين وقُدرتهم، فكذلك هو سُبحانه فوق العرش، ولا يثبتُ لِفوقيَّته خصائص فوقيَّة المخلوق علىٰ المخلوق وملزوماتها.

واعلم أنْ ليس في العقل الصَّريح ولا في النَّقل الصَّحيح ما يُوجبُ مُخالفةَ الطَّريقة السَّلفيَّة أصلًا، لكن هذا الموضع لا يتَّسعُ لِلجواب عن الشُّبهات الواردة علىٰ الحقِّ، فمَن كان في قلبِه شُبهةٌ وأحبَّ حلَّها؛ فذلك سهلٌ يسيرٌ.

ثمَّ المُخالِفون للكتابِ والسُّنَّةِ وسلَفِ الأمَّة - مِن المُتأوِّلين لِهذا الباب - في أمْرٍ مَريجٍ؛ فإنَّ مَن يُنكرُ الرُّؤيةَ يَزعمُ أنَّ العقلَ يُحيلُها، وأنَّه مُضطرٌّ فيها إلىٰ التَّأويل، ومَن يحيلُ أنَّ لله عِلْمًا وقُدرةً، وأنْ يكون كلامُه غيرَ مخلوقٍ ونحو

ذلك؛ يقولُ: إنَّ العقلَ أحالَ ذلك فاضطرَّ إلىٰ التَّأويل، بل مَن يُنكرُ حقيقةَ حشْرِ الأجساد، والأكل والشُّرب الحقيقيّ في الجنَّة؛ يزعمُ أنَّ العقلَ أحالَ ذلك، وأنَّه مُضطرٌّ إلىٰ التَّأويل، ومَن زعَم أنَّ اللهَ ليس فوق العرش؛ يزعمُ أنَّ العقلَ أحال ذلكَ، وأنَّه مضطرٌّ إلىٰ التَّأويل.

ويَكفيكَ دليلًا علىٰ فسادِ قولِ هؤلاءِ أنْ ليس لواحدٍ منهم قاعدةٌ مُستمرَّةٌ فيما يُحيلُه العقلُ، بل منهم من يزعُم أنَّ العقلَ جوَّز أو أوجبَ ما يدَّعي الآخر أنَّ العقلَ أحالَه.

فيا ليتَ شِعْرِي! بأيِّ عقلٍ يُوزنُ الكتابُ والسُّنَّة، فرضيَ اللهُ عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: «أَوَ كلَّما جاءَنا رجلٌ أجدلُ مِن رجلٍ تَركْنَا ما جاء به جبريلُ إلىٰ محمَّدٍ ﷺ لِجدَلِ هؤلاءِ»[1].

وكلٌّ مِن هؤلاءِ مخصومٌ بما خُصم به الآخر، وهو مِن وُجوهٍ:

أحدها: بيان أنَّ العقلَ لا يُحيلُ ذلك.

الثَّاني: أنَّ النُّصوصَ الواردةَ لا تحتملُ التَّأويل.

الثَّالث: أنَّ عامَّة هذه الأمورِ قد عُلِمَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ جاء بها بالاضطرارِ؛ كما عُلِمَ أنَّه جاء بالصَّلوات الخمس، وصوم شهْر رمضان؛ فالتَّأويل الَّذي يُحيلُها عن هذا بمنزلةِ تأويلاتِ القرامطةِ[2]..............................

(١) أخرجه المروزيُّ في «تعظيم قدْر الصَّلاة» (٢/ ٦٧٠الفريوائي)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٥٨٢الرَّاية)، واللَّالكائيُّ في «أصول الاعتقاد» (٢٩٣ و٢٩٤طيبة)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٤)، والبيهقيُّ في «الشُّعب» (٨١٣١)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في «مُختصر العلوِّ» (ص١٤٠).

(٢) قال المُحقِّق (ص٢٧٣): «القرامطةُ: نسبة إلىٰ حمدان قرمط، زعيم هذه الفِرقةِ، وقد خرجُوا علىٰ المُسلمين سنة (٢٨١هـ) في خلافة المُعتضد، وحكمُوا البحرَين، وعاثُوا في الأرض فسادًا، وقطعُوا الطَّريقَ =

والباطنيَّة[(١)] في الحجِّ والصَّوم والصَّلاة وسائر ما جاءتْ به النُّبوَّات.

الرَّابع: أن يُبيِّنَ أنَّ العقلَ الصَّريحَ يُوافقُ ما جاءت به النُّصوصُ، وإنْ كان في النُّصوص مِن التَّفصيل ما يعجزُ العقلُ عن دركِ تفصيلِهِ، وإنَّما عقلُه مُجملًا إلىٰ غيرِ ذلكَ مِن الوُجوهِ، علىٰ أنَّ الأساطينَ مِن هؤلاءِ والفحول معترفون بأنَّ العقلَ

=

علىٰ الحُجَّاج، وسرقُوا ونهبُوا وأسالُوا الدِّماء، واستحلُّوا البيتَ الحرام، واقتلعُوا الحجر الأسود مِن البيت، وذهبُوا به إلىٰ البحرين (والبحرين تطلقُ قديمًا علىٰ الأحساء وما جاورها).

وهذه الفِرقةُ إحدىٰ فرق الباطنيَّة الَّتي جحدتْ الشَّرائعَ، واستباحت المحارم، وأنكرتْ الأمور المعلومة مِن الدِّين بالضَّرورة، وتأوَّلوا الشَّريعةَ تأويلاتٍ لا يُقرِّها دينٌ، ولا يقبلها عقلٌ».

(١) قال المُحقّق (ص٢٧٣ - ٢٧٤): «**الباطنيَّة**: سمُّوا بذلك لأنَّهم ادَّعَوا أنَّ لنُصوصِ الشَّريعةِ ظاهرًا وباطنًا، وزعمُوا أنَّ العامَّة هم المُرادون بظواهر النُّصوص، أمَّا مَن ارتقىٰ إلىٰ علْمِ الباطن فقد انحطَّتْ عنه التَّكاليف، وأطلقوا عليها: الأغلال، وقالوا هم المرادون مِن قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وغرضهم مِن ذلك إبطال الشَّرائعِ، ونفي أنْ يكون هناك جزاءٌ وجنَّةٌ ونارٌ، بل إنكار الخالق بالكلِّيَّة.

وقد ذكر شيخ الإسلام في «نقض التَّأسيس» (١/ ٢٥٩ - ٢٦٠) أنَّ اسم الباطنيَّة في كلام النَّاس يُقال علىٰ صنفَين:

أحدهما: مَن يقولُ للكتاب والسُّنَّة باطنٌ يُخالفُ ظاهرها، فهؤلاء هم المشهورون عند الناس باسم الباطنيَّة. وأشار إلىٰ أنَّ هؤلاء قسمان: قسم يرون في الأعمال الظَّاهرة نحو: الصَّلاة والصيام والحجِّ.. إلخ، فيرون أنَّ الخطاب المبيِّن لوُجوبِ هذه الواجبات وتحريم المحرَّمات ليس هو علىٰ ظاهره المعروف عند الجمهور، ثمَّ قال: فهؤلاء زنادقةٌ منافقون باتِّفاق سلف أئمَّة الإسلام، ولا يَخفىٰ نِفاقُهم علىٰ مَن له بالإسلام أدنىٰ معرفةٍ. وذكَر أنَّ مِن هؤلاءِ زنادقة الصُّوفيَّة مِن الاتِّحاديَّة الحلوليَّة. وهذا القسمُ الذي ذكره الشَّيخ هم المعنيُّون هنا.

أمَّا القسمُ الثَّاني: فهم الَّذين يقولون بالباطن المُخالف للظَّاهر في العلميَّات، وأمَّا العمليَّات فيُقرُّونها علىٰ ظاهرها، وذكَر أنَّ هذا قولُ عُقلاء الفلاسفة المُنتسبين للإسلام.

وذكر العُلماء أنَّهم أشرُّ الطَّوائف علىٰ المسلمين، بل هم شرٌّ مِن الدَّجَّال، وأوَّل مَن دعا إلىٰ هذا المذهب: عبد الله بن ميمون القداح مولىٰ جعفر الصَّادق زمن المأمون».

لا سبيلَ له إلىٰ اليقين في عامَّة المَطالب الإلهيَّة، وإذا كان هكذا فالواجبُ تلقِّي علْم ذلك من النُّبوَّات علىٰ ما هو عليه.

ومِن المَعلُوم لِلمؤمنين أنَّ اللهَ بعَث مُحمَّدًا ﷺ بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ؛ لِيظهِره علىٰ الدِّينِ كلِّه، وكفىٰ بالله شهيدًا، وأنَّه بيَّن للنَّاس ما أخبرَهم به مِن أُمورِ الإيمانِ بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله واليوم الآخر يتضمَّن الإيمان بالمبدإ والمعاد، وهو الإيمان بالخلْق والبعثِ؛ كما جمَع بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الرُّوم:٢٧]، وقد بيَّن اللهُ تعالىٰ علىٰ لسانِ رسولِه ﷺ مِن أمْرِ الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدىٰ اللهُ به عبادَه، وكشَف به مُرادَه.

ومعلومٌ للمُؤمنين أنَّ رسولَ الله ﷺ أعلمُ بذلك مِن غيرِه، وأنصحُ للأمَّة من غيرِه، وأفصحُ مِن غيرِه عبارةً وبيانًا، بل هو أعلمُ الخلْق بذلك، وأنصحُ الخلْقِ للأُمَّة وأَفصحُهم، وقد اجتمعَ في حقِّه ﷺ كمالُ العِلْم والقُدرةِ والإرادةِ.

ومعلومٌ أنَّ المُتكلِّمَ والفاعلَ إذا كمل عِلمُه وقُدرتُه وإرادتُه؛ كمل كلامُه وفعلُه، وإنَّما يدخلُ النَّقصُ إمَّا مِن نقْصِ علْمِه، وإمَّا مِن عجزِه عن بيانِ عِلْمِه، وإمَّا لِعدَم إرادته البيان.

والرَّسولُ ﷺ هو الغاية في كمَال العلْم، والغاية في كمالِ إرادةِ البلاغ المُبينِ، والغاية في القُدرةِ علىٰ البلاغ المُبينِ، ومع وجودِ القُدرة التَّامَّة والإرادة الجازمةِ؛ يجبُ وجود المُرادِ، فعلِم قطعًا أنَّ ما بيَّنه مِن أمْرِ الإيمان بالله واليوم الآخر

حصَل به مُرادُه مِن البيان، وما أراده مِن البيان هو مُطابقٌ لِعلْمِه، وعِلْمُه بذلك هو أكملُ العُلوم، فكلُّ مَن ظنَّ أنَّ غيرَ الرَّسولِ ﷺ أعلمُ بهذه منه، أو أكمل بيانًا منه، أو أحرص علىٰ هديِ الخلْقِ منه؛ فهو مِن المُلحدين لا مِن المُؤمنين، والصَّحابةُ والتَّابعون لهم بإحسان ومَن سلَك سبيل السَّلف هم في هذا الباب علىٰ سبيلِ الاستقامة، وأمَّا المنحرفون عن طريقهم فهم علىٰ ثلاث طوائفَ: أهل التَّخييل، وأهل التَّأويل، وأهل التَّجهيل:

١ - فأهلُ التَّخييل: هم المُتفلسفةُ ومَن سلَك سبيلَهم مِن مُتكلِّم ومُتصوِّفٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّ ما ذكَره الرَّسولُ ﷺ مِن أمْرِ الإيمان بالله واليوم الآخر إنَّما هو تخييلٌ للحقائق لِينتفعَ به الجمهور؛ لا أنَّه بيَّن به الحقَّ، ولا هدىٰ به الخلْق، ولا أوضح الحقائق.

ثمَّ همْ علىٰ قسمَين: منهم مَن يقولُ: إنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يعلم الحقائقَ علىٰ ما هي عليه، ويقولونُ: إنَّ مِن الفلاسفة الإلهيَّة مَن علِمَها، وكذلك مِن الأشخاص الَّذين يُسمُّونَهم أولياءَ من علمَها، ويزعمون أنَّ مِن الفلاسفةِ أو الأولياءِ مَن هو أعلمُ بالله واليوم الآخر مِن المُرسلين، وهذه مقالةُ غُلاة المُلحِدين مِن الفلاسفة والباطنيَّة: باطنيَّة الشِّيعة، وباطنيَّة الصُّوفيَّة.

ومنهم مَن يقولُ: بل الرَّسول عَلِمَها لكن لم يُبيِّنْها، وإنَّما تكلَّم بما يُناقضُها، وأراد مِن الخلْقِ فهْمَ ما يُناقضُها؛ لأنَّ مَصلحةَ الخلْق في هذه الاعتقادات الَّتي لا تُطابق الحقَّ.

ويقولُ هؤلاءِ: يجبُ علىٰ الرَّسول أنْ يدعوَ النَّاسَ إلىٰ اعتقادِ التَّجسيم مع أنَّه باطلٌ، وإلىٰ اعتقادِ معادِ الأبدانِ مع أنَّه باطلٌ، ويُخبرُهم بأنَّ أهل الجنَّة يأكلون

ويشربون مع أنَّ ذلك باطلٌ؛ لأنَّه لا يُمكن دعوةُ الخلْق إلَّا بهذه الطَّريقةِ الَّتي تتضمَّن الكذِبَ لِمصلحةِ العبادِ، فهذا قولُ هؤلاءِ في نُصوصِ الإيمانِ باللهِ واليوم الآخر.

وأمَّا الأعمالُ؛ فمنهم مَن يُقرِّها، ومنهم مَن يُجريها هذا المجرىٰ، ويقولُ: إنَّما يُؤمرُ بها بعضُ النَّاس دون بعضٍ، ويُؤمرُ بها العامَّة دون الخاصَّة، وهذه طريقة الباطنيَّة والملاحدة والإسماعيليَّة(١) ونحوهم.

٢ - وأمَّا أهل التَّأويل: فيقولون: إنَّ النُّصوصَ الواردةَ في الصِّفات لم يقصد بها الرَّسول ﷺ أنْ يعتقدَ النَّاسُ الباطل، ولكن قصَد بها معانيَ، ولم يُبيِّن لهم تلك المعانيَ، ولا دلَّهم عليها، ولكن أراد أن ينظُروا فيعرفُوا الحقَّ بعُقولِهم، ثُمَّ يجتهدُوا في صرْفِ تلك النُّصوص عن مَدلولِها، ومقصودُه امتحانُهم وتكليفُهم إتعابَ أذهانِهم وعُقولِهم في أنْ يصرفُوا كلامَه عن مَدلولِه ومُقتضاه، ويعرفوا الحقَّ مِن غيرِ جهتِه، وهذا قول المُتكلِّمة والمُعتزلة(٢) ومَن دخَل معهم في شيءٍ مِن ذلك.

---

(١) قال المحقِّقُ (ص٢٨٠): «الإسماعيليَّة: إحدىٰ فِرَق الشِّيعة الباطنيَّة، تُنسبُ إلىٰ محمَّد بن إسماعيل بن جعفر، وزعموا أنَّ (السِّرَّ المكتوم) آل إليه، وزعمُوا أنَّ الظَّاهر من نُصوص الوحي قشورٌ، والتَّأويلُ هو اللُّبُّ، ولا يصل إلىٰ اللُّبِّ إلَّا الخوَاص دون العوامّ، وأمرُهم ينتهي إلىٰ تعطيل الشَّريعة وسُقوط التَّكاليف.

لهم كتُب منها: كتاب الافتخار، وكتاب الجفر، وكتاب تأويل الشَّريعة، وكتاب السِّرِّ... إلىٰ غير ذلك.

ومن تأويلاتهم الباطلة قولهم: البعث هو الانتباه من نومة الغفلة واليقظة مِن رقدةِ الجهالة. والميزان هو ميزان الحكمة...إلخ».

(٢) قال المُحقِّق (ص٢٨١ - ٢٨٢): «**المُعتزلةُ**: هي إحدىٰ الفرق الَّتي خالفتْ أهلَ السُّنَّة والجماعة، ورأسُ هذه الفِرقة وأوَّلُ مَن تكلَّم بأصولهم واصلُ بن عطاء. **وسببُ تسميتهم بذلك:** أنَّ واصلَ بن عطاء كان تلميذًا للحسن البصري، وخالف الحسنَ في حُكم مرتكب الكبيرة، وقال: إنَّه في منزلة بين المنزلتَين، واعتزل حلقة الحسنِ، فأطلق عليه وعلىٰ جماعته مُعتزلة. **وقيل:** سمُّوا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين ومفارقة ما يعتقدون. وقيل غير ذلك.

=

والَّذين قصدْنا الرَّدّ عليهم في هذه الفُتيا هم هؤلاءِ؛ إذ كان نفورُ النَّاس عن الأوَّلين مشهورًا، بخلافِ هؤلاءِ؛ فإنَّهم تظاهرُوا بنصْرِ السُّنَّة في مواضع كثيرةٍ، وهم في الحقيقةِ لا للإسلام نصرُوا، ولا للفَلاسفةِ كسرُوا، ولكن أولئك الفلاسفة ألزموهم في نُصوص المعاد نظير ما ادَّعوه في نُصوص الصِّفاتِ، فقالوا لهم: نحنُ نعلمُ بالاضطرار أنَّ الرُّسل جاءتْ بمعادِ الأبدانِ، وقد علِمْنا الشُّبَه المانعةَ منه.

وأهل السُّنَّة يقولون لهؤلاءِ: ونحنُ نعلمُ بالاضطرار أنَّ الرُّسل جاءت بإثبات الصِّفات، ونصوص الصِّفات في الكتُب الإلهيَّة أكثرُ وأعظمُ مِن نُصوص المعادِ، ويقولون لهم: معلومٌ أنَّ مُشركِي العرَب وغيرهم كانُوا يُنكرون المعاد، وقد أنكرُوه علىٰ الرَّسولِ وناظرُوه عليه، بخلاف الصِّفات فإنَّه لم ينكر شيئًا منها أحدٌ مِن العرَب.

فعلم أنَّ إقرارَ العُقول بالصِّفات أعظمُ مِن إقرارها بالمعادِ، وأنَّ إنكارَ المَعادِ أعظمُ من إنكار الصِّفات، وكيف يجوزُ مع هذا أنْ يكون ما أخبر به مِن الصِّفاتِ ليس كما أخبر به، وما أخبر به مِن المعادِ هو علىٰ ما أخبر به.

=

والمعتزلةُ فرقٌ شتَّىٰ يجمعهم القول بنفي الصِّفات، والقول بخلق القرآن، وأنَّ العبدَ يخلق فِعلَ نفسِه. ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السُّنَّة؛ وهي: التَّوحيدُ والعدلُ والمنزلةُ بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المُنكر.

وستَرُوا تحت هذه الأصول معانيَ باطلةً؛ فقد ستَرُوا تحت مُسمَّىٰ التَّوحيدِ: نفي الصِّفات، ويُريدون بالعدل: القولَ بنفي القدَر، أمَّا المنزلة بين المنزلتَين فأرادوا بذلك أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ في منزلةٍ بين الإيمان والكُفر، فقد خرَج مِن الإيمان ولم يدخلْ في الكُفر، أمَّا الوعد والوعيد فقد قصدُوا به أنَّ مُرتكبَ الكبيرة إذا مات ولم يَتُب فهو خالدٌ مخلَّدٌ في النَّار؛ لأنَّ اللهَ يُحبُّ أن ينفذ وعده ووعيده، والأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المُنكر ستَرُوا تحته وجوبَ الخروجِ علىٰ الأئمَّة إذا جارُوا وظلموا، ووجوب دعوة الناس إلىٰ ما ذهبوا إليه بالقوَّة».

وأيضًا: فقد عُلم أنّه ﷺ قد ذمَّ أهل الكتاب علىٰ ما حرّفوه وبدّلوه، ومعلومٌ أنَّ التَّوراةَ مملوءةٌ مِن ذِكْر الصِّفات، فلو كان هذا ممَّا حرّف وبدّل لكان إنكار ذلك عليهم أولىٰ، فكيف وكانُوا إذا ذكرُوا بين يدَيه الصِّفات يضحكُ تعجُّبًا منهم وتصديقًا؟! ولم يَعبْهُم قطُّ بما تعيبُ النُّفاة لأهل الإثباتِ، مثل: لفظ التَّجسيم والتَّشبيه ونحو ذلك، بل عابهم بقولِهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: استراح لمَّا خلق السَّموات والأرض، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]، والتَّوراةُ مملوءةٌ مِن الصِّفات المُطابقة للصِّفات المذكورة في القُرآن والحديث، وليس فيها تصريحٌ بالمعاد كما في القُرآن. فإذا جاز أنْ نتأوّل الصِّفات الَّتي اتَّفقَ عليها الكتابان، فتأويل المعاد الَّذي انفردَ به أحدهما أولىٰ، والثَّاني ممَّا يُعلمُ بالاضطرارِ مِن دين الرَّسولِ ﷺ أنَّه باطلٌ، فالأوَّل أولىٰ بالبطلان.

٣ - وأمَّا الصِّنفُ الثَّالث: وهم أهل التَّجهيل: فهمْ كثيرٌ من المُنتسبين إلىٰ السُّنَّة وأتباع السَّلفِ، يقولونُ: إنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يكُن يعرفُ معانيَ ما أَنزلَ اللهُ عليه من آيات الصِّفات، ولا جبريل يعرف معانيَ تلك الآياتِ، ولا السَّابقون الأوَّلون عرفوا ذلك.

وكذلك قولهم في أحاديثِ الصِّفات أنَّ معناها لا يعلمُه إلَّا الله، مع أنَّ الرَّسولَ تكلَّم بهذا ابتداءً، فعلىٰ قولهم تكلَّم بكلامٍ لا يعرفُ معناه.

وهؤلاء يظنُّون أنَّهم اتَّبعُوا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ فإنَّه وقَف كثيرٌ مِن السَّلف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو وقفٌ

صحيحٌ، لكن لم يُفرِّقوا بين معنىٰ الكلام وتفسيره، وبين التَّأويل الَّذي انفرد الله تعالىٰ بعلمه، وظنُّوا أنَّ التَّأويلَ المذكورَ في كلام الله هو التَّأويلُ المذكورُ في كلام المُتأخِّرين، وغلطُوا في ذلك؛ فإنَّ التَّأويل يُراد به ثلاث معانٍ:

١ - فالتَّأويل في اصطلاحِ كثيرٍ مِن المُتأخِّرين هو: صرفُ اللَّفظِ عن الاحتمال الرَّاجح إلىٰ الاحتمال المرجوح لِدَليلٍ يقترنُ بذلك.

فلا يكون معنىٰ اللَّفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلًا علىٰ اصطلاح هؤلاء، وظنُّوا أنَّ مُرادَ الله بلفظِ التَّأويل ذلك، وأنَّ للنُّصوص تأويلًا يخالف مدلولَها لا يعلمُه إلَّا اللهُ، أو يعلمه المُتأوِّلون.

ثمَّ كثيرٌ مِن هؤلاءِ يقولون: تُجرىٰ علىٰ ظاهرها؛ فظاهرُها مرادٌ. مع قولِهم: إنَّ لها تأويلًا بهذا المعنىٰ لا يَعلمُه إلَّا اللهُ. وهذا تناقضٌ وقعَ فيه كثيرٌ مِن هؤلاءِ المُنتسبين إلىٰ السُّنَّة مِن أصحابِ الأئمَّة الأربعة وغيرهم.

٢ - والمعنىٰ الثَّاني: أنَّ التَّأويل هو تفسير الكلام؛ سواء وافق ظاهره أو لم يُوافقْه، وهذا هو التَّأويل في اصطلاح جُمهورِ المُفسِّرين وغيرِهم، وهذا التَّأويلُ يَعلمُه الرَّاسخون في العلم، وهو مُوافق لوقْفِ مَن وقَف مِن السَّلفِ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]. كما نقلَ ذلك عن ابنِ عبَّاس ومُجاهد[(١)] ومحمَّد بن جعفر بن الزُّبير[(٢)] ومحمَّد بن

(١) قال المحقِّق (ص٢٨٨) - باختصار -: «مجاهد بن جبر، أبو الحجَّاج المكّي المخزوميّ، شيخ القرَّاء والمفسِّرين، مِن كبار تلامذة ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وعنه أخذ القرآن والتَّفسير، رُوي عنه أنَّه قال: عرضتُ القرآن علىٰ ابن عبَّاس ثلاثين مرَّةً. وروي عنه أيضًا: عرضتُ القرآن ثلاث عرضات علىٰ ابن عبَّاس، أقفُه عند كلِّ آيةٍ أسألُه: فيم نزلت، وكيف كانت. تُوفِّي سنة (١٠٣)، وقيل: (١٠٤)، وقد بلغ من العمر (٨٣) سنةً».

(٢) قال المحقِّق (ص٢٨٨): «محمَّد بن جعفر بن الزُّبير بن العوَّام الأسدي المدني، من فقهاء المدينة =

إسحاق[(١)] وابن قُتيبة[(٢)] وغيرهم.

وكلا القولَين حقٌّ باعتبارٍ؛ كما قد بسطناه في مواضع أُخَر. ولهذا نقل عن ابن عبَّاس هذا وهذا، وكلاهما حقٌّ.

٣ - والمعنىٰ الثَّالثُ: أنَّ التَّأويلَ: هو الحقيقة الَّتي يؤولُ إليها، وإن وافقت ظاهره، فتأويل ما أخبر به في الجنَّة مِن الأكلِ والشُّرب واللِّباس والنِّكاح وقيام السَّاعة وغير ذلك؛ هو الحقائق الموجودةُ أنفسُها، لا ما يتصوَّر مِن معانيها في الأذهان ويُعبّر به باللِّسان، وهذا هو التَّأويل في لُغة القرآن؛ كما قال تعالىٰ عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

=

وقرَّائهم، قال عنه ابن سعدٍ: (كان عالمًا وله أحاديث). ووثَّقه الدَّارقطنيُّ، مات سنةَ بضع عشرة ومائة».

(١) قال المُحقِّق (ص٢٨٨ - ٢٨٩): «محمَّد بن إسحاق بن يسار، الحافظُ راوية الأخبار، صاحب السِّيرة. من سكَّان المدينة، ومن حَفظةِ الحديث، جدُّه يسار من سبي عين التَّمر، توفي سنة (١٥٠)، وقيل: (١٥١)، وقيل: (١٥٢). وقد امتدحه الشَّافعيُّ فقال: (مَن أراد أنْ يتبحَّر في المغازي فهو عيالٌ علىٰ محمَّد بن إسحاق)، وقال الذَّهبيُّ: (قد كان في المغازي علَّامة)، وقد كثر الكلام حوله في مسألة الرِّواية في الحديث؛ فوثَّقه جماعةٌ من العُلماء، وجرحه آخرون. قال الإمام الذَّهبيُّ: (وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غيرُ واحدٍ مِن العُلماءِ لِأسبابٍ منها: تشيُّعه، ونُسب إلىٰ القدَر، ويدلِّس في حديثِه، فأمَّا الصِّدقُ فليسَ بمدفوعٍ عنهُ). وقال الحافظُ ابن حجر: (صدوق يدلِّس، ورُميَ بالتَّشيُّع والقدر)».

(٢) قال المحقِّق (ص٢٨٩): «هو أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري، صاحب التَّصانيف والفنون، اشتهر في علم العربيَّة والأخبار، مِن مصنَّفاته: (غريب القرآن)، (القراءات)، (إعراب القرآن)، (عيون الأخبار)، (مشكل القرآن)، مات فجأةً سنة (٢٧٦). قال عنه الخطيبُ البغداديُّ: (كان ثقةً ديِّنًا فاضِلًا)».

تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء:٥٩]، وهذا التَّأويلُ هو الَّذي لا يَعلمُه إلَّا اللهُ.

فتأويل الصِّفات هو الحقيقةُ الَّتي انفرد اللهُ بعلمها، وهو الكيف المجهولُ الَّذي قال فيه السَّلف كمالكٍ وغيرِه: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ»(١)، فالاستواء معلومٌ يعلمُ معناه وتفسيره ويترجم بلُغةٍ أخرىٰ، وأمَّا كيفيَّة ذلك الاستواءِ فهو التَّأويل الَّذي لا يَعلمُه إلَّا اللهُ تعالىٰ.

وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما ذكره عبدُ الرَّزَّاق(٢) وغيرُه في تفسيرهم عنه أنَّه قال: «تفسيرُ القُرآن علىٰ أربعة أوجهٍ: تفسير تعرفُه العربُ مِن كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ بجهالتِه، وتفسيرٌ يَعلمُه العُلماءُ، وتفسيرٌ لا يَعلمُه إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَن ادَّعىٰ علمَه فهو كاذبٌ»(٣).

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدة: ١٧]، وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا، انظر: (ص٦٨١، ٦٨١).

(٢) قال المُحقِّق (ص٢٩١): «هو عبدُ الرَّزَّاق بن همام بن نافع، الحِميري الصَّنعاني، عالم اليمن، الإمام الحافظ، مُحدِّث زمانه. رحل في طلب العلم، وروىٰ عنه الأئمَّة الكبار؛ سفيان بن عُيينة وأحمد ويحيىٰ بن معين وغيرهم، وُلِدَ سنة (١٢٦)، وتوفي سنة (٢١١)، مِن مُؤلَّفاته الكبار: (المصنَّف) و(التَّفسير). وقال عنه إبراهيم بن عباد الدَّبري: (كان عبد الرَّزَّاق يحفظُ نحوًا من سبعة عشر ألف حديث)».

(٣) أخرجه عبدُ الرَّزاق في «تفسيره» (١/ ٢٥٣ الكتب العلميَّة)، وهو مُنقطع.

وأخرجه ابنُ جرير (١/ ٧٠)، والفريابيُّ في «القدر» (٤١٤)، وابنُ الأنباريُّ في «إيضاح الوقف والابتداء» (١١٩)، والطَّبرانيُّ في «مُسند الشَّاميِّين» (١٣٨٥)، وأبو القاسم الحُرْفِي في «الفوائد والصِّحاح والغرائب» (٥٦)، والمستغفريُّ في «فضائل القُرآن» (٣٤٥)، والواحديُّ في «الوسيط» (١/ ٤١٥)، من طُرقٍ ضعيفةٍ عن ابنِ عبَّاسٍ. وعزاه في «الدُّرِّ المنثور» (٢/ ١٥١ الفكر) لابنِ المُنذر في «التَّفسير».

الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[(١)].

وكذلك عِلْمُ السَّاعة ونحو ذلك، فهذا مِن التَّأويلِ الَّذي لا يَعلمه إلَّا اللهُ، وإن كنَّا نفهم معاني ما خُوطبْنا به، ونفهمُ مِن الكلام ما قصد إفهامنا إيَّاه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]. فأمَر بتدبُّر القُرآنِ كلِّه لا بتدبُّر بعضِه.

وقال أبو عبد الرَّحمن السُّلميّ[(٢)]: حدَّثنا الَّذين كانُوا يُقرِئونَنا القُرآنَ؛ عُثمان بن عفَّان وعبد الله بن مَسعُود وغيرهما، أنَّهم كانُوا إذا تعلَّموا من النَّبيِّ ﷺ عشر آياتٍ لم يتجاوزوها حتَّىٰ يتعلَّموا ما فيها مِن العلم والعمل، قالُوا: فتَعلَّمْنَا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعًا[(٣)].

وقال مجاهدٌ[(٤)]: عَرضتُ المُصحفَ علىٰ ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مِن فاتحتِه إلىٰ خاتمته، أقف عند كلِّ آيةٍ أسألُه عنها[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٩ و٤٧٨٠)، ومسلمٌ (٢٨٢٤)، مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال المحقِّق (ص٢٩٣): «هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، الإمام، مقرئ الكوفة، مولده في حياة النَّبيِّ ﷺ. قرأ القرآن وجوَّده، وعرضه علىٰ عُثمان وعليّ وابن مسعود، وأخذ عنه القرآن عاصم بن أبي النَّجود. وقد مكثَ يقرئ النَّاس ويُعلِّمهم القرآن أربعين سنةً، وقال أبو عون الثَّقفيُّ: (كنتُ أقرأ القرآن علىٰ أبي عبد الرَّحمن، وكان الحسنُ بن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقرأ عليه). اهـ. قيل: إنه توفي سنة (٧٤)، وقيل: (٧٣)».

(٣) سبق تخريجه في أوَّل الكتاب (ص٥٨٨).

(٤) تقدَّمتْ ترجمتُه قريبًا.

(٥) أخرجه الطَّبريُّ في «تفسيره» (١/ ٨٥) و(٣/ ٧٥٥)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١١٠٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧٩ - ٢٨٠)، من طريق محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد قال: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ، أَقِفُهُ عَلَىٰ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ فِيمَا نَزَلَتْ وَكَيْفَ كَانَتْ؟». ورجاله ثقات، إلَّا أنَّ محمَّد بن إسحاق مدلّس، وقد عنعن.

=

وقال الشَّعبيُّ[١]: ما ابتدعَ أحدٌ بدعةً إلَّا وفي كتاب الله بيانُها[٢].

وقال مسروقٌ[٣]: ما قال أصحابُ محمَّد ﷺ عن شيءٍ وإلَّا وعِلْمُه في القُرآن، ولكنْ عِلْمُنا قَصُر عنه[٤].

وهذا بابٌ واسعٌ قد بُسطَ في مَوضعِه.

والمقصودُ هنا التَّنبيهُ علىٰ أصولِ المقالات الفاسدة الَّتي أَوجبَتْ الضَّلال في باب العلم والإيمان بما جاء به الرَّسولُ ﷺ، وأنَّ مَن جعَل الرَّسولَ غيرَ عالمٍ

=

لكن رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٢٨٧)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٨٦٦وصي الله) من طريق شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد بلفظ: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ»، وفي رواية: «مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً». ورجاله ثقات، وابن أبي نجيح مدلِّس وقد عنعن.

ورواه أحمد أيضًا في «فضائل الصحابة» (١٨٦٨) من طريق أبي سعيد المؤدِّب، عن خصيف، عن مجاهد نحوه. وإسناده فيه ضعف؛ لحال خصيف الجزري، فإنه صدوق سيئ الحفظ، كما في «التقريب».

وروىٰ ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨٥) عن ابن أبي مُليكةَ، قال: «رَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَسْأَلُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ، فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: اكْتُبْ، قَالَ: حَتَّىٰ سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ». وإسنادُه صحيحٌ.

(١) قال المحقِّق (ص٢٩٤) - باختصار -: «هو عامرُ بن شُراحيل، أبو عمرو الهمدانيّ ثمّ الشَّعبيّ. علَّامة زمانِه، روىٰ عن عدَّة مِن كُبراءِ الصَّحابة، وُلد في إمرةِ عُمر رضي الله عنه، وكان يُستفتىٰ وأصحابُ رسولِ الله ﷺ مُتوافرون. تُوفِّي سنة (١٠٤)، وقد بلَغ (٨٢) سنةً، قال مَكحولٌ: (ما رأيتُ أحدًا أعلم مِن الشَّعبيّ)، وقال ابن عُيينة: (علماءُ النَّاسِ ثلاثةٌ: ابنُ عبَّاس في زمانِه، والشَّعبيُّ في زمانِه، والثَّوريُّ في زمانِه)».

(٢) أخرجه الخلَّال في «السُّنة» (٩١٤ الرَّاية) بلفظ: «ما ابتُدِعَ في الإسلامِ بدعةٌ إلَّا وفي كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يُكذِّبُه».

(٣) قال المحقِّق (ص٢٩٥) - باختصار -: «مسروقُ بن الأجدع، أبو عائشة الوادعيّ الهمدانيّ، إمامٌ قدوةٌ مِن كبار التَّابعين، روىٰ عنه كثير من الصَّحابة، مِن المُخضرمين الَّذين أسلمُوا في حياة النَّبيِّ ﷺ. يُروىٰ عنه أنّه قال: (ما آسىٰ علىٰ شيءٍ إلَّا السُّجود لله تعالىٰ). تُوفِّي سنةَ (٦٣). قال ابن معين: (ثقةٌ لا يُسأل عن مثلِه)».

(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٩٦ابن كثير)، وزهير بن حرب في «العلم» (١٥٠الألباني)، والخطيب في «الفقيه والمُتفقِّه» (١/ ١٩٧ابن الجوزي).

بمعاني القُرآن الَّذي أنزل إليه ولا جبريل جعلَه غيرَ عالمٍ بالسَّمعيَّات، ولَمْ يَجعلْ القرآن هدًىٰ ولا بيانًا للنَّاس.

ثمَّ هؤلاءِ يُنكرون العقليَّات في هذا الباب بالكلِّيَّة؛ فلا يجعلون عند الرَّسولِ ﷺ وأمَّته في باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ لا عُلومًا عقليَّةً ولا سمعيَّةً، وهم قد شاركُوا في هذا الملاحدة مِنْ وُجوهٍ مُتعدِّدةٍ، وهم مُخطئون فيما نسبوه إلىٰ الرَّسولِ ﷺ وإلىٰ السَّلف مِن الجهلِ؛ كما أخطأ في ذلك أهل التَّحريفِ والتَّأويلات الفاسدة، وسائر أصنافِ الملاحدة.

ونحن نذكرُ مِن ألفاظ السَّلف بأعيانها، وألفاظِ مَن نقل مذهبهم، بحسَب ما يحتمله هذا الموضع ما يُعلمُ به مذهبُهم.

وروىٰ أبو بكر البيهقيُّ في (الأسماء والصِّفات) بإسنادٍ صحيحٍ عن الأوزاعيِّ[1] قال: «كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوافِرُونَ نَقُولُ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ»[2].

فقد حكىٰ الأوزاعيُّ - وهو أحدُ الأئمَّة الأربَعة في عصر تابعي التَّابعين الَّذين هم: مالكٌ إمامُ أهل الحجاز، والأوزاعيُّ إمامُ أهل الشَّام، واللَّيثُ[3] إمام أهل

(١) قال المُحقِّق (ص٢٩٦) - باختصار -: «هو عبد الرَّحمن بن عمرو بن يحمد، أبو عمرو الأوزاعي، الإمام الكبير، وُلد سنة (٨٨). أُريد علىٰ القضاء مرَّات فامتنعَ، وهو أوَّلُ مَن دوَّن العلم بالشَّام، كان كثيرَ الحديثِ والعلم والفقه، بل كان حُجَّة زمانه، وكان ممَّن نُسبت إليه بعضُ المذاهب الفقهيَّة الَّتي اندثرتْ. قال مالك: (الأوزاعيُّ إمامٌ يُقتدىٰ به)، مواقفه مع الأمراءِ مَشهورةٌ، كان لا يخشىٰ في الله لومة لائم. توفي سنة (١٥٧)».

(٢) «الأسماء والصِّفات» للبيهقيّ (٨٦٥الحاشدي).

(٣) قال المُحقِّق (ص٢٩٨) - باختصار -: «اللَّيثُ بن سعدِ بن عبد الرَّحمن، أبو الحارث الفهمي الإمام، عالم الدِّيار المصريَّة وفقيهُها ومحدِّثُها، كان سخيًّا جوادًا، مضرب المثل في ذلك. ورُوِيَ عن أحمدَ أنَّه =

مصر، والثَّوريُّ[(١)] إمام أهل العراقِ؛ حكىٰ شهرة القولِ في زمن التَّابعين بالإيمان بأنَّ اللهَ فوق العرش، وبصفاته السَّمعيَّة.

وروىٰ أبو بكر الخلَّال في (كتاب السُّنَّة) عن الأوزاعيِّ قال: «سُئِلَ مَكحولٌ[(٢)] والزُّهريُّ[(٣)] عن تفسير الأحاديث فقال: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ»[(٤)].

وروىٰ أيضًا عن الوليدِ بن مُسلم[(٥)] قال: «سألتُ مالكَ بن أنس وسُفيانَ الثَّوريَّ واللَّيثَ بن سعد والأوزاعيَّ عن الأخبار الَّتي جاءت في الصِّفات؟ فقالُوا: أَمِرُّوها كَمَا جَاءَتْ. وفي روايةٍ: فقالوا: أَمِرَّهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ»[(٦)].

=

قال: (ليس في المصريّين أصحّ حديثًا من اللَّيث بن سعد). توفّي سنة (١٧٥)».

(١) قال المُحقِّق (ص٢٩٨ - ٢٩٩) - باختصار -: «سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفيّ، إمام أهل الدُّنيا في زمانه، جمع بين العلم والزُّهد والعمل، أثنىٰ عليه أحمد، وابن المُبارك، ويحيىٰ القطَّان، وابن مهدي، أطلقوا عليه: أمير المؤمنين في الحديث. مِن مؤلَّفاتِه: (الجامع). وُلد سنة (٩٧)، وتُوفِّي سنة (١٦١)».

(٢) قال المُحقِّق (ص٢٩٩ - ٣٠٠): «هو أبو عبد الله، مكحول الأزدي البصري، روىٰ عن ابن عمر وأنس، كان من فصحاء أهل البصرة. قال سعيد بن عبد العزيز: (لم يكن عندنا أحد أحسن سمتًا في العبادة من مكحول وربيعة بن يزيد) اهـ. كان مِن طبقةِ الزُّهريِّ».

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٠٠): «هو محمَّد بن مُسلم بن عبيد الله بن شهاب، أبو بكر القرشيّ الزُّهري المدني، عاصر كبار الصَّحابة، وروىٰ عن بعضهم، وهو أحد الفقهاء السَّبعة. يروي قريبًا من ألفَي حديثٍ. قال عنه شيخ الإسلام: (حفظ الزهري الإسلام نحوًا من سبعين سنةً). اهـ. توفِّي سنةَ (١٢٤)، وقد وُلد سنة (٥٠)».

(٤) انظر: «إبطال التَّأويلات» للقاضي أبي يعلىٰ (ص٤٧ إيلاف الدّولية).

(٥) قال المحقِّق (ص٣٠٠): «الوليد بن مسلم، عالم أهل الشَّام، أبو العبَّاس الدِّمشقيّ. ارتحل وصنَّف التَّصانيفَ، قال عنه الإمام أحمد: (ما رأيتُ في الشَّاميِّين أحدًا أعقل من الوليد بن مسلم). رُمي بالتَّدليس، ولكن وثَّقه العُلماء فيما صرَّح فيه بالتَّحديث، وقد أخرَج له البخاريُّ ومسلمٌ انتقاءً. توفي سنة (١٩٥)».

(٦) أخرجه الخلَّال في «السُّنَّة» (٣١٣)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفاتِ» (٩٥٥)، واللَّالكائيّ في «أصول الاعتقاد» (٩٣٠)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (١٨٣)، والآجرّيُّ في «الشَّريعةِ» (٧٢٠ الدّميجي)، وغيرهم=

فقولهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: «أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ» ردٌّ على المُعطِّلة، وقولهم: «بلا كيفٍ» ردٌّ على المُمثِّلة، والزُّهريُّ ومكحولٌ هما أعلمُ التَّابعين في زمانهم، والأربعةُ الباقون هم أئمَّة الدُّنيا في عصر تابعي التَّابعين، وإنَّما قال الأوزاعيُّ هذا بعْدَ ظُهورِ أمْرِ جهمٍ المُنكر لِكونِ الله فوق عرشِه، والنَّافي لِصفاتِه؛ ليعرف النَّاسُ أنَّ مذهبَ السَّلفِ كان خلاف ذلك.

ومِن طبقتهم حمَّاد بن زيد[1] وحمَّاد بن سلمة[2] وأمثالهما.

روى أبو القاسم الأزجي[3] بإسناده عن مطرّف بن عبد الله[4] قال: سمعتُ مالكَ بن أنس إذا ذُكر عنده مَن يدفعُ أحاديث الصِّفات يقولُ: قالَ عُمر بن عبد العزيز: «سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَوُلَاةُ الأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَنًا، الأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ اللهِ، وَقُوَّةٌ عَلَىٰ دِينِ اللهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَغْيِيرُهَا،

=

وصحَّحه الألبانيُّ في «مُختصر العلوِّ» (ص ١٤٢).

(١) قال المحقِّق (ص٣٠١): «هو حمَّاد بن زيد بن درهم، أبو إسماعيل الأزدي، أحد الأئمَّة في زمانه، مِن أقران الإمام مالكٍ، قال عبد الرَّحمن بن مهديّ: (أئمَّة النَّاس في زمانهم أربعة - وعدَّ منهم حمَّاد بن زيد -. قال: لم أر أحدًا أعلم بالسُّنَّة ولا بالحديث الَّذي يدخل في السُّنَّة من حمَّاد بن زيد) اهـ. وقال الذَّهبيُّ: (لا أعلم بين العلماء نزاعًا في أنَّ حمَّاد بن زيد من أئمَّة السَّلف) اهـ. وُلدَ سنةَ (٩٨)، وتُوفِّي سنة (١٧٩)».

(٢) قال المحقِّق (ص٣٠٢) - باختصار -: «هو حمَّاد بن سلمة بن دينار، أبو سلمة البصري، الإمام الثَّبتُ، مِن أقران حمَّاد بن زيد. قال الذَّهبيُّ: (كان بحرًا مِن بُحورِ العلم... وكان رأسًا في السُّنَّة)، وقال ابن مهديّ: (لو قيل لحمَّاد بن سلمة: إنَّك تموت غدًا ما قدر أنْ يزيدَ في العمل شيئًا)، توفي سنة (١٦٧)».

(٣) قال المحقِّق (ص٣٠٢) - باختصار -: «عبد العزيز بن عليّ بن أحمد، البغداديّ، ذكَر الذَّهبيُّ أنَّ له مُصنَّفًا في الصِّفات. توفِّي سنة (٤٤٤)، ووُلدَ سنةَ (٣٥٦). قال الخطيبُ: (كتبْنا عنه، وكان صدوقًا كثيرَ الكِتابِ)».

(٤) قال المحقِّق (ص٣٠٢): «هو مطرف بن عبد الله بن يسار اليساري، أبو مصعب. كان مِن أصحاب الإمام مالكٍ، وأمُّه أخت الإمام مالكٍ. وُلد سنة سبع وثلاثين ومائة، وتُوفِّي سنة عشرين ومِائتين».

وَلَا النَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا، مَنْ اهْتَدَىٰ بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَمَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّىٰ، وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا»(١).

وروىٰ الخلَّال بإسنادٍ كلّهم أئمَّة ثقاتٌ عن سفيان بن عيينة قال: «سُئل ربيعةُ بنُ أبي عبد الرَّحمن(٢) عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]؟ قال: «الاستواءُ غيرُ مَجهولٍ، والكيفُ غيرُ مَعقولٍ، ومِن اللهِ الرِّسالةُ، وعلىٰ الرَّسولِ البلاغُ المُبينُ، وعلينا التَّصديقُ»(٣).

وهذا الكلام مرويٌّ عن مالكِ بن أنس تلميذ ربيعةَ مِن غيرِ وجْهٍ؛ منها: ما رواه أبو الشَّيخِ الأصبهانيُّ، وأبو بكر البيهقيُّ عن يحيىٰ بن يحيىٰ قال: كنَّا عند مالكِ بن أنسٍ، فجاء رجلٌ فقالَ: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فأطرق مالكٌ برأسه حتَّىٰ علاه الرُّحَضاء، ثمَّ قال: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراك

(١) أخرجه عبد الله في «السُّنَّة» (١/ ٣٥٧ ابن القيم)، والآجرّيّ في «الشَّريعة» (٦٩٨)، وابن بطَّة في «الإبانة» (٥٩٤)، واللَّالكائيّ في «أصول الاعتقاد» (١٣٤)، والخطيب في «الفقيه والمُتفقِّه» (١/ ٤٣٥ - ٤٣٦)، وغيرهم.

(٢) قال المحقِّق (ص٣٠٤): «ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن فروخ، أبو عُثمان، القُرشيّ التَّيميّ، المشهور بربيعة الرَّأي. مُفتي المدينة، كان مِن أئمَّة الاجتهاد. قال عنه الإمام مالكٌ: (ذهبتْ حلاوةُ الفقه منذ مات ربيعةُ) اهـ. وقال عبد العزيز بن الماجشون: (واللهِ ما رأيتُ أحوط لسُنَّةٍ من ربيعة). اهـ. توفي سنة (١٣٦)».

(٣) أخرجه اللَّالكائيُّ في «أصول الاعتقاد» (٦٦٥)، ومِن طريقه ابن قُدامة في «إثبات صفة العلوِّ» (ص١١٤)، ونقل قول شيخِ الإسلام أعلاهُ.

وأخرجه الذَّهبيُّ في «العلوِّ» (٣٥٢) من طريق محمَّد بن بشير قال: حدَّثنا سفيانُ قال: كنتُ عند ربيعةَ بن أبي عبد الرَّحمن فسأله رجلٌ، فذكَره بنحوِه. وصحَّحه الألبانيُّ في «مختصر العلوِّ» (ص١٣٢)، وذكَر أنَّ سُفيانَ في هذا الإسنادِ هو الثَّوريُّ. واللهُ أعلمُ.

إلَّا مُبتدعًا، فأمرَ به أن يُخرجَ»[(١)] . اهـ.

فقولُ ربيعةَ ومالكٍ: «الاستواء غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ»، مُوافقٌ لِقولِ الباقين: «أَمرُّوها كما جاءتْ بلا كيف»، فإنَّما نفَوا علْم الكيفيَّة، ولم يَنفُوا حقيقةَ الصِّفةِ.

ولو كان القومُ قد آمنُوا باللَّفظ المُجرَّد مِن غيرِ فَهمٍ لمعناه علىٰ ما يليقُ بالله لَما قالُوا: «الاستواء غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ»، ولَمَا قالُوا: «أمرُّوها كما جاءَتْ بلا كيف»؛ فإنَّ الاستواءَ حينئذٍ لا يكونُ معلومًا بل مجهولًا بمنزلةِ حُروفِ المُعجم.

وأيضًا؛ فإنَّه لا يحتاجُ إلىٰ نفي علْم الكَيفيَّة، إذا لم يفهم مِن اللَّفظ معنًىٰ، وإنَّما يحتاجُ إلىٰ نفيِ علْمِ الكيفيَّة إذا أثبتت الصِّفاتُ.

وأيضًا: فإنَّ مَنْ ينفِي الصِّفات الخبريَّة، أو الصِّفات مُطلقًا لا يحتاجُ أنْ يقولَ: بلا كيف، فمَن قال: إنَّ اللهَ سبحانه ليس علىٰ العرش، لا يحتاجُ أنْ يقولَ: بلا كيف، فلو كان مذهبُ السَّلف نفيَ الصِّفات في نفس الأمرِ لمَا قالُوا: بلا كيف.

وأيضًا: فقولُهم: أمرُّوها كما جاءت؛ يقتضي إبقاء دلالتها علىٰ ما هي عليه، فإنَّما جاءتْ ألفاظًا دالَّةً علىٰ معانٍ، فلو كانتْ دلالتُها منتفيةً لكانَ الواجبُ أنْ

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٦٧)، وفي «الاعتقاد» (ص١١٩ أبو العينين).

ورواه البيهقيُّ أيضًا في «الأسماء والصِّفات» (٨٦٦) عن أبي الرَّبيع الرِّشديني عن ابن وهب قال: كنتُ عند مالكٍ فدخل رجلٌ فقال، فذكر نحوه. وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في «العلوِّ» (ص١٣٨). وذكره الذَّهبي مِن رواية جماعة عن مالكٍ، وقال: «هذا ثابتٌ عن مالكٍ». وقال الحافظُ في «الفتح» (١٣/ ٤٠٧ المعرفة): «إسنادُه جيِّد». وصحَّحه الألبانيّ في «مختصر العلوِّ» (ص١٤١ - ١٤٢). **وانظر للتَّوسّع كتاب**: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة الاستواء» للشَّيخ عبد الرَّزَّاق العبَّاد - حفظه الله -.

يقالَ: أمِرُّوا ألفاظَها مع اعتقادِ أنَّ المفهومَ منها غيرُ مرادٍ، أو أمرُّوا ألفاظَها مع اعتقادِ أنَّ اللهَ لا يُوصفُ بما دلَّتْ عليه حقيقةً، وحينئذٍ فلا تكون قد أُمِرَّتْ كما جاءتْ، ولا يُقالُ حينئذٍ بلا كيف؛ إذْ نفيُ الكيفيَّة عمَّا ليس بثابتٍ لغوٌ مِن القولِ.

وروىٰ الأثرمُ في (السُّنَّة)، وأبو عبد الله ابن بطَّة في (الإبانة)، وأبو عمر الطَّلمنكيّ وغيرهم، بإسنادٍ صحيحٍ؛ عن عبد العزيزِ بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون[1] - وهو أحد أئمَّة المدينة الثَّلاثة الَّذين هم: مالكُ بن أنس وابنُ الماجشون وابنُ أبي ذئب - وقد سُئِلَ فيما جحدتْ به الجهميَّة[2]: «أمَّا بعدُ: فقد فهمتُ ما سألتَ عنه فيما تتابعت الجهميَّة ومَن خالفها[3] في صفةِ الرَّبِّ العظيمِ؛ الَّذي فاقتْ عظمَتُه الوصفَ والتَّقدير، وكلَّتْ الألسنُ عن تفسير صفتِه، وانحسرَتْ العُقولُ دون معرفة قدرِه، ردَّتْ عظمته العقول فلم تجد مساغًا فرجعَتْ خاسئةً وهي حسيرةٌ، وإنَّما أمرُوا بالنَّظر والتَّفكُّر فيما خلق بالتَّقدير، وإنَّما يقالُ: (كيف) لمَن لم يكن ثمَّ كان، فأمَّا الَّذي لا يحولُ ولا يزولُ، ولم يزلْ، وليس له مثل، فإنَّه لا يعلمُ كيف هو إلَّا هو، وكيف يُعرف قدْر من لم يَبِدْ ومن لم يمت، ولا يبلَىٰ، وكيف يكون لصفة شيءٍ منه حدّ أو مُنتهًىٰ يعرفه عارف، أو يحدّ قدرَه واصفٌ، علىٰ أنَّه الحقُّ المُبينُ لا حقَّ أحقُّ منه، ولا شيءَ

---

(١) قال المحقِّق (ص٣٠٨) - باختصار -: «أبو عبد الله التَّيميّ، مِن الأئمَّة. توفِّي ببغداد سنةَ (١٦٤). يُقال: إنَّه نظر مرَّةً في سلب شيءٍ من الصِّفات لبعضهم، فقال: هذا الكلام هدم بلا بناء، وصفةٌ بلا معنًىٰ. وقد نُودي مرَّةً بالمدينة بأمر المنصورِ: لا يُفتي النَّاسَ إلَّا مالكٌ وابن الماجشون».

(٢) أخرجه ابنُ بطَّة في «الإبانةِ» (٧/ ٦٣ - ٧٠) (٥٩)، ومِن طريق الأثرم الذَّهبيُّ في «السِّيَر» (٧/ ٣١١ - ٣١٢). وصحَّحه - الذَّهبيُّ - في «العُلوِّ» (ص١٤٥ - مُختصر العلوّ).

(٣) في «الإبانة» (٧/ ٦٤): (خَالفها).

أبينُ منه. الدَّليل علىٰ عجز العُقول عن تحقيق صفتِه عجزُها عن تحقيق صفة أصغر خلْقِه، لا تكادُ تراه صِغرًا يحولُ ويزول، ولا يرىٰ له سمع ولا بصر، لما يتقلَّب به ويحتال مِن عقله؛ أعضلَ بك وأخفىٰ عليك ممَّا ظهَر مِن سَمعِه وبَصرِه، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين، وخالقهم وسيِّد السَّادات وربّهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ:١١].

اعرف - رحمك الله - غناك عن تكلُّف صفةٍ ما لم يصف الرَّبُّ مِن نفسِه بعجزك عن معرفة قدْر ما وصف بها، إذا لم تعرف قدْرَ ما وصف فما تكلّفك علم ما لم يصف، هل تستدلُّ بذلك علىٰ شيءٍ مِن طاعتِه، أو تنزجرُ به عن شيءٍ مِن مَعصيتِه؟

فأمَّا الَّذي جحَد ما وصف الرَّبُّ مِن نفسِه تعمُّقًا وتكلُّفًا فقد استهوَتْه الشَّياطينُ في الأرضِ حيرَانَ. فصار يستدلُّ بزعمِه علىٰ جحْدِ ما وصفَ الرَّبّ وسمَّىٰ مِن نفسِه بأنْ قالَ: لا بدَّ إنْ كان له كذا مِن أنْ يكون له كذا، فعمي عن البيِّن بالخفيِّ، وجحَد ما سمَّىٰ الرَّب مِن نفسِه بصمتِ الرَّبّ عمَّا لم يُسمِّ منها، فلم يزل يُملي له الشَّيطانُ حتَّىٰ جحَد قولَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣]. فقال: لا يَراهُ أحدٌ يومَ القِيامةِ، فجحَد - واللهِ - أفضل كرامةِ الله الَّتي أكرمَ بها أولياءَه يوم القيامةِ؛ مِن النَّظَر إلىٰ وجهِه، ونظرته إيَّاهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٥]. وقد قضىٰ أنَّهم لا يموتون، فهُمْ بالنَّظرِ إليه ينظرون».

إلىٰ أنْ قال: «وإنَّما جحَد رُؤية الله يومَ القيامة إقامة للحجَّة الضَّالَّة المُضلَّة؛ لأنَّه قد عرف إذا تجلَّىٰ لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانُوا به قبل ذلك مُؤمنين،

وكان له جاحدًا.

وقال المُسلمون: يا رسولَ اللهِ هل نرىٰ ربَّنا؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لا. قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَه سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ»(١).

وقال رسولُ الله ﷺ: «لا تَمْتَلِئُ النَّارُ حَتَّىٰ يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ»(٢).

وقال لثَابتِ بن قيس رضي الله عنه: «لَقَدْ ضَحِكَ اللهُ مِمَّا فَعَلْتَ بِضَيْفِكَ البَارِحَةَ»(٣).

وقال فيما بلغَنا: «إِنَّ اللهَ لَيَضْحَكُ مِنْ أَزَلِكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ»، فقال له رجلٌ مِن العربِ: إِنَ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟! قال: «نَعَمْ»، قال: لا نَعْدِمُ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا»(٤)، في أَشباهٍ لِهذا ممَّا لم نُحصِه. وقال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]. وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]. فو اللهِ ما دلَّهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣ و٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بنحوه البخاريّ (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. إلَّا أنَّ صاحب القصَّة جاء مُبهمًا في رواية البخاريّ، وجاء في «صحيح مُسلم» أنَّ اسمَه: أبو طلحةَ. وليس ثابت بن قيسٍ. وانظر: «فتح الباري» (٧/ ١١٩ - ١٢٠).

(٤) أخرج ابن ماجه (١٨١) عن أبي رَزِينٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: لَنْ نَعْدمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا. وضعَّفه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (ص٢٤٤).

علىٰ عِظَم ما وصف من نفسِه، وما تُحيطُ به قبضتُه إلَّا صغر نظيرِها منهم عندهم، إنَّ ذلك الَّذي ألقىٰ في روعهم، وخلق علىٰ معرفةِ قُلوبهم فما وصف الله من نفسِه فسمَّاه علىٰ لِسان رسولِه ﷺ سمَّيناه كما سمَّاه، ولم نتكلَّف منه صفة ما سواه - لا هذا ولا هذا - لا نجحد ما وصَف، ولا نتكلَّف معرفة ما لم يصف.

اعلم - رحمكَ اللهُ - أنَّ العصمةَ في الدِّين أنْ تنتهيَ في الدِّين حيثُ انتهىٰ بك، ولا تجاوز ما حدّ لك، فإن مِن قوام الدِّين معرفة المعروف وإنكار المُنكر، فما بسطتْ عليه المعرفة وسكنتْ إليه الأفئدة، وذكَر أصله في الكتاب والسُّنَّة، وتوارث عِلمه الأمَّة، فلا تخافنَّ في ذكره وصفته من ربِّك ما وصفه من نفسه عيبًا، ولا تكلفنَّ لما وصف لك مِن ذلك قَدْرًا.

وما أنكرَتْه نفسُك، ولم تجِدْ ذِكرَه في كتاب ربِّك، ولا في الحديث عن نَبيِّك - مِن ذكْرِ ربِّك - فلا تتكلفنَّ عِلْمَه بعقْلِك، ولا تصفه بِلسانِك، واصمُتْ عنه كما صمتَ الرَّبُّ عنه مِن نفسِه، فإنَّ تكلُّفك معرفة ما لم يصف مِن نفسِه كإنكارك ما وصف منها، فكما أعظمتَ ما جحد الجاحدون ممَّا وصف من نفسِه، فكذلك أعظم تكلّف ما وصف الواصفون ممَّا لم يصف منها.

فقد - واللهِ - عزَّ المسلمون الَّذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يُعرف، وينكرون المُنكر وبإنكارهم يُنكر، ويسمعون ما وصف اللهُ به نفسَه مِن هذا في كتابِه، ما يبلغهم مِثله عن نبيِّه، فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلبُ مُسلمٌ، ولا تكلّف صفة قدره ولا تسمية غيره مِن الرَّبّ مؤمن.

وما ذكر عن الرَّسول ﷺ أنَّه سمّاه من صفة ربّه، فهو بمنزلةِ ما سمَّىٰ وما وصف الرَّب مِن نفسِه.

والرَّاسخون في العلم - الواقفون حيثُ انتهىٰ عِلمُهم، والواصفون لِربِّهم بما وصَف مِن نفسِه، التَّاركون لِمَا ترَك مِن ذكرها - لا يُنكرون صفة ما سمَّىٰ منها جحْدًا، ولا يتكلَّفون وصفه بما لم يسمّ تعمّقًا؛ لأنَّ الحقَّ تركُ ما ترَك وتسميةُ ما سمَّىٰ، ومَن يَتَّبع غيرَ سبيلِ المؤمِنين نُولِّهِ ما تولَّىٰ، وَنُصلِه جهنَّمَ، وساءتْ مَصيرًا» اهـ.

وهذا كلُّه كلامُ ابن الماجشون الإمام فتدبَّرْه، وانظُر كيف أثبتَ الصِّفات ونفىٰ علم الكيفيَّة موافقةً لغيره مِن الأئمَّة، وكيف أنكر علىٰ مَن نفىٰ الصِّفات بأنَّه يلزمُ مِن إثباتِها كذا وكذا، كما تقوله الجهميَّة: إنَّه يلزمُ أن يكون جسْمًا أو عرَضًا فيكون [محدثًا] [(١)].

وفي كتاب (الفقه الأكبر) المشهور عند أصحاب أبي حنيفة[(٢)] الَّذي رووه بالإسنادِ عن أبي مطيع الحكَم بن عبد الله البلخي[(٣)]، قال: «سألتُ أبا حنيفةَ عن الفقهِ الأكبرِ؟ فقال: لا تُكفِّرنَّ أحدًا بذنْبٍ، ولا تَنفِ أحدًا به مِن الإيمانِ، وتأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المُنكر، وتعلم أنَّ ما أصابَك لم يكن لِيُخطئكَ، وما أخطأكَ لم يَكُن لِيُصيبَك، ولا تتبرَّأ مِن أحدٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ، ولا تُوالي أحدًا دون أحدٍ، وأن ترد أمْر عُثمان وعليّ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال أبو حنيفة: الفقه الأكبر في الدِّين خيرٌ مِن الفقهِ في العلم، ولَأن يَفقهَ

---

(١) زيادة مِن «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٤٦).

(٢) انظر ترجمة أبي حنيفة في: «سير أعلام النُّبلاء» (٦/ ٣٩٠ - ٤٠٣).

(٣) قال المحقِّق (ص٣١٩) - باختصار -: «أبو مطيع، الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي الفقيه، تولَّىٰ القضاء ببلخ، راوي كتاب (الفقه الأكبر) عن الإمام أبي حنيفة. كان بصيرًا بالرَّأي، وكان ابنُ المبارك يُثني عليه كثيرًا. توفي سنة (١٩٧)، عن أربع وثمانين سنة».

الرَّجلُ كيف يَعبدُ ربَّه خيرٌ مِن أنْ يَجمعَ العِلمَ الكثيرَ». اهـ.

قال أبو مطيع: قلتُ: أخبرني عن أفضلِ الفقهِ؟ قال: تعلم الرَّجل الإيمانَ والشَّرائعَ والسُّنن والحدود واختلاف الأئمَّة».

وذكر مسائل الإيمان، ثُم ذكَر مسائل القدر، والرَّد علىٰ القدريَّة بكلامٍ حسَنٍ ليس هذا موضعه.

ثمَّ قال: «قلتُ: فما تقولُ فيمَن يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر؛ فيتبعُه علىٰ ذلك أناسٌ، فيخرج علىٰ الجماعة؛ هل ترىٰ ذلك؟ قال: لا، قلتُ: ولِمَ، وقد أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكر، وهو فريضةٌ واجبةٌ؟ قال: كذلك، ولكن ما يفسدون أكثر مما يُصلحون؛ مِن سفكِ الدِّماء واستحلالِ الحرَام».

قال: وذكر الكلام في قتال الخوارج والبُغاة، إلىٰ أنْ قالَ: «قال أبو حنيفة عمَّن قال: لا أعرف ربِّي في السَّماء أم في الأرض: فقد كفَر؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وعرشه فوق سبع سموات.

قلتُ: فإن قال: إنَّه علىٰ العرش استوىٰ، ولكنَّه يقول: لا أدري العرش في السَّماء أم في الأرض؟ قال: هو كافرٌ؛ لأنَّه أنكر أنْ يكون في السَّماء؛ لأنَّه تعالىٰ في أعلىٰ علِّيين، وأنَّه يُدعَىٰ مِن أعلىٰ لا مِن أسفل، - وفي لفظٍ - سألت أبا حنيفة عمَّن يقولُ: لا أعرفُ ربِّي في السَّماء أم في الأرض؟ قال: قد كفَر؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وعرشُه فوقَ سبْع سمواتٍ، قال: فإنَّه يقولُ: علىٰ العرش استوىٰ، ولكن لا يدري العرش في الأرض أو في السَّماء؟ قال: إذا أنكر أنَّه في السَّماء فقد كفَر»[1].

---

(١) قال المُحقِّق (ص٣٢٢): «الفقه الأكبر، رواية أبي مُطيع البلخي (ص٤٠، ٤٤، ٤٩، ٥٠)... ط/١٣٦٨هـ =

ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفةَ عند أصحابه أنَّه كفَّر الواقفَ الَّذي يقولُ: لا أَعرفُ ربِّي في السَّماء أم في الأرض؟ فكيف يكون الجاحد النَّافي الَّذي يقول: ليس في السَّماء، أو ليس في الأرض ولا في السَّماء؟! واحتجَّ علىٰ كُفره بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥]، قال: وعرشُه فوق سبع سمواتٍ.

وبيَّن بهذا أنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ يُبيِّن أنَّ اللهَ فوق السَّموات، فوق العرش، وأنَّ الاستواءَ علىٰ العرش دلَّ علىٰ أنَّ اللهَ نفسَه فوق العرشِ، ثُمَّ أردفَ ذلك بتكفيرِ مَن قال: إنَّه علىٰ العرشِ استوىٰ، ولكن توقَّف في كونِ العرش في السَّماء أم في الأرض. قال: لأنَّه أنكَر أنَّه في السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ في أعلىٰ عليِّين، وأنَّه يُدعىٰ مِن أعلىٰ لا مِن أسفل، وهذا تصريحٌ مِن أبي حنيفةَ بتكفيرِ مَن أنكرَ أنْ يكُون اللهُ في السَّماءِ، واحتجَّ علىٰ ذلك بأنَّ اللهَ تعالىٰ في أعلىٰ عليِّين، وأنَّه يُدعَىٰ مِن أعلىٰ لا مِن أسفل، وكلٌّ مِن هاتين الحجَّتَين فطريَّة عقليَّة؛ فإنَّ القلوبَ مفطورةٌ علىٰ الإقرار بأنَّ اللهَ في العُلوِّ، وعلىٰ أنَّه يُدعَىٰ مِن أعلىٰ لا مِن أسْفلَ، وقد جاء اللَّفظُ الآخر صريحًا عنه بذلك؛ فقال: إذا أنكر أنَّه في السَّماء فقد كفَر، وروىٰ هذا اللَّفظ عنه بالإسناد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي[1] بإسناده في كتاب (الفاروق)[2].

مطبعة الأنوار بالقاهرة، الناشر: مكتبة الخانجي...».

(١) قال المحقِّق (ص٣٢٣) - باختصار -: «هو عبد الله بن محمَّد بن عليّ الأنصاريّ الهرويّ، وُلِدَ سنة (٣٧٦). قال الذَّهبيُّ: (كان أثريًّا قحًّا، وكان سيفًا مَسلولًا علىٰ المُتكلِّمين). كان علىٰ مذهب الإمام أحمد في الأسماء والصِّفات،... ولكنَّه له نفَسٌ عجيبٌ لا يُشبهُ نفَس أئمَّة السَّلفِ في كتابه (منازل السَّائرين) ففيه أشياء مطربةٌ، وفيه أشياء مشكلةٌ، توفي سنة (٤٨١). مِنْ مُصنفاته: (ذم الكلام)، (الأربعين)، (منازل السَّائرين)، و(الفاروق)».

(٢) انظر: «العلوّ» للذَّهبيِّ (ص١٣٦).

وروىٰ هو أيضًا وابنُ أبي حاتم[(١)] أنَّ هشام بن عبيد الله الرَّازي[(٢)] - صاحب محمَّد بن الحسن[(٣)]، قاضي الرّيِّ - حبس رجلًا في التَّجهُّم فتابَ، فجيءَ به إلىٰ هشام لِيطلقَه فقال: الحمدُ لله علىٰ التَّوبة، فامتحنه هشامٌ، فقال: أَتشهدُ أنَّ الله علىٰ عرشه بائنٌ مِن خلْقِه، فقال: «ردُّوه إلىٰ الحبس؛ فإنَّه لم يتُبْ»[(٤)].

وروىٰ أيضًا عن يحيىٰ بن مُعاذ الرَّازيّ[(٥)] أنَّه قال: «إنَّ اللهَ علىٰ العرش بائنٌ مِن الخَلْقِ، وقد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلمًا، وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عددًا، لا يشكُّ في هذه المقالة إلَّا جهميٌّ رديءُ ضليلٌ، وهالك مرتابٌ، يمزجُ اللهَ بخلقه، ويخلط منه الذَّات بالأقذار والأنتان»[(٦)].

---

(١) قال المحقق (ص ٣٢٤) - باختصار -: «هو عبد الرَّحمن بن محمَّد بن إدريس، ابن أبي حاتم، أبو محمَّد الرَّازيّ، وُلد سنة (٢٤٠). قال الذَّهبيُّ: (كان بحرًا لا تُكدِّره الدِّلاءُ). تُوفِّي سنة (٣٢٧)، له مُصنَّفات عدَّة؛ منها: (الجرح والتَّعديل)، (الرَّدُّ علىٰ الجهميَّة)، (المسند)، (الزُّهد)، (الكُنىٰ)».

(٢) قال المحقِّق (ص ٣٢٤) - باختصار -: «هشام بن عبيد الله الرَّازي البستي، قال الذَّهبيُّ: (كان مِن بُحور العلم)، وقال أبو حاتم: (ما رأيتُ أحدًا أعظم قدرًا ولا أجلَّ مِن هشام بن عبيد الله الرَّازيّ). تُوفِّي سنة (٢٢١)».

(٣) قال المحقِّق (ص ٣٢٤): «محمَّد بن الحسن بن فرقد، أبو عبد الله الشَّيباني، الكوفي، فقيه العراق، صاحب أبي حنيفة، ولِي القضاء للرَّشيد بعد أبي يوسف، كان ذكيًّا يُضرب به المثل. قيل للإمام أحمد: مِن أين لك هذه المسائلُ الدِّقاق؟ قال: مِن كتُب محمَّد بن الحسن. اهـ. تُوفي سنة (١٨٩) بالرَّيّ».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «بيان تلبيس الجهميَّة» (١/ ١٩٦المجمع)، و«العلوّ» للذَّهبيِّ (ص١٦٩)، ومِن طريق ابنِ أبي حاتم الهرويُّ في «ذمِّ الكلام» (١٢١٠)، وفي سندِه: عليُّ بن الحسن بن يزيد السُّلميّ وأبوه، قال الألبانيُّ في «مختصر العلوّ» (ص١٨١): «لم أَعرِفهُما، لم يذكرهما ابنُ أبي حاتم في (الجرح والتَّعديل)».

(٥) قال المُحقِّق (ص٣٢٥): «يحيىٰ بن معاذ الرَّازي، أبو زكريا، مِن الزُّهَّاد، وله كلام كثيرٌ في الوعظ والزُّهد، ذكره أبو نعيم في «الحلية»، والبغدادي في «تاريخ بغداد»، توفي سنة ثمان وخمسين ومائتين».

(٦) انظر: «العلوّ» للذَّهبيّ (ص١٩٠).



وروىٰ أيضًا عن ابنِ المدينيِّ[١] لمَّا سُئل: «ما قولُ أهلِ الجماعةِ؟ قال: يُؤمنون بالرُّؤية والكلام، وأنَّ اللهَ فوق السَّموات علىٰ العرش استوىٰ، فسُئِلَ عن قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فقال: اقرأ ما قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المُجادلة:٧]»[٢].

وروىٰ أيضًا عن أبي عيسىٰ التِّرمذيِّ قال: «هو علىٰ العرش كما وصف في كتابه، وعلمُه وقُدرتُه وسُلطانُه في كلِّ مَكانٍ»[٣].

وروىٰ عن أبي زُرعة الرَّازي[٤] أنَّه سُئلَ عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فقال: «تفسيرُه كما تقرأُ، هو علىٰ العرش، وعِلمُه في كلِّ مَكانٍ، مَن قال غيرَ هذا فعليه لَعْنةُ اللهِ»[٥].

---

(١) قال المُحقِّق (ص٣٢٦) - باختصار -: «عليُّ بن عبد الله بن جعفر، ابن المديني، أبو الحسن. نعتَه الذَّهبيُّ: بأنَّه الإمامُ الشَّيخُ الحُجَّة، أمير المؤمنين في الحديث. قال البخاريُّ: (ما استصغرت نفسي عند أحد إلَّا عند عليِّ بن المديني)، توفِّي سنةَ (٢٣٤). من مُصنَّفاته: (الأسماء والكُنىٰ)، (الضُّعفاء)، (الطَّبقات)، (المدلّسون)، (الثِّقات)، (التَّاريخ)، وجلُّ مُصنَّفاته انقرضت، ولم يبق إلَّا أربعة كتب أو خمسة؛ كما ذكر الخطيبُ».

(٢) أورده الذَّهبيُّ في «العُلوّ» (ص١٧٥)، عن الهرويِّ بإسناده إلىٰ ابنِ المديني. وفي سنده مَن لا يُعرفُ؛ انظُر: «مختصر العلوّ» (ص١٨٨ - ١٨٩)».

(٣) «سُنن التِّرمذيّ» (٥/ ٤٠٤) تحت حديث رقم (٣٢٩٨).

(٤) قال المُحقِّق (ص٣٢٧ - ٣٢٨) - باختصار -: «عبيد الله بن عبدِ الكريم بن يزيد الرَّازي. قال أحمدُ: (ما جاوز الجسر - جسر بغداد - أحدٌ أفقه من إسحاق بن راهويه، ولا أحفظ من أبي زُرعة). كان إمامًا في الحفظ والإتقان، غاب عن وطنه (١٤) سنةً في طلَب العلم، وجلَس للتَّحديثِ وهو ابن (٣٢) سنةً. تُوفِّيَ سنة (٢٦٤)».

(٥) أورده الذَّهبيُّ في «العُلوِّ» (ص١٨٧ - ١٨٨) عن الهرويِّ بإسناده إلىٰ أبي زرعة الرَّازيّ. وفي سنده أبو الفضل ابن إسحاق، قال الألبانيُّ في «مُختصر العلوّ» (ص٢٠٣): «لم أعرفه».

وروىٰ أبو القاسم اللَّالكائيّ - صاحب أبي حامد الإسفراييني[١] - في (أصول السُّنَّة) بإسناده عن محمَّد بن الحسن - صاحب أبي حنيفة - قال: «اتَّفق الفُقهاءُ كلُّهم مِن المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقُرآن والأحاديث الَّتي جاء بها الثِّقاتُ عن رسول الله ﷺ في صفة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: مِن غيرِ تفسيرٍ ولا وصفٍ ولا تَشبيهٍ، فمَن فسّر اليوم شيئًا مِن ذلك فقدْ خرَج ممَّا كان عليه النَّبيُّ ﷺ وفارق الجماعةَ؛ فإنَّهم لم يَصفُوا ولم يُفسِّروا، ولكن أَفتَوا بما في الكتاب والسُّنَّة ثمَّ سَكتُوا، فمَن قال بقولِ جهمٍ فقد فارَق الجماعةَ، فإنَّه وصفَه بصفة لا شيء»[٢]. اهـ.

محمَّد بن الحسن أَخَذ عن أبي حنيفة ومالكٍ وطبقتِهما مِن العُلماء، وقد حكىٰ علىٰ هذا الإجماع، وأخبر أنَّ الجهميَّة تصفُه بالأمور السّلبيَّة غالبًا أو دائمًا.

وقولُه: «مِن غيرِ تفسيرٍ» أرادَ به تفسير الجهميَّة المُعطِّلة الَّذين ابتدعُوا تفسير الصِّفات بخلافِ ما كان عليه الصَّحابةُ والتَّابعون مِن الإثبات.

وروىٰ البيهقيُّ وغيرُه بأسانيدَ صحيحةٍ عن أبي عُبيد القاسم بن سلام[٣] قال: «هذه الأحاديثُ الَّتي يقولُ فيها: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ»[٤]،

---

(١) قال المُحقِّق (ص٣٢٨): «هو أحمد بن أبي طاهر محمَّد بن أحمد الإسفراييني. شيخ الشَّافعية ببغداد، قيل: إنَّه كان يحضر في مجلسِه أكثرُ مِن ثلاثمائة فقيهٍ، وُلد سنة (٣٤٤)، وتوفِّي سنةَ (٤٠٦)».

(٢) أخرجه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٧٤٠)، وصحَّحه شيخُ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤ - ٥)، وانظر: «مُختصر العلوّ» (ص١٥٩).

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٣٠) - باختصار -: «أبو عُبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، مِن أهل خُراسان. كان مُؤدّبًا صاحب نحو وعربيَّة، روىٰ عنه الحاكم أنَّه قال: (المُتَّبع السُّنَّة كالقابض علىٰ الجمر، هو اليوم عندي أفضل مِن ضرْب السَّيف في سبيل الله). وُلد سنة (١٥٧)، وتُوفِّي سنة (٢٢٤). مِن مُصنَّفاته: (غريب الحديث)، و(الأموال) و(الناسخ والمنسوخ)، وغيرها».

(٤) سبق تخريجه (ص٦٨٥).

و«أَنَّ جَهَنَّمَ لا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ الجَبَّارُ قَدَمَهُ فِيهَا»[١]، و«الكُرْسِيُّ مَوْضِعُ القَدَمَينِ»[٢]، وهذه الأحاديث في الرُّؤيةِ هي عندنا حقٌّ حمَلها الثّقات بعضهم عن بعضٍ، غير أَنَّا إذا سُئلْنا عن تَفسيرِها لا نُفسّرها، وما أَدركْنا أحدًا يُفسِّرُها»[٣] اهـ.

أبو عُبيدٍ أحدُ الأئمَّة الأربعة الَّذين هم: الشَّافعيُّ وأحمد وإسحاق وأبو عُبيدٍ، وله من المعرفة بالفقه واللُّغة والتَّأويل ما هو أشهرُ مِن أنْ يوصف، وقد كان في الزَّمان الَّذي ظهرتْ فيه الفتنُ والأهواءُ، وقد أخبر أنَّه ما أدركَ أحدًا مِن العُلماءِ يُفسِّرُها - أي: تفسير الجهميَّة -.

وروىٰ اللَّالكائيُّ والبيهقيُّ عن عبدِ اللهِ بن المُبارك أنَّ رجلًا قال له: يا أبا عبد الرَّحمن إنِّي أكرهُ الصِّفةَ - عنىٰ: صفةَ الرَّبِّ -، فقال له عبد الله بن المُبارك: «أنا أشدُّ النَّاس كراهةً لِذلكَ، ولكن إذا نطَق الكتابُ بشيءٍ قُلنا به، وإذا جاءتْ الآثارُ بشيءٍ جسَرْنا عليه»[٤] ونحو هذا.

أراد ابنُ المُبارك: أنَّا نكرهُ أنْ نبتدئَ بوصفِ اللهِ مِن ذاتِ أنفُسنا حتَّىٰ يجيء

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٨٥).

(٢) ورد موقوفًا عن ابن عبَّاس؛ رواه عبد الرَّزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠)، والدَّارميُّ في «النقض علىٰ بشر المريسي» (ص١٤٦ الشوامي) وصحَّحه، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٨ - ٢٤٩)، وابنُ أبي حاتم في «التَّفسير» (٢/ ٤٩١)، والحاكم في «المُستدرك» (٣١١٦)، والبيهقي في «الأسماء والصِّفات» (٧٥٨ و٨٥٩). وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشَّيخَينِ»، ووافقه الذَّهبيُّ.

وقد جاء عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثل ما ورد عن ابن عبَّاس، رواه ابن المنذرِ بإسنادٍ صحيحٍ. قاله الحافظُ ابنُ حجر في «فتح الباري» (٨/ ١٩٩).

(٣) «الأسماء والصِّفات» للبيهقيِّ (٧٦٠)، وبنحوه الدَّارقطنيُّ في «الصِّفات» (٦٨ - ٦٩ فقيهي)، والذَّهبيّ في «العلوّ» (ص١٧٣)، وقال الألبانيُّ في «مُختصر العلوِّ» (١٨٦): «إسنادُه صحيحٌ».

(٤) أخرجه اللَّالكائيُّ في «أصول الاعتقاد» (٧٣٧)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٧٢٦).

به الكتاب والآثار.

وروى عبد الله بن أحمدُ وغيرُه بأسانيدَ صحاحٍ عن ابن المُبارك أنَّه قيل له: بماذا نعرفُ ربَّنا؟ قال: «بأنَّه فوق سمواته، على عرشه، بائن مِن خلْقِه، ولا نقولُ كما تقول الجهميَّة: إنَّه ههنا في الأرض»[١].

وهكذا قال الإمام أحمد وغيره[٢].

وروى بإسنادٍ صحيحٍ عن سُليمان بن حرب[٣] - الإمام -: سمعتُ حمَّاد بن زيدٍ وذكَر هؤلاء الجهميَّة، فقال: «إنَّما يُحاولون أن يقولُوا: ليس في السَّماء شيءٌ»[٤].

وروى ابنُ أبي حاتم في كتاب «الرَّدّ على الجهميَّة» عن سعيد بن عامر الضّبعي[٥] - إمام أهل البصرة علمًا ودينًا، مِن شُيوخ أحمد - أنَّه ذُكر عنده الجهميَّةُ، فقالَ: «هم شرٌّ قولًا مِن اليهود والنَّصارى، وقد اجتمعَ اليهودُ والنَّصارى وأهلُ الأديان مع

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٢٢ و٥٩٨)، والدَّارميّ في «الرَّدّ على الجهميَّة» (ص٤٧البدر)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٩٠٢ و٩٠٣)، والذَّهبيُّ في «العلوّ» (ص١٤٩)، وقال ابنُ القيِّم في «اجتماع الجُيوش» (ص٣٢٤الفوائد): «صحَّ عنه صحّةً قريبةً مِن التَّواتُر». وصحَّحه الألبانيُّ في «مُختصر العلوّ» (ص١٥٢).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٣٤): «انظُر: (الرَّدّ على الجهميَّة) للإمام أحمد (ص١٣٥)، و(إثبات صفة العلوّ) لابن قُدامةَ (ص١٦٧)، و(العلوّ) للذَّهبيّ (ص١٣٠)، و(اجتماع الجيوش الإسلاميَّة) لابن القيِّم (ص٢٠٠)».

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٣٤): «سُليمان بن حرب بن بجيل، أبو أيُّوب الأزدي، ولِي قضاءَ مكَّة، قال عنه أبو حاتم: (سُليمان بن حرب إمام من الأئمَّة) اهـ. وُلد سنةَ (١٤٠)، وتوفي سنةَ (٢٢٤) بالبصرةِ».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٤١)، وفي «المُسند» (٢٧٥٨٦)، والخلَّال في «السُّنَّة» (١٦٩٥ و١٦٩٦)، وابن بطَّة في «الإبانة» (٣٢٩)، والذَّهبيُّ في «العلوّ» (ص١٤٣)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في «المُختصر» (ص١٤٧).

(٥) قال المُحقِّق (ص٣٣٥): «سعيد بن عامر الضّبعي البصريّ، أبو مُحمَّد، قال زياد بن أيُّوب: (ما رأيتُ بالبصرةِ مثلَ سعيد الضّبعيّ). وقال الإمامُ أحمدُ: (ما رأيتُ أفضلَ منه). تُوفِّي سنة (٢٠٨)، وله (٨٦) سنةً».

المُسلمين علىٰ أنَّ اللهَ علىٰ العرش. وقالُوا هُمْ: ليس عليه شيءٌ»[١].

وقال محمَّد بن إسحاق بن خُزيمة - إمام الأئمَّة -: «مَن لم يقُلْ: إنَّ اللهَ فوقَ سمواتِه علىٰ عرشِه، بائنٌ مِن خلقه؛ وجَب أنْ يُستتابَ، فإنْ تابَ وإلَّا ضُربَتْ عُنقُه، ثم أُلقيَ علىٰ مِزبلةٍ؛ لئلَّا يتأذَّىٰ بنتن ريحه أهلُ القِبلةِ، ولا أهلُ الذِّمَّةِ».
وذكره عنه الحاكم[٢] بإسنادٍ صحيحٍ[٣].

وقد روىٰ عبدُ الله بنُ أحمد، عن عبَّاد بن العوَّام الواسطيّ[٤] - إمام أهلِ واسط، مِن طبقةِ شُيوخ الشَّافعيّ وأحمد - قال: «كلَّمتُ بِشْرَ المرّيسيَّ وأصحابَ بِشْرٍ؛ فرأيتُ آخرَ كلامِهم ينتهي أنْ يَقولُوا: ليس في السَّماءِ شيءٌ»[٥].

وعن عبد الرَّحمن بنِ مهدي[٦] - الإمام المشهور - أنَّه قال: «ليس في

---

(١) أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ كما في «العلوّ» للذَّهبيّ (ص١٥٨). وذكره البُخاريُّ في «خلْق أفعالِ العباد» (ص٣١ المعارف).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٣٦) - باختصار -: «محمَّد بن عبد الله بن حمدويه، أبو عبد الله ابن البيِّع الشَّافعيّ. قال الذَّهبيُّ: (صنَّف وخرَّج، وجرَّح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل، وكان مِن بُحور العِلم). وُلد سنةَ (٣٢١)، وتُوفي سنةَ (٤٠٥)، مِن مُصنَّفاتِه: (المستدرك علىٰ الصَّحيحين) و(معرفة علوم الحديث) و(تاريخ نيسابور) و(الإكليل)».

(٣) أخرجه الحاكمُ في «معرفة عُلوم الحديث» (ص٨٤الكتُب العلميَّة)، والهرويُّ في «ذمّ الكلام» (١٢٤٥)، والصَّابونيّ في «عقيدة السَّلف» (ص١٨٧ العاصمة)، وابنُ قُدامة في «العلوّ» (ص١٨٥ الغامدي)، وذكَره الذَّهبيُّ في «العلوِّ» (ص٢٠٧).

(٤) قال المُحقِّق (ص٣٣٦): «هو عبَّاد بن العوام بن عمر بن عبد الله المُنذر، أبو سهل الكلابي الواسطي، قال عنه ابنُ سعد: (كان مِن نُبلاءِ الرِّجال في كلِّ أمْره). اهـ. تُوفي سنة (١٨٥)».

(٥) أخرجه عبدُ الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٦٥)، والخلَّال في «السُّنَّة» (١٧٥٣ و١٧٥٦)، وذكَره الذَّهبيُّ في «العُلوّ» (ص١٥١)، وانظُر: «مُختصر العلوّ» (ص١٥٤).

(٦) قال المُحقِّق (ص٣٣٨) - باختصار -: «عبد الرَّحمن بن مهدي بن حسَّان، أبو سعيد العنبريّ =

أصحابِ الأهواءِ شرٌّ مِن أصحابِ جهمٍ، يَدورون علىٰ أنْ يَقولُوا: ليس في السَّماءِ شيءٌ، أرىٰ واللهِ أنْ لا يُناكحُوا، ولا يُوارثُوا»[(١)].

وروىٰ عبد الرَّحمن ابنُ أبي حاتم في كتاب (الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة) عن عبد الرَّحمن بن مهديّ قال: «أصحابُ جهمٍ يُريدون أنْ يقولُوا: إنَّ اللهَ لم يُكلِّم مُوسىٰ، ويُريدون أنْ يَقولُوا: ليس في السَّماءِ شيءٌ، وأنَّ اللهَ ليس علىٰ العرشِ، أرىٰ أنْ يُستتابوا؛ فإنْ تابُوا وإلَّا قُتلُوا»[(٢)].

وعن الأصمعيِّ[(٣)] قال: «قدِمتْ امرأةُ جهْمٍ فنزلَتْ الدَّباغِين، فقال رجلٌ عندها: الله علىٰ عرشه، فقالتْ: محدودٌ علىٰ محدودٍ؟ وقال الأصمعيُّ: كافرة بهذه المقالة»[(٤)].

وعن عاصم بن عليّ بن عاصم[(٥)] - شيخ أحمد والبخاريِّ وطبقتِهما -

---

= البصريّ. قال الشَّافعيُّ: (لا أعرفُ له نظيرًا في هذا الشَّأن)، وقال ابن المدينيِ: (لو حلفتُ بين الرُّكن والمقام لَحلفتُ أنِّي لم أَرَ أحدًا أعلم مِنه)، وقال الذَّهبيُّ: (كان إمامًا حجَّةً، قُدوةً في العلم والعمل). وُلد (١٣٥هـ)، وتُوفِّي (١٩٨هـ)».

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (١٤٧).

(٢) أخرجه البيهقيُّ بنحوه في «الأسماء والصِّفات» (١/ ٦٠٨ رقم٥٤٦) من طريق أخرىٰ عن ابن مهدي. وصححه شيخ الإسلام في «درء التَّعارض» (٦/ ٢٦١ - ٢٦٢)، وقال الذَّهبيُّ في «العُلوِّ» (ص ٤٣٤): «نقلَه غيرُ واحدٍ بإسنادٍ صحيحٍ». **وانظر**: «المُختصر» (ص١٦٩ - ١٧٠).

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٣٩) - باختصار -: «هو عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك، الأصمعيّ البصريّ، حجَّة في الأدب واللُّغة. قال الشَّافعيّ: (ما عبَّر عن العرب بأحسن مِن عبارة الأصمعي). وقد أثنىٰ عليه الإمام أحمد في السُّنَّة. وقال الذَّهبيُّ: (الإمام العلَّامة الحافظ، حجَّة الأدب، لسان العرب). توفي سنة (٢١٦)».

(٤) عزاه ابنُ القيِّم لابن أبي حاتم كما في «اجتماع الجُيوش الإسلاميَّة» (ص٣٤٠عالم الفوائد)، وذكَره الذَّهبيُّ في «العُلوِّ» (ص ١٥٩)، **وانظر**: «مُختصر العُلوّ» (ص١٧٠ - ١٧١).

(٥) قال المُحقِّق (ص٣٤١) - باختصار -: «عاصم بن عليّ بن عاصم الواسطيّ، أبو الحسين. قال ابنُ =

قال: «ناظرتُ جهميًّا، فتبيَّنَ مِن كلامِه أنَّه لا يُؤمنُ أنَّ في السَّماءِ ربَّه»[١].

وروى الإمام أحمدُ، حدَّثنا سريج بن النُّعمان[٢]، قال: سمعت عبد الله بن نافع الصَّائغ[٣]، قال: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقولُ: «اللهُ في السَّماء، وعلمُه في كلِّ مكانٍ، لا يخلو مِن عِلمِه مكانٌ»[٤].

وقال الشَّافعيُّ: «خلافةُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حقٌّ قضاها اللهُ في سمائِه، وجمَع عليه قلوبَ عِبادِه»[٥].

وفي الصَّحيحِ عن أنس بن مالكٍ، قالَ: كانتْ زينبُ تَفتخرُ علىٰ أزواجِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تقولُ: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»[٦]، وهذا مثلُ قولِ الشَّافعيِّ.

=

معين: (سيِّد المُسلمين). وقال الذَّهبي: (كان عاصم رَحِمَهُ اللَّهُ ممَّن ذبَّ عن الدِّين في المحنة). كان يُحدِّث في مسجد الرّصافة في بغداد، وكان يحضر مجلسه قَريب من مائة ألف، توفي سنة (٢٢١)».

(١) ذكَره الذَّهبيُّ في «العُلوّ» (ص ١٦٧)، وانظر: «مختصر العُلوّ» (ص١٧٩).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٤١ - ٣٤٢) - باختصار -: «سريح بن النُّعمان بن مروان، أبو الحسن اللّؤلؤي، أصله مِن خُراسان، وسكن بغداد. قال الذَّهبيُّ: (كان مِن أعيان المُحدِّثين). تُوفي سنة (٢١٧) في ذي الحِجَّة».

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٤٢) - باختصار -: «عبد الله بن نافع الصَّائغ، مِن كبار أصحاب مالك، وقد لزمَه لُزومًا شديدًا، حتَّىٰ رُوي عنه أنَّه قال: (صحبتُ مالكًا أربعين سنةً، ما كتبتُ شيئًا منه، وإنَّما كان حفظًا أتحفظه). قال عنه أحمد: (كان صاحب رأي مالك، وفقَّه أهل المدينة برأي مالكٍ). تُوفِّي سنةَ (٢٠٦)».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٥٣٢)، وأبو داود في «مسائل الإمام أحمد» (ص٣٥٣ ابن تيمية)، وغيرهما، وذكَره الذَّهبيُّ في «العُلوّ» (ص ١٣٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في «المُختصر» (ص١٤٠).

(٥) أخرجه ابنُ قدامة في «العلوّ» (ص ١٨١ الغامدي) بإسناده إلىٰ ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلىٰ عن الشافعي، وفي إسناده أبو الحسن الهكاري، وهو متكلّم فيه. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ١١٢ المعرفة).

(٦) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقصَّة أبي يُوسفَ - صاحب أبي حنيفة - مشهورةٌ في استتابة بشر المرِّيسي حتَّىٰ هرَب منه، لمَّا أنكرَ الصِّفات، وأظْهرَ قولَ جهْمٍ، قد ذكرها ابنُ أبي حاتم وغيره(١).

وقال أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي زمنين(٢) - الإمام المشهور مِن أئمَّة المالكيَّة - في كتابه الَّذي صنَّفه في (أصول السُّنَّة) قال فيه: باب الإيمان بالعرش، قال: «ومِن قولِ أهلِ السُّنَّة أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خلَق العرْشَ واختصَّه بالعُلوِّ والارتفاع فوقَ جميعِ ما خلَق، ثمَّ استوىٰ عليه كيف شاء، كما أخبَر عن نفسِه في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد:٤] الآية. فسبحان من بعُد وقرُب بعلمِه فسمِع النَّجوىٰ. وذكَر حديث أبي رزين العقيليّ؛ قلتُ: يا رسولَ الله، أينَ ربُّنا قبْل أن يَخلُق السَّموات والأرض؟ قال: «فِي عَمَاءٍ، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَىٰ المَاءِ»(٣)، قال محمَّد: العماء السَّحاب الكثيف المُطبق - فيما ذكره الخليل(٤) -.

وذكَر آثارًا أُخرَ، ثُمَّ قال: باب الإيمان بالكُرسيِّ. قال مُحمَّد بن عبد الله: «ومِن قولِ أهلِ السُّنَّة أنَّ الكرسيَّ بين يدَي العرش، وأنَّه موضعُ القدمَين». ثُمَّ

(١) ذكرها الذَّهبيّ في «العلوّ» (ص١٥١)، وانظر: «مختصر العلوّ» (ص١٥٤ - ١٥٥).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٤٤) - باختصار -: «محمَّد بن عبد الله بن عيسىٰ المريّ الأندلسيّ. نعتَه الذَّهبيُّ بأنَّه صاحب عبادةٍ وتقوىٰ وإخلاص، كان مُجانبًا للأمراءِ، مُقتفيًا الآثار والسَّلفَ، راسخًا في العلم. وُلد سنة (٣٢٤)، وتُوفِّي سنة (٣٩٩). مِن مُصنَّفاته: (مُختصر المدوَّنة) (مُنتخب الأحكام) (حياة القلوب) (أصول السُّنَّة)».

(٣) أخرجه التِّرمذيّ (٣١٠٩)، وابنُ ماجه (١٨٢) وغيرهما، وضعَّفه الألبانيُّ في «السلسلة الضَّعيفة» (٥٣٢٠).

(٤) قال المحقِّق (ص ٣٤٦): «هو الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن. كان إمامًا في لسان العرب، وأوَّل من قال بعلم العَروض. قال عنه الذَّهبيُّ: (كان رأسًا في لسان العرب، ديِّنًا ورعًا قانعًا مُتواضعًا كبير الشَّأن). اهـ. تُوفي سنة (١٧٠)».

ذكَر حديث أنسٍ الَّذي فيه التَّجلِّي يوم الجُمعة في الآخرةِ، وفيه: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ هَبَطَ مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ يحفُّ الكُرْسِيَّ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَة بِالجَوَاهِرِ؛ ثُمَّ يَجِيءُ النَّبِيُّونَ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا»[(١)]. وذكر ما ذكره يحيىٰ بن سلام[(٢)] صاحب التَّفسير المشهور: حدَّثني المعلىٰ بن هلال[(٣)]، عن عمَّار الدّهنيّ[(٤)]، عن سعيد بن جبير[(٥)] عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ الكُرْسِيَّ الَّذِي وَسِعَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَمَوْضِعُ القَدَمَيْنِ؛ وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَ العَرْشِ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المُصنَّف» (٥٥١٧) - ومِن طريقِه ابنُ أبي زمنَين في «أُصول السُّنَّة» (ص٩٦البخاريّ) -، والآجرّيُّ في «الشَّريعة» (٦١٢)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٧/ ٢٤ رقم ٢٤) وغيرهم. وفي سنده عُثمان بن عُمير - ويقال: ابن قيس، وابن أبي حميد أيضًا - ضعيفٌ. كما في «التَّقريب».
وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤٢٢٨)، والطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٢٠٨٤)، مِن طريقَين آخرَين عن أنسٍ، وقوَّاه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٩٣٣).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٥٠) - باختصار -: «يحيىٰ بن سلام بن أبي ثعلبة، أبو زكريا البصري. قال الدَّاني: (كان ثقةً ثبتًا، عالمًا بالكتاب والسُّنَّة، وله معرفة باللُّغة العربيَّة). وقال عن تفسيره: (ليس لأحدٍ مِن المُتقدِّمين مثلَه). تُوفي سنةَ (٢٠٠)».

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٥٠) - باختصار -: «المُعلىٰ بن هلال بن سُويد الحضرمي، أبو عبد الله الطَّحان الكوفي، اتَّفق العُلماء علىٰ تكذيبه، قال البخاريُّ: تركوه. وقال ابن معين: مِن المعروفين بالكذِب ووضْع الحديث».

(٤) قال المُحقِّق (ص٣٥٠ - ٣٥١): «هو عمَّار بن معاوية بن أسلم البجلي، الدّهني الكوفي، أبو معاوية، وثَّقه الإمام أحمد وجماعةٌ. تُوفِّي سنة (١٣٣)».

(٥) قال المُحقِّق (ص٣٥١) - باختصار -: «سعيدُ بن جُبير بن هشام، أبو محمَّد الأسديّ، مولاهم الكوفي. مِن كبار العُلماء العاملين، صاحب زُهدٍ وعبادةٍ، لا يخاف في الله لومةَ لائم. قال الذَّهبيُّ: (الإمام الحافظ المُقرئ المُفسِّر الشَّهيد). وقال ميمونُ بن مهران: (مات سعيد بن جُبير، وما علىٰ الأرض أحدٌ إلَّا وهو مُحتاج إلىٰ علمه). توفي سنة (٩٥)».

(٦) انظر: (ص٦٩٣).

وذكَر حديث أسدِ بن مُوسىٰ[(١)]؛ ثنا حمَّاد بن سلمة عن عاصم[(٢)] عن زرٍّ[(٣)] عن ابن مسعود قال: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمائَةِ عَامٍ، وَبينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمائَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[(٤)].

ثمَّ قال في باب الإيمان بالحجب؛ قال: ومِن قَولِ أهلِ السُّنَّة أنَّ اللهَ بائنٌ مِن خَلْقِه يَحتجبُ عنهم بالحجُب، فتعالىٰ اللهُ عمَّا يقولُ الظَّالمون عُلوًّا كبيرًا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف:٥]، وذكَر آثارًا في الحجب.

ثمَّ قالَ في بابِ الإيمان بالنُّزول؛ قال: ومِن قولِ أهلِ السُّنَّة أنَّ اللهَ يَنزلُ إلىٰ

---

(١) قال المُحقِّق (ص٣٥١) - باختصار -: «أسد بن موسىٰ بن إبراهيم، ابن الخليفة الوليد بن عبد الملك، القرشي الأموي، أبو سعيد. يلقَّب بأسد السُّنَّة. قال الذَّهبيُّ: (الإمام الحافظ الثِّقة، ذو التَّصانيف). توفي سنة (٢١٢)، من مُصنَّفاته (الزُّهد)».

(٢) قال المحقِّق (ص٢٥١) - باختصار -: «عاصم بن بهدلة بن أبي النَّجود، أبو بكر الأسديّ مولاهم الكوفي، مِن كبار القرَّاء، مِن القرَّاء السَّبْعةِ. قال العجلي: (صاحب سنَّة وقراءةٍ، كان رأسًا في القُرآن). توفِّي سنة (١٢٧)».

(٣) قال المحقِّق (ص٢٥٢): «هو زرُّ بن حُبيش بن حباشة بن أوس الكوفي، أبو مريم الأسدي. أدرك أيَّام الجاهليَّة، وحدَّث عن جمع مِن كبار الصَّحابة، كان مِن القُرَّاء، وقد قرأ علىٰ ابن مسعودٍ وعليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال عنه عاصم بن أبي النَّجود: (ما رأيتُ أحدًا أقرأ من زرٍّ) اهـ. تُوفي سنة إحدىٰ وثمانين، وقد تجاوُز عمره المائة».

(٤) أخرجه ابنُ أبي زمنين في «أصول السُّنَّة» (ص١٠٤)، والدَّارميُّ في «الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة» (ص٥٥)، وفي «النَّقض علىٰ المريسي» (ص١٥٧)، وابنُ خزيمة في «التَّوحيد» (١/ ٢٤٢ - ٢٤٣ و٢٤٤)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٨٩٨٧)، وأبو الشَّيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٨ - ٦٨٩)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٨٥١)، مِن طرُق عن حمَّاد بن سلمة به. وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في «العلوُّ» (ص١٠٣ - مختصر العلوّ)، وابنُ القيِّم كما في «مختصر الصَّواعق» (ص٤٣٥).

السَّماء الدُّنيا، ويُؤمنون بذلك مِن غيرِ أنْ يَحدُّوا فيه حدًّا، وذكَر الحديثَ مِن طريقِ مالكٍ وغيرِه[١].

إلىٰ أنْ قالَ: وأخبرني وهبٌ[٢] عن ابن وضَّاح[٣] عن زهير بن عبَّاد[٤] قالَ: «مَن أدركتُ مِن المشايخ؛ مالكٍ وسُفيانَ الثَّوريّ وفضيلِ بن عياض وعيسىٰ[٥] وابن المُبارك ووكيعٍ[٦]: كانوا يقولون: النُّزولُ حقٌّ».

قال ابنُ وضَّاح: «وسألتُ يوسف بن عديّ[٧] عن النُّزولِ، قال: نعم، أُومنُ به، ولا أحدُّ فيه حدًّا. وسألت عنه ابن معينٍ[٨]، فقال: أُقرُّ به، ولا أَحدُّ فيه حَدًّا».

---

(١) انظر: «صحيح البخاريّ» (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» (٧٥٨).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٥٥) - باختصار -: «هو وهب بن مسرَّة بن مفرج، أبو حزم التَّيمي الأندلسيّ الحجازي المالكيّ. قال الذَّهبيُّ: (كان رأسًا في الفقه، بصيرًا بالحديث ورجاله مع ورع وتقوىٰ، دارت الفُتيا عليه ببلده). توفِّي سنة (٣٤٦)».

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٥٦) - باختصار -: «محمَّد بن وضَّاح بن بزيع، أبو عبد الله القرطبيُّ، قال ابن الفرضي: (كان عالمًا بالحديث، بصيرًا بطرُقه، مُتكلِّمًا عن علله، كثير الحكاية عن العباد وزاهدًا). توفي سنة (٢٨٧)».

(٤) قال المحقِّق (ص٣٥٦): «هو زُهير بن عباد بن مليح بن زهير الرّؤاسيّ، الكوفيّ، ابن عمِّ وكيع بن الجرَّاح. وثَّقه أبو زُرعةَ، وأحمد بن أبي الحواري. توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين».

(٥) قال المحقِّق (ص٣٥٦) - باختصار -: «عيسىٰ بن يونس بن أبي إسحاق، أبو عمرو الهمداني، السّبيعي الكوفيّ، إمام قُدوةٌ حافظٌ، قال الذَّهبيُّ: (كان واسع العلم، كثير الرِّحلة، وافر الجلالة). تُوفِّي سنة (١٨٧)».

(٦) قال المُحقِّق (ص٣٥٦): «هو وكيعُ بن الجرَّاح بن مليح بن عدي، أبو سفيان الرؤاسي الكوفي. إمام وقته، وحافظ زمانه، ذو زهد وعبادة. قال عنه الإمام أحمدُ: (ما رأيتُ أحدًا أوعىٰ للعلم ولا أحفظ من وكيع) اهـ. وقال عنه الذَّهبيُّ: (كان مِن بُحور العلم وأئمَّة الحفظ). اهـ».

(٧) قال المُحقِّق (ص٣٥٧): «هو يوسف بن عديّ بن زريق بن إسماعيل، أبو يعقوب، التيمي الكوفي، أقام بمصر، وحدَّث بها إلىٰ أن توفي سنة (٢٣٢)».

(٨) قال المُحقِّق (ص٣٥٧) - باختصار -: «هو يحيىٰ بن معين بن عون، أبو زكريا المري، كان إمامًا عالمًا، حاذقًا في نقد الرِّجال، كتُب الجرح والتَّعديل تزخر بأقواله. روي عنه أنَّه قال: (كتبتُ بيدي ألفَ ألف حديث).
=

قال محمَّدٌ: وهذا الحديث يُبيِّنُ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه في السَّماءِ دون الأرض، وهو أيضًا بيِّنٌ في كتاب الله، وفي غيرِ ما حديثٍ عن رسولِ الله ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾ [السَّجدة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ ﴾ [الملك:١٦ - ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ [النِّساء:١٥٨].

وذكَر مِن طريقِ مالكٍ قولَ النَّبيِّ ﷺ للجاريةِ: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قال: مَنْ أَنَا؟ قالتْ: رَسُولُ اللهِ، قالَ: فأعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[(١)].

قال: والأحاديثُ مثلُ هذا كثيرةٌ جدًّا، فسبحان مَن عِلْمُه بما في السَّماءِ كعلْمِه بما في الأرض، لا إلهَ إلَّا هو العليُّ العظيمُ»[(٢)].

وقال قبل ذلك: «بابٌ في الإيمان بصفاتِ الله تعالىٰ وأسمائِه»؛ قال: «واعلَمْ بأنَّ أهلَ العلم بالله، وبما جاءَتْ به أنبياؤُه ورسلُه يروَن الجهلَ بما لم يُخبر بهِ

=

وقال ابن المديني: (ما أعلم أحدًا كتب ما كتب يحيىٰ بن معين). ولد سنة (١٥٨)، وتوفي سنة (٢٣٣)».

(١) أخرجه مالكٌ في «الموطَّأ» (٢/ ٧٧٦ - ٧٧٧ عبد الباقي)، ومن طريقه ابنُ أبي زمنَين في «أصول السُّنَّة» (ص١١٤)، وليس فيه: «فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». وأخرجه مسلمٌ - من غير طريق مالك - برقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ووهِم فيه مالكٌ فقال: عن عُمر بن الحكم. انظُر: «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (٢٢/ ٧٨ - ٧٩)، و«التَّقريب» لابن حجر (ص٤١١عوامة).

(٢) انظر: «أصول السُّنَّة» لابن أبي زمنين (ص٨٨ - ١١٤).

تعالىٰ عن نفسِه عِلْمًا، والعجز عمَّا لم يدع إليه إيمانًا، وأنَّهم إنَّما ينتهون مِن وصفِه بصفاتِه وأسمائِه إلىٰ حيثُ انتهىٰ في كتابِه، وعلىٰ لسان نبيِّه.

وقد قال الله تعالىٰ - وهو أصدقُ القائلين -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور:٤٨]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمر:٦٧]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّساء:١٦٤]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور:٣٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، ومثل هذا في القرآن كثيرٌ.

فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نورُ السَّموات والأرض كما أخبرَ عن نفسِه، ولهُ وجهٌ ونفسٌ وغيرُ ذلك ممَّا وصف به نفسَه، ويسمعُ ويرىٰ ويتكلَّم، الأوَّلُ ولا شيءَ قبلَه، والآخرُ الباقي إلىٰ غير نهايةٍ، ولا شيءَ بعْدَه، والظَّاهرُ العالي فوقَ كُلِّ شيءٍ، والباطن بطن علمه بخلقِه؛ فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣]، حيٌّ قيُّومٌ، لا تأْخذُه سِنةٌ ولا نومٌ.

وذكَر أحاديثَ الصِّفات، ثُمَّ قالَ: «فهذه صفاتُ ربِّنا الَّتي وصَف بها نفسَه في كتابِه، ووصفَه بها نبيُّه، وليس في شيءٍ منها تحديدٌ ولا تشبيهٌ ولا تقديرٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١]، لم تره العيون فتحدّه

كيف هو، ولكنْ رأتْه القُلوب في حقائق الإيمان»[١] اهـ.

وكلامُ الأئمَّة في هذا الباب أطولُ وأكثرُ مِن أنْ تسعَ هذه الفُتيا عُشره.

وكذلك كلام النَّاقلين لمذهبهم؛ مثلُ ما ذكَره أبو سليمان الخطَّابي[٢] في رسالته المشهورة في (الغُنية عن الكلام وأهله)، قال: «فأمَّا ما سألتَ عنه مِن الصِّفات، وما جاء منها في الكتاب والسُّنَّة؛ فإنَّ مذهبَ السَّلفِ إثباتُها وإجراؤُها علىٰ ظواهرِها، ونفي الكيفيَّة والتَّشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأبطلُوا ما أثبته اللهُ، وحقَّقها قومٌ مِن المُثبِتِينَ فخرجُوا في ذلك إلىٰ ضرْبٍ مِن التَّشبيهِ والتَّكييفِ، وإنَّما القصْدُ في السُّلوك الطَّريقة المُستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالىٰ بيْن الغالي فيه، والجافي والمُقصِّر عنه.

والأصل في هذا: أنَّ الكلامَ في الصِّفات فرعٌ عن الكلامِ في الذَّات، يَحتذِي في ذلك حذوَه ومثالَه. فإذا كان مَعلومًا أنَّ إثباتَ البارِي سُبحانه إنَّما هو إثباتُ وجودٍ لا إثباتُ كيفيَّةٍ، فكذلكَ إثباتُ صفاتِه إنَّما هو إثباتُ وُجودٍ لا إثباتُ تحديدٍ وتكييفٍ.

فإذا قُلنا: يدٌ وسمْعٌ وبصرٌ وما أشبهها، فإنَّما هي صفاتٌ أثبتَها اللهُ لِنفسِه؛

---

(١) انظر: «أصول السُّنَّة» لابن أبي زمنين (ص٦٠ - ٧٤).

(٢) قال المُحقّق (ص٣٦١) - باختصار -: «هو حمد بن محمَّد بن إبراهيم بن الخطَّاب، مِن ولَد زيدِ بن الخطَّاب، أبو سُليمان البستي. جمع بين علم الحديث والفقه، والشِّعر واللُّغة، وقد أخَذ الفقه علىٰ مذهب الشَّافعيِّ. قال عنه أبو الطَّاهر السِّلفي: (إذا وقف منصف علىٰ مصنَّفاته، واطَّلع علىٰ بديع تصرفاته في مؤلَّفاته؛ تحقَّق إمامتَه وديانته فيما يُورِدُه وأمانتَه). توفي سنة (٣٨٨). ومِن مؤلَّفاته: (معالم السُّنن)، و(غريب الحديث)، و(العزلة) و(شرح أسماء الله الحُسنىٰ)، و(الغُنية عن الكلام). وقد خالف السَّلف وتأوَّل بعض الصِّفات؛ نحو: تأويل صفة الاستواء والنُّزول والضَّحك والفرح ويمين الله والأصبع وغير ذلك».

ولسْنا نقولُ: إنَّ معنىٰ اليد القوَّة أو النِّعمة، ولا معنىٰ السَّمع والبصر العلم؛ ولا نقولُ: إنَّها جوارحُ، ولا نُشبِّهها بالأيدي والأسماع والأبصار الَّتي هي جوارحُ وأدواتٌ للفِعل، ونقولُ: إنَّما وجَب إثباتُ الصِّفات لأنَّ التَّوقيفَ ورد بها، ووجَب نفي التَّشبيه عنها لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، وعلىٰ هذا جرىٰ قولُ السَّلف في أحاديثِ الصّفاتِ» هذا كلُّه كلامُ الخطَّابي.

وهكذا قال أبو بكر الخطيبُ الحافظ[1] في رسالةٍ له أخبَر فيها أنَّ مذهب السَّلف علىٰ ذلك[2].

وهذا الكلامُ الَّذي ذكَره الخطَّابيُّ قد نقل نحوًا منه مِن العُلماء من لا يحصىٰ عددُهم؛ مثل: أبي بكر الإسماعيليّ[3]، والإمام يحيىٰ بن عمَّار السّجزي[4]، شيخُ

(١) قال المُحقّق (ص٣٦٥) - باختصار -: «أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغداديّ. وصفَه الذَّهبيُّ: بالإمام الأوحد، والعلَّامة المفتي، والحافظِ النَّاقدِ، مُحدِّث الوقت، طلَب هذا الشَّأن، ورحَل فيه إلىٰ الأقاليم، وبرع وصنَّف وجمع، وسارت بتصانيفه الرُّكبان، وتقدَّم في عامَّة فنون الحديث. ولد سنة (٣٩٢)، وتوفي سنة (٤٦٣). مِن مُؤلَّفاته: (تاريخ بغداد)، (شرف أصحاب الحديث)، (الفقيه والمتفقّه)، (تقييد العلم)، (الرِّحلة في طلب الحديث). وهو علىٰ مذهب السَّلف في الصِّفات، كما صرَّح بنفسه، وذكره الأئمَّة، قال الذَّهبيُّ: (فقد صرَّح الخطيب في أخبار الصِّفات أنَّها تمرُّ كما جاءتْ بلا تأويل)».

(٢) انظر: «العلوّ» للذَّهبيِّ (ص٢٥٣ - ٢٥٤)، و«مُختصر العلوِّ» للألباني (ص٤٧ - ٤٩ و٢٧٢ - ٢٧٣).

(٣) قال المُحقّق (ص٣٦٧) - باختصار -: «هو أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، الجرجانيّ الإسماعيليّ، أبو بكر الشافعيُّ. إمام أهل جرجان، قال الحاكم: (واحد عصره، وشيخ المُحدّثين والفقهاء، وأجلّهم في الرِّئاسة والمُروءة والسَّخاء). وُلد سنة (٢٧٧)، وتُوفي سنةَ (٣٧١). مِن مُصنَّفاته: (المستخرج علىٰ صحيح البخاري)، وقد كان سلفيَّ الاعتقاد، كما روىٰ عنه ذلك الذَّهبيُّ».

(٤) قال المُحقّق (ص٣٦٧) - باختصار -: «هو يحيىٰ بن عمَّار بن يحيىٰ السِّجستانيّ، أبو زكريا، كان بارعًا في التَّفسير. قال أبو إسماعيل الأنصاري: (كان ملكًا في زي عالم). وقال الذَّهبيُّ: (كان مُتحرِّقًا علىٰ المُبتدعة والجهميَّة). وذكر عنه شيخ الإسلام أنَّه كان يذهبُ إلىٰ ما ذهب إليه السَّلف في صفة الاستواء، =

شيخِ الإسلام أبي إسماعيل الهرويّ، ومثل أبي عُثمان الصَّابوني شيخ الإسلام[١]، وأبي عُمر ابن عبد البرِّ النَّمري إمام المغرب وغيرهم.

وقال أبو نُعيم الأصبهاني[٢] صاحب (الحلية) في عقيدةٍ له، قال في أوَّلها: «طريقتُنا طريقةُ المُتَّبعين للكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة»؛ قال: «فممَّا اعتقدُوه أنَّ الأحاديثَ الَّتي ثَبَتَتْ عن النَّبيِّ ﷺ في العرش واستواء اللهِ يقولون بها، ويُثبتونَها مِن غيرِ تَكييفٍ ولا تَمثيلٍ ولا تشبيهٍ، وأنَّ اللهَ بائنٌ مِن خلقِه، والخلقُ بائنون منه؛ لا يحلُّ فيهم ولا يَمتزجُ بِهم، وهو مستوٍ علىٰ عرشه في سمائه دون أرضِه وخلقِه»[٣].

وقال الحافظُ أبو نُعيم في كتابه (محجّة الواثقين ومدرجة الوامقين)، تأليفه: «وأجمعُوا أنَّ اللهَ فوق سمواتِه، عالٍ علىٰ عَرشِه، مُستوٍ عليه، لا مُستولٍ عليه؛ كما تقولُ الجهميَّة: إنَّه بكُلِّ مكانٍ؛ خِلافًا لِمَا نزَل في كتابِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ =

وحكىٰ إجماع السَّلف علىٰ أنَّ القُرآن غيرُ مخلوق، وأنَّ الله يُرىٰ في الآخرة، وأنَّه فوق العالم. توفي بهراة سنة (٤٢٢)».

(١) قال المُحقّق (ص٣٦٨) - باختصار -: «إسماعيل بن عبد الرَّحمن بن أحمد، أبو عثمان الصَّابوني، شيخ الإسلام، كان مِن سُيوف السُّنَّة، شديدًا علىٰ أهل البدع، برع في التّفسير والحديث والوعظ. قال البيهقيُّ: (إمامُ المُسلمين حقًّا، وشيخ الإسلام صدقًا). وقال الذَّهبيُّ: (ولقد كان مِن أئمَّة الأثر، له مُصنّف في السُّنَّة واعتقاد السَّلف، ما رآه منصف إلَّا واعترف به). توفي سنة (٤٤٩). من مُصنَّفاته: (عقيدة السَّلف أصحاب الحديث)».

(٢) قال المُحقّق (ص٣٦٩) - باختصار -: «أحمد بن عبد الله بن أحمد، المهرانيّ الأصبهانيّ. مِن الحُفَّاظ الكبار، ومُحدّث وقته. قال الذَّهبيُّ: (رحلتْ الحُفَّاظ إلىٰ بابه لِعلمه وحفظِه وعلوِّ إسنادِه). وقال شيخُ الإسلام: (من أكبر حفَّاظ الحديث، ومِن أكثرهم تصنيفاتٍ، وممَّن انتفع النَّاسُ بتصانيفِه، وهو أجلُّ مِن أنْ يُقالَ له: ثقة؛ فإنَّ درجتَه فوق ذلك)، توفي سنة (٤٣٠)، وقد بلَغ (٩٤) سنةً، من مصنّفاته: (حلية الأولياء)، (ذِكْر أخبار أصبهان)، (المستخرج علىٰ الصّحيحين)، (صفة الجنَّة)».

(٣) ذكره الذَّهبي في «العلوّ» (ص٢٤٣)، وانظر: «مُختصر العلوّ» للألباني (ص٢٦١).



أن ﴿يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك:١٦]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥]، له العرش المُستوي عليه، والكرسيّ الّذي وسع السّموات والأرض، وهو قولُه تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وكرسيُّه جسمٌ، والسّموات السّبعُ والأرضون السّبعُ عند الكرسيِّ كحلقة في أرض فَلاةٍ، وليس كرسيُّه علْمَه كما قالت الجهميَّة، بل يُوضع كرسيُّه يوم القيامة لفصْل القضاء بين خلْقِه؛ كما قاله النّبيُّ ﷺ[(١)]، وأنّه - تعالىٰ وتقدّس - يَجيءُ يوم القيامةِ لِفصل القضاءِ بين عبادِه والملائكةُ صفًّا صفًّا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر:٢٢]، وأنّه - تعالىٰ وتقدّس - يجيءُ يومَ القِيامةِ لِفصلِ القضاءِ بين عِبادِه فيغفرُ لِمن يشاءُ مِن مُذنِبي المُوحدِّين، ويُعذِّبُ مَن يشاءُ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران:١٢٩]». اهـ.

وقال الإمامُ العارفُ معمر بن أحمد الأصبهاني[(٢)] - شيخ الصُّوفيَّة في حدود المائة الرَّابعةِ في بلاده - قال: «أحببتُ أنْ أُوصيَ أصحابي بوصيَّةٍ مِن السُّنَّة، وموعظةٍ مِن الحِكمة؛ وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتَّصوُّف مِن المُتقدِّمين والمُتأخِّرين». قال فيها: «وإنَّ اللهَ استوىٰ علىٰ عرشِه بلا كيف ولا تشبيهٍ ولا تأويلٍ، والاستواءُ معقولٌ، والكيفُ فيه مجهولٌ. وأنّه عَزَّوَجَلَّ

---

(١) ورد هذا في حديثٍ أخرجه ابنُ ماجه (٤٠١٠)، وابنُ حبان (٥٠٥٨) عن جابرٍ رضي الله عنه. وصحّحه لغيرِه الألبانيُّ في «التّعليقاتِ الحسان» (٥٠٣٦).

(٢) قال المُحقّق (ص٣٧٤): «هو معمر بن أحمد بن محمد بن زياد الأصبهاني، أبو منصور. شيخ الصوفية في زمانه بأصبهان. توفي سنة ثمان وأربعمائة، له رسالة في التَّصوُّف».

مُستوٍ علىٰ عرشِه، بائنٌ مِن خلْقِه، والخلْقُ منه بائنون؛ بلا حُلولٍ ولا مُمازجةٍ، ولا اختلاطٍ ولا مُلاصقةٍ؛ لأنَّه الفردُ البائن مِن خلْقِه، الواحدُ الغنيُّ عن الخلق.

وإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سميعٌ بصيرٌ، عليمٌ خبيرٌ، يتكلَّمُ ويرضىٰ ويسخط، ويضحك ويعجب، ويتجلَّىٰ لعباده يوم القيامةِ ضاحكًا، ويَنزلُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدُّنيا كيف شاء، فيقولُ: هلْ مِن داعٍ فأستجيب له؟ هل مِن مُستغفرٍ فأغفر له؟ هل مِن تائبٍ فأتوب عليه؟ حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ[1]، ونزول الرَّبِّ إلىٰ السَّماءِ بلا كيفٍ ولا تشبيهٍ ولا تأويلٍ. فمَن أنكَر النُّزولَ أو تأوَّل فهو مُبتدعٌ ضالٌّ، وسائرُ الصَّفوةِ مِن العارفين علىٰ هذا»[2] اهـ.

وقال الشَّيخُ الإمامُ أبو بكر أحمدُ بن محمَّد بن هارون الخلَّال في (كتاب السُّنَّة): «ثنا أبو بكر الأثرم، ثنا إبراهيم بن الحارث - يعني: العبادي -[3]، حدَّثنا اللَّيثُ بن يحيىٰ[4] قال: سمعتُ إبراهيمَ بنَ الأشعث[5]، - قال أبو بكر: وهو صاحب الفضيل -، قال: سمعتُ الفُضيل بن عياضٍ يقولُ: ليس لنا أنْ نتوهَّمَ في الله كيف هو؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ وصَف نفسَه فَأَبْلَغَ، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» (٧٥٨).

(٢) رواه قوام السُّنَّة الأصبهانيُّ في «الحُجة في بيان المحجَّة» (١/ ٢٣١ فما بعدها/ المدخلي)، وذكَره ابنُ القيِّم في «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص٤٢٣)، والذَّهبيُّ في «العُلوِّ» (ص٢٤٣ - ٢٤٤).

(٣) قال المُحقِّق (ص٣٧٥) - باختصار -: «إبراهيم بن الحارث بن مصعب، أبو إسحاق العبادي، قال الخلَّال: كان من كبار أصحاب أبي عبد الله، يعني: أحمد. وكان أحمد يعظِّمُه ويرفعُ قدْره، ويُثني عليه».

(٤) قال المُحقِّق (ص٣٧٥): «لم أقف علىٰ ترجمته».

(٥) قال المُحقِّق (ص٣٧٥): «إبراهيم بن الأشعث البخاريّ، خادم الفضيل بن عياض، روىٰ عنه الرّقائق، ويروي عن ابن عُيينة، قال أبو حاتم: (كنَّا نظنُّ به الخير، فقد جاء بمثل هذا الحديثِ، وذكَر حديثًا ساقطًا)، وقال ابن حبَّان: (يغرب وينفرد، ويُخطئ ويُخالفُ)».

ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، فلا صفة أبلغ ممَّا وصفَ به نفسَه.

وكلُّ هذا: النُّزول والضَّحك وهذه المُباهاة وهذا الاطِّلاع؛ كما يشاء أن ينزلَ، وكما يشاء أن يباهيَ، وكما يشاء أن يضحكَ، وكما يشاء أن يطَّلع. فليس لنا أن نتوهَّم كيف وكيف.

فإذا قال الجهميُّ: أنا أكفر بربٍّ يَزولُ عن مكانِه. فقُل: بلْ أُومِنُ بربٍّ يفعلُ ما يشاءُ. ونقَل هذا عن الفُضيل جماعةٌ؛ منهم البخاريُّ في (أفعال العباد)[١].

ونقَله شيخُ الإسلام[٢] بإسنادِه في كتابه (الفاروق) فقال: حدَّثني يحيىٰ بن عمَّار، ثنا أبي[٣]، ثنا يوسفُ بن يعقوب[٤]، ثنا حرمي بن عليّ البُخاري[٥] وهانئ بن النَّضر[٦] عن الفُضيل.

وقال عمرو بن عُثمان المكِّي[٧] في كتابه الَّذي سمَّاه (التَّعرُّف بأحوال العباد

(١) انظر: «خلق أفعال العباد» (ص٣٦ عميرة). وأخرجه عن الفُضيل أيضًا: ابنُ بطَّة في «الإبانةِ» (١٥٩)، واللَّالكائيُّ في «أصولِ الاعتقاد» (٧٧٥)، وغيرهما. وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (٤١٤ - ٤١٥).

(٢) أي: أبو إسماعيل الهروي.

(٣) قال المُحقق (ص٣٧٧): «هو عمَّار بن يحيىٰ بن عمَّار بن العنبس، الشَّيباني السِّجستاني، عاش في القرن الرَّابع تقريبًا».

(٤) قال المُحقِّق (ص٣٧٧): «لعلَّه يوسفُ بن يعقوب بن إسماعيل، الأزدي مولاهم البصري، أبو محمَّد، المُلقَّب (يوسف القاضي). قال عنه البغداديُّ: (كان ثقةً صالحًا عفيفًا مهيبًا سديدَ الأحكام). وذكر ابنُ كثير أنَّه هو الَّذي قتَل الحلَّاج، ونعتَه بأنَّه مِن أكابر العُلماء وأعيانِهم. تُوفِّي سنة (٢٩٧)».

(٥) قال المُحقق (ص٣٧٧): «لم أقف له علىٰ ترجمةٍ».

(٦) قال المُحقق (ص٣٧٧): «لم أقف له علىٰ ترجمةٍ».

(٧) قال المُحقق (ص٣٧٧): «عمرُو بن عُثمان بن كُرَب بن غُصص، أبو عبد الله المكِّيُّ. مِن مشايخ

والمتعبِّدين) قال: «ما يجيءُ به الشَّيطان للتَّائبين»، وذكَر أنَّه يُوقعهم في القُنوطِ، ثُمَّ في الغُرور وطُول الأمل، ثُمَّ في التَّوحيدِ، فقال: «مِن أعظمِ ما يُوسوسُ في التَّوحيد بالتَّشكيكِ، أو في صفاتِ الرَّبِّ بالتَّمثيل والتَّشبيه، أو بالجحدِ لها والتَّعطيل». فقال بعد ذِكْرِ حديثِ الوسوسة:

«واعلم - رحمك الله تعالىٰ - أنَّ كلَّ ما توهَّمَه قلبُك، أو سنح في مجاري فِكْرِك، أو خطَر في مُعارضاتِ قلْبِك؛ مِن حُسنٍ أو بهاءٍ، أو ضياءٍ أو إشراقٍ، أو جمال أو شبح مائل أو شخص مُتمثِّل: فاللهُ تعالىٰ بغير ذلك، بل هو تعالىٰ أعظمُ وأجلُّ وأكبرُ؛ ألا تسمعُ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشُّورىٰ:١١]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص:٤]، أي: لا شبيهَ ولا نظيرَ ولا مساويَ ولا مِثْلَ، أَوَلَمْ تعلمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا تجلَّىٰ للجبل تدكدك لعظم هيبته وشامخ سُلطانِه؟! فكما لا يتجلىٰ لشيءٍ إلَّا اندكَّ؛ كذلك لا يتوهَّمه أحدٌ إلَّا هلكَ. فرُدَّ بما بيَّن اللهُ في كتابه مِن نفيِه عن نفسِه التَّشبيهَ والمثلَ والنَّظيرَ والكُفؤَ.

فإن اعتصمتَ به وامتنعتَ منه أتاكَ من قِبَل التَّعطيل لِصفات الرَّبِّ - تعالىٰ وتقدَّس - في كتابِه وسنَّة رسولِه محمَّد ﷺ، فقال لك: إذا كان موصوفًا بكذا أو وصفته أوجبَ لك التَّشبيه فأَكذِبْهُ؛ لأنَّه اللَّعين إنَّما يُريدُ أنْ يَستزلَّك ويُغويَك ويُدْخلَك في صِفاتِ المُلحدين الزَّائغين الجاحدين لصفةِ الرَّبِّ تعالىٰ.

= الصُّوفيَّة، ومن عُلماء الأصول في الفقه، صحب الجُنيد، وسكن بغداد حتَّىٰ تُوفِّي سنة (٢٩٧)، وقد كتب كتبًا في الآفاق يلعن فيها الحلَّاج، ويُحذِّر النَّاسَ مِن شرِّه. وقد أثنىٰ عليه شيخُ الإسلام، وذكَر أنَّه مِن الشُّيوخ المشهورين بالخير، المُثبتين للصِّفات، الَّذين أنكرُوا علىٰ الجهميَّة والحلوليَّة».

فاعلمْ - رحمَك اللهُ تعالىٰ - أنَّ الله تعالىٰ واحد لا كالآحاد، فردٌ صمدٌ لم يلدْ ولم يُولدْ ولم يكن له كفوا أحد». إلىٰ أنْ قالَ: «خلصت له الأسماء السّنيَّة فكانت واقعة في قديم الأزل بصدْقِ الحقائق، لم يستحدث تعالىٰ صفةً كان منها خليًّا، واسمًا كان منه بريًّا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فكان هاديًا سيهدي، وخالقًا سيخلق، ورازقًا سيرزقُ، وغافرًا سيغفرُ، وفاعلًا سيفعلُ، لم يحدث له الاستواءُ إلَّا وقد كان في صفة أنَّه سيكون ذلك الفعلُ؛ فهو يُسمَّىٰ به في جُملةِ فِعلِه. كذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢] بمعنىٰ أنَّه سيجيءُ؛ فلم يستحدث الاسمَ بالمجيءِ، وتَخلّف الفعل لِوقت المَجيءِ؛ فهو جاءٍ سيجيءُ، ويكون المجيءُ منه موجودًا بصفةٍ لا تلحقُه الكيفيَّة ولا التَّشبيهُ؛ لأنَّ ذلك فعلُ الرُّبوبيَّة، فتحسُر العقول وتنقطعُ النَّفس عند إرادةِ الدُّخول في تحصيلِ كيفيَّة المعبودِ، فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا معطِّلًا ولا مُشبِّهًا، وارضَ للهِ بما رضِيَ به لِنفسِه، وقِفْ عندَ خبَره لنفسِه مُسلِّمًا مُستسلِمًا مُصدِّقا؛ بلا مباحثة التَّنفير، ولا مناسبة التَّنقير».

إلىٰ أنْ قال: «فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القائلُ: (أنا الله) لا الشَّجرةُ، الجائي قبْل أنْ يكونَ جائيًا؛ لا أمره المُتجلِّي لأوليائِه في المعادِ؛ فتبيضُّ به وُجوهُهُم، وتفلج به علىٰ الجاحدين حُجَّتُهم، المستوي علىٰ عرشه بعظمةِ جلاله فوق كلِّ مكانٍ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -، الَّذي كلَّم موسىٰ تكليمًا، وأراه مِن آياتِه فسمع مُوسىٰ كلام الله؛ لأنَّه قرَّبه نَجيًّا. تقدَّس أنْ يكون كلامُه مخلوقًا أو مُحدثًا أو مربوبًا، والوارث لِخلقِه، السَّميع لأصواتِهم، النَّاظر بعينِه إلىٰ أجسامهم، يداه مبسوطتان، وهما غيرُ نعمتِه، خلَق آدم، ونفَخ فيه مِن رُوحِه - وهو أمْرُه - تعالىٰ وتقدَّس أنْ يحلَّ

بجسمٍ، أو يمازج بجسم، أو يلاصق به تعالىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا، الشَّائي له المشيئة، العالم له العلم، الباسط يدَيهِ بالرَّحمة، النَّازلُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماء الدُّنيا؛ ليتقرَّبَ إليه خلقُه بالعبادة، وليرغبُوا إليه بالوسيلة، القريب في قُربِه مِن حبْل الوريدِ، البعيدُ في عُلوِّه مِن كلِّ مكانٍ بعيد، ولا يُشبَّه بالنَّاس».

إلىٰ أن قال: « ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، القائل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:١٦ - ١٧]، تعالىٰ وتقدَّس أنْ يكونَ في الأرض كما في السَّماء جلَّ عن ذلك علوًّا كبيرًا»(١) اهـ.

وقال الإمامُ أبو عبدِ الله الحارث بن إسماعيل بن أسد المُحاسبي(٢) في كتابه المُسمَّىٰ (فهم القرآن) قال في كلامه علىٰ النَّاسخ والمنسوخ، وأنَّ النَّسخَ لا يجوزُ في الأخبار، قال: «لا يحلُّ لأحدٍ أن يعتقد أنَّ مدْحَ اللهِ وأسمائه وصفاته يجوزُ أنْ

---

(١) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص٤٢٠ - ٤٢٢)، و«العُلوّ» للذَّهبيّ (ص٢٢٩ - ٢٣٠ مُختصر العلوّ).

(٢) قال المُحقِّق (ص٣٨٥ - ٣٨٦): «الحارث بن أسد المحاربيُّ، العنزي البغداديّ، أبو عبد الله، سمّي المحاسبيّ لكثرة محاسبته لنفسه، كان في زمانه إمامًا في الفقه والتصوف، وقد عرف بالزهد والورع. قال عنه الخطيب: (له كتب كثيرة في الزُّهد وأصول الدِّيانة والرَّدّ علىٰ المُعتزلة والرافضة)، وقال الذَّهبيُّ: (المُحاسبي كبير القدر، وقد دخل في شيء يسير من الكلام، فنقم عليه. وورد أنَّ الإمامَ أحمد أثنىٰ علىٰ حال الحارث من وجهٍ وحذّر منه)... وُلد حوالي سنة (١٧٠)، وتوفي سنة (٢٤٣). له مصنَّفاتٌ جمَّة منها: (هداية المسترشدين)، (آداب النفوس)، (كتاب التَّوهم)، (كتاب العلم)، (محاسبة النفوس)، (فهْمُ القُرآن)، (العقل).

وقد دخل في شيء من علم الكلام وصنَّف فيه، وكان علىٰ قول ابن كلَّاب في نفي ما يقوم بذات الله من الأمور الاختياريَّة المتعلِّقة بمشيئته وقدرته، ولهذا أمَر الإمامُ أحمدُ بهجر الحارث، وقيل: إنَّ الحارث رجع عن ذلك، وأيضًا فقد كان يُنسب إلىٰ شيءٍ مِن التَّصوُّف، وألَّف فيه».

ينسخ منها شيءٌ».

إلىٰ أنْ قال: «وكذلك لا يجوزُ إذا أخبر أنَّ صفاته حسنة عُليا أنْ يُخبرَ بعد ذلك أنَّها دنيَّة سُفلىٰ؛ فيصفُ نفسَه بأنَّه جاهلٌ ببعض الغيبِ، بعد أنْ أخبرَ أنَّه عالمٌ بالغَيبِ، وأنَّه لا يُبصرُ ما قد كانَ، ولا يسمع الأصوات، ولا قُدرةَ له، ولا يتكلَّم، ولا الكلام كان منه، وأنَّه تحتَ الأرض لا علىٰ العرش جَلَّ وَعَلَا عن ذلك.

فإذا عرفتَ ذلك واستيقنْتَه: عَلمتَ ما يجوزُ عليه النَّسخ وما لا يجوزُ، فإنْ تَلوتَ آيةً في ظاهرِ تلاوتِها تحسبُ أنَّها ناسخةً لبعض أخبارِه؛ كقولِه عنْ فِرعونَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس:٩٠]، وقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمَّد:٣١].

وقالَ: قد تأوَّل قومٌ: أنَّ اللهَ عنىٰ أنْ يُنجيه ببدنِه مِن النَّار؛ إذْ قدْ آمَن عند الغرَق، وقالوا: إنَّما ذكَر اللهُ أنَّ قومَ فِرعونَ يدخلونَ النَّار دونه، وقال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾ [غافر:٤٥]، ولم يقل: بفرعون. وقال: وهكذا الكذب علىٰ الله؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النَّازعات:٢٥].

وكذلك قوله: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت:٣]، فأقرَّ التّلاوة علىٰ استئناف العلم من الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يستأنف علمًا بشيءٍ؛ لأنه مَن ليس له علمٌ بما يُريدُ أنْ يصنعَه لم يَقدِرْ أنْ يصنعَه - نجده ضرورة - [1].

(١) قال المُحقِّق (ص٣٨٩): «أسقط الشَّيخُ هنا عدَّة أسطُر، لا بأس بذكرها لِيتَّضحَ كلامُ الحارث، قال بعْد قولِه: (أن يصنعه): (وهذا نجدُه ضرورة في فِطَرِنا، فلو لم نرَ كتابًا قطُّ، ولم نُحسنْ أنْ نكتبَ لم يجُزْ لنا أنْ نكتُب كتابًا مؤلّفًا بمعاني مفهومة بالتَّخمين أبدًا، وكذلك جميع الصِّناعات من لم يرها فيعلمها، أو توصف له فيعلمها، لم يحسن أن يأتي بها أبدًا، فاللهُ جلَّ ذِكرُه أولىٰ بعلم ما يكوّنه قبْل أن يكوّنه...)».

قال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [المُلك:١٤][1]، قال: وإنَّما قولُه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾، إنَّما يريدُ: حتىٰ نراه فيكون معلومًا موجودًا؛ لأنَّه لا جائزَ أن يكون يعلمُ الشَّيءَ معدومًا مِن قبْلِ أنْ يكونَ، ويعلمه مَوجودًا كان قد كان؛ فيعلم في وقتٍ واحدٍ معدومًا موجودًا وإن لم يكن، وهذا المُحال».

وذكَر كلامًا في هذا في الإرادةِ.

إلىٰ أنْ قالَ: «وكذلك قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشُّعراء:١٥]، ليس معناه أنْ يحدثَ له سمعًا، ولا تكلّف بسمع ما كان مِن قولهم، وقد ذهَب قومٌ مِن أهلِ السُّنَّة أنَّ لله استماعًا حادثًا في ذاتِه؛ فذهبوا إلىٰ أنَّ ما يعقلُ مِن الخلْقِ أنَّه يحدثُ منهم علم سمع لما كان من قوله؛ لأنَّ المخلوقَ إذا سمِعَ حدَث له عقد فهم عمَّا أدركته أذُنه مِن الصَّوتِ. وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة:١٠٥]، لا يستحدث بصرًا مُحدثًا في ذاتِه، وإنَّما يحدثُ الشَّيء فيراه مكوَّنًا كما لم يزلْ يعلم قبْل كونِه».

إلىٰ أنْ قال: «وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السَّجدة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤]، وقال لعيسىٰ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ بَل

---

(١) قال المُحقِّق (ص٣٨٩): «سقَط هنا قريب من صفحةٍ، حول علم الله بما كان، وبما سيكون وما لم يكُن لو كان كيف يكون، والاستدلال علىٰ ذلك».

رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وذكر الآلهة: أن لو كان آلهة لابتغوا إلىٰ ذي العرش سبيلًا إلىٰ طلبه حيث هو، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلىٰ:١].

قال أبو عبد الله: فلن ينسخ ذلك لهذا أبدًا.

كذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المُجادلة:٧]، فليس هذا بناسخٍ لهذا، ولا هذا ضد لذلك.

واعلم أنَّ هذه الآيات ليس معناها أنَّ اللهَ أراد الكون بذاته فيكون في أسفل الأشياء، أو ينتقلُ فيها لاستفالها، ويتبعَّض فيها علىٰ أقدارِها، ويزول عنها عند فنائِها، جلَّ وعزَّ عن ذلك، وقد نزع بذلك بعضُ أهلِ الضَّلالِ؛ فزعمُوا أنَّ اللهَ تعالىٰ في كلِّ شيءٍ بنفسِه كائنًا، كما هو علىٰ العرش؛ ولا فرْق بين ذلك عندهم، ثمَّ أحالوا في النَّفي بعد تثبيت ما يجوز عليه في قولهم ما نفوه؛ لأنَّ كلَّ مَن يُثبتُ شيئًا في المعنىٰ، ثم نفاه بالقول لم يُغنِ عنه نفيُه بلسانه، واحتجُّوا بهذه الآيات أنَّ الله تعالىٰ في كلِّ شيءٍ بنفسِه كائنًا، ثُمَّ نفوا معنىٰ ما أثبتُوا، فقالُوا: لا كالشَّيء في الشَّيءِ.

قال أبو عبد الله: أمَّا قولُه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فإنَّما معناه: حتَّىٰ يكون الموجود فيعلمه موجودًا، ويسمعه مسموعًا، ويبصره مبصرًا، لا علىٰ استحداثِ علمٍ ولا سمعٍ ولا بصرٍ.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ﴾: إذا جاء وقتُ كونِ المُرادِ فيه. وأنَّ قوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، فهذا وغيرُه مثلُ قولِه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾، هذا منقطع يوجبُ أنَّه فوق العرش؛ فوق الأشياء كلِّها، مُنزَّهٌ عن الدُّخول في خلْقِه، لا يخفىٰ عليه منهم خافيةٌ؛ لأنَّه أبان في هذه الآيات أنَّ ذاته بنفسِه فوق عِبادِه؛ لأنَّه قالَ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني: فوق العرش، والعرش فوق السَّماء؛ لأنَّ مَن قد كان فوق كلِّ شيءٍ علىٰ السَّماء في السَّماء، وقد قال مثل ذلك في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التَّوبة:٢] يعني: علىٰ الأرض؛ لا يريدُ الدُّخول في جوفها، وكذلك قوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة:٢٦]، يعني: علىٰ الأرض؛ لا يُريدُ الدُّخولَ في جوفِها، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] يعني: فوقها عليها.

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ثمَّ فصَل فقال: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ولم يَصلْ، فلم يكُن لذلك معنًىٰ - إذ فصل قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ثمَّ استأنف التَّخويفَ بالخسْفِ - إلَّا أنَّه علىٰ عرشه فوق السَّماءِ.

وقال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السَّجدة:٥]، وقال: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤]. فبيَّن عُروجَ الأمرِ وعُروجَ الملائكةِ، ثمَّ وصَف وقْتَ صُعودِها بالارتفاعِ صاعدةً إليه، فقال: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج:٤]، فقال: صعودُها إليه[1]، وفصَله مِن

(١) قال المُحقِّق (ص٣٩٦): «في (فهم القرآن): ثُمَّ وصف صعودَها بالارتفاع صاعدة إليه، فقال: (إليه =



قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، كقول القائل: اصعدْ إلىٰ فُلان في ليلة أو يوم، وذلكَ أنَّه في العلوِّ، وأنَّ صعودَك إليهِ في يومٍ، فإذا صعدوا إلىٰ العرش فقد صعدوا إلىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإن كانُوا لم يرَوه، ولم يُساوُوه في الارتفاع في علوِّه، فإنَّهم صعدُوا مِن الأرضِ، وعرجُوا بالأمر إلىٰ العلوِّ، قال الله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، ولم يقُل: عنده.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، ثمَّ استأنف الكلام فقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧] فيما قال لي: إنَّ إلهَه فوقَ السَّمواتِ.

فبيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ فرعونَ ظنَّ بمُوسىٰ أنَّه كاذبٌ فيما قال: وعمد لِطلبِه حيثُ قاله من الظَّن بموسىٰ أنَّه كاذبٌ، ولو أنَّ موسىٰ قالَ: إنَّه في كلِّ مكانٍ بذاتِه لَطلبَه في بيتِه أو في بدنِه أو حشِّه. فتعالىٰ الله عن ذلك، ولم يُجهِدْ نفسَه ببنيان الصَّرحِ.

قال أبو عبد الله: وأمَّا الآيةُ الَّتي يَزعمُون أنَّها قد وصلَها - ولم يقطعها كما قطع الكلام الَّذي أراد به أنَّه علىٰ عرشه - فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المُجادلة:٧]، فأخبر بالعلم، ثمَّ أخبرَ أنَّه مع كلِّ مُناجٍ، ثُمَّ ختَم الآية بالعلْم؛ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾، فبدأ بالعلْم وختَم بالعِلْم: فبيَّن أنَّه أراد أنَّه يعلمهم حيثُ كانوا؛ لا يَخفون عليهِ، ولا يخفىٰ عليه مُناجاتُهم. ولو اجتمع القوم في أسفل، وناظر إليهم في العُلوِّ. فقال: إنِّي لم أزلْ أراكُم وأعلم مُناجاتكم؛ لكان صادِقًا - ولله المثَل الأعلىٰ أن يُشبِهَ الخلْق - فإنْ أبوا إلَّا ظاهر التِّلاوة، وقالُوا: هذا منكم دعوىٰ؛ خرجوا عن قولِهم في ظاهرِ التِّلاوة؛ لأنَّ مَنْ

= يصعد الكلم الطيب)، وقال: (ثم يعرج إليه)، ثم قال: (في يوم كان مقداره) مقدار صعودها... إلخ».

هو مع الاثنين أو أكثر؛ هو معهم لا فيهم، ومن كان مع الشَّيءِ فقد خلا منه جسمُه، وهذا خروجٌ مِن قولِهم.

كذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦]؛ لأنَّ ما قرب مِن الشَّيء ليس هو في الشَّيءِ، ففي ظاهر التِّلاوة علىٰ دعواهم أنَّه ليس في حبْل الوريدِ[١].

وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف:٨٤]، لم يقل: (في السماء) ثم قطَع، - كما قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، ثمَّ قطَع فقالَ: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾-، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾ يعني: إله أهل السَّماء، وإله أهل الأرض، وذلك موجودٌ في اللُّغةِ؛ تقول: فلانٌ أميرٌ في خُراسان، وأميرٌ في بلخ، وأميرٌ في سمرقند؛ وإنَّما هو موضعٌ واحدٌ، ويخفىٰ عليه ما وراءَه، فكيف العالي فوق الأشياءِ لا يخفىٰ عليه شيءٌ مِن الأشياء يُدبره فهو إلهٌ فيهما إذا كان مُدبرًا لهما، وهو علىٰ عرشِه فوق كلِّ شيءٍ تعالىٰ عن الأشباه والأمثال»[٢] اهـ.

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بنُ خفيف[٣] في كتابه الَّذي سمَّاه: (اعتقاد التَّوحيد بإثبات الأسماء والصِّفات)، قال في آخر خُطبتِه: «فاتَّفقتْ أقوالُ المُهاجرين والأنصار في توحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاتِه وقضائِه قولًا

(١) قال المُحقِّق (ص٤٠٠): «اختصر الشَّيخُ هنا الكلام علىٰ آية القرب، أمَّا في (فهم القرآن) فقد تحدَّث عنه المحاسبي بكلام طويل، وما أورده الشيخُ جزءٌ يسيرٌ مِن ذلك».

(٢) انظر: (فهم القرآن) للمُحاسبي (ص٣٣٢ - ٣٥٦ القوتلي)، مطبوع مع كتاب (العقل) له أيضًا.

(٣) قال المُحقِّق (ص٤٠٣) - باختصار -: «محمَّد بن خفيف، الشِّيرازي، أبو عبد الله. من مشايخ الصُّوفيَّة، درس علىٰ الأشعري، قال الفسويّ: (صنَّف شيخُنا ابن خفيف من الكتب ما لم يُصنِّفه أحدٌ، وانتفع به جماعةٌ صاروا أئمَّة يُقتدىٰ بهم، وعمر حتَّىٰ عمَّ نفعُه البلدانَ)، وقال الذَّهبيُّ: (قد كان هذا الشيخ قد جمع بين العلم والعمل وعلوِّ السَّندِ، والتَّمسُّك بالسُّنن، ومتَّع بطُول عمره في الطَّاعة). وُلد حوالي سنة (٢٦٨)، وتوفِّي سنة (٣٧١)، مِن مؤلَّفاته: (الوصية)، (العقيدة) أو (المعتقد)، كتاب (الاقتصاد)».

واحدًا، وشرعًا ظاهرًا، وهم الَّذين نقلُوا عن رسولِ الله ﷺ ذلك»، حتَّىٰ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»[(١)].. وذكر الحديث، وحديث: «لَعَنَ اللهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا»»[(٢)].

وقالَ: «فكانتْ كلمةُ الصَّحابة علىٰ اتِّفاقٍ مِن غيرِ اختلافٍ - وهم الَّذين أُمِرْنا بالأخذِ عنهم؛ إذْ لم يَختلفُوا بحمْدِ الله تعالىٰ في أحكامِ التَّوحيدِ وأصولِ الدِّينِ مِن الأسماء والصِّفات كما اختلفُوا في الفُروع، ولو كان منهم في ذلك اختلافٌ لِنُقل إلينا؛ كما نُقل سائرُ الاختلافِ - فاستقرَّ صحَّة ذلك عن خاصَّتهم وعامَّتهم؛ حتَّىٰ أدَّوا ذلك إلىٰ التَّابعين لهم بإحسانٍ؛ فاستقرَّ صحَّة ذلك عند العُلماءِ المعروفين؛ حتَّىٰ نقلوا ذلك قرْنًا بعدَ قرْنٍ؛ لأنَّ الاختلافَ كان عندهم في الأصل كفر، ولله المِنَّة.

ثمَّ إنِّي قائلٌ - وبالله أقولُ -: إنَّه لمَّا أحدثُوا في أحكام التَّوحيدِ وذكر الأسماء والصِّفات علىٰ خلافِ منهجِ المُتقدِّمين مِن الصَّحابة والتَّابعين، فخاض في ذلك مَن لم يُعرَفوا بعلْم الآثارِ، ولم يعقلُوا قولهم بذكْرِ الأخبارِ، وصار معوَّلهم علىٰ أحكام هواجس النُّفوس المُستخرجة مِن سُوءِ الطَّويَّة وما وافق علىٰ مُخالفة السُّنَّة، والتَّعلُّق منهم بآياتٍ لم يسعدهم فيها، فتأوَّلوا علىٰ أهوائِهم، وصحَّحوا بذلك مذاهبَهم: احتجت إلىٰ الكشف عن صفة المُتقدِّمين، ومأخذ المؤمنين، ومنهاج الأوَّلين؛ خوفًا مِن الوُقوع في جُملة أقاويلهم الَّتي حذَّر رسولُ الله ﷺ أمَّته، ومنَع المُستجيبين له حتَّىٰ حذرهم».

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وابنُ ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٢) أخرج البخاريُّ (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠) بلفظ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَىٰ ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

ثمَّ ذكَر أبو عبد الله خروج النَّبيِّ ﷺ، وهم يتنازعونَ في القدَر، وغضبه[١]، وحديثَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ»[٢]، وحديث: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[٣]، وأنَّ النَّاجيةَ ما كان عليه هو وأصحابه.

ثمَّ قالَ: «فلزم الأمَّة قاطبةً معرفةُ ما كان عليه الصَّحابةُ، ولم يكُن الوُصولُ إليه إلَّا مِن جهةِ التَّابعين لهم بإحسانٍ، المعروفين بنقل الأخبار ممَّن لا يقبل المذاهبَ المُحدثة. فيتَّصل ذلك قرنًا بعْدَ قرْنٍ ممَّن عُرفوا بالعدالة والأمانة، المُحافظين علىٰ الأمَّة ما لهم وما عليهم مِن إثباتِ السُّنَّة».

إلىٰ أنْ قال: «فأوَّل ما نَبتدئُ به ممَّا أوردنا هذه المسألة مِن أَجْلِها ذِكرُ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ ممَّا ذكَره اللهُ في كتابه، وما بيَّن ﷺ مِن صفاتِه في سُنَّته، وما وصف به عَزَّوَجَلَّ نفسَه ممَّا سنذكرُ قول القائلين بذلك ممَّا لا يجوزُ لنا في ذلك أنْ نردَّه إلىٰ أحكامِ عُقولنا بطلبِ الكيفيَّة بذلك، وممَّا قد أُمِرْنا بالاستسلام له».

إلىٰ أنْ قال: «ثمَّ إنَّ اللهَ تعرَّف إلينا بعد إثبات الوحدانيَّة والإقرار بالألوهيَّة: أن ذكر تعالىٰ في كتابه بعد التَّحقيق، بما بدأ به مِن أسمائه وصفاته، وأكَّده عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقولِه، فقبلُوا منه كقَبولهم لأوائل التَّوحيد مِن ظاهرِ قوله لا إله إلا الله».

---

(١) أخرج ابنُ ماجه (٨٥) عن عمْرو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عنْ جدِّهِ، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ، حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، فَقَالَ: «بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ». قال الألبانيُّ في «صحيح سُنن ابن ماجه» (٦٩): «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، من حديث أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧١٧٢).

(٣) سبق تخريجه (ص٦٠٥).

إلىٰ أنْ قال بإثباتِ (نفسِه) بالتَّفصيل مِن المُجمل، فقال لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٣٠].

ولصحَّة ذلك واستقراره ناجاه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وأكَّد عَلَيْهِ السَّلَامُ صحَّة إثباتِ ذلك في سُنَّته فقال: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»[(١)]، وقال ﷺ: «كَتَبَ كِتَابًا بِيَدِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[(٢)]، وقال: «سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ»[(٣)]، وقال في مُحاجَّة آدمَ لمُوسىٰ: «أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ وَاصْطَنَعَكَ لِنَفْسِهِ»[(٤)].

فقد صحَّ بظاهرِ قولِه: إنَّه أثبت لِنفسِه نفسًا، وأثبتَ له الرَّسولُ ذلكَ، فعلىٰ مَن صدَّق اللهَ ورسولَه اعتقادُ ما أخبر به عن نفسِه، ويكون ذلك مبنيًّا علىٰ ظاهرِ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورىٰ:١١]».

ثمَّ قالَ: «فعلىٰ المؤمنين خاصَّتِهم وعامَّتِهم قَبولُ كلِّ ما ورَد عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ بنقْل العدْلِ عن العدْلِ حتَّىٰ يتَّصلَ به ﷺ، وإنَّ ممَّا قصَّ اللهُ علينا في كتابه، ووصَف به نفسَه، ووردتْ السُّنَّة بصحَّة ذلك أنْ قالَ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثمَّ قال عقيب ذلك: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور:٣٥]، وبذلك دعاه ﷺ:

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بنحوه البخاريُّ (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١)، مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، من حديث جويريةَ بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٧٣٦)، ولفظُه: «قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ، وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»(١)، ثمَّ ذكَر حديثَ أبي مُوسىٰ: «حِجَابُهُ النُّورُ - أو: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(٢)، وقال: (سبحات وجهه): جلالُه ونورُه، نقله عن الخليل وأبي عبيد(٣). وقال: قال عبد الله بن مسعودٍ: نُور السَّمواتِ مِن نُورِ وجهِه»(٤).

ثمَّ قالَ: «وممَّا ورد به النَّصُّ أنَّه حيٌّ»، وذكَر قولَه تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والحديث: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٥).

قال: «وممَّا تعرَّف اللهُ إلىٰ عبادِه أنْ وصَف نفسَه أنَّ له وجْهًا موصوفًا بالجلالِ والإكرامِ، فأثبتَ لِنفسِه وجهًا»، وذكر الآيات.

ثمَّ ذكَر حديثَ أبي مُوسىٰ المتقدِّم؛ فقال: «في هذا الحديثِ مِن أوصاف اللهِ عَزَّوَجَلَّ (لا ينام) موافق لِظاهر الكتاب: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأنَّ له وجهًا موصوفًا بالأنوارِ، وأنَّ له بصرًا؛ كما أعْلَمَنا في كتابِه أنَّه سميعٌ بصيرٌ».

ثمَّ ذكر الأحاديث في إثباتِ الوجهِ، وفي إثبات السَّمع والبصر، والآيات الدَّالَّة علىٰ ذلك.

ثمَّ قالَ: «ثمَّ إنَّ اللهَ تعرَّف إلىٰ عباده المُؤمنين»؛ وأنَّه قال: «له يدان قد بسطَهما بالرَّحمةِ»، وذكَر الأحاديث في ذلك، ثمَّ ذكَر شعر أميَّة بن أبي الصَّلتِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، مِن حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، مِن حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «العين» للخليل (٣/ ١٥٢ الهلال)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ٦ هارون).

(٤) أخرجه أبو داود في «الزُّهد» (١٥٨المشكاة)، والطَّبرانيّ في «الكبير» (٨٨٨٦)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٦٧٤).

(٥) أخرجه الترمذيّ (٣٥٢٤)، مِن حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٣١٨٢).

ثم ذكر حديث: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رِجْلَهُ»، وهي رواية البخاري(١)، وفي روايةٍ أخرىٰ: يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ(٢).

ثمَّ ما رواه مُسلم البطين(٣) عن ابن عبَّاس: أنَّ الكرسيَّ موضعُ القدمَينِ، وأنَّ العرشَ لا يَقدرُ قدرَه إلَّا الله(٤). وذكر قولَ مُسلم البطين نفسِه، وقول السُّدِّي(٥)، وقول وهبِ بن منبه(٦)، وأبي مالك(٧)، وبعضُهم يقول: موضع قدمَيه، وبعضُهم يقول: واضعٌ رجلَيه عليه.

ثمَّ قال: «فهذه الرِّوايات قد رُويَتْ عن هؤلاءِ مِن صدْرِ هذه الأمَّة مُوافقةٌ

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) بلفظ: «أَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ». مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري (٤٨٤٨) عن أنس رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ قَطْ قَطْ».

(٣) قال المحقِّق (ص٤١٤ - ٤١٥): «مُسلمُ بن عِمرانَ، ويُقالُ: ابنُ أبي عمران البطين، أبو عبد الله الكوفيّ، روىٰ عن عطاءٍ ومُجاهدٍ وسعيد بن جُبير. وقد وثَّقه أحمدُ وابنُ معين وأبو حاتم والنَّسائيّ. مِن الطَّبقة السَّادسةِ».

(٤) سبق تخريجه (ص٦٩٣).

(٥) قال المُحقِّق (ص٤١٥) - باختصار -: «هو إسماعيلُ بنُ عبد الرَّحمن بن أبي كريمة، أبو محمَّد الكوفي السُّدِّي، أحد موالي قريش. مِن أئمَّة التَّفسير، حدَّث عن أنس وابن عبَّاس. قال عنه العجليُّ: (ثقةٌ عالمٌ بالتَّفسير، راوية له)، ونعته الذَّهبيُّ بأنَّه الإمامُ المُفسِّر. توفي سنة (١٢٧)».

(٦) قال المُحقِّق (ص٤١٥ - ٤١٦) - باختصار -: «وهبُ بن منبّه بن كامل، أبو عبد الله اليماني الذّماري الصَّنعاني، لقي بعض الصحابة وأخذ عنهم، وُلِد في خلافة عثمان بن عفَّان سنة (٣٤)، اشتهر بالعبادة والزُّهد، وكان واعظًا وصاحب حِكمةٍ، توفي سنة (١١٠)».

(٧) قال المُحقِّق (ص٤١٦) - باختصار -: «غزوان الغفاري الكوفي، أبو مالك، روىٰ عن عمَّار بن ياسر وابن عبَّاس والبراء بن عازب. قال ابن أبي خيثمة: (سألتُ ابن معين عن أبي مالك. فقال: هو الغفاري، كوفيٌّ ثقة)».

لِقولِ النَّبيِّ ﷺ، مُتداولة في الأقوال، ومحفوظة في الصَّدر، ولا ينكر خلفٌ عن سلَف، ولا يُنكر عليهم أحدٌ مِن نُظرائِهم، نقلَتْها الخاصَّة والعامَّة، مدوَّنة في كُتبهم إلىٰ أنْ حدَث في آخر الأمَّة مَن قلَّل اللهُ عددَهم ممَّن حذَّرنا رسولُ الله ﷺ عن مُجالستِهم ومُكالمتِهم، وأمرَنا أنْ لا نَعودَ مرضاهم، ولا نُشيِّع جنائزَهم، فقصد هؤلاء إلىٰ هذه الرِّوايات فضربوها بالتَّشبيه، وعمدُوا إلىٰ الأخبار فعملوا في دفعها إلىٰ أحكام المقاييس، وكفَّروا المُتقدِّمين، وأنكروا علىٰ الصَّحابة؛ وردُّوا علىٰ الأئمَّة الرَّاشدِين؛ فضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السَّبيلِ».

ثمَّ ذكَر المأثور عن ابن عبَّاس وجوابه لنجدة الحروريّ[1]؛ ثم ذكَر حديثَ (الصُّورة)، وذكر أنَّه صنَّف فيه كتابًا مُفردًا، واختلاف النَّاس في تأويلِه.

ثمَّ قال: «وسنذكرُ أصولَ السُّنَّة وما ورَد مِن الاختلافِ فيما نعتقدُه فيما خالفَنا فيه أهلُ الزَّيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديثِ مِن المُثبتة - إنْ شاء الله -».

ثمَّ ذكَر الخِلافَ في الإمامةِ واحتجَّ عليها، وذكَر اتِّفاق المُهاجرين والأنصار علىٰ تقديم الصِّدِّيق، وأنَّه أفضل الأمَّة.

ثمَّ قال: «وكان الاختلاف في خلق الأفعال، هل هي مقدَّرة أم لا؟ قال: وقولنا فيها أنَّ أفعال العباد مقدَّرة معلومة»، وذكر إثبات القدر.

ثمَّ ذكَر الخِلاف في أهل الكبائر، ومسألة الأسماء والأحكام، وقال: «قولنا: إنَّهم مؤمنون علىٰ الإطلاق، وأمرُهم إلىٰ الله تعالىٰ؛ إنْ شاء عذَّبهم، وإنْ شاءَ

---

(١) قال المحقِّق (ص٤١٩) - باختصار -: «الحنفيّ، الخارجيّ، الحروريّ. رأس من رؤوس الخوارج، وزعيم فرقة النَّجدات، وكانوا في الأصل تابعِين لنافع بن الأزرق، فاختلفوا معه، فخرجوا عليه، وبايعوا نجدة، ثمّ إن أصحابه انشقُّوا عليه، وخرجُوا عليه وقتلُوه سنة (٦٩)، قال ابن حجر: (مِن رُؤوس الخوارج زائغ عن الحقِّ)».

عفًا عنهم».

وقال: «أصل الإيمان موهبةٌ يتولَّد منها أفعال العباد؛ فيكون أصله التَّصديق والإقرار والأعمال»، وذكَر الخِلاف في زيادة الإيمان ونُقصانه. وقال: «قولنا إنَّه يزيدُ وينقصُ».

قال: «ثمَّ كان الاختلاف في القُرآن؛ مخلوق أو غيرُ مخلوق، فقولُنا وقولُ أئمَّتنا: إنَّ القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وإنَّه صفةٌ منه بدأ قولًا، وإليه يعود حُكمًا».

ثمَّ ذكَر الخلافَ في الرُّؤيةِ، وقال: «قولُنا وقولُ أئمَّتنا فيما نعتقدُ أنَّ اللهَ يُرىٰ في يوم القيامة»، وذكر الحُجَّة.

ثمَّ قال: «اعلم - رحمَك الله - أنِّي ذكرتُ أحكام الاختلاف علىٰ ما ورَد مِن ترتيب المُحدِّثين في كلِّ الأزمنةِ. وقد بدأتُ أن أذكر أحكام الجمل مِن العُقود. فنقولُ ونعتقدُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له عرشٌ، وهو علىٰ عرشه فوق سبع سمواته بكمال أسمائِه وصفاته؛ كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥]، و﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السَّجدة:٥]، ولا نقول: إنَّه في الأرضِ كما هو في السَّماءِ علىٰ عرشِه؛ لأنَّه عالمٌ بما يجري علىٰ عبادِه».

إلىٰ أنْ قال: «ونعتقدُ أنَّ اللهَ خلَق الجنَّة والنَّار، وأنَّهما مخلوقتانِ للبقاءِ لا للفناءِ».

إلىٰ أنْ قال: «ونعتقدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عرج بنفسِه إلىٰ سِدرةِ المُنتهىٰ».

إلىٰ أنْ قالَ: «ونعتقدُ أنَّ اللهَ قبَض قبضتَينِ؛ فقال: هَؤُلَاءِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ إِلَىٰ النَّارِ[1]».

(١) انظر: «مسند أحمد» (١٧٥٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٥٠).

ونعتقد أنَّ للرَّسولِ ﷺ حوضًا[١]، ونعتقدُ أنَّه أوَّلُ شافعٍ، وأوَّلُ مُشفَّعٍ[٢]».

وذكَر الصِّراطَ، والميزانَ، والموتَ، وأنَّ المَقتولَ قُتلَ بأَجلِه، واستوفَىٰ رِزقَه.

إلىٰ أنْ قال: «وممَّا نعتقدُ أنَّ اللهَ ينزلُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ السَّماء الدُّنيا في ثلُث اللَّيلِ الآخرِ؛ فيَبسطُ يدَه، فيقولُ: «أَلَا هَلْ مِنْ سَائِلٍ» الحديث[٣]، وليلة النِّصف - أي: مِن شعبانَ -[٤]، وعَشيَّة عرفة[٥]»، وذكَر الحديثَ في ذلك. قال: «ونَعتقدُ أنَّ اللهَ كلَّم مُوسىٰ تكليمًا، واتَّخذَ إبراهيمَ خليلًا، وأنَّ الخلَّةَ غيرُ الفقرِ؛ لا كما قال أهلُ البدَع.

ونَعتقدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ خصَّ محمَّدًا ﷺ بالرُّؤيةِ، واتَّخذه خليلًا كما اتَّخذ إبراهيمَ خليلًا.

ونعتقدُ أنَّ الله تعالىٰ اختصَّ بمفاتح خمسٍ مِن الغَيب لا يَعلمُها إلَّا اللهُ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٦٥٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٩٢)، و«نظم المتناثر» للكتاني (ص٢٣٦ السَّلفية).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٧٣)، من حديث ابنِ مسعودٍ، ولفظه: «إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْبَاقِي، يَهْبِطُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ سُؤْلَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ». وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢/ ١٩٩).

وأخرج مُسلمٌ (٧٥٨) من حديث أبي هريرة: «إِذَا مَضَىٰ شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

(٤) أخرج ابنُ أبي عاصم في «السُّنَّة» (٥٠٩)، عن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِكُلِّ نَفْسٍ إِلَّا إِنْسَانٌ فِي قَلْبِهِ شَحْنَاءُ، أَوْ مُشْرِكٌ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ». وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرُقه في «ظلال الجنَّة» (ص٢٢٣ - ٢٢٤).

(٥) أخرج مسلم (١٣٤٨) عن عائشة قالت: إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»، واستدلَّ به شيخ الإسلام في «المجموع» (٥/ ٣٧٣) علىٰ نُزولِه تعالىٰ بذاته يومَ عرفةَ. وانظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (٦/ ١٠٩).

ونعتقد المسح على الخفين ثلاثًا للمسافر ويومًا وليلة للمقيم.

ونعتقد الصبر على السلطان من قريش، ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجمع والأعياد. والجهاد معهم ماضٍ إلى يوم القيامة. والصلاة في الجماعة حيث يُنادى لها واجبة، إذا لم يكن عذرٌ مانع. والتراويح سُنّة، ونشهد أنّ من ترك الصلاة عمدًا فهو كافر. والشهادة والبراءة بدعة. والصلاة على من مات من أهل القبلة سنّة، ولا ننزل أحدًا جنّة ولا نارًا حتّى يكون الله ينزلهم. والمراء والجدال في الدّين بدعة.

ونعتقد أنّ ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أمرهم إلى الله، ونترحّم على عائشة ونترضّى عليها.

والقول في اللّفظ والملفوظ، وكذلك في الاسم والمسمّى بدعة. والقول في أنّ الإيمان مخلوقٌ أو غير مخلوقٍ بدعة.

واعلم أنّي ذكرتُ اعتقاد أهل السُّنّة على ظاهر ما ورد عن الصّحابة والتّابعين مُجملًا من غير استقصاء، إذ قد تقدّم القول عن مشايخنا المعروفين من أهل الإمامة والدّيانة، إلّا أنّني أحببتُ أن أذكر (عقود أصحابنا المتصوّفة) فيما أحدثه طائفة انتسبُوا إليهم ممّا قد تخرّصُوا من القول ممّا نزّه الله المذهب وأهله من ذلك».

إلى أن قال: «وقرأتُ لمحمّد بن جرير الطّبري[1] في كتاب سمّاه (التّبصير)

---

(١) قال المحقّق (ص ٤٥٢ - ٤٥٣) - باختصار -: «محمّد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطّبري، قال الخطيبُ: (كان أحد الأئمّة العُلماء، يحكمُ بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العُلوم ما لم يُشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسُّنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصّحابة والتّابعين ومَن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيّام النّاس =

كتَب بذلك إلىٰ أهل طبرستان في اختلافٍ عندهم؛ وسألُوه أنْ يُصنِّف لهم ما يَعتقدُه ويذهب إليه؛ فذكَر في كتابه اختلافَ القائلين برؤية الله تعالىٰ؛ فذكر عن طائفةٍ إثبات الرُّؤية في الدُّنيا والآخرة. ونسَب هذه المقالة إلىٰ الصُّوفيَّة قاطبةً، لم يخصَّ طائفة دون طائفة. فتبيَّن أنَّ ذلك علىٰ جهالةٍ منه بأقوال المحصِّلين منهم؛ وكان ممَّن نسب إليه ذلك القول - بعْد أن ادَّعىٰ علىٰ الطَّائفة - ابنُ أخت عبد الواحد بن زيد[1]؛ والله أعلم بمحلِّه عند المحصِّلين، فكيف بابن أُختِه.

وليس إذا أحدث الزَّائغُ في نحلتِه قولًا نُسب إلىٰ الجُملةِ؛ كذلك في الفُقهاء والمُحدِّثين ليس مَن أحدثَ قولًا في الفقهِ؛ أو لبَّس فيه حديثًا يُنسبُ ذلك إلىٰ جُملةِ الفُقهاء والمُحدِّثين.

واعلم أنَّ ألفاظ الصُّوفيَّة وعلومهم تختلفُ؛ فيُطلقون ألفاظَهم علىٰ موضوعاتٍ لهم، ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم؛ فمَن لم يُداخلْهم علىٰ التَّحقيق، ونازل ما هم عليه؛ رجع عنهم خاسئًا وهو حسيرٌ».

ثم ذكَر إطلاقهم لفظ (الرُّؤية) بالتَّقييد؛ فقال: «كثيرًا ما يقولون: رأيتُ اللهَ». وذكَر عن جعفر بن محمَّد[2] قولَه لمَّا سُئل: هل رأيتَ الله حين عبدتَه؟ قال:

=
وأخبارهم)، وقال الذَّهبيُّ: (كان مِن أفرادِ الدَّهر عِلْمًا وذكاءً، وكثرة تصانيف، قلَّ أنْ ترَىٰ العُيونُ مثلَه). وُلد سنة (٢٢٤)، وتوفِّي سنة (٣١٠). من مُصنَّفاته تفسيره (جامع البيان)، و(تاريخ الأمم والمُلوك)، و(تهذيب الآثار)، و(صريح السُّنَّة) في العقيدة».

(١) قال المحقِّق (ص٤٥٤): «ابن أخت عبد الواحد بن زيد لم أجده، أمَّا عبد الواحد بن زيد؛ فهو عبد الواحد بن زيد أبو عُبيدة البصريّ، حدَّث عن الحسن وعطاء بن أبي رباح. من مشايخ الصُّوفيَّة، صاحب وعظٍ، رُميَ بالقدَر، قال عنه الذَّهبيُّ: (وحديثُه مِن قبيل الواهي عندهم) اهـ. تُوفِّي بعد الخمسين والمائة».

(٢) قال المُحقِّقُ (ص٤٥٥) - باختصار -: «الظَّاهرُ أنَّه الخوَّاصُ، وهو جعفر بن محمَّد بن نصير، أبو
=

رأيت اللهَ ثُمَّ عبدتُه. فقال السَّائل: كيف رأيتَه؟ فقال: لمْ ترَه العُيون بتحديدِ العيان، ولكن رأته القلوبُ بتحقيقِ الإيقان[(١)].

ثُمَّ قال: «يُرىٰ في الآخرةِ كما أخبرَ في كتابِه وذكره رسولُه ﷺ. فهذا قولُنا وقولُ أئمَّتنا دون الجهَّالِ مِن أهل الغباوةِ فينا.

وإنَّ ممَّا نعتقدُ أنَّ اللهَ حرَّم علىٰ المُؤمنين دماءهم وأموالهم وأعراضَهم، وذكَر ذلك في حجَّةِ الوداعِ[(٢)]؛ فمن زعم أنَّه يبلغُ مع اللهِ إلىٰ درجةٍ يُبيحُ الحقّ له ما حظر علىٰ المُؤمنين - إلَّا المُضطرّ علىٰ حالٍ يلزمُه إحياء النَّفس - وإنْ بلَغ العبد ما بلغ مِن العلْم والعبادة فذلك كفرٌ بالله، والقائلُ بذلك قائلٌ بالإلحادِ، وهم المُنسلخون مِن الدِّيانة.

وإنَّ ممَّا نعتقدُه ترْكَ إطلاقِ (العِشْق) علىٰ الله»، وبيَّن أنَّ ذلك لا يجوزُ لاشتقاقه، ولعدَم ورُودِ الشَّرع به. وقال: «أدنىٰ ما فيه أنَّه بدعةٌ وضلالةٌ، وفيما نصّ اللهُ مِن ذكر المحبَّة كفايةٌ.

وإنَّ ممَّا نعتقدُه: أنَّ الله لا يحلُّ في المرئيَّات، وأنَّه المنفردُ بكمالِ أسمائِه وصفاتِه، بائنٌ مِن خلقِه، مُستوٍ علىٰ عرشِه، وأنَّ القرآنَ كلامُه غيرُ مخلوقٍ، حيثُما تُلي وحُفظ ودُرس.

=

محمَّد البغداديّ الخلديّ شيخ الصُّوفيَّة، صحب الجُنيد والجريريّ، وروىٰ عنه أبو نُعيم في (الحلية) كثيرًا، سافر ولقي المشايخ والكبراء، قال البغداديُّ وابنُ كثير: (كان ثقةً صادقًا فاضلًا). وُلد سنة (٢٥٢)، وتوفي سنة (٣٤٨)».

(١) قال المُحقِّق (ص٤٥٥): «لم أعثُر علىٰ هذا الكلام لِجعفر بن محمَّد».

(٢) انظر: «صحيح البُخاريِّ» (١٧٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨ و١٦٧٩).

ونعتقدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ اتَّخذَ إبراهيمَ خليلًا، واتَّخذَ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ خليلًا وحبيبًا، والخلَّة لهما منه علىٰ خلافِ ما قاله المُعتزلةُ: إنَّ الخلَّة الفقر والحاجة».

إلىٰ أنْ قال: «والخلَّة والمحبَّة صفتان لله هو موصوفٌ بهما، ولا تدخلُ أوصافه تحت التَّكييف والتَّشبيه، وصفات الخلْق مِن المحبَّة والخلَّة جائزٌ عليها الكيف؛ فأمَّا صفاتُه تعالىٰ فمعلومةٌ في العلم، وموجودةٌ في التَّعريف، قد انتفىٰ عنهما التَّشبيهُ؛ فالإيمان به واجبٌ، واسم الكيفيَّة عن ذلك ساقطٌ.

وممَّا نعتقدُه أنَّ اللهَ أباح المكاسبَ والتِّجاراتِ والصِّناعاتِ، وإنَّما حرَّم اللهُ الغشَّ والظُّلمَ، وأنَّ مَن قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضالٌّ مُضلٌّ مُبتدعٌ؛ إذ ليس الفسادُ والظُّلمُ والغشُّ مِن التِّجارات والصِّناعات في شيءٍ، وإنَّما حرَّم اللهُ ورسولُه الفسادَ؛ لا الكسْبَ والتِّجارة؛ فإنَّ ذلك علىٰ أصلِ الكتاب والسُّنَّة جائزٌ إلىٰ يوم القيامةِ.

وإنَّ مما نعتقده أنَّ الله لا يأمر بأكل الحلال، ثم يعدمهم الوصول إليه مِن جميع الجهاتِ؛ لأنَّ ما طالبهم به موجودٌ إلىٰ يوم القيامةِ، والمُعتقِدُ أنَّ الأرضَ تخلو مِن الحلال، والنَّاس يتقلَّبون في الحرام؛ فهو مبتدعٌ ضالٌّ، إلَّا أنَّه يقلُّ في موضعٍ، ويكثرُ في موضعٍ، لا أنَّه مفقودٌ مِن الأرض.

وممَّا نعتقدُه أنَّا إذا رأينا مَن ظاهرُه جميلٌ لا نتَّهمُه في مكسبِه ومالِه وطعامِه؛ جائز أن يؤكلَ طعامُه، والمُعاملة في تجارتِه، فليس علينا الكشف عن مالِه. فإنْ سأَلَ سائلٌ علىٰ سبيل الاحتياطِ جازَ إلَّا مَن داخَل الظَّلَمةَ.

ومَن لا يزغ عن الظُّلم، وأخْذ الأموال بالباطل، ومعه غير ذلك: فالسُّؤال والتَّوقِّي؛ كما سأل الصِّدِّيق غلامَه[1] . فإنْ كان معه من المالِ سوىٰ ذلك ممَّا هو

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٤٢)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو =

خارجٌ عن تلك الأموال فاختلطا؛ فلا يُطلقُ عليه اسمُ الحلالِ ولا الحرام؛ إلَّا أنَّه مُشتبهٌ. فمَن سأل استبرأ لِدينِه كما فعَل الصِّدِّيقُ. وأجاز ابنُ مسعودٍ وسلمانُ، قالا: (كُلْ مِنهُ، وعليه التَّبعةُ)[1]، والنَّاس طبقاتٌ، والدِّينُ الحنيفيَّة السَّمحةُ.

وإنَّ ممَّا نعتقدُه أنَّ العبدَ ما دام أحكام الدَّار جارية عليه، فلا يسقطُ عنه الخوفُ والرَّجاء، فكلّ مَن ادَّعىٰ الأمْن فهو جاهلٌ بالله وبما أخبر به عن نفسِه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩]، وقد أفردت كشف عوار كلّ مَن قال بذلك.

ونعتقدُ أنَّ العبوديَّة لا تسقطُ عن العبد ما عقل وعلِم ما له وما عليه، مميّز علىٰ أحكام القوَّة والاستطاعة؛ إذ لم يسقط ذلك عن الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ومَن زعَم أنَّه قد خرَج عن رقِّ العبوديَّة إلىٰ فضاءِ الحرِّيَّة بإسقاطِ العبوديَّة والخُروج إلىٰ أحكام الأحديَّة المبدئيَّة بعلائق الآخريَّة؛ فهو كافرٌ لا محالةَ، إلَّا مَن اعتراه علَّة أو رأفة، فصار معتوهًا أو مجنونًا أو مبرسمًا[2]، وقد اختلَط عقلُه، أو لحِقه غشيةٌ، ارتفع عنه أحكام العقل، وذهب عنه التَّميزُ

=

بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ».

وقال الحافظُ في «الفتح» (٧/ ١٥٤): «رواية الإسماعيلي من وجهٍ آخرَ مِن طريق إسماعيل بن أبي خالدٍ، عن قيس بن أبي حازم: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ، فَكَانَ يَجِيءُ بِكَسْبِهِ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ حَتَّىٰ يَسْأَلَهُ، فَأَتَاهُ لَيْلَةً بِكَسْبِهِ فَأَكَلَ مِنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ».

(١) انظر: «مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (١٤٦٧٥ و١٤٦٧٧ الأعظمي).

(٢) قال في «القاموس» (ص١٠٧٩ الرِّسالة): «البرسام: علَّة يُهذَىٰ فيها».

والمعرفةُ، فذلك خارج عن الملَّة مفارقٌ للشَّريعة.

ومَن زعَم الإشرافَ علىٰ الخلْق يعلمُ مقاماتهم ومقدارهم عند الله - بغير الوحي المُنزل مِن قول الرَّسول ﷺ - فهو خارجٌ عن الملَّة، ومن ادَّعىٰ أنَّه يعرفُ ما قالَ رسولُ ﷺ فقدْ باءَ بغضب مِن الله، ومَن ادَّعىٰ أنَّه يعرفُ مآلَ الخلْقِ ومُنقلبَهم، وأنَّهم علىٰ ماذا يموتون عليه ويختم لهم - بغير الوحي من قولِ الله وقول رسوله ﷺ - فقد باءَ بغضبٍ مِن الله.

و(الفراسة) حقٌّ علىٰ أصولٍ ذكرناها، وليس ذلك ممَّا سمَّيناه في شيءٍ.

ومَن زعَم أنَّ صفاتِه قائمةٌ بصفاتِه - ويُشيرُ في ذلك إلىٰ غير الآيد والعصمة والتَّوفيق والهداية -، وأشارَ إلىٰ صفاته عَزَّوَجَلَّ القديمة: فهو حُلوليٌّ قائلٌ باللَّاهوتيَّة والالتحام، وذلك كفرٌ لا محالةَ.

ونعتقدُ أنَّ الأرواحَ كلَّها مخلوقةٌ. ومَن قال: إنَّها غيرُ مخلوقةٍ فقد ضاهىٰ قول النَّصارىٰ - النّسطوريَّة - [(١)] في المسيح، وذلك كفرٌ بالله العظيم. ومَن قال: إنَّ شيئًا مِن صفاتِ الله حالٌّ في العبد؛ وقال بالتَّبعيض علىٰ الله فقد كفَر؛ والقرآنُ كلامُ الله ليس بمخلوقٍ، ولا حالٌّ في مخلوقٍ؛ وأنَّه كيفما تُليَ وقُرئَ وحُفظَ فهو صفةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس الدَّرس من المدروس، ولا التِّلاوة من المتلوِّ؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ

---

(١) قال المُحقِّق (ص٤٦٨): «النّسطوريَّة: فرقةٌ مِن فرَق النَّصارىٰ، تُنسبُ إلىٰ نسطور الحكيم، الَّذي تصرَّف في الأناجيل، وقد زعَم أنَّ الكلمةَ اتَّحدتْ بجسَد عيسىٰ كإشراق الشَّمس في كوَّة علىٰ بلورة.

وزعمتْ هذه الفِرَق أنَّ الابنَ لم يزَلْ متولِّدًا مِن الأب، وإنَّما تجسَّد واتَّحد بجسد المسيح حين وُلد، والحدوث راجع إلىٰ الجسد والنَّاسوت، فهو إلهٌ وإنسانٌ اتَّحدا، وهما جوهران أقنومان طبيعتان؛ جوهر قديم، وجوهر محدث، إلهٌ تامٌّ وإنسانٌ تامٌّ، ولم يبطل الاتِّحاد قدم القديم، ولا حدوث المُحدث، وقالُوا: إنَّ القتل وقع علىٰ المسيح مِن جهةِ ناسوتِه، لا مِن جهةِ لاهوتِه؛ لأنَّ الإلهَ لا تحلُّه الآلام».

بجميع صفاته وأسمائه غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال بغير ذلك فهو كافرٌ.

ونعتقدُ أنَّ القراءةَ المُلحَّنة بدعةٌ وضلالةٌ، وأنَّ القصائدَ بدعةٌ، ومجراها على قسمين: فالحسنُ مِن ذلك من ذكر آلاء الله ونعمائه، وإظهار نعت الصَّالحين وصفة المتَّقين، فذلك جائزٌ، وتركُه والاشتغالُ بذِكْر الله والقُرآن والعلم أولىٰ به، وما جرىٰ علىٰ وصف المرئيَّات، ونعت المخلوقات، فاستماع ذلك علىٰ الله كفرٌ، واستماع الغناء والرّباعيات[1] علىٰ الله كفرٌ، والرَّقصُ بالإيقاع ونعت الرَّقاصين علىٰ أحكام الدِّين فسقٌ، وعلىٰ أحكام التَّواجد[2] والغناء لهوٌ ولعبٌ.

وحرامٌ علىٰ كلِّ مَن سمِع القصائد والرّباعيَّات الملحَّنة - الجاري بين أهل الأطباع - علىٰ أحكام الذِّكر، إلَّا لمن تقدَّم له العلم بأحكام التَّوحيد، ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يُضافُ إلىٰ الله تعالىٰ من ذلك ممَّا لا يليقُ به عَزَّوَجَلَّ ممَّا هو مُنزَّهٌ عنه، فيكون استماعه كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمر:١٨] الآية.

وكلُّ مَن جهل ذلك وقصَد استماعَه علىٰ الله علىٰ غيرِ تفصيلِه، فهو كفرٌ لا محالةَ، فكلُّ مَن جمَع القولَ وأصغىٰ بالإضافة إلىٰ الله، فغيرُ جائزٍ إلَّا لمَن عرَف ما وصفت من ذِكْر الله ونعمائِه، وما هو موصوفٌ به عَزَّوَجَلَّ ما ليس للمخلُوق فيه نعت ولا وصف؛ بل تركُ ذلك أولىٰ وأحوَط، والأصل في ذلك أنَّها بدعةٌ، والفتنة

---

(١) قال المحقِّق (ص٤٦٩): «الرّباعيات: هي منظومة شعرية تتألف من وحدات، كل واحدة منها أربعة أشطر تستقلّ بقافيتها..».

(٢) قال المحقِّق (ص٤٦٩): «التَّواجد عند الصُّوفيَّة: استجلاب الوجد بالذِّكر والتَّفكُّر، والوجد: ما يرد علىٰ الباطن من الله يكسبه فرحًا أو حزنًا، ويغيِّره عن هيئته ويَتطلَّع إلىٰ الله تعالىٰ، وهو فرحةٌ يجدُها المغلوب عليه بصفات نفسيَّة ينظرُ منها إلىٰ اللهِ تعالىٰ..».

بها غيرُ مأمونةٍ».

إلىٰ أن قال: «واتِّخاذُ المجالس علىٰ الاستماع والغناء والرَّقص بالرباعيَّات بدعةٌ، وذلك ممَّا أنكره المُطَّلبيّ ومالك والثَّوري ويزيد بن هارون[1] وأحمد بن حنبل وإسحاق، والاقتداء بهم أولىٰ مِن الاقتداءِ بمَن لا يُعرفون في الدِّين، ولا لهم قدمٌ عند المُخلصين.

وبلغني أنَّه قيل لبشر بن الحارث: إنَّ أصحابَك قدْ أحدثُوا شيئًا يقالُ له القصائد. قال مثل أيش؟ قال مثل قوله:

اصْبِرِي يَا نَفْسُ حَتَّىٰ تَسْكُنِي دَارَ الجَلِيلِ

فقال: حسن، وأين يكونُ هؤلاء الَّذين يستمعون ذلك؟ قال: قلت: ببغدادَ، فقال: كذبُوا - والله الَّذي لا إلهَ غيرُه -، لا يسكن بغداد من يستمع ذلكَ».

قال أبو عبد الله[2]: «وممَّا نقولُ - وهو قولُ أئمَّتنا - إنَّ الفقيرَ إذا احتاج وصبَرَ ولم يتكلَّف[3] إلىٰ وقت يفتحُ الله له كان أعلىٰ؛ فمَن عجَز عن الصَّبر كان السُّؤال أولىٰ به علىٰ قوله ﷺ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ»[4] الحديث.

ونقولُ: إنَّ ترْكَ المكاسبِ غيرُ جائزٍ إلَّا بشرائط مرسومة؛ من التَّعفُّف والاستغناءِ عمَّا في أيدي النَّاس، ومَن جعَل السُّؤالَ حرفةً - وهو صحيحٌ - فهو

---

(١) قال المحقِّق (ص٤٧١): «يزيد بن هارون، أبو خالد السّلميّ، قال عنه الذَّهبيُّ: (كان يزيد رأسًا معاديًا للجهميَّة، منكرًا تأويلهم في مسألة الاستواء). ولد (١١٨ هـ)، وتوفي (٢٠٦هـ)».

(٢) هو ابنُ خفيف.

(٣) في «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٨٤): (يتكفَّف).

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٤٧٠)، ومسلمٌ (١٠٤٢)، مِن حديث أبي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مذموم في الحقيقة خارج.

ونقول: إنَّ المُستمعَ إلىٰ الغِناء والمَلاهي؛ فإنَّ ذلك كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ»[١]، وإنْ لم يكفُر فهو فسق لا محالةَ.

والذي نختار: قول أئمَّتنا: ترك المراء في الدِّين، والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، ومَن زعَم أنَّ الرَّسولَ ﷺ واسط يؤدِّي، وأنَّ المرسل إليهم أفضلُ؛ فهو كافرٌ بالله، ومَن قال بإسقاطِ الوسائطِ علىٰ الجُملةِ فقدْ كفَر» اهـ.

ومِن مُتأخِّريهم الشَّيخُ الإمامُ أبو مُحمَّد عبد القادر بن أبي صالح الجِيليّ[٢]، قال في كتاب (الغُنية): «أمَّا معرفة الصَّانع بالآيات والدّلالات علىٰ وجه الاختصار فهو أنْ يعرف ويتيقن أنَّ اللهَ واحد أحدٌ». إلىٰ أنْ قال: «وهو بجهة العلوِّ، مستوٍ علىٰ العرش، مُحتوٍ علىٰ المُلك، محيط علمُه بالأشياءِ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدة:٥]، ولا يجوزُ وصفُه بأنَّه في كلِّ مكانٍ؛ بل يقالُ: إنَّه في السَّماء علىٰ العرش كما قال:

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٧)، مِن حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وضعَّفه الألبانيُّ في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٢٤٣٠).
ورواه ابن أبي الدُّنيا في «ذمِّ المَلاهي» (ص٤٣ - ٤٤ ابن تيمية)، والبيهقيُّ في «الشُّعَب» (٤٧٤٤ الرشد) عنه موقوفًا، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (٥/ ٤٥٠)، وفي «تحريم آلات الطَّرب» (ص١٤٥).

(٢) قال المحقِّق (ص٤٧٧) - باختصار -: «عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي، ولد سنة (٤٧١)، اشتهر بالزُّهد والعبادة، وكان يأكلُ مِن عمَل يده، ذاع صيتُه واشتهر، من كبار الصُّوفيَّة حتَّىٰ نُسبت إليه الطَّريقةُ القادريَّة. قال الذَّهبيُّ: (كبير الشَّأن، وعليه مآخذُ في بعض أقاويله ودعاويه، واللهُ الموعد، وبعضُ ذلك مكذوب عليه). ونقل شيخ الإسلام عنه أنَّه سُئل: هل كان لله وليٌّ علىٰ غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ قال: لا، لا كان ولا يكون. وقال ابن رجب بعد أن ذكر أنَّ بعضَ ما يُنقل عنه لا يصحُّ، قال: (وللشَّيخ عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كلامٌ حسنٌ في التَّوحيد والصِّفات والقدَر، وفي عُلوم المعرفة موافق للسُّنَّة). توفي سنة (٥٦١)».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]».

وذكر آياتٍ وأحاديثَ، إلىٰ أنْ قال: «وينبغي إطلاق صفة الاستواء مِن غيرِ تأويلٍ، وأنَّه استواءُ الذَّات علىٰ العرش، قال: وكونُه علىٰ العرش مذكورٌ في كلِّ كتابٍ أُنزل علىٰ كلِّ نبيٍّ أُرسلَ بلا كيف»(١)، وذكَر كلامًا طويلًا لا يحتمله هذا الموضعُ، وذكر في سائر الصفات نحو هذا.

ولو ذكرتُ ما قاله العُلماء في هذا لطال الكتابُ جدًّا.

وقال أبو عُمر ابن عبد البرِّ: «روينا عن مالك بن أنس وسُفيان الثَّوريّ وسُفيان بن عيينة والأوزاعي ومعمر بن راشد(٢) في أحاديث الصِّفات أنَّهم كلَّهم قالُوا: أَمِرُّوها كما جاءتْ»(٣)؛ قال أبو عُمر: «ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ مِن نقل الثِّقات، أو جاء عن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهُو علمٌ يدان به؛ وما حدَث بعدَهم ولم يكُن له أصلٌ فيما جاء عنهم فهو بدعةٌ وضلالةٌ»(٤).

وقال في (شرح الموطَّأ) لمَّا تكلَّمَ علىٰ حديث النُّزولِ، قال: «هذا حديثٌ ثابتٌ مِن جهةِ النَّقلِ، صحيح الإسناد، ولا يختلفُ أهلُ الحديث في صحَّته، وهو منقول مِن طرُق - سوىٰ هذه -، مِن أخبار العُدولِ عن النَّبيِّ ﷺ، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ اللهَ في السَّماء، علىٰ العرش من فوق سبع سمواتٍ، كما قالت الجماعةُ، وهو

---

(١) «الغُنية لِطالبي طريقِ الحقِّ» لعبد القادر الجيلاني (١/ ١٢١ - ١٢٥الكتب العلمية).

(٢) قال المحقِّق (ص٤٧٩ - ٤٨٠): «معمر بن راشد بن أبي عروة الأزدي مولاهم البصري، أبو عروة، قال ابن جريج: (عليكم بمعمر؛ فإنَّه لم يبقَ في زمانه أعلم منه) اهـ، وقال ابن سعد: (كان معمرٌ رجلًا له حلمٌ ومروءةٌ ونُبل في نفسِه) اهـ، وُلد سنة (٥) أو (٩٦)، وتوفي سنة (١٥٣)».

(٣) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ٩٤٣الزهيري).

(٤) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ٩٤٥).

مِن حُجَّتهم علىٰ المُعتزلةِ في قولهم: إنَّ اللهَ في كلِّ مَكانٍ[١].

وقال: «والدَّليلُ علىٰ صحَّة قول أهل الحقِّ قولُ الله - وذكر بعض الآيات - إلىٰ أنْ قال: وهذا أشهرُ وأعرف عند العامَّة والخاصَّة مِن أن يحتاج إلىٰ أكثر مِن حكايتِه؛ لأنَّه اضطرارٌ لم يوقفهم عليه أحدٌ، ولا أنكره عليهم مسلمٌ»[٢].

وقال أبو عُمر ابن عبد البرّ أيضًا: «أجمعَ عُلماءُ الصَّحابةِ والتَّابعين الَّذين حمل عنهم التَّأويلُ، قالوا في تأويل قولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] هو علىٰ العرش، وعلمُه في كلِّ مكانٍ، وما خالفهم في ذلك مَن يحتجُّ بقولِه»[٣].

وقال أبو عمر أيضًا: «أهل السُّنَّة مُجمعون علىٰ الإقرار بالصِّفات الواردة كلِّها في القُرآن والسُّنَّة، والإيمان بها، وحمْلها علىٰ الحقيقةِ لا علىٰ المَجاز، إلَّا أنَّهم لا يُكيِّفون شيئًا مِن ذلك، ولا يحدّون فيه صفة محصورةً.

وأمَّا أهل البدع - الجهميَّة والمعتزلة كلّها والخوارج - فكلُّهم يُنكرُها، ولا يحملُ شيئًا منها علىٰ الحقيقة، ويزعم أنَّ مَن أقرَّ بها مُشبِّهٌ، وهم عند مَن أقرَّ بها نافون للمعبود، والحقُّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله، وسنّة رسول الله ﷺ؛ وهم أئمَّة الجماعة»[٤].

وفي عصره الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ مع تولِّيه للمُتكلِّمين مِن أصحاب أبي

---

(١) «التَّمهيد» لابن عبد البرّ (٧/ ١٢٨ - ١٢٩).

(٢) «التَّمهيد» (٧/ ١٢٩، ١٣٤).

(٣) «التَّمهيد» (٧/ ١٣٨ - ١٣٩).

(٤) «التَّمهيد» (٧/ ١٤٥).

الحسن الأشعري[(١)]، وذبَّه عنهم، قال في كتابه (الأسماء والصِّفات): «بابُ ما جاء في إثبات اليدَينِ صفتَينِ - لا من حيث الجارحة - لِورودِ خبر الصَّادق بهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]»، وذكَر الأحاديث الصِّحاح في هذا البابِ؛ مثلُ قولِه في غيرِ حديثٍ، في حديث الشَّفاعةِ: «يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»[(٢)]، ومثل قوله في الحديث المُتَّفق عليهِ: «أَنْتَ مُوسَىٰ اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ الأَلْوَاحَ بِيَدِهِ»[(٣)]، وفي لفظٍ: «وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ»[(٤)]، ومثل ما في صحيح مسلم: «وَغَرَسَ كَرَامَةَ أَوْلِيَائِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ بِيَدِهِ»[(٥)]، ومثل قولِه ﷺ: «تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّاهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَتَكَفَّىٰ

---

(١) قال المُحقِّق (ص٤٨٢) - باختصار -: «عليّ بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، نشأ علىٰ مذهب المُعتزلة، ومضىٰ علىٰ ذلك صدرًا من حياته، تتلمذ علىٰ الجُبَّائيّ مِن أكابر المُعتزلة. ذكَر ابنُ عساكر وغيره أنَّه بقي علىٰ الاعتزال (٤٠) سنةً أو قريبًا من ذلك، ثمَّ أعلنَ رجوعَه علىٰ الملأ، وأنَّه رجع عن جميع أقواله السَّابقة. قال الذَّهبيُّ: (لأبي الحسن ذكاءٌ مفرطٌ، وتبحُّرٌ في العلم، وله أشياءُ حسنةٌ، وتصانيفُ جمَّةٌ، تقضي له بسعةِ العلْم). وقال: (رأيتُ لأبي الحسَن أربعةَ تواليفَ في الأُصولِ يذكُر فيها قواعدَ مذهبِ السَّلف في الصِّفاتِ، وقال فيها: تمرُّ كما جاءتْ. ثُمَّ قال: وبذلك أقولُ، وبه أدينُ، ولا تُؤوَّل). وقال أبو بكر بن الصّيرفي: (كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتّىٰ أظهر الله تعالىٰ الأشعري فحجرهم). وُلد سنة (٢٦٠)، وتوفِّي سنة (٣٢٠)».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (١٨٩)، بلفظ: «سَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً،... وفيه: قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ». مِن حديثِ المُغيرة بن شُعبةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ؛ نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ»[١]. وذكَر أحاديثَ مثل قولِه: «بِيَدِي الأَمْرُ»[٢]، «والخَيرُ فِي يَدَيْكَ»[٣]، «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ»[٤]، و«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»[٥]، وقوله: «المُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[٦]، وقوله: «يَطْوِي اللهُ السَّموَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟»[٧]، وقوله: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَىٰ لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ القَبْضُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[٨]، وكلُّ هذه الأحاديث في الصَّحيح.

وذكَر أيضًا قولَه: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ، قَالَ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ. قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ»[٩]، وحديث: «إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه.

(٤) انظر: «صحيح البخاري» (١٩٠٤ و٢٦١٥ و٢٨١٩ و٣٦١٨ و٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (١١٥ و١٥٣ و١٩٤).

(٥) أخرجه مسلمٌ (٢٧٥٩)، مِن حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلمٌ (١٨٢٧)، مِن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه مسلمٌ (٢٧٨٨)، مِن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه البخاريُّ (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣)، مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) أخرجه التِّرمذيُّ (٧٤١٩)، مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٠٩).

اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ بِيَدِهِ»[١]، إلىٰ أحاديث أخرَ ذكَرها مِن هذا النَّوعِ.

ثمَّ قال البيهقيُّ: «أمَّا المُتقدِّمون مِن هذه الأمَّة فإنَّهم لم يُفسِّروا ما كتبْنا مِن الآياتِ والأخبارِ في هذا البابِ»[٢]؛ وكذلك قال في الاستواء علىٰ العرش، وسائر الصِّفات الخبريَّة؛ مع أنَّه يحكي قولَ بعضِ المُتأخِّرين.

وقال القاضي أبو يعلىٰ[٣] في كتاب (إبطال التَّأويل): «لا يجوزُ ردُّ هذه الأخبار[٤]، ولا التَّشاغُل بتأويلها[٥]، والواجبُ حمْلُها علىٰ ظاهرِها؛ وأنَّها صفاتُ الله، لا تشبَّهُ بسائر الموصوفين بها مِن الخلْقِ؛ ولا نعتقدُ التَّشبيه فيها؛ لكن علىٰ ما رُوي عن الإمام أحمد وسائر الأئمَّة». وذكر بعض كلام الزُّهريّ[٦] ومكحول ومالك والثَّوريّ والأوزاعيّ واللَّيث وحمَّاد بن زيد وحمَّاد بن سلمة وسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ووكيع وعبد الرَّحمن بن مهدي وأسود بن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، بلفظ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً»، مِن حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيفِ الجامع» (١٦٠٢).

(٢) انظر كلام البيهقيِّ في: «الأسماء والصِّفات» له (٢/ ١١٨ - ١٦٢).

(٣) قال المحقِّق (ص ٤٨٨ - ٤٨٩) - باختصار -: «هو محمَّد بن الحسين بن محمَّد البغدادي، مِن أئمَّة الحنابلة، تفقَّه علىٰ أبي عبد الله بن حامد من كبار الحنابلة، قال الذَّهبيُّ: (أفتىٰ ودرَّس، وانتهت إليه الإمامةُ في الفقه، وكان عالم العراق في زمانه مع معرفة بعلوم القرآن وتفسيره، والنَّظر والأصول). وُلد سنة (٣٨٠)، وتوفِّي سنة (٤٥٨)، من مصنَّفات: (مسائل الإيمان)، (أحكام القرآن)، (العدّة في أصول الفقه)، (الأحكام السُّلطانيَّة)».

(٤) قال المحقِّق (ص ٤٨٩): «في (الإبطال) زيادة: (علىٰ ما ذهَب إليه جماعةٌ مِن المُعتزلةِ)».

(٥) قال المحقِّق (ص ٤٨٩): «في (الإبطال) زيادة: (علىٰ ما ذهب إليه الأشعريَّة)».

(٦) قال المحقِّق (ص ٤٩٠): «هو محمَّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، من بني زهرة القُرشي، من كبار روَّاة الأحاديث، روىٰ نحوًا من ألفي حديثٍ. قال عنه عمرُ بن عبد العزيز: (عليكم بابن شهاب هذا؛ فإنَّكم لا تلقَون أحدًا أعلم بالسُّنَّة الماضية منه). اهـ. وُلد سنةَ (٥١)، وتُوفِّي سنةَ (٤) أو (١٢٣)».

سالم[(١)] وإسحاق بن راهويه وأبي عُبيد ومحمَّد بن جرير الطَّبريّ وغيرهم في هذا الباب، وفي حكايةِ ألفاظِهم طُولٌ[(٢)].

إلىٰ أنْ قال: «ويدلُّ علىٰ إبطال التَّأويلِ: أنَّ الصَّحابةَ ومَن بعدَهم من التَّابعين حملُوها علىٰ ظاهرِها؛ ولم يتعرَّضوا لِتأويلها، ولا صرفوها عن ظاهرِها؛ فلو كان التَّأويلُ سائغًا لكانُوا أسبقَ إليه؛ لِما فيه من إزالة التَّشبيه ورفع الشُّبهة»[(٣)].

وقال أبو الحسن عليّ بنُ إسماعيل الأشعريّ المُتكلِّم، صاحب الطَّريقة المنسوبةِ إليه في الكلام، في كتابه الَّذي صنَّفه في (اختلاف المصلِّين، ومقالات الإسلاميِّين)، وذكَر فرقَ الرَّوافض والخوارج والمُرجئة والمُعتزلة وغيرِهم. ثُمَّ قالَ: «مقالةُ أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث: جملة قول أصحاب الحديثِ وأهل السُّنَّة: الإقرارُ بالله وملائكتِه وكُتبه ورُسلِه، وبما جاء عن الله تعالىٰ، وما رواه الثِّقات عن رسول الله ﷺ، لا يردُّون شيئًا مِن ذلك، وأنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا إلهَ غيرُه، لم يتَّخذْ صاحبةً ولا ولدًا، وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ الجنَّةَ حقٌّ، وأنَّ النَّارَ حقٌّ، وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبعثُ مَن في القُبور، وأنَّ اللهَ علىٰ عرشِه كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وأنَّ له يدَينِ بلا كيف كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وأنَّ له عينَينِ بلا كيف كما قال

(١) قال المحقِّق (ص ٤٩١) - باختصار -: «أسود بن سالم، أبو محمَّد العابد، كان ذا عِبادةٍ وصلاح، مُجانبًا لأهل البدع، ومُبغضًا لهم، قال مُحمَّد بن جرير الطَّبريُّ: (كان ثقةً، ورعًا فاضلًا). تُوفِّي سنة (١٣) أو (٢١٤)».

(٢) انظر: «إبطال التَّأويلات» لأبي يعلىٰ (١/ ٤٣ فما بعدها).

(٣) انظر: «إبطال التَّأويلات» (ص ٧١).

تعالىٰ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأنَّ له وجهًا كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرَّحمن:٢٧].

وأنَّ أسماءَ الله تعالىٰ لا يقالُ: إنَّها غيرُ الله كما قالت المُعتزلةُ والخوارجُ. وأقرُّوا أنَّ لله علمًا كما قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النِّساء:١٦٦]، وكما قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فاطر:١١]، وأثبتُوا له السَّمعَ والبصرَ، ولم يَنفُوا ذلك عن الله كما نَفتْهُ المُعتزلة، وأَثبتُوا لله القوَّة كما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصِّلت:١٥]»، وذكر مذهبهم في القدَر. إلىٰ أن قال: «ويقولون: القُرآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، والكلام في اللَّفظ والوقف؛ مَن قال باللَّفظ وبالوقْف فهو مُبتدع عندهم، لا يقال: اللَّفظ بالقُرآن مخلوقٌ، ولا يقال: غيرُ مخلوقٍ. ويُقرِّون أنَّ اللهَ يُرىٰ بالأبصار يوم القِيامةِ كما يُرىٰ القمرُ ليلة البدر، يراه المُؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنَّهم عن الله محجوبون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المُطففين:١٥]».

وذكَر قولَهم في الإسلام والإيمان والحوض والشَّفاعة وأشياءَ. إلىٰ أنْ قالَ: «ويقرُّون بأنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ، ولا يقولون مخلوقٌ، ولا يشهدون علىٰ أحدٍ مِن أهل الكبائر بالنَّار». إلىٰ أنْ قالَ: «ويُنكرون الجدَل والمِراءَ في الدِّين والخُصومة فيه والمُناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدَل، ويتنازعون فيه من دينهم، ويسلِّمون للرِّوايات الصَّحيحة، ولِما جاءت بها الآثار الَّتي جاءتْ بها الثِّقات عدْلًا عن عدْلٍ حتَّىٰ ينتهيَ ذلك إلىٰ رسولِ الله ﷺ، لا يقولون: كيفَ ولا لِمَ؛ لأنَّ ذلك بدعةٌ».

إلىٰ أنْ قال: «ويُقرِّون أنَّ اللهَ يجيءُ يوم القِيامة كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ

وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢]، وأنَّ الله يقربُ مِن خلقِه كيف يشاء؛ كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]».

إلىٰ أنْ قال: «ويَرون مُجانبةَ كلِّ داعٍ إلىٰ بدعةٍ، والتَّشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار، والنَّظر في الفقه مع الاستكانةِ والتَّواضُعِ، وحُسن الخلُق، مع بذل المعروف، وكفِّ الأذىٰ، وترك الغيبة والنَّميمة والسّعاية وتفقّد المآكل والمشارب. قال: فهذه جُملةُ ما يأمرون بهِ، ويستسلمون إليه ويرونه، وبكلِّ ما ذكرْنا مِن قولِهم نقولُ، وإليه نذهبُ، وما توفيقُنا إلَّا بالله، وهو المستعان»[1].

وقال الأشعريُّ أيضًا في اختلاف أهل القبلة في العرش: «قال أهل السُّنَّة وأصحابُ الحديثِ: ليس بجسمٍ، ولا يُشبهُ الأشياءَ، وأنَّه استوىٰ علىٰ العرش كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، ولا نتقدَّم بين يدَي اللهِ ورسولِه في القولِ؛ بل نقولُ: استوىٰ بلا كيف، وأنَّ له وجهًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وأنّ له يدين كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وأنَّ له عينَين كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأنَّه يَجيءُ يومَ القِيامةِ هو وملائكتُه كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢]، وأنَّه يَنزلُ إلىٰ السَّماء الدُّنيا كما جاء في الحديثِ[2]، ولم يقولُوا شيئًا إلَّا ما وجدُوه في الكتابِ، وجاءت به الرِّوايةُ عن رسول اللهِ ﷺ.

وقالت المعتزلةُ: إنَّ اللهَ استوىٰ علىٰ العرش؛ بمعنىٰ: استولىٰ»[3]، وذكر

---

(١) انظر: «مقالات الإسلاميِّين» للأشعري (ص٢٩٠ - ٢٩٧ ريتر).

(٢) انظر: (ص٧٢٦).

(٣) انظر: «مقالات الإسلاميِّين» (ص٢١١).

مقالات أخرىٰ.

وقال أيضًا أبو الحسن الأشعريُّ في كتابه الَّذي سمَّاه: (الإبانة في أصول الدِّيانة)، وقد ذكَر أصحابُه أنَّه آخر كتاب صنَّفه، وعليه يعتمدون في الذَّبِّ عنه عند مَن يطعنُ عليه، فقال: «فصلٌ في إبانة قولِ أهلِ الحقِّ والسُّنَّة: فإنْ قال قائلٌ قد أنكرتُم قول المُعتزلةِ والقدريَّة والجهميَّة والحروريَّة والرَّافضة والمُرجئة؛ فعرِّفونا قولكم الَّذي به تقولونُ، وديانتكم الَّتي بها تَدينونَ.

قيل له: قولُنا الَّذي نقول به، وديانتنا الَّتي ندين بها: التَّمسُّك بكلام ربِّنا وسنَّة نبيِّنا، وما رُويَ عن الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة الحديث، ونحن بذلك مُعتصمون، وبما كان يقول به أبو عبدِ الله أحمدَ بن حنبل - نضَّر اللهُ وجهَه، ورفَع درجتَه، وأجزَل مثوبتَه - قائلون، ولِما خالَف قوله مُخالفون؛ لأنَّه الإمامُ الفاضلُ، والرَّئيسُ الكاملُ، الَّذي أبان اللهُ به الحقَّ، ودفَع به الضَّلالةَ، وأوضحَ به المِنهاجَ، وقمَع به بِدَع المُبتدعين، وزَيغ الزَّائغينَ، وشكَّ الشَّاكِّين، فرحمةُ الله عليه مِن إمامٍ مُقدَّمٍ، وجليلٍ معظَّمٍ، وكبيرٍ مفهَّمٍ.

وجملة قولنا: أنَّا نُقرُّ باللهِ وملائكتِه وكتُبِه ورُسلِه، وبما جاؤوا به من عندِ الله، وبما رواه الثِّقاتُ عن رسولِ الله ﷺ، لا نردُّ مِن ذلك شيئًا، وأنَّ اللهَ واحدٌ لا إلهَ إلَّا هو، فردٌ صمدٌ، لم يتَّخذْ صاحبةً ولا ولدًا، وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ، وأنَّ الجنَّةَ حقٌّ، والنَّار حقٌّ، وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ اللهَ يبعثُ مِن في القُبورِ.

وأنَّ الله مُستوٍ علىٰ عرشِه كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وأنَّ له وجهًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾

[الرحمن:٢٧]، وأنَّ له يدَينِ بلا كيف كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وأنَّ له عينَين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأنَّ مَن زعَم أنَّ أسماءَ الله غيرُه كان ضالًّا»[(١)]. وذكَر نحوًا ممَّا ذكَر في الفرق، إلىٰ أنْ قالَ: «ونقولُ: إنَّ الإسلامَ أوسعُ مِن الإيمان، وليس كلُّ إسلامٍ إيمانًا، ونَدينُ بأنَّ اللهَ يُقلِّبُ القلوبَ بين إصبعَين مِن أصابعِ الله عَزَّوَجَلَّ[(٢)]، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ يضعُ السَّموات علىٰ أصبعٍ، والأرضِينَ علىٰ أصبع[(٣)]، كما جاءت الرِّوايةُ الصَّحيحةُ عن رسول الله ﷺ»[(٤)].

إلىٰ أنْ قال: «والإيمانُ قولٌ وعملٌ، يزيد وينقصُ، ونُسلِّم الرِّوايات الصَّحيحة عن رسول الله ﷺ، الَّتي رواها الثِّقات عدلًا عن عدْلٍ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ»[(٥)].

إلىٰ أنْ قال: «ونُصدِّق بجميع الرِّوايات الَّتي يُثبتها أهلُ النَّقل من النُّزولِ إلىٰ السَّماء الدُّنيا، وأنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟»[(٦)]، وسائر ما نقلُوه وأثبتُوه، خِلافًا لِمَا قال أهلُ الزَّيغ والتَّضليل.

ونُعوِّلُ فيما اختلَفْنا فيه علىٰ كتاب ربِّنا، وسنَّة نبيِّنا، وإجماع المُسلمين، وما

---

(١) انظر: «الإبانة» للأشعريّ (ص٢٠ - ٢٢ الأنصار).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) بلفظ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٥١)، ومسلم (٢٧٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: «الإبانة» (ص٢٦ - ٢٧).

(٥) انظر: «الإبانة» (ص٢٧).

(٦) سبق تخريجه (ص٧٢٦).

كان في معناه، ولا نَبتدعُ في دينِ الله ما لم يأذنْ لنا به، ولا نقول علىٰ الله ما لا نعلمُ. ونقولُ: إنَّ اللهَ يَجيءُ يومَ القِيامةِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢]، وأنَّ اللهَ يقربُ مِن عبادِه كيف شاءَ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]، وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النَّجم:٨ - ٩]»[(١)].

إلىٰ أن قال: «وسنحتجُّ لمَا ذكرناه من قولنا، وما بقيَ ممَّا لم نذكره بابًا بابًا»[(٢)].

ثمَّ تكلَّم علىٰ أنَّ اللهَ يُرىٰ، واستدلَّ علىٰ ذلك، ثمَّ تكلَّم علىٰ أنَّ القُرآنَ غيرُ مخلوقٍ، واستدلَّ علىٰ ذلك، ثمَّ تكلَّم علىٰ مَن وقَف في القُرآن، وقال لا أقولُ: إنَّه مخلوقٌ ولا غيرُ مخلوقٍ، وردَّ عليه.

ثمَّ قال: «باب في ذكرِ الاستواء علىٰ العرش، فقال: إنْ قالَ قائلٌ: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إنَّ اللهَ مستوٍ علىٰ عرشِه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، وقال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء:١٥٨]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥]، وقال تعالىٰ حكايةً عن فرعونَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧]، كذَّب موسىٰ في قوله: إنَّ الله فوق السَّموات، وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [المُلك:١٦]، فالسَّموات فوقها العرش، فلمَّا كان العرش فوق السَّموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى

---

(١) انظر: «الإبانة» (ص٢٩ - ٣٠).

(٢) انظر: «الإبانة» (ص٣٤).

ﵟٱلسَّمَآءِﵞ؛ لأنَّه مُستوٍ علىٰ العرش الَّذي هو فوق السَّموات، فكلُّ ما علا فهو سماءٌ، فالعرشُ أعلىٰ السَّموات، وليس إذا قال: ﵟءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِﵞ يعني: جميع السَّماء، وإنَّما أراد العرش الَّذي هو أعلىٰ السَّموات؛ ألا ترىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكَر السَّموات فقال: ﵟوَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗاﵞ [نوح:١٦]، ولم يُردْ أنَّ القمرَ يملؤهنَّ، وأنَّه فيهنَّ جميعًا.

ورأينا المُسلمين جميعًا يرفعون أيديَهم إذا دعَوا نحو السَّماء؛ لأنَّ الله علىٰ العرش الَّذي فوق السَّموات، فلولا أنَّ اللهَ علىٰ العرش لم يرفعوا أيديَهم نحوَ العرش، كما لا يحطُّونَها إذا دعَوا إلىٰ الأرض» [(١)].

ثم قال: «فصل: وقد قال قائلون مِن المُعتزلة والجهميَّة والحروريَّة: إنَّ معنىٰ قوله: ﵟٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ﵞ [طه:٥] أنَّه استولىٰ وملك وقهر، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ مكانٍ، وجحدُوا أن يكون الله علىٰ عرشه كما قال أهل الحقِّ، وذهبُوا في الاستواء إلىٰ القُدرة، فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السَّابعة؛ لأنَّ الله قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ. والأرض فالله قادرٌ عليها، وعلىٰ الحشوش، وعلىٰ كلِّ ما في العالم، فلو كان اللهُ مُستويًا علىٰ العرش بمعنىٰ الاستيلاءِ - وهو عَزَّوَجَلَّ مُستولٍ علىٰ الأشياء كلِّها - لكان مُستويًا علىٰ العرش وعلىٰ الأرض وعلىٰ السَّماء وعلىٰ الحشوش والأقذار؛ لأنَّه قادرٌ علىٰ الأشياء، مُستولٍ عليها، وإذا كان قادرًا علىٰ الأشياء كلِّها ولم يجُزْ عند أحدٍ مِن المسلمين أن يقولَ: إنَّ الله مستوٍ علىٰ الحشوش والأخليةِ؛ لم يجُز أنْ يكونَ الاستواءُ علىٰ العرش الاستيلاء، الَّذي هو عامٌّ في الأشياءِ كلِّها، ووجَب أنْ يكونَ معنىٰ

---

(١) انظر: «الإبانة» (ص١٠٥ - ١٠٧).

الاستواءِ يخصُّ العرش دون الأشياء كلِّها»(١). وذكَر دلالات مِن القُرآن والحديث والإجماع والعقل.

ثُمَّ قال: «باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدَين»(٢). وذكر الآيات في ذلك. وردّ على المُتأوِّلين لها بكلامٍ طويلٍ لا يتَّسعُ هذا الموضع لحكايتِه؛ مثل قولِه: «فإنْ سُئلنا: أتقولون: لله يدَانِ؟ قيل: نقولُ ذلك، وقد دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدمَ بِيَدِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَتَهُ»(٣)، وقد جاء في الخبَر المأثورِ عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوبَىٰ بِيَدِهِ»(٤).

وليس يجوزُ في لسان العرَب ولا في عادة أهل الخِطاب أنْ يقول القائلُ: عملتُ كذا بيدي، ويريدُ بها النِّعمة، وإذا كان اللهُ إنَّما خاطب العرَب بلُغتِها، وما يَجرِي مفهومًا في كلامها، ومعقولًا في خطابها، وكان لا يجوزُ في خطاب أهل

---

(١) انظر: «الإبانة» (ص١٠٨ - ١٠٩).

(٢) انظر: «الإبانة» (ص١٢٠ فما بعدها).

(٣) سبق تخريجه (ص٧٣٩).

(٤) لم نجده بهذا اللَّفظِ، لكنْ أخرج البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٦٩٢) من حديث عبد الله بن الحارث عن أبيه مرفوعًا: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ». وقال: مرسلٌ.

وأخرج الآجريُّ في «الشَّريعة» (٧٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٤٤) وصحَّحه، وعنه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٦٩٣) وغيرهم، عن ابن عُمر قال: «خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: الْعَرْشَ، وَجنَّاتِ عَدْنٍ، وَآدَمَ، وَالْقَلَمَ». وقال الذَّهبيُّ في «العلوِّ» (ص١٠٥ - مختصر العلوِّ): «إسنادُه جيِّدٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ علىٰ شرطِ مسلم.

اللِّسان أنْ يقولَ القائلُ: فعلتُ بيدي، ويعني به النِّعمة؛ بطل أن يكون معنَىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بِيَدَيَّ﴾: النِّعمةَ»[1]. وذكر كلامًا طويلًا في تقريرِ هذا ونحوِه.

وقال القاضي أبو بكر محمَّد بن الطَّيِّب الباقلاني[2] المُتكلِّم - وهو أفضل المتكلِّمين المُنتسبين إلىٰ الأشعريّ؛ ليس فيهم مثلُه؛ لا قبلَه ولا بعدَه - قال في كتاب (الإبانة) تصنيفه: «فإنْ قال قائلٌ: فما الدَّليلُ علىٰ أنَّ لله وجهًا ويدًا؟ قيل له قوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] فأثبت لنفسِه وجهًا ويدًا.

فإن قال: فلمَ أنكرْتُم أنْ يكون وجهُه ويدُه جارحةً؛ إذ كنتُم لا تعقلون وجهًا ويدًا إلَّا جارحةً؟! قُلنا: لا يجبُ هذا، كما لا يجبُ إذا لم نعقل حيًّا عالمًا قادرًا إلَّا جِسْمًا أنْ نَقضيَ نحنُ وأنتم بذلك علىٰ اللهِ سبحانه، وكما لا يجبُ في كلِّ شيءٍ كان قائمًا بذاتِه أن يكون جوهرًا؛ لأنَّا لا نجدُ قائمًا بنفسِه في شاهدنا إلَّا كذلك، وكذلك الجواب لهم إنْ قالُوا: فيجبُ أنْ يكونَ علمُه وحياتُه وكلامُه وسمعُه وبصرُه وسائرُ صفاته عرضًا، واعتلُّوا بالوجودِ».

قال: «فإن قال: تقولون: إنَّه في كلِّ مكانٍ؟ قيل له: معاذَ الله! بل هو مستوٍ علىٰ العرش كما أخبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال:

---

(١) انظر: «الإبانة» (ص١٢٥ - ١٢٧).

(٢) قال المُحقِّق (٥٠٨ - ٥٠٩) - باختصار وتصرُّف -: هو العلَّامة الفقيه الأصوليّ المُتكلِّم محمَّد بن الطَّيِّب بن محمَّد البصري البغداديّ المالكيّ، صنَّف في الرَّدِّ علىٰ الرَّافضة والمعتزلة والخوارج والجهميَّة والكرَّامية، وجرت بينه وبين المُعتزلةِ مُناقشاتٌ طويلةٌ في مجلس الخِلافة. يعدّ مِن مُؤسِّسي المذهب الأشعريّ. تُوفِّي سنة (٤٠٣)، له مُصنَّفات منها: (إعجاز القُرآن)، و(التَّمهيد)، و(الإنصاف فيما يجب اعتقاده).

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [المُلك:١٦]. قال: ولو كانَ في كلِّ مكانٍ؛ لكانَ في بطن الإنسان وفمِه والحشوش، والمواضع الَّتي يُرغَب عن ذِكرِها؛ ولوجب أن يزيد بزيادةِ الأمكنةِ إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان؛ ولصحَّ أنْ يرغب إليه إلىٰ نحو الأرض، وإلىٰ خلْفنا، وإلىٰ يَمينِنا، وإلىٰ شمالِنا، وهذا قد أجمعَ المُسلمون علىٰ خلافِه وتخطئةِ قائله».

وقال أيضًا في هذا الكتاب: «صفاتُ ذاته الَّتي لم يَزَلْ ولا يزال مَوصوفًا بها، وهي: الحياةُ والعلمُ والقُدرة والسَّمع والبصرُ والكلامُ والإرادة والبقاءُ والوجه والعينان واليدان والغضب والرِّضا».

وقال في (كتاب التَّمهيد) كلامًا أكثر مِن هذا[1]، وكلامه وكلام غيره من المُتكلِّمين في مثل هذا الباب كثيرٌ لِمَن يَطلُبه، وإنْ كنَّا مُستغنِين بالكتاب والسُّنَّة وآثار السَّلف عن كلِّ كلامٍ.

وملاكُ الأمر أنْ يهبَ اللهُ للعبدِ حِكمةً وإيمانًا بحيثُ يكون له عقلٌ ودينٌ، حتَّىٰ يفهم ويدين، ثمَّ نورُ الكتاب والسُّنَّة يُغنيه عن كلِّ شيءٍ؛ ولكن كثيرٌ مِن النَّاس قد صار مُنتسبًا إلىٰ بعض طوائف المُتكلِّمين، ومُحسنًا للظَّنِّ بهم دون غيرِهم، ومتوهِّمًا أنَّهم حقَّقوا في هذا الباب ما لم يُحقِّقه غيرُهم؛ فلو أُتيَ بكلِّ آيةٍ ما تبعها حتَّىٰ يؤتىٰ بشيءٍ مِن كلامِهم.

ثمَّ هم مَع هذا مخالفون لأسلافهم، غيرُ متَّبعين لهم، فلو أنَّهم أخذُوا بالهدىٰ الَّذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصِّدق في طلَب الحقِّ أن يزدادوا

---

(١) قال المُحقِّق (٥١٢): «انظر: (التَّمهيد) للباقلاني ص٢٩٥ - ٢٩٩».

هدًى، ومَن كان لا يقبلُ الحقَّ إلَّا مِن طائفةٍ مُعيَّنةٍ، ثمَّ لا يَستمسِك بما جاءتْ به مِن الحقِّ ففيه شبَهٌ مِن اليهودِ الَّذين قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة:٩١]، فإنَّ اليهودَ قالُوا: لا نُؤمنُ إلَّا بما أنزل اللهُ علينا، قال الله لهم: فلِمَ قَتلْتُم الأنبياءَ مِن قبلُ إنْ كنتُم مُؤمنين بما أنزل عليكُم، يقول سُبحانه: لا لِما جاءتْكم به أنبياؤكم تتبعون، ولا لِما جاءتكم به سائر الأنبياءِ تتبعُون، ولكن إنَّما تتبعون أهواءكم، فهذا حال مَن لم يتبع الحقَّ؛ لا مِن طائفتِه ولا مِن غيرهم، مع كونِه يتعصَّب لِطائفة دون طائفةٍ بلا بُرهانٍ مِن الله ولا بيانٍ.

وكذلك قال أبو المعالي الجويني[1] في كتاب (الرِّسالة النِّظامية): «اختلفت مسالكُ العُلماءِ في هذه الظَّواهرِ؛ فرأىٰ بعضُهم تأويلَها، والتزمَ ذلك في آيِ الكتاب، وما يصحُّ مِن السُّنن، وذهب أئمَّة السَّلفِ إلىٰ الانكفافِ عن التَّأويل، وإجراءِ الظَّواهرِ علىٰ مواردِها، وتفويض معانيها إلىٰ الرَّبِّ.

قال: والَّذي نرتضيه رأيًا، وندين الله به عقدًا: اتِّباع سلَف الأمَّة، والدَّليل

---

(١) قال المحقِّق (٥١٤) - باختصار -: «عبدُ الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، إمام الحرمَين، تربَّىٰ في حِجر والده وتتلمذ عليه، كان إمامًا في مذهب الشَّافعي، أمَّا في الأصول فمن كبار أئمَّة الأشاعرة، وذكَر الذَّهبيُّ أنَّه رجَع في آخر حياته إلىٰ مذهب السَّلف، يُروىٰ عنه أنَّه قال: (لو استقبلتُ مِن أمري ما استدبرتُ ما اشتغلتُ بالكلام)، ويُروىٰ أيضًا أنَّه قال في مرضِه: (اشهدوا عليَّ أنِّي قد رجعتُ عن كلِّ مقالةٍ تخالف السنَّة، وأنِّي أموتُ علىٰ ما يموت عليه عجائز نيسابور). توفي سنة (٤٧٨)، وكان قد وُلد سنة (٤١٩). مِن مؤلَّفاته: (الإرشاد في أصول الدِّين)، (الشَّامل في أصول الدِّين)، (البُرهان في أصول الفقه)، (لُمع الأدلَّة)، (العقيدة النِّظاميَّة)».

السّمعيّ القاطع في ذلك أنَّ إجماعَ الأمَّة حجَّة متَّبعة، وهو مُستند معظم الشَّريعةِ.
وقد درَج صحبُ رسولِ الله ﷺ علىٰ ترك التعرُّض لمعانيها، ودرْك ما فيها - وهم صفوة الإسلامِ، والمستقلُّون بأعباء الشَّريعة، وكانوا لا يألون جُهدًا في ضبط قواعد الملَّة، والتَّواصي بحِفظِها، وتعليم النَّاس ما يحتاجون إليه منها - فلو كان تأويل هذه الظَّواهر مسوغًا أو محتومًا: لأوشكَ أنْ يكون اهتمامُهم بها فوق اهتمامِهم بفُروع الشَّريعةِ، وإذا انصرمَ عصرُهم وعصرُ التَّابعين علىٰ الإضراب عن التَّأويل؛ كان ذلك هو الوجه المُتَّبع، فحقّ علىٰ ذي الدِّين أنْ يعتقدَ تنزيهَ الله عن صفات المُحدَثين، ولا يخوضُ في تأويلِ المُشكلات، ويَكِلُ معناها إلىٰ الرَّبِّ؛ فليجر آية الاستواء والمجيء وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وما صحَّ مِن أخبار الرَّسول كخبر النُّزول وغيره علىٰ ما ذكرنا»[(١)].

قلتُ: وليعلمْ السَّائلُ أنَّ الغرضَ مِن هذا الجواب ذكرُ ألفاظِ بعضِ الأئمَّة الَّذين نقلُوا مذهبَ السَّلف في هذا الباب، وليس كلُّ مَن ذكرْنا شيئًا مِن قولِه - مِن المُتكلِّمين وغيرِهم - يقولُ بجميع ما نقوله في هذا الباب وغيرِه، ولكن الحقّ يُقبلُ مِن كلِّ مَن تكلَّم به، كان معاذ بن جبل يقول في كلامِه المشهورِ عنه، الَّذي رواه أبو داود في سُننه[(٢)]: «اقبَلُوا الحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ بِهِ؛ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا - أو قال: فَاجِرًا -، وَاحْذَرُوا زَيْغَةَ الحَكِيمِ. قَالُوا: كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ الكَافِرَ يَقُولُ كَلِمَةَ الحَقِّ؟ قَالَ: إِنَّ عَلَىٰ الحَقِّ نُورًا»، أو قال كلامًا هذا معناه.

---

(١) انظر: «العقيدة النظامية في الأركان الإسلاميَّة» للجويني (ص٣٢ - ٣٤المكتبة الأزهرية).

(٢) انظر: «سنن أبي داود» (٤٦١١).

فأمَّا تقريرُ ذلك بالدَّليل، وإماطة ما يعرضُ مِن الشُّبَه، وتحقيقُ الأمر على وجهٍ يخلصُ إلى القلبِ ما يبرد به من اليقين، ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامِهِ؛ فما تتَّسعُ له هذه الفتوى، وقد كتبتُ شيئًا مِن ذلك قبل هذا، وخاطبت ببعض ذلك بعضَ مَن يُجالسُنا، وربَّما أكتبُ - إنْ شاء الله - في ذلك ما يحصل به المقصودُ.

وجماع الأمر في ذلك: أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ يحصلُ منهما كمالُ الهدى والنُّور لمن تدبَّر كتابَ الله وسنَّة نبيِّه، وقصَد اتِّباع الحقِّ، وأعرَض عن تحريفِ الكلِم عن مواضعه، والإلحاد في أسماءِ الله وآياته.

ولا يحسبُ الحاسب أنَّ شيئًا مِن ذلك يُناقضُ بعضُه بعضًا ألبتَّة؛ مثل أنْ يقولَ القائلُ: ما في الكتابِ والسُّنَّة مِن أنَّ الله فوق العرش يُخالفُه الظَّاهر مِن قولِه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ»[(١)]، ونحو ذلك، فإنَّ هذا غلطٌ.

وذلك أنَّ اللهَ معنا حقيقةً، وهو فوق العرش حقيقةً؛ كما جمَع اللهُ بينهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٤]. فأخبر أنَّه فوقَ العرْش يَعلمُ كلَّ شيءٍ، وهو معنا أينما كنَّا؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في حديثِ الأوعالِ: «وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاريّ (٧٥٣)، ومسلم (٥٤٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه (ص٦١٢).

وذلك أنَّ كلمةَ (مع) في اللُّغة إذا أُطلقتْ فليس ظاهرها في اللُّغة إلَّا المُقارنة المُطلقة، مِن غيرِ وجوبِ مُماسَّة أو مُحاذاة عن يمينٍ وشمالٍ، فإذا قُيِّدت بمعنًى مِن المعاني دلَّت علىٰ المُقارنةِ في ذلك المعنىٰ، فإنَّه يُقالُ: ما زِلنا نسيرُ والقمر معنا، أو النَّجم معنا. ويقالُ: هذا المتاعُ معي لمُجامعتِه لك، وإنْ كان فوقَ رأسِك. فاللهُ مع خلْقِه حقيقةً، وهو فوق عَرشِه حقيقةً.

ثمَّ هذه المعيَّة تَختلفُ أحكامُها بحسَب الموارد؛ فلمَّا قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤] دلَّ ظاهر الخطابِ علىٰ أنَّ حُكم هذه المعيَّة ومقتضاها أنَّه مُطَّلعٌ عليكم، شهيدٌ عليكم، ومُهيمنٌ عالمٌ بِكم. وهذا معنىٰ قول السَّلف: إنَّه معهم بعِلْمِه، وهذا ظاهرُ الخطاب وحقيقتُه.

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المُجادلة:٧]، ولمَّا قال النَّبيُّ ﷺ لصاحبه في الغارِ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التَّوبة:٤٠] كان هذا أيضًا حقًّا علىٰ ظاهرِه، ودلَّت الحالُ علىٰ أنَّ حُكمَ هذه المعيَّة هنا - مع الاطِّلاع - النَّصرُ والتَّأييدُ.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النَّحل:١٢٨]، وكذلك قولُه لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه:٤٦]. هنا المعيَّة علىٰ ظاهرها، وحُكمها في هذه المواطن النَّصرُ والتَّأييدُ.

وقد يدخلُ علىٰ صبيٍّ مَن يُخيفُه، فيبكِي، فيُشرفُ عليه أبوه مِن فوقِ السَّقف؛ ويقول: لا تخَفْ، أنا معكَ، أو أنا حاضرٌ، ونحوُ ذلك. يُنبِّهه علىٰ المعيَّة الموجبة بحُكم الحال دفع المكروه؛ ففرقٌ بين معنىٰ المعيَّة وبين مقتضاها،

وربَّما صار مُقتضاها مِن معناها؛ فتختلف باختلافِ المَواضعِ.

فلفظُ (المعيَّة) قد استُعمل في الكتاب والسُّنَّة في مواضع يقتضي في كلِّ موضعٍ أمورًا لا يَقتضِيها في الموضع الآخرِ؛ فإمَّا أنْ تَختلفَ دلالتُها بحسَب المواضع، أو تدلَّ علىٰ قدرٍ مُشتركٍ بين جميع مواردها - وإنْ امتازَ كلُّ موضعٍ بخاصيَّةٍ - فعلىٰ التَّقديرَينِ ليس مُقتضاها أنْ تكون ذات الرَّبِّ مختلطةً بالخلْقِ حتَّىٰ يُقال: قد صُرفتْ عن ظاهرِها.

ونظيرُها مِن بعض الوُجوه (الرُّبوبيَّة) و(العبوديَّة)، فإنَّهما وإن اشتَركتْ في أصل الرُّبوبيَّة والتَّعبيد، فلمَّا قال: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف:١٢١ - ١٢٢] كانتْ ربوبيَّة موسىٰ وهارون لها اختصاصٌ زائدٌ علىٰ الرُّبوبيَّة العامَّة للخلْقِ؛ فإنَّ مَن أعطاهُ اللهُ مِن الكمال أكثر ممَّا أعطىٰ غيرَه فقدْ ربّه وربَّاه، وربوبيَّته وتربيته أكمل مِن غيرِه.

وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان:٦] و﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. فإنَّ العبدَ تارةً يُعنىٰ به المُعبد فيعمُّ الخلقَ كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٣]، وتارةً يُعنىٰ به العابد فيخصّ، ثُمَّ يختلفون فمَن كان أعبدَ علمًا وحالًا كانت عبوديَّته أكملَ؛ فكانت الإضافة في حقِّه أكملَ، مع أنَّها حقيقةٌ في جميعِ المواضع.

ومثلُ هذه الألفاظ يُسمِّيها بعضُ النَّاس (مشكّكة) لِتشكيك المستمع فيها؛ هل هي من قِبل الأسماء المتواطئة، أو من قِبل المُشتركة في اللَّفظ فقط، والمُحقِّقون يعلمون أنَّها ليست خارجةً عن جنس المُتواطئة؛ إذْ واضع اللُّغة إنَّما

وضع اللفظ بإزاء القدْرِ المشترك، وإن كانتْ نوعًا مختصًّا مِن المُتواطئة، فلا بأسَ بتخصيصِها بلفظٍ.

ومَن علِمَ أنَّ (المعيَّة) تضافُ إلىٰ كلِّ نوعٍ مِن أنواع المخلوقات - كإضافة الرُّبوبيَّة مثلًا -، وأنَّ الاستواء علىٰ الشَّيء ليس إلَّا للعرشِ، وأنَّ اللهَ يوصفُ بالعلوِّ والفوقيَّة الحقيقيَّة، ولا يوصف بالسُّفول ولا بالتَّحتيَّة قطّ، لا حقيقةً ولا مجازًا: علِم أنَّ القُرآن علىٰ ما هو عليه مِن غيرِ تحريفٍ.

ثمَّ مَن توهَّم أنَّ كونَ الله في السَّماءِ بمعنىٰ أنَّ السَّماءَ تُحيطُ به وتحويه فهو كاذبٌ - إن نقلَه عن غيرِه -، وضالٌّ - إنْ اعتقدَه في ربِّه -، وما سمعْنا أحدًا يفهمه مِن اللَّفظ، ولا رأَينا أحدًا نقلَه عن أحدٍ، ولو سُئِلَ سائرُ المُسلمين: هل تَفهمُون مِن قول الله تعالىٰ ورسولِه أنَّ اللهَ في السَّماءِ؛ أنَّ السَّماء تحويه؟ لَبادر كلُّ أحدٍ منهم إلىٰ أنْ يقولَ: هذا شيءٌ لعلَّه لم يَخطُر ببالِنا.

وإذا كان الأمر هكذا؛ فمِن التَّكلُّف أن يُجعل ظاهرُ اللَّفظ شيئًا مُحالًا لا يفهمُه النَّاس منه، ثمَّ يُريدُ أنْ يَتأوَّلَه، بل عند المسلمين أنَّ اللهَ في السَّماءِ، وهو علىٰ العرش واحدٌ؛ إذْ السَّماء إنَّما يُراد به العلوّ، فالمعنىٰ أنَّ اللهَ في العلوِّ لا في السّفل وقد علم المُسلمون أنَّ كرسيَّه سُبحانه وسِع السَّموات والأرض، وأنَّ الكُرسيَّ في العرش كحلقة مُلقاةٍ بأرض فلاةٍ، وأنَّ العرش خلقٌ مِن مخلوقاتِ الله لا نسبة له إلىٰ قُدرة الله وعظمته، فكيف يتوهّم بعد هذا أنَّ خلْقًا يحصرُه ويحويه، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وقال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧] بمعنىٰ (علىٰ)، ونحو ذلك، وهو كلامٌ عربيٌّ حقيقةً لا مجازًا، وهذا يعلمُه مَن عرَف حقائق معاني الحروف، وأنَّها متواطئة في الغالب لا مُشتركةٌ.

وكذلك قوله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَإِنَ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ»(١) الحديث حقّ علىٰ ظاهره، وهو سُبحانَه فوقَ العرْشِ، وهو قِبَل وجهِ المُصَلِّي، بل هذا الوصفُ يثبتُ للمَخلوقاتِ؛ فإنَّ الإنسانَ لو أنَّه يُناجي السَّماء، أو يُناجِي الشَّمس والقمر؛ لكانت السَّماء والشَّمس والقَمر فوقَه، وكانتْ أيضًا قِبَلَ وَجهِه.

وقد ضَرَب النَّبيُّ ﷺ المثل بذلك - ولله المثل الأعلىٰ، ولكن المقصود بالتَّمثيل بيانُ جواز هذا وإمكانُه، لا تشبيه الخالق بالمخلوق -، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَرَىٰ رَبَّهُ مُخْلِيًا بِهِ». فقال له أبو رزين العقيليّ: كيف يا رسولَ الله، وهو واحدٌ ونحن جميعٌ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «سَأُنَبِّئُكَ مَثَلَ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللهِ، هَذَا الْقَمَرُ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مَخْلِيًا بِهِ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ؛ فَاللهُ أَكْبَرُ» أو كما قال النَّبيُّ ﷺ(٢)، وقال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»(٣)؛ فشبَّه الرُّؤيةَ بالرُّؤيةَ، وإنْ لم يكن المَرئيُّ مُشابهًا للمَرئيِّ، فالمؤمنون إذا رأَوا ربَّهم يومَ القيامة وناجَوه كلٌّ يراه فوقه قِبل وجهِه؛ كما يرىٰ الشَّمسَ والقمرَ، ولا مُنافاةَ أصلًا.

ومَن كان له نصيبٌ مِن المَعرفةِ باللهِ والرُّسوخِ في العِلْمِ بالله يكونُ إقرارُه بالكتاب والسُّنَّة علىٰ ما هما عليه أوكدَ.

واعلمْ أنَّ مِن المُتأخِّرين من يقولُ: مذهبُ السَّلف إقرارُها علىٰ ما جاءتْ به مع اعتقادِ أنَّ ظاهرَها غيرُ مرادٍ، وهذا لفظٌ مجملٌ؛ فإنَّ قولَه: ظاهرُها غيرُ مرادٍ،

(١) سبق تخريجه (ص٧٥٣).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، بلفظ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ»، من حديث جرير البجلي رضي الله عنه.

يحتملُ أنَّه أراد بالظَّاهر نعوتَ المَخلوقين وصفات المحدثين؛ مثل أن يراد بكون الله قِبَل وجهِ المُصلِّي أنَّه مستقرٌّ في الحائط الَّذي يُصلِّي إليه، وأنَّ اللهَ معنا ظاهره أنَّه إلىٰ جانبنا، ونحو ذلك؛ فلا شكَّ أنَّ هذا غيرُ مُرادٍ.

ومَن قال: إنَّ مذهبَ السَّلفِ أنَّ هذا غيرُ مُرادٍ؛ فقد أصاب في المعنىٰ، لكن أخطأ في إطلاقِ القولِ بأنَّ هذا هو ظاهرُ الآيات والأحاديثِ؛ فإنَّ هذا هو المحالُ ليس هو الأظهر علىٰ ما قد بيَّناه في غير هذا الموضع. اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكون هذا المعنىٰ الممتنع صار يظهر لبعض النَّاس، فيكون القائل لذلك مُصيبًا بهذا الاعتبار، معذورًا في هذا الإطلاقِ.

فإنَّ الظُّهور والبطون قد يختلفُ باختلافِ أحوال النَّاس، وهو مِن الأمور النِّسبيَّة. وكان أحسن مِن هذا أنْ يُبيِّن لمَن اعتقدَ أنَّ هذا هو الظَّاهر: أنَّ هذا ليس هو الظَّاهر، حتَّىٰ يكون أعطىٰ كلام الله وكلام رسوله حقَّه لفظًا ومعنًىٰ.

وإن كان النَّاقلُ عن السَّلف أراد - بقوله: الظَّاهر غير مُرادٍ عندهم - أنَّ المعاني الَّتي تظهرُ مِن هذه الآيات والأحاديث ممَّا يليقُ بجلال الله وعظمته، ولا يختصُّ بصفة المخلوقين، بل هي واجبةٌ لله، أو جائزة عليه جوازًا ذهنيًّا، أو جوازًا خارجيًّا غير مراد، فقد أخطأ فيما نقله عن السَّلف أو تعمَّد الكذب؛ فما يمكن أحد قطّ أنْ ينقلَ عن واحدٍ مِن السَّلف ما يدلُّ - لا نصًّا ولا ظاهرًا - أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ اللهَ ليس فوقَ العرْشِ، ولا أنَّ اللهَ ليس له سمعٌ ولا بصرٌ ولا يدٌ حقيقةً.

وقد رأيتُ هذا المعنىٰ يَنتحلُه بعضُ مَن يَحكِيه عن السَّلف، ويقولُ: إنَّ طريقةَ أهل التَّأويل هي - في الحقيقة - طريقة السَّلف، بمعنىٰ أنَّ الفريقين اتَّفقوا علىٰ أنَّ هذه الآيات والأحاديث لم تدلّ علىٰ صفات الله سبحانه، ولكن السَّلف

أمسكُوا عن تأويلِها، والمتأخِّرون رأَوا المصلحة تأويلها؛ لِمَسيس الحاجة إلىٰ ذلك، ويقول: الفرقُ أنَّ هؤلاء يعيِّنون المراد بالتَّأويل، وأولئك لا يعينون لجواز أنْ يُراد غيرُه.

وهذا القولُ علىٰ الإطلاق كذبٌ صريحٌ علىٰ السَّلف؛ أمَّا في كثيرٍ مِن الصِّفات فقطعًا، مثل أنَّ اللهَ فوقَ العرش، فإنَّ مَن تأمَّل كلام السَّلف المنقول عنهم - الَّذي لم يحك هنا عُشره - علم بالاضطرار أنَّ القومَ كانوا مصرِّحين بأنَّ اللهَ فوق العرش حقيقةً، وأنَّهم ما اعتقدوا خلاف هذا قطّ، وكثيرٌ منهم قد صرَّح في كثيرٍ مِن الصِّفات بمثل ذلك.

واللهُ يعلمُ أنِّي بعد البحث التَّامِّ، ومطالعة ما أمكنَ مِن كلام السَّلف، ما رأيتُ كلام أحدٍ منهم يدلُّ - لا نصًّا ولا ظاهرًا ولا بالقرائن - علىٰ نفي الصِّفات الخبريَّة في نفس الأمر، بل الَّذي رأيته أنَّ كثيرًا مِن كلامِهم يدلُّ - إمَّا نصًّا، وإمَّا ظاهرًا - علىٰ تقرير جنس هذه الصِّفات، ولا أنقُل عن كلِّ واحدٍ منهم إثبات كلِّ صفةٍ، بل الَّذي رأيتُه أنَّهم يُثبتون جِنسَها في الجُملة؛ وما رأيتُ أحدًا منهم نفاها. وإنَّما ينفون التَّشبيه، ويُنكرون علىٰ المشبِّهة الَّذين يُشبِّهون اللهَ بخلقِه؛ مع إنكارِهم علىٰ مَن نفىٰ الصِّفات؛ كقولِ نُعيم بن حمَّاد الخزاعي -شيخ البخاري-: «مَن شبَّه اللهَ بخلْقِه فقدْ كفَر، ومَن جحدَ ما وصفَ الله به نفسَه فقدْ كفَر، وليس ما وصَف اللهُ به نفسَه ولا رسوله تشبيهًا»[1].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٣٦ - شرح أصول الاعتقاد)، وأبو نصر الغازي في جزءٍ من أماليه (٢٤٨برقم١٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٦٣)، والذَّهبيُّ في «العلوِّ» (ص١٧٢)، وفي «السِّير» (١٠/ ٦١٠)، وصحَّحه (١٣/ ٢٩٩)، ووافقه الألبانيُّ في «مُختصرِ العُلوِّ» (ص١٨٤).

وكانوا إذا رأوا الرَّجل قد أغرقَ في نفي التَّشبيه مِن غير إثباتِ الصِّفات قالُوا: هذا جهميٌّ مُعطِّلٌ؛ وهذا كثيرٌ جدًّا في كلامِهم؛ فإنَّ الجهميَّة والمعتزلةَ إلىٰ اليوم يسمُّون مَن أثبتَ شيئًا مِن الصِّفات مُشبِّهًا - كذبًا منهم وافتراءً - حتَّىٰ إنَّ منهم مَن غلا، ورمىٰ الأنبياءَ صلواتُ الله وسلامه عليهم بذلك، حتَّىٰ قال ثُمامة بن أشرس[1] مِن رؤساء الجهميَّة: «ثلاثةٌ من الأنبياء مُشبِّهة؛ موسىٰ حيثُ قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وعيسىٰ حيثُ قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، ومحمَّد حيثُ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»[2]»[3].

وحتَّىٰ إنَّ جُلَّ المعتزلة تُدخِلُ عامَّة الأئمَّة: مثل مالكٍ وأصحابه، والثَّوريّ وأصحابه، والأوزاعيّ وأصحابه، والشَّافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وغيرهم؛ في قسْم المُشبِّهة.

وقد صنَّف أبو إسحاق إبراهيمُ بن عُثمان بن درباس[4] الشَّافعي جزءًا

---

(١) قال المُحقِّق (ص٥٣٢) - باختصار -: «أبو معن النّميريّ البصريّ، مِن كبار المُعتزلة، بل مِن غُلاتهم، تروىٰ عنه بعضُ الأقوال الجسيمة؛ كقوله: المُقلِّدون مِن أهل الكتاب وعبدة الأوثان لا يدخلون النَّار، بل يصيرون ترابًا، أمَّا مَن مات مُسلمًا وهو مصرٌّ علىٰ كبيرته خلِّد في النَّار، وأنَّ أطفالَ المُؤمنين يصيرون تُرابًا، إلىٰ غير ذلك مِن الأقوال الشَّنيعةِ. قال ابن قُتيبةَ: (ثُمَّ نصير إلىٰ ثُمامة، فنجده من رقَّة الدِّين ونقص الإسلام، والاستهزاء به، وإرساله لسانه علىٰ ما لا يكون علىٰ مثله رجل يعرف الله ويُؤمن به). وقال ابنُ حجر: (مِن كبار المُعتزلة، ومِن رؤوس الضَّلالة). تُوفِّي سنة (٢١٣)، وإليه تُنسبُ فرقةُ الثّماميَّة مِن كبار فرَق المُعتزلة».

(٢) انظر: (ص٧٢٦).

(٣) قال المحقِّق (ص٥٣٣): «قولُ ثمامة بن أشرس لم أعثر عليه، وبمعناه رُوي عن ابن أبي دؤاد، ذكره الذَّهبيُّ في «العلوّ» (ص١٤٠) من طريق ابن أبي حاتم في كتابه (الرَّدّ علىٰ الجهميَّة)».

(٤) قال المُحقِّق (ص٥٣٣): «إبراهيم بن عُثمان بن عيسىٰ بن درباس، أبو إسحاق، جلال الدِّين الماراني الكردي المصري، قال عنه الذَّهبيُّ: (كان عارفًا بمذهب الشَّافعي... وكان خيِّرًا صالحًا زاهدًا قانعًا مُقلًّا =

أسماه: (تنزيه أئمَّة الشَّريعة عن الألقاب الشَّنيعة)، وذكر فيه كلام السَّلف وغيرهم من معاني هذه الألقاب، وذكَر أنَّ أهلَ البدَع كلَّ صنفٍ منهم يُلقِّبُ أهلَ السُّنَّة بلقبٍ افتراهُ، يزعم أنَّه صحيحٌ على رأيه الفاسدِ، كما أنَّ المُشركين كانُوا يُلقِّبون النَّبيَّ ﷺ بألقابٍ افترَوها؛ فالرَّوافضُ تُسمِّيهم نواصبَ، والقدريَّة يُسمُّونهم مُجبرةً، والمُرجئة يسمُّونهم شكاكًا، والجهميَّة تُسمِّيهم مُشبِّهةً، وأهلُ الكلام يُسمُّونهم حشويَّةً ونوابت وغُثاءً وغثرًا، إلىٰ أمثال ذلك، كما كانتْ قُريشٌ تُسمِّي النَّبيَّ ﷺ تارةً مَجنونًا، وتارةً شاعرًا، وتارةً كاهنًا، وتارةً مُفتريًا.

قالُوا: فهذه علامة الإرث الصَّحيح والمُتابعة التَّامة، فإنَّ السُّنَّة هي ما كان عليه رسولُ الله ﷺ اعتقادًا واقتصادًا، وقولًا وعملًا؛ فكما أنَّ المُنحرفين عنه يُسمُّونه بأسماءٍ مذمومةٍ مكذوبةٍ - وإن اعتقدوا صدْقها بناءً علىٰ عقيدتِهم الفاسدةِ - ؛ فكذلك التَّابعون له علىٰ بصيرةٍ، الَّذين هم أولىٰ النَّاس به في المحيا والممات؛ باطنًا وظاهرًا.

وأمَّا الَّذين وافقوا ببواطنهم، وعجزوا عن إقامة الظَّواهر، والَّذين وافقوه بظواهرهم، وعجزوا عن تحقيق البواطن، أو الَّذين وافقوه ظاهرًا وباطنًا بحسَب الإمكان: فلا بدَّ للمُنحرفين عن سُنَّتِه أنْ يعتقدُوا فيها نقصًا يذمُّونهم به، ويُسمُّونهم بأسماءٍ مكذوبةٍ - وإن اعتقدُوا صِدْقها - ؛ كقول الرَّافضيِّ: مَن لم يُبغض أبا بكر وعُمر فقد أبغضَ عليًّا؛ لأنَّه لا ولاية لِعليٍّ إلَّا بالبراءةِ منهما، ثمَّ يجعلُ مَن أحبَّ أبا بكر وعُمرَ ناصبيًّا؛ بناءً علىٰ هذه المُلازمة الباطلة، الَّتي

=

مُقبلًا علىٰ شأنه). توفي بين الهند واليمن سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وله خمسون سنة».

اعتقدوها صحيحةً، أو عاندوا فيها وهو الغالبُ.

وكقول القدري: مَن اعتقدَ أنَّ اللهَ أراد الكائنات، وخلق أفعال العباد؛ فقد سلَبَ العباد القُدرة والاختيار، وجعلَهم مجبورِين كالجماداتِ الَّتي لا إرادةَ لها ولا قُدرةَ.

وكقولِ الجهميِّ: مَن قال: إنَّ اللهَ فوق العرش: فقد زعَم أنَّه محصورٌ، وأنَّه جسمٌ مركَّبٌ، وأنَّه مُشابهٌ لِخلقهِ.

وكقول الجهميَّة والمُعتزلة: مَن قال: إنَّ لله علمًا وقُدرةً؛ فقد زعَم أنَّه جسمٌ مركَّبٌ، وهو مُشبِّهٌ؛ لأنَّ هذه الصِّفات أعراضٌ، والعرضُ لا يقومُ إلَّا بجوهرٍ مُتحيِّزٍ، وكلُّ مُتحيِّزٍ فجسمٌ مركَّبٌ، أو جَوهرٌ فردٌ، ومَن قال ذلك فهو مُشبِّهٌ؛ لأنَّ الأجسامَ مُتماثلةٌ.

ومَن حكىٰ عن النَّاس (المقالات)، وسمَّاهم بهذه الأسماء المكذوبة - بناءً علىٰ عقيدتهم الَّتي هم مخالفون له فيها - فهو وربّه، واللهُ مِن ورائِه بالمرصاد، ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهلِه.

وجماعُ الأمر: أنَّ الأقسام المُمكنةَ في آيات الصِّفات وأحاديثها ستَّة أقسام، كلُّ قسمٍ عليه طائفةٌ مِن أهل القِبلةِ؛ قسمان يقولان: تجرىٰ علىٰ ظواهرها. وقسمان يقولان: هي علىٰ خلاف ظاهرها. وقسمان يسكتون.

أمَّا الأوَّلان: فقسمان:

أحدهما: مَن يُجريها علىٰ ظاهرها، ويجعل ظاهرها مِن جنس صفات المخلوقين؛ فهؤلاء المُشبِّهة، ومذهبهم باطلٌ، أنكره السَّلف، وإليه توجَّه الرَّدّ بالحقِّ.

والثَّاني: مَن يُجريها علىٰ ظاهرِها اللَّائقِ بجلالِ الله؛ كما يجرىٰ ظاهرُ اسم

العليم والقدير والرَّبّ والإله والموجود والذَّات ونحو ذلك؛ علىٰ ظاهرها اللَّائق بجلال الله؛ فإنَّ ظواهر هذه الصِّفات في حقِّ المخلوقين: إمَّا جوهر مُحدث، وإمَّا عرض قائمٌ به؛ فالعلمُ والقُدرةُ والكلام والمشيئةُ والرَّحمةُ والرِّضا والغضبُ ونحو ذلك في حقِّ العبد أعراض؛ والوجُه واليدُ والعينُ في حقِّه أجسام.

فإذا كان الله موصوفًا عند عامَّة أهل الإثباتِ بأنَّ له عِلمًا وقُدرةً وكلامًا ومَشيئةً - وإن لم يكن ذلك عرضًا؛ يجوزُ عليه ما يجوزُ علىٰ صفات المَخلوقِين - جاز أنْ يكون وجه الله ويداه ليست أجسامًا يجوز عليها ما يجوز علىٰ صفاتِ المَخلوقِين.

وهذا هو المذهبُ الَّذي حكاه الخطَّابيُّ وغيرُه من السَّلف، وعليه يدلُّ كلامُ جُمهورِهم، وكلام الباقين لا يُخالفُه، وهو أمرٌ واضحٌ؛ فإنَّ الصِّفات كالذَّات، فكما أنَّ ذاتَ اللهِ ثابتةٌ حقيقةً مِن غيرِ أنْ تكونَ مِن جنس المخلوقاتِ؛ فصفاتُه ثابتةٌ حقيقةً مِن غير أنْ تكونَ مِن جنس صفاتِ المخلوقات.

فمَن قال: لا أَعقلُ علْمًا ويدًا إلَّا مِن جنسِ العلْمِ واليدِ المَعهودَين. قيل له: فكيف تعقلُ ذاتًا مِن غير جنس ذوات المخلوقين؟! ومِن المعلوم أنَّ صفات كلِّ موصوفٍ تُناسبُ ذاتَه، وتُلائمُ حقيقتَه؛ فمَن لم يفهمْ مِن صِفاتِ الرَّبِّ - الَّذي ليس كمثلِه شيءٌ - إلَّا ما يُناسبُ المخلوقَ فقدْ ضلَّ في عقلِه ودينِه.

وما أحسنَ ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهميُّ: كيف استوىٰ؟ وكيف ينزل إلىٰ السَّماء الدُّنيا؟ وكيف يداه؟ ونحو ذلك، فقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال لك: لا يعلمُ ما هو إلَّا هو، وكنه الباري غيرُ مَعلومٍ للبشرِ. فقل له: فالعلم بكيفيَّة الصِّفة مُستلزمٌ للعلم بكيفيَّة الموصوفِ؛ فكيف يمكن أنْ تعلمَ كيفيَّة صفةِ الموصوف، ولم تعلمْ كيفيَّته، وإنَّما تعلم الذَّات والصِّفات من حيثُ الجملة

علىٰ الوجه الَّذي ينبغي له. بل هذه المخلوقات في الجنَّة قد ثبَت عن ابن عبَّاس أنَّه قال: «لَيْسَ فِي الجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءُ»(١).

وقد أخبر الله: أنَّه لا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم مِن قرَّة أعيُنٍ، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ في الجنَّةِ «مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»(٢).

فإذا كان نعيمُ الجنَّة، وهو خلقٌ مِن خلْقِ الله كذلك، فما الظَّنُّ بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الرُّوح الَّتي في بني آدم قد علِم العاقلُ اضطرابَ النَّاس فيها، وإمساك النُّصوص عن بيان كيفيَّتها؛ أفلا يعتبرُ العاقل بها عن الكلام في كيفيَّة الله تعالىٰ؟ مع أنَّا نقطعُ بأنَّ الرُّوحَ في البدَن، وأنَّها تخرجُ منه وتعرجُ إلىٰ السَّماءِ، وأنَّها تسلُّ منه وقت النَّزع، كما نطقت بذلك النُّصوص الصَّحيحة، لا نُغالي في تجريدها غلوَّ المُتفلسفةِ ومَن وافقهم؛ حيث نفَوا عنها الصُّعود والنُّزول، والاتِّصال بالبدن، والانفصال عنه، وتخبَّطوا فيها حيث رأَوها مِن غير جنس البدَن وصفاته، فعدم مُماثلتها للبَدن لا ينفِي أنْ تكون هذه الصِّفات ثابتةً لها بحسَبها، إلَّا أنْ يُفسِّروا كلامهم بما يُوافقُ النُّصوصَ؛ فيكونون قد أخطؤوا في اللَّفظِ، وأنَّىٰ لهم بذلك؟

ولا نقول: إنَّها مجرَّد جزءٍ مِن أجزاءِ البدَن كالدَّم والبُخارِ مثلًا؛ أو صفة من صفاتِ البدَنِ والحياة، وأنَّها مختلفةُ الأجساد، ومساويةٌ لسائر الأجساد في الحدِّ والحقيقةِ؛ كما يقول طوائف مِن أهل الكلامِ، بل نتيقَّن أنَّ الرُّوح عينٌ موجودةٌ

---

(١) أخرجه هنَّاد في «الزُّهد» (٣و٨الفريوائي)، والطَّبريُّ في «تفسيره» (١/٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/٦٦ الباز)، وأبو نُعيم في «صفة الجنَّة» (١٢٤المأمون)، والبيهقيُّ في «البعث والنّشور» (٣٣٢حيدر)، وصحَّحه الألبانيُّ في «السّلسلة الصَّحيحة» (٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٢٤٤)، ومُسلمٌ (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

غيرُ البدن، وأنَّها ليستْ مماثلة له، وهي موصوفةٌ بما نطقت به النُّصوص حقيقة لا مجازًا، فإذا كان مَذهبُنا في حقيقةِ الرُّوح وصفاتها بين المُعطِّلة والممثِّلة؛ فكيف الظَّنُّ بصفاتِ ربِّ العالمين؟

وأمَّا القسمان اللَّذان ينفيان ظاهرها؛ أعني الَّذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلولٌ هو صفة الله تعالىٰ قطّ، وأنَّ اللهَ لا صفةَ له ثبوتيَّة؛ بل صفاته إمَّا سلبيَّة، وإمَّا إضافيَّة، وإمَّا مركَّبة منهما، أو يثبتون بعض الصِّفات - السَّبعة أو الثَّمانية أو الخمس عشرة -، أو يُثبتون الأحوال دون الصِّفاتِ، كما قد عُرف مِن مذاهبِ المُتكلِّمين. فهؤلاء قسمان: قسمٌ يتأوَّلونها ويعينون المرادَ مثل قولهم: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، أو بمعنىٰ علوّ المكانة والقدْر، أو بمعنىٰ ظُهور نُورِه للعرش، أو بمعنىٰ انتهاء الخلْق إليه، إلىٰ غيرِ ذلك من معاني المُتكلِّفين. وقسم يقولون: الله أعلمُ بما أراد بها، لكنَّا نعلمُ أنَّه لم يرد إثبات صفةٍ خارجة عمَّا علِمْنا.

وأمَّا القسمان الواقفان:

فقسمٌ يقولون: يجوزُ أنْ يكون المرادُ ظاهرَها الأليق بجلال الله، ويجوز أنْ لا يكون المُرادُ صفةَ الله ونحو ذلك، وهذه طريقةُ كثيرٍ مِن الفُقهاء وغيرهم.

وقوم يُمسكون عن هذا كلِّه، ولا يزيدون علىٰ تلاوةِ القُرآن، وقراءة الحديث، مُعرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التَّقديراتِ.

فهذه الأقسامُ السِّتَّة لا يمكن أنْ يخرج الرَّجل عن قسمٍ منها.

الصَّوابُ في كثيرٍ مِن آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها القطعُ بالطَّريقة الثَّابتة كالآيات والأحاديث الدَّالَّة علىٰ أنَّ اللهَ سبحانه فوق عرشِه، وتُعلمُ طريقة الصَّواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسُّنَّة والإجماع علىٰ ذلك؛ دلالة لا

تحتملُ النَّقيض، وفي بعضها قد يغلبُ على الظَّنِّ ذلك مع احتمال النَّقيض، وتردّد المؤمن في ذلك هو بحسَب ما يؤتاه مِن العلم والإيمان، ومَن لم يجعل اللهُ له نُورًا فما له مِن نُورٍ.

ومَن اشتبهَ عليه ذلك أو غيره فليدعُ بما رواه مُسلم في صحيحه[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وفي رواية لأبي داود[2]: أنَّه كان يُكبِّر في صلاتِه، ثُمَّ يقول ذلك.

فإذا افتقرَ العبدُ إلىٰ الله ودعاه، وأدمَنَ النَّظر في كلامِ الله وكلامِ رسولِه وكلام الصَّحابةِ والتَّابعين وأئمَّة المسلمين؛ انفتح له طريق الهُدىٰ.

ثُمَّ إنْ كان قد خبَرَ نهايات إقدام المتفلسفة والمُتكلِّمين في هذا الباب، وعرَف غالب ما يزعمونه بُرهانًا وهو شُبهةٌ، ورأىٰ أنَّ غالبَ ما يعتمدونه يؤول إلىٰ دعوىٰ لا حقيقةَ لها؛ أو شُبهة مركَّبة مِن قِياسٍ فاسدٍ، أو قضيَّة كُلِّيَّة لا تصلحُ إلَّا جُزئيَّة، أو دعوىٰ إجماعٍ لا حقيقةَ له؛ أو التَّمسُّك في المذهب والدَّليل بالألفاظ المُشتركة.

ثُمَّ إنَّ ذلك إذا ركب بألفاظٍ كثيرةٍ طويلةٍ غريبةٍ عمَّن لم يعرف اصطلاحهم - أوهمت الغرّ ما يوهمه السّراب للعطشان - ؛ ازداد إيمانًا وعلمًا بما جاء به

(١) رقم (٧٧٠).

(٢) رقم (٧٦٨).

الكتاب والسُّنَّة، فإنَّ الضِّدَّ يظهر حسن الضِّدِّ، وكلُّ مَن كان بالباطل أعلم كان للحقِّ أشدّ تعظيمًا، وبقدره أعرف.

فأمَّا المُتوسِّطون مِن المُتكلِّمين فيخاف عليهم ما لا يخافُ علىٰ مَن لم يدخلْ فيه، وعلىٰ مَن قد أنهاه نهايته، فإنَّ مَن لم يدخلْ فيه فهو في عافيةٍ، ومَن أنهاه فقد عرَف الغاية، فما بقي يخاف مِن شيءٍ آخرَ، فإذا ظهر له الحقُّ، وهو عطشان إليه قبله، وأمَّا المتوسِّط فمتوهِّم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليدًا لِمعظمه وتهويلًا، وقد قال النَّاسُ: أكثر ما يفسدُ الدُّنيا: نصفُ متكلِّم، ونصف مُتفقِّه، ونصفُ متطبِّب، ونصف نحويّ، هذا يُفسد الأديان، وهذا يُفسد البلدان، وهذا يُفسد الأبدان، وهذا يُفسد اللِّسان.

ومَن علِم أنَّ المُتكلِّمين من المُتفلسفة وغيرهم في الغالب في ﴿قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذَّاريات:٨ - ٩] يعلم الذَّكيُّ منهم العاقلُ: أنَّه ليس هو فيما يقوله علىٰ بصيرةٍ، وأنَّ حجَّته ليست بيِّنةً، وإنَّما هي كما قيل فيها:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا ... حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورٌ[1]

ويعلمُ العليمُ البصيرُ بهم أنَّهم مِن وجهٍ مُستحقُّون ما قاله الشَّافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ قال: «حُكْمِي في أهلِ الكَلامِ أنْ يُضرَبوا بالجَريدِ والنِّعالِ، ويُطافُ بهم في القَبائلِ والعَشائرِ، ويقالُ: هذا جَزاءُ مَن ترَكَ الكتابَ والسُّنَّة، وأَقْبلَ علىٰ الكَلامِ»[2].

ومِن وجهٍ آخَر إذا نظرتَ إليهم بعين القدر - والحيرة مستوليةٌ عليهم، والشَّيطان مستحوذٌ عليهم - رحمتَهم وترفقتَ بهم، أُوتوا ذكاءً، وما أُوتوا زكاءً،

---

(١) نسبه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨) للخطَّابي.

(٢) سبق تخريجه (ص٦٠٦).



وأُعطوا فُهومًا، وما أُعطوا عُلومًا، وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

ومَن كانَ عليمًا بهذه الأمورِ تبيَّن له بذلك حذقُ السَّلف وعلمُهم وخبرتُهم؛ حيثُ حذَّروا عن الكلام، ونهَوا عنه، وذمُّوا أهلَه وعابُوهم، وعلِمَ أنَّ مَن ابتغى الهُدىٰ في غير الكتاب والسُّنَّة لم يَزدَدْ إلَّا بُعدًا.

فنسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يهدِيَنا صراطَه المُستقيمَ، صراطَ الَّذين أنعمَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين، آمين.





الفهرس

